مركز دراسات الوحدة العربية
مؤسسة عبد الحميد شومان

الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق

المجلد الأول

الأعمال الفكرية العامة

للدكتور قسطنطين زريق

كلمة شكر

يشكر مركز دراسات الوحدة العربية
مؤسسة عبد الحميد شومان
على تمويلها نفقات المركز في طبع وإصدار
الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق.
إلا أنّ المركز، وحدَه، يتحمل
مسؤولية طبع هذه الأعمال ونشرها.

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
زريق، قسطنطين
الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق/ قسطنطين زريق.
٤ مج.
١. زريق، قسطنطين. ٢. مؤلفات كاملة. أ. العنوان.
808.84

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ - لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز
الطبعة الأولى: بيروت، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤
الطبعة الثانية: بيروت، آب/أغسطس ١٩٩٦
الطبعة الثالثة: بيروت، كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

يسعدني أن أؤكد عميق شكري لمؤسسة **عبد الحميد شومان** التي رعت مشروع نشر هذه المجموعة الكاملة لمؤلفاتي الفكرية العامة وموّلته.

وأن أؤكد عميق شكري لـ **مركز دراسات الوحدة العربية** الذي قام بأعباء الطبع والنشر.

ويسرّني أن أنوّه بقسم التحرير في هذا المركز، على الجهود الفائقة التي بُذلت في تحقيق النصوص وتحرّي الاتقان في كل وجهٍ من وجوه هذا العمل.

قسطنطين زريق

تُنشر كتب الدكتور قسطنطين زريق في هذه الطبعة وفق ما جاءت في طبعتها الأولى، إذا لم تجدّد، وفي طبعتها الأخيرة إذا ما جُدّدت.

ولم يحاول المؤلف تجديدها لهذه الطبعة، حرصا منه على أن يطالعها القارئ في نطاق المرحلة التي كُتبت فيها.

المحتويات(*)

مقدمة .... ١١ ـ ٤٩

- الوعي القومي

نظرات في الحياة القومية المتفتّحة في الشرق العربي .... ٥٥ ـ ١٩٠

- معنى النكبة .... ١٩٥ ـ ٢٦٠

- أيّ غد؟

دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوّة .... ٢٦٥ ـ ٣٦٦

- نحن والتاريخ

مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ

وصنع التاريخ .... ٣٧٣ ـ ٥٥١

فهرس المجلد الأول .... ٥٥٣ ـ ٥٦٠

(*) يتضمن هذا المجلد، وهو **الأول** من أربعة مجلدات، **أربعة كتب** من أصل تسعة. وقد تم ترتيبها وفق صدورها التاريخي، للطبعة الأولى من كل كتاب. أما مقالات المؤلف بالانكليزية والعربية التي صدرت لاحقاً، أو لم تتضمنها تلك الكتب فقد اندرجت كلها في المجلد الرابع، تحت عنوان: **من بعيد... ومن قريب**.

وقد اعتمدنا ترقيمين: **الترقيم الأول** في وسط ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد، ضمن المجلد. ولكل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة ترقيم خاص بعدد صفحاته. **والترقيم الثاني** في يسار ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي **رقم أحادي** مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة الكاملة.

مقدمة

ـ ١ ـ

هي ذي كتاباتي الفكرية العامة تصدر بشكل شامل (عدا بعض المقالات التي أهملتها بعد إعادة النظر فيها) بفضل مؤسسة عبد المجيد شومان في عَمّان التي كان لي شرف المشاركة في أعمالها عضواً في مجلس إدارتها منذ تأسيسها عام ١٩٧٨، والتي تمضي بعزم متصل وتقدم مرموق في أداء مهمتها في تعزيز الثقافة العربية بشتى الوسائل. فإلى رئيس مجلس إدارة هذه المؤسسة السيد عبد المجيد شومان وزملائه أعضاء المجلس، وإلى مدير المؤسسة العام الدكتور أسعد عبد الرحمن ومعاونيه، أخلص الشكر والتقدير لاهتمامهم بهذه المؤلفات وتعهدهم نشرها بهذا الشكل. ويسرني أن أتوجه بالتحية والشكر أيضاً إلى النادي الثقافي العربي في بيروت بشخص رئيسه نائب بيروت المهندس محمد قباني لمبادرته إلى التفكير بهذا المشروع، وإلى مركز دراسات الوحدة العربية بشخص مديره العام الدكتور خير الدين حسيب الذي أيد هذه البادرة وسعى إلى تحقيقها وأشرف على إنجازها. ولهذه المؤسسات الثلاث مكانتها العزيزة والرفيعة في قلبي لما كان لي من حظ المساهمة في إنشاء بعضها أو في المشاركة في أنشطتها، ولما أشعر به من ارتياح وغبطة في متابعة جهودها الدؤوبة ونتاجها المتزايد في مجالات الفكر والثقافة وسواها من وجوه النهوض القومي المرتجى.

ولقد رُبطت في الأصل فكرة جمع هذه المؤلفات ونشرها بالرغبة الكريمة التي أبداها أركان المؤسسات الثلاث وغيرهم من الزملاء والأصدقاء في «تكريمي» تقديراً لنتاجي العلمي والتعليمي طوال خمسة عقود أستاذاً جامعياً وكاتباً وعاملاً في الحقول

الفكرية التي تهم المجتمع العربي في هذه الفترة الحاسمة من تاريخه. وكنت دوماً أتردد في الموافقة على ذلك اعتباراً مني أني لم أقم بأكثر من واجبي ـ بل لعلي لم أرتفع إلى مستوى هذا الواجب ـ في زمن تتضخم فيه المسؤوليات ويدعى الأفراد والجماعات إلى بذل أقصى الجهود في مجابهة الأخطار الخارجية والداخلية التي يتعرض لها الكيان القومي، وفي مرحلة تُقدم فيها قوافل المناضلين العرب على التضحية بأرواحهم وبأعز ما يملكون أو على تحمل شر أنواع الاضطهاد والعذاب دفاعاً عن أرضهم وتراثهم ومصيرهم من قوى الاغتصاب الخارجية أو صوناً لحقوقهم الوطنية والإنسانية التي تنتهكها السلطات الحاكمة. وكلما قابلت ما قمت به بما يقوم به هؤلاء وأولئك، صغرتُ في عين نفسي وتضاءل نتاجي في نظري. ولكن العاطفة الكريمة التي أسبغها عليّ من لهم في قلبي منزلة سامية، والاهتمام الذي ما يزال يبديه بعض الباحثين والقراء في الاطلاع على مؤلفاتي القديمة التي نفدت نسخها من الأسواق، جعلاني أمضي في هذا السبيل راجياً أن أكون في مستوى تلك العاطفة وحرياً بما أتلقاه من تقدير وتشريف، وآملاً أن يكون في إعادة طبع هذه المجموعة ما يبرّر العناية بها أو يلبي بعض الحاجات الأساسية المترتبة على الفكر القومي في هذه الأيام. ومن هنا أتوجه برجائي إلى القراء الكرام عندما يقبلون على هذه المادة المجموعة أن يستخرجوا ما تحوي من حق وصواب ويتجاوزوا ما داخلها من نقص واعتلال (بسبب امتدادها على فترة زمنية طويلة أو لأي قصور فيها)، دون اعتبار خاص لصاحبها، بل بدافع من رغبتهم في تقصّي الجهد الفردي والجماعي المطلوب لحماية الوجود وتعزيز المواطن والإنسان في مجتمعنا العربي الراهن. فإذا كان للأفكار التي انطوت عليها هذه المادة ما يسعف في إنارة الطريق وإيضاح المسؤولية المفروضة، فإن صاحبها يمضي في سبيله راضياً معتزاً، وشاكراً بأي حال جميع الذين شرفوه بتقديرهم ورعايتهم أو الذين خالفوه في آرائه أو مواقفه.

ـ ٢ ـ

أ ـ ولعل خير ما انصرف إليه في هذه المقدمة التمهيدية هو إبراز الأفكار الرئيسية المنبثة في ثنايا هذه المجموعة والتي تكوّنت في ذهني في خلال تطوري الفكري وممارستي العملية. وقد يجد القارىء هذه الأفكار مرددة ومؤكدة في أمكنة مختلفة من هذه المجموعة التي وضعت في أزمنة وظروف متفاوتة. فأرجو ألا يحول هذا الترديد والتأكيد دون تبيّنها واكتناه مضامينها ومتابعة ترابطها الأساسي بعضها ببعض. ولعل في استخلاصها وسردها في هذه المقدمة، ما يفيد القارىء في هذا التبينّ والاكتناه والمتابعة. وقد لا ينطبق هذا الاستخلاص انطباقاً تاماً على الصور التي وردت فيها هذه الأفكار في

مواقعها المختلفة حسب مطالب البحوث المعنية من جهة ودواعي التطور من جهة أخرى، ذلك أنها بطبيعتها خاضعة للتغيير والتعديل، وما زالت تتطور في ذهني واختباري حتى هذه اللحظة، ولعلّ صورتها التي أرسمها الآن هي أقرب إلى تفكيري الحاضر منها إلى الصور التي بدت فيها خلال هذه المجموعة. ولكنني مقتنع بأن أي اختلاف في هذا الصدد يبقى في حدود الشكل والصيغة ولا يمتد إلى الأصل والجوهر.

ب ــ ولدت في دمشق عام ١٩٠٩ في حضن أسرة من الأسر المتوسطة الحال وفي رحاب طائفة من الطوائف المسيحية ــ طائفة الروم الأرثوذكس ــ التي عرفت بقلة تعصبها وبميلها إلى التعاون مع أتباع الأديان والطوائف الأخرى في ما يؤدي إلى المصلحة الوطنية الشاملة. وكانت أسرتنا ــ بيت زريق ــ تقطن داراً من الدور الدمشقية الواسعة، وتشترك عوائلها ــ كما كانت العادة ــ بساحات تلك الدار ودواوينها وغرف استقبالها وحدائقها بينما تتوازع غرف نومها وطعامها. وعندما ضاقت تلك الدار عن استيعاب الأسرة المتكاثرة أو عن ضمان الانسجام في داخلها، استأجر والدي داراً خاصة بعائلته وأصغر من الأولى.

وكانت كل من الدارين قريبة من مركز الطائفة الأرثوذكسية المتمثل بدار بطريركيتها وبكاتدرائيتها المريمية الشهيرة، ومحاذية بالوقت نفسه، لإحدى مناطق الأكثرية المسلمة. وهكذا تعاونت أرثوذكسيتي المسالمة المتسامحة، وقربي من مواطنيّ المسلمين، الذين كنت أصابحهم وأماسيهم كما يقال، والتقيهم في «حارات» المنطقة المجاورة لمنزلنا و«زواريبها» ، في صوني من شرور التعصب الديني أوالطائفي وإعدادي للاتجاه القومي العلماني الذي اتخذته في سنواتي التالية.

وكانت المدرستان اللتان انتسبت إليهما ــ الابتدائية والثانوية ــ من مدارس الطائفة الأرثوذكسية التي كانت تتمتع، كغيرها من مؤسسات هذه الطائفة، بأجواء حرّة مستمدة من مواقف رئاستها العليا (وخصوصاً البطريرك غريغوريوس الرابع حداد الذي كان يحتل منزلة رفيعة لدى علماء المسلمين وزعمائهم)، وتقاليد الهيئات الإدارية والتعليمية لتلك المدارس. وكانت الثانوية خاصة (المدعوة «الآسيّة»، نسبة إلى الحارة التي تقوم فيها) من المدارس الدمشقية المعروفة بالجد والانتظام والنزعة الوطنية. وكان يؤمها لذلك عدد من التلامذة المسلمين فيختلطون بشكل طبيعي بإخوانهم المسيحيين على مقاعد الدراسة وفي ساحات اللعب. ولم يكن التلامذة على العموم يتمايزون أو يتخاصمون على أساس الدين أو الطائفة، بل على العكس، نشأت بين بعضهم ــ على اختلاف انتماءاتهم الدينية ــ روابط متينة وثقة متبادلة، دامت وأثمرت في حياتهم العملية التالية.

يضاف إلى هذه المؤثرات الأولى كوني ولدت ونشأت في دمشق، المدينة العريقة بتاريخها المديد العائد إلى أقدم الأزمنة والبارز في العهود العربية خاصة، بدءاً بالأمويين وامتداداً إلى العصر الحاضر ـ تلك العهود التي تنطق بأمجاد العرب الباهرة في هبّتهم الأولى، ثم بما اعتراهم من وهن وهوان بعد تفكك الحكم العربي وتراجع الحضارة العربية الإسلامية. فبعد أن كانت دمشق في العهد الأموي عاصمة لامبراطورية واسعة الأرجاء تمتد من أسوار الصين إلى سواحل الأطلنتيكي، أخذ بهاؤها يتضاءل تحت حكم سلالات متتابعة متحاربة في ما بينها ومعادية لسلالات أخرى في المنطقة وخاضعة للعباسيين في بغداد أو للفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر، إلى أن جاءت السلطنة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر م. فاحتلت أكثر البلاد العربية مدة أربعمئة سنة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. على أن عاصمة الأمويين احتفظت، في هذه الأزمنة المظلمة المديدة، ببعض بهائها وعزها الماضي، وبدأ هذا العزّ ينبض مجدداً بيقظة العرب الحديثة، ثم بثورة الحسين بن علي على الأتراك العثمانيين عام ١٩١٦ وتقدم جيوش هذه الثورة شمالاً ودخولها بلاد الشام بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، وبانبعاث الآمال في صدور العرب في مختلف ديارهم بقرب نيل استقلالهم وتكوين وحدتهم واستعادة مسيرتهم المجيدة الغابرة.

وفعلاً استقبلت دمشق الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩١٨ ببالغ الحرارة والابتهاج، وتجمع في رحابها فريق من كبار القادة العسكريين والمدنيين من الشام والعراق وغيرهما من الحواضر العربية. وتوهجت الآمال بإعلان المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق في ٨ آذار/ مارس ١٩٢٠ الأمير فيصل ملكاً على سورية وتشكيل أول حكومة عربية في عاصمتها دمشق. على أن هذا الإنجاز، ونشوة الاعتزاز التي أثارها في الأجواء العربية، لم يدوما طويلاً، إذ إن الحلفاء ما لبثوا أن أخرجوا أطماعهم للعيان وتخلوا علناً عن وعودهم للعرب بعد أن كانوا قد نقضوها فعلاً في وقت أدائها (اتفاقات سايكس ـ بيكو وغيرها) وانتهى الأمر باقتسام البريطانيين والفرنسيين حكم بلاد الشام والعراق على شكل «انتدابات» حسبما أقرته عصبة الأمم الخاضعة لنفوذهم. وتقدمت جيوش الجنرال غورو المندوب السامي الفرنسي على لبنان وسورية من بيروت نحو دمشق، فانهار الحكم الفيصلي وانبسط الانتداب على سورية كما كان قد انبسط على لبنان. وأخذ البريطانيون حصتهم بالانتداب على فلسطين والعراق، وشمل صك الانتداب على فلسطين الوعد الذي كان قد أعلنه اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧ بمساعدة بريطانيا اليهود على إنشاء وطن لهم في فلسطين. وهكذا أخذت الأحلام التي دغدغت مخيلات العرب تتشتت والآمال التي اضطربت بها نفوسهم تنتكس، لشعورهم انهم إنما انتقلوا من حكم

خارجي قاهر إلى حكم خارجي غريب عنهم وانهم مقبلون على أسواء جديدة ومعارك تحررية قاسية. على أن الفترة التي ذاقوا فيها طعم الاستقلال والمشاركة العربية ظلّ لها، على قصرها (١٩١٨ ـ ١٩٢٠)، زهوها وبهاؤها وتألقها الخاص في قاعدتهم العظيمة دمشق.

وخلاصة ما يهمنا هنا أن نشأتي في دمشق (١٩٠٩ ـ ١٩٢٣) غرست فيّ الشعور الوطني المتجرد من التعصب الديني أو الطائفي والمتطلع إلى حرية البلاد العربية واستقلالها والمزدهي بأمجاد العرب الماضية وبآمالهم ومطامحهم الجديدة.

ج ـ بعد أن نلت شهادة مدرسة «الآسيّة» الثانوية عام ١٩٢٣، حصلت على منحة مالية مكّنتني من الانتقال إلى الجامعة الأميركية في بيروت حيث قضيت خمس سنوات (١٩٢٣ ـ ١٩٢٨)، الأولى منها في الصف الأخير من «الدائرة الاستعدادية» والأربع التالية في كلية الآداب والعلوم. فكان لتلك الفترة الدراسية، الجامعية منها بخاصة، آثار عميقة في تكوّني العقلي وتوجهي السلوكي، اقتصر هنا على الإشارة إلى ثلاثة منها فحسب:

الأول مصدره طبيعة الجامعة الأميركية في تلك الفترة من الزمن. جاءت هذه الجامعة خليفة للكلية السورية الإنجيلية التي أنشئت عام ١٨٦٦ بجهود فرقة بروتستانتية أميركية تبشيرية. لكن القائمين على شؤون هذه المؤسسة التعليمية ما لبثوا أن أدركوا عقم عملية التبشير الديني، فتحولت الكلية أولاً، والجامعة في ما بعد، إلى مؤسسة للتعليم العالي لتنشئة الطلاب على التثقف العقلي والتهيؤ لِـ «الخدمة» الاجتماعية والوطنية. وكان هذا التحول قد بدأ في عهد رئيسيها الأول والثاني: دانيال بلس وابنه هاورد، اللذين توليا شؤونها في العقود الخمسة الأولى من تاريخها (١٨٦٦ ـ ١٩٢٠)، ثم ترسخ في عهد رئيسها الثالث بايرد ضودج (١٩٢٣ ـ ١٩٤٨). وتجلت هذه السياسة التعليمية في الجو الأكاديمي الليبرالي الذي ساد في الجامعة، حيث كانت المعتقدات والأفكار المختلفة تطرح وتناقش بحرية واسعة داخل غرف التدريس وخارجها. وازدهرت في العهد الذي أمّتها فيه الجمعيات الطلابية، وفي مقدمتها «العروة الوثقى»، التي كان الطلاب يتدربون فيها على المناقشة الحرة المنتظمة وعلى الأساليب الديمقراطية والتفاعل الفكري والاجتماعي. وفي نطاق هذا الجو الليبرالي، نمت نزعات الطلاب إلى نشدان الحرية والاستقلال لبلادهم وإلى الوقوف في وجه الغزو الصهيوني الذي كانت أخطاره الأولى قد بدأت تبرز إلى الوجود. وترددت أصداء هذه التطلعات التحررية الوطنية في اجتماعات الطلاب داخل الجامعة وفي التظاهرات التي كانوا يشتركون فيها (أو ينظمونها هم أحياناً) خارجها تعبيراً عن تلك التطلعات.

وكان المصدر **الثاني** لتكوّني الطالبي في الجامعة الأميركية، بالإضافة إلى جوها التعليمي الليبرالي، اجتذابها لعدد وافر من نخبة شبان البلاد العربية المجاورة، بسبب خلوّ تلك البلاد من مؤسسات التعليم العالي أو حداثة عهد هذه المؤسسات وضعف خبراتها، أو بسبب خضوع بعض تلك البلاد كفلسطين والعراق والسودان للحكم البريطاني الذي كان يتطلب معرفة اللغة الإنكليزية سواء للتوظف الحكومي أو للممارسة المهنية. وكان لاجتماع هؤلاء الطلاب وتفاعلهم أثره في إنعاش الروابط القائمة بينهم وفي بث التطلع في صفوفهم إلى تحرّر بلادهم واتحادها تحت الراية العربية الشاملة. وجاء هذا التطلع مطابقاً ومعززاً لما كان قد تولد في نشأتي الأولى في دمشق، فتسارع نماؤه فيّ واندفعت تحت لوائه في الفاعليات الطلابية التي كنت أشترك فيها.

أمّا الأثر **الثالث** لدراستي في الجامعة الأميركية في بيروت، بل لعله الأول والأهم، فيعود إلى أساتذتي الأفاضل من أميركيين وعرب الذين كانوا يسهرون على «تربية» طلابهم، لا علمياً فحسب، بل خلقياً ووطنياً أيضاً. ولست لأقلل أهمية الحصيلة العلمية التي زوّدتني بها جامعتي الأولى، فإنها أسعفتني كثيراً، كما أسعفت سواي من خريجي هذه الجامعة، عندما انتقلت إلى دراساتي المتقدمة في بعض من أهم جامعات الولايات المتحدة وأبعدها شهرة، فلم أشعر فيها بأي مركب نقص بالنسبة إلى الطلاب الآخرين أو بأي قلق أو رهبة من مطالب هذه الجامعات وفروضها. وإن أنا أكّدت هنا الأثر التربوي بمعناه الواسع للجامعة الأميركية في بيروت، فلأنه كان وما يزال من أهدافها الرئيسية ومن مميزات خريجيها في حياتهم العملية، المهنية منها والعامة الوطنية.

أما من حيث برنامج الدروس التي تلقيتها في هذه الجامعة، فأخص بالذكر الأثر الإيجابي الذي كان للرياضيات والعلوم الطبيعية التي رجحت على غيرها في برنامجي. فقد دربتني هذه الدروس على مطالب الالتزام والدقة في التفكير وعلى ضوابط التسلسل المنطقي والوضوح التعبيري في ما أعالج من موضوعات. وساعدني هذا التدرب والتروّض عندما اتجه تخصصي نحو الدراسات التأريخية، لأن هذه الدراسات لم تكن قد اكتسبت بعد، خصوصاً في مجتمعنا، صفتها العلمية، بل كانت أقرب إلى الأدب منها إلى العلم، تغلب فيها الرواية على الدراية والعناية بالأسلوب الأدائي الشيق على معاناة الجهد المنتظم في البحث عن الحقيقة. وعسى أن يجد القارىء آثار هذا التروض العلمي في ما يطالع من مادة هذه المجموعة.

هذا من الناحية الإيجابية. أما الناحية السلبية لدراستي في الجامعة الأميركية في بيروت، فأذكر منها ضعفي في اللغة العربية عند تخرجي من الجامعة. لقد كانت جميع دروسي ـ ما عدا واحداً في السنة الأولى وآخر في السنة الرابعة الأخيرة ـ باللغة

الإنكليزية فظلّت العربية الفصحى غريبة عني وظللت غريباً عنها. واشتدت هذه الغربة واتسعت في دراساتي التالية في جامعات الولايات المتحدة، إذ كانت جميعها أيضاً باللغة الإنكليزية عن طريق المحاضرات والمناقشات بالاستناد إلى الكتب والمقالات المحررة بهذه اللغة، ما عدا النصوص العربية الأصلية التي كانت الدراسات العربية المتخصصة تتطلب الاطلاع عليها. وعندما عدت إلى الجامعة الأميركية في بيروت بعد نيلي درجة الدكتوراه لممارسة مهنتي كأستاذ مساعد في دائرة التاريخ مختصاً بتدريس التأريخ العربي، وجدت نفسي، بادىء الأمر، عاجزاً عن إلقاء المحاضرات أو إدارة المناقشات داخل الصفوف، وتحرير المقالات والخطب خارجها، باللغة العربية الفصحى، فعمدت إلى تدريب نفسي على استذكار قواعد هذه اللغة واستكشاف أسرارها، وعلى التمكن منها ومن أساليب التعبير بها، مما استدعى مني ــ ولا يزال يستدعي بعد ما يُنيف على نصف قرن من الزمن ــ جهداً بليغاً من أجل حسن الأداء اللغوي والأدبي دون أي مساس بالحقيقة، التي يجب أن تظل الهدف الأساسي لأي سعي علمي في أية ناحية من نواحي المعرفة. فإذا رضي القارىء عن الأداء المتمثل في مادة هذه المجموعة، أرجو أن يذكر انه نتيجة معاناة شاقة ومستمرة أخضعت نفسي لها خلال سنوات حياتي العلمية والعملية الطويلة، وما أزال.

بقي أمر آخر في عهد فتوتي، لا شك أنه ترك أيضاً أثره في ما تلاه من سنوات عمري، وهو وفاة والدي بعيداً عنا خلال زيارة لجمهورية كولومبيا، أحد بلدان المهجر في أميركا الجنوبية. فقد كان قضى شبابه في ذلك البلد عاملاً في حقل التجارة قبل أن يعود إلى الوطن قبيل الحرب العالمية الأولى ليتزوج وينشىء عائلة. ولم يتخذ له عملاً دائماً في دمشق بسبب تلك الحرب وأهوالها وتطلعه المستمر إلى معاودة الهجرة إلى كولومبيا. جاءت وفاته بصورة مفاجئة ودون أن يكون قد حصّل ذخيرة مالية تكفي لإعالة عائلته في الوطن المؤلفة من زوجته وأولاده الأربعة. وكنت حينذاك في الخامسة عشرة من عمري طالباً في السنة الأولى من دراستي الجامعية في بيروت. ومنذ ذلك الوقت المبكر، أخذت أحس بمسؤولياتي المادية والأدبية نحو عائلتي بصفتي الابن الأكبر فيها. وقد نفذ هذا الحس إلى مختلف جوانب نفسي وتغلب على غيره من الأحاسيس والنزعات، وطبع حياتي وتوجّهاتي جميعاً بطابع الجدّ والمثابرة في تقصي الواجب والسعي إلى إيفاء مطالبه.

د ــ إن آثار دراستي الجامعية الأولى التي أشرت إليها بقيت ونمت فيّ، بوعي أو بدون وعي، خلال دراستي التالية المتقدمة (١٩٢٨ ــ ١٩٣٠) في ثلاث من أهم جامعات الولايات المتحدة وأكثرها سعة وتقدماً وشهرة: شيكاغو، وكولومبيا، وبرنستن. وقد اتضح لي، بما خبرته بنفسي في تلك الجامعات ومن اطلاعي الأولي على نشاطات

الجمعيات العلمية ودور البحوث المنتشرة في الولايات المتحدة، مدى تقدم تلك البلاد في الميادين العلمية المختلفة، وبدأت أدرك أن هذا التقدم المذهل لم يكن ليحصل لتلك البلاد لولا إيمان نخبها السياسية والاجتماعية والتربوية بخطورة العلم وسعيهم الحثيث إلى اقتباسه من مصادره الأولى ـ الأوروبية حينذاك ـ ثم إلى العمل على نشره وترقيته وإحراز التفوق في مجالاته خدمة لتطور مجتمعهم وإعلاء شأنه في ميادين القدرة والحضارة. وكلما كنت أقابل حالة العلم في ذلك المجتمع المندفع وحالته في مجتمعنا العربي، كانت تهولني الفوارق بينهما ويرعبني تخلفنا الهائل في الاقتباس الناشط وفي البحث والاكتشاف المبتكرين. ولم تكن الجامعات التي أممتها في الولايات المتحدة تكتفي بأساتذتها المعينين في ملاكها، بل كانت تدعو كبار الأساتذة من غيرها من الجامعات الأميركية والأجنبية والباحثين الرواد في القطاعات الأخرى لإلقاء محاضرات أو دروس مكثفة في موضوعات اختصاصاتهم. هذا بالإضافة إلى غنى المكتبات والمخابر وغيرها من وسائل التعلم والاستفادة داخل الجامعات وفي المجتمع الأميركي عامة، مما يفسح لمن يرغب في اكتساب المعرفة لنفسه وفي تعزيزها في مجتمعه مجالات واسعة للتحصيل والاغتناء، ثم للعطاء والإغناء.

ولم أكن عند ذاك أدرك تمام الإدراك أن هذه الحيوية العلمية التي كنت أغتبط في وسطها وأغبط أصحابها عليها إنما هي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالنزعة الديمقراطية في الحياة العامة وما تتيحه من حرية فكرية، بل كنت في تلك السنوات وما بعدها مباشرة أتخيل أن الحكم المركّز خليق أكثر مما هو الحكم الديمقراطي الموزع السلطات بإحداث الهبّة المرجوة في شؤون العلم والبحث برعايته لها ودعمه إياها بالمدد البشري والمادي. ولكنني ما لبثت أن تحققت، بالاطلاع والاختبار، أن جميع هذه الوسائل تبقى قاصرة، بل لعلها تأتي فاسدة ومفسدة، إذا لم يصحبها احترام للفكر واعتبار لحقوق المواطن في جو ديمقراطي رحب. وبهذا عدت إلى النزوع الديمقراطي الذي كان قد غرس في نفسي خلال نشأتي السابقة في دمشق وبيروت وأخذ يتأصل فيّ بفعل خبراتي التالية في عهد دراستي في الولايات المتحدة.

ومن زاوية أخرى، عملت هذه الخبرات على ترسيخ شعوري بالانتماء الوطني العربي، وذلك كردّ فعل لما شاهدته ولمسته في المجتمع الأميركي عامة من جهل بأوضاع العرب وبلادهم، ومن تشنيع لصورتهم السائدة في الأذهان الأميركية، ومن استخفاف بهم وانحياز ضدهم. أما الجهل بالأوضاع العربية، فإنه جزء من جهل الأميركيين عموماً بما هو خارج محيطهم. فكأنهم اكتفوا بسعة بلادهم ومدى تطورها وضخامة ثرواتها وما غنموا من مكاسب في أزمنة السلم ومن الحروب التي خاضوها، فانكفأوا على أنفسهم

وانصبوا على معالجة مشاكلهم الحياتية وتركوا الاهتمام بالشؤون الخارجية لمن انتخبوا من حكام ونواب، وإلى الصحف ووسائل الإعلام الأخرى مع انها لا توصلهم بالعالم الخارجي إلا بقدر زهيد. وبالنسبة إلى الشعوب العربية خاصة، فقد تعلقوا بأوهام ومفاهيم خاطئة ورثوها من أجيالهم السالفة في بلدانهم الأصلية الأوروبية منذ أوائل القرون الوسطى التي حفلت بالحروب والمنازعات بين الدول الغربية المسيحية في أوروبا والدول العربية وغيرها من الدول الإسلامية في الشرق، أو، حسب العقلية السائدة في تلك القرون، بين الدينين المسيحي والإسلامي. ولأن العرب لم يتطوروا كثيراً عما كانوا عليه في القرون الماضية، ظلت هذه الصورة العدائية نحوهم سائدة في المجتمعات الغربية في أوروبا ثم في الولايات المتحدة بخاصة. وعلى عكس ذلك، عمد اليهود الذين كانوا قد تسربوا إلى تلك المجتمعات وتعرضوا لعدائها واضطهادها بسبب انتشار المسيحية في أرجائها، إلى تمكين جذورهم فيها ونشر نفوذهم في مختلف أوساطها وقطاعاتها. وتوصل قادتهم في أواخر القرن الماضي إلى صوغ الروابط القائمة بينهم بشكل عقيدة قومية دينية (على ما بين هاتين النزعتين من تناقض) اتخذت الصهيونية عنواناً وإعادة بناء «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين هدفاً وشعاراً. وتقدموا بهذه العقيدة إلى الدوائر الحاكمة في الدول الغربية داعمين إياها بقدراتهم المكتسبة في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم والإعلام إلى أن نالوا في خضم الحرب العالمية الأولى (٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧) وعد وزير الخارجية البريطانية اللورد بلفور باسم حكومته بمساعدتهم على بلوغ ذلك الهدف، ثم اعتراف الدول الحليفة المنتصرة في تلك الحرب بهذا الوعد وإدخالها محتواه في الصك الدولي الذي منحت به عصبة الأمم بريطانيا العظمى الانتداب على فلسطين. وعندما تسلمت هذه الدولة زمام هذا الانتداب، أخذت، كما هو معروف، تسهّل هجرة اليهود إلى فلسطين وتساعدهم على إرساء قواعدهم فيها على رغم رفض سكانها العرب الدائم ومطالبهم المستمرة، سلمياً وثورياً، بالاعتراف بحقهم في تقرير مصيرهم.

وفي عهد وجودي في الولايات المتحدة في أواخر العشرينيات كانت النظرة الصهيونية إلى هذه القضية قد أخذت تسطو في الدوائر الحكومية والمدنية، فانعكس هذا التحيز الظالم في نفسي تمسكاً بهويتي العربية وإيماناً بالغايات القومية واستعداداً للعمل في سبيلها.

فإذا أردت أن أجمع القول في مختلف آثار نشأتي إلى نهاية تحصيلي الجامعي وبداية ممارستي المهنية لخصتها في توجهات أربعة: الاختيار العلمي والتعليمي، والانتهاج الليبرالي الديمقراطي، والانتماء القومي العربي، والإحساس بالمسؤولية في تفكيري وعملي.

هـ ـ ولا شك أن المهنة التي قادتني الظروف إلى مزاولتها كانت قابلة لرعاية هذه التوجهات وتعزيزها. أعني بذلك المهمة الجامعية التي قضيت في ممارستها معظم سني حياتي: أكثر من أربعة عقود (١٩٣٠ ـ ١٩٧٨) في الجامعة الأميركية في بيروت أستاذاً ونائب رئيس، ورئيساً بالوكالة، وثلاث سنوات رئيساً للجامعة السورية في دمشق (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢)، وخمس عشرة سنة مشاركاً في «رابطة الجامعات الدولية» المرتبطة باليونسكو: عشراً منها (١٩٥٥ ـ ١٩٦٥) عضواً في مجلسها الإداري، وخمساً (١٩٦٥ ـ ١٩٧٠) رئيساً عاملاً، ومنذ ١٩٧٠ أحد رؤسائها الفخريين مدى الحياة. فلقد أتاحت لي هذه المهنة، بل هذه «المهمة» إرضاء نزعاتي الأربع المذكورة سابقاً، وذلك غن طريق التعليم والبحث والتدريب البحثي من جهة، والتكوين القومي من جهة أخرى. وكان هذان الالتزامان، العنمي والقومي، قد أصبحا مترابطين في نفسي وساريين في مختلف أعمالي. ولم أكن أجد بينهما تناقضاً عندما يدركان على حقيقتيهما، بل، على العكس، كان كل منهما يقوي الآخر ويثريه. ويسبعدني أن أتيح لي خلال تلك المهمة، وبفعل هذين الالتزامين، الإسهام في تنشئة العديد من الشبان الجامعيين وغير الجامعيين، سواء بالتعليم المباشر أو بالاتصال الفكري أو بممارسة العمل القومي أو بالكتابة والنشر، ما يبعث في نفسي الارتياح والرضى والاعتزاز بهذه العناصر البشرية التي اتسم معظمها بجودة الفكر والعمل في حقول اختصاصاتها وفي الميادين الوطنية، والتي ظل لي حظ الاتصال بها والتعاون وإياها بعد تخرجها من الجامعة.

ولا بدّ لي هنا من الإشارة إلى الخيارات المتعددة التي ترتسم أمام الأستاذ الجامعي عندما يعلو اعتباره لعمله عن مجرد كونه مهنة من المهن أو وسيلة لكسب العيش أو لتقصي الربح أو الجاه أو النفوذ في المجتمع ليغدو «مهمة» تستهدف غايات وطنية وإنسانية وتستند إلى قيم عقلية وخلقية. إن هذه الخيارات تنبع من طبيعة الجامعة نفسها ومن المهام التي أنشئت لأجلها، وتتمثل في المراتب التي تحتلها هذه المهام في نظر الأستاذ ذاته ولدى الإدارة الجامعية والمجتمع بوجه عام.

وتتلخص هذه المهام في **ثلاث: التعليم، والبحث المبتكر، والمشاركة في الأعمال العامة**. فالتعليم هو الغاية الأساسية التاريخية، ويرمي إلى تهيئة أجيال من الشبان لسد مطالب مجتمعاتهم المتطورة ولتحسين أوضاعها ورفع مستواها، وقد تتدنى هذه الغاية لتقتصر على «تلقين» المعلومات أو على التدريب المهني، أو ترتفع إلى ترويض العقل على العمل الفكري الصحيح والمنتج. وقد تضيق لتنحصر في الجانب العلمي الصرف من جوانب شخصية الطالب، أو تتسع لتشمل الجوانب كلها ولتنشئته عقلياً وخلقياً، مواطناً وإنساناً. أما البحث العلمي المبتكر في سبيل زيادة المعرفة الإنسانية، فقد كان أيضاً من

المهمات الملقاة على عاتق الجامعات منذ تأسيسها، ولكن شأنه عظم في الأزمنة الحديثة والمعاصرة بسبب تسارع نمو المعرفة وحاجة المجتمعات إلى مجاراة هذا التسارع وإلى الإفادة منه والمشاركة فيه.

وتأتي المهمة الثالثة من كون الأستاذ الجامعي عضواً في مجتمع ومواطناً وإنساناً، وحقه، بل واجبه، أن يمارس ما يمارسه سواه في مجتمعه الخاص وفي المجتمع الإنساني العام.

وليست هذه المهام الرئيسية الثلاث متناقضة، بل هي مترابطة في ما بينها وتقوّي كل منها الأخرى وتغذيها. على أنه ليس باليسير للشخص الواحد أن يفيها حقها معاً بسبب ازدياد المعرفة الهائل من جهة وتصاعد مطالب المجتمعات من جهة أخرى. ولذلك يتوجه الأستاذ الجامعي الحيّ الفاعل إلى بعضها أكثر منه إلى البعض الآخر. ويحصل هذا التوجه بنتيجة ميله الخاص، أو تقديره لحاجات مجتمعه، ومطالب السلطات الجامعية أو الحكومية. على أن خير الإدارات الجامعية هي التي تحاول الجمع بين هذه الخيارات في هيئتها الجامعية عموماً أي في تركيبها الكامل وعطائها الشامل، على أن يبقى رائدها الأول التميز في النوعية والمستوى، فلا تضحي به في سبيل أي مقصد آخر.

فإذا طبقتُ هذا على نفسي، وجدتني قد صرفت من الجهد في اتباع الخيارين الأول والثالث أكثر مني في سلوك دروب الخيار الثاني، بل أقول على حساب هذا الخيار. ومن هنا كان نشاطي وإنتاجي في الحقول التعليمية والفكرية العامة أوفر منه في حقلي الاختصاصي، أي في متابعة البحث وإغناء المعرفة في نطاق التاريخ العربي. وقد أدّى إلى هذه النتيجة عاملان: **أولهما** تقديري الشخصي للظروف التي تحيط بالمجتمع العربي، ولحاجة هذا المجتمع الماسة والضاغطة إلى التفكير الصحيح والعمل الراشد في سبيل تحرره وارتقائه، **وثانيهما** توجّهي خلال ما ينيف على اثنتي عشرة سنة (١٩٤٥ ــ ١٩٥٧) في مرحلة نضوجي إلى العمل الدبلوماسي في المفوضية السورية في واشنطن في مطلع عهد الاستقلال (١٩٤٥ ــ ١٩٤٧) الذي كنا نشعر بواجب تأييده وتثبيته، وإلى الإدارة الجامعية (١٩٤٧ ــ ١٩٥٧) كما نوّهت سابقاً. وكلا العملين لا يتركان مجالاً للبحث العلمي الاختصاصي وما يتطلبه من تفرغ وانكباب.

ــ ٣ ــ

أنتقل من عرضي السريع للعوامل التي أثرت في حياتي ونتاجي إلى استخلاص الأفكار الرئيسية التي انطوى عليها هذا النتاج المتمثل في المؤلفات التالية. وبديهي أن هذا

الاستخلاص لا يتسع لجزئيات هذه الأفكار، وانه بالطبع خاضع لمضمون هذه الأفكار وشكلها كما هي في ذهني الآن، لا كما تكوّنت تدريجاً خلال حياتي واختباراتي. غير أني أعتقد أن هذا العرض خليق بأن يسهّل للقارىء متابعة المادة المجموعة وتقييمها، خصوصاً أن بعض هذه المادة (**الوعي القومي، أيّ غدٍ؟، هذا العصر المتفجر، مطالب المستقبل العربي، من بعيد.. ومن قريب**) يتألف من مقالات كتبت ومحاضرات ألقيت في مناسبات وأوقات مختلفة. فعسى أن توضح هذه المقدمة الخيوط التي تربطها والدوافع الأساسية التي تشملها، دون ادعاء الإحاطة بها إحاطة تامة، أو مطابقتها للترتيب الوارد في ما يلي:

أ ــ **أزمة المجتمع الإنساني**: يجوز المجتمع الإنساني في هذه الأيام أزمة لعلها أشد ما عاناه في تاريخه الماضي الطويل، وهي حافلة بالإمكانات الخطيرة لمستقبله: إمكانات إيجابية قد تجلب له الرفاه والخير والترقي، وأخرى سلبية قد تنزل المزيد من الشرور والمآسي بأبنائه حيثما يكونوا. وليست هذه الحقيقة بحاجة إلى دليل أو برهان، فإن الناس في مختلف أنحاء المعمورة يعيشون تحت ضغوط هذه الأزمة الشاملة ويتحملون أسواءها ويخشون عواقبها، حاضراً ومستقبلاً. ومفكرو هذا العصر يتناولونها بالتحليل والتأليف، وهم إن اختلفوا في استنتاجاتهم ومواقفهم يتفقون على العموم في تقدير جسامتها وخطورتها، ويهيبون بالقادة وبالشعوب إلى وضعها في مقدمة أولوياتهم والنظر إلى المشكلات التي يعالجون من ضمن نطاقها الشامل ومساراتها المتواصلة.

ومع أن هذه الأزمة تتخذ مظاهر متعددة ــ الحروب الكبرى والصغرى وسواها من أشكال التقاتل العنفي؛ الأخطار الهائلة التي يتضمنها تطور الأسلحة (التقليدية والمستجدة) وخزنها وانتشارها؛ تضعضع الأنظمة الاقتصادية القومية والإقليمية والعالمية؛ تفشي الأمراض الاجتماعية والآفات الخلقية؛ اتساع الفوارق بين الأغنياء القادرين والفقراء العاجزين داخل المجتمعات وفي ما بينها؛ تزايد سكان الأرض وإهدار موارد الطبيعة وانتهاك حرماتها وحرمات محيطها وفضائها؛ إلى غير ذلك من المساوىء والتعديات ــ فهي تعود إلى أصل مركزي شامل هو الفارق المتسع بين التقدم التقني الرهيب الذي أحرزه الإنسان الحديث والمعاصر في التسلط على الطبيعة، وقدرته المتباطئة والمتضائلة نسبياً على التحكّم بأهوائه وشهواته، وبين نزوعه إلى التسلط على الآخرين واستغلالهم والاستئثار بمواردهم، وإحساسه بحقوقهم وكرامتهم وسعيه إلى خيرهم. وبعبارة أخرى، إن آفة «هذا العصر المتفجر» الأصيلة تكمن في الفارق المتصاعد بين التقدم التقني الصنعي والتقدم العقلاني الخلقي، أو، من وجهة نظر أخرى، بين تقدم الوسائل والأدوات المتفاقمة فاعلية ونفاذاً وانتشاراً، وتخلّف الغايات وانتكاسها بالارتداد إلى

البدائية التاريخية أو بارتياد البدائية الحديثة الأشد عنفاً وخطراً من سوابقها. ولا تزال المجتمعات المتقدمة والمسيطرة في هذا العصر تغطي أطماعها بالأقنعة البرّاقة وتتغنى بالشعارات الخادعة، بينما هي تبقى إلى حد بعيد على ما كانت عليه من الاندفاع إلى الغلبة والاستئثار والاستغلال وتحكم القوي بالضعيف سواء في تطور بنيتها الداخلية أو في تعاملها الخارجي. وعلى رغم ما قدمت لأبنائها من تحرر سياسي وعدالة اجتماعية، فهي تعرّضهم لأهوال ضارية، بل ربما ماحقة، إذا ظلت تتابع مسيرتها الحاضرة. وبالإضافة إلى ذلك، فهي لا تزال تنقاد لأطماع المتنفذين في مجتمعها ذاته أكثر مما تنصت لتأوهات المحرومين، فكيف بها إذا توجهت إلى المجتمعات المتخلفة المحرومة في سائر أنحاء العالم، والتي تتنافس هي وسواها من المجتمعات القادرة على السيطرة عليها وعلى مواردها؟

إن معركة الحرية الوطنية والكرامة الإنسانية، بل معركة الوجود البشري، تنشب اليوم بصخب متصاعد في سائر مجتمعات هذا العصر، المتقدمة منها والمتخلفة، وبين مجموعتي هاتين الكتلتين، وما تني نيرانها تستعر وأهوالها تشتد بتطور وسائل القمع العسكري والسياسي والتسلط الاقتصادي والتفجر العلمي والإعلامي.

وثمة اليوم كلام كثير وجدل متصل في الأوساط النافذة في الولايات المتحدة وسواها من المجتمعات حول «النظام العالمي الجديد» الذي بشّر به الرئيس السابق جورج بوش بعد زوال الحرب الباردة بين النظام الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة والنظام الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفياتي، وبعد تغلّب الولايات المتحدة وحلفائها الساحق على نظام صدام حسين في العراق. لكن هذا الكلام والجدل يبقيان فارغين وعديمي الجدوى، بل قد يجران إلى أخطار وانتكاسات مخيفة، ما دام المجتمع الإنساني منقسماً على نفسه، وما دامت العوامل المفرّقة عاملة، وبازدياد، بين دوله ومجتمعاته وطبقاته وأديانه في حين أن التطورات الاقتصادية والعلمية والتقنية تفرض عليه أن ينطلق في طريق التوحّد والعدالة والترقي، إذ لم يعد بالإمكان في «القرية العالمية» التي أخذت تشمل الإنسانية كلها بعد أن تقلصت أو زالت الحدود القائمة بين دولها وشعوبها، أن ينعم بعض هؤلاء بالسلام والازدهار والتقدم من دون البعض الآخر، أو على حسابهم. والواقع أن الوضع العالمي الحاضر، والوضع المبشّر به من قبل قيادة الدولة الأقوى في هذه المرحلة، لا يرتقيان إلى مرتبة «نظام» بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. والأحرى أن يُعبّر عنها سلباً بـ «لا نظام» أو «اختلال نظام»، لأن أي «نظام» حريًّا بهذه التسمية يتطاب من الذين يشملهم الولاءَ النفسي المتحكم لغايات مشتركة والتعاون العملي الخالص في السير إليها. ولم يتحقق بعد هذا أو ذاك للإنسانية في حاضرها أو في مسيرتها نحو المستقبل. إن المجتمع الإنساني الحاضر يقف الآن في المقام نفسه الذي كانت تقف فيه المجتمعات المتقدمة في بدء

تكونها القومي منذ قرنين أو ثلاثة، أو في مقام التوجه القومي في المجتمعات المتخلفة في هذه الأيام، أي في حالة الانفلات والتوزع والشقاق. وسيظل يعيش أزمة مريرة وخطيرة إلى أن يكتسب، إذا استطاع أن يكتسب، صفات «النظام» الأساسية.

ب ــ **أزمة المجتمع العربي**: وإذا نظرنا إلى المجتمع العربي الذي ننتمي إليه، وجدنا أنه يعاني أيضاً أزمة عسيرة مشتدة، ويجابه أخطاراً متفاقمة. إن هذه الأزمة والوجوه المتعددة التي تتجلى فيها، تصدر عن ثلاثة أوضاع رئيسية، هي:

(١) الوضع العالمي المتأزم الذي نكوّن جزءاً منه، والذي لم يعد ممكناً لأي جزء من أجزائه أن ينفصل عن سواه ويستقل بذاته، وذلك بسبب اشتداد الروابط والمصائر المشتركة التي تضمها جميعاً. ولذا، فإن كل مشكلة عربية أصبح لها إطارها العالمي ومشاركاتها البشرية بشكل لا سابق له في التاريخ الماضي. وكل شعب أو مجتمع يتعامى عن هذه الحقيقة يدفع ثمن هذا الإهمال والتعامي خسائر فادحة ومآسي رهيبة.

(٢) الوضع التخلفي الذي يربطنا بطائفة كبيرة من المجتمعات الإنسانية التي يعبّر عن مجموعتها في هذه الأيام بـ : «العالم الثالث» تمييزاً له عن «العالم الأول» الذي يضم الدول المتقدمة (الغربية والمتغربة) بزعامة الولايات المتحدة الأميركية. أما «العالم الثاني» الذي كان يمثله ويتزعمه الاتحاد السوفياتي، فقد تشتت في السنوات الأخيرة بانهيار الشيوعية وتفرق نظامها إلى دول كبيرة أو صغيرة تسعى إلى التغرّب وينتمي بعضها إلى «العالم الثالث».

(٣) الوضع الناتج عن أحوال مجتمعنا الخاصة به والناشئة من موقعه الجغرافي وموارده الطبيعية والبشرية وتاريخه الموروث وخبراته المعاصرة.

وتتجلى هذه الأزمة المعقدة الشاملة للمجتمع العربي بمظاهر عدة، لو أردنا أن نشملها بصفة عامة، كما فعلنا في رسم الأزمة العالمية، لقلنا إنها تتمثل آخر الأمر بـ **العجز العربي**، سواء أكان في مجابهة الدول القادرة المدفوعة بدينامية مذهلة إلى التوسع والغلبة، أم في الوقوف في وجه الصهيونية المغتصبة التي استلبت جزءاً هاماً من أرضه وأقامت فيه دولة غريبة عنه ناشطة في بناء قدراتها العسكرية والعلمية وفي استمداد العون من الآخرين، أم في الحفاظ على الموارد الطبيعية والبشرية وتنميتها، أم في تمكين روابطه بالدول والشعوب الأخرى، أم في تقوية روابطه الداخلية والسير بحزم نحو التنسيق الدقيق لقدراته المختلفة، أم في الإبداع والعطاء اللذين يتطلبهما هذا العصر للتميز وحتى لحماية الذات وضمان البقاء.

ولا إنكار لمكاسب التقدم التي أحرزها المجتمع العربي منذ بداية نهضته في القرن

السابق: في التخلص من الحكم الأجنبي، وفي تنمية موارده الطبيعية بالزراعة والصناعة، وموارده البشرية بمكافحة الآفات الجسدية والعقلية المنتشرة بين أبنائه. ولكن، مهما يكن قدر هذه المكاسب المحصّلة وأثرها، فإنها تصغر إزاء الخسائر التي أصابته في مختلف معاركه الخارجية والداخلية، الناتجة من فساد الأنظمة السائدة فيه ـ سواء منها المحافظة المتخلفة أو «الثورية» المزيفة ـ ومن التنازع الذي ما زال ناشباً بين دوله وأنظمته وطبقاته وطوائفه، ومن التعثر في إنشاء روابط التعاون والتآلف بين أجزائه، ومن الإهدار المخزي لموارده الطبيعية والبشرية، ومن غير ذلك من أسباب التخلّف التي لم تعد حياة هذا العصر الصارم تقبل بها أو تتغاضى عن فعلها. وإذا نحن لم نذكر هنا القوى الخارجية الطامعة فيه والعاملة على إضعافه وتفكيكه وتعطيل تقدمه، فلأننا مع اعترافنا بجسامة تلك القوى وتفاقم أخطارها، نؤثر أن نتوجّه إلى العوامل الداخلية أولاً لأنها هي التي تقرّر في نهاية الأمر مناعة البنية الوطنية أو تفاهتها وقدرتها على الحماية الذاتية أو عجزها عنها وعن شق الطرق الآيلة إلى السلامة والتقدم.

ج ـ وعلى هذا، فإن حاجة المجتمع العربي الأساسية هي الانتقال السريع والحاسم من حالة «العجز» إلى حالة «القدرة». فكل معالجة ناجعة لناحية من نواحي العجز العربي، وكل إنشاء أو إنماء لجانب من جوانب قدرته، هو خطوة من خطى المسار الطويل المطلوب لحلحلة أزمته وتخفيف شقائه. والخطوة الأولى أو الشرط الأساسي لهذا التبدل هو إدراك معنى «القدرة» وجوهرها خصوصاً في هذا العصر.

إن أهم مقومات هذا **الجوهر** ومميزاته تكمن في **ثلاثة: أولها** في أنه **بشري لا طبيعي**، يتمثل بمبلغ رقي العنصر الإنساني الذي يضمه المجتمع أكثر منه بوفرة موارده الطبيعية أو بخصائص موقعه أو بمزايا شعبه العرقية. لقد أنعم الله على بعض البلاد العربية بثروات أرضية ومائية وافرة وعلى أخرى بمخزونات دفينة غالية، ووضعها كلها في موقع جغرافي مركزي متميز، ولكن لا أي من هذه العوامل ولا كلها مجتمعة ولا أي عامل طبيعي آخر كفيل بأن يؤدي إلى إنهاض هذه البلاد من عثرتها وإنقاذها من كبوتها، ما لم توفر لنفسها، وبفضل رؤيتها ونضالها، العنصر الإنساني المؤهل لضمان بقائها وسلامة نهوضها. فإذا توفر هذا العنصر، جاءت الميزات الطبيعية سنداً له ومساعداً، وإذا غاب غاب نفعها المرتجى، بل انقلبت إلى أعباء ثقيلة ومصادر أخطار وشرور مرهقة.

والصفة الثانية لجوهر القدرة المطلوبة هي في أنه **كيفي لا كمي**. فالأعداد البشرية التي يتألف منها المجتمع لا تُغني بكثرتها أو بتزايدها السريع، وإنما بميزاتها المكتسبة، أي بمقدار تحررها من طغيان الخارج ومن شوائبها الباطنة. فلا معنى إذن للمقولة التي انتشرت في الأوساط العربية والتي لا تزال تعتمد في بعضها، وهي أن المجتمع الإسرائيلي الذي لا

يتجاوز عدد أفراده الخمسة ملايين سينكمش أو يزول حتماً إزاء مجتمع المئتي مليون، أو أكثر، من العرب المتزايدين المحيطين به. إن ضخامة الكم السكاني وسرعة تزايده يغدوان عالة على المجتمع وعائقاً من عوائق نهضته وارتقائه إذا لم يصحبهما ولم يصدّ تدفقهما الأرعن تحوّل كيفي نحو التحرر والتآلف والتحضر.

أمّا **الصفة الثالثة** لجوهر القدرة التي نتحدث عنها، فهي كونها **ذاتية** لا تمنح من خارج ولا تأتي عن طريقه، وإنما تتمثل أولاً في الكيان المجتمعي وكيان الدولة ذاتها. فلا سلامة لأي مجتمع تعتمد دولته على اتفاقات أو عقود أو محالفات بينها وبين الدول الأخرى، خصوصاً القادرة منها. فإن هذه الدول تتحرك وفقاً لمصالحها وأطماعها التي تتحول حسب مطالب تطوراتها. ولذا، فإن الدول العربية التي تعتمد اليوم في تأمين حماية ذاتها وضمان مصيرها على القوى الخارجية القادرة ـ كالولايات المتحدة أو روسيا أو إحدى الدول الأوروبية الكبرى ـ ستجد أنها تؤدي لقاء هذا الاعتماد أثماناً باهظة، وأنه، إن حقّق أغراضها في المدى الأقرب، فلن يكون مأمون العواقب في المدى البعيد، بل حتى في المدى القريب. ولا عبرة في الاحتجاج بأن الصهيونيين إنما نجحوا بفضل اعتمادهم قوى ساطية (بريطانيا أولاً ثم الولايات المتحدة الأميركية في ما بعد والدول الغربية عموماً) وتحالفهم وإياها. والواقع أنهم توفقوا إلى استدرار عطف تلك الدول القادرة ومجتمعاتها ـ والولايات المتحدة خاصة ـ ومساندتها لهم وإمدادها إياهم بالسلاح والمال والتأييد السياسي وسواها من الوسائل الفعالة، ولكن أياً من هذا لم يكن ليتحقق أو ليحقق لهم مكاسبهم لولا القدرة الذاتية التي كوّنوها لأنفسهم بالجهد المركز والدأب المدروس والمخطط الذي بذلوه على مدى زمني طويل في سبيل تأليف كيانهم العضوي وغرس مراكز نفوذهم في الدوائر الحساسة لتلك الدول والمجتمعات.

وخلاصة القول إن القدرة التي يقتضي أن نسعى إلى إحرازها واعتمادها هي في جوهرها **قدرة بشرية، كيفية، وذاتية.**

د ـ ولو شئنا أن نختار عنواناً أو مقياساً شاملاً لهذه القدرة، لقلنا إنه **التحرر** بوجوهه المختلفة من تحكّم الآخرين (الأجانب المستعمرين والمواطنين المتنفذين) بالنضال الشعبي المنتشر والجهد الواعي الصابر، ومن سطوة الطبيعة بالتقدم العلمي والتقني، ومن الشوائب الذاتية بالسعي العقلاني والخلقي والارتقاء الأدبي (وهو في نهاية الأمر أهم هذه الوجوه وأشرفها وأجداها نفعاً)، وهذا التحرر هو سبيل **التحضر** ومقياسه. ومن هنا نرى أن ثمة علاقات عضوية متبادلة ومتفاعلة بين **التقدم والتحرر والتحضر**، فلا يحصل أي منها إلا بقدر حصول الاثنين الآخرين. ونعود إلى التأكيد أن هذه المكاسب، بأفرادها وبمجموعها، تمثل القدرة الحقيقية التي يتمتع بها أي مجتمع. ومعركة اكتساب هذه

القدرة، نوعاً وكماً، هي في الواقع «أم المعارك» الحقيقية لأنها منبثّة في مختلف المعارك الأخرى ومحددة لمصائرها.

على أن الوجه الغالب للقدرة في هذا الزمان هو التقدم العلمي والتقني الذي بلغت منه الدول والمجتمعات السائدة مبلغاً عجيباً رهيباً. إن هذه الدول والمجتمعات (المسماة في التعبير المعاصر «القوى العظيمة» وعلى رأسها الآن «القوة العظمى» ــ الولايات المتحدة الأميركية ــ أو «الثرية» أو «المتقدمة» أو «المنمّاة»، (بمقابلة ما كانت عليه في الماضي، وبما هي عليه الآن الدول والمجتمعات «الضعيفة» أو «الفقيرة» أو «المتخلفة» أو «النامية») لا تزال، كما قلنا سابقاً، متخلفة في الوجه الثالث الذي أشرنا إليه من وجوه القدرة (الارتقاء الأدبي)، وهو أهمها وأنفذها فعلاً. وهذا التخلف هو العامل المهيمن على الموقف الإنساني الحاضر المضطرب والباعث على القلق والخوف.

هـ ــ لقد كنا وما نزال نستند في محاولات تحررنا من أطماع الآخرين (الأعداء الخارجيين والمتغلبين الداخليين) إلى حقوقنا الوطنية والإنسانية، أكثر منا إلى تنمية قدراتنا الذاتية. ومع أن المجتمعات القادرة تظل تتغنى بالمبادىء التي أعلنتها الثورات التاريخية وتضمنتها التطورات الإيجابية في التاريخ الإنساني، وترفع شعار الدفاع عن «حقوق الإنسان» في حروبها الكبرى والصغرى وفي سياساتها الداخلية والخارجية، فإن الاختبارات العالمية الحديثة تدل أوفى دلالة على أن العامل الحاسم لا يرسو في هذه الحقوق ذاتها، بل بالقدرة المكتسبة لصيانتها إذا وجدت ولاستعادتها إذا فقدت.

والمثل الصارخ لهذه الحقيقة المعاصرة يتجلى في مسار القضية الفلسطينية، حيث الحق الفلسطيني العربي واضح كل الوضوح للنظر والعدل الموضوعي، ومطابق للمبادىء التي أقرتها الإنسانية في نضالاتها التحررية الماضية، ومعترف به بقرارات صريحة عدة لمنظمة الأمم المتحدة العالمية. ومع هذا، فقد انتُهك هذا الحق في هذا القرن مرات متتابعة وبأشكال فاضحة بسبب تفرق الفلسطينيين والعرب عموماً وقصور قدرتهم تجاه الصهيونية وإسرائيل وتجاه الدول المسيطرة في عالم اليوم. وكثيراً ما يردد بعض الساسة أو الكتّاب أو الصحفيين الذين يودون الظهور بمظهر الحياد في قضية الصراع العربي ــ الصهيوني بأن صعوبة هذه القضية تكمن في أنها صراع بين «حقين»: «حق» الفلسطينيين في أرضهم وتقرير مصيرهم، و«حق» الإسرائيليين في العودة إلى موطنهم الأصلي. وهو كلام ينطوي على أحقر الخداع أو الانخداع، إذ إن هذه القضية هي في تاريخها وواقعها صراع بين حق متلبس بالضعف والعجز وباطل متسربل بالقدرة الذاتية والخارجية.

وها نحن اليوم، في أدق مراحل هذا الصراع، بعد أن عقد اتفاق المصالحة والسلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، نجد أنفسنا مشتتين بين موافقين ومخالفين، أو

عاجزين عن اتخاذ القرار الصريح، أو متهربين من المسؤولية باتخاذ المواقف التي ترضي الحكام أو الجماهير، فتعلو أصوات الجدل بين هؤلاء الفرقاء وسواهم وتنذر الأحداث بخطر تحول هذا الجدل والتشتت إلى تنازع وتقاتل داخلي يعيد المسار الفلسطيني مراحل مديدة إلى الوراء، في حين أن الخطر الأساسي لا يتعلق ببنود هذا الاتفاق ذاته (على ما يحتوي من تخاذل فلسطيني وتسلط إسرائيلي) قدر ما يتصل بالأوضاع الفلسطينية والعربية التي أدت إليه والتي إذا لم تعالج معالجة صريحة وجذرية ستقود الفلسطينيين والعرب عموماً إلى شرور أفظع ومذلات أسوأ وأشنع.

ولقد لفتّ النظر أكثر من مرة في مؤلفاتي المكتوبة وفي أحاديثي وخطبي إلى أن ثمة فرقاً أساسياً بين **الحق والاستحقاق**. إن الحق العربي ليصان أو يستعاد من مغتصبيه بقدر ما يُستحق، أي بقدر ما يكون أصحابه والمدافعون عنه قد حصّلوا بجهودهم الذاتية وتضحياتهم الطوعية المستمرة ما يؤهلهم لاسترداده وتعهده في وطن حريّ به وقادر على حمايته وتعزيزه.

وما هو السبيل إلى هذا الاستحقاق؟ هنا أيضاً نلجأ إلى الإجمال والتبسيط فنقول إنه يُلخص بكلمة شاملة هي «النضال»، النضال الصادق في وجه الطغيان في الداخل والخارج، والنضال للتخلص من قيود الطبيعة ولاكتشاف أسرارها واستثمار مواردها لخير المواطن والإنسان، والنضال من أجل التماسك الوطني والتآلف القومي في السياسة والاقتصاد والاجتماع بالتروّض على تقديم المصلحة العامة على الخاصة وتغليب نفع الغير على إرضاء شهوات الذات. وليس هذا السبيل المتعدد الوجوه لنيل الاستحقاق يسيراً أو قصيراً، ولا هو يتم بتغييرات «فوقية» أو بانقلابات سلطوية أو بأساليب خاطئة أو خادعة، وإنما يستقيم بتطورات مجتمعية يحدثها الجهد المركّز الدؤوب لإحراز التقدم (المتجوهر بالتحرر والتحضّر) وباكتساب القدرة الذاتية بمختلف مقوّماتها.

إذن لا بد للاستحقاق من أداء الثمن. وهذا الأداء مفروض على الأجيال المتتابعة. وأي تهاون من أي جيل يضيف إلى أعباء الأجيال التالية. ولما كان أسلافنا في عهد انحطاطهم الأخير، والممتد الى ما يقارب الألف من السنين قد عجزوا عن أداء الثمن المطلوب (سواء بسبب الطغيان الذي سادهم أو بسبب قصورهم الذاتي وهو الأهم)، فإن الثمن المفروض على أجيالنا العربية المعاصرة قد ارتفع إلى مستوى رهيب. وكثيراً ما نحاول التهرب منه بإلقاء عبء المسؤولية كلها على الأعداء والغرباء فنُرضي بذلك نفوسنا إرضاء سهلاً ولكننا نحوّلها عن الطريق الصحيحة الشاقة. ذلك أن من طبيعة الثمن المطلوب أداؤه أنه لا يزول ولا يقل بالتهرب منه، بل، على العكس، يزداد ويتضاعف وينتقل بحاله المتفاقمة إلى الأجيال التالية، وإنما يقل هذا الثمن وتخف أعباؤه

بقدر ما نكسب من تقدم (تحرّر) بمعناه الصحيح، وبقدر ونوعية استخدامنا لهذا الكسب في معالجة وجوه تخلفنا وأسبابه.

أقول: بمعناه الصحيح، أي المتصل بسلامة المواطن والإنسان وبارتقائهما الذاتي. ذلك اننا، بالإضافة إلى العناصر السلبية التي نعانيها من تراثنا الماضي، نخضع في الحاضر إلى سلطات خارجية وإلى قيادات داخلية تمتلك اليوم، أكثر مما امتلكت سابقاتها في أي عهد مضى، من الأدوات الخارقة والوسائل المخترقة ما يمكنها أن تزيد العقول جهلاً على جهل والنفوس فساداً على فساد خدمة لمصالحها. فإذا الشعوب تندفع وراء شعارات خادعة ودعوات كاذبة وتنساق إلى التنازل عن حرياتها وحقوقها وإلى قبول الإهذار والتضييع لمواردها، فتضحّي بمصالح أبنائها في هذا الجيل وفي الأجيال القادمة في سبيل ما هو زائف أو زائل، وتنقاد بوسائل الترغيب أو الترهيب إلى إيثار الخضوع للسلطات والقعود عن القيام بواجباتها والتخلي السهل الرخيص عن أداء أثمان تحررها ونهوضها.

— ٤ —

ـ ولقد كانت الدعوة الصارخة خلال هذا القرن في مجتمعنا العربي وفي أمثاله من المجتمعات المتخلفة الحضّ على التحرر من المستعمر ومن ركائزه وأدواته عن طريق بث الشعور الوطني وتقوية الروابط القومية ـ من لغة وتاريخ وثقافة ومصالح آنية ومستقبلية ـ بين أبناء الشعوب. وقد اختلفت تصورات الناس في «القومية» المرتجاة من حيث نطاقها، ومن حيث مضموناتها. ففي مجتمعنا العربي قامت دعوات قطرية ـ مصرية (فرعونية) أو لبنانية (فينيقية) أو سورية أو عراقية أو مغربية ـ وأخرى قومية عربية شاملة. هذا من حيث النطاق، أمّا من حيث المضمون، فأكثر الدعوات الوطنية والقومية انصرفت إلى التخلص من الحكم الأجنبي أكثر مما اهتمت بالبناء الداخلي. ولم تكن في الواقع ترتكز على نظريات شاملة أو عقائد متكاملة، بل كانت تكتفي بطلب الاستقلال المقترن أحياناً بالوحدة، إما لضيق في النظر والاختبار أو لاعتقاد خاطىء انه بمجرد بلوغ هذين الهدفين تتحقق فوراً (أو لنقُل حتماً) مطالب «الإصلاح» المجتمعي و«النهضة» القومية. ولم تبدأ الدعوات القومية إلا في الثلاثينيات من هذا القرن بتناول شؤون الاقتصاد والاجتماع والثقافة ضمن مفاهيمها ودساتيرها، وذلك بأشكال مختلفة ووتائر متفاوتة.

وتدل الصفحات التالية من هذه المجموعة على انتمائي إلى النهج القومي دون سائر النُهُج ـ كالثيوقراطي أو الشيوْعي ـ وذلك في نطاقه الواسع الذي يضمّ الشعوب العربية عامة وبالمضمون الشامل الذي يرمي إلى تجديد الحياة العربية بوجوهها كافة ولست أريد هنا التوقف عند الاختلافات بين العقائد والاتجاهات القومية التي نشأت ونمت في المجتمع العربي، وإنما أقصد إلى التركيز على مفهومي الشخصي للقومية عموماً،

على اختلاف أشكالها نطاقاً ومضموناً، وذلك توضيحاً لما سيأتي وتبييناً للمواقف التي اتخذتها والتي تتخلل الآراء والأحكام المنبثة في المجموعة التالية:

(١) إن القومية هي ظاهرة حديثة بدت أول الأمر واتخذت طريقها إلى النمو والتطور في منطقة معينة من العالم وفي زمن معروف ومحدد. أما المنطقة، فهي أوروبا الغربية. وأما الزمن، فهو العصر «الحديث» الذي بدأ متدرجاً من القرن الخامس عشر ثم انطلق مسرعاً من القرن السابع عشر، والذي نهضت فيه شعوب المنطقة المذكورة لتحصيل مطالبها المادية والمعنوية ولإحياء تراثاتها الحضارية. وقد أتاح لها هذا النهوض قدرات توجّهت بها إلى سبيلين عريضين مترابطين، هما متابعة «التقدم»، الذي يجلبه «التحديث» والحصول على المزيد من منافعه وغنائمه، والاندفاع منه إلى استعمار مناطق العالم الأخرى التي ظلت واقفة دون التطور «التحديثي» والتكوّن القومي المرافق له.

إني إذن أختلف والقائلين بأن القومية ــ أية قومية ــ نشأت منذ الأزل وما انفكت تميّز تطور شعبها خلال مراحل تاريخه. فإني لست أجد في العصور القديمة أو الوسيطة روابط «قومية» شاملة وفاعلة. لا شك أننا نرى لدى شعوب تلك الأزمنة ظواهر ارتباط بالأرض وبالبلد أو المنطقة، وانتماء إلى القبيلة أو العرق واعتزاز بهما واقتتال من أجلهما، وافتخار بالخصائص اللغوية أو الثقافية أو الحضارية. ولا شك أيضاً أن الشعوب القائمة حالياً قد ورثت ــ بشكل أو بآخر وبنسب متفاوتة ــ ما تراكم من أحاسيس أجيالها الماضية وأفعالهم وما تكوّن من خصائصهم. ولكن هذا التراث لا يتعدى في أفضل صوره أن يأتي «مادة خاماً»، لا أكثر، للتكوّن القومي الحاصل أو المطلوب في هذه الأيام والذي يركّز على وحدة «الأمة» القومية وأولويتها في التمييز بين الشعوب وفي تحريك التاريخ وفي انتهاج سبيل التقدم.

(٢) ينتج من هذا أن السعي القومي ينمو ويثمر بقدر ما يكون الشعب الذي ينخرط فيه قد وفّى الشروط المبدئية لهذا النمو والإثمار، تحرراً وتحضراً. ولا جدال في أن التكوّن القومي هو، ذاته، عامل فعّال في توجيه الشعب إلى التحرر والتحضر وفي تنمية طاقاته لتحصيلهما. على أن المهم ملاحظته أن هذين المكسبين ــ شأن التكوّن القومي ــ لا يأتيان دفعة واحدة، وإنما على دفعات متدرجة وعبر انقطاعات وانتكاسات متنوعة، وان التكوّن القومي ينشأ في الأصل نتيجة لتطورات وثورات اجتماعية واقتصادية وعقلية وسياسية أكثر من أن يكون سبباً لها وفاعلاً مولداً، ثم يظل في ما بعد يتفاعل وإياها تأثراً وتأثيراً، أخذاً وعطاء. وأهم هذه التطورات في التاريخ الغربي كانت «النهضة» العقلانية والأدبية والفنية، و«الإصلاح» الكنسي، والثورة الصناعية، وانبثاق الديمقراطية وانتشارها،

والثورتان الأميركية والفرنسية و«الثورات» المتلاحقة في المجتمع والحكم البريطانيين من تعميم لسلطة القانون وإقرار بحقوق المواطن والإنسان.

(٣) ويجدر بنا أن نلاحظ بشأن هذه التطورات وأمثالها التي يتطلبها التكوّن القومي:

(أ) انها **إنسانية**، بمعنى أنها لا تصدر عن خصائص طبيعية أو عن عوامل مجهولة، بل عن «نوعية» الإنسان (مصنوعاً وصانعاً) الذي يضمه المجتمع. فنوعية الإنسان (مقيسةً بنصيبه المحصّل من التحرر والتحضر) هي دليل صادق (ولعله الدليل الأصدق) على حال مجتمعه بعامة، وعلى أهلية ذلك المجتمع للتكوّن القومي.

(ب) انها **اكتسابية** بمعنى أنها لا تحصل بقدر محتم أو كمنحة من خارج أو كقسط من إرث، وإنما بالاكتساب الذاتي عن طريق الإدراك الواعي والجهد الخالص الدؤوب. فنوعية هذا الاكتساب وكيفية النضال في سبيله هما، معاً، كنوعية الإنسان الذي يمثلانه، دليل آخر صادق على حال مجتمعهما بعامة، وعلى أهلية ذلك المجتمع للتكوّن القومي.

(ج) انها **قابلة للانتشار** في المجتمع، بمعنى أنها ليست ملكاً محتكراً لفريق معين أو محصوراً بطائفة أو فئة محدّدة، بل انها تسري في صفوف المجتمع المهيأة لها. وبذا تكون حيوية هذا السريان وقدرته على اختراق الحواجز الموروثة من الماضي أو التي ينصبها القاهرون في الحاضر، وبالتالي القيمة الحقيقية لهذه الحيوية ــ جوهراً واتساعاً ــ مؤشراً آخر لحال مجتمعها بعامة، ولأهلية ذلك المجتمع للتكوّن القومي.

(٤) وكما أن القومية، كما نعرفها اليوم، لم تنشأ منذ الأزل، فقد لا تستمر بشكلها الحاضر إلى الأبد. ذلك أن النضال التحرري التحضري عندما يستمر ويتواصل خليق بأن يتخذ في العصور المقبلة أهدافاً وأشكالاً جديدة. وعندما تُعتبر القومية، أو أية ظاهرة أخرى من نتاج هذا النضال، غاية في ذاتها أو نهاية للمسيرة الإنسانية، فإن هذا الاعتبار يتحول إلى شبه «وثنية» من الوثنيات العديدة في التاريخ البشري التي ضلت بها الشعوب عن الرؤية الصحيحة والسلوك السديد واستمرت ــ واستمرت معها عواقبها الوخيمة ــ قروناً طويلة.

(٥) ومع احتفاظ القومية وقرائنها اليوم بقدر كبير من السلطة في المجتمعات المتقدمة، ومع النزوع المندفع لدى المجتمعات المتخلفة لإحرازها والدخول بفعلها في التاريخ الجاري، ثمة أدلة عديدة على ظهور الشكوك بشأنها وعلى تراخي الإيمان بها في مختلف المجتمعات، وذلك لأسباب متنوعة:

(أ) لقد جلبت القومية للمجتمعات المتقدمة في العصور الحديثة منافع اقتصادية واجتماعية وحضارية جليلة، ولكنها، من جهة مقابلة، خلقت لها ولغيرها من المجتمعات مشكلات ومآسي أشد خطراً وإرهاباً مما عرفته الإنسانية في ما سبق، وذلك بتحول النزوع القومي في تلك المجتمعات عن مقاصد التحرر والتحضر وتطبيق المبادىء الإنسانية التي أعلنتها إلى ابتغاء التسلط على المجتمعات الأخرى المتخلفة، فنشأت بذلك حركة الاستعمار الحديث التي دفعت الشعوب القادرة إلى غزو الشعوب الضعيفة لتوسيع رقعة حكمها وللاستيلاء على موارد هذه الشعوب وحصائلها.

وقد تحملت المجتمعات المتخلفة من جراء هذا الاستعمار متاعب قاسية وشروراً هائلة اقتضتها التضحية بالعديد من أبنائها (سواء في المنازعات والحروب التي لا شأن ولا مصلحة لها فيها، أو من أجل تحررها وسيادتها) وبأقساط مرتفعة من ثرواتها الطبيعية، أي بجزء لا يعوّض من الذخيرة البشرية والمادية التي كان يجب أن تحتفظ بها وتستثمرها لمصلحتها ولمصلحة أجيالها القادمة. على أن الشرور لم تقتصر على المجتمعات المتخلفة وحدها، بل أصابت أيضاً المجتمعات المتقدمة من جراء الاستعلاء والغطرسة القومية والتمييز العرقي التي تولدت فيها، وبفعل التنافس الحادّ بينها على خيرات الاستعمار ومغانمه، وما نتج من هذا وغيره من اشتداد المنازعات التي نشبت بينها، واحتدام الحروب القومية والإقليمية والعالمية التي خاضتها، وتفاقم الأسواء والنكبات في ساحاتها قاطبة ــ الغالبة والمغلوبة منها على السواء ــ وفي الساحة العالمية الشاملة.

وبنتيجة هذه الأسواء المتفاقمة قام أفراد وجماعات من المفكرين والممارسين الأحرار في المجتمعات المتقدمة لتبيان أخطار هذه التطورات، وللدعوة إلى التصدي لها والسعي إلى سدّ الشروخ المتسعة في سائر المجتمعات وفي ما بينها، ولتلبية الضرورة الملحة لدفعها نحو الانسجام داخلياً ولضمها معاً في مسيرة إنسانية شاملة.

(ب) ومن نتائج هذه التطورات التي تسترعي الانتباه عودة النزعات السابقة للقومية ــ كالقبلية والعرقية والدينية والطائفية ــ التي كان يُفرض في القومية، عقيدة وتطبيقاً، أن تكون قد صهرتها في كيانات موحدة ومميزة لمجتمعات هذا العصر. وقد برزت هذه العودة المنتشرة والمتأججة في شتى أنحاء المعمورة، كما نرى، مثلاً، في النزاعات العرقية والدينية في الهند، وبينها وبين باكستان، وفي الاضطرابات الخطيرة في دول آسيا الوسطى التي نشأت عن انحلال الاتحاد السوفياتي، وفي العصبيات القبلية وآثارها الفادحة في الحروب الأهلية وتقلبات الحكم في دول القارة الأفريقية، وفي المجازر الدامية في دول يوغوسلافيا السابقة وسائر التوترات المحتدة في دول أوروبا الوسطى والشرقية وأميركا اللاتينية، وأخيراً (لا آخراً لأهميتها لنا) في الصراعات الملتهبة بين

الأصولية الإسلامية والقومية التحديثية في البلدان العربية وما جاورها من بلدان الشرق الأوسط. ولم يقتصر هذا الارتداد إلى النزعات السابقة على المجتمعات المتخلفة فحسب، بل بدا حتى في المجتمعات المتقدمة التي مضى على تكوّنها القومي عهود طويلة نسبياً، كما نجد في التصادم العنفي المستمر بين الإنكليز البروتستانت والإيرلنديين الكاثوليك في إيرلندة الشمالية، وفي النزعات المفرقة بين ذوي الأصول الفرنسية وذوي الأصول الأنغلوسكسونية التي تكاد أن تهز كيان كندا، وبين الوالون الفرنسيين والفلَمنك الجرمانيين في بلجيكا، وبين البيض والسود في الولايات المتحدة... إلخ، مما يظهر أن القومية لم تستطع أن تتغلّب على النزعات المغروسة في النفوس تغلباً كاملاً وشاملاً حتى في المجتمعات الغربية التي بنتها أو تبنتها وأعادت تكوين ذواتها على أساسها.

(ج) كل هذا يجري بينما التطورات العلمية والتقنية ـ و«ثورة الاتصالات» بخاصة ـ تمضي في اختراق الحدود وهدم السدود القائمة بين مجتمعات الأرض كافة، وفي ضم هذه المجتمعات معاً في ما أصبح فعلاً لدى كثير من التطلعيين «قرية كوكبية»، وفي تحجيم كوكبنا ذاته في نظام كوني يزداد اتساعاً ويتقادم نشوءاً. كل هذا يدعو إلى تجاوز الولاءات السابقة، القومية وما قبل القومية، بنزعاتها وصداماتها، إلى ولاء شامل للإنسانية كلها، تنتظم في ضمنه الولاءات المجتمعية المختلفة بانسجام وتمايز.

إن تبصري في هذه الحقائق، على خلفية المسيرة البشرية التي كانت مهنتي تفرض عليّ باستمرار استعراضها ومراجعتها، أدى بي إلى الاعتقاد أن النظام القومي ليس بالضرورة، نظاماً خالداً بشكله الحاضر، وأن أي تصور له على هذا المثال ينتهي بامتصاص حيويته وبالتالي تحجره. وخليق بالشعوب اليوم، للحفاظ على حيويته وعطائه، أن تجعله، ككل شيء حي، قابلاً للتطور حسب تبدل الأوضاع والمؤثرات الفاعلة في مجتمعه وفي المجتمع الإنساني. وكما أن هذا النظام حاول، ونجح إلى درجات متفاوتة، في الجمع بين الولاءات الصغرى (القبلية والطائفية والمحلية) أو الكبرى (كالأديان العالمية والطبقات الاقتصادية) التي كانت سائدة قبله، فلعل المجتمع المنبثق الآن يتوصل في بعض مراحل تطوره المقبلة إلى التوفيق بين الولاءات القومية وغير القومية المنتشرة فيه ويوثقها بعضاً ببعض بشكل متكامل وحيوية فاعلة ومتقدمة حقاً.

ولكن إلى أن يبلغ المجتمع الإنساني تلك المراحل المقبلة، فإن القومية تظل، للمجتمعات المتخلفة، كما كانت للمجتمعات المتقدمة، النظام الواقي الذي يسعى إلى التغلب على النزعات المفرقة في المجتمع والى صياغتها في كيان واحد يحميه من الأخطار الخارجية ومن الزلات الداخلية، ويمدّه بالقدرة الناتجة من تنمية مؤهلاته وحشدها لصون الذات وسلوك سبيل التقدم.

أ ــ نأتي الآن إلى العقيدة القومية المعيّنة التي اخترتها وارتبطت بها وعبّرت عنها في ما فكرت وكتبت وعلّمت وعملت، أعني **القومية العربية**. ويعود سبب اختياري لها وانضوائي تحت لوائها إلى ما استخلصته من دراساتي التاريخية والاجتماعية ومن تأملاتي في الأحداث والتطورات الجارية. فقد أدى بي هذا الاستخلاص إلى اقتناعين أساسيين: أولهما، أن الشعوب العربية تتمتع بخصائص جغرافية وتاريخية وثقافية، وبموارد طبيعية وبشرية، وبمصالح مشتركة حاضراً ومستقبلاً، ما يؤهلها لأن ترتبط في ما بينها برباط حي موحّد يمكنها من التحرر من ضروب التحكم الخارجي المتسلط عليها حالياً ومن التعديات التي ستتعرض لها في المستقبل، ويفسح لها في مجالات التقدم والرقي لأفرادها ومجموعها، ويؤهلها لاحتلال مكانة فاعلة بين المجتمعات القومية الأخرى. أما الاقتناع الثاني، فهو أن ضرورات البقاء والتميز في عصرنا الحاضر تفرض على جميع مجتمعات اليوم أن تنتظم في تكتلات واسعة النطاق موفورة الموارد تهيئها ــ أكثر مما تهيئها المجتمعات الضيقة النطاق والمحدودة الموارد ــ لمجابهة التحديات المتصاعدة خطورة وخطراً.

أعود فأذكر أن الأجواء التي عشت فيها أيام شبابي من عشرينيات هذا القرن إلى الحرب العالمية الثانية كانت مفعمة بالتيارات القومية التي كانت تتدافع في أذهان النخبة من المفكرين والعاملين وفي الساحات الشعبية المائجة، منها، كما قلنا، التيارات القطرية ــ كالفينيقية في لبنان، والفرعونية في مصر، والسورية التي حمل لواءها الزعيم الفقيد انطون سعادة ونظمها حزباً فاعلاً لا تزال له مكانته في المعترك السياسي في لبنان اليوم ــ والتيارات التي اتخذت صفة عربية شاملة، كما في «عصبة العمل القومي» في سورية ولبنان، وفي نادي «الجوال» و«المثنى» وأمثالهما في العراق، وفي «حركة القوميين العرب» التي نشأت في الجامعة الأميركية في بيروت ثم حملها أصحابها إلى بلدانهم العربية المختلفة وإلى ساحة النضال الفلسطيني بخاصة، وفي «حزب البعث العربي الاشتراكي» الذي لعب وما يزال دوراً هاماً في تطورات الأحداث والأوضاع في سورية والعراق. وجميع هذه النزعات القومية العربية وغيرها جاءت ممهدة للموجة العارمة التي أطلقها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر والتي تفاعلت تفاعلات شتى وحركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي. وكانت هذه التيارات وتفاعلاتها تطغى على مجالات الفكر والعمل في المجتمع العربي وخصوصاً في لبنان نظراً إلى الحرية السائدة فيه ولتوسط موقعه ولانفتاحه على البلاد العربية وعلى الحركات السياسية والثقافية عموماً. ولا أزال أذكر بين المناقشات والمجادلات العديدة التي اشتركت فيها حول هذه الموضوعات، تلك

التي جرت بين انطون سعادة وبيني. فقد كان سعادة حينذاك، بعد إخفاق مساعيه في سورية لنشر عقيدته القومية السورية وبناء حزب سياسي قومي على أساسها، قد تحول أوائل الثلاثينيات إلى لبنان وإلى أوساط الجامعة الأميركية ومحيطها بخاصة، وانطلق في التبشير والتنظيم لإنشاء الحزب الذي كان يعتبره الأداة الفاعلة لتحقيق القومية السورية المرجوة. فلقد كانت بيني وبينه مناقشات مستمرة ــ وحامية أحياناً ــ في أراضي الجامعة الأميركية في بيروت وفي محيط «عرزاله» في ضهور الشوير، وفي أماكن أخرى، فلا أنا استطعت إقناعه بموقفي ولا هو نجح في اجتذابي إلى عقيدته. ومثل ذلك كانت مناقشاتي مع الداعين إلى «الفينيقية»، في لبنان، سواء منهم الأكاديميون أو السياسيون.

ب ــ أما مداولاتي والقائلين بـ «العروبة» أو بـ «القومية العربية»، فقد كانت تجري في **اتجاهات ثلاثة**:

الاتجاه الأول هو التمييز بين القومية العربية والإسلام. أقول التمييز ولا أقول الدحض أو النفي لتأكيد هاتين العقيدتين، بجوهريهما، على هدف واحد، هو تحرير المواطن والإنسان من تحكم الغير ومن نقائصه الذاتية. فالإسلام، كغيره من الأديان العالمية، معين روحي دافق يجدر بأية عقيدة قومية، وبالعقيدة القومية العربية بخاصة، أن تستقي منه وتتقوى به وترقى. على أن التطورات الحديثة التي أبرزت الحركات والمجتمعات القومية قد فصلت بينها وبين الأنظمة الدينية تحقيقاً للمساواة بين المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم. إن الأنظمة الدينية تتوجه في المجتمعات الإنسانية من الأعلى إلى الأدنى عن طريق الوحي الإلهي. أما الأنظمة القومية، فتحاول بناء هذه المجتمعات من الأدنى إلى الأعلى، أي من الشعب وبالشعب ومن أجل الشعب المعتبر مصدر كل سلطة سياسية ومحرك التحرر والتقدم. فلا يضير هذا الشعب في تكوّنه وتحضره وترقيته، بل يفيده ويغنيه، أن يتخلص أفراده من رذائلهم ويسموا نفسياً وخلقياً بتعاليم دينهم، شرط أن تعرف السلطة الدينية حدودها، فلا تقيم نفسها سلطة سياسية بالإضافة إلى سلطتها الروحية الدينية، فتعيق نشر المساواة القانونية التامة بين المواطنين، وهي أساس العقيدة القومية والتنظيم القومي.

أما **الاتجاه الثاني** في مداولاتي مع القائلين بالقومية العربية، فهو نحو تأكيدي وجوب احتواء أية دعوة قومية وأي تنظيم قومي على «لب» اقتصادي اجتماعي ثقافي، لأن القومية الحقة ليست دعوة سياسية فحسب، وإنما هي حركة شاملة لحياة الشعب كلها تعمل على تحريرها من الأسواء الداخلية والخارجية معاً وإلى نقل أوضاعها من مواقع التخلف والانفعال والتبعية إلى مرامي التقدم والفعل والسيادة. ويبدو حرصي على شمولية الحركة القومية للحياة العربية بمجموعها من «الكتاب الأحمر» الذي اشتركت في

وضعه مع فريق من إخواني المؤمنين بالقومية العربية والعاملين لها، والذي غدا دستور تيار قومي انبث في عدد من البلاد العربية وكان له دعاته وجنوده الذين قضى بعضهم في ساحات النضال وبقي البعض الآخر أمناء له ملتزمين مبادئه ومعتزين به وبها. وكذلك سرت عقيدتي هذه بشمولية الفكرة العربية للحياة العربية كلاً في سائر مؤلفاتي ومحاضراتي، ومنها المحاضرات الخاصة بهذا الموضوع التي كنت ألقيها على فريق من طلاب الجامعة الأميركية بطلب منهم، وفي المناقشات التي كنت أشترك بها حول هذه القضية المتصدرة اهتماماتنا والباعثة الدائمة لأحلامنا ولمخاوفنا.

أما **الاتجاه الثالث** فمصدره اقتناعي أيضاً بضرورة تكوين العقيدة القومية العربية الصحيحة، وتأصيلها في نفوس الشعوب العربية وبناء قواعد متينة لها في المجتمعات العربية، قبل الإقدام على محاولة تطبيقها سياسياً أو فرضها فرضاً «فوقياً» بواسطة أصحاب السلطة من مدنيين أو عسكريين، إذ ما يلبث الأولون أن يصبحوا ألاعيب في أيدي الآخرين، يُحكم باسمهم ولا يحكمون ويشهدون انفراط قوميتهم وتدهور مجتمعهم ووطنهم وهم عاجزون، أو يمتصهم الفساد فيشتركون في عملية التدمير الفاجعة وفي انحدار المجتمع إلى دركات أسوأ فأسوأ.

ج ـ على أن الفرق الأساسي البارز بين نظرتي إلى القومية العربية ونظرة الكثيرين من دعاتها والناطقين بها هو اعتباري أن هذه القومية ليست في الواقع موجودة الآن فعلاً، ولم تكن موجودة بمفهومها الحديث في أي من عصور تاريخنا. إن ما كان موجوداً منها في تراثنا، وما يتجلى منها في خضم حياتنا الحاضرة، إنما هو مجموعة عناصر مؤهلة لتكوين قومية عربية حيّة فاعلة إذا عرفنا كيف نقتبسها ونطوّرها حسب متطلبات الحاضر والمستقبل. وكما قلت وكتبت مرات، إن القومية العربية، إذا أردنا استخدام المصطلح الفلسفي، هي قائمة فينا بـ «القوة»، أي إمكاناً وقابلية، لا «بالفعل»، أي وجوداً وتحققاً، وبالتالي حيوية وتأثيراً. وهذا يعيدنا إلى ما قلناه سابقاً بشأن القومية عموماً من أنها لم توجد منذ بدء التاريخ ولن تدوم على ما هي عليه اليوم حتى نهايته، وإنما هي يقظة من اليقظات التي خبرها المجتمع الإنساني والتي تشكل محطة هامة من المحطات التي تحلّ فيها المجتمعات الإنسانية في مساراتها التاريخية الحضارية. إنها حركة تطورية وتطويرية، ونوع (ومدى) تطورها وفاعليتها التطويرية يتوقف على نوع (ومدى) وعي أصحابها لها ومشاركتهم في غرسها وتعهدها.

وقد تصورت أن مساهمتي في ميدانها يجب أن تتوجه إلى توضيحها وإيقاظ الوعي لها، وإعداد الأشخاص ليكونوا مؤهلين لحمل مسؤولياتها. وقادني هذا التصور، الراجع قسط كبير منه إلى مزاجي الخاص ونهجي الأكاديمي، إلى التركيز على هذا النوع

من المساهمة بعيداً عن العمل السياسي والممارسة الحزبية والانشغال بمعالجة المشكلات الآنية والأحداث الجارية.

إن مفهومي هذا للقومية هو الذي يدفعني إلى تجنب استعمال تعبير «الوطن العربي» وإلى إيثار تعبير «المجتمع العربي» الذي لم يتطور بعد، في نظري، ليصبح «وطناً» عربياً لـ «أمة» عربية قد تحققت فعلاً وأصبحت تطبع مجتمعها بطابعها الخاص وتوجه حركيته في طريق التكامل والتفاعل نحو غاياتها المرسومة.

د ـ ومهما يكن من أمر، فإن القومية عامة، سواء أكانت عندنا عربية شاملة أم قطرية محدودة، ليست سدرة المنتهى أو الهدف الأخير لأي قوم أو لأي مجتمع. إنها السبيل التي لا تزال منفسحة للمجتمعات الطامحة إلى البقاء والفعل والعطاء. أما الغرض الحقيقي الأصيل الذي يصحّ ـ بل يجب ـ أن يكون هدفاً لمساعي هذه المجتمعات والذي يعزّز ويشرّف دروب نضالها، فهو التقدم الحضاري المتمثل باكتساب قيم إنسانية صحيحة ومتجددة. ولعلّ الأحرى أن نقول «الرقي»، بدلاً من «التقدم»، لأن التقدم قد يحصل في ناحية من حياة المجتمع دون النواحي الأخرى أو على حسابها، كما هي الحال في المجتمعات «المتقدمة» أو الحركات «التقدمية» في هذه الأيام. أما الرقي فله اتجاه واحد متسام نحو الأعلى والأفضل في سلّم القيم الإنسانية. (ونعود هنا لنؤكد أن هذه القيم هي في جوهرها عقلية وخلقية).

إني أزعم أن دراساتي للقومية كان لها دوماً متضمناتها التحررية (ولا أقول «التحريرية»، لأن التحرر يأتي نتيجة جهد ذاتي لا بفعل عوامل خارجية). ولقد قادتني تأملاتي في هذا الشأن إلى مزيد من الاهتمام بقضايا التحرر والتحضر والتركيز عليها في نطاقيها العربي والعالمي، مما أدّى إلى وضعي كتاباً خاصاً بها هو: **في معركة الحضارة**(١)، وإلى انسياب هذا الاهتمام في دراساتي ومؤلفاتي جميعاً.

ـ ٦ ـ

بجانب هذا الاتجاه ـ التحرري التحضري ـ الذي تضمنته نظرتي إلى القومية بعامة، والقومية العربية بخاصة، ثمة اتجاه آخر انصرفت إليه عنايتي ودارت حوله تأملاتي ودراساتي في السنوات الأخيرة من حياتي التعليمية والتأليفية، هو ما أدعوه: «الاتجاه المستقبلي». فمن المعروف والمتفق عليه أن من أهم عناصر القومية ومن أقوى العوامل في

(١) ط ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤)، وط ٤ (١٩٨١).

إثارة الوعي القومي التاريخ المشترك والتراث المتراكم على مدى العصور. ذلك أن هذين العنصرين المترابطين يؤثران تأثيراً بالغاً في تحديد «هوّية» المجتمع، وبالتالي في تكوين نظرته وفاعليته القومية. ويشتد هذا التأثير ويبرز طابعه في هذه النظرة والفاعلية عندما يكون التاريخ المشترك ثرياً والتراث المتحدر منه زاهياً مجيداً. وهكذا كان، كما نعلم، شأن التاريخ العربي وأثر الحضارة العربية التي ازدهرت عدة قرون في الماضي، بل احتلت المقام المتقدم للحضارة في القرون الوسطى، كما كان لها فعلها في انتقال التطورُ الإنساني في تلك القرون إلى العصور الحديثة. فمن الطبيعي أن يأتي التكوّن القومي العربي الحديث «سلفياً» في نزعته، «ماضوياً» في مرتكزاته، وأن يطمح إلى «إحياء» الحضارة العربية المجيدة السابقة.

غير أن القومية العربية تخفق في تحقيق هدفها التطويري أو الإحيائي إذا لم يصاحبها، بل إذا لم يبعثها، تطلع خارق إلى الأمام واهتمام حثيث بالاتجاهات القومية والإنسانية. ولعلي أذهب إلى أبعد من هذا، فأقول إن الاهتمام المستقبلي وتوفية المطالب الراهنة والمرتقبة هما الإنجازان اللذان يحدّدان، أول الأمر وآخره، حسن تقدير التراث وجدوى استيحائه. وأزعم ان أسلافنا الذين أنتجوا الحضارة العربية المتألقة في الماضي كانوا مقدامين، مستقبليين في توجهاتهم العقلية والحضارية. فلما خبا الإقدام، وأخذ قادة الفكر والعمل حينذاك يكتفون بما أنجز أسلافهم ويؤثرون النقل والتقليد على العقل والاجتهاد، انكفأت الحضارة وأخذت تلج نفقاً بعد نفق من الظلام وتنحدر دركاً بعد درك من الجهل والضعة.

ومن هنا يظهر أن التوجه المستقبلي، الذي يخشى البعض من أثره في إضعاف الاهتمام بالتراث وفي الإخلال بالرابطة القومية هو، على العكس، السبيل الذي نصل به إلى صحة تفهم التراث وجودة استيعابه، وهو الذي يميّز الأصيل من هذا التراث الذي يجب الاحتفاظ به وإحياؤه عن الهزيل والمعيق الذي يجب إهماله وتجاوزه.

يضاف إلى هذا، أن المجتمع الإنساني الحاضر يخوض غمرات عارمة متسارعة في التطور الحياتي والفكري. وكل من يأبى مجاراة هذا التطور أو يتلكأ فيه أو يعجز عنه سيبقى في تخلفه وفي تبعيته التي لا يُغني معها أي تاريخ ماضٍ مهما يكن قد اكتسى في مراحله السابقة من زهو أو تفرّد بعطاء. ونعود فنؤكد أن هذه المجاراة لا تنافي الحرص على التراث وضرورة استيحائه من أجل استكشاف الهوية القومية وخوض معارك التحرر الناشبة في هذا العصر، بل إنها المدخل اللازم والشرط الضروري للاستكشاف الناجع والخوض السليم الناجح.

وقد عالجت جوانب هذا الموضوع وما يتصل بها من مشكلات ومهام في ثلاثة

من مؤلفاتي، هي: **نحن والتاريخ**(٢)، **ونحن والمستقبل**(٣)، **ومطالب المستقبل العربي**(٤).

ـ ٧ ـ

وكان من الطبيعي أن تحتل **المهنة** الجامعية (أو إذا أردنا أن نؤديها حقها: **المهمة** الجامعية) التي انتميت إليها خلال أكثر سنوات حياتي مكانة متقدمة وفاعلة في تفكيري وتأليفي، فلقد قضيت ما ينيف على أربعة عقود أستاذاً (ونائب رئيس أو رئيساً بالوكالة) في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٣٠ ـ ١٩٤٥، و١٩٤٧ ـ ١٩٤٩، و١٩٤٩ ـ ١٩٧٨، وبعدها أستاذاً ممتازاً مدى الحياة)، وثلاث سنوات رئيساً للجامعة السورية في دمشق (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢). واهتممت بشؤون المؤسسة الجامعية عالمياً باشتراكي في المؤتمر التأسيسي لإنشاء الرابطة الدولية للجامعات المتعاونة واليونسكو (١٩٥٠) ثم انتخابي لدورتين (١٩٥٥ ـ ١٩٦٥) عضواً في المجلس الإداري لهذه الرابطة، ثم رئيساً لها (١٩٦٥ ـ ١٩٧٠)، ومن بعد أحد رؤسائها الفخريين مدى الحياة. وقد أتاحت لي هذه المشاركة في الرابطة الدولية أن أكون على اتصال بالجامعات العربية من خلال «اتحاد الجامعات العربية» و«اتحاد الجامعات الأفريقية» اللذين انتظما خلال مشاركتي تلك، سواء بزيارة بعض الجامعات المنتمية إلى أحد هذين الاتحادين، أو إلى كليهما (جامعات مصر والسودان والمغرب العربي)، أو بالاطلاع على بعض دراساتها وتقاريرها، أو بالاتصال الشخصي بمندوبي الجامعات أو مندوبي الاتحادين الذين كانوا يحضرون اجتماعات المجلس الإداري للرابطة أو مؤتمراتها العامة.

وكان اهتمامي هذا ناشئاً، كما قلت، من طبيعة مزاولتي لمهنتي المتمركزة في التعليم العالي. واني أرى أنه يجدر بكل إنسان أو كل مواطن واع أن يحاول تلمس معاني المهنة التي ينتمي إليها (من طب أو محاماة أو إدارة أو تجارة أو صناعة ...الخ)، والمسؤوليات التي تحمّله إياها، والآثار التي تحدثها ـ أو التي يجب أن تحدثها ـ في حياته ذاتها وفي المجتمع الذي يضمه. هذا إذا كان يطمح إلى أكثر من التقاط لقمة العيش أو تجميع الثروة أو نيل الجاه أو الحظوة لدى أصحاب السلطة، وخصوصاً إذا كانت مهنته مرتبطة بمؤسسة يفرض فيها أن تحتضن القيم وترقي العقول والنفوس كما هي الحال في المؤسسة الجامعية.

---

(٢) ط ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩)، وط ٦ (١٩٨٥).
(٣) ط ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧)، وط ٢ (١٩٨٠).
(٤) (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣).

لقد كانت هذه المؤسسة خلال الأجيال عاملاً فعالاً في تقدم المجتمعات وفي تكوين الحضارات وتعزيزها عن طريق إنماء المعرفة وترقية الأشخاص. وحريّ بها أن تعي جوهر وظيفتها هذه وتتمسك به في هذا العصر فلا تنحرف عنه يميناً أو شمالاً. ذلك أن هذا الجوهر قد يغيب أو يفسد بفعل روح الحضارة الصناعية المعاصرة أو بسبب المسؤوليات الضخمة التي تلقيها المجتمعات على عاتق جامعاتها، كالمشاركة الفعلية في حركات الاستقلال والتحرر، أو كقبول حشود متكاثرة من طالبي التعليم العالي، أو كالتوسع في الاختصاصات التعليمية، أو كالنشاط والفاعلية في البحوث العلمية، أو غير ذلك. ويصدق هذا بخاصة على جامعات المجتمعات المتخلفة التي أنشئت حديثاً والتي لا تتمتع بما حصلته زميلاتها في المجتمعات المتقدمة من حصانات ومكاسب. ومع ما توفره جامعات اليوم، على اختلاف مواقعها من التقدم أو التخلف، لجامعاتها من موارد مادية وبشرية متزايدة، فإن هذه الموارد تبقى إلى حدّ كبير دون الواجبات المتصاعدة المطلوبة من هذه المؤسسات. وأهم من تناقص الموارد بالنسبة إلى المطالب، تبقى ثمة الحاجة الأساسية التي هي لهذه المؤسسات بمنزلة الماء والهواء والغذاء ــ أعني بها **الحرية**: حرية الجامعة في تحديد أهدافها وفي صياغة نظمها وبرامجها وفي ممارسة وظيفتها الخاصة التي تتطلب، أول ما تتطلب، حرية القول والفكر والاعتقاد وصفاء النقاش وغناء الحوار.

ثمة إذن تكاثف وتواثق في العلاقات بين المجتمعات (وسلطاتها الحاكمة) من جهة، وبين جامعاتها من جهة أخرى، كثيراً ما يؤديان إلى توتر وتنافر بدلاً من أن يكونا من عوامل التلاقي الإيجابي والتفاعل الإبداعي. وكثيراً أيضاً ما تغدو الجامعات أدوات طيّعة تابعة للتطورات السائدة في مجتمعاتها أو لرغبات السلطات الحاكمة وأهدافها، فتهمل صون حرمتها وكرامتها وضمانة حريتها، أو تعجز عن ذلك. ولا يتوفر لها هذا الصون المقترن بالضمانة إلا بقدر ما تبذل (وعلى وجه التخصيص ما يبذل أساتذتها) من جهود نضالية في سبيل توضيح مهمتها الأساسية ــ وهي ترويض العقول على طلب الحقيقة الموضوعية وتربية النفوس على حيازة الفضائل الخلقية ــ وبقدر ما تمثل ويمثلون في تفكيرهم وسلوكهم القيم الرفيعة التي يترتب على الجامعة أن ترعاها وتظل أمينة لها ومدافعة عنها، وأن تحاول بثها في مجتمعها.

لقد حاولت متابعة هذه القضية الجوهرية ــ قضية المهمة الجامعية، وما يتصل بها من شؤون وشجون، محلياً وعربياً وعالمياً ــ وذلك لاعتقادي المكين بفرادة العطاء الذي يجب أن تقدمه الجامعة لمجتمعها، ومن قلقي وحزني لما أراه من اختراقات جامعات بلادنا من الخارج وانحرافاتها في الداخل، وبالتالي قصورها عن أداء مهمتها في التحرير والترقية، بل تحولها إلى أداة من أدوات التجهيل و«التسطيح» والتمييع العقلي والخلقي. وتبدو مظاهر هذه المتابعة في المحاضرات والمقالات المختصة بها وفي الكتابات الأخرى

حيثما أرى مجالاً لتبيان دور الجامعات (أو مؤسسات التعليم العالي على العموم) في إطار موضوع البحث.

— ٨ —

ومن المسؤوليات المتوافرة الملقاة على عاتق الجامعات في هذه الآونة مسؤولية رعاية البحوث العلمية وتنشيطها. وقد كان هذا الأمر من هواجسي الدائمة في مراحل حياتي المختلفة، وصاحب اهتمامي باستيضاح المهمة الجامعية في هذا العصر، سواء بما يختص بالجامعات العريقة أو المتقدمة التي يكوّن البحث العلمي (بالمعنى الواسع للعلم) عنصراً هامّا أو العنصر الأهم في برامج أعمالها، أو ما يتعلق بالجامعات الناشئة التي تحاول تحديد وظائفها واختيار أولوياتها في ضوء الحاجات التي تجابهها.

ومن الواضح أن الجامعات في بلادنا العربية تقع ضمن الفئة الثانية، وهي تحاول، مع حداثة عهدها، أن تقوم بالمهام المتعددة والثقيلة التي تفرضها عليها مجتمعاتها وسلطاتها الحاكمة في هذا العصر المتطلب، ومنها: فتح أبوابها مشرعة لقبول جماهير الطلاب المتدفقة عليها من التعليم الثانوي، تدني مستويات هذا التعليم، إيفاء حاجات المناطق المختلفة إلى التعليم العالي، توسيع الكليات القديمة وإنشاء كليات ومعاهد جديدة وتجهيزها جميعاً بالمكتبات والمخابر والمعامل الضرورية والمتجددة، إقامة الأبنية والمنشآت التي تقتضيها هذه التطورات، تلبية دعوات الحكومات إلى المساهمة في معالجة المشكلات المجتمعية أو في رسم الخطط التنموية. وأهم من هذا كله تأهيل أساتذتها ومدرسيها لمتابعة تقدم المعرفة وتقنيات نقلها ونشرها.

فلا عجب في هذه الحال أن يأتي نتاج جامعاتنا البحثي ضئيلاً بالنسبة إلى نتاج زميلاتها في البلدان المتقدمة، وكذلك بالنسبة إلى الحاجات المتصاعدة لمجتمعاتها ذاتها. ولا يخفى على المراقب أن شؤون البحث العلمي لم تعد محصورة في الجامعات وغيرها من مؤسسات التعليم العالي، بل خرقت أسوار هذه المؤسسات لتصبح موضع رعاية مراكز بحثية، حكومية أو خاصة، تُنشأ من أجلها. وهنا أيضاً يبدو قصور المجتمعات المتخلفة عن المجتمعات المتقدمة في هذا الشأن الذي أصبح حيوياً لأي مجتمع وشرطاً أساسياً لأي تقدم أو تحضّر.

ومن مشاركتي في أعمال اليونسكو (وعضويتي في مجلسها التنفيذي ١٩٥٠ — ١٩٥٤)، وفي أنشطة الرابطة الدولية للجامعات المارّ ذكرها، تسنّى لي الاطلاع على ما تبذله المجتمعات المتقدمة في هذه الأيام على شؤون البحث العلمي والتطوير أو التنمية.

وتبدو أهمية هذه الشؤون من أن بعض المؤسسات الدولية وفريق كبير من الباحثين والمحللين يتخذون حجم المبالغ التي ترصدها المجتمعات لهذه الشؤون (Research and Development, R & D)، أو نسبة هذه المبالغ إلى الموازنات السنوية لدولة ما، دليلاً هاماً ـ إن لم نقل الدليل الأوفى ـ على تقدير درجة تقدم مجتمع تلك الدولة أو نموه، وبالتالي قدرته بالنسبة إلى قدرات المجتمعات الأخرى.

ولئن لم يكن من الجائز أن نقابل حالنا العربية من هذا الوجه بأحوال المجتمعات المتقدمة والدول الكبرى، فلا أقل من أن نقابلها بحال إسرائيل القائمة في وسطنا والعاملة في بناء كيانها وتثبيته وتوسيعه على أرضنا وعلى حطام حقوقنا. إن الفارق بين أوضاع البحث العلمي في إسرائيل وأوضاعه في بلادنا العربية لجدير بأن يثير أشد القلق لدى الواعين من أفرادنا وجماعاتنا، سواء من حيث أعداد الباحثين المنتجين، أو المؤسسات والمراكز الموقوفة على الشؤون البحثية والاستكشافية وموارد هذه المؤسسات ومستوياتها، أو النتائج العلمية المبتكرة، المكتوبة منها والمنشورة في المجلات العالمية المتخصصة وقرائنها العملية الداخلة في التطورات التقنية المستجدة. ولعل إحدى النواحي البارزة في المقابلة بيننا وبينهم والخليقة وحدها بأن تقضّ علينا مضاجعنا هي أن فريقاً كبيراً من الباحثين المؤهلين من أبنائنا الذين أنفقنا المبالغ الطائلة وبذلنا الجهود المضنية في سبيل تأهيلهم يهجروننا الآن إلى البلدان المتقدمة فيحرموننا من مواهبهم وكفاءاتهم (هجرة الأدمغة)، بينما إسرائيل تجمع من أقاصي الأرض العلماء الباحثين اليهود (ومن تيسر من غير اليهود) الذين تكوّنوا وتأهلوا على حساب المجتمعات المتقدمة لتفيد من مواهبهم وكفاءاتهم في شتى المجالات التي تحتاج إليها لإنماء قدراتها (حشد الأدمغة)(٥).

ويضيّق البعض معنى «العلم»، فيقصرونه على العلوم الطبيعية والرياضية وعلى تطبيقاتها المهنية كالطب والهندسة والزراعة والصناعة والشؤون التقنية عموماً. على أن ما

---

(٥) ورد في صحيفة النهار (العدد ١٨٩١٣، الاثنين ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٩٤)، ص ١ ما يلي: «أعلنت وزارة الخارجية الاسرائيلية أمس أن بريطانيا وافقت على مشاركة اسرائيل في مشاريع الأبحاث العلمية الأوروبية، رافعة بذلك العقبة الأخيرة التي كانت تعترض الدولة العبرية في هذا المجال.

وأوضحت أن وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية دوغلاس هوغ أبلغ الى نائب وزير الخارجية الاسرائيلي يوسي بيلين الخميس الماضي أن بلاده توافق من الآن وصاعداً على «المشاركة الكاملة لاسرائيل» في مشاريع أبحاث وتنمية يقوم بها الاتحاد الأوروبي.

وقال بيلين للاذاعة أمس... ويمكن القول إن اسرائيل ستصبح في نهاية أيلول جزءاً من المجموعة الأوروبية في كل ما يتعلق بالأبحاث والتطوير، وهذا انجاز مهم في نظرنا على الصعيد السياسي... ويذكر أن اسرائيل تخصص ثلاثة في المئة، من الناتج القومي الاجمالي للأبحاث والتنمية، مما يضعها ضمن الدول المتطورة».

فأية دولة عربية أو مجموعة من الدول العربية، بلغت هذه المرتبة، أو تسعى لبلوغها، في شؤون البحث والتطوير؟

نعنيه هنا يتجاوز هذه الحدود وينبسط على المعرفة كلاً، بما فيها الآداب والدراسات الإنسانية والاجتماعية. بل لعل هذه الدراسات الأخيرة هي أحوج من سواها إلى الانضباط بالقواعد والأساليب التي يقوم عليها العلم وإلى التحصن والتقدم بالبحث الابتكاري، إذ إنها هي النواحي التي يسهل فيها التوهم والتغافل والانزلاق إلى الفكر الشارد والملتوي، بل إلى «اللافكر» الذي كثيراً ما يسطو علينا ويؤدي بنا إلى الانحراف والضلال والإمعان في التخلف.

لقد كان فقر المجتمع العربي في هذا الجانب الهام من سيرته الحاضرة هاجساً، كما قلت، دائماً لي ومقلقاً لنفسي، أعرب عنه، كلما سنحت لي الفرصة، للزملاء العاملين والعاملين وللحكام المسؤولين وللرأي العام في ما ألقي من محاضرات وخطب وما أنشر من بحوث وتقارير. ولعله كان لهذه الدعوات أثر، ولو ضئيل، في ما أنشيء من مجالس أو مراكز بحوث في بعض البلاد العربية التي كان لي نشاط فيها، وأذكر منها هنا: اتصالاتي ببعض أركان الحكم وأعضاء المجلس النيابي في لبنان من أجل إنشاء المجلس الوطني للبحوث العلمية، وتأكيدي لدى السلطات الحكومية في الكويت، عندما عزمت على إنشاء جامعة الكويت ــ سواء من خلال عضويتي في لجنة الخبراء الاستشارية التي كونتها لمعالجة هذا الموضوع عام ١٩٦٠ أو في تقريري الخاص التالي الذي قدمته لها في هذا الشأن ــ أن يكون للبحث مقامه المتميز في الجامعة المنوي إنشاؤها، فلا تأتي هذه الجامعة الجديدة التي تتوفر لها الوسائل المادية نسخة طبق الأصل لما سبقها من الجامعات العربية المثقلة بهموم تعميم التعليم العالي وبقلة مواردها المالية. وأشير أخيراً إلى سعيي مع فريق من المفكرين والممارسين إلى إنشاء **مؤسسة الدراسات الفلسطينية**، وهي كما يقول نظامها «مؤسسة عربية مستقلة أسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ــ الصهيوني»، وما بذلتُ من وقت وجهد لتمكين هذه المؤسسة من القيام بمهمتها هذه ــ إيماناً مني بأن جميع قضايانا الوطنية يجب أن تعالج في ضوء الحقائق الواقعية التي تكتشف بالبحث الموضوعي والتي تنمو وتتزايد بفعل ما يتيسر لها من العناصر البشرية المهيأة والأدوات والوسائل المنشطة لهذا البحث والدافعة إياه قدماً في الكشف والابتكار وفي الانتشار إلى سائر خلايا المجتمع؛ ناهيك مما لهذا البحث من أهمية في دعم قضايانا لدى الدوائر الفكرية والسياسية في عالم اليوم، وفي إعداد وسائل هذا الدعم بالدراسات والتقارير والملفات لكل ناحية من نواحي هذه القضايا.

وقد أعرب هذا الهاجس عن نفسه في المؤلفات التي تضمها هذه المجموعة. وأكتفي هنا بالإشارة إلى الفصل الخاص الذي عقدته حول هذه القضية في كتاب **معنى**

النكبة مجدداً[٦] بعنوان «التخلف العلمي» والذي أنهيته باقتراح حول إنشاء «مؤسسة الدراسات العربية».

وخلاصة القول هنا إن أحد المبادىء الرئيسية التي قام عليها تفكيري وتعليمي وجهدي العملي، والمنبثة في المؤلفات التي تضمها هذه المجموعة، هو الإيمان بأهمية المعرفة وبضرورة بذل الجهد الدؤوب لاكتسابها لتنفذ إلى خلايا الكيان الفردي والكيان الوطني ولتمدهما بأسباب القوة والحيوية والتجدد. لقد غدا الأشخاص والأقوام في هذه الأيام يفعلون ويتمايزون بقدر محصّل المعرفة التي يمتلكون، وبصحة هذه المعرفة وتسارع نموها، فأصبح بذلك البحث العلمي عنصراً أساسياً لتطور الحياة الفردية والقومية والإنسانية، بل إنه، بجوهره، أي العقلانية في الفكر والعمل، شرطاً لازماً لنشوئها أصلاً.

— ٩ —

هذه إذن هي خلاصة الأفكار الرئيسية التي تكونت لدي خلال حياتي الفكرية والعملية، والتي أرجو أن تيسّر للقارىء الاطلاع على المادة التي تحتويها هذه المجموعة وتحليلها وتقييمها.

وليسمح لي القارىء أن أختم هذه المقدمة ببعض ملاحظات أخيرة يمليها علي وقوفي الآن في نهاية الطريق، أو على مسافة محدودة من هذه النهاية.

أ ــ لما كان الفكر ينبع من الحياة، والحياة تستمد بدورها من الفكر، فإن الشعور الوجودي الغالب على الأحياء الواعين في هذه الآونة هو التقاطب الهائل بين **خيرات** هذه الحقبة من الزمن **وشرورها**. إن أي إنسان حي (بالمعنى الصحيح للحياة) يشعر اليوم انه يقف وسط التيارات التاريخية المتدفقة من كل صوب بمزيد من السرعة والتوسع والتفاعل. ومما يغذي هذا الشعور، التقنيات المستخدمة في حقل الاتصالات التي تنقل إليه باستمرار، وبتحسن وانتشار، صور الأحداث الخطيرة التي تحملها هذه التيارات وآثارها الطاغية. وكثيراً ما تجلب هذه الصور شجوناً وآلاماً للنفس، ما يجعل البعض يتمنون لو أنهم كانوا يعيشون كأسلافهم في عزلة عن متاعب الأيام ومآسيها. ولكن العزلة لم تعد ممكنة لأبناء هذا الزمن، فلقد انقضت العهود التي كان بمقدور الأفراد أو الشعوب أن يعيشوا فيها على هامش التاريخ، وأصبح مفروضاً عليهم إمّا أن يخوضوا غمار الحركة التاريخية ويتأهلوا ليكونوا من الفاعلين، أو أن يعرضوا عنها أو يحاولوا معاكستها فيخفقوا ويظلوا من التعساء الخاسرين.

---

(٦) (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧)، ص ١٢ــ٦٠.

وفي رأيي أن من خيرات هذا الزمن انطلاق إمكانات هذا الحسّ التاريخي، بل هذا العيش التاريخي، لمن يدركه ويستطيعه ويكون مؤهلاً للانخراط في هذه الحركية الإنسانية الشاملة. وإني شخصياً لأغتبط بأني من أبناء هذا الزمن وأنه يتيسّر لي بذلك قدر من الوعي التاريخي المتيقظ المتاح فيه، وأعتبر هذا الوعي من مزايا هذه المرحلة من المسيرة الإنسانية ومن مباعث الرضى النفسي الرفيع الذي ينعم به من يقدّر جلال هذا الوعي ويقدر على تأدية مطالبه العسيرة.

ب ـ ومن خيرات هذا الزمن أيضاً المعرفة النامية، بل المنطلقة، في اكتشاف أسرار الطبيعة وفي اختراق العقول والنفوس، وفي جلاء العوامل والمسالك الفردية والمجتمعية. فليس ثمة هناء أصفى أو ثواب أجزل وأرقى مما يكتسبه المرء من مجاراة هذه القدرة العجيبة، المذهلة بسرعة انطلاقها وإخصاب نتاجها. وإذا شاء المرء أن يخفّف عن نفسه هموم هذه الأيام ومشاقها، فليس له مدد أقوى أو عون أفضل وأجدى من المشاركة في هذه المعركة المعرفية الحامية أو على الأقل من مراقبتها ومواكبة تقدمها الباهر وما يتسم به من حيوية وإبداع.

ج ـ ومن خيرات هذه الأيام أيضاً الإمكانات المنفسحة لجماهير الشعوب لتخفيف الأعباء التي تحملتها على مدى العصور، سواء عن طريق التحرر من الحكم الخارجي أو الداخلي، أو مكافحة الجهل والفقر والمرض وما يصاحبها أو ينتج منها من آفات جسدية وعقلية ونفسية. ومن هذه الخيرات كذلك استيعاب ما تحققه شعوب الأرض، وإن بأقدار ونسب متفاوتة، من هذه الإمكانات المتيسرة. ولا تخفى اليوم هذه الإمكانات ومستويات تحقيقها عن العين المتفتحة والذهن المتيقظ، فلا داعي لعرضها أو تفصيلها هنا.

د ـ وبمقابل هذه وغيرها من الخيرات الممكنة في هذه الأيام والداعية إلى الأمل والتفاؤل، الشرور المتصاعدة والبلايا المنتشرة وما تثيره في نفس المشارك أو المراقب من همّ واضطراب وشقاء. فلقد أشرنا، في ما سبق من هذه المقدمة، إلى أن «التقدم» الإنساني الحديث والمعاصر لم يكن خيراً كله، بل رافقه أو نشأ عنه تفاقم بعض الشرور السابقة وانتشارها وظهور شرور جديدة وآثام مبتدعة. ومن الأمثلة على ذلك ما وضع في أيدي الحكام ـ خصوصاً في المجتمعات المتخلفة ـ من سلطات متسعة للإغراء أو للقهر، وما مدّد وعمق من فجوات بين الطبقات والمجتمعات القادرة والطبقات والمجتمعات العاجزة، وما عزز من قدرات الأولى على التحكم بمصائر الأخرى، وما أثار من مشكلات نفسية وخلقية تشكو منها المجتمعات المتقدمة شكاوى مريرة. وتلقي هذه الشكاوى ظلالاً مرعبة على المسيرة الإنسانية الراهنة، وتبعث تساؤلات وهموماً عنيفة حول المصير المقبل، سواء

من جراء تطور أسلحة القتل والتدمير وتفجر ديناميتها المروّعة في الحروب والمنازعات الأهلية والقومية والعالمية، أو بسبب ما يحمله «التقدم» وينقله من أعراض اقتصادية واجتماعية وأدبية تهدد المجتمعات بالتفكك والتمزق وبالجري نحو الاعتلال والانحلال.

ويُستشف هذا القلق والخوف في الكثير من أدبيات هذه الحقبة من الزمن، الصادرة في المجتمعات المتقدمة والتي تعبّر، بصور مختلفة، عن هذه الشكوك بالحضارة المعاصرة المتأزمة ومن الارتياع من العوامل السلبية الناشبة فيها. وترتبط هذه الأدبيات بالمحاولات الجمة والمتنوعة لاستطلاع المستقبل وتحري ما ستأتي به التطورات الحاضرة والمقبلة من عواقب خطيرة. لقد تنبّه هذا «الوعي المستقبلي» في أذهان المفكرين والمخططين والحاكمين في المجتمعات المتقدمة وفي أوساط شعوبها عامة، فتعددت المبادرات الاستطلاعية، وأنشئت لها مؤسسات أو مراكز بحوث خاصة بها، وتوفرت الكتب والمقالات والنشرات الصادرة عن هذه المؤسسات وأمثالها من الدوائر والمنشآت، ودخلت هذه الاهتمامات في صلب التخطيط الحكومي والخاص، بل ذهبت إلى حدّ الدعوة إلى إنشاء علم جديد هو «علم المستقبل» لاستطلاع صور المراحل القادمة والنزعات المهيمنة عليها، بمقابلة «علم التأريخ» الذي يسعى إلى تحري الماضي واستعادة أحداثه وحقائقه.

هـ ـ وإذا كان الأمر على هذه الحال في المجتمعات المتقدمة المتمتعة بأسباب القدرة وعلائم الازدهار والاثمار، فإنه أقسى ضغطاً وأدعى إلى إثارة القلق والاضطراب لدى الأحياء الواعين من أبناء المجتمعات المتخلفة، وذلك بسبب ما يسطو على هذه المجتمعات من الفوارق الممتدة ومن الاختلالات المشتدة بين خيرات هذه الحقبة من الزمن وشرورها، مما يكاد أن ينفي صفة التقاطب بينهما ويجعل الغلبة والسيادة لأحد القطبين، قطب الشرور والبلايا، على قطب الخيرات والتحقيقات الإيجابية. وهذا ما يدعو سلطات بعض المجتمعات المتخلفة إلى محاولات التسريع والقفز للحاق بالمجتمعات المتقدمة أو إلى صياغة شعارات بهذا الصدد تغري بها شعوبها وتثبت وتوسع مواطن نفوذها. ومن هذا القبيل أيضاً انتشار الدعوة إلى «**التنمية**» التي تكاد أن تصبح دين هذا العصر لاشتداد الإيمان بها في دوائر المنظمات العالمية، ولدى سلطات الدول المتقدمة والدول المتخلفة. على أن هذا الإيمان لم يحقّق الآمال المعقودة عليه، ولم يجلب المنافع المرجوة إمّا بسبب إخضاعه لمصالح أصحاب السلطة وتحوّله شعارات فارغة ووعوداً لا طائل فيها، أو لانحصاره في النظرات الجزئية أو المعالجات السطحية وقعوده عن التصدي للمشكلات الأساسية وانتهاج الحلول الجذرية. وهكذا نرى الفوارق بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة تتسع بدلاً من أن تضيق، فيزداد القادرين قدرة والأغنياء غنى بينما ينحدر الضعفاء والفقراء إلى مهاوي العجز والهلكة. ويتدنى هم القلّة الواعية من أبناء المجتمعات

الأخيرة من السعي إلى اللحاق بالمجتمعات المتقدمة ومشاركتها في امتلاك وسائل القدرة والتقدم إلى الاكتفاء بإيقاف التدهور وصدّ الإمعان في التخلف والحفاظ على مجرد السلامة والبقاء.

و ـ ويندرج المجتمع العربي ضمن فئة المجتمعات المتخلفة ويشاركها أسباب عللها وتهافتها. ويضاف إلى هذه الأسباب العامة للتخلف أسباب خاصة بالمجتمع العربي، منها موقعه الجغرافي المتوسط بين القارات والحضارات الذي جعله منذ مطلع التاريخ هدف الدول القادرة وجيوشها الغازية من الشرق أو من الغرب، من أجل التسلط على الطرق الاستراتيجية والتجارية المارة فيه، وحديثاً ثروته الفريدة من النفط الذي غدا في عصرنا الصناعي عصب القدرة والإنتاج، وتعرضه للحركة الصهيونية الطامعة في اقتطاع جزء من أراضيه لبناء مجتمع غريب ودولة دخيلة فيه، والتي أثبتت أنها من أقدر الحركات المعاصرة ـ إن لم نقل أقدرها ـ على حشد إمكاناتها الذاتية وتنميتها وعلى استمداد العون والمساندة من السلطات العالمية السائدة من أجل تحقيق أغراضها.

وليس بمكنتنا هنا، ولا هو من الضروري، أن نفصّل وجوه التخلف العربي الناتجة من العوامل الفاعلة في مجتمعات اليوم وتلك الناتجة من أوضاعه ووقائعه الخاصة، فهي تطالعنا صباح مساء، خصوصاً في الآونة الأخيرة التي تعاقبت علينا فيها الفواجع من مختلف الجهات وبعديد الصنوف والأشكال، كفاجعة حربَي الخليج الأولى والثانية وتدهور العراق تحت حكم صدام حسين، أو مأساة الحرب اليمنية بين أبناء الشعب الواحد، أو تسارع الفرقاء العرب إلى الاستسلام لضغوط القوى الصهيونية ـ الأميركية وتسابقهم إلى إرضاء هذه القوى بالتنازلات المتتابعة، أو المظاهر المستمرة والمؤلمة لتشتت الأنظمة العربية ولما نشأ حتى بين الشعوب العربية من شبهات وأحقاد، أو الإهدار المعيب والمخجل لثرواتنا، في حين يسيطر الفقر والمرض والجهل في أوساطنا، وغير ذلك من مظاهر التخلف العربي المتفشي في كل من مجتمعاتنا وفي المجتمع العربي عامة.

فلنتجاوز إذن هذه المظاهر، على رغم ضخامتها وفداحتها، إلى أمهات الوقائع التي نوجزها بما يلي:

(١) غياب **الشعوب** عن المسرح العربي، وسيادة الأنظمة والحكام سيادة كاملة أو شبه كاملة، وتحويلهم الشعوب إلى جماهير منقادة أو رعايا طيّعة.

(٢) غياب **القضايا** عن هذا المسرح أيضاً. فلقد سادت في النصف الأول من هذا القرن قضايا **الاستقلال** أو التحرر من الحكم الأجنبي، فألهبت النفوس ودفعتها إلى النضال في سبيلها. واستطاع هذا النضال، في الجو العالمي السائد، أن يبلغ غاياته أو شبه غاياته؛ ما عدا في فلسطين حيث تمكنت قوى التحالف الصهيوني ـ الغربي (الأميركي

بوجه خاص) من الوقوف في وجهه وفرض الهزيمة تلو الأخرى على صفوفه المتفرقة المتنافرة، إلى أن تحولت محنة فلسطين في أيامنا هذه من قضية قومية إلى مفاوضات سياسية بين فرقاء عرب متباعدين متجاهلين متنازعين والفريق الاسرائيلي القوي بذاته والمدعوم بقدرات الولايات المتحدة. وفي العقود الأخيرة غابت أيضاً قضية **الوحدة العربية**، وانصرفت اهتمامات الأنظمة والسلطات، وإلى مدى متنام الشعوبِ العربية أيضاً، إلى المسائل القطرية، وإلى المصالح الفردية أو الفئوية، وإلى المنازعات الظاهرة والخفية بين أرباب السلطة والنفوذ أو بين الساعين إليهما. وفي وسط جميع هذه النزعات السلبية والقامعة للحيوية الصحيحة أصبح من العسير إيقاظ ما بقي من الشعوب إلى قضايا **الديمقراطية** أو **التنمية** أو **حقوق المواطن والإنسان** التي أخذت تحتل مقاماً متصدراً بين حاجات الشعوب ومطامحها في هذه الأيام.

(٣) غياب **العقلانية**، أي الأساليب الموضوعية والنهج العلمية في محاولة فهم المشكلات وتحليل القوى الصانعة لها أو المؤثرة فيها ومعالجة أسبابها القريبة والبعيدة والمباشرة وغير المباشرة في سبيل حلّها حلاً ناجعاً، وعلى العكس غلبة الارتماء في أحضان التوهم والادعاء والاندفاع وراء الشعارات الخادعة والدعوات المضللة. فمما تسرب مثلاً من شؤون المفاوضات حول التسوية والسلام التي دارت وتدور بين الجهات العربية والجهة الإسرائيلية، يبدو الفراغ العربي إزاء الحضور الإسرائيلي في مقابلة الدراسات و«الملفات» المعدة لنواحي النزاع المختلفة وتفوق الإسرائيلية منها على العربية، دقة واستقصاء ومتابعة علمية للقضايا الصغيرة والكبيرة. كما تبدو أيضاً ضآلة العقلانية في الجهات العربية من عجز هذه الجهات عن التفاهم والاتفاق في ما بينها، لكونها لا تنطلق أصلاً من الواقع القائم ومن الحرص على معالجته معالجة صحيحة، بل من أولوية المصالح الخاصة والنزعات المفرقة المناوئة للانضباط العقلاني والتحقق العلمي.

(٤) غياب **القيم** وانتفاء اعتمادها في السلوك الخاص والعام، وبالتالي انفلات هذا السلوك من الضوابط التي تحدّد الفروق بين الصحيح والفاسد من الأهداف والمناهج. فكل سلوك أصبح جائزاً ومقبولاً إذا توفرت له أسباب النجاح، مهما تكن قيمته الحقيقية أو أثره في الإفادة أو الإضرار. لقد استوى الحلال والحرام في تصرف الأفراد والجماعات، بل غدا المتقيد بالحلال مسكيناً عاجزاً يستدعي الشفقة إزاء الشاطر الذي يدري «من أين تُؤكل الكتف» وتقتنص فرص الإثراء والاستعلاء. وفي مقدمة القيم السائبة قيمة **الغيرية**، أي الإحساس بالغير أو بالآخر واتساع دوائره، واحترامه والحرص على مصالحه وحقوقه في العدالة والرفاه والتقدم. إن هذه «الغيرية» هي أس القيم الصحيحة ومنبع الفضائل الإنسانية.

(٥) وكنتيجة لهذه النقائص وأمثالها، غياب **القدرة**، القدرة على التحصن في وجه الانحرافات والمفاسد الداخلية، وعلى التحرر من الأخطار والنوائب الخارجية وعلى النهوض من العجز والتخلف في المسارات الوطنية والإنسانية.

ولست أعني أن الغيابات التي أشرت إليها هي نقائص مطلقة أو كاملة. ففي مجتمعنا العربي، وفي كل مجتمع إنساني آخر قديم أو حديث، مواطن عقلانية وخلقية وفاعلية قائمة فيه ومستدعية للأمل في مصيره، ولكن حضورها وفعلها في المجتمعات المتخلفة، كمجتمعنا العربي الراهن، لا يتناسبان وضرورات البقاء والحيوية والتميز، خصوصاً في هذا العصر الذي تضخمت مطالبه وقست شروط الانضواء تحت لوائه.

ـ ١٠ ـ

إن الظفر في المعارك التي يتطلبها إنماء هذه القدرة المجتمعية إنما يأتي نتيجة للظفر في المعارك التي تنشب في عقول الأفراد ونفوسهم. فالمعارك العامة، هي في نهاية الأمر، خلاصة المعارك الشخصية ومجمع حصائلها. والمسؤولية العامة إنما تنبع من الإحساس بالمسؤولية الخاصة ومن كيفية النهوض بها. فلا بد إذن من محاسبة النفس محاسبة دقيقة ومستمرة لاستحقاق مرتبة محاسبة الغير ومساءلة «القدر».

وفي ختام القول، ليس لأحد شرف أعلى أو عزاء أبلغ من أن يجهد ليرتفع إلى مستوى هذه المسؤولية متحصناً بالصمود وساعياً إلى أن تأتي نتيجة معركته الذاتية إسهاماً إيجابياً في المعارك الوطنية والإنسانية.

بيروت في ١٥ آب/ أغسطس ١٩٩٤ — **قسطنطين زريق**

مركز دراسات الوحدة العربية

مؤسسة عبد الحميد شومان

الوعي القومي

نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي

الدكتور قسطنطين زريق

الوعي القومي

نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي

مؤسسة عبد الحميد شومان
مركز دراسات الوحدة العربية

الوعي القومي

نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي

الدكتور قسطنطين زريق

(*) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، في بيروت، ١٩٣٩، والطبعة الثانية ١٩٤٠.

المحتويات(*)

مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة الطبعة الأولى	١٣
معنى الوعي القومي	١٩
المرأة العربية في الحياة القومية	٣٣
التربية القومية	٤١
القومية والجنس	٥٣
على هامش الدعوة إلى الفينيقية في لبنان	
العمل القومي والمشاريع الاجتماعية	٦١
مشروع انعاش القرى	
القومية العربية والدين	٦٧
بمناسبة ذكرى مولد النبي العربي الكريم	
التراث الثقافي العربي	٧٣
١ ـ حفظه	٧٥

(*) اعتمدنا ترقيمين: **الترقيم الأول** في وسط ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد، ضمن المجلد. ولكل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة ترقيم خاص بعدد صفحاته. **والترقيم الثاني** في يسار ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي **رقم أحادي** مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة الكاملة.

٢ ـ إحياؤه ٨٠
ضآلة ثقافتنا العلمية ٨٥
الأدب التوجيهي وحاجتنا إليه ٩٣
الثقافة الصحيحة وعناصرها ٩٩
كيف نحمي ثقافتنا؟ ١٠٩
أزمة الروح ١١٩
الجهاد الأكبر ١٢٩

مقدمة الطبعة الثانية

هُوَذا «الوعي القومي» يتقدم للعالم العربي في طبعة جديدة منقحة. فإنه لم يمض على الطبعة الأولى بضعة أشهر حتى نفدت نسخها كلها، وحتى دعت الحاجة إلى اصدار طبعة ثانية، بالرغم من الأحوال العسيرة التي تضيّق علينا في هذه الأيام. وقد لقي هذا الكتاب فوق ما كنت أرجو له من التشجيع والرواج. وتناوله الأدباء بالمراجعة والدرس، فخصوه بفصول ممتعة نشروها في مجلات العراق والشام ومصر، وضمنوها آراء وملاحظات كان لي منها فائدة عظيمة، فأرجو أن يتقبلوا عنها صادق الشكر وخالص الامتنان. وكان لوزارة المعارف العراقية الجليلة النصيب الأوفر من هذا التشجيع الذي أحرزه الكتاب. فإنها وضعت نسخة منه في كل مدرسة ومكتبة من مدارس العراق الرسمية ومكاتبه، كما قررت دارالمعلمين العليا التابعة لها تدريسه في بعض صفوفها. فعسى أن يكون قد أصاب الغاية المرجوة منه، وقام لدى المتعهدين أمر التربية في ذاك القطر العربي الناهض بالخدمة الثقافية والقومية التي علقوها عليه.

ولقد أثار هذا الرواج في نفسي خواطر وخوالج مختلفة أود أن أسجل أهمها، بأمانة واخلاص، في بدء هذه المرحلة الثانية التي يقطعها الكتاب:

أولاً: انه مكّن في نفسي الاقتناع بالتعطش الذي يملأ قلوب الشبيبة العربية إلى التفكير الواضح في المسائل القومية، وأكد لي الحاجة الملحّة في عقول أفرادها وقلوبهم إلى ما يهديهم سواء السبيل في هذه التيارات المختلفة التي تتقاذفهم. فإنك لا تتحدث إليهم إلا وتشعر بالجوع الذي يتأكل قلوبهم، وبالظمأ الذي يحرّق نفوسهم، وبتلهفهم الشديد إلى كل ما يعينهم في تنظيم تفكيرهم القومي وتوجيههم إلى العمل الصالح في سبيل أمتهم وبلادهم. وانك لا تقدم لهم شيئاً يحاول سد هذه الحاجة العقلية والروحية إلا وتراهم يتهافتون عليه ويقبلون على الاستفادة منه بالرغم

مما يعتوره في أحيان كثيرة من ضعف ونقص. ولا أظن أحداً اتصل بالشباب العربي ولمس ما يختلج في نفسه، يخالفني في هذا الرأي والشعور.

ثانياً: انه قوّى شعوري بالتبعة التي تقع على عاتق المفكرين وقادة الرأي في الأمة العربية إزاء هذه الحاجة القاهرة، وبضرورة انصرافهم إلى العمل المنظم الحازم لمعالجتها، وبالحكم الصارم الذي تطلقه الأجيال عليهم إذا هم اهملوا هذا الواجب وقعدوا عن تأدية رسالتهم التاريخية هذه. وقد بسطتُ هذه التبعة في الفصل الذي قدمت به للطبعة الأولى، وكان شعوري الحاد بها هو الذي طغى على ما كنت أحس به في ثنايا هذا الكتاب من نقص ومن ضعف في الارتباط بالنسبة إلى الموضوع الخطير الذي يتناوله، وهو الذي دفعني إلى نشره بشكله هذا «على أنه خطوة أولية متواضعة» عساها تؤدي إلى خطى أجرأ وأوسع يتقدم بها المفكرون القوميون إلى الغاية المنشودة: وهي إيضاح العقيدة القومية ايضاحاً وافياً، وإشاعتها في عقول العرب وقلوبهم، وجعلها أساساً صالحاً للعمل القومي المنظم.

ثالثاً: وهنا ليُسمح لي ان أعبر عن عاطفة شخصية، إنه بثّ في نفسي تواضعاً ورهبة وتهيباً. فإن العطف والتشجيع اللذين لقيهما هذا الجهد التمهيدي، المتلمس طريقه إلى البحث القومي الوافي، نبهاني إلى قلة ما بذلتُ بالنسبة إلى ما تتطلبه حاجات الوطن العربي من ناحية، وإلى ما يقوم به رجال الفكر في الأمم الغربية من ناحية أخرى. فأية تضحية تحملنا، نحن الذين نطمح إلى هذا المستوى الرفيع الذي يحتله العمل الفكري ـ بل الذي يعتقد أي من حمل قلماً منا انه تبوأه وتربع عليه ـ وأي جهد بذلنا يصح أن يقارن بالجهود التي يقوم بها المفكرون الحقيقيون في الأمم الغربية الناهضة؟ الحق اننا لا نزال مقصرين في حق الرسالة الفكرية، واننا لم نتعود بعد أن نغذي عملنا الفكري بدم القلب وعصارة الروح. وانني شخصياً لشاكر لاختباري هذا توسيعه آفاق العمل أمامي، وتوجيهه إياي إلى ميادين البذل والتضحية التي تنفسح أمام رجل الفكر والتي يجد جزاءه الأكبر في ولوجها وتتبع طرقها الشاقة إلى ما يبعث في نفسه الرضى والهناء الصحيحين.

* * *

تكرّم بعض الأدباء، كما ذكرت، فتناولوا **الوعي القومي** بالدرس والمراجعة، فمنهم من اكتفى ببسط أبحاث الكتاب، ومنهم من أبدى عليها ملاحظات وتعليقات حرية بالنظر والاعتبار. وقد استفدت من بعض هذه الملاحظات التفصيلية في إعداد الطبعة الثانية. أما البعض الآخر، الذي لا أوافق أصحابه فيه، فلست أجد من المناسب مناقشته في مقدمة عامة كهذه، على أنني متيقن ان البحث الجدي في المسائل

القومية الذي سنقدم عليه في العالم العربي سيجلوه ويبين وجه الصواب فيه. غير أن هناك ملاحظة عامة يحسن بنا أن نقف عندها ونتدبرها، أبداها الناقد الأديب الأستاذ صديق شيبوب في نقده الدقيق للكتاب في العدد ١٢٨٧٩ من جريدة **البصير** الصادرة في الاسكندرية، وذكرها كذلك الأستاذ مجيد خدوري في العدد السادس من السنة الرابعة من مجلة **المعلم الجديد** التي تصدرها وزارة المعارف في العراق. فقد قال الأول: «وأول ما يجول في ذهن القارىء وهو يطالع بحثاً كهذا مطالبة المؤلف بأن يحدد ما يريده بالوحدة العربية وأي الأقطار يجب أن تشمل... لذلك وددنا لو أن الأستاذ قسطنطين زريق لم يكتف بالنظريات فيما قرره، وعرض للوسائل العملية لتكوين الوحدة العربية». وذكر الثاني (ص ٤٩٥): «ونود الآن بيان ملاحظتين على هذا البحث القيم في معنى الوعي القومي. الأولى هي اهمال هذا البحث لنشوء الفكرة القومية وأسسها العامة. ونحن لا نقول ان الدكتور زريق قد أهمل عوامل القومية لأنه أشار إلى اللغة والتقاليد وغير ذلك من الأسس التي تقوم عليها القومية ولكن الرابطة بين هذه الأسس ونشوء القومية يحسن أن يشار إليها».

إن مغزى هاتين الملاحظتين هو أن الفصول التي يشملها «الوعي القومي» تحمل في طياتها مسائل أساسية في الفكرة القومية العربية كان يحسن أن تبرزها وتقطع فيها قبل ان تتقدم إلى عرض ما عرضته من نواحي هذه الفكرة. فالأستاذ شيبوب يطالبنا بتحديد ما نريد بالوحدة العربية وعرض الوسائل العملية لتكوينها، ونحن نوافقه في أننا لم نعالج هذه المسألة التي تمس جوهر الفكرة القومية العربية، بل تناولنا هذه الفكرة كما توجد في العالم العربي ـ والأستاذ شيبوب نفسه لا ينكر وجودها، ولو كان في غير مصر من البلاد العربية لشعر بقوتها وحيويتها ـ وحاولنا عرض مظاهرها كما هي، ثم تبيان السبل التي يجب أن تتبعها للوصول إلى الغاية الصحيحة. ومن البديهي أن فصولاً متفرقة كالتي يضمها هذا الكتاب لا يمكن أن تستوعب جميع المسائل الأساسية التي تتصل بهذا الموضوع الخطير. ولذا دعونا في المقدمة دعوة صريحة إلى البحث المنظم الشامل الذي تبنى على أساسه العقيدة القومية العربية، والذي ليست هذه الفصول سوى خطوة تمهيدية له. وليس من شك عندي في أن هذه الفكرة القومية التي تفرض نفسها على الناس فرضاً متزايداً في البلاد العربية سوف تدفع رجال الفكر والعمل في الحقل القومي إلى اظهار الأسس التي ترتكز عليها، وإلى عرضها عرضاً منظماً شاملاً يحيط بمسائلها الرئيسية ودقائقها الصغرى، ويتناول النظريات التي تؤلفها والوسائل العملية لتحقيقها. وإلى أن يتم هذا التنظيم الفكري والعملي يبقى الأستاذ شيبوب وأمثاله محقون بمطالبتهم بالتحديد الواضح والبحث الأساسي الصريح قبل أن يؤمنوا بعمق هذا الشعور القومي الذي يرونه

حولهم وبدوامه وثباته على الأيام. من هنا يتبين مرة ثانية، وبجلاء لا يشوبه أي ابهام أو غموض، عظم التبعة الملقاة على عاتق المشتغلين بالمسألة القومية، وهي أخص مسائل الحياة العربية وأبرزها، بل هي مسألة الحياة العربية بذاتها.

ومثل هذا نقوله عن ملاحظة الأستاذ خدوري. فإننا لا ندعي أننا وفينا البحث في نشوء الفكرة القومية حقه، ونوافقه على ما ذكره في مقاله من أن ثمة عوامل خارجية...(*) توحد عناصر القومية وتبعثها روحاً حية، وفي أن هذه وسواها من نواحي الموضوع تحتاج إلى درس مشبع ضاق عنه هذا الكتاب. وهو يشاركنا ـ ولا شك ـ في أملنا الذي أعربنا عنه بأن يتوفر لهذه النواحي من يعالجها معالجة دقيقة ضمن البحث القومي المنظم الذي دعونا إليه. وفي الحق ان كتاب **الوعي القومي** بكامله يلخص في هذه الدعوة وذاك الأمل!.

* * *

وكان أن صدر هذا الكتاب في بدء العاصفة الهوجاء التي هبت على العالم وهزت أركانه هزاً. وكان للحياة العربية من أثر هذه العاصفة نصيب غير قليل: فارتجت جوانبها واختلطت عناصرها وعواملها. على أن أول ما يبرز للعيان من هذا الأثر هو ما نراه في البلاد العربية من تشتت في الآراء والفكر، ومن تصادم في النزعات والأهواء: فكل منا يسير في وجهة، وكل يتكلم بلسان، وليس لنا موقف ثابت أو رأي موحد إزاء هذا الاضطراب الهائل الذي يثور في العالم، والذي سوف يوجه حياتنا المقبلة وينفذ عمله فيها حتى الصميم.

ومما لا شك فيه ان عظم القوى المتطاحنة، وشدة العاصفة الهائجة، وما قلبت من أوضاع، وما هدمت من نظم، وما بدّلت من أحوال: ان هذا كله كان عاملاً كبيراً في هذا التشتت الذي أصابنا، وفي هذا الميعان الذي شملنا جميعاً. على أن مما لا شك فيه أيضاً أن هناك بجانب هذا العامل الخارجي عاملاً داخلياً لا يقل عنه ـ بل يزيده ـ أثراً وخطورة: هو ضعف العقيدة في نفوسنا، وغموض الفكرة في أذهاننا، وعدم إجماعنا قبل حلول الأزمة على رأي صريح أو عمل معين. فما ان نزلت الأزمة بنا وهزت حياتنا، حتى برزت أهواؤنا الخاصة ونزعاتنا الطائفية وسواها من القوى المفرّقة فطغت على ما كسبنا من وحدة في العقيدة والجهاد، وحتى رجحت الرغبة في الأمن وسلامة العيش والاستقرار على ما تفرضه هذه العقيدة على أصحابها من صبر وتضحية وايمان. وهكذا تُنبهنا هذه الأزمة المحيقة بنا، بشكل لا يقبل الجدل، إلى خطورة

(*) ست كلمات حذفتها المراقبة.

هذا الضعف والميعان في عقيدتنا، وإلى أن حياتنا كلها تتوقف على ما نصيب من رأي جامع وفكرة قوية واضحة لا تبقى في أذهاننا فحسب، بل تتعمق إلى صميم نفوسنا فتصبّها في قالب واحد...(**).

على أن هذه الأزمة النازلة ليست الوحيدة في حياتنا. فإن معها أزمة أخرى، إن لم توازها قوة وحدّة فإن لها مقامها الخاص وخطرها الشديد: هي الأزمة الناشئة عن ضيق مواردنا العقلية والروحية بالنسبة إلى حاجات هذا العصر ولما يطلب منا إذا أردنا أن يكون لنا بقاء بين الأمم. فنحن إذا ألقينا نظرة على حياتنا الفكرية وقابلناها بحالة الأمم الناهضة في الغرب وجدنا ان حظنا من الثقافة لايزال في غاية الضآلة، ودون ما يصح أن يكون أساساً لقيام أمة أو بناء كيان يواجه قوى العصر ويستحق أن ينعم بحياة حرة متحضرة رفيعة. وكما أن شحة الموارد الطبيعية وضعف المرافق الاقتصادية يسببان أزمة مادية، كذلك تكوّن قلة الإنتاج الفكري أزمة عقلية روحية. وقد أظهر اختبار العالم في السنوات الأخيرة أن الأزمات الاقتصادية لا تعالج إلا بالجهد الموجه والعمل المنظم. كذلك لا سند لنا في معالجة أزمتنا العقلية إلا ذلك الأساس المكين الذي تقوم عليه المدنية الحديثة: أعني به التنظيم، التنظيم الذي يوجه الجهد إلى المشاكل الجوهرية الأساسية في الحياة، والذي يحفظ قوة الأمة الفكرية ونشاطها العقلي فلا يبددهما في الأمور التافهة والمسائل الجزئية. فإن التبذير الذي قد يسمح به في أيام الترف والرخاء لا يجوز في أيام الضيق والعناء حين تحتاج الأمة إلى كل ذرة من نشاطها وإلى كل نبضة من نبضات فؤادها لتقف على أرجلها وتلحق بمن سبقها. وليس من المشاكل التي تجابه الأمة العربية ما هو ألصق بحياتها وأهم لمستقبلها من مشاكلها القومية، فما أحراها أن تصرف إليها جهودها، وتصب عليها ما اختزنته خلال العصور من قوة وهمة ونشاط. وهذا دليل جديد، نستمده من الأزمة العقلية والروحية التي وصفناها، على وجوب الإسراع في معالجة المشاكل القومية، والانصباب على البحث المنظم في مسائل حياتنا الأساسية، لنصل بهما إلى العقيدة الموحدة الواضحة التي عليها ـ وعليها وحدها ـ يقام العمل المنظم لبناء الأمة وانهاض البلاد.

* * *

أخشى أن أكون أكثرت من ترديد ما أقصد قوله وأطلت في الضرب على الوتر نفسه، ولكن خطورة الموضوع وما يثيره في نفسي من شعور فرضا عليّ ذلك. وسيجد القراء الفكرة التي تحتويها هذه الكلمة والكلمة التي قدمت بها للطبعة الأولى

(**) سبع كلمات حذفتها المراقبة.

مبسَّطة في وجوهها المختلفة في فصول الكتاب. فعسى أن يكون في هذا التذكير المردد ما يفيد أصحاب الإيمان القومي في استكشاف واجبهم الأول، وفي تأديته على وجهه الصحيح. ﴿**فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1]

بيروت في ٢٠ أيلول ١٩٤٠ **قسطنطين زريق**

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الذاريات،» الآية ٥٥.

مقدمة الطبعة الأولى

رقد العرب بعد نهضتهم الكبرى في العصور الوسطى قروناً طويلة نسيهم فيها العالم ونسوا أنفسهم، واستكانوا للظلم والجهل والفقر المادي والروحي، تجرهم الحياة عضواً مشلولاً في الجسم الإنساني، حتى إذا بدت طلائع القرن الماضي، حاملة معها نسمات روح جديدة، تهب بها عليهم حضارة الغرب الحديثة، أخذوا ينتعشون تدريجاً، ويفتحون عيونهم لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم، المهيبة بهم إلى النهضة والعمل لاحتلال المنزلة اللائقة بهم بين الأمم. بدأت هذه الروح الجديدة تهب عليهم نسمات خفيفة رقيقة، ثم أخذت تتتابع وتقوى بتقدم القرن الماضي والسنين الأولى من القرن الحاضر، حتى كانت الحرب العظمى فإذا بتلك النسمات قد أصبحت ريحاً شديدة، بل عاصفة هوجاء تتلاعب بالأمة العربية، وتقذف بها ذات اليمين وذات الشمال.

وما زال العرب اليوم يعيشون في وسط هذه العاصفة، وفي ملتقى التيارات المنصبة عليهم من كل صوب وناحية. فإذا نحن تقصينا الأثر البارز للقوى العظيمة المتفاعلة وإياهم وجدناه في هذه الهبة القومية التي تدفعهم إلى استكشاف نفسهم، وتحرير أفرادهم ومجموعهم، واستعادة سالف مجدهم، واثبات مكانتهم في المجتمع البشري. وما من أحد يلمس الحياة العربية الحاضرة الا ويشعر بهذه الهبة المرتفعة من صدور العرب في شتى أقطارهم، المبشرة بنهضة جديدة، يرجى لها ما كان لسابقتها من عز منيع، ومجد رفيع ومساهمة ذات شأن في تقدم التمدن الإنساني.

على أن هذا الانبعاث القومي الجديد ما زال في طور الهبوب والفوران: يقترب منه المرء فيشعر بقوته، ويُلفح بناره ويلمس بيده الحياة المتوثبة التي تجيش فيه.

ومن حق كل عربي أن يزهو به، ويملأ صدره أملاً بما سيؤول إليه، واستبشاراً بما يحمل في طياته من خير عميم لأمته وللإنسانية جمعاء. غير انه من الخطر أن يبقى في هذا الطور، وان يتدفق كله عاطفة متحفزة وشعوراً صارخاً. انه يجب أن يتقدم إلى طور التفكير الهادىء المنظم، ويشرق بنور العلم المدرك الواعي، ويخرج عقيدة قومية متينة الأساس، مرصوصة البنيان، تستقر في النفس فتملأها قوة وعزماً وتبعث فيها ايماناً يزحزح الجبال.

أجل! ليس من أمل للنهضة القومية العربية ما لم تكن مستمدة من «فلسفة» قومية تصور روحها، وتحدد اتجاهها، وتنصّب لها الأهداف، وتعيّن لها السبل والوسائل. أقول هذا وأنا أعلم أنني سأثير عند كثير من أبناء الأمة ـ بل بين العاملين في الحقل القومي أنفسهم ـ ما يرسم الابتسام والسخرية على الوجوه، ويبعث الشك والريبة في النفوس. فالوقت عندهم وقت جد وجهاد، لا مجال فيه لفلسفة ونظريات، وحالة الأمة تدعو إلى عمل وكفاح، لا إلى بحث وكلام. وما ضرَّ العربَ ـ في نظرهم ـ مثل المناقشة والمجادلة الكلامية، وما نفع الغرب مثل التشمير عن ساعد الجد والنهضة للعمل والإنتاج.

فلأبادر إلى تطمين من تخامرهم هذه الشكوك اني أبعد الناس عن التقليل من قيمة الجهاد والكفاح في شتى نواحي الحياة، واني أسرعهم للدعوة إلى تأثر الغرب في العمل المنتج والهمة الفعالة. ولكنني متيقن، في الوقت نفسه، من أن ذلك الجهاد لا يبلغ غايته إلا إذا كان مدعوماً بفكر واضح نيّر، وان هذا العمل لا ينتج حقاً إلا إذا صدر عن رأي بصير وعقل مدبر. وأقرر، غير متردد ولا متحفظ، ان ما من نهضة قومية تحريرية قامت في العالم إلا وسبقتها أو لازمتها نهضة فكرية مهدت لها الطريق، ورسمت أمامها الغاية، وأوضحت لها المعالم والحدود، وان المناقشة والمجادلة ما ضرت العرب في عصور غفلتهم إلا لأنها كانت بعيدة عن حياتهم، غريبة عن الجو الذي كانوا يضطربون فيه، وأن الجد والعمل ما نفع الغرب إلا لأنه بُني على الفكر المنظم، والعقيدة الواضحة، والفلسفة الشاملة.

فإذا أردنا لهذه النهضة القومية العربية أن تستكمل شروطها، وتؤتي ثمارها، لم يكن لنا غنى عن ثلاث خطى رئيسية يترتب علينا اتخاذها بحزم ونشاط: **أولها** بناء الأساس الفكري الذي تقوم عليه هذه النهضة القومية، وذلك بدرس غاياتها ووسائلها، وتحديد معنى الأمة العربية، واثبات خصائص الأمة العربية ومميزاتها، واظهار مقامها الفريد بين الأمم والنصيب الذي كان لها في الماضي والذي يرجى لها في المستقبل في تقدم التمدن والحضارة البشرية: أو، بكلمة أخرى، انشاء «فلسفة قومية» شاملة واضحة منظمة. ولكم تضطرب نفسي حين يطلب مني أحد المهتمين بالقضية العربية

من كتّاب الغرب ومفكريه ان أطلعه على «نظرية» القومية العربية، أو أن أضع بيده ما يقوده إلى المعين الفكري الذي تنبع منه، فأجدني فارغاً إلا من بضع مقالات وأبحاث قليلة الغنى ضيقة المدى، فأفكر في التبعة العظمى الواقعة على عواتق كتّاب العرب وقادة الرأي فيهم، وأتساءل عما إذا كانوا يقومون حقاً بواجبهم ويؤدون مهمتهم.

أما الخطوة **الثانية** فهي ان تعصر هذه الفلسفة في فكرة مقطرة نقية صافية يتشربها أبناء الأمة وتمتزج بعاطفتهم المتوثبة وشعورهم الفياض، فيحصل من هذا المزيج المبارك «عقيدة» قومية، تسير بأفراد العرب وجماعاتهم قُدُماً إلى الأهداف الصحيحة، وتملأ نفوسهم عزماً وأملاً، وتشيع فيها معنى وسموّاً وجمالاً.

وأخيراً يتخذ العاملون في الحقل القومي الخطوة **الثالثة**، فيجاهدون لـ «تنظيم» الأمة العربية، وضبط نوازعها، وإخضاع شهواتها وإرادتها للإرادة الوحيدة المنبعثة من «العقيدة» الواحدة، فيدرّب رجال الأمة ونساؤها على العمل المنظم الصادر عن الفكر المنظم والمكمّل له.

على هذه الأركان الثلاثة: الفلسفة القومية، والعقيدة القومية، والتنظيم، تقوم كل نهضة قومية صحيحة، وإليها يجب أن يوجه العرب جهودهم في هذا الدور التأسيسي من حياتهم الجديدة، لتكون نهضتهم قوية البنيان، ثابتة على الزمان.

* * *

ولا غرو في أن الخطوتين الأوليين، على الأقل، هما من واجب مفكري الأمة، وقادة النظر والبحث فيها. فمنهم ــ لا من رجال التنفيذ المتوسطين ميدان العمل ــ يطلب هذا النوع من التفكير الايضاحي المنظم الذي تبيّنا ما له من مقام في النهضة القومية الصحيحة.

إزاء هذا الواجب الجلل يحق لنا أن نتساءل: ماذا عمل رجال الفكر العربي، وإلى أي حد بلغوا في القيام بتبعتهم الخطيرة؟ لا أخالني مشتطاً في الحكم أو مغالياً إذا قلت إنهم لم يأتوا من هذا القبيل بما يغني أو يفيد، بل ان كثرتهم لم تتنبّه بعد إلى هذه المهمة الدقيقة التي تنتظرها. ولأكتف بدليل واحد على ما أقول:

في شهر نيسان الماضي أصدرت إدارة **الهلال** عدداً ممتازاً موضوعه: «العرب والإسلام» حرره كبار كتّاب العرب وأدبائهم، وقادة السياسة والاقتصاد والاجتماع فيهم. على أن من يطالع المقالات الوافرة التي تضمنها هذا العدد الفخم، يلاحظ فوراً الفوضى في التفكير القومي التي يتخبط فيها زعماء الرأي بيننا. فليس ثمة تمييز واضح بين «الأمة العربية»، وبين «العروبة» و«الشرق» و«الإسلام»، وليس ثمة فهم نافذ للنهضة القومية، أو برنامج منظم لوسائل بعثها واحيائها. وأنك لتقرأ المقالة الواحدة

فتصدمك المتناقضات النافرة التي تنكرها أبسط قوانين التفكير القومي الصحيح.

اسمع، مثلاً، ما يذكره الدكتور طه حسين في مقاله: «في العقل العربي الحديث» (ص ٤٩) حين يحاول التمييز بين العقل العربي القديم والعقل العربي الحديث في النظر إلى الوحدة العربية: «وربما كان من الأمثلة الظريفة الطريفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم، والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي نعيش فيه مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة، فما أظن أن الناس يختلفون في أن هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الإسلامية أشد النفع، وفي أن مصالحهم تدعوهم إليها وتدفعهم إليها دفعاً، ولكنهم مع ذلك يختلفون ويختصمون لا لشيء إلا لأنهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم أو العقل الحديث. فأما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما يفهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه... وأما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوروبية، يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذي لا يفني أمة في أمة ولا يخضع شعباً لشعب، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة». ألست ترى هذا الالتباس المرتبك بين «الوحدة العربية» و«الوحدة الإسلامية»، وهذا الاضطراب الشديد في فهم «الوحدة» و«الحلف» والتمييز بينهما؟ فكيف يمكن «وحدة» أن تحتفظ بـ «القوميات» وتقوم على «الحلف»، في حين أنها تتناول جوهر الأمة الواحدة وتنبعث من مميزاتها الخاصة وقوميتها الثابتة، ولا تكتفي بروابط «الحلف» الخاضعة في الأكثر لتقلبات الأحداث والمصالح والظروف السياسية وسواها؟

ومثل هذا الارتباك ــ بل أشد منه ــ في مقالات كثيرة في هذا العدد. وقد يخفف عند بعضنا من خطورة هذا الأمر، أن معظم كتّاب هذا العدد من رجال العهد «المخضرم» الذين لا ينتظر منهم تفكير قومي خالص، وان المجلة تصدر في مصر حيث الفوضى في النظر إلى النهضة القومية العربية ومقام مصر منها بصفة خاصة. ولكن تبقى، على كل حال، الحقيقة المرة الأليمة وهي أن من يحتل المقاعد الأمامية في حياتنا الفكرية بعيدون عن أهم واجب عليهم في أخطر دور تمر فيه أمتهم.

ولست أنكر أن فئة قليلة من قادة الشباب العربي ــ في الشام والعراق خاصة ــ أخذت تنحو النحو المنشود، وتحاول أن تفكر تفكيراً قومياً سليماً مبنياً على العلم

الصحيح وعلى اختبارات الأمم الناهضة، وان بعضها بدأ يعبّر عن هذا التفكير ويسعى لنشره، ولكن هذه الجهود لا تزال في مراحلها الأولى: فالعدد قليل، والخطى بطيئة حائرة، ووسائل الجمع والتنظيم التي تؤمن صدور تفكير موحّد تكاد تكون في حكم العدم. أما أكثر الشباب «المثقف» فهو منصرف عن معالجة القضايا الحيوية التي تتمخض بها النهضة القومية إلى النتاج الأدبي الذي أقل ما يقال فيه انه ـ في كثرته الغالبة ـ بعيد عن حاجات الأمة الحقيقية، لا يمس جوهر حياتها الحاضرة أو كيانها المقبل. أين نحن من البحث الخصيب في مواردنا الطبيعية ومرافقنا الاقتصادية وطرق بعثها واستغلالها إلى ما يكفل لنا عيشاً مكفياً وكياناً منيعاً؟ أين نحن من التفكير الاجتماعي الرصين الذي يعالج أزمتنا الأخلاقية وتدني مستوانا الروحي في الأسرة والمدرسة والدولة، بل في جميع منظمات مجتمعنا؟ بل أين نحن من النظرة الأدبية الصائبة التي تدرك مقام الأدب الصحيح في نهضة الأمم ـ الأدب المستمد من الحياة، المكيّف للحياة ـ فتتجه إليه، وتدفع صاحبها إلى مجاهدة نفسه لإنتاجه وتلقيح أبناء أمته به؟ وبكلمة وجيزة، أين نحن من التفكير المنظم في أي من الأسس الحقيقية التي تشاد عليها النهضات القومية الثابتة؟

من أجل هذا، كنت ولا أزال أدعو إلى وجوب أخذ مفكرينا بهذا النوع من البحث والتفكير، مع درس نهضات الأمم الأخرى وما رسمت لنفسها من غايات وما نهجت من سبل، والنظر في مزايا الأمة العربية وسجاياها الخاصة، لكي يستخرج من هذا كله الأساس الفلسفي الذي عليه تشاد العقيدة القومية العربية. وكنت لا أزال أدعو القلة من رجالنا المفكرة تفكيراً قومياً صحيحاً إلى وجوب ضم جهودها لإنشاء هذه العقيدة القومية ودفعها إلى الأمة صريحة واضحة منظمة لتتغذى بها نفوسها وتتوحد أهدافها ومراميها. بهذا ـ وبهذا وحده ـ يكتسب تفكيرنا وعملنا الاستقرار المنشود، ومنه ـ دون غيره ـ نستمد النور الذي يهدينا سواء السبيل.

* * *

ليس هذا الكتاب الذي أضعه الآن بين أيدي القراء بحثاً منظماً في العقيدة القومية على النحو الذي وصفت. فليس لي من استعدادي الحاضر ما يؤهلني لمثل هذه المهمة الخطيرة، ولا من فراغ البال وسعة الوقت ما يتطلبه هذا العمل الجليل. وإنما هي «نظرات» ألقيتها على حياتنا القومية، ثم لملمتها وجمعتها بين دفتي كتاب، آملاً أن يكون منها بعض النفع في العمل التوجيهي المفروض على جميع رجال الفكر في الأمة في الوقت الحاضر. وهي ـ وإن كانت فصولاً مستقلة وضعت في مناسبات وأحوال مختلفة ـ تؤلف وحدة فكرية روحية بما تصدر عنه من عقيدة واحدة تشيع

فيها جميعاً. تتناول الفصول الستة الأولى معنى القومية، ومقام المرأة فيها، وعلاقتها بـ «التربية»، و«الجنس»، و«الدين»، و«العمل الاجتماعي». وتبحث الفصول الخمسة التالية في مظاهر من حياتنا الثقافية مشيرة إلى بعض نواحي النقص فيها، مُلمّحة إلى المثل الثقافية العليا التي يجب أن نتطلع إليها. ويكشف الفصلان الأخيران عن بعض المنابع الروحية التي تغذي النهضة القومية، والتي لا غنى لهذه النهضة عن مائها النمير واكسيرها المحيي إذا أريد لها العز والمجد والنمو، بل مجرد البقاء.

لئن كان هذا الكتاب بعيداً عن البحث المنظم الشامل الذي تتفتح عنه العقيدة القومية العربية، فلقد أقدمت على نشره ـ على أنه خطوة أولية متواضعة ـ معتمداً في ذلك على أمرين: **أولهما** أملي بأن يكون منه ما يبعث على التفكير الصحيح في القضية القومية وما يساعد على بلوغ ذلك النسق من البحث القومي الذي وصفته في هذه المقدمة، **والثاني** شعوري بأن فصوله كتبت تحت ضغط التبعة التي يجب على كل حامل قلم تحملها تجاه أمته في هذا الظرف الدقيق من حياتها. وحسبي منه أن يحقق ذلك الأمل، وأن يكون في هذا الشعور بالتبعة الفكرية الذي يسري في طياته، ما يشفع بما فيه من نقص أو خلل.

ق. ز

معنى الوعي القومي

لم يبق خافياً على أي من ينظر في حالة الأمة العربية انها تجتاز اليوم دوراً من أشد أدوار حياتها دقة وأعظمها خطراً، وأنها تتخبط في فوضى فكرية بعيدة المدى بليغة الأثر. فكلنا يشعر بالتيارات المختلفة التي تتقاذفنا، وبالنزعات المتباينة التي تتجاذب نواحي حياتنا، وكلنا يحس هذا الهيجان الفكري والعاطفي الذي طغى علينا، والذي وزعنا فرقاً متنازعة وأحزاباً متناحرة لا تعرف لها هدفاً بيّنا أو غاية صريحة.

في مثل هذا الموقف الدقيق يترتب على مفكري الأمة وقادة نفوسها أن يواجهوا هذه الفوضى بعقل هادىء وقلب مطمئن ويعمدوا إلى تحليل عواملها والكشف عن منابعها ومصادرها الخفية، وان يتطلعوا من خلال أمواجها المتلاطمة إلى الأفق البعيد ليتبينوا قبس نور يهتدون به وشاطئاً أميناً يقودون الأمة إليه. ذلك هو واجبهم وتلك رسالتهم، فإن لم يقوموا بالواجب ويؤدوا الرسالة، بل ألهتهم عنها الأطماع الشخصية والغايات الصغرى، جنوا على أمتهم جناية لا تغتفر، وسجل عليهم التاريخ تقصيراً أي تقصير.

ويتبين لي أن العامل الأكبر في هذه الفوضى الصاخبة التي تجتاحنا هو فقداننا الشعور القومي الصحيح الذي يوحّد جهودنا، وينظم قوانا الروحية، ويفيض على نفوسنا صفاء وركوناً واطمئناناً. ولقد يعجب البعض من هذا القول، إذ يلتفت حواليه فيرى شؤون الأمة العامة على كل لسان يتحدث بها الكبير والصغير والغني والفقير، ويسمع أسماء قادة الأمة وزعمائها تتردد في المجالس الخاصة والمحافل العامة، ويلمس في جو البلاد اهتزازات وتيارات مفعمة بمظاهر القوة والحياة. أفننكر بعد هذا كله الشعور القومي، وسريانه في قلوب الأمة ونفوسها؟

الحق ان كثيراً من هذا الذي نرى ونسمع ونلمس لا يبلغ قرارة النفس، ولا

يكيّف صورة الحياة. فإذا استثنينا من تدفعه إلى هذا الاهتمام في الشؤون العامة غايات وأطماع دنيوية ــ وهم كما يعلم الجميع، كثيرون ــ وجدنا ان القلة الباقية موزعة بين فريق أكبر يتخذ المسائل الوطنية والقومية ملهاة يملأ بها فراغه ويسرّي بها عن نفسه عندما يفرغ من عمله الخاص فيجلس إلى صحبه ويبادلهم الأحاديث الجدية أو غير الجدية يتناول بها هذا أو ذاك من الشخصيات، أو هذه أو تلك من مشاكل البلاد، ويوهم نفسه وصحبه أنه يؤدي بذلك واجبه الوطني ويلتحق بصفوف العاملين في حقل القومية الصحيحة، وبين فريق أصغر تلتهب في نفسه عاطفة وطنية صادقة، لكن هذه العاطفة لم تخرج من حيز الشعور إلى حيز العقل، فتراه مدفوعاً بشتى الانفعالات النفسية والتأثرات العاطفية تقذف به ذات اليمين وذات اليسار، دون أمن أو استقرار.

وغني عن البيان أن هؤلاء جميعاً، بالرغم مما يحدثون من جلبة وضجيج، لا يؤلفون إلا قسماً من الأمة. أما السواد الأكبر فلا يتحسس بشيء من هذا، وان رفع صوته أو مدّ يده فعن دافع خارجي وقتي لا عن قوة داخلية دائمة. وغني عن البيان أيضاً ان هذه العوامل المختلفة التي تحرك من يتحرك منا ــ سواء أكانت المصلحة الشخصية، أم التلهي الفارغ الذي نملأ به حياة أفرغ منه، أم العاطفة الوطنية الجامحة ــ لا يمكن أن تكون أساساً متيناً يبنى عليه كيان الأمة ويشاد صرحها الجديد. ولا يمكننا أن نقيم هذا الأساس إلا إذا خلصت عاطفتنا الوطنية من أدران المادة، وارتفعت إلى حيز العقل، فأصبحت شعوراً يدعمه الفكر، أو بالأحرى فكراً يذكيه الشعور، وسرت في جوانب النفس كلها، فملأتها «وعياً» قومياً.

هذا الوعي القومي الذي يعرف ما يريد ويسير إليه بعزم صادق مطمئن، الذي يدري من أين أتى وإلى أين يسير، الذي لا يسمح لأية مصلحة خاصة أو عاطفة آنية أن تحيد به عن هدفه الأوحد وغايته القصوى، هذا الشعور الذي أصبح فكراً، وهذا الفكر الذي اكتسب بالشعور حياة، هذا الوعي القومي العاقل المتنبه لم تعمر به بعد إلا أنفس قليلة من هذه الأمة العربية، ولم يتصل تياره إلا بفئة ضئيلة متفرقة، مع أنه منبع كل نهضة قومية صحيحة، ولن تستطيع أمة أن تحقّق آمالها وتبلغ غاياتها إلا عندما يسود هذا الوعي نفوس أبنائها ــ أو على الأقل نفوس القادة منهم ــ ويشيع في جوانبها فهماً ودراية ونوراً.

* * *

فلنتساءل اذن: على ماذا يقوم هذا الوعي القومي؟ ومن أي المصادر يفيض؟

يقوم الوعي القومي أولاً على معرفة ماضي الأمة معرفة صحيحة، وفهم العوامل الطبيعية والتاريخية التي كوّنتها حتى جعلتها في حالتها الحاضرة، والكشف عن

مصادر قواها الروحية الخاصة التي تمتاز بها عن غيرها من الأمم. فالعربي الواعي قومياً يعرف من أين أتى، وكيف تحدرت أمته، ومن أي الجذور نبتت حياته الحاضرة. يضع يده على أصل الجنس العربي، ويتابعه في شيوعه من الجزيرة إلى ما حولها من البلدان، ويسايره في سيادته على الأجناس الأخرى وامتزاجه بها، وفي ما تكوّن من هذا الامتزاج من أمة مختلطة الدم والجنس، موحّدة في ما هو أهم من هذا كثيراً في الارتباط القومي، ألا وهو: اللغة، والتقاليد، والجهاد الماضي، والمصالح الحاضرة، والمقبلة. وهو يعرف، مع هذا كله، ما يقوله العلماء الحديثون عن معنى «الجنس»، وعن مقدار ما للوراثة من جهة، والمحيط من جهة أخرى، من أثر في تكوينه، وعن نوع علاقته القومية، وعن الحركات السياسية والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي أثارتها مشاكل «الجنس» في الشرق والغرب.

وينظر، بعد الجنس، في اللغة، فيعرف من أين نشأت وكيف انتشرت ويفهم ميزاتها على غيرها من اللغات، والقوى الخاصة التي جعلتها تسود سيادة تامة على هذه الأقطار الشاسعة. فلكل لغة نبوغ خاص وميزات تتفرد بها عن غيرها من اللغات. واللغة العربية، من بين اللغات جميعاً، قد أظهرت حيوية بالغة في دقة انتظامها، وفي سعة انتشارها، وفي مرونتها التي جعلتها أداة صالحة لنقل شتى العلوم والآداب. وهذا كله مما يهيب بنا إلى استكشاف سر هذه الحيوية وفهم القوى الخاصة التي تمثلها لغتنا، كي نستغل هذه القوى في تنظيم حاضرنا وبناء مستقبلنا.

غير أن اللغة ليست سوى مظهر من مظاهر الثقافة. والوعي القومي يتطلب أن يكون لنا فهم صحيح لجوهر الثقافة العربية: فنعرف البذور التي تكوّنت منها، والمظاهر المختلفة ـ من علم وأدب وفن ـ التي تجلت فيها، والخصائص التي امتازت بها، والرسالة التي أدتها إلى العالم، والدور الذي لعبته في تكوين التمدن الحديث. وليس من شك في غنى الثقافة العربية، وشمولها، وتشعب مناحيها. فلا بد أن يكون وراء هذه الميزات قوى روحية خاصة، ومنابع حياة فياضة، وقد وجب علينا أن نكشف عنها ونسبر غورها لندرك حقيقة هذه الثقافة التي ورثناها عن السلف، والتي تكوّن اليوم القسم الأهم والأبرز من شخصيتنا.

وأخيراً يتطلب الوعي القومي الملتفت إلى الماضي أن نلمس روح تاريخنا، ونتصل بالعوامل التي كوّنت هذا التاريخ. فلقد جاهد العرب في ماضيهم جهاداً حسناً في شتى نواحي الحياة، ففتحوا آفاقاً واسعة في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم، ثم عادوا فانطووا على أنفسهم وتقلص ظلهم. وانه لمن الخطورة بمكان أن نعرف حقيقة العوامل التي تأثروا بها في الحالتين جميعاً. ويهمنا بصورة خاصة أن ندرك القوى الداخلية الفاعلة في نفوس العرب وقلوبهم وأرواحهم، لأن الظروف والأحوال

الخارجية ـ على أهميتها في تكييف التاريخ وتسييره ـ ليست شيئاً إزاء القوى الداخلية التي تجيش في صدور الأمة. فلكم من أمة خلناها تنهار بغزوة شعب غريب كانت في الواقع قد تفسخت داخلياً وتهدمت في الباطن قبل أن تتهدم ظاهراً، ولكم من أمة أخرى أحاطت بها شتى الأحداث والكوارث، فلم تطفىء روحها ولم تمح شخصيتها.

وصفوة القول إن الأمة العربية لها شخصية خاصة تنفرد بها عمّا سواها من الأمم: شخصية مؤلفة من عناصر مختلفة ـ أهمها اللغة، والثقافة، والتاريخ المشترك ـ قد تحدرت جميعها من أصول الماضي، فأول واجب قومي يترتب علينا هو فهم هذه العناصر فهماً يكشف لنا عن روحها ويوضح لنا جوهرها، كي نعرف حقاً من نحن، وكيف تكوّنا.

ومن الواضح أن هذا الوعي القومي الذي أصف، بعيد كل البعد عمّا نردده كثيراً من التغني بمآثر السلف والإشادة بفضل الأجداد، وعمّا يتفجر في صدورنا من الاعتزاز العاطفي بالماضي المجيد والتاريخ الزاهر، فهو قد بلغ درجة أبعد من هذا الاعتزاز أو ذاك التغني لأنه قد تخطى حدود الشعور والعاطفة ودخل حيز الفهم والمعرفة. ولست أقصد من هذا أن أضع من قدر العاطفة والشعور في الجهاد القومي، ولكنني لست أراهما كافيين لبلوغ الغاية التي نرجو، إلا إذا اقترنا بالإدراك الواسع والفهم الدقيق. فالفرنسي الواعي قومياً يعرف بوضوح ودقة مزايا لغته ونبوغها الخاص ومقامها بين غيرها من اللغات، ومثله الألماني الذي ينشر أمامك خصائص ثقافته والأيادي التي لها على غيرها من الثقافات، والانكليزي الذي يعرض لك تاريخ أمته فيشير، بفهم وإدراك، إلى الدور العظيم الذي مثلته وإلى الروح التي تجلت فيها في مختلف الأدوار. أما نحن العرب، فكم بيننا من يعرف معرفة صحيحة من نحن، وكيف تكوّنا، وما هي حقيقة شخصيتنا وجوهر روحنا؟ كم بيننا، بكلمة أخرى، من تفتّح في نفسه الوعي القومي الملتفت إلى الماضي؟

* * *

على أن ماضي الأمة وتاريخها الغابر ليسا في الواقع إلا الجذور التي نبتت منها غرسة الحاضر، وإذا كان من المهم أن نلمس الروح المتغلغلة فيهما فلكي ندرك ادراكاً صحيحاً ما تولّد عن هذه الروح من مظاهر حياتنا الحديثة. فالوعي القومي الكامل يتطلب منا، إذن أن ننظر في الحاضر نظراً مدركاً، وأن ننفذ بأبصارنا وراء الحوادث الآنية التي نتخبط فيها والمظاهر السطحية التي تستهوينا إلى لب حياتنا الحاضرة وجوهرها كي نفهم حقيقة معناها ووجهة سيرها. ولما كانت هذه الحياة

الحاضرة وليدة عاملين رئيسيين يتفاعلان فيما بينهما تفاعلاً شديداً هما: الشخصية العربية كما تكوّنت عن محيط هذه البلاد الطبيعي وميراثها الاجتماعي والثقافي، والحضارة الغربية السائدة على المجتمع الحديث، فقد وجب أن يحيط ادراكنا بكل منهما إحاطة كاملة صحيحة.

أما الشخصية الداخلية للأمة العربية فقلّ بيننا من وقف على كنهها وقدّرها حق قدرها، وندر منا من وضع يده من جهة على منابع قوتها ومصادر حيويتها، ومن أحس من جهة أخرى بمواطن ضعفها وعوامل تفككها وتراخيها. ففي هذه الملايين من البشر الذين يؤلفون الأمة العربية قوى جسدية وعقلية وروحية لا يستهان بها قد أورثهم إياها محيطهم وتاريخهم. ولا تزال أكثر هذه القوى في حالة الكمون، لم تظهر بعد ولم تتحقق قابلياتها، بل مدخرة في الأجسام والعقول والأرواح. فعلينا أن ننفذ إلى منابع هذه القوى، حتى نستطيع استغلالها في خلق حياتنا الجديدة. كم في عقول الشبيبة العربية مثلاً من ذكاء فطري يبقى مخزوناً لا يستفيد ولا يفيد لانعدام وسائل بعثه في محيطنا، أو يهدر على التافه من الأمور فيذهب ضياعاً دون أن يكون له أثر في البناء القومي، حتى إذ أتيح له أن يتعرض لمؤثرات الحياة الحديثة في الغرب تفتحت مواهبه وتجلت قواه، كما يبدو في هذا الانتاج الباهر الذي ولّده المهاجرون من العرب في مختلف ميادين السياسة، والاقتصاد والاجتماع، والثقافة. وكم في صدور أفراد هذه الأمة من إيمان وتضحية واخلاص لا تجد لنفسها مجرى سامياً نبيلاً تتدفق فيه، فتفيض على المعتقدات البالية والخرافات السقيمة وتحييها في النفوس الظمأى، أو تضيع بين أحجار المادة وصخورها وتختلط بأدرانها وأنجاسها فينقلب جمالها قبحاً ونفعها ضرراً وإثماً. هذا قليل من كثير من هذه القوى المدخرة في شخصيتنا، والتي يترتب علينا قدرها وقياسها، والايمان بها ايماناً مبنياً على الدرس العميق الواضح ــ لا على مجرد الشعور السطحي الغامض ــ لأن فيها أملنا، وعليها اعتمادنا، وإليها مردنا ومصيرنا.

كذلك يفرض علينا الوعي القومي الرشيد أن نحس احساس فهم وادراك بعوامل الضعف في الشخصية العربية الحاضرة وبالمشاكل العديدة المتشابكة المتولدة عنها وان نجابه هذه العوامل والمشاكل مجابهة واقعية صريحة لا عوج فيها ولا التواء. ففي البلاد العربية جهل متفشٍ وفقر سارٍ، وتفسخ عقلي وأخلاقي لا يعلم إلا الله حدّه ومداه. وفيها مشاكل اقتصادية واجتماعية وروحية متشابكة النواحي مستعصية الحل. فليس من الخير في شيء أن نتهرب من هذه الأمراض والمشاكل إلى عالم الخيال الفارغ، ونخدع أنفسنا بالظاهر من الأمور خوفاً من مجابهة الباطن. ليس من الخير في شيء أن نشيح بوجهنا عن الجهل والتعصب حين نعلم علماً أكيداً في صميم

نفوسنا ما يغشى محيطنا من جهل ذريع وتعصب شنيع. وليس من الخير في شيء أن تبهرنا أنوار الجهاد الوطني فتعمي بصائرنا عمّا يتفشى في مجموعنا من جراثيم المادة القتالة والأطماع المفسدة، أو أن تملأ آذاننا الأصوات الداعية إلى التضامن والاتحاد فتصمها عن سماع صرير التمزق وقرقعة الانقسام. لا! وإنما الخير أن نواجه هذه المشاكل مواجهة جرأة وصراحة، وأن نعرف قدرها ونقيس مداها، كي نعد العدة الوافية لحلها والتغلب عليها. ونحن إذا فعلنا ذلك، أمكننا لا أن نزيل هذه العقبات الجسام من طريقنا فحسب، بل ان نجعل منها مصادر حياة جديدة تبعثها في نفوسنا، ونشاط متحفز تحييه في قلوبنا فينقلب ضعفنا المستمد منها قوة،وتراخينا الناشيء عنها تضامناً واتحاداً. وجملة القول إن الوعي القومي يزن الأمور بموازينها الصحيحة، ويضعها في مواضعها المختصة بها، وينظر إلى كل ما في شخصية الأمة الداخلية من منابع قوةْ أو مواطن ضعف نظرة واقعية يخترق بها إلى صميمها ويجلو حقيقتها.

أما العامل الثاني الذي تنشأ عن تفاعله وشخصيتنا الداخلية الحياة العربية الحديثة فهو: «الغرب»، بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من قوى وعوامل غزيرة متشابكة. ولست أعني بالغرب بلاد أوروبا وأميركا وشعوبها فحسب، بل كل بلد أو شعب قبل هذه الحضارة الحديثة التي نشأت في الغرب وتأثر بها تأثراً عميقاً واسعاً: فاليابان الشرقية أقرب فعلاً إلى أوروبا منها إلى أكثر مناطق آسيا. وما من أحد ينكر ان العوامل والقوى التي يمثلها الغرب هي العنصر السائد في عصرنا هذا. وسواء أردنا ام لم نرد فالغرب محيط بنا من جميع جوانبنا، آخذ علينا كل سبيل من سبل حياتنا، وسواء أشئنا أم لم نشأ بهذا العنصر المندفع بقوة لا تقدر سوف يفرض نفسه علينا ويعمل في تكوين مستقبلنا. فحري بنا اذن أن نفهمه حق فهمه، وندرك كنهه، ونعرف ماهيته، كي نحسن مجابهته ويكون اتصال روحنا بروحه على نور وهدى وبصيرة لا بفعل الصدف الطارئة والأحوال المسيّرة.

واني لأخشى كثيراً أن سواد هذه الأمة الأعظم لم يفهم الغرب بعد فهماً صحيحاً ولم يصل بإدراكه إلى لبه ومتفجر حياته، بل لا يزال مأخوذاً بمظاهره الخارجية وأنواره الخلابة. فالغرب في نظرنا هو ما يحيط بنا من سيارات سريعة الجري، وملاهٍ باهرة النور، وأدوات عجيبة الصنع، وإذا تقدمنا درجة أخرى في وعينا وإدراكنا أحسسنا بما يفيض عنه من جيوش في زمن الحرب، ومن نظم وعهود في أوقات السلم، أو لمسنا نتفاً متفرقة ونواحي فرعية مما ينتج عقله من أدب وعلم. وأنا أزعم أن هذه كلها ليست جوهر الغرب، بل هي مظاهر خارجية نقف عندها فتلهينا عن القوة الحقيقية التي تفعل فيها وتحركها. فوراء هذا جميعاً نظام اقتصادي متشابك خلقته الثورة الصناعية الحديثة يرمي إلى استغلال موارد الطبيعة ومواهب الإنسان

وقابلية الآلة الحديثة في سبيل زيادة الإنتاج وتنظيمه. فكلما زاد إنتاج الأمة وانتظم، توافر غناها وفاضت ثروتها وتمكنت من أن تفرض نفسها على الأمم الأخرى. وما دامت موارد الأمة غير مستغلة استغلالاً تاماً، وسبل إنتاجها غير موجهة توجيهاً قومياً، فلا يمكن أن يكون لها صوت مسموع أو يد مدبرة. وكل ما في الغرب اليوم من معامل ومعاهد وأنظمة حكومية، وما يطغى عليه من أزمات اقتصادية وتيارات اجتماعية وثقافية، إنما هو ـ في أكثره ـ وليد هذا النظام الاقتصادي المتشعب المعقّد. ومهما قال الناس في أخطاء هذا النظام ومراكز ضعفه، ومهما تذمروا من تضارب عناصره وتطاحن أجزائه ومما يجره على العالم من فوضى وارتباك، فليس من شك في أنه سيبقى في جوهره ـ أي في ما يرمي إليه من استغلال موارد الطبيعة واستخدام الآلة إلى أقصى حد ممكن ـ النظام السائد في المستقبل، وان لا سبيل إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف، أو ما يدعو إليه بعض المصلحين، من أنظمة اقتصادية بسيطة فطرية. ونحن إذا أدركنا النظام الاقتصادي الحديث على حقيقته، وميزنا حسناته من سيئاته، أمكننا أن ندخله في حياتنا على نور هذا الادراك والتمييز، واستفدنا من اختبار الغرب الواسع، فتجنبنا ما أصاب الغرب منه من مضارٍ وآلام، وقطعنا في سنوات ما توصل إليه الغرب في أجيال. ولعل أبرز ما يمتاز به هذا النظام الاقتصادي هو التنظيم الدقيق الذي يؤلف بين جميع أجزائه، ويسري في جميع نواحيه، فيوحّدها ويربطها ربطاً متيناً كارتباط أجزاء هذه الأدوات العجيبة التي يطلع علينا بها الغرب حيناً بعد حين. هذا التنظيم الذي ينبعث من معامل الغرب ومصانعه قد ساد الحياة الغربية في جميع مظاهرها، فسرى إلى النفوس وكيّف العقول بحيث أصبح جزءاً من شخصية الغربي يتجلى في شتى نواحي حياته السياسية والاجتماعية والثقافية. وما من أحد يلقي نظرة على الحياة العربية الحديثة إلا ويلحظ ان روح التنظيم الصحيح لم تتسرب بعد إلى نفوسنا ولم تختلط بلحمنا ودمنا، ولعلها لن تبلغ هذا الحد إلا عندما يسود حياتنا هذا النظام الاقتصادي المتماسك الأركان المتصل الحلقات الذي يكيّف حضارة الغرب الحديث.

ووراء اقتصاد الغرب، علم الغرب. ولست أعني بالعلم هذه المعلومات المتفرقة التي نستمدها من الكتب المدرسية أو المؤلفات السطحية فنطلي بها عقولنا، ونصبغ نفوسنا، ونعتز بها في زهو واغترار، وإنما أعني تلك الطريقة في التفكير، وذلك الأسلوب في التحليل الذي يثبت في العقل ويشيع في النفس عندما يعاني المرء التدريب العلمي الصحيح: أعني البحث الدائم عن الحقيقة، والشك اليقظ في ما لا يوافق العقل، والاستنتاج الصحيح والمنطق السليم. أعني التواضع النفسي الذي يقدر ضآلة المعلوم بالنسبة إلى المجهول، والاتزان العقلي الذي يقيس

الأمور بمقاييسها الصحيحة، والاطمئنان الروحي الذي يفيض على النفس من سعيها الحثيث إلى الحقيقة واشراقها بها.ويخيل إليّ أنه لا يزال بيننا وبين هذه المزايا العلمية الصحيحة خطى واسعة ومراحل بعيدة، وأنه يحسن بنا أن نقبل على علم الغرب بقلوب متواضعة ونفوس ظمأى ونروي عقولنا من منابعه النقية. وإن كنت أخشى شيئاً فهو هذا الطغيان الأدبي الذي يسود حياتنا العقلية، والذي يحمل لنا شتات أسماء الأدباء في الغرب وفتات آرائهم ومذاهبهم فنتهالك عليها ونتجادل ونختصم فيها، ونلهو بها عن القوى العقلية الكبرى التي تهيمن على الحياة الحاضرة: وهي قوة العلم المنصرفة إلى مجابهة مشاكل الإنسان في الطبيعة والاجتماع. ومن الخطأ الفاضح أن يشكو بعضنا من كثرة العلم ووفرة المتعلمين، ويتذمر من الأزمة الاجتماعية والفكرية الناشئة عن ذلك. فما كانت كثرة العلم لتضر بأمة من الأمم أو تعيقها عن سيرها، وإنما هو طغيان العلم الزائف على العلم الخالص، وتفشّي المعلومات الخارجية السطحية التي تذهلنا عن الروح العلمية الصحيحة. ولعلنا لم نكن في يوم من الأيام أحوج إلى أن نعي هذه الروح العلمية وعياً رشيداً، وندرك مقامها في حاضرنا ومستقبلنا، منا في هذا العصر الحديث.

ووراء علم الغرب، فلسفة الغرب. وفي الفلسفة تجتمع شتى التيارات الفكرية والعاطفية وتتجه كلها نحو هدف واحد في نسق واحد. وقد ظهرت في تاريخ الغرب عقول جبارة جمعت هذه التيارات، ودفعتها موحدة في مجارٍ غزيرة فاضت على الحياة الغربية فكيّفتها ولوّنتها بألوان خاصة. وليس من شك في أن هذه العقول تختلف فيما بينها وان ألوان فلسفتها يتباين بعضها عن بعض، وليس من شك في أن المجاري التي تدفقت فيها تباعدت وتنافرت أحياناً كثيرة، ولكن وراءها كلها اتفاقاً جوهرياً ووحدة روحية، ومنبعاً أصلياً يمدها جميعاً. وهذا ما يجعل عامة الغربيين ينظرون إلى العالم نظرات متشابهة، ويقدرون قيم الحياة بمقادير متقاربة، يختلفون بها عمّا سواهم من الشعوب التي لا تعيش في جوهم ولا تصدر عن فلسفتهم. واني لأعتقد اعتقاداً مكيناً أنّا لن نستطيع أن نفهم الغرب على حقيقته، ما لم نفهم أفلاطون وأرسطو، واغسطين واكويناس، وديكارت وكانت، وهيغل ونتشه، وسواهم من قادة الفكر الذين فرضوا عقولهم على الغرب ووجهوا تياراته الفكرية وجهتها الخاصة. ولنذكر هنا أيضاً ما تبين لنا في أمر العلم من أن المعلومات الفلسفية شيء، والفلسفة - كنظرة عقلية وهيئة نفسية - شيء آخر، وان فهم الفلسفة الغربية الذي ننشد هو تلك المعرفة التي تخترق بها أذهاننا إلى قلب التفكير الفلسفي، وتلتهب بالروح الفلسفية المنبعثة منه.

النظام الاقتصادي، ومن ورائه العلم، ومن ورائهما الفلسفة: تلك هي، في

نظري، العناصر الأساسية التي تتألف منها حقيقة «الغرب». وخليق بمن أشرقت نفسه بالوعي القومي الواضح أن يفهم هذه العناصر الثلاثة فهماً صحيحاً فيلمس بذلك روح الحضارة الغربية المتدفقة علينا. فإذا جمع هذا الفهم إلى ادراك شخصية الأمة الداخلية، في مناحي قوتها وضعفها، نظر نظرة صائبة إلى الحياة العربية الحاضرة المتكونة من تفاعل هذين العاملين العظيمين.

* * *

على أن الوعي القومي لا يكتمل إلا إذا تقدم من فهم ماضي الأمة وإدراك حاضرها إلى تقدير مستقبلها وتصوير مصيرها. فالأمة التي لا تعرف معرفة يقينية واضحة الغاية التي تسير إليها، ولا تنظم وسائلها لبلوغ هذه الغاية، مقضيّ عليها بالفشل والخسران في ميدان هذه الحياة، ومقدّر لها أن تذهب وتبيد دون أن تخلف وراءها أثراً في سجل التاريخ. ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه المسألة الخطيرة في حياتنا القومية وجدنا ان الغاية القصوى لأية أمة من الأمم إنما هي الرسالة التي تؤديها هذه الأمة للثقافة الإنسانية والتمدن العام. فالأمة التي لا تشعر بأن لها رسالة في هذه الحياة لا تستحق هذا الاسم، بل لا يمكنها مطلقاً أن تبلغ مستوى الأمة الصحيح إذ لا يكون ثمّ مبرر لوجودها أو غاية لكيانها. وما الاستقلال والوحدة في واقع الحال سوى وسائل لبلوغ هذه الغاية الأخيرة. فإذا نحن طلبناهما واندفعنا وراءهما اندفاع المستميت فلأنهما يحققان لنا الوسائل ويفتحان أمامنا السبل لأداء رسالتنا وتبليغ دعوتنا.

وخليق بالأمة العربية أن يكون لها رسالة رفيعة بين الأمم. وخليق بكل عربي أن يشعر بأن محيط أمته الطبيعي وتاريخها الخاص قد أهّلاها لمهمة لم تتوافر شروطها لأية أمة أخرى، وأن القوة المدبرة وراء هذا الكون قد أعدت العرب لأمر لا يستطيع أي شعب آخر أن يقوم به دونهم. ذلك هو الشعور الذي يمتلك الألماني عندما يحدثك عن أمته وعن مستقبلها، فجميع عناصر حياته: العلم، والفن، والأدب، والقوة الحربية، والتنظيم الاقتصادي، كلها تكتسب قوة جديدة وتصطبغ بألوان زاهية، وتأتلف في صورة واحدة هي الرسالة التي حفظ القدر للأمة الألمانية ــ ولها وحدها ــ امتياز تأديتها، بل واجب هذه التأدية. ومثل هذه العقيدة تملأ نفس الانكليزي، والفرنسي، والياباني، وكل من يطمح إلى أن يكون لأمته مقام على الأرض وذكر في التاريخ. وليس بخاف ان هذا الشعور برسالة قومية قد يبلغ في أحيان كثيرة حد التطرف، وان الأمم قد تتخذه ستاراً لأطماعها المادية ولأغراضها في السيادة والتغلب ــ كما فعلت الدول الغربية في تاريخها الاستعماري، ولا تزال، وكما بدأت تفعل

اليابان في هذه الأيام ـ غير أن الخطر عندنا ليس في الغلو والإفراط، بل في التفريط والنقصان، وليست مصيبتنا حب السيطرة وفرض السلطان، بل خور العزم وضعف الايمان. ونحن إذا فكرنا وشعرنا برسالة قومية كبرى اكتسب جهادنا في سبيل الحرية والاستقلال معنى جديداً، واكتسى سعينا إلى الوحدة والسيادة حياة بهية، واستمددنا من هذه الغاية القصوى التي نضعها نصب أعيننا قوة مضاعفة وهمة مزدوجة لبلوغ الوحدة وتحقيق الاستقلال.

وليس هذا الذي أقوله عن رسالة الأمة العربية مجرد شعور وهمي يتسلط على النفس ويسري في القلب، وإنما هو ايمان مبني على المقارنة والاستنتاج. فليس من المعقول ان الأمة العربية التي أنزلتها الأقدار في هذا الموقع الممتاز من الكرة الأرضية، والتي تفتحت مواهبها في العصور الغابرة عن مآثر باهرة في شتى نواحي الحياة، أقول ليس من المعقول ان أمة كهذه لا تكون لها مزية معينة تتفرد بها عن غيرها من الأمم، ويد خاصة تسديها إلى التمدن البشري. أما إذا أردنا تحديد هذه الرسالة بالضبط، ومعرفة ماهيتها الحقيقية، فقد وجب علينا ان نقوم بدروس عميقة وتأملات بعيدة، تتناول المحيط الطبيعي، والأصول الجنسية، والتطور الاجتماعي، والتراث الثقافي، وتتعمق دون هذه المظاهر كلها إلى روح الأمة وشخصيتها. ومن النقص الشائن ان قادتنا ومفكرينا لم يقوموا بعد بهذه المهمة الخطيرة في حياتنا القومية، ولم يرسموا لنا رسالتنا الخاصة بصورة لا يشوبها غموض أو ابهام. ولكن لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا ان عمل الأمة العربية سيكون في المستقبل كما كان في الماضي: فكما أن العرب استطاعوا في العصور الغابرة أن يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند، ويمتصوها بعقولهم النشيطة ونفوسهم الظمأى ثم يخرجوها إلى العالم وحدة منسجمة غنية المادة باهرة اللون، كذلك ستكون مُهمة العرب في الأعصر الآتية أن يتشربوا علم الغرب ويجمعوا إليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كردّ فعل له، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية.

ولكن، سواء أكانت هذه رسالتنا الحقيقية أم لا، فحسبنا أن نعتقد أن لنا رسالة ما، وان نؤمن انها أعدت لنا وأننا أعددنا لها، وحسب قادة الفكر بيننا أن ينصرفوا لايضاح هذه الرسالة، وتبيين هذه الغاية، فيفتحوا أمامنا الطرق ويمهدوا لنا السبل والوسائل.

* * *

كفى بما تقدم تصويراً لما أقصد من الوعي القومي الذي قلت إنه القوة العظمى التي نحتاج إليها في هذه المرحلة الخطيرة من حياتنا. وقد تبيّن **ان هذا التنبه العاقل يقوم على أركان ثلاثة: فهم صحيح لماضي الأمة الذي تحدرت منه شخصيتها،**

وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وايمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل. وقد تبيّن لنا، ولا شك، ان هذا الوعي القومي لا يمتّ بصلة إلى الاهتمام الفاتر بالسياسات المحلية الذي طغى علينا وأفسد حياتنا، بل هو أرفع منه وأسمى، وبقدر ما يمتلك النفس ويسود العقل يخف هذا الهيجان الذي نتخبط فيه وتهدأ الحمّى التي تثور في جسمنا وننظر إلى الأمور نظرة قومية كبرى لا نظرة محلية ضيقة. ولرب معترض يقول إن هذا الوعي القومي غير متيسر لأفراد الأمة جميعاً، وإنّا إذا نظرنا إلى الأمم المتيقظة في الغرب والشرق وجدنا ان عامتها قلما تبلغ هذا الإدراك العميق الشامل الذي وصفنا. والجواب عن ذلك أن الاختلاف واقع في الدرجة لا في النوع، وان سواد الأمم الحية قد بلغ من هذا الإدراك حداً أبعد كثيراً مما بلغه سواد أمتنا، وقد يكون أبعد مما وصل إليه قادتنا وأولياء أمورنا.

والمهم في أمر هذا الوعي القومي إن إيقاظه في النفس ليس من اختصاص قادة السياسة وأرباب الحكم فحسب، بل إن كل فرد من أفراد الأمة يستطيع أن يساهم في هذا الإيقاظ أياً كان عمله أو شأنه. فمجال العمل فيه مفتوح أمام الموظف في مكتبه، والصانع في معمله، والصحافي في جريدته، والمعلم في مدرسته، بل أمام كل من تقرّبه طبيعة عمله إلى نفوس مواطنيه وتربطه بهم. ومن هنا استطعنا أن نقدر مبلغ ما يمكننا تحقيقه من هذا القبيل، لو أن جميع المتنبهين المدركين بيننا تعاونوا على هذا العمل الإحيائي كل من ناحيته، إذن لتفتحت نفوس هذه الأمة بأسرع مدى وتنبهت عقولها بأيسر زمن.

وأراني مدفوعاً هنا إلى أن أشير إشارة خاصة إلى الدور العظيم الذي تمثله المرأة في هذا الحقل الخصيب. فالمرأة ــ صديقة للرجل، أو زوجة له، أو أماً له أو لأولاده ــ قوة لا تقدّر في تكييف حياة الأمة وإيقاظ نفسها. وفي كل طور من أطوار حياتها فرص لا تعد ولا تحصى تنكشف لها فيها عقول أفراد الأمة وأرواحهم. ولرب شرارة واحدة من نفسها المتقدة تكفي لتنبيه أعظم القوى في تلك العقول ولبعث أشد التيارات في هذه الأرواح.

ولكن كيف يمكن المرأة العربية أن تساهم في إيقاظ الوعي القومي، إن لم تكن هي نفسها قد أحرزته وامتلأت نفسها به؟ وكيف يمكن الأمة العربية ان تبلغ هدفها وتحقق غايتها إذا كان نصفها الأفضل منطفىء النفس، خامد الروح؟ لقد سمعنا كثيراً في المحافل النسائية وسواها عن قضية المرأة، وعن المرأة العربية بوجه خاص، ولست أريد الآن أن أعيد ما اعتدنا ترديده من أقوال وآراء في هذا الموضوع. وإنما هو يقين متمكن من نفسي، واقتناع شديد يلح عليّ في أن أجاهر بما يخالجني، وأؤكد بكل ما أستطيع من قوة مقام المرأة العربية في تنبيه هذا الوعي القومي: سواء بما

تحيي في النفوس من ماضي الأمة، أو بما توجه إليه العقول من حاضرها، أو بما ترسم من غايتها في مستقبلها. ولعل الدور الذي تمثله في هذه الناحية الأخيرة ـ أي في رسم الغاية وايضاح الرسالة ـ أشد أعمالها خطورة وأعمقها أثراً.

هذا هو الواجب الأسمى الملقى على عاتق المرأة العربية. وهذا ما يجب أن تفهمه نساؤنا، بل ما يجب أن يفهمه أيضاً رجالنا: لأن نهضة المرأة العربية التي تؤهلها للقيام بهذا العمل القومي الخطير منوطة بالرجال والنساء معاً، وإن كان مبعثها الأول والأخير هو النساء أنفسهن.

* * *

في موقع ممتاز من الكرة الأرضية، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب، وفي وسط مجاري الثقافة والمدنية، تحيا أمة قد تشرّبت عصارة ماضيها، وتقبلت وحي تاريخها وأدركت كنه حاضرها، وعرفت جوهر العالم الذي فيها والعالم الذي حولها، وتطلعت إلى مستقبلها بنظر ممدود أبداً إلى الأمام، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة. أمة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال، وأحرزت الوحدة فأدركت غاية الوحدة. أمة قد اخترقتها أشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجسد، بل أضاءت العقول وأنارت الأرواح. أمة قد علمت ان السيادة الحقة هي سيادتها على نفسها الصادرة عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها. أمة قد امتلأت قلوب أفرادها بإيمان كل حبة منه تنقل الجبال، وعلا جباه رجالها ونسائها ضياء كلّ قبس منه يهدي الأجيال. أمة يكفينا في وصفها أن نقول: قد سرى في نفسها الوعي القومي الكامل. هذا ما نريد الأمة العربية أن تكون. بل هذا ما سوف تكون.

المرأة العربية في الحياة القومية

في هذا الدور من النهضة القومية حين يبادر كل فرد من أفراد الأمة إلى تفهم الواجب الذي تفرضه هذه النهضة عليه والمهمة التي تتطلبها منه، وإلى تلمّس الطرق التي تمكنه من أن يؤدي هذه المهمة ويقوم بذلك الواجب، في هذا الدور الدقيق ــ دور التنبه والتحفز ــ يجدر بالمرأة العربية أن تنعم النظر والتفكير في قسطها الخاص الممتاز من العمل القومي، وفي ما يطلب منها، ويرجى لها، من يد فيه ونصيب منه. كذلك يجدر بكل من يهمه تحقيق الأهداف القومية أن يشارك المرأة في هذا التفكير، وأن يساهم في تحديد الغاية وإيضاح الطريق، كي تسير المرأة العربية إلى أداء واجبها على نور وبصيرة، وباطمئنان ويقين.

كل واجب يقوم به الإنسان لا يكون صحيحاً كاملاً إلا إذا تألف من عنصرين مقترنين: علم وعمل. فالعلم الذي لا يسير بصاحبه إلى العمل المنتج المجدي علم زائف زائل، والعمل الذي لا يبنى على علم صحيح وفهم دقيق لا يلبث أن تهب عليه عواصف الأيام فتبدده هباء منثوراً. والمعضلة الكبرى في هذا العصر هي أن الناس ــ إلا أقلهم ــ يعملون دون أن يعلموا، أو يعلمون ولكنهم يحجمون عن أن يعملوا. فواجب الفتاة العربية القومي يبتدىء اذن بالعلم الصحيح، وينتهي بالعمل المثمر.

يبتدىء واجبها القومي بعلمها بأحوال بلادها، وفهمها لمشاكل وطنها وأمتها. فهي لا تكون بنتاً حقيقية لوطنها، ولا قطعة حية منه، إذا لم تتصل به اتصالاً روحياً وثيقاً، وتحس احساساً داخلياً عميقاً بتاريخه الماضي، ومشاكله الحاضرة، ورسالته المستقبلة. أليس من المؤسف المخزي ان الفريق الأغلب من فتياتنا المتخرجات في المعاهد المختلفة لا يعلمن هذا العلم، ولا يحسسن هذا الاحساس، بل يعشن في هذا الوطن غريبات عنه يتصلن به بأجسامهن، لا بأرواحهن؟ يدرجن على أرض هذا الوطن ويتنشقن هواءه، ولكنهن لا يلمسن روحه، ولا يشاركنه نعيمه وشقاءه. تشغلهن

عنه مظاهر المادة الزائلة، وزخارف الحياة التافهة، فإذا حلمن طارت نفوسهن إلى أرض غير أرضه، وسماء غير سمائه، وإذا أعجبن أو تباهين فبغير تاريخه، ومآثره، ورجاله.

وليس من شك في ان المسؤولية الكبرى عن هذه العلة تقع على البيت أولاً، وعلى المدرسة ثانياً. ولسنا نستطيع أن نتداركها إلا إذا بدأ الآباء والأمهات، فغرسوا في نفوس بناتهم منذ الطفولة بذور التربية القومية الصحيحة، ثم جاءت المعاهد المدرسية فتعهدت هذه النبتة بالعناية والتقوية حتى تتفتح زهوراً فواحة العبير، ثم ثماراً جنية القطاف. فالآباء والأمهات الذين يتخلفون عن هذا العمل يخلّون بأول واجب من واجباتهم القومية، والمدارس التي تهمله تقصر في تأدية رسالتها، بل تنقلب عناصر ضارة في كياننا. وكل فتاة عربية قضت سني دراستها دون أن تتهذب هذا التهذيب القومي لا تزال تربيتها ناقصة، وثقافتها عليلة، مهما جمعت من العلوم وحازت من الشهادات. فلتبادر إلى سد النقص، ومداواة العلة، بدرس أحوال وطنها وإدراك كنه ماضيه وحاضره، حتى تتصل به اتصالاً روحياً وتصبح جزءاً لا ينفصل عنه. ولتعمل لدى حكومتها، وفي إثارة الرأي العام حولها، كي يتجه الوالدون من جهة، والمدارس من جهة أخرى، اتجاهاً قومياً صحيحاً، فلا يفوت اخواتها ما فاتها هي، بل ينشأن على معرفة بلادهن معرفة عميقة، وفهم حياة أمتهن فهماً دقيقاً، فيصبحن منها في الصميم، ولا يعشن ــ كما تعيش الكثيرات اليوم ــ على هامش الحياة القومية، وبمعزل عن تياراتها المتدفقة.

* * *

فإذا علمت الفتاة العربية هذا العلم ــ وكان علماً صحيحاً ــ قادها بطبيعة الحال إلى المساهمة العملية في خدمة بلادها. والعمل القومي الذي ينفسح مجاله أمامها عندئذ عمل واسع الأفق بعيد المدى. ففي كل حركة من حركاتها ــ إذا أخلصت ــ مجال لخدمة قومية صحيحة، وفي كل نبضة من نبضات فؤادها، وكل ابتسامة تعلو شفتيها، إحياء لناحية ــ مهما ضؤل شأنها ــ من حياتنا القومية. ولسنا نستطيع في هذا البحث الموجز، الذي يقصد إلى الكشف عن الموضوع أكثر منه إلى استقصائه، ان نحيط بهذا العمل القومي من نواحيه المختلفة، فلنقتصر اذن على مظاهره الكبرى.

لنبدأ بها كصديقة، ثم كزوجة. لقد مزقت قوى العصر الحديث الحواجز التي كانت تفصل بين الشاب والفتاة. فبعد أن كانت الفتاة، إلى أيام مضت، محجوبة عن أخيها الشاب، إذا بها الآن تجتمع به في شتى المناسبات، وتبادله الود والولاء. والشاب العربي تحيط به اليوم صعوبات هائلة: مشاكل سياسية، وأزمات اقتصادية

ومعاضل اجتماعية، وفوق هذا كله: حيرة روحية داخلية تتسرب إلى أطراف نفسه، وتزعزع مبادئه العقلية والخلقية. وكثيراً ما تسودُّ الدنيا في عينيه، ويرفرف القنوط المشؤوم على روحه فيشل فاعليته ويجعله عضواً عاجزاً ـ بل فاسداً ـ في جسم أمته. وكثيراً أيضاً ما تلتف حوله أفاعي المادة فتخنقه وترميه إلى الحضيض صريعاً فاقد الروح مطفأ الأمل. هنا ينفسح المجال لشريكته المرأة ـ صديقة أو زوجة ـ لتؤدي رسالتها الحقة ونصيبها الصحيح. فلقد خلقت المرأة لتكون عون الرجل في محنته، وسنده في ضعفه، ونوره في ظلمته. وان القلب ليدمى عندما يلتفت أحدنا اليوم فيرى الكثيرات من نسائنا يقصرن في تأدية هذه الرسالة السامية، بل غالباً ما تستهويهن أباطيل المادة الزائلة: من ترف في المأكل والملبس والمسكن، ومن رغبة في الظهور وتهالك على التقليد، فيغمسن الرجل في بؤرة المادة بدلاً من أن ينشلنه منها، ويزدن في حلك قنوطه وحيرته بدلاً من أن ينرن بمشعلهن الروحاني سبيله ويبددن ظلماته.

ولا يستصغرن أحد ما في هذا العمل الهادىء المتواضع من الخدمة القومية الفعالة. فكم من زعيم استبسل في جهاده بفضل الروح التي نفختها فيه زوجته، وكم من رجل استجمع نفسه بعد أن كانت مضطربة مبعثرة بمسحة سحرية سحرته بها صديقته أو حبيبته. وقدماً قالت العرب: النساء أمهات الرجال. ولست أفهم من هذا القول إلا أنهن أمهاتهم بالروح يقبضن بأناملهن الناعمة على أزمّة نفوسهم: فإما يرفعنهم إلى قمة المجد والحرية، وإما يخفضنهم إلى هوة الذل والعبودية.

أما واجب المرأة العربية كأم، فليس من الضروري الإفاضة فيه في هذا المقام، ونحن نعلم علماً لا يدانيه شك ان الأمة التي تكون في بدء نهضتها ومطلع حياتها تحتاج إلى رجال ونساء أقوياء في أجسادهم وعقولهم وأرواحهم، وان العامل الأول في خلقهم وتنشئتهم هو الأم التي تتعهدهم في السنين الأولى من حياتهم وتغرس بذور شخصيتهم. فكل ما يمكن قوله الآن هو أن مهمة الأمومة مهمة خطيرة ومسؤوليتها جسيمة، وإننا ـ نساء ورجالاً ـ قلما نقدر خطورتها ونضعها في مقامها الذي لها في حياة الأفراد والأمم. فعلى المرأة العربية أن تعدّ لها عدتها وتوفر لها شروطها، وان لا تقدم عليها إلا وهي شاعرة بعظمتها وخطورتها وأثرها في مستقبل الأمة. وعلينا جميعاً أن نساعدها في خلق هذا الجو وايقاظ هذا الشعور كي تؤدي الأم رسالتها القومية العظمى بأن تخرج للأمة أعضاء أصحاء يحفظون قوتها ويبعثون حيويتها.

بقي أخيراً واجب المرأة العربية كعاملة في الخدمة العامة. ان أعمالنا العامة محاطة بكثير من الصخب والضجيج، ومن الجعجعة التي نسمعها ولا نرى وراءها

طحناً. وليس من الخير في شيء أن تزيد المرأة هذا الصخب المتصاعد، وأن تنحط إلى ما ينحط إليه أكثر رجالنا من التكالب على الوظيفة والدس والمراوغة والمناورات الحزبية الهدامة. ففي العمل القومي نواحٍ عدة أعمت السياسة والشهوة المادية عين الرجل عنها، وأخرى لا يستطيع ـ حتى لو انتبه إليها ـ أن يعمل فيها ما تعمله المرأة، التي أعدتها الطبيعة لها اعداداً خاصاً بما خلقت في نفسها من حب واخلاص، وما أفاضت عليها من شفقة وحنان. في هذه النواحي ـ وكلها خطير ـ يقوم واجب المرأة وتتجلى عبقريتها.

فالأمة تعج بطبقات وافرة من الناس يرفرف فوقها البؤس والشقاء، ويخيّم عليها الذل والجهل والظلام: في الشوارع أطفال قذف بهم الفقر والجهل إلى هذا العالم وشُتتوا فيه حفاة عراة ينغمسون في حومة الرذيلة وينشأون جراثيم قتّالة في كيان الأمة. في المعامل والمصانع، في الحقول والمزارع، نساء ورجال يرزحون تحت كابوس البؤس والفساد والظلم الاجتماعي. في السجون وبيوت الإصلاح ودور الأيتام تعاسة وشقاء ويأس قتّال. وفي هذه كلها ـ وكثير غيرها ـ علل وأدواء بوسع المرأة أن تصب عليها إكسير المحبة والحنان فتزيلها، أو تخفف ـ على الأقل ـ من وطأتها. فلرب ابتسامة ناعمة أحيت نفساً تعسة ورفعتها من وهدتها، ولرب دمعة رقيقة بدد صفاؤها ظلمات الشقاء الكثيفة، ولرب نظرة محيية نشرت الأمل بعد اليأس والهناء بعد البؤس. فإذا انتظمت هذه العاطفة الحساسة وترادفت مجاري هذا الغنى الروحاني في ما تنظمه المرأة من جمعيات خيرية واصلاحية، تدفق البر والإحسان وفاض الحب والحنان، وكان منها للأمة الخير العميم والنفع الجزيل.

ولعمري إن في هذا لخدمة قومية جزيلة لا يدانيها العمل السياسي أو السعي المادي. وانه لمن أجمل مظاهر نهضتنا الحاضرة وأوفرها مغزى أن جمعياتنا النسائية أخذت تتجه إلى هذه الأهداف القومية وتقوم بما تفرضه من مشاريع اصلاحية مفيدة. ولكن الغاية لا تزال بعيدة والطريق إليها طويلة كثيرة العقبات. فعسى أن تتقدم المرأة العربية فيها، حتى تتوصل إلى ما أسدته أختها الغربية من المآثر الغراء في هذه النواحي الخصبة من الحياة القومية.

* * *

ذلك هو واجب الأمة العربية في هذا الدور من حياتنا القومية، يتجلى في عنصريه: العلم الصحيح، والعمل المنتج، داخل البيت وخارجه. وقد بان ان مهمة المرأة العربية هي في جوهرها مهمة روحية، وان عملها بمظاهره المختلفة: كصديقة، أو زوجة، أو أم، أو مجاهدة في الخدمة العامة، هو عمل بعث وإحياء لما خمد من قوى الأمة ونضب من مواردها النفيسة. وليس هذا بعجيب، فكذلك كانت رسالة

المرأة في العصور الماضية، وما تزال، نوراً يبدد الظلمات، وسحراً يزيح الأثقال ويحيي العزائم والأرواح.

وان هذه الرسالة الرفيعة لتعظم في أعيننا، وتتجلى لنا بحقيقة معناها ومغزاها، إذا ذكرنا ان معضلتنا الأساسية في حياتنا الحاضرة هي معضلة روحية داخلية. فما المشكلة السياسية، والأزمة الاقتصادية، لتوازيا جزءاً من هذه المعضلة الروحية، وما كانت أي منهما لتتعقد وتستعصي لولا هذه الأزمة الداخلية التي تفسخ جسم الأمة وتضعضع قواها: لولا الحقد الذي يشتّت الصفوف، والحسد الذي يفرّق بين القلوب، لولا المادة وحبائلها، والرذيلة وأفاعيها، لولا العقول المستعبدة، والأرواح المقيدة، والنفوس الذليلة. وبكلمة واحدة: لولا هذا الضعف الروحي الذي هُيئت المرأة بطبيعتها ومزاجها لإزالته والتغلب عليه. فما أحوجنا اذن إلى هذه النفحة العلوية تنفخها المرأة في كياننا فتحيينا، وإلى هذا الإشراق الروحي تفيض به علينا فتنير سبيلنا وتهدينا. وما أخلق المرأة العربية أن تقوم بهذا الواجب الأسمى وتؤدي رسالتها الرفيعة.

التربـية القومية

لست أعرف ـ بين المواضيع التي ينفسح مجالها للكتّاب العرب في هذه الأيام ـ ما هو أعظم نفعاً وأحوج إلى الدرس والتمحيص من تلك التي تتعلق بحياتنا القومية العامة. فلقد بدأت الأمة العربية تمشي في طريق الحرية والاستقلال، وأخذت تبني أسس حياة قومية جديدة. فأصبح من الضروري أن ينصرف كتّابها وقادة الفكر فيها إلى معالجة القضايا العامة الناشئة عن هذه الحياة الجديدة، وأن يدرسوها على ضوء التاريخ والظروف الحاضرة، فيسهلوا للأمة عملها، ويعجّلوا نهضتها، ويسددوا خطاها الأولى في طريقها إلى الحياة القومية الكاملة.

ولست أعرف ـ بين المسائل التي تعرض للأمة العربية في هذه المرحلة الأولى ـ مسألة أعظم خطراً من «التربية القومية»، فإنها الأداة التي توحّد نزعات الأمة، وتصلّب عودها، وتبعث روحها، فتحفظ لها ـ بهذا كله ـ استقلالها وحريتها. من أجل ذلك، أحببت أن أثير هذا الموضوع الخطير، آملاً أن يأخذه قادة الفكر في البلاد العربية بالدرس والاهتمام ويوفوه حقه في هذه المرحلة الخطيرة من حياتنا القومية.

وأعني بالتربية القومية ذلك التهذيب الذي يكتسبه السواد الأعظم من أهل البلاد، وينتج عنه شعور الفرد منهم بأنه عضو حي من جسم الأمة، فيدفعه هذا الشعور إلى القيام بواجبه نحو أمته على الوجه الأكمل. ففي هذا التهذيب اذن عنصران لا يتم بدون أي منهما: الشعور القومي، ثم القيام بالواجب الذي يفرضه هذا الشعور.

وأسارع إلى القول إني أعني بالقومية شيئاً أعظم من السياسة وأوسع. فما السياسة إلا ناحية ضيقة من نواحيها، ولون محدود من ألوانها، لأن القومية تشمل الحياة بأوسع معانيها وتستهدف الأمة بجميع أحوالها، وترمي لا إلى اكتساب حرية الأمة وتوسيع نفوذها السياسي فحسب، بل إلى إنماء قواها الروحية، ورفع مستواها الاجتماعي والعقلي، والسير بها إلى أبعد ما يكون في طريق الحياة المثلى.

ونحن إذا نظرنا في أمر هذه التربية القومية وجدنا انها تقوم بوظائف ثلاث: فهي تعد الأمة للحياة القومية، لأن الأمة التي لم تكتسب هذا النوع من التربية لا يمكنها ان تحيا حياة قومية صحيحة، بل تبقى في اضطراب داخلي دائم تتلاعب بها قوى السياسة والأطماع الذاتية. وهي، من ناحية ثانية، توحّد الأمة: فلا تتركها، كما هي الحال عندنا، منقسمة إلى عناصر متباينة يفكر بعضها تفكيراً لاتينياً والبعض الآخر تفكيراً انكلوسكسونياً، ويحيا فريق منها حياة شرقية محافظة، والفريق الآخر حياة غربية متهورة، ويسلك بعض جماعاتها سلوكاً دينياً، والجماعات الأخرى سلوكاً علمانياً، إلى غير ذلك من أسباب الانقسام، بل تصهرها كلها في قالب واحد وتخرجها أمة موحدة النزعات، متماسكة الأجزاء، تقف في وجه الأحداث كتلة واحدة، تعرف ما هي وماذا تريد. فإذا تم هذا كله، قامت التربية القومية بوظيفتها الثالثة والعظمى، وهي مساعدة الأمة على تأدية رسالتها إلى الإنسانية. فإن لكل أمة من الأمم رسالتها الخاصة تؤديها إلى المجتمع الإنساني عندما تكتمل عناصرها وتتوحد قواها الروحية. ولقد أدت الأمة العربية رسالتها في ما مضى من التاريخ، ثم تفككت عراها وانحلت قواها. وأمامها الآن مجال فسيح لتأدية رسالة جديدة. لكن لن يتاح لها ذلك إلا بإحياء قواها الروحية وتوجيهها إلى المثل العليا، وهذا لا يتم إلا على أساس التربية القومية الصحيحة.

ولنلاحظ أن التربية القومية تقوم للأمم مقام التربية المدرسية للأفراد: فهذه ـ إذا كانت سليمة صحيحة ـ تعد الأفراد للحياة العملية، وتوحّد النزعات المختلفة التي تختلج في صدورهم، وتدفعهم إلى تأدية رسالتهم لأمتهم أو للإنسانية جمعاء. وهكذا ـ كما رأينا ـ تفعل التربية القومية في الأمم.

ومما يظهر أهمية هذه التربية القومية انصراف الحكومات الحديثة إلى معالجتها بجميع الطرق الممكنة لتيقنها من أن الأمة لا تتكون بالحدود الجغرافية والوسائل الاصطناعية، بل بتأليف القلوب وصهر النفوس، وهذا لا يتم إلا بالتربية القومية الموحدة. وكفى دليلاً على هذه النزعة عند الحكومات الحديثة الأسماء الجديدة التي أخذت تطلقها على الوزارات والدوائر المشرفة على هذه الناحية من الحياة القومية. فوزارة المعارف في فرنسا أصبحت تدعى «وزارة التربية القومية Education Nationale» بعد أن كانت «وزارة المعارف العامة Instruction Publique»، ووزارة الدعاية في المانيا النازية تسمى «وزارة التثقيف القومي والدعاية». وقس على هذين المثلين سواهما، وهو كثير.

* * *

وللتربية القومية شروط يجب أن تستوفيها. في مقدمتها أن تكون هذه التربية مستمدة من فلسفة قومية. فهي أجلّ وأعظم من أن تترك للأحوال المتقلبة والظروف الطارئة، بل يجب أن يكون وراءها أبحاث نظرية عميقة في القومية وعواملها، وفي الأمة وعناصرها، وفي الأمة العربية ومميزاتها ورسالتها كما تظهر من طبيعتها وتاريخها. وكلنا يعلم أن ما من حركة قومية في الغرب إلا ولها فلاسفتها ومفكروها. فالقومية الايطالية كان لها في زمن الحركة التوحيدية «مازيني»، ولها اليوم في ظل الحكم الفاشيستي بارتو وموسوليني، والقومية الفرنسية ترتكز على آراء تيير وجول فرّي وبارّس والكاتب الحديدي شارل موراس، والقومية الألمانية تستمد قوتها النظرية والروحية من فخته وشبنغلر وهتلر وسواهم. وكذا قل عن الحركات القومية عند الأمم الأخرى.

أما نحن، فقد كنا ولا نزال ـ إلا في القليل النادر ـ أكثر اهتماماً بالسياسات الآنية والحركات الوقتية منا بإنشاء فلسفة قومية يبنى على أساسها جهادنا القومي، وتكون مستخرجة بالدرس الشامل العميق. والآن، وقد نالت الأمة العربية قسطاً من استقلالها واستعادت بعض حريتها، فقد أصبحت الحاجة إلى مثل هذه الفلسفة القومية أعظم والخطر من عدمها أبلغ، لأنها عصب القومية والحجر الأساسي في بنائها. فعلى قادة الفكر في الأمة العربية أن يلاحظوا هذه الحاجة ويعمدوا إلى سدها، فيقوموا بذلك ببعض ما تفرضه عليهم قيادتهم الفكرية وزعامتهم الروحية.

ومن شروط التربية القومية أيضاً أن تكون، هي وأساسها الفلسفي، مستمدين من الحياة الواقعية. فما القومية سوى توازن بين القوى المختلفة التي تتجاذب أفراد الأمة وجماعاتها: القوى الاقتصادية، والدينية، والجنسية، والاقليمية. فعلى الفلسفة القومية، والتربية المستمدة منها، أن تأخذا هذه القوى كلها بعين الاعتبار وتحاولا موازنتها والموافقة بينها للوصول إلى الاستقرار القومي المنشود. فالتربية القومية التي تصلح في بلاد الغرب قد لا تصلح لنا، لأن القوى الفعالة في الأمم الغربية التي أنشئت هذه التربية لتوجيهها وتوحيدها تختلف عن القوى العاملة في محيطنا، والظروف التي خُلقت الحركات القومية الغربية في جوها ليست نفس الظروف المتحكمة في حياتنا الحاضرة. فمن الضروري اذن أن تكون نظرياتنا القومية مستمدة من الحياة الخاصة التي نحياها، لا من غيرها، مع العلم بأنه يجب علينا كذلك أن نطلع على تطور القومية في الغرب وأساليب التربية التي تستخدمها وأن نستخرج منها ما يوافق محيطنا وظروفنا.

* * *

هذه هي التربية القومية، وهذه شروطها، فما هي الوسائل التي تتبعها للوصول إلى غايتها؟

لقد شعر قادة الأمم بضرورة هذه التربية القومية لبناء الأمة فعمدوا إلى بثها بشتى الطرق والوسائل. وكان في مقدمة هذه الوسائل: المدرسة. وأعني بالمدرسة جميع منظمات التعليم من البستان إلى الجامعة، لكن القسم الأهم منها ـ من وجهة موضوعنا الحاضر ـ هو التعليم الابتدائي وبعض الثانوي، لأن أكثرية الأمة تتأثر بهما. أما التعليم الجامعي، فهو مقصور على طبقة محدودة منها.

وليس بخاف على أحد أثر المدرسة في بناء الأمم واحيائها. فهي الأداة المنظمة الفعالة التي يتعرض لها المرء في السن التي هو فيها أشد ما يكون تأثراً بالمؤثرات الخارجية، فتكيّف عقليته وروحيته وتوجههما إلى الغايات التي يستهدفها خالقوها ومنظموها. وقد قويت فعالية هذه الأداة وعظم خطرها في العصر الحديث خاصة، لانتشار التعليم من جهة، ولاتساع مداه من جهة أخرى. فبعد أن كان التعليم مقصوراً على فئة محدودة من مجموع الأمة، أخذ ينتشر حتى شمل القسم الأعظم منها وأخذت الحكومات والشعوب تتفاخر بمعدل المتعلمين من أبنائها، وبعد أن كانت سنوه قليلة أخذت تزيد حتى امتدت على الجزء الأوفر من سني الصبا والفتوة. فإذا أضفنا إلى هذا كله تنظيم المدارس المتزايد وإخضاعها المستمر لتأثير القوة الحاكمة، تجلت لنا أهميتها وفعاليتها كأداة لبث التربية القومية.

تؤدي المدرسة هذه الوظيفة عن طريقين: مباشرة وغير مباشرة. كانت تمثل الأولى منها فرنسا بصورة خاصة. ثم جرت عليها في الأزمنة الأخيرة ايطاليا وروسيا والمانيا وغيرها من الدول التي تحاول بناء نظم جديدة: سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية. وهي تقوم على تلقين الطالب تلقيناً منظماً كل ما يظهر عظمة بلاده، وجمالها، وبطولة أبنائها، وفضلها على أمم العالم. ففي المنهاج الإفرنسي، والأنظمة التعليمية المنبعثة عنه، درس خاص «instruction civique أو التعليم المدني»، يرمي إلى تعريف الطالب بنظام مجتمعه وإدارة بلاده وواجباته نحوهما. فهو يفسح أمام المعلم مجالاً حراً فسيحاً لبث مبادىء التربية القومية بين الطلبة. على أن العمل التربوي لا يقتصر على هذا الدرس الخاص، بل يستخدم الدروس الثقافية الأخرى. فدرس التاريخ مثلاً ميدان واسع تظهر فيه بطولة الأمة وعظمتها، وفي درس اللغة والأدب مجال كثير للإشادة بجمال لغة البلاد، وغزارة أدبها، وسمو رسالتها الثقافية. حتى العلوم الطبيعية والرياضية قد تنقاد لمثل هذا التوجيه، وذلك بشرح ما أنتجه علماء الأمة وفلاسفتها وما لهم من فضل على العلم والاختراع.

أما الطريق الثانية ـ الطريق غير المباشرة ـ فنراها متّبعة في البلاد

الأنكلوسكسونية كانكلترا وأميركا. إذ ان النظام التعليمي عند هاتين الأمتين ليس خاضعاً للقوة الحاكمة خضوعه عند الأمم التي ذكرناها سابقاً، والمدارس فيهما تتمتع بقسط غير قليل من الحرية في تكوين منهاجها وتطبيقه. وقد نتج عن ذلك اختلاف في الأساليب التي تنهجها الإدارات التعليمية المتعددة لبث التربية القومية. على أن اعتمادها على التلقين المنظم قليل بالنسبة إلى ما نجده عند الأمم الأخرى. وإنما هي تستغل لهذه الغاية أعمال الطلبة خارج أوقات الدرس (extra - curricular activities)، فتدربهم فيها على المسؤولية الاجتماعية، والحكم الذاتي، والتعاون في العمل، وتعرّفهم عن طرق عملية بمشاكل أمتهم ووسائل معالجتها. وهي لا تتبع في هذا السبيل نصوصاً وقواعد معيّنة، بل تخلق جواً صالحاً لأن تنبت فيه بذور التربية القومية. غير أننا نلاحظ اليوم عند هاتين الأمتين وأمثالهما من الأمم ميلاً جديداً إلى طريقة التلقين المباشرة وإلى تنظيم هذا العمل التربوي، مما يدل على أنها جميعاً تنبهت لأهمية التنظيم المدرسي المركز في إحياء الروح القومية.

وعلى كل حال، سواء أكانت الطريقة المدرسية مباشرة أم غير مباشرة، فمصدر بعثها هو المعلّم وحده، فإن كان يشعر الشعور القومي الصحيح أمكنه أن يبثه في قلوب طلبته بشتى الطرق والوسائل، داخل الدروس وخارجها، لأن هذه الروح لا تنتشر إلا بالعدوى، فمتى كانت جراثيمها حية في نفس المعلم، انتقلت حتماً إلى نفوس الطلبة، لأنهم مستعدون لقبولها وليس لهم مناعة ضدها. فالمسؤولية الكبرى في هذا العمل القومي تقع على المعلمين، بل على السلطة التي تختار المعلمين. ولذا كان من أهم واجبات السلطات العربية، في هذا الظرف الدقيق من حياتنا القومية، أن تحسن اختيار الأشخاص الذين توكل إليهم القيام بهذا العمل الخطير، فتعتبر الروح القومية التي تختلج في صدورهم قبل النظر إلى المعلومات المحشوة بها أدمغتهم، أو إلى قرابتهم من أرباب الحكم وذوي النفوذ. ولست أعني بالروح القومية هنا مجرد الحماسة الملتهبة والشعور المضطرم، بل العقيدة القومية الصحيحة الجامعة بين عمق التفكير والاندفاع النفسي.

* * *

هذا فيما يتعلق بالمدرسة. على أنه من البديهي أن التربية لا تقتصر على سن الصبا والفتوة، بل تمتد على الحياة بكاملها. وفي الحياة العملية منظمات ثقافية تكمل عمل المدرسة وتقوم لدى عامة الشعب مقامها، منها: الصحافة. فهي من أقوى هذه المنظمات وأوسعها تأثيراً، ذلك لأن أكثرية الأمة لا تقرأ المؤلفات الاجتماعية والأبحاث الفلسفية، وإنما تستمد آراءها ومعتقداتها من الصحف السيارة، حتى أصبح

الناس في هذه الأيام يشعرون بحاجة إلى الجرائد أقوى من حاجتهم إلى كثير من متطلبات الحياة المادية. ومما يدلنا على أهمية الصحافة في الحياة القومية محاولة الحكومات الحديثة السيطرة عليها، أو استمالتها على الأقل. نرى هذه المحاولة جلية في فرنسا وانكلترا، على أنها أشد ما تكون ظهوراً في روسيا والمانيا وايطاليا وتركيا، حيث لا توجد صحافة إلا تلك التي تنطق باسم الحكومة. وهنا لا بد من القول إنه يحسن بنا في جهادنا القومي أن نعتبر خاصة بما يجري في الأمم الأخيرة، لأنها مثلنا ـ تبني حياة قومية جديدة ـ فهي تظهر لنا صوراً مكبرة وأدلة مفصلة على ما يعترضنا من مشاكل وعلى كيفية معالجتها.

والصحافة على نوعين: منها صحافة الأخبار، وفائدتها من الوجهة القومية انها تعرض أمام المرء ما يجري في بلاده من أخبار وحوادث، فتعرّفه بمشاكل أمته وتجعله متصلا بمجرى حياتها العامة. وأكثر الصحافة العربية من هذا النوع. لكن العمل التثقيفي القومي الأهم لا يتم إلا بالنوع الثاني من الصحافة، وهو صحافة العقائد: تلك التي تدافع عن عقيدة قومية وتسعى لتوجيه تفكير الأمة وعملها نحو هذه العقيدة. ومن المؤسف أن هذا النوع من الصحافة يكاد يكون معدوماً في البلاد العربية. فإن خرجت جرائدنا ومجلاتنا عن وظيفتها الاخبارية لتبرز وجهة نظر فيها، كانت وجهة النظر هذه شخصية لا مبدئية. فهي تنطق باسم هذا أو ذاك من الأشخاص، لا باسم هذا المبدأ الواضح أو ذاك. فالتربية القومية اذن لا يكتمل بناؤها إلا عندما تتوافر الأسباب الثقافية والمادية لصحافتنا حتى ترتفع عن المستوى الذي تعيش فيه، وتصبح صحافة مبادىء وعقائد بالمعنى الصحيح.

ومما يتمم عمل الصحافة، ويكاد يطغى عليها في الآونة الأخيرة: الراديو. فإن هذا الاختراع الحديث قد احتل في الحياة الجديدة مكاناً رفيعاً وأحدث فيها تأثيراً بعيداً، لما للخطابة من أثر في النفس يفوق اثر الكتابة. ونحن نرى ذلك في استخدام السلطات المختلفة للراديو لبث دعاياتها وتكوين رأي عام بين طبقات الأمة. وهذه قوة عظيمة لم تستغل في البلاد العربية بعد، فإن المحطات الموجودة لم تستخدم بالمقدار الذي يجب للغايات القومية الصحيحة.

* * *

ومن الوسائل الفعالة للتربية القومية: الأحزاب السياسية. وهي ـ كالصحافة ـ على نوعين: منها الشخصية، وفائدتها لا توازي ضررها، كما نرى في معظم الأحزاب المنتشرة في البلاد العربية، ومنها المبدئية التي تستند إلى عقيدة سياسية واضحة. والعمل المثمر من ناحية التربية القومية إنما يحصل من هذا النوع الثاني، ويقوى

خاصة إذا كان الحزب لا يكتفي بضم الأفراد إليه، بل يحاول أن يهذبهم تهذيباً قومياً صحيحاً بما يدبره من المحاضرات والمباحثات والمشاريع الاجتماعية، كما تفعل أكثر الأحزاب في البلاد الغربية. ونحن لا نريد الآن أن نتطرق إلى البحث فيما إذا كان من الأفضل لمصلحة الأمة أن تكون كلها حزباً واحداً أو أن تبقى فيها حرية الأحزاب، فهذا بحث طويل عسير لا يتسع له المجال. وإنما نشير في هذا المقام إلى فائدة المنظمات السياسية بوجه عام ـ حزباً واحداً أم أحزاباً متعددة ـ في إحياء التربية القومية ونشرها. وهي فائدة جليلة قد عرفتها الأمم الغربية ـ من دكتاتورية وديمقراطية ـ وأحسنت استغلالها.

ويتبع هذه الأحزاب السياسية منظمات الشبان والأحداث التي تعمد إليها الأمم الحديثة لإحياء الشعور القومي ودعمه. فقد نظمت المانيا وايطاليا وروسيا أفراد الأمة من الطفولة إلى الرجولة في أحزاب متدرجة، وهي تعتمد على هذه الفتية لحفظ قوميتها ودعم حياتها.

تبيّن اذن ان هذه الأداة الفعالة في التربية القومية تكاد تكون مفقودة عندنا، لأن أحزابنا ـ إلا القليل منها ـ لا تتميز بالعقائد الواضحة، بل بالاختلافات الشخصية والنزعات الفردية. وعلى شباب الأمة المفكر أن ينصرف الآن إلى تقوية الوجهة العقائدية من الأحزاب الحاضرة حتى تتغلب على كل عصبية أخرى، وأن يسعى لتنظيم مؤسسات جديدة تكون مبنية على العقائد الخالصة والمبادىء الواضحة.

لقد ذكرنا ان القومية أوسع من السياسة وأرفع شأناً، وأن التربية القومية لا تقتصر على ناحية من الحياة، بل ترمي إلى احياء قوى الأمة كلها من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدبية. هذا العمل الإحيائي في النواحي الخارجة عن السياسة هو من شأن الجمعيات القومية، فهي تكمّل عمل الأحزاب السياسية، وتستغل قواها ونشاطها لحل هذه المشاكل. فهناك مثلاً: الكشاف الذي يرمي إلى تقوية الجسم والعقل، وإلى تربية النشء على الاعتماد على النفس وإلى إكسابه صفات الرجولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى: وهذه كلها مزايا قومية يجب أن تنمو وتنتشر في صفوف الأمة. وهناك جمعيات الشبان المختلفة التي تربط قلوب الشبيبة، وتوحّد نزعاتها، وتدربها على التكاتف في العمل المشترك، والجمعيات النسائية التي ترمي إلى الاصلاح الاجتماعي عن طريق المرأة، وجمعيات الإحسان التي تسعى إلى مداواة الفقر وإزالة البؤس، ومؤسسات التهذيب التي تعمل على محاربة الجهل ومقاومة التعصب والبغض. وهناك أيضاً جمعيات مختلفة أخرى كتلك التي تهتم بالتشجير والتحريج، وإنعاش القرية وحفظ الآثار والعاديات، وترقية الآداب والعلوم وسواها من نواحي الحياة القومية.

هذه المؤسسات متوافرة في البلاد العربية. لكن أكثرها ليس مطبوعاً بالطابع القومي الصحيح، بل بالطابع الطائفي. ولم تُبْنَ القومية الصحيحة يوماً على أساس الانقسامات الطائفية، إذ لا يمكن أن تتفق في وقت واحد العصبية القومية الجامعة المانعة والعصبيات الطائفية المفرقة. فعندنا من منظمات الكشاف: المسلم، واليهودي، والماروني، والأرثوذكسي، وسواها، ومن مؤسسات التهذيب: جمعية المعارف الدرزية، ولجنة المدارس الأرثوذكسية، وجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، وما يجري مجراها، ومن منظمات الشبان: جمعية الشبيبة الإسلامية، وجمعية الشبان المسيحيين. وكذلك قل عن المنظمات القومية الأخرى، إلا القليل النادر الذي لا يقاس عليه. وغني عن البيان ان قوميتنا لا تبنى وتربيتنا لا تتم، إلا عندما تنتظم هذه الجمعيات كلها على أساس قومي واسع لا على أساس طائفي مقيَّد، فتعمل حينذاك على تربية النشء على الحياة القومية الصحيحة منذ أيامه الأولى.

* * *

ولا يتسع المجال في هذا المقال لتعديد جميع الوسائل المختلفة التي تعمد إليها الأمم الغربية الحاضرة لنشر التربية القومية بين أبنائها. فهذا أمر يستغرق دروساً مفصلة، وأبحاثاً مطولة، لأن الحياة عند هذه الأمم تكاد تدور كلها على هذا المحور وتوجّه إلى هذه الغاية. على أنه لا يمكننا أن نهمل وسيلة أخيرة لها أهميتها الخاصة وتأثيرها القوي من هذا القبيل، لكنها تختلف عن الوسائل التي ذكرنا في أنها ليست قابلة لنفس التنظيم الممكن في تلك، ولا تخضع مثلها لتأثير السلطات والقوى الحاكمة. هذه الوسيلة هي البيت. ففي الحقل البيتي مجال فسيح للتربية القومية لا يحتاج إلى وصف أو بيان. ويكفي أن نشير إلى ما كان لهذا العامل من أثر في تكوين بعض الأمم أو في حفظها خلال العصور. فإن بولونيا ظلت زمناً طويلاً مقسمة مجزأة بين دول ثلاث تسومها الذل والاستعباد، لكنها ظلت محتفظة بقوميتها لأن الوالدين البولونيين كانا لا ينقطعان عن تذكير أبنائهما بأمتهم وقوميتهم وبتاريخهم المجيد واستقلالهم المنشود، إلى أن جاءت الفرصة المناسبة فانبعثت القومية البولونية وعادت هذه الأمة إلى حيز الوجود. وليس ما يمنع أن يحيي المستقبل سيرة الماضي، فتظهر هذه الأمة من جديد، إذا ظل البيت البولوني نواة للفكرة القومية ومبعثاً للايمان الوطني. ولا نكران أيضاً أنه كان للتربية البيتية أثر بيِّن في حفظ العنصر اليهودي وبعث القومية اليهودية بعد أن تفرّق اليهود في أنحاء المعمور وذاقوا ما ذاقوه من ألوان العذاب والاضطهاد. غير ان هذا النوع من التربية القومية لا يتأتى إلا بعد أن يتهذب

الوالدان تهذيباً قومياً صحيحاً، وبعد أن تثقف الأم بصفة خاصة، لما للأم من التأثير في تنشئة الولد وتكوين روحه.

* * *

لست أدعي أني وفيت هذا الموضوع الجليل حقه من البحث والاستقراء، فمجال القول فيه واسع متشعب. وقد تنبهت إليه الأمم الحديثة كافة فأحلته مكاناً رفيعاً في حياتها، نخص بالذكر منها ـ كما ورد سابقاً ـ تلك الأمم التي تبني اليوم نظماً قومية جديدة. فإن الحياة كلها عند هذه الأمم موجهة إلى تربية أفراد الأمة جميعهم، تربية تكفل تحقيق هذه النظم القومية. وخليق بنا ـ ونحن في بدء عهدنا الاستقلالي ـ ان نوجّه اهتمامنا إلى هذه الناحية الخطيرة من حياتنا كي نتمكن من الاحتفاظ بالقليل الذي حزناه من هذا الاستقلال ومن استثماره لتأمين أوسع عيشة وأكملها لأفراد الأمة جميعاً. وهذا واجب يقع على عاتق زعماء الأمة ومفكريها، وعلى الشبان منهم خاصة لأنهم قادة الغد وبُناة المستقبل. ولقد صدق العلامة الأستاذ شارل مريام ـ وهو من كبار الباحثين في التربية القومية وفي مقدمة الذين اعتمدتهم في هذا البحث ـ حينما قال: «ليس هناك عمل أجلّ من التربية القومية وأعظم خطراً يجابه العلماء الذين يعالجون العلاقات البشرية، أو القادة الذين يبنون أمم المستقبل».

القومية والجنس

على هامش الدعوة إلى الفينيقية في لبنان

تطغى على لبنان اليوم موجات فكرية عنيفة تتلاطم بقوة وصخب في بحر حياته الهائج. ولا شك في أن أبلغ هذه الموجات أثراً تلك التي تثيرها الفِكَر القومية المختلفة المستمدة قواها من تيارات التاريخ الموروث من جهة، والمبادىء السياسية والاجتماعية والعقلية المتدفقة من الغرب من جهة أخرى. من هذه الفِكَر القومية فكرة الفينيقية التي يدعو إليها فريق من الناس، ويعملون لبناء حاضر لبنان ومستقبله على أساسها. هذه الفكرة تصطدم بالعقيدة العربية الجامعة وبسواها من العقائد القومية فتخلق في لبنان جواً مضطرباً مبلبلاً، وتقسم أبناءه شيعاً متفرقة وأحزاباً متنافرة. فإذا كان لبنان بحاجة إلى شيء في هذا الطور الانتقالي العصيب من حياته، فإلى تصفية هذا الجو، والاستقرار على عقيدة قومية صحيحة تنصهر فيها عواطف أهل لبنان كافة وتتوحد آمالهم وأمانيهم.

ولست أطمع الآن في أن أفي هذا الموضوع الواسع المتشعب حقه من الدرس والاستقصاء، إذ ان دون ذلك دروساً دقيقة في القومية وأسسها، وفي تاريخ لبنان وشعوبه، وفي الروابط التي تربطه بما جاوره من الأقطار، وفي المستقبل الذي يتطلع إليه: وكلها مشاكل صعبة المنال لا قبل لي بحلها ــ حتى ولا بمجابهتها مجابهة تامة ــ في بحث عام مقتضب كهذا. وإنما هي كلمة صغيرة في الأساس الذي نبني عليه غالباً عقيدتنا القومية أوجهها إلى الذين يحاولون مجابهة هذه المشاكل ومعالجتها، ويعانون التفكير والعمل في الميدان القومي، لعلها تكون ذات فائدة في ايضاح الأفكار وجلو العقائد والآراء.

في لبنان اليوم فريق يقول: نحن فينيقيون قد تحدرنا من ذلك الشعب الذي سكن لبنان منذ أقدم الأزمان، وخرج منه إلى الشواطىء القريبة والبعيدة متاجراً

ومستعمراً. نعم! ــ يقول هؤلاء ــ لقد دخل لبنان بعد الفينيقيين شعوب عديدة: من آراميين، وعرب، وافرنج، وسواهم، ولكنهم جميعاً ــ والعرب منهم ــ كانوا أقلية لم تُبق في البلاد أثراً يذكر، فظل العنصر الفينيقي سائداً، وما يزال!

وبين المتحمسين للعروبة من يقول: ان الدم السائد في لبنان هو الدم العربي. فالعرب تسربوا إلى هذه البلاد في قديم الزمان، ثم افتتحوها في القرن السابع وانتشروا فيها انتشاراً واسعاً، فسادوا «عنصرياً» عليها، وامتص «الجنس» العربي الأجناس التي كانت قد استوطنتها قبله، وصبغ لبنان صبغاً بشرياً جديداً.

وكأني بالفريقين يعنيان بالعرب والفينيقيين عنصرين أو جنسين مختلفين يتمايزان بخصائصهما الطبيعية. وهذا يظهر بوضوح من ترديد أكثرهم: «دمنا فينيقي»، أو «دمنا عربي»، كأن لكل من هذين الشعبين «دماً» خاصاً، به يتفرد ويتميز من الشعب الآخر.

فلنلق نظرة عامة على الشعوب التي نزلت لبنان منذ أقدم الأزمنة، لنتبين لون «الدم» الذي يجري في عروق أهله، ولنرى ما إذا كان لهذا من أهمية في تحديد قوميته.

* * *

يميل الثقات من الباحثين إلى القول بأن لبنان ــ أو ساحله على الأقل ــ كانت تقطنه قبل التاريخ شعوب العصور الحجرية القديمة والحديثة، التي كانت على ما يظهر ــ تمتاز بطول رؤوسها. ويرجح أنه دخله فيما بعد ــ في أواخر العصور الحجرية الحديثة ــ شعب مستدير الرأس تسرب إليه من الشمال الشرقي واحتل بعض تلاله. ثم قبل التاريخ بقليل تدفقت على بلدان الهلال الخصيب، ومن بينها لبنان، أول موجة من الموجات الساميّة حاملة إليها عنصراً بشرياً جديداً. وتتابعت بعدئذ هذه الموجات على هذه البلدان في أدوار شبه منتظمة خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى. وكان مهدها جميعاً ــ من فينيقية وسواها ــ الجزيرة العربية. وهذه حقيقة يجب أن نذكرها ونتدبر معناها.

أقدم الموجات الساميّة المعروفة التي تدفقت على لبنان هي تلك التي حملت إليه الشعب الفينيقي. نزل هذا الشعب الساحل وتسرب إلى ما لاصقه من الجبال، وخرج من موطنه الضيق إلى البحار الواسعة، فاتصل بتجارته بالبلدان المجاورة والقصية. وفي هذه الحقبة التي ساد فيها الفينيقيون لبنان دخلت هذا البلد بعض عناصر ساميّة أخرى في الغزوات المصرية، والبابلية، والأشورية. ولكن هؤلاء الغزاة

اكتفوا في الأغلب بالسيادة السياسية، ولم يمتزجوا بالسكان امتزاجاً واسع النطاق، فكان أثرهم الجنسي ضئيلاً. ومثله في الضآلة أثر شعوب أخرى أصاب رشاشها لبنان: كالملوك الرعاة (Hyksos)، والحثيين، والفلسطينيين، وسواهم من الشعوب التي مرت في لبنان أو قريباً منه في طريقها إلى الجنوب. ولئن كان أصل بعض هذه الشعوب لا يزال غامضاً، فمن المتفق عليه أنها كلها غير ساميّة.

ثم تلا هؤلاء فاتحون آخرون آريو الأصل كان لهم بعض الأثر البشري في هذه البلاد: كالفرس، واليونان، والرومان. ولكن الشعب الآرامي، السامي الأصل، الذي كان قد تدفق على الداخل في موجة كبيرة واسعة قبل ذلك بمئات من السنين تغلغل في هذه الحقبة في لبنان حتى أصبح عنصراً متغلباً فيه.

وجاء دور العرب تحملهم موجة الفتح في القرن السابع. وكانوا قد تسربوا أيضاً قبل ذلك بطرق شتى: بالتجارة التي كانت تنقلهم من جزيرتهم إلى أكثر نواحي الشرق الأدنى، وبتجندهم في جيوش اليونان والرومان الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه البلاد، وبالدويلات التي أسسوها وامتد سلطانها على قسم من أراضي لبنان: كالايطوريين الذين تولوا الجبل الشرقي والبقاع مع بعلبك، وكالغساسنة الذين بلغ حكمهم إلى سفوح الجبل الشرقي أيضاً.

وليس هذا التسرب العربي إلى لبنان وإلى غيره من مناطق الهلال الخصيب غريباً، بل الغريب أن لا يكون قد حدث. فإن الحدود بين الصحراء وبين هذه المناطق الخصبة المحيطة بها لم تغلق في يوم من الأيام، وإنما كانت ــ ولا تزال ــ مفتوحة يمر منها العرب على الدوام بتدفق وانفجار حيناً، وبتسرب بطيء خفي أحياناً. ولولا أن شيئاً من هذا قد حصل، وتأثر لبنان بما تأثرت به البلدان المجاورة من العنصر العربي، لما استطاع العرب في زمن الفتح أن يحتلوا البلاد بهذا اليسر وأن تكون وطأتهم على سكانها بهذه الخفة والرفق.

وقد حملت الفتوح معها عنصراً عربياً غير ضئيل استقر في البلاد، ودام تسرب العرب دون انقطاع، ونزحت إلى لبنان قبائل عربية معروفة (وكان بعضها قد بدأ يدخل حتى قبل الإسلام): كعاملة في الجنوب، وتيم الله بن ثعلبة في وادي التيم، وتنوخ في الشمال، وسواها. وقد جاء في كتاب **البلدان** لليعقوبي «ان لبنان المجاور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن أهل اليمن». (لامنس، المشرق، م ٥، ١٩٠٢، ص ٨٢٥).

كذلك دخل لبنان في العهد العربي عناصر أخرى غير ساميّة: كالمردة الذين انحدروا من جبال آسيا الصغرى، والعجم الذين أنزلهم معاوية شواطىء الشام. ثم تلتها

تلك العناصر الأخرى ـ من تركية، وكردية، وسواها ـ التي برزت إلى الوجود في العصور المتأخرة على عهد الدويلات المستقلة في الشام ومصر. وعقبها الافرنج الصليبيون الذين استقر فريق منهم في البلاد نحو قرنين من الزمن، وأخيراً المماليك الأتراك والجراكسة والأتراك العثمانيون الذين لا يمكن ان يقال إنهم حكموا لبنان ستمئة سنة دون أن يتركوا فيه ـ وفي ساحله على الأخص ـ أثراً بشرياً يذكر.

هذه نظرة عجلى في العناصر التي تتالت على لبنان، لا أدعي لها تمام الإحاطة أو عمق الاستقصاء. ويحسن بنا أن نلاحظ هنا على كل حال أن هذا التاريخ البشري للبنان ينطبق على ساحله أكثر منه على جبله. فإننا لا نعلم عن سكان الجبل نفسه إلا نتفاً لا تصلح لأن تكون أساساً لتاريخ بشري صحيح له. فقد كان في أكثر العصور القديمة والمتوسطة مغطى بالأحراج لا يستقر فيه الفاتحون، ولا ينفذ إليه إلا الجماعات المتفرقة القليلة التي يصعب تقدير أثرها من الوجهة الجنسية. غير أن هذه العجالة، على ايجازها ونقصها، تظهر لنا ثلاث حقائق رئيسية:

١ ـ ان سكان هذا القطر ـ كغيره من الأقطار المجاورة ـ لا يمتّون إلى شعب واحد، بل يتحدرون من شعوب شتى وأجناس مختلفة.

٢ ـ ان الشعوب الغالبة عليه هي الشعوب السامية: الفينيقيون أولاً، ثم الآراميون، ثم العرب. وهي كلها قد تدفقت عليه من الجزيرة العربية. تتلوها ـ بدرجة أدنى كثيراً ـ الشعوب الآرية: من عجم، ويونان، ورومان، وافرنج، ثم الشعوب التركية المغولية.

٣ ـ ان العرب لم يكونوا أقلية ضئيلة ليست ذات خطر في تكوين لبنان البشري، بل كانوا عنصراً له خطره ومقامه بين العناصر التي تؤلف سكان هذا القطر. ويستقر هذا في روعنا إذا ذكرنا الحقيقة الهامة التي أشرنا إليها فيما سبق: وهي أن الصحراء تلقي بسكانها إلى ما يحيط بها من البلدان الخصيبة دوماً دون انقطاع.

* * *

ولكن، أين يؤدي بنا هذا كله؟ ما هو «جنس» سكان لبنان اليوم، وما لون دمهم؟

الواقع ان تقسيم شعوب لبنان إلى عربية وفينيقية وآرامية لا يتفق والمعنى الذي يفهمه العلماء من «الجنس» اليوم. فإن الثقات من هؤلاء العلماء يميلون إلى تقسيم سكان الأرض إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الأبيض القوقازي (Caucasian)، والمغولي (Mongoloid)، والأسود (Negroid). ثم يقسمون الأول منها إلى أربعة أجناس: الشمالي (Nordic)، والألبي (Alpine)، والمتوسط (Mediterranean)، والعنصر الآري من الشعوب الهندية. ويشمل الجنس الثالث شعوب حوض البحر المتوسط في

القارات الثلاث: ومنها الشعوب الساميّة على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط، والحاميّة في شمالي افريقيا، وقسم من سكان اليونان وايطاليا. وهذه الأقسام والأجناس والشعوب تتمايز فيما بينها بخصائص طبيعية معينة كطول الرأس أو استدارته، أو لون البشرة والعينين، أو هيئة شعر الرأس ولونه أو تركيب الدم، أو سواها مما لا يظهر بهذا الوضوح. ذلك ان «الجنس» (Race) يقوم ـ بمعناه الصحيح ـ على هذه الخصائص البيولوجية الصرف، دون سواها من الاعتبارات اللغوية أو الجغرافية أو الاجتماعية.

وعلى هذا تكون الشعوب التي دخلت لبنان وكوّنت سكانه الحاليين تنتمي ـ بالدرجة الأولى ـ إلى جنس البحر المتوسط من القسم القوقازي، ثم إلى الجنس الإلبي وقليلاً إلى الجنس الشمالي من هذا القسم أيضاً، وإلى القسم المغولي بدرجة أدنى كثيراً. وعلى هذا أيضاً، لا يكون ثمة فرق بين «الدم» العربي و«الدم» الفينيقي، لأن الدم مرتبط بالجنس، وليس هناك ما يفرق «جنسياً» بين العرب والفينيقيين وإنما ينتميان كلاهما إلى فرع واحد من جنس واحد.

زد إلى ذلك أن كلا الفينيقيين والعرب لم يحافظوا بعد أن نزلوا هذه البلاد على النقاوة الجنسية النسبية التي كانت لهم عند خروجهم من الجزيرة العربية، بل امتزجوا بالسكان السابقين امتزاجاً عظيماً اختلط به دمهم وجنسهم، ولم يبق ممكناً معه أن نتحدث عنهم كوحدات جنسية، بل كوحدات سياسية، اجتماعية، أو ثقافية فحسب.

* * *

حتى لو كان العرب والفينيقيون ينتمون إلى فرعين مختلفين من جنس واحد أو إلى جنسين متباينين، وحتى لو كانوا حافظوا على نقاوتهم الجنسية والدموية، فهل يمنعهم ذلك من أن يندمجوا في قومية واحدة جامعة؟ لا! فما كانت القومية يوماً لتبنى على حجم جمجمة الرأس، أو لون البشرة، أو تركيب الشعر، بل على أسس اجتماعية وعقلية وروحية أقوى أثراً في تكوين الأمم. نظرة واحدة إلى فرنسا، تلك الأمة التي يضرب بها المثل في التماسك القومي والوحدة الوطنية، نرى ان سكانها يتألفون من أجناس ثلاثة من القسم القوقازي: شماليون في الشمال، وألبيون في الوسط، ومتوسطون في الجنوب. بين هذه الأجناس الثلاثة من الفروق البشرية ما لا نجده بين العرب والفينيقيين المتحدرين كليهما من فرع واحد من جنس واحد.

فلنهتك إذاً حجاب «الجنس» الذي يمنع الضياء عن تفكيرنا القومي، ولنطرد شبح «الدم» الذي يسيطر على أبحاثنا ومجادلاتنا، ولننظر إلى ما أهم منهما وأفعل في تكوين القومية الصحيحة.

لننظر إلى اللغة، والثقافة، والعادات، والذكريات التاريخية، والمصلحة الحاضرة والمستقبلة. ليس بإمكاني، في هذا المجال الضيق، ان أحيط بهذه الأسس التي تبنى عليها القومية، إذ ان كلا منها يحتاج إلى مقال خاص يشبعه بحثاً وتحليلاً. ولكنني لا أستطيع أن أختم هذه الكلمة دون ملاحظة واحدة أبديها عن الاتجاه العقلي الذي ننظر به إلى هذه الأسس عند بناء عقيدتنا القومية.

أكثر ما نتجه عند تفكيرنا في المسائل القومية إلى الماضي، لا إلى المستقبل. نتجادل في أصلنا، وجنسنا، وما كان عليه أجدادنا، وما حدث بين أقطارنا من العلاقات التاريخية ـ إلى غير هذا مما نفكر ونقول ونحن ملتفتون إلى الوراء، بدلاً من أن نكون متطلعين إلى الأمام. وليس لي ـ وأنا من طلبة التاريخ مهنة ـ ان أقلل من أهمية التاريخ، أو أن أضع من قيمة من يستمد من الماضي عوناً على فهم الحاضر، ولكنني أخشى أن هذه العقلية التاريخية قد تغلبت علينا، واحتلت من تفكيرنا مكاناً أرفع مما تستحق، وأنه يجدر بنا أن نتوجه ـ أكثر مما فعلنا ونفعل ـ إلى المستقبل الآتي، لنستمد منه صورة الحياة التي نريد أن نحياها. عندها تصبح لهذه الصورة قوة تفرض نفسها علينا، وهيئة تكيّف تفكيرنا. عندها لا يكتفي اللبناني بأن يسأل نفسه: «ما هي اللغة التي ورثتها عن أجدادي: الفينيقية أم العربية؟» بل يزيد بإلحاح: «ما هي اللغة التي أريد ويهمني أن أتكلم بها واتخذها أداة لحضارتي الآن وفي المستقبل؟» ولا تضطرب نفسه بهذه المسألة: «ما هي ثقافتي، أفينيقية أم عربية؟» فحسب، بل يتلمس طريقه ليجيب عن سؤال آخر: «أي اتجاه أريد أن اتجه بثقافتي: الاتجاه الفينيقي أم العربي؟» وأخيراً ـ وهنا بيت القصيد ـ «أين أجد مصلحتي الكبرى، وأحقق غايتي القصوى: في خلق كيان لبناني مستقل عن الأقطار العربية الأخرى، أم في الارتباط بتلك الأقطار ارتباط المشترك في جهاد واحد وحياة واحدة؟»

ليس يخامرني شك في أنه لو تخلص أصحاب العقائد القومية من كابوس «الدم» و«الجنس»، وتطلعوا بنظرهم إلى المستقبل بقدر ما يلتفتون الآن إلى الماضي، ولو ترفعوا عن المهاترة والجدل العقيم الذي غالباً ما يفسد أبحاثهم، ولو بذلوا للتفكير القومي ما يتطلبه من تجرد واخلاص ـ لو توافرت هذه الشروط ـ لما كان بينهم ما نجد اليوم من تصادم وتنازع وما يصحب ذلك من صخب وضجيج، ولوجد أصحاب الفكرة الفينيقية أنه ليس هناك ما يمنع ـ بل هناك كل ما يفرض ـ أن يذيبوا فكرتهم في الفكرة العربية الجامعة: هذه الفكرة التي تقوم لا على «الجنس»، بل على الوحدة في اللغة، والثقافة، والجهاد الماضي، والمصلحة الحاضرة، والآمال المشرقة إلى الأمام. وهذا شأن كل فكرة قومية صحيحة.

العمل القومي والـمشاريع الاجتـماعيـة

مشروع انعاش القرى

في البلاد العربية كثير من المشاريع الاجتماعية يقوم بها الشباب وغير الشباب، ويقصدون بها إلى معالجة هذه أو تلك من مشاكل الحياة العامة: من الاحسان إلى الفقير والمحتاج، إلى تخفيف ألم المريض، إلى ايواء اليتيم، إلى تعليم الأمّيّ، إلى سواها من الأعمال الاجتماعية التي تفيض فيها عواطف الرحمة والتضحية من صدور العاملين من أبناء الأمة. ومن الخير ان تمتد هذه المشاريع وتعم، وأن تتعدد النواحي التي تنصرف إليها. ومن الخير كذلك أن تزداد العواطف الروحية التي تدفع إليها غزارة وغنى ونقاوة، وان تتعمق منابعها في قلوب أبناء الأمة وتتوسع. ففي هذا كله ما يسهل للأمة سبل نهضتها، ويرفع مستواها الاجتماعي والعقلي.

على أنه من الخير، مع هذا وذاك، أن يعمد القائمون بكل مشروع من هذه المشاريع إلى التساؤل ـ بجد واخلاص وتهيّب ـ عن مغزى العمل الذي يضطلعون بأعبائه، وأن يحاولوا دائماً ايضاح الغاية التي يقصدون به إليها، والمقام الذي يجب أن يكون له في حياتنا الحاضرة. فكل عمل يقوم به المرء لا يكتسب قيمته ومعناه، إلا إذا أدخله صاحبه في دائرة عقيدته وفلسفته في الحياة، وربط غايته بالغاية القصوى التي إليها يسعى ومن أجلها يعيش.

ولست أدري غير الغاية القومية غاية يصح أن نتخذها، في هذا الطور من حياتنا، هدفاً نوجه إليه جهودنا الفردية والاجتماعية. فكل مشروع اجتماعي يجب أن يعالج ناحية من الحياة القومية، وأن يرتبط في غايته ووسائله بالعمل القومي الذي يرمي إلى النهوض بالأمة إلى أرفع الدرجات وأقربها إلى الحياة المثلى. فكأني بهذه المشاريع الاجتماعية المختلفة جداول تنبع من مراكز متعددة، فتمر في طريقها بنواح من الحياة العامة تبعث فيها القوة والنشاط، ولكنها تظل متصلة فيما بينها، ولا تزال تترافد

وتتقارب حتى تتحد أخيراً في المجرى الرئيسي الذي يجمعها، والذي من أجله وجدت وإليه تعود.

وقد كان لي حظ العمل تحت لواء مشروع انعاش القرى الذي يسعى إلى اصلاح الحياة الريفية في البلاد العربية، فنظرت إلى هذا المشروع كمشروع قومي في جوهره وروحه، وأوضحت لنفسي العلاقة التي يجب أن تربطه بالفكرة القومية وسبل تحقيقها. ولست أدري ما إذا كان جميع العاملين في هذا وأمثاله من المشاريع يقرّونني على ذلك، ولكنني أدري، وأشعر شعور اقتناع ويقين، ان هذه هي الروح التي يجب أن تشيع فيه، بل في كل مشروع اجتماعي عربي، وانها هي وحدها كفيلة بأن تبعث في هذه المشاريع قوة الحياة ونضرتها، وتؤمن لها النجاح الحق والنفع الجزيل.

* * *

إن غاية النهضة القومية هي رفع مستوى الحياة العربية بجميع نواحيها. فهي لا تقتصر على نيل الحرية الخارجية والاستقلال السياسي، بل ترمي إلى أبعد من هذا بكثير: إلى تحرير أفراد الأمة من القيود الداخلية، إلى توفير أكبر قسط من السعادة والهناء لهم جميعاً، إلى كمال حياتهم الجسدية والعقلية والروحية. فكل عمل يتجه نحو هذه الغاية الشاملة، ويحاول تحقيقها في ناحية من نواحي الحياة، أو عند فريق من أفراد الأمة، هو عمل قومي في هدفه ومغزاه. وهنيئاً للأمة التي تكون جميع أعمالها منظمة وموجهة إلى غايتها القومية الوحيدة: فلا يكون بين جهودها تضارب أو تنافر، ولا في سريان حياتها ضياع أو خسران.

ومن هذا يتبين أن مشروع انعاش القرى الذي أخذ على عاتقه خدمة الفلاح العربي وإنهاضه إلى مستوى الحياة الغنية الكاملة، لا ينفصل في غايته عن الفكرة القومية، بل هو منها في الصميم: بها يقوى ومن أجلها يعيش، وأنه ينتظم مع سواه من المشاريع الاجتماعية والثقافية في هذه الرابطة القومية التي توحدها جميعاً وتوفق بين جهودها ومراميها.

وليس يكفي أن نقول إن الأعمال التي يقوم بها مشروع انعاش القرى وأمثاله أعمال «إنسانية» تدعو إليها عاطفة الشفقة والحنان، ويحدوها حدب الغني على الفقير، ورأفة العالم بالجاهل، وعطف القوي على الضعيف. فلقد تبددت هذه العواطف «الإنسانية» في عصر القوميات المتطاحنة الذي نعيش فيه، وغدا واجباً علينا أن نصهر جميع عواطفنا ومساعينا في بوتقة الجهاد القومي الموحد. فليس يعطف أحدنا على الفلاح، لأنه فلاح فحسب، بل لأنه فلاح عربي تربطنا به رابطة الوطن،

ويدفعنا للعمل من أجله الواجب القومي الذي يجعل الفرد منا مسؤولاً عن أمته أولاً، ويضع مصلحة الوطن قبل أية مصلحة أخرى.

* * *

هذا من حيث الغاية. اما الوسائل التي يتبعها المشروع، فهي، كغايته، مستوحاة من الفكرة القومية المثلى ومجارية لنهضة الأمة الصحيحة، ذلك ان كل نهضة قومية لا يشترك بها الشعب ــ أو قل لا تقوم على الشعب ــ لا يمكن أن تدوم. ولقد كنا ولا نزال في هذا الشرق العربي ننتظر كل اصلاح وتقدم من جانب الحكومة غير شاعرين بأية مسؤولية تجاه وطننا وأمتنا، ونلقي على السلطات القائمة تبعة كل تأخر أو تقصير دون أن نبذل أي جهد فعّال لمداواة العلة واصلاح الحال. ولو أننا درسنا النهضات القومية عند الأمم الحية لوجدنا انها لا تتم على الوجه الأكمل إلا عندما يتلاقى العمل الحكومي المتجه من الأعلى إلى الأدنى والجهود الشعبية المنبثقة من صميم الأمة والناهضة بها إلى مراقي الحضارة والعمران. من أجل هذا، وجب أن نرحب اليوم بمشروع انعاش القرى وأمثاله من المشاريع الاحيائية التي يشارك فيها الشعب الحكومةَ في مسؤولية العمل وواجب الاصلاح. فإن الفرد الذي يخرج منا إلى القرية ليقوم بواجبه في انهاض مواطنه الفلاح، يحقق بعمله هذا وجهاً من وجوه النهضة القومية، ويكشف عن معنى من معانيها السامية، إذ يسير بالأمة إلى تلك الحالة المثلى التي يتعاون فيها أبناء الأمة جميعاً على رفع بلادهم وتحرير أجسادهم وعقولهم ونفوسهم.

ويعظم خطر هذه النهضة الشعبية عندما يكون بادئها وباعثها الشباب العربي المثقف. فلقد كان علمنا، ولا يزال إلى حد بعيد، عبئاً ثقيلاً نحمله على ظهورنا. ولم يصب أمتنا منه إلا النفع اليسير، حتى كاد يصح فينا معنى الحديث الشريف: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه». فإذا أقبل اليوم الشباب المتعلم على المشاريع الاصلاحية كمشروع انعاش القرى، ودخل الميدان الذي نفسحه له للمساهمة في النهضة القومية، أصبح لعلمه معنى وقوة وحياة، وشعّت ثقافته في الشعب فاستفادت منها الأمة واغتنت البلاد. وليس عبثاً اذن أن اتخذ مشروع انعاش القرى شعاره: «من الشباب المثقف إلى الفلاح». ففي هذا الشعار معاني المسؤولية التي أخذ يشعر بها الشباب، والروح العملية المخلصة التي يجب أن تتجلى في ثقافته، واستعداده للانصهار التام في بوتقة الأمة ورابطتها العظمى. فيه، على الجملة، معنى من أبرز معاني النهضة القومية: هو شياعها من أفراد الشعب ــ والمتعلمين المثقفين منهم خاصة ــ وفيضانها من صميم قلوبهم وأرواحهم.

ثم هناك وجه آخر للمشروع له خطورته الخاصة من الناحية القومية، ذلك هو توحيده بين الشباب العربي على اختلاف طوائفه وعقائده ونزعاته الخاصة أو العامة. فإن المثل الأعلى الذي يتوجه هذا المشروع إليه يؤلف بين جميع العاملين فيه ويجعلهم قلباً واحداً ونفساً واحدة في الجهاد في سبيله.

ونحن الذين أثقل الدهر عاتقنا بشتى الانقسامات الطائفية، والعائلية، والعنصرية، وسواها من العصبيات التي تقف عقبات كؤود في وجه انتظامنا القومي، نحن الذين قسمتنا أنواع الحزبيات الهدامة شيعاً متنازعة وفرقاً متناحرة، خليقون بأن نستمد من مشروع انعاش القرى وأمثاله معنى العمل القومي الموحد الذي تذوب فيه كل شهوة خاصة وتضمحل كل نزعة حزبية. وها أن تاريخ هذا المشروع ليشهد بأجلى برهان على التآخي الذي يربط جميع العاملين فيه، وعلى الارتباط الوثيق الذي يؤلف بين قلوبهم ويجمع جهودهم ومساعيهم.

هذه هي بعض النواحي القومية لمشروع انعاش القرى. ولست أنكر ان عملاً يضع أمامه هذه الغاية السامية الخالصة ليتطلب جهوداً عظمى وصفات روحية خاصة ليرتفع إلى المستوى الذي يصبو إليه ويؤدي الرسالة التي ينشدها. من هنا وجب على القائمين بهذا المشروع أن يظلوا أبداً متطلعين إلى غايته القومية السامية، وأن ينفخوا في عملهم كل ما في نفوسهم من همة وتضحية واخلاص، حتى لا يمسه قلب من هذه القلوب اليافعة التي تقبل على التطوع فيه الا ويلتهب بروحه ويتطهر بإكسيره، ويستمد منه صفات النشاط والتجرد والاخلاص التي يتطلبها العمل القومي المنتج. فإذا لم يكن لمشروع انعاش القرى من فائدة الا ان ينمي هذه الصفات في قلوب العاملين فيه ويلقي في نفوسهم معنى الخدمة الصحيحة، لكفى ذلك لينهض به إلى مرتبته الرفيعة في سلم جهادنا، ويحله المحل الذي يستحق في حياتنا القومية.

ان العرب لم يعرفوا في حياتهم دوراً كانوا فيه أحوج إلى الجهاد منهم في هذه الأيام. فإن الأعمال التي تدعو إليها النهضة القومية أعمال متشعبة النواحي واسعة النطاق تحتم علينا أن نبذل كل نسمة من روحنا وكل خفقة من قلبنا للقيام بها. وانه لمن أعظم الإجرام تجاه أمتنا في هذا الدور العصيب أن تبقى قوانا كامنة في الصدور أو أن تهدر على التافه من الأعمال. وها ان مشروع انعاش القرى يضرب على صدورنا الفتية فيفجر منها القوى ليمد بها حياة الأمة العربية الجديدة. فإذا جاهدنا تحت لوائه ـ أو لواء غيره من المشاريع الاجتماعية التي تعمل للخدمة العامة الخالصة ـ قمنا ببعض ما يفرضه علينا الواجب القومي، ولقينا ما يبعثه هذا الجهاد في النفس من الرضى والطمأنينة والسلام.

١١٦/١

القومية العربية والدين

بمناسبة ذكرى مولد النبي العربي الكريم

١١٧/١

لست أقصد من كلمتي هذه أن استقصي البحث في ناحية من سيرة النبي العربي الكريم، أو أن أعرض عرضاً مفصلاً جانباً من التعاليم السامية التي أنزلت عليه. وإنما هي لفظة من ألفاظ الحياة تبعثها من نفسي ذكريات الماضي، وأحداث الحاضر، وآمال المستقبل. هي فكرة وعاطفة توحيهما إليّ ذكرى المولد المجيدة وما تحمله من رسالة روحية لأبناء الأمة العربية في هذا الظرف الدقيق من حياتهم.

لقد كثر في الآونة الأخيرة اللغط والكلام في العلاقة بين القومية والدين. ولا عجب في ذلك. فالدين من أهم القوى التي ورثناها عن الماضي، والتي تضافرت عوامل مختلفة على تمكينها في حياتنا، حتى طبعت أكثر مظاهر هذه الحياة بطابعها الخاص، وقد دام تأثيرها هذا قروناً مديدة، حتى قامت في الأيام الحديثة ـ وعقب احتكاكنا بالغرب ـ عوامل جديدة تعمل على إضعافه، أو على حصره في ناحية خاصة من حياتنا الفردية والاجتماعية. وفي مقدمة هذه العوامل الجديدة الروح القومية التي انبعثت في قلوب العرب في السنين الأخيرة، فنهضت بهم إلى طلب نوع من الحياة جديد يضمن لهم الحرية والسعادة والعمران. هذه الروح القومية تزداد كل يوم تأثيراً، وتكتسب قوة وتماسكاً. فلا غرو في أن يحدث بينها وبين الدين تجاذب وتباعد، وتواصل وتقاطع، فيبادل أحدهما الآخر التأثير أحياناً، ويصارعه أحياناً أخرى صراعاً يهز الحياة العربية من جذورها. ولا غرو كذلك في أن نقف اليوم من هاتين القوتين الجبارتين مواقف متباينة، لاضطراب معناهما في نفوسنا أولاً، ولما ما بينهما من احتكاك وتصادم ثانياً.

فمنا من يربط قوميته بدين خاص من الأديان السماوية فيطغى في نفسه الشعور الطائفي على الفكرة القومية، ومنا من يجعل القومية والدين متناقضين أصلاً فيدعو إلى

محاربة الدين وأهله لبناء صرح القومية على أنقاضهما، وبين هذا وذاك ألوان من التفكير وضروب من الأهواء لا تدخل تحت عد أو حصر. كل ذلك راجع إلى قلة تمييزنا بين الروح الدينية والعصبية الطائفية. فالقومية الحقيقية لا يمكنها في مجمل الأحوال أن تناقض الدين الصحيح، إذ ليست، في جوهرها، سوى حركة روحية ترمي إلى بعث قوى الأمة الداخلية، وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية، لكي تقدم الأمة قسطها من تمدن العالم وحضارته. فلا بد للقومية اذن ــ وهي حركة روحية ــ من أن تلاقي الدين وأن تستمد منه القوة والحياة، والرفعة والسمو. كذلك هي القومية العربية في وجهها الصحيح: لا تعارض ديناً من الأديان ولا تنافيه، بل تقبل على الأديان جميعاً لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الشفاء والخلوص، والقوة والخلود. وإذا عارضت القومية شيئاً فليس هو الروحية الدينية، وإنما هو العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية، وتأبى أن تذيب نفسها في بوتقة الوطن الجامعة، بل كثيراً ما تستغل الشعور الديني البريء في سبيل أهوائها الخاصة وأطماعها الحزبية. تلك هي علة البلاد المستعصية، وأصحابها هم أعداء القومية العربية وهادمو وحدتها. أما الدين الصحيح، الذي يرمي إلى تفتيح قوى الروح، فهو ينبع والقومية من معين واحد، ويتجهان آخر الأمر إلى غاية واحدة. ولهذا يترتب على القوميين العرب أن يعودوا إلى مصادر دينهم، فيستمدوا منها السمو النفسي والمتانة الروحية، وأن يستلهموا ــ في ما يستلهمون من معالم الدين ــ سِيَر أنبيائهم جميعاً، ويغنوا نفوسهم بما يفيض عنها من قوة وصفاء.

كذلك يجدر بهم أن يربطوا ما يستمدون من هذه المعاني الروحية بالفكرة القومية التي يعيشون لها ويقفون نفوسهم على تحقيقها. فليس أجدى لنا اذن، ونحن نكرم ذكرى المولد النبوي الشريف، من أن نلتفت إلى الماضي، محاولين استخراج مغزى هذه الذكرى لحياتنا الحاضرة، فنتساءل: ما علاقة النبي محمد (ﷺ) بالقومية العربية، وما رسالته إليها؟

النبي محمد (ﷺ) هو، أولاً، نبي الإسلام، عليه أنزل هذا الدين الكريم، وبواسطته انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية، فلسنا نستطيع اليوم أن نفهم تراثنا العربي القديم، سواء أفي الفلسفة أو العلم أو الفن، إلا بعد درس عميق لنصوص الدين الإسلامي وأحكامه، وتفهم صحيح لروحه ونظامه. وهذا التراث العربي قسم من ثقافتنا الحاضرة، بل هو أساسها الذي تقوم عليه. وباطل ما ينادي به البعض من أن نرمي بهذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية الجديدة، فالتراث العربي جزء منا ــ شئنا أم أبينا ــ وهو فوق ذلك ميزتنا التي بها نتفرد بين الأمم، وقد أوتي من الخصب والقوة

والجمال ما يدفعنا إلى الحرص عليه ومفاخرة الناس كلهم به. ولهذا وجب على كل عربي، من أي طائفة أو نحلة، يهتم بثقافته الماضية وبعثها الجديد ـ وهذا الاهتمام هو في طليعة الواجبات التي تفرضها عليه قوميته ـ أن يقدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته، ويقدس ذكرى النبي العظيم الذي أنزل الإسلام عليه.

والنبي محمد (ﷺ) هو، من ناحية ثانية، موحّد العرب وجامع شملهم. بُعث إليهم وهم أشد مايكونون تفرقة وخلافاً: يتحاسدون، ويتناحرون، ويحارب بعضهم بعضاً، لا رابطة قوية تجمعهم، ولا شعار يوحدهم ويوفق بين قلوبهم. فنفخ فيهم روحه المُحيِيَة، فإذا هذه القبائل المتنافرة قد تآلفت، وإذا هذه الجموع المتباعدة قد تقاربت، وإذا الجميع كتلة واحدة قد صهرت في بوتقة الإيمان، ففاضت على العالم تبعث فيه القوة والنشاط، وتنشر عليه الحضارة والعمران. ولقد يقول البعض ان الرابطة الدينية كانت في ذلك الوقت طاغية على الرابطة القومية، وان الإسلام كان أقوى من العربية. والجواب أن شيئاً غير هذا لم يكن ممكناً في القرون الوسطى: سيان في ذلك الشرق الإسلامي والغرب المسيحي. ونحن نعلم أن القومية بمعناها الصحيح إنما هي وليدة العصر الحديث وما تمخض به من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية. ولكن، بالرغم من هذا، نجد شعوراً عربياً قوياً حتى في العهد الأول حين كانت العاطفة الدينية الإسلامية لا تزال في أشد غليانها: فلقد عامل المسلمون نصارى تغلب وسواهم من العرب بغير ما عاملوا به النصارى من غير العرب، واشتركت بعض القبائل النصرانية في الفتوح الأولى وحاربت والمسلمين جنباً إلى جنب. ثم قوي هذا الشعور العربي بدخول الأعاجم وتفشي الشعوبية، واشتد تكتل العرب لصد هجمات الفرس والترك وسواهم من الشعوب. نعم! ان هذه المظاهر للرابطة القومية بين العرب ضئيلة إذا قيست بالشعور القومي الذي طغى على الأمم في العصر الحديث. ولكننا إذا راعينا ظروف الحياة الفكرية في القرون الوسطى، عندما كانت العاطفة الدينية ساطية على كل شيء، وجدنا في هذه المظاهر بذوراً صالحة للحياة القومية العربية. وما زالت هذه البذور تنمو ـ ببطء وضعف ـ خلال العصور إلى ان استفاقت هذه البلاد على نور العصر الحديث، فإذا الرابطة القومية فوق كل رابطة أخرى، وإذا هذه الرابطة تفرض على العرب أن يكونوا كلهم سواء على اختلاف نحلهم ومللهم. ويلتفت هؤلاء العرب اليوم إلى الماضي فيجدون أن أصل وحدتهم وبذرة ائتلافهم من غرس الزعيم العربي محمد بن عبدالله.

والنبي محمد هو، من ناحية ثالثة، مثال لرجل العقيدة. خرج في مكة وظل زمناً طويلاً لا كرامة له فيها، يتحمل ضروب الذل والأذى في سبيل معتقده، وتسخّر جميع القوى لإرجاعه عن مبدأه، ولكنه ظل صامداً في موقفه، قوياً في ايمانه، هازئاً

من الوعد والوعيد، ثابتاً على قوله لعمه أبي طالب: «والله! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته»، إلى أن نصره الله على أعدائه وأظهره على الناس جميعاً. هذا الإيمان المتوقد القوي هو أساس شخصية النبي العظيم، وهو الذي نفخ في صدور الصحابة فحولهم من أشخاص بسطاء ضيقي الأفق محدودي القوى إلى قادة وزعماء دكوا عروش الأمم المتجبرة ووضعوا أسس تمدن جديد.

ونحن اليوم، وقد عصفت بنا الأهواء الشخصية والمنازعات الحزبية، وقد رفعنا المادة والجاه إلى السماك الأعلى ووطئنا قوى الروح بأقدامنا، لأحوج ما نكون في جهادنا القومي إلى زعماء يقتبسون من شخصية النبي العربي قوة العقيدة وعزم الإيمان، فيخرجون للنضال في سبيل مبادئهم القومية بجرأة وإقدام، صابرين على الأذى ساخرين من العقبات، وينفخون في صدور من يحيطون بهم من أبناء الأمة العربية روح التضحية والاخلاص، ويدفعون بهم على الطريق السوي إلى الحياة الجديدة.

هذه هي الرسالة الروحية التي تحملها ذكرى مولد النبي العربي إلى حياتنا القومية الحاضرة. ومن أجلها وجب على القوميين العرب، على تباين نزعاتهم واختلاف مللهم ونحلهم، أن يكرموا ذكرى محمد بن عبدالله: نبي الإسلام، وموحِّد العرب، ورجل المبدأ والعقيدة.

التراث الثقافي العربي

١ ــ حفظه

تحاول الأمة العربية اليوم أن تبني لها كياناً مستقلاً، وتشق لنفسها طريقاً سوية بين الأمم. ومن الواضح الذي لا يحتاج إلى جدل أو برهان أنه لا غنى لها في هذا السبيل من أن تلتفت إلى نفسها، وتعنى بروحها، وتحيي كيانها الداخلي: لأن كل استقلال خارجي لا يقوم على الأسس الروحية الثابتة لا يكتب له البقاء، وكل وحدة سياسية أو اجتماعية تكون عرضاً زائلاً إذا لم تدعمها وحدة في العقول والقلوب والنفوس.

ومن الواضح أيضاً أن العامل الأول في خلق هذه الروح الداخلية هو الثقافة الموحدة الرشيدة، وان هذه الثقافة لا تكون صحيحة كاملة ولا تقوم بمهمتها إلا إذا أبرزت مواهب الأمة العربية الخاصة ومزاياها التي تفرقها عن غيرها من الأمم. ولا يتم لها هذا إلا إذا كانت تستمد من وحي الماضي وتنظر إلى نفسها كجزء متمم لتطور الأمة العقلي، لأن الحياة مجرى واحد لا ينقطع، وسلسلة متصلة الحلقات، فكل فصل بين أجزائها، وكل بتر لصلاتها، يأتي منافياً لجوهرها، مخالفاً لطبيعة العمران والتاريخ. من أجل هذا كله، وجب على الأمة العربية في هذا الظرف الدقيق من حياتها أن تلتفت إلى ثقافتها القديمة فتحييها، وإلى كنوزها الدفينة فتكشف عنها وتستوحيها، وأن تبعث روحها الراقدة في الماضي لتعيد إليها رونقها وجلالها وتنشىء حولها كيان الغد وحياة المستقبل.

والحق أننا إذا ألقينا نظرة على الثقافة العربية القديمة وجدناها تفيض علماً وأدباً وفلسفة وفناً، وألفينا ثروة عقلية روحية لا يستغني عنها من كان مثلنا في الفقر النفسي والعوز الفكري، ولكن أجيال الجهل الماضية قد حفرت بيننا وبين هذه الثروة

هوة سحيقة ومزقت الصلات التي تربطنا بها حتى غدونا اليوم بعيدين عنها محرومين من بركاتها. وليست هذه أول دعوة تصدر لحفظ الثقافة العربية واحيائها، بل قد سبقتها دعوات وصرخات خرجت من جوانب الوطن العربي وتجاوبت أصداؤها في سمائه، فكان لها بعض الأثر في ما نشر من مؤلفات وما وضع من أبحاث في السنوات الأخيرة. ولكن الحاجة لا تزال ماسة، والمسألة ما فتئت على ما كانت عليه من الخطورة. لذلك وجب أن يقوم بين آن وآخر من ينبه إلى أهميتها ويدعو إلى معالجتها.

وموضع الخطر في الأمر أن هذا التراث الثقافي الذي خلفه لنا السلف لا يزال قسم كبير منه منتشراً في المكاتب الخاصة أو بين أيدي من لا يقدرونه قدره أو يدركون قيمته. فمع أن المئات والألوف من المؤلفات القديمة قد وصلت إلى المكاتب والمتاحف العامة حيث ستبقى محفوظة ومحاطة بضروب السهر والعناية، فإن الباحث في أية ناحية من نواحي تاريخنا العربي ليطلع عليه كل يوم بما يذكره بأن عدداً وفيراً من المصادر النفيسة لا تزال ضائعة لم يتوفق الباحثون بعد إلى اكتشافها: فمنها من لا نعرفها إلا بأسمائها، ومنها ما لا نعرف منها حتى الأسماء. وكل من يطلع على المجموعات التي تتضمن أسماء المؤلفين والمؤلفات في دور من أدوار التاريخ العربي: كـ **الفهرست** لابن النديم، أو **تاريخ الحكماء** للقفطي، أو **كشف الظنون** لحاجي خليفة ــ أو من يراجع كتاباً كـ **مروج الذهب** للمسعودي يذكر فيه واضعه المصادر التاريخية التي اعتمدها أو وقف عليها ــ يتيقن من أن ما بين أيدينا الآن من المؤلفات العربية ليس سوى جزء يسير مما وضعه الآباء والجدود، وان الكثرة الباقية قد ضاع منها البعض ولا يزال البعض الآخر مبعثراً في زوايا الوطن العربي يأكله العث ويتسرب إليه الفساد. كل هذا في وقت نرى الأمم المتمدنة أحرص ما تكون على تاريخها الماضي وثقافتها الغابرة. فإن نظرة واحدة إلى ما تبذله هذه الأمم من الجهود المادية والأدبية لحفظ تراثها بما تبني من متاحف ومكاتب وما تنشىء من جمعيات ومؤسسات علمية لكافية لتبعث في من يتحسس بالحس الثقافي الخالص والقومي الصحيح أعظم الهمة والنشاط للعمل على ابقاء التراث العربي القديم وصيانته مما يحوط به من أنواع العبث والفساد وما يتهدده من التشتت والضياع. بل ان الناظر إلى الأمم الغربية ليجدها أحرص منا على تراثنا وأسبق إلى السعي إليه والمنافسة فيه. فكم من مصدر من مصادر أدبنا أو تاريخنا أو علمنا لا وصول لنا اليوم إليه إلا عن طريق مكتبة من مكاتب باريس أو لندن أو برلين أو فيينا! ويا له من تنافس شديد وتسابق مجهد، ذلك الذي يحرك أمناء هذه المكاتب أو غيرهم من علماء الغرب للحصول على هذه الكنوز العلمية، حتى ان كثيراً بينهم من يأتي

من بلاده النائية إلى الشرق سعياً وراءها، ويبذل الأموال الطائلة والهمم الجبارة في سبيلها!

ومن أتيح له أن يشهد أحد هؤلاء العلماء يقلب صفحات مخطوط من المخطوطات الثمينة ويتأمل سطوره ورسومه قد شعر ولا شك بما ينبعث من صدر هذا العالم من حب للتراث العقلي العربي وشغف به، ومن احترام يبلغ في أحيان كثيرة حد التقديس. ولا يتسع المجال أمامي لتعديد الأمثال، والافاضة بالأدلة على ما أقول، وإنما اكتفي بمثل واحد آخذه من مقدمة المرحوم أحمد زكي باشا لـ **كتاب الأصنام** لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي الذي نشره عام ١٩٢٤. فقد وصف أحمد زكي باشا في هذه المقدمة تشوق العلامة الألماني نولدكه (Noeldeke) للوقوف على **كتاب الأصنام** ورغبته فيه بالعبارة التالية: «فهذا الرجل (الذي أرجو الله أن يمد في حياته) ما زال شغوفاً بتطلب نفس كتاب الأصنام، وما زال يحلم به في اليقظة والمنام، ويجاهر أمام أصدقائه وتلاميذه وأولاده بأنه لا يريد أن يفارق الحياة حتى يرى بعيني رأسه هذا الكتاب: «كتاب الأصنام». فلما علم بأني عثرت على هذه الضالة المنشودة واصطدت تلك الدرة الثمينة، توسل إليّ بواسطة صديقه وصديقي السويسري هيس (Hess) فأرسلت إلى ذلك العاشق الولهان صورة فتوغرافية من هذا الكتاب».

ان هذا التقدير البالغ الذي أظهره الغربيون للتراث العربي القديم، وهذا الحرص الشديد عليه، والسعي الحثيث وراءه هي التي جعلت أكثره يتسرب من أيدينا إليهم، وينتقل من موطنه العربي إلى بلادهم. ومع أننا نأسف على هذه الخسارة التي مني بها الشرق العربي، فإن المنصف لا يمكنه إلا أن يقدر عمل أهل الغرب حق قدره، ويشكر لهم هذه الجهود التي بذلوا، إذ لولاها لكان قسم وافر من هذه المؤلفات قد ضاع أو تبدد في الظلمات كما يضيع ويتبدد الآن كثير من أمثاله في جوانب الوطن العربي المجهولة. وكثيراً ما يكون العالم أو الأديب العربي أقرب إلى هذه المؤلفات وهي في مكتبة غربية بعيدة عنه ألوف الأميال مما لو كانت في بلدته نفسها، لأنه في الحالة الأولى يعرف من السجلات المنظمة مكانها ويستطيع تصويرها أو استنساخها متى أراد. أما في الحالة الثانية فقد يكون بعيداً عنها لا سبيل له إلى استخدامها لجهل أصحابها أو طمعهم المادي الزائد، أو قد تعبث بها الأيدي فتذهب هباء منثوراً، دون أن يدري بها من يعرف قيمتها ويكون مستعداً لبذل كل مرتخص وغالٍ في سبيلها.

ولهذا، أراني مدفوعاً إلى توجيه دعوة خالصة صريحة، صادرة من أصدق الاحساسات القومية وأعمقها، إلى كل من يمتلك مخطوطات قديمة أن يعرضها على أحد العلماء المختصين في قطره أو أن يقدمها إلى إحدى المكاتب أو المتاحف

العربية العامة حيث يكون أميناً عليها، فتحفظ لأبناء العرب ينهلون من موردها جيلاً بعد جيل. فقد آن لنا أن نعتمد على أنفسنا في حفظ تراثنا وألا نبقى عالة على الغرب وأهله في أمر من أخص أمورنا. وليس اهداء كتاب إلى أمتنا ــ مهما بلغت قيمته المادية ــ بتضحية كبيرة منا، بل هو واجب من أقدس واجباتنا، لأن هذه الآثار ليست في الواقع ملكاً شخصياً لنا، وإنما هي ملك الأمة العربية وملك العلم والثقافة والمدنية.

ومن البديهي أن ما نقوله عن المؤلفات القديمة يصح بالمعنى نفسه عن النقود، والنقوش، والملابس، والأسلحة وسواها من مظاهر تراثنا الاجتماعي والثقافي القديم. فكم تدفع المصادفات بعض هذه القطع الأثرية إلى يدنا، فلا نبذل لها ما تستحق من الاهتمام، أو لا نهتم بها إلا بقدر ما تدر علينا من ربح مادي، غير قادرين قيمتها العلمية والثقافية أو شاعرين بالمسؤولية التي تترتب علينا لحفظها ورعايتها تحت سماء هذه البلاد التي شهدت حياتها الماضية وبين أيدي أحفاد الذين أظهروها للوجود.

وما ذكرته عن اهتمام الغربيين بمؤلفاتنا القديمة يصدق هنا عن اهتمامهم بهذه المظاهر الأخرى من تراثنا العربي. وليس من الضروري أن أسرد هنا أسماء العلماء العديدين، والبعثات والمؤسسات المختلفة التي أتت هذه البلاد لتنقب فيها وتكشف عن آثارها. لا! وليس من الضروري كذلك أن أشير إلى الأموال الطائلة التي أنفقتها أو إلى الجهود العظيمة التي صرفتها: تلك الجهود التي كانت تبلغ أحياناً حد المخاطرة بالحياة، كما حدث لبعض أولئك الذين رادوا الجزيرة العربية سعياً وراء آثارها. انني أترك هذا كله ــ وحولنا الكثير مما ينبيء به ــ لأقصّ قصة حجر واحد من الأحجار التي تزخر بها هذه البلاد:

في سنة ١٨٧٩ زار الرحالة الإفرنسي شارل هوبر (Charles Huber) واحة تيماء الواقعة في شمالي الجزيرة العربية، فلمح بين أحجار احدى آبارها المتهدمة حجراً يحمل نقشاً قد امحت أكثر سطوره ككثير من الأحجار التي يمر بها واحدنا فلا تثير في نفسه أدنى اهتمام. ولم يتمكن الرحالة من أخذ هذا الحجر، فغادر الواحة وفي قلبه غصة وألم. لكنه عاد سنة ١٨٨٣ مستصحباً معه عالماً ألمانياً طويل الباع في اللغات السامية يدعى يوليوس يوتنغ (Julius Euting)، فنقل كل منهما صورة عن الكتابة المرسومة على الحجر، ثم تمكنا من شرائه وإرساله إلى حائل عاصمة ابن الرشيد. وسارا بعد ذلك إلى العُلى وافترقا فيها. أما الأول (هوبر) فذهب إلى جدة، ثم عاد إلى حائل، فتصدى له في الطريق من قتله. وأما الثاني (يوتنغ) فهاجمه البدو، لكنه تغلب عليهم، وقتل منهم اثنين، ووصل إلى القدس سالماً. وكان قد أرسل صورة

الكتابة التي نقلها إلى العالم نولدكه (Noeldeke)، فأسرع هذا إلى نشرها. غير أن رينان (Renan) الفرنسي تسلم بدوره الصورة التي نقلها هوبر فنشرها أيضاً، وعرَّض بيوتنغ ونولدكه الألمانيين متهماً إياهما بأنهما هضما حقوق هوبر. وفي تلك الفترة كان أمير حائل قد بعث إلى جدة رسولاً يسأل عمن يتسلم حوائج هوبر ومن بينها الحجر الأثري، وكان العالم الهولندي سنوك هرغرونيه (Snouck Hurgronje) قد وصل إلى الحجاز فأخذ يتصل بالرسول، فقام القنصل الفرنسي في جدة يتهمه بالعمل لايصال الحجر إلى برلين وسعى لدى الحكومة العثمانية لاخراجه من الحجاز. وبعد لأي تسلم القنصل الفرنسي الحجر المذكور، وأرسله إلى باريز. وهكذا احتل حجر تيماء ـ وهو من أهم النقوش الساميّة من حيث اللغة والمادة التاريخية ـ مكانه في اللوفر، ولا يزال بعض العلماء الألمان يتحسرون عليه ويعتقدون أن متحف برلين أحق به وأحرى.

من أجل هذا الحجر الذي قد يعثر به أحدنا فلا يلتفت إليه، رحل عالمان من موطنيهما البعيدين إلى الجزيرة العربية فقتل أحدهما وكاد الثاني أن يلقى حتفه، وتنازع صحبهما من العملاء، وتدخّل قناصل دولهم: كل يدّعي الفضل في اكتشافه والحق في حيازته في متحف أمته. وفي هذا الدليل الواضح على حرص الغربيين على تراثنا القديم وتنافسهم الشديد في سبيله.

ولست أشيد بما فعل الغربيون انتقاصاً للجهود التي بذلتها ولا تزال تبذلها الحكومات والهيئات العربية في سبيل حفظ آثار هذه البلاد، بل استنهاضاً للهمم، وشحذاً للعزائم، إذ لا تزال دون الغاية التي نسعى إليها مراحل وخطوات واسعة لا يتيسر لنا قطعها إلا عندما نشعر كلنا ـ أفراداً وجماعات ـ بالمسؤولية القومية الكبرى التي ألقتها على عواتقنا الأجيال السالفة، فنهب لحفظ تراثنا الثقافي العربي صيانة لماضينا، ورعياً لحاضرنا، وحرصاً على مستقبلنا.

٢ ـــ إحياؤه

تحدثت في القسم الأول من هذا البحث عن تراثنا الثقافي العربي، وعن الواجب الذي يحدونا إلى حفظه سليماً من الفساد والضياع، حرصاً على الروابط الروحية المتينة التي تصلنا به، وعلى الثروة العقلية والفنية التي نستمدها منه لبناء شخصيتنا الجديدة. غير ان السعي لحفظ هذا التراث ــ على ضرورته وأهميته ــ غير كاف بنفسه، وإنما هو خطوة تمهيدية ووسيلة إلى غاية. ولا يتم الواجب الملقى علينا إلا بالعمل على احياء هذا التراث احياء يصبح فيه قريباً منا ونحن قريبين منه، فنرد مناهله العذبة المحيية ونغب منها على الدوام.

ويقوم هذا الاحياء في أن يعمد أدباؤنا الملهمون وعلماؤنا المدققون إلى الآثار العقلية النفيسة التي يمتاز بها التراث العربي القديم، فينقلوها إلى أبناء العربية بلغة هذا العصر وأسلوبه وطريقة تفكيره، مشيرين إلى مواطن الحق والجمال فيها، وناشرين الرسالة العلمية والأدبية المتغلغلة في طياتها. فكلنا يعلم بغزارة الإنتاج القديم، وبذلك السيل من الكتب والرسائل الذي فاض من أقلام العرب في شتى نواحي الثقافة. وكلنا يشعر، في الوقت نفسه، بنمو العلم الحديث وتفرع أبحاثه وطغيان وسائل النشر والتأليف، مما لا يدع لابن هذا العصر مجالاً واسعاً للتوفر على جميع مناحي الثقافة العربية وتتبع مجلداتها الضخمة الوفيرة لانتقاء ما تحويه من العناصر الخالدة. وهذا من أهم العوامل التي تبعد أكثر شبابنا وشاباتنا عن هذه المؤلفات القديمة وتقيم الحواجز بينهم وبينها. فلو ان الأدباء أقدموا على تلخيص هذه المؤلفات باللغة التي يفهمون لقاموا بمهمة جليلة وسدوا ثغرة واسعة في ثقافتنا الحاضرة. وإذا أردتم مثالاً على ما أعني، فدونكم كتاب **على هامش السيرة** للدكتور طه حسين. فإن هذا الأديب الكبير عمد إلى كتب السيرة النبوية واستمد منها جمالها ورونقها، وصاغ بعض حوادثها الرائعة في مقاطع أدبية لا ينتهي منها القارىء إلا وفي نفسه شوق للاستزادة منها ولورود المعين الأصلي الذي فاضت عنه. ولقد عبر الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه عن هذه الحاجة الثقافية عندما قال: «فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربي القديم عامة، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة، فأنا سعيد حقاً، موفق حقاً إلى أحب الأشياء إليّ وآثرها عندي. وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب حب

الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالاً، ليس أقل روعة ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد».

وليس من شك في أن كثيرين من شبابنا قد عرفوا من الحياة العربية القديمة عن طريق هذا الكتاب وأمثاله ما لم يكن لهم سبيل إلى معرفته بدونها، وأن غير واحد منهم قد تفتحت له من خلالها آفاق واسعة في الأدب العربي القديم فعاد إلى مصادره وأصوله يجد فيها الفائدة الأدبية والمتعة العقلية.

* * *

على أن هذا النوع من الإحياء ــ القائم على تلخيص المصادر القديمة وصوغها في قوالب التفكير والتعبير الحديثين ــ ليس كافياً وحده، وإنما يجب أن يصاحبه عمل احيائي آخر، هو نشر هذه المصادر بنصوصها الأصلية وشكلها التام. فإذا كانت مطالب العصر الحاضر لا تسمح لأحدنا بأن يقف على مصادر الثقافة العربية في جميع نواحيها، فليس يضيره ان يختار لنفسه ناحية من هذه النواحي ويعمد إلى مطالعة أصولها ودرسها درساً دقيقاً. وكلنا يعلم أن أصحاب الثقافة الصحيحة من رجال الغرب لا يكتفون بما يقرأون عن رجال الأدب والعلم وعن مآثرهم، وإنما يحرصون على قراءة ما كتبه هؤلاء بنصوصه الأصلية. وما ذاك إلا للحقيقة الواقعة وهي أن المرء لا يستطيع تقدير علَم من أعلام الأدب تقديراً حقيقياً إلا عندما يتصل به اتصالاً مباشراً دون أية وساطة تقف حاجزاً ــ مهما كان شفافاً ــ بينهما، وان واحدنا لا يتوفق إلى تفهم عصر من العصور الماضية إلا إذا عاش في جوه الخاص المنبعث من لغته وأساليب تفكيره التي يمتاز بها عن سواه من العصور.

ونحن إذا ألقينا نظرة على هذه المصادر والمؤلفات العربية القديمة بشكلها الحاضر ألفيناها في حالة لا تدعو بوجه من الوجوه إلى الاقبال على مطالعتها والتوفر على درسها. فمنها ما نشر في بلاد الشرق العربي، ومنها ما خرج من مطابع الغرب. أما الأولى فأكثرها سقيم الطبع، قبيح الشكل، رديء الورق والغلاف، عارٍ من جميع الوسائل الحديثة التي تجهز بها المنشورات العلمية كالفهارس وقوائم المفردات وسواها. هذا علاوة على ما دخل نصها من التحريف والتبديل والتحويل، مما لا يدعنا نثق به أو نطمئن إلى صحته. وموجز القول ان أكثر هذه المصادر المطبوعة في البلاد العربية غير مستوفية للشروط العلمية والفنية التي يقوم عليها النشر الحديث. فلا عجب اذا صدفت ناشئتنا عنها، ونعتتها بازدراء بـ «الكتب الصفراء»، وتهالكت على المؤلفات الغربية التي تقدم لها بقالب جميل وشكل مُغرٍ فتان. والحق ان الثقافة

العربية القديمة لتلقى أشد أنواع المنافسة من الثقافة الغربية الحديثة، فإذا نحن لم نحبّبها إلى ناشئتنا، ولم نستخدم ما تستخدمه الغربية من سبل الدعاية ووسائل الاغراء، لم يكن لنا أمل في احياء الآثار العربية وفي تلقيح أبنائنا ببذورها المفعمة بالخصب والحياة.

وأما المصادر العربية المطبوعة في الغرب فمعظمها مستوف للشروط العلمية والفنية التي ذكرنا. وكل من يطالع هذه المطبوعات ويقابلها بما نشر في الشرق العربي يتحقق حالاً من هذه الصفات التي تمتاز بها، ويشعر بالجهد الذي بذله ناشروها للوصول إلى نصها الصحيح، ثم لإرشاد الباحث إلى جزئياتها (بما جهزوها به من فهارس وسواها)، وأخيراً لإبرازها بشكل ترتاح إليه العين ويستسيغه العقل والذوق. ولكن ناشئتنا قلما تصل إلى هذه المنشورات إما لغلاء ثمنها، وإما لقلة انتشارها في أسواقنا وعدم انتظام تجارة الكتب في بلادنا. كما انه من العار علينا أن نبقى في هذا الأمر أيضاً ـ كما هي حالنا في حفظ تراثنا ـ عالةً على الغرب نتكل عليه في احياء هذا التراث، وفي نشره وتعميمه بين الناس.

من أجل هذا، وجب أن يهب علماؤنا ومؤسساتنا الثقافية إلى الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة، فيعملوا على نشر مصادر ثقافتنا العربية بما يتفق والشرطين الأساسيين اللذين يفرضهما العلم الحديث: وهما دقة التحقيق، وجمال العرض.

* * *

ومن البديهي الذي لم يعد يحتاج إلى دليل ان هذا الاحياء ـ سواء أكان في نشر المصادر القديمة أم في تلخيصها والتأليف عنها ـ لا يتم على الوجه الأكمل إلا إذا بني على أساس التنظيم الصحيح.

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت ان الغرب لم يبسط أمامنا ـ نحن العرب ـ رسالة أوضح وأهم من «التنظيم»، وان اختبارات السنوات الأخيرة يجب أن تكون قد علمتنا أن التنظيم شرط أساسي لنجاح أي من أعمالنا القومية. فلكم يعزم أحد أدبائنا على أن يحيي مصدراً من المصادر القديمة، ويمضي في عمله خطوات عديدة، ثم لا يلبث أن يسمع ان أديباً آخر قد سبقه إليه ونشره من قبله. وكم يحدث ان بعض الناشرين يعمدون إلى كتب قليلة الأهمية يولونها من العناية ما لا تستحق، في حين أن كثيراً من أمهات المصادر لا تزال دفينة في خزائن الكتب والمخطوطات. ثم ان نواحي الثقافة المختلفة لا تنال في مثل هذه الحال من الفوضى نصيباً متساوياً من اهتمام العلماء. فالذي يلقي نظرة سريعة على ما أحيي من المصادر القديمة يلاحظ ولا شك ان كتب الأدب والتاريخ فيها تطغى على ما سواها، وانه بينما أصبحنا نملك

عدداً لا يستهان به من دواوين الشعراء وتواريخ المؤرخين نكاد لا نجد بين أيدينا إلا النزر اليسير من الأصول الفلسفية، وأقل منه من المصادر العلمية والفنية، منشوراً نشراً مرضياً. جميع هذه العلل والشوائب لا تزول إلا بالتنظيم الصحيح الذي يجمع جهود الأفراد والمؤسسات ويصرفها إلى الأهم فالمهم من الأعمال، دون تضارب أو تبذير أو خسارة. ويعظم خطر هذا الأمر في أعيننا إذا ذكرنا اننا في حالتنا الحاضرة ـ وقد سبقتنا الأمم أشواطاً بعيدة ـ لأحوج ما نكون إلى كل ذرة من قوانا وإلى كل نبضة من قلوبنا لكي نحفظ كياننا ونبلغ غايتنا.

* * *

تلك هي السبل التي يجب أن نسير عليها في حفظ تراثنا العربي القديم واحيائه. ولا يغرن أحداً ما يردده البعض من أن الثقافة العربية قد ماتت واندثرت وأنه لا سبيل إلى احيائها، أو أنه لا غنى لنا في هذا الاحياء الذي يصرفنا عن اقتباس العلم الحديث والثقافة الغربية. فالثقافة العربية التي سادت العالم عصوراً طوالا، والتي لم تمحها أجيال من الارهاق والاضطهاد لها من القوة والحيوية ما يضمن لها البقاء. ولن يضيرها ان تتصل بالثقافة الغربية وتأخذ عنها. فقد اتصلت في الماضي بثقافات متنوعة وحضارات متباينة واستمدت منها عناصر وافرة، فلم تضعف بها، بل ازدادت قوة على قوة وحياة في حياة.

أجل! ليست جميع نواحي هذه الثقافة سواء في تأثيرها في حياتنا الحاضرة. فنظريات العلماء العرب مثلاً ليست ذات فائدة تطبيقية في عصرنا هذا، وكثير من مبادئهم الفلسفية لا يمت بصلة إلى مشاكل العقل الحديث. ولكن من منا لا يقرأ كتب الأدب القديم، أو مجموعات الحكم والأمثال، أو رسائل الدين والحكمة والأخلاق، ولا يستمد منها ما ينمي عقله وعاطفته ونفسه؟ حتى كتب العلم التي لم يبق لنظرياتها إلا الفائدة التاريخية، أليست تنشر لنا من طيات مجلداتها الضخمة التي بذل العلماء أنفسهم في وضعها صفات الصبر والصدق والبحث عن الحقيقة التي كانت ولا تزال رائد العلماء في جميع العصور والأقطار؟ حقاً ان الذي ينكر على التراث العربي القديم رسالته إلى أبناء هذا العصر وإلى الإنسانية عامة لا يعرف حقيقة هذا التراث ولم ينهل من منابعه الفياضة المحيية.

والغريب ان هؤلاء الداعين إلى نبذ التراث العربي أو اهماله يرددون ذلك في عصر نرى فيه الأمم النازعة إلى حياة جديدة تعمد إلى ثقافتها القديمة فتحييها وتجعلها عنوان مجدها وقبلة آمالها. ففي الوقت الذي تسعى كل أمة نشيطة من أمم الشرق والغرب ـ من تركيا وايران إلى فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا وسواها من

الأمم الصغيرة والكبيرة ـ إلى تقديس تقاليدها وتمجيد حضارتها، لا يسع الأمة العربية إلا أن تعمل على بعث تراثها القديم، وروحها التي ولدت تمدنها التالد والتي بها تفرّدت عن غيرها من الأمم. فكل من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل. والأمة التي لا تعنى بروحها لا يمكنها أن تحيا، أو أن يكون لها يد في تقدم التمدن البشري.

حقاً، ان من التراث الثقافي العربي لكنوزاً خليقة بأن تبعث، ولمآثر حرية بأن تحيا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ضآلة ثقافتنا العلمية

لقد اعتدنا ان نصف الطور العقلي الذي نمر به بالتجدد والانبعاث، وندعوه بشيء من الزهو والمباهاة: «دور النهضة الحديثة». وانه لكذلك ـ دور نهضة وتقدم ـ إذا قورن بما كنا نرزح تحته من جهل وفقر روحي في القرون الماضية الأخيرة. ولكن الناظر في أمر نهضتنا هذه ليجد انها لا تزال في بدء نموها، وان فيها كثيراً من الضعف والنقص يتطلب معالجة سريعة فعالة كي تؤتي هذه النهضة أكلها طيباً وثمارها يانعة.

ولست أقصد الآن أن أشير إلا إلى ناحية واحدة من نواحي هذا النقص في نهضتنا، وهي ناحية قد استلفتت ـ ولا شك ـ أنظار علمائنا وأدبائنا والقائمين على أمر التربية والتهذيب فينا، ولكننا نظل نتجاهلها ونتناسى عواقبها الوخيمة فنحتاج بين فترة وأخرى إلى من يذكرنا بها ويدعونا إلى تدبرها ومعالجتها.

ان النقص الذي أعني هو ضآلة ثقافتنا العلمية، هو الفقر العلمي الذي يظهر جلياً في حياتنا الفكرية الحاضرة. وأعني بالعلم تلك الأبحاث المنظمة في المواضيع المتعلقة بالطبيعة وبحياة الإنسان فرداً ومجموعاً، أي ما اعتدنا أن نشير إليه بقولنا: العلوم الطبيعية، والرياضية، والاجتماعية... إلخ. فبينما ترانا ننصب على المواضيع الأدبية ونبادر إلى معالجتها وتحبير المقالات الطويلة فيها، تجدنا من جهة أخرى لا نمس الأبحاث العلمية إلا بمقدار ضئيل، ونهملها إهمالاً يدعو إلى الأسف ويبعث على القلق.

يتجلى هذا **الفقر العلمي** في مظاهر متعددة من حياتنا العقلية لا يتسع المجال لاستقصائها كلها، فاكتفي بالإشارة إلى **ثلاثة** من أهم هذه المظاهر وأكثرها دلالة على الاتجاهات البارزة في تفكيرنا الحاضر.

يتجلى بدايةً في مجلاتنا وجرائدنا التي تعنى بالأبحاث العقلية وتحاول أن تؤدي رسالة ثقافية. فهي تفتح صفحاتها الواسعة للمواضيع الأدبية، وتملأ أعمدتها الطويلة بمنتوجات قرائح الأدباء من نثر وشعر. وتثير المسائل الأدبية، فيختلف عليها الكتاب والنقدة، وينقسمون فرقاً وأحزاباً: فمنهم اتباع القديم، ومنهم أنصار الحديث، ومنهم الرمزيون، وغير الرمزيين، إلى غير ذلك من أسماء وألقاب تتزاحم أمام عينيك عند مطالعاتك أية مجلة من مجلاتنا العربية.

ولا يخفى أن كثيراً من هذه المقالات الأدبية تبحث في مواضيع جزئية قليلة الأهمية وتأتي أحياناً بآراء تافهة خفيفة الوزن والقيمة، في حين ان هناك مواضيع علمية جليلة هي اليوم من أهم أسس الثقافة الحديثة لا تجد بيننا من يعالجها أو يشير إليها. فكل علم من العلوم، طبيعياً كان أم اجتماعياً، يتمخض بنزعات جديدة ويلد كل يوم اكتشافات ونظريات خطيرة قلّ بيننا من له أدنى اطلاع عليها. وإذا لم يكن من الحق أن نطالب مجلاتنا بأن تتناول الأبحاث الاختصاصية التي تدور حول جزئيات هذه العلوم، فلا أقل من أن تعنى بالأبحاث العامة في المسائل الأساسية الهامة التي يتناولها العلم الحديث: وهو أساس مدنية هذا العصر.

وتقرأ مجلاتنا وجرائدنا فتقع عينك على أسماء قادة الأدب في الغرب وتتعرف إلى آثارهم ومنتوجاتهم وتقف على الشيء الكثير من حياتهم العامة والخاصة، ولكن قليلاً ما تلقى فيها زعيماً من زعماء العلم الذين يسيطرون اليوم على قسم عظيم من الثقافة الحديثة ويتقدمون بالعقل الإنساني خطى واسعة في استكشاف حقائق الكون أو تفهم حياة الإنسان. ويطلع علينا كتاب أدبي أو ديوان شعري فتتناوله أقلام كتابنا بالبحث والانتقاد، وينشئون عنه وعن مؤلفه المقالات الطوال، فتفسح لها المجلات أرحب مجال، ويصدر أحد الكتب العلمية ــ وما أقلها عندنا! ــ فلا يظفر منا، ان كان له قسط من الحظ، بأكثر من إشارة بسيطة أو ذكر عارض.

وقد يقال انه من العنت والجور أن نضع اللوم في هذا التقصير كله على عاتق مجلاتنا وصحفنا، فهي تصور النزعات السائدة في حياتنا الفكرية وتقدم لقرائها ما تطلبه أنفسهم من الأغذية العقلية. فإذا ما قامت مجلة ما ــ كا**لمقتطف** مثلاً ــ وعنيت بهذه الأبحاث التي نطلب، قل نسبياً عدد قرائها وانصرفوا عنها إلى غيرها من المجلات. والجواب ان للمجلات وظيفة أخرى أسمى من تصوير النزعات الفكرية والتدني لخدمتها: عليها توجيه هذه النزعات وقيادتها ورفعها إلى أعلى درجات النمو والكمال. فلا يمكننا اذن أن نبرىء صحافتنا ــ وهي الأداة الكبرى لنشر الثقافة خارج جدران المدرسة ــ من نصيبها من المسؤولية في إهمال هذه الناحية الهامة ــ الناحية العلمية ــ من الثقافة الحديثة.

ويلاحظ **فقرنا العلمي** من جهة أخرى في ما يصدر عنا من كتب ومؤلفات. فلو قمنا باحصاء دقيق للمؤلفات التي تخرجها مطابع الوطن العربي لوجدنا الكتب العلمية لا تكوّن منها إلا جزءاً ضئيلاً. فمن دواوين شعرية، إلى مذكرات، إلى أبحاث نقدية، إلى مجموعات ومقالات صحفية، إلى تواريخ أدبية: تلك هي أهم أنواع منتوجاتنا التأليفية. وبين هذا الحشد الوافر المتزاحم لا تجد المؤلفات العلمية إلا مكاناً ضيقاً تحشر فيه بعيدة عن الأنظار، فلا يعرف بها إلا الأقلون. ولعل أهم وجهات هذا النقص وأشدها خطراً تلك التي تتعلق بالمؤلفات المدرسية. وهي ناحية يظهر أثرها في سوريا ولبنان أكثر منه في البلدان العربية الأخرى. فبينما نجد بين أيدينا كتباً مدرسية جديدة في اللغة والأدب والتاريخ يرجع إليها طلابنا في هذه الدروس المختلفة، نكاد لا نعثر إلا على نزر يسير من الكتب العلمية باللغة العربية تتناول الرياضيات والطبيعة والكيمياء والحيوان وعلوم الاجتماع وتقدم هذه العلوم إلى الطلبة بلغتهم الأصلية. ولذا يجد طلبتنا أنفسهم مضطرين للرجوع إلى الكتب الأجنبية وإلى تلقن هذه العلوم بلغة غريبة، وفي هذا ما فيه من الخطر على ثقافتنا العربية ومستقبلها في هذه البلاد.

ويظهر **فقرنا العلمي** أخيراً عند محاولتنا بعث ثقافتنا العربية الماضية واستخراج تراث أسلافنا لنستمد منه في انشاء الثقافة العربية الجديدة. فنحن قد عمدنا إلى أصولنا الأدبية، وتنبهنا لوجوب نشرها نشراً صحيحاً، وعكفنا على استخراج مواردها والاستناد إليها في أبحاثنا الأدبية. ولكننا لم ننصرف، إلا قليلا، شطر المؤلفات العلمية الغزيرة التي وضعها العرب في شتى العلوم لنقف منها على مآثر أسلافنا وموضعها من تاريخ العلم والثقافة. وها ان آذاننا لا تزال ترن وأذهاننا لا تزال تعج بما سمعنا وقرأنا عن المتنبي بمناسبة ذكراه الألفية من الأبحاث والقصائد التي تملأ المجلدات الكبار، فهل أظهرنا جزءاً، ولو صغيراً، من هذا الاهتمام بأقطاب العلم العربي الذين لا يقلون عن المتنبي، ان لم يفوقوه، خدمة للثقافة العربية واعلاء للمجد العربي في حقل العلم والمدنية؟ هل بيننا من يعرف عن أمثال ابن سينا والرازي وابن النفيس والخوارزمي والبتاني وأبي الوفاء البوزجاني وجابر بن حيان وابن الهيثم والبيروني وغيرهم أكثر من أسمائهم ـ ان كنا نعرف هذه الأسماء؟ وهل لنا أدنى اطلاع على حقيقة مآثرهم العلمية التي أخذ العلماء الغربيون يتنبهون لها ويعطونها حقها في تقدم العلم والثقافة؟ ذلك هو، في ما أعتقد، من أهم مظاهر النقص في ثقافتنا العلمية، وبالتالي في نهضتنا الحديثة عامة.

* * *

ولقد يتساءل المرء عن أسباب هذا النقص في ثقافتنا وعن مصادره التي يرجع

إليها. لا شك في أنها عديدة متفرعة لا يمكن الاحاطة بها إلا بالدرس الوافر والبحث العميق، ولكننا لا نكون بعيدين جداً عن الصواب إذا أثبتنا ان أهم هذه الأسباب يعود إلى تدريبنا المدرسي. فإن أكثر عاداتنا الفكرية تتكوّن في عهد الدراسة، فنحملها معنا إلى الحياة حيث تصحبنا في مراحلنا العقلية المختلفة.

ويخيل إليّ ان التقصير المدرسي في هذه الناحية يرجع أولاً إلى أن القائمين على تدريس العلوم عندنا لم ينجحوا بعد في تحبيبها إلى أفراد الناشئة وإثارة رغباتهم في تتبعها والوقوف على أسرارها. فكلنا يعلم ما يشعر به الطالب العادي نحو الرياضيات والطبيعة وغيرهما من العلوم من الكره والبغض الناتجين عن جهل المعلم كيفية أبرازها في حقيقتها واستمالة قلوب الطلبة إليها. فإذا نجح أحد الطلبة في هذه العلوم ومال إليها، فيكون ذلك غالباً لأن غريزته الطبيعية قد تغلبت على أساليب التعليم العقيمة فأحب هذه العلوم بالرغم من طريقة أستاذه، لا بفضلها.

زد إلى ذلك أن أساتذتنا إذا نجحوا في ترغيب الطلبة في العلوم المختلفة نراهم عاجزين عن اثارة هممهم لمتابعة هذه العلوم بعد انتهاء دراستهم ولتعميمها ونشرها بين أبناء بلادهم، حتى انك لترى أقلية العلماء بين مفكرينا أقلية صامتة عاجزة عن البحث والنشر. فكأن أفرادها خزنوا علمهم لأنفسهم، أو أنهم لم يدربوا على الكتابة، فإذا دعوا إليها وجدوها أمراً صعباً جداً، إن لم يكن مستحيلاً. ولعل ما أشرت إليه سابقاً من درسهم العلوم بلغة أجنبية هو العامل الأكبر في هذا العجز.

وبينما الحال كذلك عند طلبة العلم ومدرسيهم، نرى أساتذة الأدب على العكس من ذلك يشجعون طلبتهم على الكتابة مهتمين بأسلوب القول أكثر منهم بمادته، حتى غدا هؤلاء الطلبة يشعرون أن كل من استطاع أن يكتب دون أن يرتكب أغلاطاً لغوية أو كل من مهر في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية يمكنه أن يحمل قلماً وأن يدعى أديباً. فلا يكاد يخرج الطالب «الأدبي» من مدرسته حتى يهرع إلى الصحف والمجلات يتحفها ببنات أفكاره الفجة، فتنشرها له هذه المجلات وتزيد بذلك غروره وغرور أمثاله من الذين يعتقدون ان الأدب مطية سهلة وان مجال البحث فيه متسع لمن شاء. هذا مع أن الأبحاث الأدبية هي في الحق أشد دقة ويجب أن تكون أبعد منالاً من الأبحاث العلمية، لأن المقاييس في هذه معروفة محدودة بينما انها في تلك غامضة غير ملموسة. من هنا نشأ تضخمنا الأدبي من جهة، وفقرنا العلمي من جهة أخرى.

* * *

إن هذا النقص في ثقافتنا الحاضرة ليبدو خطره واضحاً إذا ذكرنا ان العصر الحاضر هو عصر قد ساد فيه العلم سيادة تكاد تكون تامة في الحياتين العملية والعقلية. ولسنا نحتاج إلى تفصيل هذا الأمر، فإن نظرة واحدة إلى المدنية الحديثة باختراعاتها واكتشافاتها، وبمختبراتها ومؤسساتها العلمية، لتؤيد صدق ما نقول. فمن النقص الفاضح أن نكون في عصر العلم منصرفين عن العلم ومقصرين في حقه، ومن التقصير المعيب أن لا نجاري الثقافة الحديثة في مضمارها الرئيسي.

الأدب التوجيهي وحاجتنا إليـه

ليس من شك في أن الكمية الأدبية التي تخرج من مطابع الوطن العربي عظيمة جداً. فالكتب والمجلات والجرائد التي تطلع علينا في كل ساعة من ساعات النهار وتملأ جونا صخباً وضجيجاً تكاد لا تحصى عدداً. والمادة الأدبية التي تفيض منها غزيرة تطغى علينا كأنها السيل الجارف. وإذا جئنا نحلل هذه المادة وجدنا أقلها نافعاً، وأكثرها ضاراً، وأننا نقرأها للتسلية و«قتل الوقت»، أكثر منا لما ننشد فيها من غذاء عقلي أو وحي روحي.

إزاء هذا السيل الجارف، لا بد لنا من أن نفكر في قيمة هذه المادة الأدبية، وان نتساءل عما هو منها أوفى بحاجتنا في مرحلتنا العقلية الحاضرة. ولا شك في أننا سنجيب عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة متباينة: فبعضنا يؤثر الأبحاث الأدبية، وآخرون الدراسات العلمية، وغيرهم التحاليل النقدية. وفي كل من هذه الفرق نزعات متعددة وآراء متضاربة. وقد وجهت هذا السؤال إلى نفسي مراراً فخرجت من تفكيري فيه برأي أودّ عرضه على القراء بايجاز اثارة للبحث في هذا الموضوع الخطير. انني أعتقد أننا، في مرحلتنا الفكرية الحاضرة، أشد ما نكون حاجة إلى نوع من الأدب يمكننا أن ندعوه بـ «الأدب التوجيهي».

كلنا يعلم أننا نعيش اليوم في فوضى فكرية بعيدة المدى عظيمة الخطر. نتكلم بألسنة مختلفة وننشر آراء متباينة فتتصادم وتتنازع وتثير في جونا الفكري بلبلة واضطراباً ترتج لهما كل ناحية من نواحي حياتنا. فترانا نتخبط في خضمنا العقلي الهائج، نصيب الهدف حيناً ونخطئه أحياناً، فتتشعب قوانا، وتتضارب أهواؤنا، وتتشتت آراؤنا ومرامينا.

ويمكننا أن نرد هذه الفوضى الفكرية التي نتخبط فيها إلى **عوامل ثلاثة**:

أولها، ان العصر الحاضر الذي تعيش فيه الإنسانية عامة هو عصر اضطراب فكري وفوضى عقلية. فالحرب العظمى، وما صحبها ونتج منها من قوى هدامة، لم يقتصر عملها الهدمي على المؤسسات السياسية، والنظم الاقتصادية، بل تعداها إلى المبادىء والعقائد العقلية. فها نحن نرى النظريات العلمية والعقائد الدينية والنظم الفلسفية التي كان أهل القرن الماضي يستندون إليها بأمان واطمئنان، تنهار أمام أعيننا، وتحل محلها التيارات المتصادمة، والنزعات المتناحرة. فالفوضى التي نعيش فيها في الوطن العربي اليوم هي جزء من الفوضى العالمية التي تتخبط فيها الإنسانية عامة والتي لا بد لنا من أن نتأثر بها بعد أن قرب العلم المسافات وجعل من العالم كله بلداً واحداً.

أما **العامل الثاني**، فهو خاص بنا. مرجعه أننا نعيش الآن في مرحلة انتقال من القديم إلى الجديد. لقد كنا إلى عهد قريب نعيش في عالمنا الخاص، ونفكر تفكير أجدادنا أبناء القرون الوسطى، فإذا بالعلم الحديث يهاجمنا بأدواته النظرية والعملية فيدفعنا إلى الجديد دفعاً سريعاً، وإذا بنا الآن في نزاع مستمر بين قوتين: لم نتجرد بعد من كل القديم، ولم نعتنق بعد كل الجديد، إنما نقف بينهما منقسمين بعضنا على بعض، مشتتين في آرائنا ونزعاتنا.

بقي **العامل الثالث**، وهو تعدد الثقافات والأنظمة التربوية التي انتشرت في محيطنا. فليس لتربيتنا المدرسية طابع خاص، أو اتجاه معين. تلقينا العلم من معاهد مختلفة المشارب، متعددة الألوان، فأصبحنا لا يوحدنا هدف، ولا يجمعنا منهج، ولا يعمنا لسان.

ومن خصائص مرحلة الفوضى هذه، انها جعلت حياتنا الفكرية مائعة، سيالة، ليس لها اتجاه أو موقف ثابت. فالقوى المتعددة التي تنصب عليها وتعمل فيها قد صهرتها صهراً، والنزعات المتصادمة قد أذاب بعضها بعضاً فاختلطت وتمازجت. فأصبح من واجب قادة الفكر في عالمنا العربي أن يعملوا على توجيهها إلى الغايات المثلى: وذلك بأن يوضحوا أمامها الأهداف، ويخطوا في وجهها السبل ويدفعوها فيها، فتنتظم أحوالها وتقوم بعملها على الوجه الأكمل. لذلك قلت اننا اليوم أشد ما نكون حاجة إلى الأدب التوجيهي.

* * *

أعني بالأدب التوجيهي ذلك النوع من الأدب الذي يوضح أمامنا الأهداف، ويوجه قوانا الفكرية إليها، ولا يزال يعمل موضحاً وموجهاً إلى أن تصبح لنا عقائد تسود حياتنا وتجمع حولها كل ما في نفوسنا من ايمان واخلاص، وما في عقولنا من فهم وذكاء.

ففي حقل السياسة مثلاً نحتاج إلى أبحاث أساسية في معنى القومية، والأمة، والعلاقة بينهما، والعناصر التي تقوم عليها كل منهما، وكيف تكونت الأمم، وما هي السبل التي أنتجتها. كذلك علينا أن ننظر في عناصر قوميتنا وطرق بعثها وتوحيدها، وفي أهدافنا القومية ووسائل تحقيقها. كل ذلك كيما نتوصل إلى عقيدة قومية واضحة، فننظر إلى مشاكلنا القومية والسياسية نظرة صحيحة، ونعمل على تحقيق أهدافنا في آمن السبل وأنفع الطرق.

وفي ميدان الاقتصاد يجب أن نبحث في النظام الاقتصادي العالمي، والعوامل التي تتجاذبه، وموضعنا منه، والنظريات الاقتصادية الحديثة، وتصادمها، وأثر ذلك في السياسة العالمية، ثم الأسس التي تبنى عليها نهضتنا الاقتصادية ووسائل تحقيقها.

وفي الاجتماع نحتاج إلى دراسات صائبة في المؤسسات الاجتماعية ــ وأهمها العائلة ــ والقوى التي تتنازعها في الشرق والغرب، وموقفنا من القديم والجديد في العادات والتقاليد، والنظريات الاجتماعية الحديثة وإمكان تطبيقها في محيطنا.

كذلك في الأدب، نحتاج إلى أبحاث عميقة شاملة في «الأنواع» الأدبية، ووظيفة كل منها، وحظ أدبنا العربي منها، والوجهة التي يجب أن نسيّره فيها في النهضة الحاضرة كي يصبح أدباً عالمياً يؤدي رسالته الخاصة للإنسانية المفكرة.

فإذا انصرفنا إلى مثل هذه الأبحاث وما يشبهها في كل ناحية من نواحي حياتنا الفكرية، خفت البلبلة باتضاح العقائد، وقل التصادم بانتظام السبل والمناهج.

ويمتاز هذا الأدب التوجيهي **بمزايا ثلاث: أولاً** انه أدب بحث واستقراء لا يصدر عنه الكاتب إلا بعد أن يكون قد فكر في ناحية من حياتنا العقلية تفكيراً عميقاً، فحلل واستنبط ودرس العوامل المؤثرة، والنتائج المنتظرة. فإذا كتب، فإنما يكتب ليؤدي رسالة لم تأته عفواً ولم تتيسر له إلا بعد أن أجهد فكره وعقله ليحل مشكلة من المشاكل الأساسية التي تعترض أبناء أمته. **ثانياً** انه ينظر نظرة شاملة، فيحيط بالمسائل من جميع جهاتها، ويرتفع فوق الجزئيات الضئيلة والمواضيع التافهة، ويرى المشاكل الكبرى والاتجاهات الرئيسية. **ثالثاً** انه أشد ما يكون اتصالاً بحياتنا الحاضرة، فهو لا يستوحي الأزمان الغابرة أو الأجيال المقبلة فحسب، ولا يقلد أدباً قديماً أو جديداً، وإنما هو ينظر إلى حياتنا الحاضرة، فيتغلغل إلى صميمها، ويصورها تصويراً دقيقاً، ثم يرسم لها الخطط وينصب أمامها الأهداف.

وهذه الصفات الثلاث: التعمق، والشمول، والاتصال بالحياة، هي المزايا الرئيسية للأدب الذي يطمح أصحابه إلى أن يكون ذا أثر في حياة أمتهم أو في التفكير الإنساني عامة.

ولا يحسبن أحد ان هذا الأدب التوجيهي يقتصر ضرورة على الأبحاث العلمية الجافة، والمقالات ذات الأسانيد الطويلة. فلو كان الأمر كذلك لتحدد نطاقه، وقصر مداه. فإن التوجيه قد يكون بقصيدة رائعة، أو قصة جميلة ـ إذا صدرت عن تفكير عميق شامل ـ مثل ما يكون بمقال علمي أو بحث استقرائي. فالمقصود هنا ليس القالب، وإنما التعمق والشمول والاتصال الوثيق بالحياة الحاضرة.

* * *

لسنا نعيش اليوم في عصر ترف عقلي ورفاهية فكرية. في عصور الترف والرفاهية، قد يسمح للكاتب أن يقول: «لي الحق في أن أكتب ما أريد وأعبر عما في نفسي كما أشاء»، وللفنان أن ينشد: «انني أقصد الفن للفن نفسه»، وللعالم أن يصرح: «انني أهتم بهذه أو تلك من الأبحاث الجزئية الضيقة». ان عصرنا هو عصر أزمة فكرية وضيق عقلي، وكما انه لا يسمح للناس في زمن الأزمة المالية أن يبذروا أموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة وأمورهم التافهة، كذلك يجب أن لا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والأزمة الفكرية أن يبددوا قواهم في المسائل الطفيفة والأبحاث الجزئية.

فعلى كل منا عندما يهم بتحبير مقال أو إلقاء خطبة أن يتساءل بصراحة: «إلى ماذا أرمي؟ أتراني أضيف بمقالي إلى هذه الفوضى الفكرية التي يتخبط فيها عالمي وأقذف بعنصر جديد إلى العناصر التي تتطاحن في محيطي، فأزيد في بلبلة أمتي واضطرابها الفكري، أم أنني أعمل لتوجيه قوى هذه الأمة العقلية نحو فكرة صائبة أو عقيدة واضحة؟»

فإذا لم تكن غايته من هذا النوع الأخير، فخير له وللأمة أن تظل كلماته مدفونة في نفسه، وأن يبحث له عن طريقة أخرى يخدم بها أمته ولغته.

الثقافة الصحيحة وعناصرها

من مميزات الحياة العقلية المضطربة التي نتخبط فيها في الوطن العربي اليوم أننا نتكلم لغات مختلفة تختلط فيها المعاني، وتتلابس الفِكر والآراء. فترى الكلمة الواحدة تجري على ألسنتنا، أو تتردد في جرائدنا ومجلاتنا، فإذا هي تحمل المعاني المتضاربة المتناقضة، وإذا هي قد اكتسبت ألواناً من الفهم مضطربة متنافرة تجعل صعباً عليك أن ترسم في ذهنك صورة صحيحة عنها. وأنت ان حاولت أن تتيقن ما يعني محدثك بهذا التعبير أو ذاك، وأن تربطه بمعانٍ دقيقة وحدود ضيقة، ما استطعت إلى ذلك سبيلا، بل اصطدمت بطائفة من التعميمات الغامضة والآراء المترجرجة لا تروي غليل الباحث المدقق. ويعظم خطر هذا الأمر عندما يكون التعبير رائجاً تتداوله العامة والخاصة، أو تكون له صلة بجوهر حياتنا الحاضرة وبأسس الحياة الجديدة التي نعمل في بنائها.

من أهم هذه التعابير وأكثرها جرياً على الألسنة لفظة «الثقافة». فما أكثر ما نتحدث عن «الثقافة» عموماً، أو عن هذه أو تلك من الثقافات، أو عن الشباب المثقف، أو نهضتنا الثقافية الحاضرة أو المقبلة. ولكن، ما أحوجنا، قبل أن نلج هذه الأبحاث الدقيقة، إلى أن نعود إلى أنفسنا، ونقلب لفظة «الثقافة» على وجوهها، فنوضح غامضها ونبرز خفيها، حتى نتمكن من شق طريقنا إليها على هدى وبصيرة. ونحن إذا حاولنا عمل الايضاح هذا وجدنا أنه ليس سهلاً قريب المنال، فهو يتطلب منا أن ننفذ بتفكيرنا إلى جوهر الأمور، ويفرض علينا أن نبذل جهداً عقلياً وعلماً ومعرفة لا قبل لأكثرنا بها. فإذا أقدمتُ الآن على هذا الأمر، وسعيت إلى ايضاح المقصود من هذا اللفظ الذي يدور حوله كثير من تفكيرنا، فلا أفعل ذلك لأقدم نتائج نهائية، وآراء لا تقبل التغيير والتعديل، بل لأثير اهتمام الباحثين بضرورة هذا العمل الايضاحي، فيعمدوا إلى هذا وغيره من الألفاظ الأساسية في لغتنا العقلية الحديثة،

ويأخذوها بالبحث والتمحيص، حتى ينبثق من احتكاك الفكر وتصادم الآراء نور يهدينا في ما يكتنفنا من ظلمات.

* * *

ولعل خير ما نبدأ به أن نبرىء «الثقافة» من كثير من المعاني التي غشيتها ولابستها في أذهاننا دون أن يكون لهذه المعاني في الواقع صلة حقيقية بها. فإذا خلعنا أولاً عن الثقافة ما ليس منها، سهل علينا بعد ذلك أن نعرف حقيقة ما هي، ونتصل بروحها وجوهرها.

ليست الثقافة أن تجوز أحد المعاهد العليا، فتخرج منه حاملاً شهادة، معداً لمزاولة حرفة من الحرف. فليست الشهادة ـ مهما علت ـ لتدل بنفسها على ثقافة رفيعة في نفسك، وليست ممارسة الحرفة ـ مهما بلغتَ فيها من المهارة والاتقان ـ لتجعل وحدها منك رجلاً مثقفاً، بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. فلكم من طبيب يحسن تشخيص أدواء الجسم، ويجيد استخدام المبضع، وهو، مع ذلك، محدود الفكر ضيق الأفق. ولكم من محام يعرف مداخل الشرع ومخارجه، ويتقن صوغ الحجج وتفنيدها، ولكنه لا يستطيع أن يسمو إلى أجواء العقل الصافية، ويتذوق نعم الروح المحيية. ولكم من صحفي قد برع في رواية الأخبار وتحبير المقالات وهو بعد فقير النفس جدب الفؤاد. ولكم من أستاذ أو متخصص في علم أو فن، قد حصر نفسه ضمن دائرة موضوعه الضيقة، فضاع بين الجزئيات التافهة وأخطأ جوهر الأشياء وقيمتها الصحيحة.

وليست الثقافة ان تحشو دماغك بمعلومات متفرقة مستمدة من شتى المصادر، تختلط في ذهنك ويتراكم بعضها فوق بعض، فتطغى بها على الناس في كل مناسبة أو غير مناسبة. فقد تكون هذه المعلومات ـ على وفرتها ـ جزئية فرعية لا تنفذ إلى أعماق الحقيقة، ولا تمس أسس الحياة. وقد تظل متصلة بعقلك وروحك اتصالاً خارجياً لا تبلغ معه إلى صميمهما ولا تؤثر فيهما. ولعلك تبلغ ما يطمع فيه البعض فتصبح مكتبة نقالة تحوي شيئاً من كل شيء، وتبقى، مع ذلك، بعيداً عن معنى الثقافة الصحيح، ودون مستواها السامي.

ولست تصبح مثقفاً باكتسابك طلاقة في اللسان، أو ظرفاً في المجالسة، أو تفنناً في أساليب الكلام والمحادثة. فلكم لقيت في مجلس من مجالس اللهو أو الأدب شخصاً أثار اعجابك بطلاوة حديثة، واستولى عليك بحسن تعبيره، ثم اتصلت به وحككته، فإذا هذه الثقافة المزعومة قشرة خارجية تخفي وراءها جدباً وعقماً، وإذا هذا اللمعان برق خُلّب خادع لا يتصل بنور داخلي ثابت، أو اشراق روحي فياض.

لا! ليست الثقافة الحقة هذا أو ذاك أو ذلك أو سواها من المظاهر التي اعتدنا أن نطلق هذا اللقب عليها، وإنما هي شيء أعمق أصولاً وأعظم مقاماً: هي مركب فريد قد تآلفت فيه عناصر عقلية وروحية خالصة، ونسيج فاخر قد حيك من خيوط مستمدة من جوهر الفكر وصميم القلب.

* * *

تتألف الثقافة، في نظري، من **عنصرين أساسيين**: **أولهما** معرفة صحيحة يكتسبها المرء بالجهد العقلي الداخلي، ولا يحملها كمجرد رداء خارجي فحسب. وهذه المعرفة ذات **ناحيتين** هامتين، لكل منهما قيمتها الخاصة.

أما **الناحية الأولى** فهي اطلاع شامل متوازن على الفِكَر الأساسية التي تقوم عليها العلوم والفنون والآداب. فالحياة العقلية البشرية في جوهرها وحدة لا تتجزأ، ولا يمكن المرء أن يفهم جزءاً منها فهماً حقيقياً إلا ضمن الاطار الأوسع الذي يضمها جميعاً. فرجل الفن يحتاج إلى أن يطلع على مبادىء العلم الرئيسية، والأديب يجب أن يكون ملماً بالعقائد الفلسفية التي صاغتها العقول الجبارة خلال التاريخ البشري. ولعمري ان أشد خطر يجابهه الرجل المثقف هو أن يضيع بين جزئيات موضوعه الخاص، فيخطىء القيم والمقاييس الصحيحة، ويضيق بصره فلا يمتد إلى مرامي الأفق البعيد، كما أن أعظم مرض عقلي ينتاب الأمة هو أن تتجه في ناحية واحدة من التفكير والشعور، فتنمو نمواً غير متزن أو متناسب.

ونحن إذا جئنا ندرس، بصراحة واخلاص، حياتنا العقلية الحاضرة وجدنا عدم التوازن هذا بارزاً فيها بأجلى مظاهره: فالعلم عندنا ضئيل جداً، والفن يكاد يكون مفقوداً، والفلسفة لم تلد بعد، وكل جهودنا متجهة إلى الأدب، وإلى الشعر منه خاصة، كأن الثقافة تقوم على الأدب وحده أو كأن أمة تسعى إلى المجد والحياة الرفيعة تستطيع أن تجابه أحداث الدهر بالأوزان والقوافي أو تتغلب على أزماتها المحيقة بالأحكام الأدبية والآراء النقدية.

ثم إذا تبصرنا في حقيقة الواقع وجدنا هذا الميل الأدبي نفسه بعيداً عما نريده له من شمول وانسجام. فهو منقسم بين اتجاهين يتنازعانه: أحدهما إلى الأدب العربي القديم، والثاني إلى الأدب الغربي الحديث. وأين نحن من الأديب الذي فهم روح الأدبين، فانسجما في شخصيته، واستطاع أن يصحح نظرته إلى كل منهما بفهمه الآخر؟ بل أين نحن من الشاعر أو الناثر الذي شعر بضرورة تثقيف نفسه بدرس الآثار الخالدة التي أنجبتها الآداب العالمية الكبرى؟ وإلى أي حد بلغ فهم المثقفين منا

للأدب اليوناني، أو الألماني، أو الروسي، أو الهندي مثلاً؟ ثم أية محاولة جدية بذلها أدباؤنا لتغذية شعورهم الأدبي واحيائه بما ينفثون فيه من روح الفنون الأخرى كالموسيقى، والتصوير، والنحت، وسواها؟

الحق أن أفقنا الأدبي ضيق يجب أن نوسعه بالتسلق إلى القمم الروحية التي حلّق إليها جبابرة الأدب العالمي، وان ميلنا الأدبي عموماً يجب أن يعدل ويعمق ويمتن بربطه بسائر الفنون التي تسعى مثله إلى الجمال، وبتغذيته بمبادىء الفلسفة والعلم التي تؤلف عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الحديثة، بل من كل ثقافة رشيدة.

ولرب متسائل يقول: كيف يمكن الإنسان أن يطلع هذا الاطلاع الواسع على العلم، والفن، والفلسفة؟ أليست هذه المحاولة ضرباً من المستحيل، خصوصاً في هذا العصر الذي تعددت فيه العلوم، وتفرعت نواحي الثقافة؟ أليس يقودنا هذا إلى سطحية خطرة، ويمنعنا من التعمق والنفوذ إلى جوهر الأمور؟

والجواب على هذا كله ان المقصود ليس اكتساب تفاصيل هذه العلوم والفنون وجزئياتها، بل امتلاك الفكر والمبادىء الأساسية التي تقوم عليها، وان وسائل النشر والتعميم الحديثة تسهل لطالب الثقافة مهمته بما تجهزه به من مؤلفات عامة واضحة يضعها كبار العلماء والأدباء ويبسطون فيها مبادىء العلوم والفنون بأسلوب أخاذ سهل التناول. على أن الشرط الأساسي لتحقيق هذه الثقافة هو أن تكتوي نفس الإنسان بشعور الحاجة إليها، ويبذل جهده الصادق لتحصيلها، فإذا تم له ذلك وجد طريقها معبداً وسبيلها واسعاً.

وهناك عنصر له أهميته الخاصة في اكتساب هذه النظرة الشاملة التي وصفنا، أعني به الفلسفة: فإن جوهر الفلسفة أن تحقق في ماهية الأمور، وأن تنظر إلى المسائل في دوائرها الكبرى. فالفيلسوف لا يبحث في جزئيات المواضيع التي تتناولها العلوم والآداب والفنون، بل ينفذ ببصره إلى مبادئها الرئيسية فيجلوها، ويدرسها موحدة غير مجزأة. ولهذا، وجب علينا أن نوسع ونعمق ثقافتنا الفلسفية ما استطعنا، شرط أن لا تبقى هذه الثقافة مجموعة معلومات خارجية عن المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية، بل أن تتعدى ذلك فتصبح معرفة داخلية تجابه مشاكل الحياة العظمى، وروحاً تدفعنا إلى التعمق في حقيقة الأشياء، والنظر إلى علاقاتها الكبرى ومشاكلها الرئيسية.

* * *

هذه اذن هي الناحية الأولى للمعرفة التي تميز الثقافة الصحيحة: اطلاع شامل متوازن، مكتسب بالجهد العقلي الداخلي، على المبادىء الأساسية التي يقوم عليها

العلم، والفن، والفلسفة. أما **الناحية الثانية** التي تتمم الأولى، فهي العلم المتخصص المتعمق، ومؤداه أن يختار المرء لنفسه وجهاً من وجوه هذه الثقافة العامة، ويتناوله بالبحث والتحقيق، ويتقدم إلى جزئياته، حتى يشعر أنه قد امتلك ناصيته، وانه يستطيع أن يجول في ميدانه دون أن يحس بوحشة أو غرابة.

ان الاطلاع العام الذي صورناه سابقاً ينقل إلينا أحكام الغير عن هذا أو ذاك من المواضيع العلمية أو الأدبية. أما التعمق الدقيق الذي ننشده هنا فيضعنا إزاء هذه المواضيع نفسها، ولا يترك حاجزاً من غيرنا يفصل بيننا وبينها. فإذا تخصصت في علم من العلوم، وجب عليك أن تماشي تطوراته، وتتابع اكتشافاته واختراعاته، وتتصل عقلياً وروحياً بالعلماء الذين يتقدمون به إلى الأمام. وإذا كنت أديباً، لم يكفك أن تطالع كتب النقدة والمؤلفين المحدثين، بل دفعك اهتمامك إلى الأصول نفسها التي تعكس لك نفوس الأدباء وخوالج صدورهم، والتي تنقلك إلى جوهم فتعيش حياتهم، وتحس شعورهم، وتتكلم لغتهم. وإذا كانت الفلسفة نصيبك، اخترت لنفسك فريقاً من كبار المفكرين ـ أو احداً منهم ـ فعشت وإياه ليل نهار، تستمد من مؤلفاته آراءه وعقائده، وتبثه مكنونات نفسك، وعصارة فكرك، وتربط حياتك بحياته وروحك بروحه في الجهاد الأقدس الذي تفرضه الفلسفة على صاحبها: ألا وهو طلب الحق، واستكشاف سر الوجود.

* * *

هذا التعمق إلى الجذور في ناحية خاصة من نواحي الفكر، إذا ضممته إلى النظرة الشاملة لنواحي الفكر عموماً، توافر لك العنصر الأول من الثقافة الصحيحة الا وهو المعرفة المكتسبة. غير ان هذه المعرفة وحدها لا تكفي إذا لم تكن مدعومة بـ **العنصر الثاني**: وهو تلك القوى العقلية والروحية التي بها يكتسب المرء المعرفة ويجعلها قسماً من نفسه وشخصيته. ذلك ان هذا الاكتساب لا يأتي عفواً ودون بذل ومعاناة، بل بجهاد نفسي يتطلب صفات عقلية وروحية خاصة لا تتم الثقافة السليمة بدونها، بل هي أهم من المعرفة ذاتها، لأنها شرط لها: إذا لم تتولد في المرء لم يستطع أن يكتسب معرفة أو أن يسير في الطريق التي تبلغ به إلى الحياة العقلية الصحيحة.

أولى هذه الصفات هي الرغبة الملحة في طلب الحق والتعطش إليه أينما كان ومن أي منبع سال. فالإنسان السعيد في جوه العقلي، المكتفي بما بلغ إليه، القانع بنصيبه من العلم، لا يبلغ هدف الثقافة ولا يتذوق ثمارها الشهية، وإنما يتيسر له هذا إذا كانت تثور في نفسه عاطفة متأججة تدفعه أبداً إلى التقدم والاستزادة، وإلى

استكشاف الحقيقة من خلال المظاهر التي تكتنفها. ويضل من يعتقد ان الحقيقة تظهر نفسها كاملة لفرد من الأفراد. وإنما هو الجهاد في سبيلها، والتدرج في اجلائها، الذي يضيء نور النفس، ويخلع على العقل بهاءه وسموه.

وتصاحب هذه الرغبة في طلب الحق صفة أخرى: هي الشك في ظواهر الأمور، والحذر من كل ما يقال ويذاع، فإذا تعودنا أخذ كل شيء على علاته، التبس عندنا الصواب والخطأ وغطى الظاهر الباطن. ولذلك وجب أن نقلب كل أمر على وجوهه، ونشك بمظاهره الخارجية، ونحكه بمحك البحث والتدقيق، حتى يتبين لنا جوهره، ونأخذ به عن علم واعتناق داخلي، لا عن مجرد نقل وتصديق. ولقد أصاب من قال: الشك مفتاح العلم.

هذا البحث والتدقيق الذي يستوجبه الشك لا يتم دون صبر وجهد ومعاناة. ومن ظن أن الثقافة قريبة المنال، أو أن هدفها سهل البلوغ، فقد أخطأ. ان على طالب الثقافة أن يكون مستعداً لدفع ثمنها غالياً بما يبذل من عرق جبينه وعصارة عقله ونفسه، وأن يقضي السنين الطوال جاداً عاملاً، يجلس إلى مكتبه ساعات متتابعة دون انقطاع ويتوغل في مجاهل الفكر وحيداً فيحتاج إلى أكثر مما يحتاج إليه الضارب في مجاهل الأرض من شجاعة وصبر وقوة. ليست الثقافة لعبة تقتنى ولا تسلية يسرّي بها الإنسان عن نفسه، وإنما هي جهاد يسقى بدم القلب، وصراع يستمر مدى الحياة.

ويماشي هذا الجهاد تواضع يشرق من جوانب النفس، مستمد من تيقن المثقف المجاهد ان دائرة المجهول أوسع كثيراً من دائرة المعلوم، وان العقل الإنساني ضعيف إزاء أسرار الحياة ومشاكلها العظمى، وان ما يصيب المرء في حياته من حقيقة ليس سوى جزء ضئيل لا يصح معه أي تكبر أو افتخار. ويجر هذا التواضع إلى تسامح يحدونا إلى النظر إلى مآثر الغير بعين العطف والتقدير، وإلى أخطائهم بروح العذر والمشاركة. فما نحن جميعاً سوى مجتهدين: من أخطأ منا فله أجر، ومن أصاب له أجران.

وفوق هذا كله ــ بل قبل هذا كله ــ اخلاص روحي للثقافة: فليس للثقافة من غاية غير طلب الحق، والخير، والجمال. فمن دنسها بغاية مادية، أو هدف شخصي، فقد أخطأها ونزل بنفسه عن مستواها. ولكم بيننا من يقصد من علمه إلى جمع المال، أو إلى اكتساب الجاه والمقام، أو إلى ارواء شهوة التزعم والظهور! بل هل نستطيع اليوم أن نميز الثقافة الصحيحة من خلال هذه الغايات الصغرى التي اختلطت بها فأفسدتها؟

قِدماً قال الإمام الحجة الغزالي: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله». فما أحرانا اليوم أن نعتبر بهذا القول الصائب، وان نجعله دستوراً لنا في حياتنا، وسنّة في سعينا إلى الثقافة الصحيحة والعلم الخالص.

* * *

لقد تعودنا أن نقرأ الشيء الكثير عن أزمة المتعلمين في هذه البلاد وفي بعض البلدان العربية الأخرى. وما برح الآباء والبنون، والحكام والموظفون، يسمعوننا مر الشكوى من ازدياد عدد المتعلمين، ومن شدة تزاحمهم على وظائف الدولة وتهالكهم على المهن الحرة، حتى غصت بهم المدن وغدوا عبئاً على البلاد ثقيلاً بدلاً من أن يكونوا لها في أزماتها الخانقة عوناً ونصيراً. والحق ان هذه المشكلة المتفشية في حياتنا القومية تتطلب من القائمين على أمر البلاد معالجة سريعة قاطعة قبل أن يستعصي الداء ويعدم الدواء: لأنه إذا كانت هذه حالتنا ونحن في مستهل النهضة وفجر الحياة الجديدة، وبعض البلاد العربية ما زالت قابلة لامتصاص عدد كبير من الشبان المثقفين، فماذا يصبح أمرنا بعد بضع سنين إذا تابعنا السير على هذا المنوال؟

على أن الأزمة «المعاشية» في حياة المتعلمين ليست شيئاً إزاء الأزمة الحقيقية التي بها يتخبطون. فتلك خارجية مادية، وهذه داخلية روحية. ان أزمة المتعلمين الحقيقية ناشئة عن سوء فهمهم ـ بل سوء فهمنا جميعاً: أفراداً وجماعات، حكومة وشعباً ـ لحقيقة العلم، وجوهر الثقافة. فليس من هذا الذي ندعوه علماً، والذي يظهر بمظهر الشهادات والدرجات الطنانة، إلا أقل من القليل يخلو من العيب والنقص ويثبت لدى الحك والاختبار، وليس من هذه الثقافة التي نتبجح بها، والقائمة على المعلومات المتفرقة الجزئية السطحية، إلا النادر الذي يتسرب دون المظاهر الخارجية إلى صميم العقل وأعماق الروح.

فإذا كان على الحكام والسياسيين منا في الحاضر واجب عظيم خطير في تسهيل سبل المعاش لجيوش المتعلمين وحل أزمتهم المادية، فإن على القائمين على أمر التربية واجباً للمستقبل أعظم وأشد خطورة: هو حل أزمة المتعلمين الداخلية الروحية: ذلك بأن يستبدلوا بالمظاهر التعليمية ـ التي يخلعونها على الطلاب الآن خلعاً، وبالمعلومات التي يلقنونهم إياها تلقيناً ـ علماً صحيحاً، وثقافة نقية الجوهر غنية العنصر تنمي عقول الناشئة وتنعش أرواحها، فتخلق الأمة خلقاً جديداً وتبعث فيها القوة والحياة.

* * *

ان من عرف منا شخصاً تتمثل فيه الثقافة الصحيحة، ونفذ إلى أعماق روحه، قد تذوق نعمة من أعظم نعم الدنيا وأسماها. لقد خبر الأدب السامي ينزل عليه من القمم الرفيعة حيث النظرة الواسعة والأفق البعيد، ونهل العلم الصحيح يتدفق إليه من أعمق المنابع وأغزرها. ولقد تذوق معهما من جنة العقل ثمار الطلب والشك والجد، وتنشق عبيراً محيياً يعطره التواضع والتسامح والاخلاص. هذه الشخصية الممتازة التي تنبعث معرفتها من نور داخلي دائم، هذا العقل المتفتح المنتعش بقوة الروح، وهذه الروح الصافية المنماة بغذاء العقل: هذا هو مثلنا الأعلى في جهادنا لخلق الرجل والمرأة العربيين الجديدين، المشرقين بسنا الثقافة الصحيحة الكاملة.

كيف نحمي ثقافتنا؟

إن الناظر في أمر حياتنا العقلية الحاضرة ليرى أن ثقافتنا العربية معرضة لشتى أنواع الأخطار، خاضعة لقوى هدامة عديدة دائبة العمل بليغة الأثر. فمن جهود فعالة تبذلها بعض السلطات لاخماد ثقافة البلاد، إلى فقر في الموارد المالية التي تغذي بها هذه الثقافة، إلى اضطراب في الادارة المسيطرة عليها، إلى ضعف في أخلاق القائمين بها، إلى هذه الموجات الطاغية علينا من الغرب العاصفة بتراثنا الثقافي والاجتماعي – إلى غير هذه من العوامل التي لا تحتاج إلى نظر عميق لاكتشافها وتقدير أثرها.

من أجل هذا، وجب على قادة الأمة الموكل إليهم أمرها أن يتدبروا هذه القوى، ويدركوا حقيقة خطرها، ويبذلوا جهدهم لدرء هذا الخطر وحماية الأمة منه. ومن أجل هذا أيضاً، وجب على كل من يهمه أمر هذه الثقافة ويحرص على صحتها وسلامتها، أن يساهم في النظر والتفكير لايضاح السبل التي تضمن لنا حفظها وصيانتها.

وليس أمر هذا الايضاح سهلاً هيناً. فهو يتصل بنواحٍ عدة من حياتنا العقلية المرتبكة، ويلامس كثيراً من مشاكلنا المستعصية التي تزداد تعقداً يوماً بعد يوم. على أن هذا العسر الذي يلقاه الباحث في سبيله يجب ألا يقف حائلاً دونه، بل أحرِ به أن يكون دافعاً إلى ذلك، لأن المشاكل التي تواجه الأمم في طريق تقدمها ونهضتها لا تكون عادة سهلة المأخذ، يسيرة المنال. فخليق بمفكري الأمة ألا يهربوا منها إلى عالم الوهم والخيال، بل ان يجابهوها مجابهة واقعية صريحة، وخليق بأفراد الأمة جميعاً أن يفهموا جهادهم على حقيقته، وأن يعرفوا ما يعترض تحقيق أهدافهم القومية من مصاعب وعقبات.

وبديهي أنه لا يمكن في مقال واحد أن يوفى هذا الموضوع الخطير حقه، وأن

تستقصى السبل العديدة المتفرعة التي تؤدي بنا إلى حماية ثقافتنا. ولذلك سأقتصر في ما يلي على ايضاح الأسس العامة التي يصح أن يبنى عليها جهادنا الثقافي، والمبادىء الأولى التي يتحتم علينا وضعها موضع العمل إذا أردنا أن نحفظ ثقافتنا من البلبلة والضياع. ومبلغ رجائي أن يثير هذا عند قادة الرأي فينا البحث والتفكير، وان يشرق من هذا البحث قبس من النور يهدينا إلى السبيل السوي.

* * *

لقد اختلفت آراؤنا في الطرق الناجعة لمعالجة الأدواء التي تنتاب ثقافتنا العربية. فمنا من يرى ان بذور هذه الأدواء تغرس في البيت العربي، وأن علينا أن نخنقها في مهدها برفع مستوى الأم لتؤدي واجبها القومي تأدية صحيحة فترضع أبناء الأمة محبة بلادهم ولغتهم، وتزرع في نفوسهم الإباء القومي والعزة الوطنية، ومنا من يعتقد ان سبيل الخلاص هو في اصلاح برامج التعليم وتوحيدها في جميع الأقطار العربية، ومنا من يجد في اللغة أساس الثقافة المتين فيصرف عنايته لحفظها سليمة من الأذى خالصة من الشوائب، ومنا من يخاف على تراثنا الثقافي من عناصر المدنية الحديثة فينادي بالمحافظة على القديم من العلم واللغة والأدب وصونه من العبث والخسران: إلى غير ذلك من المقترحات المتفرقة التي تنطوي على كثير من الحق، والتي يجب أن تنال من علمائنا ومفكرينا أكبر قسط من الدرس والاهتمام. غير انه من الواجب علينا كذلك أن ننظر إلى المشكلة بصورة عامة، وأن نضع هذه وسواها من المقترحات في مكانها من الخطة الكبرى التي سنسير عليها في جهادنا الثقافي. هذا ما سأحاوله في الأسطر التالية، بكثير من الحيطة والحذر، ليقيني من صعوبة الموضوع، وتداخل أجزائه، وما يكتنفه من أشواك ومزالق.

وأبادر أولاً إلى القول ان هذا الجهاد الثقافي لا يحقق غايته ويصيب هدفه إلا إذا كان مرتبطاً بجهاد قومي حي شامل يتناول الحياة العربية من مختلف نواحيها ويسعى بها إلى الحرية التامة بأصدق معانيها. فإن عملنا لحفظ ثقافتنا من الضعف والانهيار يظل هزيلاً مضطرباً ما لم يتحد روحاً وقالباً بالعمل القومي الأوسع. هذا هو الشرط الأساسي والقاعدة الأولى، عنه تتفرع جميع المبادىء الأخرى، ومنه تنحدر جميع الصفات التي يجب أن تميز جهادنا الثقافي. وان لنا من الغرب في تاريخه الحديث أصدق العبر، فإن أشد الأمم الغربية حرصاً على لغتها وأدبها ومآثرها العقلية هي التي تنبهت إلى حياة قومية جديدة، وأخذت تتطلع إلى آفاق من العز والمجد بعيدة. نرى جهودها التي تبذلها في سبيل صيانة ثقافتها ورفعها مرتبطة أشد الارتباط بالجهود المنصرفة إلى النهوض بنواحي حياتها الأخرى، وان هذه الجهود كلها

يستمد بعضها من بعض قوة ونشاطاً، وتكتسب من اتحادها في النهضة القومية الكبرى معنى وحياة.

ومتى تبين لنا هذا، برزت أمامنا عدة مبادىء يصح ان نتخذها أسساً للجهاد الثقافي المثمر. **أولها** ان هذا الجهاد الثقافي لا يمكن أن ينفصل عن الجهاد السياسي لتحرير البلاد وتقوية سلطانها. ذلك ان الأداة الحكومية هي من أعظم الوسائل المنظمة الفعالة لحفظ الثقافة ورعايتها، فإذا كانت الأمة تملك الحرية التامة في عملها، تفتحت أمامها السبل للقيام بهذه المهمة. أما إذا كان الأمر على عكس ذلك، فثقافة البلاد تظل عرضة للخطر وملعباً للأهواء. ونحن نرى عند الأمم الغربية الناهضة ان الحكومة تتوسع كل يوم في بسط نفوذها على أمور التعليم والثقافة، وتسعى جهدها لتنظيمها وحصرها في يدها، وبذلك تحافظ على وحدتها وتصونها من عبث العابثين. ونرى كذلك ان الأقطار العربية التي تقدمت في معارج الاستقلال تستطيع أن تبذل في حماية الثقافة العربية واحيائها ما لا تقدر عليه الأجزاء الأخرى من الوطن العربي التي لم تتسلم بعد مقدراتها كاملة سليمة.

وان هذا الارتباط بين الجهاد الثقافي والجهاد السياسي ليشتد ويبرز في العصر الحديث خاصة. فالأمم الطامحة إلى التوسع والغلبة قد استنبطت الوسائل الفعالة للقضاء على ثقافة الشعوب المحكومة، وعرفت ان ثقافة الأمة هي عصبها المتين وحصنها الحصين، وان أضمن سبيل لاخضاعها هو تبديد لغتها، واضاعة أدبها، وقطع الصلات بينها وبين تراثها. ولا شك في أن هذه الأمم تختلف في الطرق التي تتبعها لهذه الغاية، وفي المدى الذي تبلغه، غير ان بعضها لا يتردد عن استخدام أشد الوسائل عنفاً، ولا يتورع من السير إلى أبعد مدى كي يفني ثقافة الشعب المحكوم افناء تاماً، ويمتصه امتصاصاً كاملاً.

ولذا فمن العبث أن نأمل من جهادنا الثقافي ثماراً صحيحة ناضجة إذا لم يكن مدعوماً بجهاد قومي واسع يرمي إلى تأمين سيطرة الأمة سيطرة كاملة على منظماتها التعليمية والثقافية، وإلى تقويتها وتمكين سلطتها لتقف في وجه تلك الدول الطامحة التي إذا سادت عليها هدمت بأقصر حين ما بنته جهودها الثقافية بعديد السنين. وليس يعني هذا ان الجهاد الثقافي بنفسه لا يفيد شيئاً، وأنه لا يصح أن ننصرف إليه إلا بعد أن نفرغ من جهادنا السياسي. فإن العمل لحفظ الثقافة واحيائها يستطيع دائماً أن يجد لنفسه منفذاً بالرغم مما يحيط به من حدود، كما أنه يدعم هو نفسه العمل السياسي ويغذيه، غير أنه لا يستطيع أن يبلغ غايته ويؤتي أكله شهياً، إلا إذا تخطى تلك الحدود، وعاش حراً طليقاً، خصوصاً في هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه.

والمبدأ **الثاني** للجهاد الثقافي، المستمد من مبادىء الجهاد القومي الشامل، هو أن يكون محدد الغاية، واضح الهدف. فالعمل الذي لا يتطلع إلى غاية واضحة لا يرجى له خير أو نجاح، بل تتوزع جهوده، وتتفرع قواه، وتتسرب موارده إلى هنا وهناك فلا تحدث أثراً، ولا تعطي ثمراً. فعلى الذين يقودون العمل لحفظ الثقافة العربية أن يحددوا هذه الثقافة، ويبينوا عناصرها التي تتكوّن منها، وأسسها التي تقوم عليها. من واجبهم أن يحيوا ماضيها الذي انبعثت منه، وأن يكشفوا عن حاضرها الذي تضطرب فيه، وأن يوضحوا الرسالة التي ستؤديها في المستقبل. فليس عند أبناء العرب اليوم مفهوم صحيح مشترك للمقصود من الثقافة العربية. هم يشعرون بروابط ثقافية توحدهم، ولكن هذه الروابط لم تتبين لهم بعد على حقيقتها وتمامها. وما من أمة إلا ولها عبقرية خاصة، هي وليدة العوامل المختلفة التي تتفاعل في حياتها، وهذه العبقرية تتمثل في ثقافتها التي تتميز من ثقافات الأمم الأخرى. فما هي عبقرية الأمة العربية الممثلة في ثقافتها، وما هي خصائصها، ومن أي المصادر تحدرت؟

هذه وأمثالها من الأسئلة تجابه الأمة العربية في بعثها الجديد، وتتطلب أجوبة صريحة لا مواربة فيها ولا التواء، أجوبة تنطوي على أمور ثلاثة جوهرية: **أولها**، ماضي هذه الثقافة. وهذا لا يتضح لنا إلا بعد أن نسير في إحياء تراثنا شوطاً بعيداً، ونعمل في هذا الإحياء عملاً متّزناً يتناول جميع نواحي التراث من علم وفلسفة وأدب. **وثانيها**، حاضر هذه الثقافة، وهو لا ينكشف إلا إذا لمسنا القوى التي تعصف بها وتعمل على تبديدها، وفهمنا الثقافة الغربية التي تطغى علينا فهماً صحيحاً وحددنا موقفنا منها. **وثالثها**، مستقبل هذه الثقافة، وهذا لا يتبين إلا لمن فهم تطور الأمم والمدنيات، وأوتي من بُعد النظر وصفاء الذهن ما يتطلع به إلى الآفاق البعيدة ليرسم السبيل الجديد بثقة واطمئنان. هذا كله متوجب على قادة الفكر من العرب اليوم، كي يبلغوا إلى ذلك التوضيح الذي بدونه لا يكون ثمة حفظ للثقافة واحياء، إذ ما الفائدة من العمل لحماية الثقافة العربية، إذا لم نكن ندري ما هي هذه الثقافة؟

وبعد أن تتضح الغاية ويتعين الهدف بالكشف عن جوهر الثقافة العربية، يُعمد إلى الطرق الفعالة لبثها في نفوس أبناء الأمة وصيانتها من الفساد. وهنا يبرز المبدأ **الثالث** في العمل، وهو، كالمبدأين السابقين، منبثق من روح الجهاد القومي الأكبر. هذا المبدأ الثالث هو «الشمول». فكما أن الجهاد القومي الصحيح يرتكز على عموم أفراد الشعب، ويصدر من صميم حياتهم جميعاً، ولا ينحصر في طبقة دون طبقة، أو في فرد دون جماعة، كذلك الجهاد الثقافي لا يتم إلا إذا امتزج بروح كل فرد من أفراد الأمة، وكيّف أعماله وتصرفاته، بل حياته بكاملها. فهو في الأم تربي طفلها وتنشيء نفسه على حب لغته وثقافته، وهو في المعلم يحيي أدب الأمة وتراثها الخالد

في نفوس طلبته، وهو في الأديب يستمد من حياة الأمة رسالتها ويرسم أمامها مثلها العليا، وهو في الموظف يجند قوى الدولة للدفاع عن حياتها الروحية والعقلية، وهو في الفلاح والتاجر، في العامل والطبيب، في الكبير والصغير، في الغني والفقير، في كل نفس حية من نفوس الأمة، وكل نفَس من أنفاسها.

هذا الشمول في الجهاد هو ما يجب أن تسعى إليه الأمة العربية لإحياء ثقافتها وحفظها من الأهواء. وطبيعي أن أفراد الأمة لا يهبون هذه الهبة الموحدة الشاملة للدفاع عن ثقافتهم، إلا إذا كانوا يفهمونها حق الفهم، ويتصلون بها اتصال الروح بالروح. ولذلك وجب، قبل أن تجمع نفوس الأمة على حماية الثقافة العربية، أن تشيع هذه الثقافة في تلك النفوس جميعاً وتنصهر في بوتقتها وتعمر كل ناحية من نواحيها. بل ان هذا الوعي الصحيح الشامل للثقافة هو نفسه أفضل وسيلة لحمايتها والذود عنها. إذ انها متى اختلطت بنا أصبح الدفاع عنها دفاعاً عن نفوسنا، وذباً عما هو أعز من حياتنا. أما إذا ظل فهمها مقصوراً على فئة قليلة مترفعة، ولم يتسرب إلى جمهرة الشعب ولم يسرِ في عروقهم، فمن الصعب حفظها، ومن العبث العمل لتأمين سلامتها.

على أن هذا الشمول لا يتم، ولا يؤتي أكله، ما لم تتضافر جهود أبناء الأمة وتنتظم. فالجهود المتفرقة ــ مهما غزرت ــ لا تقوم بالأعمال العظيمة. بل قد يعاكس بعضها بعضاً ويؤخر واحدها مسير الآخر. ولذلك وجب على المختصين بكل ناحية من نواحي هذه الثقافة أن يلموا شعثهم، ويوحدوا عملهم، ويرفعوا لواءِ جهادهم متماسكين متصافين. وقد بدت طلائع هذا التنظيم في ما نشاهده حولنا من جمعيات علمية ومجامع أدبية، ومن نقابات وحلقات وروابط، ولكن هذه الطلائع لا تزال ضئيلة العدد مضطربة السير، ولا يزال بيننا وبين قلب الحركة التنظيمية مدى واسع وشوط بعيد.

من أجل ذلك أشرت إشارة خاصة إلى قسط الحكومة الوافر في العمل الثقافي. فالحكومة أعظم قوة لتنظيم هذا العمل وربط أجزائه وتوحيد القائمين به. فهي بفضل ما تملك من مال ورجال، ومن سلطة ونفوذ، تستطيع أن تسيطر على منظمات التعليم وعلى سواها من مجاري العلم والأدب كالصحافة، والاذاعة اللاسلكية، والجمعيات الثقافية، فتنفخ فيها روحاً واحدة وتضاعف جهودها وإنتاجها. ولست أقصد بذلك أن أنتقص قيمة العمل الشعبي الحر، وأن أضع العبء كله على عاتق الحكومة، فهذا مما يخمد روح العمل ويقطع الصلات الحية التي تربطه بقلوب الشعب. وإنما أريد أن ألفت النظر إلى المجال الواسع الذي ينفسح أمام الحكومة من هذه الناحية، والذي نرى حكومات الغرب اليوم تسعى إلى التسابق إليه والتوغل فيه كي تؤمن التنظيم المطلوب لإحياء الثقافة القومية وحفظها. وإذا كانت الأمم الغربية قد وجدت حاجة

إلى مثل هذه الفعالية الحكومية، فإن الحاجة عندنا أشد وأعظم، لكثرة العناصر الغريبة التي تتلاعب بثقافتنا، والقوى المختلفة التي تتقاسمها. فإذا لم تردع هذه القوى وتضبط تلك العناصر بتنظيم قوي شامل، اختلت ثقافتنا وعصفت بها أيدي الزمان.

هذا التنظيم المتين الواسع ـ هذا التنظيم الذي بدأنا نشعر بضرورته ونقدر أهميته في شتى مناحي حياتنا ـ هو الأساس **الرابع** الذي يجب أن يقوم عليه بناؤنا الثقافي الجديد.

بقي **أمر أخير**: هو أن العمل لحفظ الثقافة وصيانتها لا يستحق أن يدعى جهاداً إلا إذا كان كل فرد من القائمين به يشعر أنه إنما يؤدي رسالة في الحياة، هي عنده مقام الحياة نفسها أو أرفع، وأنه ليس مأجوراً للقيام بعمل معين، بل جندياً من جنود الأمة مضحياً بكل شيء في سبيل نهضتها وعزتها. وقد دلت اختبارات الأمم السالفة أن الجند المأجور لا يحمي وطناً، ولا يقي شعباً من الهلاك، وان أمل الأمة الوحيد هو في الجنود الذين يحاربون عن عقيدة وايمان لمثل عليا في الحياة. وما من أمة في المستقبل يمكنها أن تفوز في ميدان القوميات المتطاحنة إلا إذا كانت كلها ـ برجالها ونسائها، بكبارها وصغارها ـ جيشاً مجنداً يعمل كل فرد منه في ناحية من نواحي الحياة القومية، ويبذل نفسه بصدق وعزيمة واخلاص.

بين هؤلاء الجنود، يتميز فريق خاص له في الجهاد الثقافي النصيب الأوفر والقسط الأوفى. هو فريق القائمين بأمر الثقافة بشتى مظاهرها: المعلمون في المدارس، والأدباء والعلماء والفلاسفة، والمسيطرون على المنظمات الثقافية الحكومية. هؤلاء هم قادة هذا الجهاد، ورافعو لوائه، ومديرو دفته. هؤلاء هم الذين يجب أن يمثلوا بشخصيتهم، وأعمالهم، وحياتهم، الاخلاص والاندفاع في سبيل المثل العليا، والعمل الجاد ليل نهار لتحقيقها. واني لأخشى أن هؤلاء القادة عندنا لم يتوصلوا بعد إلى تأدية هذه الرسالة الرفيعة تأدية صحيحة. ألا تراهم يقومون بعملهم بشكل «ميكانيكي»، فلا ينفخون فيه روحاً ولا يكسونه معنى وحياة؟ أليسوا منقسمين على أنفسهم تتوازعهم الأطماع الشخصية والمنافسات المحلية؟ ألست تجد كلا منهم يسعى وراء المادة الدنيئة أو الجاه الفارغ، وينحط أحياناً إلى أسفل دركات الحسد والبغضاء، بدلاً من أن يرتفع إلى مراتب النقاء والإخلاص ونكران الذات؟

هذا، فيما أعتقد، هو أضعف نقطة في جهادنا. فإذا لم يشعر معلمونا وأدباؤنا ومسيّرو أمور المعارف عندنا، انهم ليسوا موظفين يتقاضون رواتب، ويتنازعون على مراكز، بل حملة رسالة، وأصحاب دعوة قد بذلوا لها حياتهم، وباعوا من أجلها نفوسهم ـ إذا لم يتم لنا هذا، ظل عملنا الثقافي عملاً آلياً مضطرباً، وتدنّى عن المقصود الرفيع من الجهاد تدنياً عظيماً.

تلك هي الأسس الخمسة التي يجب أن نقيم عليها جهادنا الثقافي: الاستقلال في ادارة شؤوننا الثقافية، ووضوح الغاية، وشمول الوعي والعمل، واحكام التنظيم، والاخلاص في تأدية الرسالة. وهي كلها مرتبطة أوثق الارتباط بالجهاد القومي الأوسع ومستمدة منه. فهل لقادة الرأي والعمل بيننا أن يرفعوا علم هذا الجهاد الثقافي عالياً وينظموا العناصر المشتركة فيه؟ ان القوى المتطاحنة في العصر الحديث لا ترحم أمة أهملت روحها وتركت ثقافتها في يد الدهر عرضة للعواصف والأهواء. فعسى أن نتنبه للأخطار المحدقة بنا ونسعى لدرئها، قبل أن تطغى علينا هذه القوى وتبيدنا في نزاعها وتطاحنها، ونحن غافلون.

أزمة الروح

تجتاح البلاد العربية اليوم أزمات عنيفة تضيق عليها الخناق، وتخمد حياتها أو تكاد. فأنّى التفتَّ ضيق وارتباك، وأعباء ثقيلة، وعقبات صعاب. هنا الأزمة السياسية التي استعصى أمرها، والتي لا تكاد تحل منها ناحية حتى تتعقد نواح، ولا تتقدم نحو الانفراج خطوة إلا لتعود إلى الاختباط خطى ومراحل. وهناك الأزمة الاقتصادية التي يرتسم طيفها أمام كل عين، ويثور القلق منها في كل قلب، ويتبادر حديثها إلى كل شفة ولسان. وهنالك الأزمة الاجتماعية الناتجة عن العراك بين القديم والجديد في العادات والتقاليد والأخلاق، والأزمة الفكرية المتكوّنة من تصادم شتى الآراء والفكر والعقائد والنظريات.

على أن وراء هذه الأزمات كلها أزمة أخرى هي، في نظري، أعظم منها كلها خطراً وأعمق جذوراً: هي الأزمة الروحية. هي أزمة النفس، لا أزمة الجسد والمادة. هي معضلة القلوب، لا معضلة الجيوب. هي تراخي الهمة وخوَر العزم. هي غلبة اليأس على الأمل، وطغيان التشاؤم على التفاؤل. هي الحقد الذي يشتت الصفوف، والحسد الذي يفرق بين القلوب. هي فقدان الثقة وضعف الايمان، وايثار المصلحة الخاصة على النفع العام، وزوال معنى الاخلاص، والتضحية، وانكار الذات.

أجل! ان أساس ضعفنا ومصدر علتنا هو هذه الأزمة الروحية الخانقة التي نتخبط فيها. وجميع الأزمات الأخرى ـ على ثقل وطأتها واستعصاء مشاكلها ـ ما كانت لتزعزع أسس حياتنا وتقضي على استقرارنا وعلى منابت القوة والأمل فينا، لولا الأزمة الروحية التي أخمدت قوى نفوسنا، وركمت أدران المادة على منابع الفيض الروحي في شخصيتنا الفردية والاجتماعية فطمرتها.

دوننا الأزمة الاقتصادية مثلاً. ليس لأحد أن ينكر تعقدها أو يستهين بشأنها،

فخطرها عظيم وعبئها ثقيل. ولكن ما أخف تأثيرها في النفس المؤمنة المجاهدة التي تهزأ بالمادة في سبيل تحقيق أهدافها، وتكتفي بما يقوم بأودها ـ وما أقله لمثل هذه النفس! ـ لتحصر جهودها في خدمة مبدأ سام أو مثل أعلى. وان نظرة واحدة على سِير الرجال الذين كان لهم شأن في تقدم أمتهم أو خدمة الإنسانية لكافية لتظهر أن المصاعب المادية لم تكن لتقف حجر عثرة في طريقهم، بل انهم ثبتوا عليها وغلبوها بفضل قوى العزم والتضحية والايمان وسواها من القوى الروحية التي كانت تطفح بها نفوسهم، والتي فقدناها نحن العرب اليوم، فنشأ عن فقدنا إياها هذه الأزمة الروحية العميقة التي نعانيها.

* * *

على أن بين هذه الأزمة الروحية، والأزمة الاقتصادية المتأثرة بها، وجوهاً من الشبه عديدة يحسن بنا أن نلاحظها كي يتيسر لنا فهم أسباب أزمتنا الروحية ونتائجها.

فكما أن المعضلة الاقتصادية التي نشكو منها في هذه البلاد هي جزء من المعضلة الاقتصادية العالمية التي تتخبط بها بلاد الأرض أجمع، كذلك ليست أزمتنا الروحية إلا قسماً من الأزمة العامة التي خيمت فوق كل قطر، وانتشرت بين كل فئة من الناس في هذا العصر. هي تيار قوي يجتاحنا من مختلف الجهات، ويجرف كل ما كنا نتمسك به من عقائد وتقاليد، ومن مذاهب ومبادىء. هي عاصفة هوجاء تهب على ما وصل إلينا من تراث ماضينا فتقتلعه من جذوره، وتفصم العرى التي تربطنا بأجدادنا، فتذهب بما تحدر إلينا منهم من عزة واباء وحلم وكرم، ومن رغبة في الحق وزهد عن الباطل، ومن ثروة عقلية وأدبية وروحية هي جوهر ما أنتجته الأمة العربية وما قدمته للثقافة والمدنية.

وكما أنه لا يمكننا في عالمنا الصغير أن نؤثر في مجرى الأزمة الاقتصادية العالمية، ونحوله عنا، كذلك ليس باستطاعتنا أن نصد قوى الأزمة الروحية التي تجتاحنا من كل صوب وناحية. على أنه بوسعنا أن نقوي كياننا الاقتصادي الخاص بحيث نصبح أقدر على مجابهة المشاكل الاقتصادية العالمية، فتخف وطأتها علينا ويقل تأثيرها في حياتنا. بوسعنا أن نهتم بزراعتنا، ونعنى بصناعتنا، ونحافظ على تجارتنا، فنقوي مناعتنا الداخلية حتى نصمد تجاه العوامل الجبارة التي تهاجمنا من الغرب. لكنك ترانا، بدلاً من هذا، نهمل منابع ثروتنا ومصادر غنانا، فنزداد ضعفاً على ضعف، ونضيف إلى الأزمة العامة مشكلتنا الاقتصادية الموضعية الخاصة. وشبيه بذلك أمر حياتنا الروحية. فعوضاً من أن نستغل ثروتنا الروحية ونقوي كياننا النفسي لنجابه العوامل الهدامة التي تحيط بنا من كل جهة، تجدنا نبدد مواردنا الروحية

تبديداً، فتتلاشى مناعتنا الداخلية ونخر صرعى أمام حوادث الدهر وصروف الزمان.

فأسباب أزمتنا الروحية هي اذن، كأسباب الأزمة الاقتصادية، على نوعين: منها ما هو عام وشامل للعالم أجمع وليس لنا عليه أدنى قدرة أو تأثير، ومنها ما هو خاص بنا ومتوقف علينا. وهذا النوع الثاني، الممكن اصلاحه وتلافيه، هو الذي يجب أن نهتم به، وهو الذي يدور عليه حديثنا الآن.

* * *

فما هي تلك العوامل الخاصة التي ما زالت تزيد أزمتنا الروحية استفحالاً حتى جرّتنا إلى ما نحن عليه من فقر روحي وانحطاط نفسي؟ هنا أيضاً نلاحظ أوجه الشبه بين أزمة الروح وأزمة المادة.

لو سألنا أحد رجال الاقتصاد عن الأسباب الموضعية للأزمة المالية في سوريا مثلاً لبدأ بالقول ان بلادنا هذه ضيقة الحدود محصورة الجوانب والأطراف، قد أحيطت بالحواجز والسدود الاصطناعية، فضيقت مجال العمل وقيدت قوى الإنتاج. فالصلات الاقتصادية الصحيحة بيننا وبين بقية البلاد العربية قد انقطعت، أو كادت. ومهما جد أفرادنا وجماعاتنا تظل جهودهم محصورة ضمن نطاق صغير لا تتعداه، فلا تغني أنفسهم والبلاد إلا قليلا.

وإذا كان محيطنا الاقتصادي ضيقاً محدوداً، فما أضيق محيطنا الروحي! أترانا نتريث أحياناً في تيار حياتنا اليومية الجارف لنتساءل عن ضيق عالمنا الروحي أو اتساعه؟ يقيناً ان عالم أكثرنا لا يتعدى في أغلب الأحوال حدود أنفسهم الضيقة. نحن نهتم بغاياتنا الشخصية وأهوائنا الخاصة، كأن العالم بأسره خلق لنا ويجب أن يسيَّر من أجلنا. نحلم بغنى نقتنيه أو جاه نكسبه أو عز نناله. وان اتسعت بعد ذلك دائرة اهتمامنا فلكي تشمل أسرتنا وما ورثت من نسب وما تحتل من مقام، أو بلدتنا وما تثور بها من مشاحنات وانقسامات، ومن مناورات وعصبيات. وقد يتعدى اهتمامنا هذه وتلك إلى الوطن بأسره، فنتحدث عن أحواله ومشاكله، وماضيه وحاضره ومستقبله، لكن نظرتنا تظل ضيقة وعالمنا يبقى محصوراً. ذلك أن أحدنا لا يستطيع في كل ما يقول ويفعل أن يتجرد عن غاياته الخاصة، بل يظل أبداً متطلعاً إلى الوظيفة التي سيعتليها أو الجاه الذي سيحرزه أو الفوز الذي ستصيبه جماعته. أما النظرة الواسعة التي تتناول القضايا من وجهتها العامة، اما الهدف البعيد الذي لا يقف عند الغايات الصغرى والروابط الشخصية، فقلما نرى لهما أثراً في محيطنا الروحي الحاضر. فعالمنا الروحي اذن ضيق بمعنيين: أولهما اننا قليلاً ما نهتم بما هو بعيد عن أنفسنا، والثاني انه حتى عندما تتسع دائرة اهتمامنا تظل قوانا الروحية ضيقة محدودة لأننا نبذل هذا الاهتمام

من خلال أهوائنا الخاصة وغاياتنا الصغرى.

حقاً ان قيمة الإنسان وثقافته وسعادته كلها تتوقف على اتساع عالمه الروحي. والرجل الأمثل هو الذي يشمل عالمه الكون بأسره والبشر بكاملهم. لا بل هو الذي يشق حجب الأرض والسماء فينفذ ببصره إلى ما وراء الكون، وينطلق على أجنحة الخيال فيمتد نظره على جميع عوالم الطبيعة والإنسان. هو الذي لا يكفيه الحاضر بمشاكله ومشاغله، وإنما يتبنى الماضي بميراثه وآلامه والمستقبل بآماله وأحلامه. فهو بحق ابن العالم بأسره والزمان بكامله.

على أن الأحوال التي تمر بها البلاد العربية خاصة وبلاد العالم عامة تدعونا إلى أن نوجه جميع جهودنا واهتمامنا إلى وطننا العربي الذي يحتاج اليوم إلى كل ما في قلوبنا من ايمان، وفي نفوسنا من جد وإخلاص، وفي عقولنا من علم وذكاء، لينهض ويحتل مكانه بين الأمم. فلنوسع عالمنا الروحي حتى يضم هذا الوطن ضماً صحيحاً، ويتحد به اتحاداً لا تشوبه غاية فردية أو يضعفه هدف شخصي.

* * *

ويحدثنا رجال المال وأرباب الأعمال ان من الأسباب الخاصة لأزمتنا الاقتصادية فقر بلادنا وقلة مواردها. وهذا القول صحيح، لكن إلى حد. والأجدر أن نقول ان في بلادنا موارد كثيرة لم نحسن بعد استغلالها، وان أزمتنا الاقتصادية ناشئة عن اهمالنا هذه الموارد لا عن عدم وجودها. وما يصدق عن الأزمة الاقتصادية يصدق إلى حد أبعد عن الأزمة الروحية. ففي قلب كل منا ينابيع روحية قد شحت مياهها لما تراكم فوقها من الأقذار والأوساخ، وموارد نفسية قد طغت عليها أدران المادة فلم يعد يتسرب منها إلى حياتنا الخارجية الا قطرات ضئيلة لا تغني ولا تفيد. ولو أنا عنينا بأمر هذه المنابع الروحية العناية الصحيحة لفاضت على نفوسنا بالطمأنينة والاستقرار، ولذهبت بما نعانيه من شدة واضطراب. ولكم تعتريني الدهشة ويستولي عليّ العجب عندما اقرأ في صحفنا ومجلاتنا، أو أسمع من منابر محافلنا، ان هناك فرقاً كبيراً ــ بل هوة ساحقة ــ بين الشرق والغرب، لأن الأول روحي والثاني مادي. فهل يصح هذا فينا نحن العرب الشرقيين اليوم؟ هل نحن منصرفون حقاً إلى الأمور الروحية في الحياة؟ لا! وإنما الحق أن نقول ان مدنيات العصور القديمة التي زهت في الشرق أدت رسالة روحية، وان مدنية العصر الحديث التي ازدهرت في الغرب لا تزال في شكلها الطاغي مادية. ولكن هذه المدنية الحديثة أخذت تجتاح الشرق أيضاً، فلم تبقِ لروحيته أثراً يذكر، وطما سيل المادة عليه فغمر جميع نواحي الحياة فيه. انظر في أية ناحية من حياتنا شئت ترَ انها متشربة بالمادة متعلقة بأدرانها، وما كانت المادة يوماً من

الأيام أساساً للحياة الصحيحة أو غذاء للغبطة النفسية. زواجنا زواج مادي: نصبو في زواجنا إلى البيوت المزينة والألبسة المزركشة والحجارة الكريمة، لا إلى القلوب المفعمة بالحب والتضحية والنفوس الطافحة بالصدق والاخلاص. علمنا علم مادي: ننشد من وراء علمنا المال الوافر والتجارة الرابحة والوظيفة العالية، لا الثقافة التي تنعش العقول والخدمة القومية التي ترتاح إليها القلوب. ديننا دين مادي: نعبد القوة العليا في الكون بالأبنية الجبارة والمذابح الفخمة والمباخر المذهبة، لا بعواطف الفؤاد الملتهبة وخشوع النفس المهيب. سرورنا سرور مادي: نسعى إليه بالأجسام، لا بالقلوب والأرواح. جمالنا جمال مادي: ننشده في الجسد البض والقامة الهيفاء، لا بالنفس السامية والقلب النبيل. فهل من عجب بعد هذا إذا طمت أدران المادة على ينابيع نفوسنا، فمنعت عنا ما يفيض منها من قوة وأمان، وسعادة وصفاء؟ وهل من عجب إذا استعصت أزمتنا الروحية بعد أن ضعفت مناعتنا وتراخت نفوسنا؟

* * *

ويقال ان من الأسباب الموضعية لأزمتنا الاقتصادية اضطراب الأحوال وعدم الاستقرار وتعدد الأحزاب وكثرة الانقسامات والمنازعات. والحق، ان هذه البلاد قد مضى عليها زمن وهي كل يوم في حال:

كريشة في مهب الريح طائرة ... لاتستقر على حال من القلق

وقد أثر هذا الاضطراب في حياتها الاقتصادية، وكان من أكبر العوامل في استعصاء الأزمة المالية القابضة عليها. وما أصدق ذلك عن أزمتنا الروحية أيضاً! ما أشد اضطراب حياتنا الروحية وأعظم ارتباكها! انها منقسمة القوى، مشتتة النزعات. مثلنا كمثل مركب في بحر هائج قد ضل سبيله وتحطمت دفته: تتقاذفه الأمواج وتتلاعب به الرياح، فيندفع ساعة إلى هنا وساعة إلى هناك، إلى أن تأتي الموجة العظمى التي تقلبه رأساً على عقب وتمزقه تمزيقاً! وهكذا نحن في بحر هذه الحياة تتجاذبنا ميول مختلفة وغايات متضاربة فنقضي قسطنا من العيش نندفع حيناً وراء هذا وحيناً وراء تلك إلى أن تهب العاصفة الكبرى التي تجتثنا من جذورنا. وكما أنه لا أمل للمركب بالنجاة إلا بالدفة التي تعين له وجهة مسيره، كذلك نحن لا أمل لنا بالفوز في هذه الحياة إلا إذا كانت لنا غاية سامية نسعى وراءها، ومثل عليا نلقي عليها مرساتنا، وهدف أعظم منا نسخّر كل ما في نفسنا من قوى في سبيل تحقيقه ونشر لوائه بين الناس.

هذا الارتباط الوثيق بمثل أعلى، هذه القوة التي تؤلف مدارك النفس ومشاعرها، وتوجهها جميعاً إلى غاية واحدة، وتصهر كل ما ينبعث فيها من أهواء

ورغبات في بوتقة الرغبة الوحيدة الكاملة التي لا تتبدل ولا تتزعزع، هذه هي: «العقيدة». أرأيت رجلاً يزدري ميوله الشخصية وأهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق؟ أسمعت برجل يضحي بماله وراحته ـ بل بحياته ـ لنشر لواء الحرية والعدل؟ أأدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة أمته؟ هذا، وذاك، وذلك، هم رجال «العقيدة». هم قوَمة الله على أرضه، وأوصياؤه على شعبه. هم قبس من النور العلوي يشع على الناس لينير الظلمات التي تكتنفهم ويهديهم سواء السبيل.

صاحب العقيدة هو العالم الذي يقضي حياته منزوياً في مختبره يصارع جراثيم الأمراض أو يستكشف أسرار الطبيعة لا يبتغي من وراء ذلك أجراً ولا شكوراً. هو الوطني الذي يقف نفسه على خدمة أبناء قومه فيقدم ماله وقواه الجسدية والعقلية قرباناً على مذبحهم. هو المصلح الاجتماعي الذي يهوله ما يرزح اخوانه في البشرية تحت أعبائه من ظلم وعسف، ومن جهل وفقر، فيرمي بأهدافه الصغرى جانباً ويسعى بكل ما أوتيه من قوة لمحاربة هذه الأمراض الاجتماعية التي هي أشد فتكاً بالإنسانية من الأوبئة الطبيعية. هو المتصوف العابد الذي ينزه نفسه عن الغايات الشخصية والرغبات المادية، ويفني شخصيته الصغرى ليبقى في شخصية الكون الكبرى. هو النبي الذي ترتفع عنده العقيدة إلى أعلى مستواها وتبلغ أعظم قوتها فتستولي على عقله وقلبه ونفسه وتدفعها جميعاً إلى هدف واحد: هو خير الإنسانية وسعادتها.

ولا يخيل إلى أحد ان العقيدة هزة عاطفية تحرك شعور الإنسان آناً من الزمن ثم لا تلبث ثورتها أن تهدأ ونارها ان تخمد. لا! ان العاطفة التي لا ترتكز على أساس الفكر المتين والتي تتلاشى أمام رياح الدهر العاصفة ليست من العقيدة في شيء. وإنما العقيدة فكرة تتسرب إلى النفس عن طريق العقل، ولا يتوصل إليها الإنسان إلا بعد التحليل والتمحيص والدرس والاختبار فلا يفتأ يقلبها ويتدبرها حتى يعتقد بها اعتقاداً داخلياً حياً، وحينذاك يغذيها بعاطفته ويقويها بإيمانه، فيكون لها صلابة الفكر المتين واندفاع العاطفة المتدفقة. وهذا التوفيق الأمثل بين العقل والنفس، بين الفكر والعاطفة، هو الذي يمد العقيدة بقوتها ويجعل لها ذلك الأثر البليغ في حياة الأفراد والشعوب.

وصاحب العقيدة لا يخشى المصاعب ولا يهاب الأعداء. فهو يستمد من مثله الأعلى قوة لا تفتر وحياة لا تنضب. هو الذي إذا تكلم، تكلم كمن له سلطان. هو الذي يقول لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولايكون شيء غير ممكن لديه. هو الذي إذا تضافرت عليه المصاعب، وتألب على مخاصمته الناس، وقام الذين لم يفهموا رسالته يغرونه بالتنازل عن مبدأه والانصراف إلى ما ينصرف إليه بقية القوم

من أغراض هذه الحياة، صد اليأس عن أن يتسرب إلى نفسه، واستمد من مصاعبه ذاتها قوة على قوة، وسار إلى رسالته يؤديها دون نكول أو تردد. هو الذي نال الحرية العظمى، الحرية الحقيقية، الحرية التي لا تعرف قيداً ولا رباطاً، لأنه تحرر من جميع القيود الشخصية والروابط المادية ليكون عبداً لما هو أعظم من نفسه الصغيرة وأوسع من شخصيته الضيقة. أجل! ان الحرية الحقيقية لا تكون إلا بهذا المعنى من العبودية. فبقدر ما يكون المرء عبداً لما هو أعظم منه، يصبح حراً في نفسه، وبقدر ما يفني شخصيته في ما هو أوسع منها، يبقى البقاء الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة ولا يعتريه وهن. وصاحب العقيدة هو الذي يتقبل هذا النوع من العبودية لينال الحرية الحقة، والذي يفنى هذا الضرب من الفناء ليبقى البقاء الصحيح.

هذه هي العقيدة: تلك القوة التي تعوزنا في هذا الدور من حياتنا القومية، والتي بدونها لا يمكننا ان نجابه ما يحيط بنا من أزمة روحية. نظرة واحدة إلى أية ناحية من نواحي حياتنا القومية: سياسية أم اقتصادية، اجتماعية أم عقلية، تظهرنا جميعاً رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، مقيدين بغاياتنا الضيقة، مرتبطين بأهوائنا الفردية، متكالبين على المادة، متنازعين على نعم الحياة الصغرى. فلا عجب اذن إذا صارت أحوالنا من سيىء إلى أسوأ، بل لا عجب إذا ضعفت شخصيات قادتنا وزعمائنا وانحطت عن المستوى الذي يجب أن تتخلق فيه. ولا عجب إذا انتشر الاستياء، وعم اليأس، وضاق ذرع الناس بالحياة، فلو كان لنا مال الأرض وعلم السماء ولم تكن لنا عقيدة صحيحة، فلن ننال الحرية، ولن نتذوق الكرامة. وقديماً قيل في الكتب: «ان كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن»، واليوم ينظر كل منا في نفسه، وفي ما حوله، فلا يجد مفراً من القول: «ان كان لي كل ما في هذه الحياة من نعم ولم تكن لي عقيدة استثمر هذه النعم في سبيلها، فحياتي فارغة من المعنى خالية من الجوهر، ولن أستطيع أن أحظى باستقرار لنفسي أو أن أكون نافعاً لأمتي وبلادي».

* * *

ما أكثر ما سمعنا ونسمع ان المادة هي أساس الحياة، وان الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث أو نوع من الهراء. وما أكثر من ستعلو شفاههم ابتسامة الشك والهزء عند قراءتهم هذا الفصل ومتابعتهم حديث «الأزمة الروحية»، لاعتقادهم ان معضلة أمتهم الكبرى هي المشكلة السياسية أو الأزمة الاقتصادية. فمن الواجب ان أعيد هنا ما ذكرته قبلا من أنني من أقل الناس احتقاراً لهاتين المشكلتين وسواهما من مشاكلنا العامة، ومن أشدهم إحساساً بها وتقديراً لها. ولكني أريد أن أمكن في نفسي

وفي نفس كل عربي تهمه نهضة أمته وحياتها، ان جميع هذه الأزمات ما كانت لتبلغ ما بلغته من شدة وتفاقم لولا ما هوينا إليه من ضعف روحي وتضعضع نفسي، وان على العاملين الصادقين في الميدان القومي ان لا يقصروا جهودهم على معالجة هذه الأزمات، بل ان ينصرفوا، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، إلى احياء العقول، وتقوية النفوس، وتنقية الأرواح والقلوب. عليهم أن يوسعوا أفقنا الروحي حتى يشمل وطننا بكامله فهماً وعملاً، وأن يستغلوا ما في نفوسنا من قوى روحية تستطيع ـ إذا أحسن استثمارها ـ أن تحرك الجبال، وأن يدربوا فتيان الأمة وفتياتها على أن يتوجهوا بأنظارهم إلى عمل أعظم من أنفسهم يقومون به ويقفون كل ما لديهم عليه، وبكلمة أخرى، على أن يكونوا بحق: خدمة فكرة، وأصحاب «عقيدة».

كان ثيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة يبتهل إلى الله قائلاً: «اللهم انني لا أسألك حملاً خفيفاً، ولكنني أسألك ظهراً قوياً». ونحن العرب، الذين أحاطت بنا المشاكل وأرهقتنا الأعباء، لا نطلب تخفيفها أو أزالتها ـ لأن التخفيف والإزالة الحقيقيين لا يكونان بقوة خارجية ـ بل نطلب ظهوراً قوية تستطيع احتمالها، ونفوساً متينة وأرواحاً جبارة تستطيع بذاتها أن تتغلب عليها وتسودها سيادة تامة:

والحق للعزم، والأرواح ان قويت سادت وان ضعفت حلت بها الغِيَر.

الجهاد الأكبر

كان النبي العربي الكريم يقول عند الرجوع من الحرب: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس». قولٌ يفيض حكمة وعبرة، ويصدق على كل أمة تجاهد جهاداً صحيحاً، وترمي إلى الغايات المثلى في الحياة. وما أصدقه على الأمة العربية خاصة، في هذا الدور الخطير من تاريخها، وهي تهب من رقاد طويل عميق وتنزع إلى أهداف بعيدة ونوع من الحياة جديد. نراها تتحفز للنهوض، وتجاهد في شتى الميادين، ناشدة الحرية والاستقلال والوحدة، عاملة على أن تؤمن لنفسها حياة عزيزة مصونة، باذلة في سبيل ذلك ما ادخرته على ممر العصور من قوى مادية وروحية لم يتكشف بعد منها إلا القليل. هذا الجهاد السياسي الخارجي، وما يماشيه من جهاد مادي اقتصادي، يقوى ويتسع يوماً بعد يوم، ويحمل الناظر إليه والمتتبع سيره على الايمان به والتطلع بثقة واطمئنان إلى نجاحه المضمون. غير انه ـ بالرغم من خطورته، ومن ضرورته القصوى لحياتنا الحاضرة والمقبلة ـ لا يتم إلا إذا رافقه جهاد آخر أشد وأعمق: جهاد داخلي نفسي. فما هو إلا كتلك الحرب التي ذكرها النبي العربي، جهاد أصغر إذا قورن بجهاد النفس: الجهاد الأكبر!

أجل! ان أمام النفس العربية نضالاً داخلياً يفوق نضالها الخارجي عظمة وخطورة. ذلك ان غايته أبعد من غاية النضال الخارجي وأوسع. فهو يرمي إلى تحرير النفس العربية تحريراً تاماً والنهوض بها إلى مستواها الأرفع وكيانها الأمثل. وما الجهاد السياسي إلا وسيلة لتلك الغاية البعيدة: فإذا ما عمل على فك القيود الخارجية التي تكبل الأمة، فما ذلك إلا ليفسح أمامها المجال للتحرر والنمو والتقدم المستمر في الرقي الحقيقي. ويخطيء من يظن أن هذا النضال الخارجي غاية في نفسه، أو أنه يضمن وحده سعادة الأمة وحريتها الكاملة. فلكم من أمة قد تحررت من قيودها الخارجية ولا تزال ترسف في قيود نفسية أشد منها وأوثق، ولا يزال أمامها ميدان واسع

للجهاد الداخلي قبل أن تحرر نفسها تحريراً تاماً وتحقق غايتها الكبرى.

ولنلاحظ فوق ذلك ان هذا الجهاد النفسي الداخلي، مع كونه أبعد غاية وأوسع مدى من النضال السياسي الخارجي، هو، بالوقت نفسه، عامل جوهري فيه وشرط أساسي لضمان نجاحه. ذلك أن كفاح الأمة في الميدان السياسي لا يكتمل إلا بقدر ما تكون قد جنت من ثمار الجهاد النفسي، وما كسبت من الصفات التي يخلقها هذا الجهاد في روح الأمة وشخصيتها. وبكلمة أخرى: اننا لا ننال ما نصبو إليه من حرية واستقلال ـ ولا نتمتع بهما ان نلناهما ـ إلا بمقدار ما تكون قد نمت في نفوسنا قوى العزم، والتضحية، والايمان، وسواها من الصفات الروحية: وكلها لا تحصل للنفس إلا بجهد دائم، ونضال مستمر.

* * *

وبعد، فما هذا الجهاد الداخلي، وإلى أي غاية يرمي؟

الجهاد الداخلي تفاعل مستمر واعٍ بين قوى النفس المختلفة، بتأثير عوامل المحيط الخارجي، تتجلى فيه هذه القوى وتنمو، وترتفع النفس إلى المستوى الذي تحقق فيه كيانها الأسمى. فهو عمل لا ينقطع مدى الحياة، وغايته القصوى قلما تبلغها نفس من النفوس البشرية. على أنه بقدر ما تتقدم النفس من هذه الغاية، وتتصف بالصفات التي تتكون في هذا التقدم، يقاس الرقي الحقيقي، وتقدّر قيمة الشخصية الإنسانية. ومع أن هذه الغاية بعيدة المنال، والصفات التي تخلق عندها قليلاً ما تبرز على وجهها الأكمل، فإنه لزام علينا أن نصور هذه الصفات ونعيّن تلك الغاية، كي يتضح لنا على ضوئها جوهر هذا الجهاد الداخلي وحقيقته.

أولى الصفات التي تميز النفس المجاهدة هي «النظام». فالنفس التي اقتطفت ثمار جهادها هي تلك التي تنظمت قواها المختلفة وتناسقت عناصرها المتعددة، دون تباين أو تنافر أو اضطراب. نظرة واحدة ينفذ بها كل منا إلى داخل نفسه كافية لتظهر ما فيها من فوضى واضطراب، وتنازع وارتباك. فهي أشبه بالفناء وقد انتثرت عليه الحجارة المتنوعة، منها بالبناء المنسجم الذي ينم عن شخصية مؤتلفة وكيان موحد. وما هذا الشلل الذي يصيب أكثر أعمالنا الخاصة والعامة، وما هذا الاستياء، بل الشقاء، الذي يتصاعد دوماً من نفوسنا، سوى نتيجة للتنازع الداخلي المهلك بين قوانا النفسية المتنافرة المتباعدة.

يتجلى هذا النظام النفسي أولاً في التفكير. وكلنا يعلم ما للتفكير المنظم من مقام في حياة الإنسان، ورقي الأمم. ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا ان أصح مقياس لرقي أمة من الأمم هو تقدم هذا التفكير المنظم فيها وشيوعه بين أبنائها. هذا التفكير المتماسك الذي يتمشى بانتظام من المقدمات إلى النتائج، والذي يبغي الحق

والحق وحده ـ هذا الاتساق العقلي الذي يسير على هدى وبصيرة بين مجاهل الفكر فيقتحمها دون خوف ولا وجل ـ هو العامل الأقوى في شق الطريق أمام البشرية، وفي تسليطها على قوى الطبيعة وعناصر الكون. وان من يدرس المدنية الحديثة بإمعان، وينفذ إلى أعماقها، ليجد انها، بجميع مظاهرها المادية والأدبية، قائمة على هذا الأساس الفكري والقاعدة العقلية. فما أحوجنا نحن اليوم، إذا أردنا أن نبني حياتنا على الأسس الصحيحة، إلى اكتساب هذا النوع من التفكير بحيث يصبح قسماً منا ويصدر عن صميم كياننا. وما أحوج هذه النهضة القومية التي تتدفق من نفوسنا وتزخر بها حياتنا إلى أن تتخذ من العلم أساساً، ومن التفكير المنظم دعامة وسنداً، فتجمع إلى العاطفة المتوثبة الفكر الرشيد، وتتغذى من العقل والشعور معاً. وانه لمما يؤلمنا ويحز في نفوسنا، ونحن نرقب حياتنا الثقافية والقومية، ان نرى اننا لا نزال بعيدين كل البعد عن هذه الغاية، وأننا لم نسر في طريق الانتظام إلا خطى قصيرة، ولم نمتلك منه سوى عناصره الأولى. راجع ما يلقى على منابرنا من خطب، وما يحبر في جرائدنا ومجلاتنا من مقالات، ترَ انها تكاد تكون خلواً من هذا الطابع العلمي، وانها ملأى بالتعميمات المطلقة التي يصعب ضبطها، وبالنتائج المرتبكة التي لم تستوف مقدماتها، وأنها لذلك لا تصلح أساساً لرأي صحيح أو عمل مثير. بل ترانا أسرع ما نكون هرباً من التفكير العلمي المنتظم، وذلك لأنه يتطلب جهداً عقلياً لم نتعود بذله: فكل فكر فيه يحتاج إلى ضبط، وكل خطرة تتطلب فحصاً ومراجعة وربطاً وثيقاً بما قبلها وما بعدها، وكل رأي يجب أن يقلب على شتى وجوهه، ويحك بمحك الاستنباط المنطقي من ناحية، والاختبار العملي من ناحية أخرى. وهذا جميعه يستنزف جهداً عقلياً شديداً لا تقوى عليه إلا العقول المدربة والنفوس الجلدة. يضاف إلى ذلك اننا نخشى، إذا سرنا في هذا الأسلوب العلمي إلى نهايته، ان يكشف عما في نفوسنا من جهل وارتباك وظلام. فالنتائج تتطلب مقدمات قد لا نعرفها، والظواهر قد يكون لها بواطن خفيت عنا، والمطلقات قد تقيدها شروط نجهلها: فلنكتف اذن بترديد ما يخطر دون تدقيق أو تمحيص، ولنختبىء وراء عباراته المرنة وكلامه المبهم. وهكذا نجد أنفسنا، هرباً مما يتطلب الأسلوب العلمي المنظم منا من جهد عقلي وخوفاً مما قد يكشف عنه من جهلنا، نبتعد عنه ما استطعنا، ابتعاداً خفياً باطناً، لأنه قل بيننا من شعر بعد بهذا الأسلوب شعوراً واعياً، وفهم شروطه ومتطلباته وطرق تطبيقه في حياتنا الحاضرة.

ومما يؤسف له ان مدارسنا ومعاهدنا قلما تعنى بتنمية قوى فتياننا وفتياتنا على هذا الأسلوب العلمي في التفكير، بل تكتفي بأن تلقي عليهم معلومات متنافرة الألوان مختلفة المصادر، وتحشو أدمغتهم بها حشواً. وكلنا يعلم ان هذه المعلومات

الخارجية لا تمس جوهر العقل، ولا تكيف قوى النفس، وقد تهب عليها أعاصير الدهر وصروف الزمان فتبددها تبديداً. أما ذلك الأسلوب الفكري الذي صورناه فيختلف عن المعلومات الخارجية المتفرقة في أنه لا يلقى من الخارج، بل يجب أن ينمو من الداخل بنتيجة جهاد شديد متواصل قد يستمر سنين طوالاً. ولا يقدر شدة هذا الجهاد وما يتطلب من أناة وجلد إلا من خبره وعاناه وسلك طريقه الشاق الطويل. فليس اذن من قبيل المجاز، بل انه من جوهر الحقيقة، ان نقول: ان الأسلوب المنظم في التفكير لا يتأتى إلا بنضال داخلي، وانه من الصفات التي تكتسبها اكتساباً فردياً النفس المكافحة المجاهدة.

ويتبع النظامَ في التفكير النظامُ في العمل. وهنا أيضاً نرى هذه الصفة شرطاً أساسياً لنجاح أي عمل، خاصاً كان أم عاماً. فلينظر كل منا في عمله، وليدرس مقدار ما يسوده من دقة وانتظام! أليس يجد الاستهتار والاهمال والفوضى بارزة في أكثر نواحيه؟ أليس اننا تعودنا أن لا ننتظر من أي من نعامله، سيداً كان أم مسوداً، صاحب حرفة اختصاصية أم مهنة بسيطة، عملاً منتظماً في شكله وموعده؟ ما أقل قيمة الوقت عندنا! إذا لم يتم العمل المطلوب منا اليوم، فلا بأس في أن يكون غداً، وإذا كان موعدنا الساعة، فلا ضير علينا أن نأتي بعد ساعة! وقد يطلب منا عمل بشكل ما، فنجعله بشكل آخر حسب ما يتفق أو يوحى إلينا. علة تظهر في أخص أمورنا: في حياتنا الشخصية، ومشاكلنا العائلية، وتتجلى بصورة واضحة في وظائفنا ومختلف مهننا. وقد يظن البعض منا أن مثل هذه الصفات الفردية قليلة الخطر لا تستحق كل هذا الاهتمام والنظر، لكن الواقع ان هذه الأمور الصغيرة في ظاهرها كبيرة في باطنها ومغزاها، وان استقلالنا الحقيقي لا يتم إلا عندما يصبح عمل أحقر عامل من عمالنا، وأصغر موظف من موظفينا منتظماً مضبوطاً. فإن تحقيق الغايات الكبرى لا يكون إلا في نهاية السير، وبعد بلوغ أول الأهداف وأدناها. ولا يعتقدنّ أحد ان هذا الانتظام هبة تنزل علينا من علٍ. إنما هو صفة نفسية لا تكتسب إلا بالجهاد الداخلي الذي يبدأ في أول العمر ويستمر مدى الحياة.

وليس عدم الانتظام هذا مقتصراً على أعمالنا الخاصة، بل يتعداه بشكل ظاهر إلى مشاريعنا العامة. فالذي ينظر في حالة مؤسساتنا، وجمعياتنا، وأحزابنا، يلاحظ هذه الظاهرة بادية في جميعها، ويجد أن الرابطة التي يجب أن توحد الأفراد المشتركين في عمل من الأعمال مفقودة منها. فهم كالآلة التي يتحرك كل قسم من أقسامها حركته الخاصة دون ارتباط يحكمها ويوحدها. ولذا ترانا نفور فورات صاخبة متفرقة، فنجتمع بعضاً إلى بعض ونعمل معاً مدة من الزمن، ثم لا تلبث عوامل التفكك والتراخي أن توهن رابطتنا وتفرق شملنا. حالة لم تبق خافية على أحد منا: نردد ذكرها

ونطيل في وصفها في مجالسنا الخاصة ومحافلنا العامة، ونهتف بأعلى صوتنا ناشدين النظام والتنظيم، حتى أصبحت هاتان الكلمتان من أسرع الكلمات إلى شفاهنا، وأكثرها ترديداً على ألسنتنا. ولكن الذي يخفى علينا في أكثر الأحيان هو ما أحاول اظهاره في كل كلمة من كلمات هذا الفصل من أن النظام ليس لباساً نرتديه، أو مظهراً خارجياً نلقيه على أفرادنا وجماعاتنا، بل هو ميزة نفسية داخلية لا تأتي إلا بالمران الطويل والجهاد النفسي المستديم. أرأيتم إلى هذه الأمم المنظمة في الغرب، وهي تنطق بلسان واحد، وتسير في صف واحد، وتخضع بجسدها وعقلها وروحها لفكرة واحدة؟ الحق انها ما كانت لتلتحم هذا الالتحام لولا أنها تدربت، طوال أجيال متتابعة، على التعاون والانتظام، فاختلطا بدمها وروحها، وجاهد أفرادها جهاداً عنيفاً حتى استطاعوا أن يخضعوا أهواءهم الخاصة ومنازعهم الشخصية لرغبة الجماعة التي ينتظمون في سلكها. ولو أننا انتزعنا لأنفسنا من هذه الأمم الغربية أعظم قادتها اقتداراً وأكثرهم معرفة ونفاذاً، لما استطاعوا أن يخلقوا منا كتلة متراصة، ما دمنا لم نظفر، كل منا في داخله، بتلك الثمرة المباركة للجهاد النفسي المتواصل.

وقد يخطر للبعض منا ان هذا النظام يجر إلى قتل حرية الفرد، واضاعة مواهبه الشخصية. والجواب ان الأمر ان كان قد أصبح معضلة في الغرب، فهو لا يزال في الشرق العربي بعيداً عن ذلك، وأن عيبنا ليس في الزيادة والافراط، بل في التفريط والنقصان. ناهيك بأن النظام الذي ننشد ليس القوة التي تخنق الحياة، بل هو سر القوة والجمال في الحياة. نظرة واحدة إلى مظاهر الطبيعة أو صور الإنسان، ألسنا نرى النظام والتناسق مصدر كل عظمة وجمال فيها؟ أليست عظمة الطبيعة في انتظام عوالمها، من اجرامها الكبرى إلى ذراتها الصغرى، انتظاماً محكماً بديعاً؟ أليس جمال الموسيقى في تناسق الألحان، وجوهر العلم في ترابط الأفكار، وصحة الجسم في تماسك الأعضاء؟ فلنعتبر هذا كله، ولنجتهد في أن ننمي في نفوسنا ذلك الانتظام المحكم الحي الذي هو أساس العظمة، والصحة، والجمال.

* * *

وهكذا تكون هذه الصفة الأولى من صفات النفس المجاهدة مرتبطة بصفة ثانية هي، كتلك، ثمرة من ثمار التفاعل النفسي والجهاد الداخلي. هذه الصفة الثانية هي: «الحرية». وهنا أيضاً لست أعني الحرية الخارجية التي تبذل من فوق، بل تلك التي تنمو من الداخل، لا الحرية التي تفسح للمرء مجال الفكر والعمل بتحطيم اغلاله السياسية والاجتماعية فحسب، بل تلك التي توحي إليه ماهية فكره وعمله بتفكيك قيوده العقلية والروحية، لا الحرية التي تشق للناس سبل الوصول إلى ما

يشتهون، بل تلك التي تعلمهم ماذا يشتهون، ذلك ان قيود النفس الداخلية ـ كما قلنا ـ لا تقلّ عن القيود الخارجية شدة وخطراً، ولا تتم الحرية الحقيقية الكاملة إلا بتفكيكها.

في مقدمة هذه القيود الداخلية: الجهل. فالمرء يظل عبداً لما حوله ما دام يجهله، فإذا عرفه وفهم أسبابه ونتائجه تحرر منه. وها ان تاريخ المدنية يظهر لنا بوضوح ان الإنسان بقي عبداً للطبيعة أجيالاً طوالاً، إلى أن أخذ يكتشف أسرارها فانقادت له وأصبح لها سيداً ومسيراً. ولا يزال الإنسان إلى اليوم في مناطق عديدة من العالم عبداً للأمراض وما سواها من قوى محيطه لأنه يجهل نشوءها وأحوالها. فكل خطوة جديدة يخطوها العلم تحطم قيداً من قيود الإنسان وتحرره منه. فالمعرفة، اذن، وجه من وجوه الحرية، بل هي الحرية الحقيقية نفسها، لأن الجهل هو أقوى قيد يوثق النفس، ومنه تنشأ جميع القيود الأخرى. وتتضح لنا صفة المعرفة هذه إذا ذكرنا أننا لا نقصد بها تلك المعلومات الخارجية المتفرقة التي نطلي بها أشخاصنا، بل نعني هيئة روحية تحصل للنفس من استمرار البحث، واستخراج المجهول من المعلوم، واشراق نور الحقيقة على الإنسان. لذلك نرى في العالِم الحقيقي أفضل مثال للحرية الصحيحة، الحرية الخالصة من الأوهام والخرافات، ومن الأهواء الشخصية والنزعات الطائشة، الحرية البريئة من الخوف والجبن ومن الطمع والأنانية، الحرية التي لا يقيدها إلا شيء واحد، تتعلق به فتضحي بكل ما سواه في سبيله. ذلك هو الحق الذي عنه قيل في الكتب: «تعرفون الحق، والحق يحرركم». غير أن المعرفة التي تخلق هذا النوع من الحرية غاية بعيدة المنال، محرمة إلا على أولئك الذين يدفعون ثمنها غالياً بالجهاد النفسي الذي لا ينقطع، والعمل الذي لا يمل ولا ينخذل.

ويصحب الجهلَ ـ وبالأحرى ينشأ عنه ـ قيد آخر، هو: «التعصب»، ذلك الذي يربطنا بفئة خاصة أو طائفة معينة، ويفصل بيننا وبين الجماعات الأخرى بحواجز من البغض والكره، والحسد والضغينة. وهو سبب هذه العصبيات المتنافرة والحزبيات المتناحرة التي تمزق جسم أمتنا العربية. فلقد ننال حريتنا السياسية، ولكنها تبقى واهية الأساس، معرضة للزوال والانهيار، إذا لم تكن مدعومة بالتحرر الباطني من العواطف الهدامة الممزقة التي يبعثها التعصب في النفوس. ومن الخطأ أن نعتقد ان هذه العصبيات تزول بالوسائل الخارجية: كالقوانين التي تسنها الدولة، أو الخطب والمقالات الصارخة التي نرسلها بين آن وآخر. إنما هي اغلال باطنية لا تحطم إلا بالتحرر الذي يسبغه على النفس جهادها الداخلي. ونحن اليوم أسرع ما نكون في حياتنا الخاصة والعامة إلى انكار التعصب وذم الحزبيات العائلية والطائفية والسياسية،

وإلى الدعوة إلى التسامح والأخوة والتضامن بين أبناء الوطن الواحد، ولكن إذا خلا كل منا إلى نفسه، وجد أن صياحه هذا يخرج من لسانه ـ وما خرج من اللسان، على ما قال القدماء، لا يتعدى الآذان ـ وانه لا تزال في زوايا قلبه أغشية كثيفة من التعصب، وحجب قاتمة من الحزبية، تفسد عليه تفكيره وتزيف عمله. فإذا أردنا أن نزيل تلك الأغشية ونرفع هذه الحجب، وجب علينا أن نحاسب أنفسنا محاسبة دقيقة، وأن يقف واحدنا لنفسه بالمرصاد، فيتفحص كل خطرة تمر في ذهنه، وكل كلمة تصدر من لسانه، حتى إذا وجد فيها بقية من أدران التعصب وأعلاق التحزب، نفضها عنها، وعاد إلى عاطفته يصهرها بالإرادة القوية، والوجدان الملتهب، إلى أن تخلص وتنقى وتفيض طهراً وصفاء. ذلكم هو الجهاد!

ومن أثقل القيود الداخلية وأشدها وطأة قيد «المادة». وليس ثمة ضرورة لأن أطيل في وصفه أو أن أعرضه بتفصيل. فكل ناحية من حياتنا تئن من ضغط هذا القيد الثقيل. وكثيراً ما نتساءل عن الافلاس الخلقي الذي منينا به، والانحطاط الأدبي الذي هوينا إليه، فنجد ان العامل الأكبر فيهما هو التكالب على المادة، والسعي إلى كسب المال بأية طريقة كانت، حتى ان واحدنا لا يتردد عن اراقة ماء وجهه، وبذل شرفه وتضحية خلقه، في سبيل وظيفة تخلع عليه، أو فتات من المادة يرمي به أولو الأمر إليه. ولست أنكر ان العوامل الاقتصادية التي تتلاعب بنا، والتي أضاعت ثروتنا وأفقرتنا، ذات أثر فعال في خلق هذه الحال، ولكنني أصر على أن سعينا إلى المادة لا يقتصر على ارضاء الحاجة ومداواة الفقر، بل تعدى ذلك حتى أصبح رغبة في المادة من أجل المادة نفسها، وأخل بجميع مقاييسنا، رافعاً لذة الكسب المادي والشهوة الجسدية فوق كل القيم الأدبية والروحية. من هنا نشأ الضعف في النفوس، والوهن في القلوب، لأن المقيد بنير المادة يظل عبداً لها، لا يقوى على التضحية بها في سبيل مثل أعلى. أما الذي تحررت نفسه منها، فقد اكتسب قوة هائلة لتذليل المصاعب والتغلب على الأحداث. وفي ما نرى بيننا، وما نسمع عنه في الغرب، أمثلة كثيرة حية لضعف المقيد بالمادة وقوة المتحرر منها، ملأى بالعظة والعبرة لقوم يعقلون.

ويتصل بقيد «المادة» قيد آخر يشبهه، هو: «الأنانية». هو شهوة التزعم، وحب التسلط. هو الرغبة في الذكر البعيد والشهرة الواسعة، والسعي إلى المراكز المقدمة والأعمال الظاهرة. ومن درس تاريخ الأمم، وتابع تقدمها في ميدان الرقي القومي، يعلم أن في هذا الميدان متسعاً للأعمال الصامتة والجهد الهادىء، بل ان هذه الأعمال هي في الغالب أبعد أثراً وأنفع للأمة من المظاهر الصاخبة. كذلك يظهر لكل مدقق أن أصحاب المراكز الوضيعة هم الذين يضعون أساس البناء القومي. غير أن الأنانية تدفع

المرء إلى الاهتمام بأعلى البناء قبل أساسه، لأن الأول ظاهر جلي والثاني كامن خفي، وتقض مضجع الواحد منا إذا شعر أن أحداً من اخوانه أو أبناء وطنه سبقه إلى مركز، أو تقدمه في مقام. وبديهي اننا لا نطلب من أنفسنا فوق ما يقدر عليه الإنسان، ولا نبغي أن نجرد أشخاصنا من هذه النزعة الفردية التي كان لها نصيب وافر في تقدم المدنية والعمران، وإنما نريد أن نرتفع إلى المستوى الذي لا يصح أن تبقى دونه نفوس شعب ناهض للحياة، ونطمح إلى تنقية هذه النزعة الفردية من شوائب الحسد والطمع والكبرياء، لتقوم بنصيبها في بناء الأمة وانهاض البلاد. على أن هذه التنقية عملية شاقة لا يقوى عليها إلا من قدّر صعوبتها وأدرك شروطها، وكان مستعداً للقيام بما تفرضه عليه من معاناة ومجاهدة، ومحاسبة للنفس دقيقة.

هذه القيود المختلفة: قيود الجهل، والتعصب، والمادة، والأنانية، وسواها مما يرتبط بها أو يتفرع عنها، توثق النفس الإنسانية وتضيق عليها مجال النمو والتقدم، فتنكمش النفس وتهن، ويقل نصيبها من العمل الصحيح والإنتاج المثمر، بالرغم مما تحدثه أحياناً من حركة وما يصدر عنها من جلبة وضوضاء. فإذا أرادت النفس أن تبلغ غايتها وتحقق كيانها، تحتم عليها تحطيم هذه القيود بالجهاد الداخلي المستمر، واكتسابُ الصفة الثانية من صفات النفس المجاهدة، الا وهي: «الحرية».

* * *

بقيت صفة ثالثة وأخيرة يترتب علينا عرضها لترتسم أمامنا صورة صادقة لهذه النفس التي نصبو إليها. بيد أنه من الصعب جداً علينا أن نحصر معاني هذه الصفة في كلمة واحدة. ولعل أقرب ما يوحي إلينا فكرة عنها أن ندعوها: «الشعور بالمسؤولية». وهي، على صلتها بالناحية الأخيرة من صفة الحرية التي فصلناها في ما سبق ــ أي التحرر من الأنانية ــ تختلف عنها في أنها ايجابية، بينما أن تلك سلبية، وفي أنها لا تقتصر على التخلص من شعور الفردية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى الشعور بتبعة تجاه الجماعة، والعمل بوحي هذا الشعور. وان في هذا الشعور الايجابي، والعمل الذي يتولد عنه ما يبرر تمييزنا لهذه الصفة من غيرها، خاصة لأمة كالأمة العربية طغت عليها روح الفردية ففككتها، وفي عصر كهذا العصر لم يبق فيه ثمة أمل لفرد أو أمة بالحياة والفلاح إلا بالتعاضد والتضامن والشعور المشترك.

مبعث هذه الصفة النفسية أن يشعر المرء شعوراً قوياً متواصلاً بالروابط التي تربطه بسواه من الناس، وبالواجب الملقى عليه تجاههم، فيعرف مقامه في عائلته، ومهنته، وبلدته، وأمته، وواجباته نحو كل منها. ولو أتيح لنا أن نشاهد شخصاً قد تفتحت فيه هذه الصفة وآتت ثمارها، لوجدنا هذا الشعور مالئاً عليه حياته، متسلطاً على تفكيره وعمله، منبثقاً منه في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره، يشغله عن الحاجات

الصغرى والمسائل الفردية، ويخرج به عن دائرة نفسه الضيقة وميدان شخصه المحدود.

ويتجسم هذا الشعور في جميع ما يصدر عن صاحب هذه الصفة من فكر، أو قول، أو عمل. فإذا فكر في أمر أخذ له عدته بإزالة كل عصبية فكرية مانعة وبإثارة النفس لطلب الحق وحده، ثم تقدم فيه على الطريق العلمي الصحيح، رابطاً النتائج بالمقدمات، والعلل بالمعلولات، ومقلباً المسائل على كل وجه، ومتهيباً كل رأي يتكون عنده أو حكم: كل ذلك اعتقاداً منه أن أفكاره تتصل اتصالاً متيناً بسواه من الناس، وأنها قد تكون ذات أثر في حياتهم، فخليق به اذن أن يتدبرها ويهيىء لها أسبابها، لا أن يطلق لقواه العقلية العنان لتذهب به حيث تشاء.

وكذلك تكون حاله في ما يصدر عنه من قول. فهو لا يعبّر إلا عما تكون قد أقرته نفسه الشاعرة بتبعتها من فكر صحيح وحكم سليم، ويجهد في صوغ هذه الأفكار والأحكام بالصيغة التي يفهمها أفراد مجتمعه وتكون أبلغ تأثيراً فيهم، لا بالأسلوب الذي يروق له، أو الذي يقصد منه الدلالة على سعة علمه وغزارة أدبه. وما كنت لأعلق أهمية خاصة على هذا الشعور بالمسؤولية الذي يجب أن يسود تفكيرنا وتعبيرنا، لولا هذا الفيضان من المواد المكتوبة الذي يطغى علينا من صحفنا ومنشوراتنا على أنواعها. فلو أن كتابنا شعروا هذا الشعور، وأدركوا خطر الواجب المترتب عليهم، لأحجموا عن أكثر ما ينشئون مما ليس فيه كبير فائدة أو غَناء. وتزداد خطورة هذا الأمر في نفوسنا إذا ذكرنا أننا لسنا نعيش، كغيرنا من الأمم، في سعة عقلية فيتاح لأي منا أن يقول ما يريد كما يريد، بل في أزمة فكرية خانقة نحتاج فيها إلى كل فكر صحيح ورأي ناضج. ولذا كان من العيب، بل من الجرم، أن نبذر قوانا العقلية كما تملي به علينا أهواؤنا، بدلاً من أن ندخرها ونهذبها وننميها لنصرفها في أمسّ ما تتطلبه حياتنا القومية من حاجات هذا الدور العصيب.

وثالث مظاهر هذا الشعور بالمسؤولية بعد الفكر، والقول، هو: العمل. ففي حياتنا القومية حاجات لا تعد، ومجال للعمل لا يحد، ونحن بعد في الخطوات الأولى، وأمامنا طريق طويل وشوط بعيد. على كواهلنا أعباء يجب أن ترفع، وحولنا فقر ومرض وجهل حَرِيّة بأن تدفع. في البيوت والمدارس، في التجارة والصناعة والزراعة، في ميدان الإدارة والحكم، وفي عالم الثقافة والفكر: بل في كل ناحية من نواحي حياتنا ما يدعو إلى المعالجة والاصلاح، وإلى بذل كل جهد، من كل فرد من أفراد الأمة، لنلحق بمن سبقنا ونبلغ بعض غايتنا. في مثل هذه الحال لا حياة للأمة ولا فلاح إلا إذا ساد هذا الشعور أفرادها وجماعاتها، فخرجوا إلى ميادين العمل المختلفة، يجاهدون بهمة لا تعرف الملل، ونشاط لا يداخله فتور أو كلل. ومن يراقب حياة الأمم المتحضرة، يرَ ان عدداً غير قليل من أبنائها لا يكتفي بدائرة حياته الخاصة، بل

يعمل في عائلته، ومهنته، وجمعيته، وحزبه، مدفوعاً بشعور التبعة الملقاة عليه، جاداً في محاربة الجهل، والظلم، والمرض، والفقر، وكل نوع من أنواع الخلل والفساد في مجتمعه. ولا نعدو الحق إذا قلنا ان رقي الأمة وتقدمها يتوقفان على مقدار قوة هذا الشعور عند أفرادها وشيوعه بينهم، وتمثله في ما يصدر عنهم من قول، وفكر، وعمل. ومن هنا تظهر أهمية هذه الصفة الثالثة من صفات النفس المجاهدة: ألا وهي شعورها بالمسؤولية، وعملها بروح هذا الشعور.

هذه هي أبرز الصفات التي تتحلى بها النفس المجاهدة: «النظام»، و«الحرية»، و«الشعور بالمسؤولية». وهناك غيرها صفات أخرى تظهر عندما تسلك النفس هذا السبيل القويم. غير أنها كلها، على ما يبدو لي، فروع ومظاهر لهذه الصفات الثلاث الرئيسية. ولست، بإشارتي إليها في كلمتي هذه، بمبتكر شيئاً جديداً. فقد يكون في كثير مما ذكرت ترديد لما ذكره الكتاب والمفكرون في شتى المناسبات. غير ان الذي أريد أن أؤكده وأمكنه في نفسي وأراه مؤكداً وممكناً في نفوس جميع أبناء هذه الأمة العربية هو أن هذه الصفات، كالاستقلال، تؤخذ ولا تعطى: لا توهب من مصدر خارجي، بل تكتسب بالجهاد الداخلي، وان هذا الجهاد الداخلي مرتبط أشد الارتباط بجهادنا القومي في سبيل الحرية، والاستقلال، والوحدة، بل هو الأساس الصحيح الذي يبنى الجهاد القومي عليه، والعامل الأقوى في نجاحه وبلوغه غايته.

في مطلع نهضة العرب القومية، هتف بهم صوت زعيمهم وموحدهم داعياً إياهم إلى ربط جهادهم في الحرب بالجهاد الأكبر: جهاد النفس. وقد نفذ هذا الدعاء إلى صدور العرب، فجاهدوا نفوسهم، ونقوها من أدران المادة والأثرة، وصهروها بنار التضحية وانكار الذات، فتحرروا من الذل والاستعباد، ونشروا ظلهم فوق أمم الأرض. وما كانوا ليبلغوا تلك الغاية من السيادة والحضارة، لو لم يكونوا قد سادوا أولاً نفوسهم، واقتطفوا ثمار جهادها المحيي، حتى إذا خمدت هذه الشرارة النفسية، وانقطع عهد الجهاد، دكت عروشهم، وتهدم ما بنوه من مجد وعظمة ورقي.

ونحن العرب اليوم، وقد أيقظتنا قوى الحياة الجديدة، ودعانا داعي النهضة والعمل، خليقون بأن نعتبر بالحكمة التي يتضمنها قول النبي العربي، وأن نذكر ان جهادنا القومي لا يبنى إلا على أساس الجهاد النفسي، وأنه لا يبلغ هدفه إلا إذا تفاعلت قوانا الداخلية فخلقت فينا نفوساً منظمة، حرة، شاعرة بمسؤوليتها، نفوساً تنعم بما يفيض عن هذه الصفات من قوة، وسمو، وجمال.

عندها لا خوف علينا في جهادنا الأصغر للحرية والاستقلال، لأننا نكون قد كسبنا جهاد النفس: الجهاد الأكبر.

مركز دراسات الوحدة العربية

مؤسسة عبد الحميد شومان

معنى النكبة

الدكتور قسطنطين زريق

معنى النكبة

مركز دراسات الوحدة العربية

مؤسسة عبد الحميد شومان

معنى النكبة

الدكتور قسطنطين زريق

(*) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، في بيروت، ١٩٤٨، والطبعة الثانية ١٩٤٨.

المحتويات(*)

توطئة وتقدمة ٧
فداحة النكبة ٩
واجب المفكّر ١٥
المعالجة القريبة ٢١
الحل الأساسي ٣٥
معنى النكبة ٤٥
ملحق: **في مبادئ جهادنا في فلسطين** ٥١
الصراع بين المبدأ والقوة **في قضية فلسطين** ٥٥
لماذا نجاهد في فلسطين؟ ٦٥

(*) اعتمدنا ترقيمين: **الترقيم الأول** في وسط ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد، ضمن المجلد. ولكل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة ترقيم خاص بعدد صفحاته. **والترقيم الثاني** في يسار ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي **رقم أحادي** مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة الكاملة.

توطئة وتقدمة

لست أدعي أني، في هذه الدراسة المقتضبة لمحنة العرب في فلسطين، قد «اخترعت البارود» (أو، بلغة هذا العصر: «القنبلة الذرية»)، أو أني اكتشفت الدواء الشافي لعلّاتنا جميعاً. وإنما هي محاولة لتصفية تفكيري، في هذه الأزمة الخانقة التي يترتب فيها على كل فرد من أفراد الأمة قسطه من الواجب ونصيبه من التبعة. ولا شك في أن أول شرط لحسن القيام بهذا الواجب صحة الفكر واستواء الخطة.

فإذا كان من هذه المحاولة، لبني وطني وللفئات القومية المناضلة منهم خاصة، فائدة في إزالة بعض البلبلة السائدة في جوّنا الحاضر، فهذا غاية ما أرجو. وإلا فليكن نصيبها نصيب النافل الكثير مما تصدره مطابعنا اليوم. وعساي، على كل حال، ألا أكون قد أخطأت المرمى فأضررت من حيث أردت النفع والفائدة.

بهذا الشعور أتقدم بهذه الرسالة إلى كل قومي متحرر من بني وطني عربونَ إيمان ومشاركة وولاء.

٥ آب ١٩٤٨

قسطنطين زريق

فداحة النكبة

١٩٩/٢

ليست هزيمة العرب في فلسطين بالنكسة البسيطة، أو بالشر الهين العابر. وإنما هي نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومحنة من أشد ما ابتِلي به العرب في تاريخهم الطويل، على ما فيه من محن ومآسٍ.

سبع دول عربية تعلن الحرب على الصهيونية في فلسطين، فتقف أمامها عاجزة ثم تنكص على أعقابها. خطب نارية يلقيها ممثلو العرب في أعلى الهيئات الدولية منذرة بما ستفعله الدول والشعوب العربية إن صدر هذا القرار أو ذاك. وتصريحات تقذف كالقنابل من أفواه الرجال الرسميين لدى اجتماعات الجامعة العربية. ثم يجدّ الجدّ، فإذا النار خافتة باهتة، وإذا الصلب والحديد صدىء ملتوٍ سريع العطب والتفتت، وإذا القنابل جوفاء فارغة لا تحدث أذى ولا تصيب مقتلاً.

سبع دول تتصدى لإبطال التقسيم، وقمع الصهيونية، فإذا بها تخرج من هذه المعركة وقد خسرت قسماً لا يستهان به من أرض فلسطين، بل من الجزء «المعطى» للعرب في التقسيم، وإذا بها تُقهر قهراً على قبول هدنة لا مصلحة لها فيها ولا غناء.

قضية لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب إلى الحق: بلد يُغتصب من أهله ليُجعل وطناً لشراذم من الخلق ينزلونه من شتى أقطار العالم ويقيمون فيه دولة رغم أنوف أصحابه والملايين من اخوانهم في الأقطار المجاورة. ومع ما في يد العرب من حق صُراح، وما في بلادهم من إمكانيات، وما للدول فيها من مصالح يساوَم عليها ــ مع هذا كله، يقفون فُرادى في الميدان الدولي، تعاديهم الدول العظمى ويناوئهم الرأي العام العالمي، وليس لهم حليفٌ قوي قد أعدوه ليسندهم في مثل هذا الظرف وينصرهم في صراعهم.

أربعمائة ألف عربي أو أكثر يشردون من بيوتهم، وتنتزع منهم أموالهم وأملاكهم، ويهيمون على وجوههم في ما تبقّى من فلسطين، وفي البلدان العربية الأخرى، لا يدرون ما يخبئه لهم القدر، أو أيَّ مورد من موارد العيش يرتادون، ويتساءلون عما إذا كان

سيحكم عليهم بالعودة إلى بلادهم ليعيشوا تحت ظل الصهيونيين، ويتحملوا ما يفرضونه عليهم من أذى وإهانة وإذابة، وإفناء.

بل شر من هذا! فقد تحول التشتت والتشرد من اليهود إلى العرب. فبعد أن كان العرب لا يعترفون للمشردين اليهود بحق، وبعد أن كانت الهيئات اليهودية تسعى لدى المنظمات الدولية لحل معضلتهم بإقامة الوطن الصهيوني في فلسطين، إذا بالدول العربية الآن تستعطف هذه المنظمات لإعادة مشردي العرب إلى بلادهم الواقعة تحت الحكم الصهيوني، وتجعل ذلك شرطاً لتحويل «وقف القتال» إلى «هدنة».

وعلى الإجمال: لم يكن الوطن الصهيوني في فلسطين أقرب يوماً إلى التحقيق منه في هذه الأيام. وبالعكس، لم يُصب الكيان العربي بعدُ بما أصيب به في هذه المعركة من تصدع وانهيار.

وفوق الانهيار المادي انهيارٌ معنوي يتمثل في شك العرب بحكوماتهم، واتهاماتهم لقادتهم وزعمائهم، بل شك الكثيرين منهم في أنفسهم وفي قابليتهم كأمة، وتسرب اليأس إلى صدورهم، وتهربهم من مجابهة الخطر، وتضاؤلهم أمام عظم المصيبة. ولعمري! ان هذا الانتكاس المعنوي الروحي لأهم من الخسارة المادية مهما عظمت، لأن الشعب إذا تفتت عزمه وخسر ثقته بنفسه، فقد أضاع خير ما يملك وعجز عن أن ينهض بعد كبوة، أو أن ينفض عن نفسه غبار الذل والخذلان.

هي ذي بعض وجوه النكبة التي لحقت بالعرب في هذه المعركة من حرب فلسطين. وكفى بها، وبأمثالها مما يدور على الألسن ويختلج في القلوب، ومما يشاهده ويسمع به كل منا في هذه الأيام العصيبة، دليلاً على خطورة المحنة، وشدة المأساة.

* * *

على أن من العدل والانصاف أن نسرع فنقول إن أسباب هذه الكارثة لا تعود كلها إلى العرب أنفسهم. فالعدو المتصدي لهم قوي الشكيمة، غزير الموارد، بعيد الأثر، قضى السنين ــ بل الأجيال ــ وهو يتأهب لهذا الصراع، وقد بثّ نفوذه وسلطته في مشارق الأرض ومغاربها، واستولى على كثير من مصادر القوى في الدول العظمى، حتى دانت هذه له أو اضطرت إلى ممالأته. وهو إذا حشد قواه على إحدى هذه الدول أتعبها واستأثر بكثير من مصالحها، كما أظهر التاريخ البعيد والقريب فعلاً في كل من دول الأرض العظمى. فكيف به، وقد نازل أمة لا تزال في بدء نهضتها، وفي المرحلة الأولى من تكونها الاجتماعي والسياسي ــ أمة ظلت قروناً مقهورة على نفسها بحكم استبدادي كاد يجردها عن ذاتها، وما لبثت منذ أن خلعت عن نفسها هذا الحكم الثقيل، تسعى لانتزاع حريتها واستقلالها من أقوى أمم الأرض وأبعدها نفوذاً؟؟ ليست الصهيونية تلك الجوالي والمستعمرات المنتشرة في فلسطين فحسب، وإنما هي الشبكة العالمية، المجهزة علماً

ومالاً، المسيطرة في بلاد العالم النافذة، المسخّرة كل قواها لتحقيق هدفها في بناء الوطن لأبنائها في فلسطين.

فمن الواجب أن نقر بهذه القوة الهائلة التي يمتلكها العدو، وأن نحسب لها حسابها عندما ننظر في معضلتنا الحاضرة ونسعى لمعالجتها. فلقد كان من شر ما بُلينا به في السنوات الأخيرة أننا، بينما كنا نطنب في تبيان هذه القوة وشرورها للغير، كنا نحن بالفعل مستهترين بها ذاهلين عن ازديادها وتكتلها على الأيام. ثم عندما نشبت المعركة أخذت دعايتنا الداخلية تلهج بانتصارات لنا خيالية، وتخدر الجمهور العربي بسهولة صراعنا الحربي ومقدرتنا على التفوق والانتصار، إلى أن وقعت النكبة ووقع معها رد الفعل المرير. ولعل ان يكون من حسنات هذه الهزة العنيفة أن تردنا إلى الواقع، وتنبهنا إلى حقيقة الحال، فتساعدنا على أن نقدر الأمر قدره ونتخذ له عدته.

قلت: من الحق والواجب أن نقر بقوة العدو الهائلة، فلا نحمل أنفسنا من اللوم فوق ما تستحق. ولكن من الحق والواجب كذلك أن نقر بأخطائنا ونتبين مصادر الضعف في كياننا، وأن نعرف مدى مسؤوليتنا في هذه الكارثة التي أصابتنا. ومن الشر كل الشر أن نتهرب من هذه المسؤولية، ونعمي أبصارنا عن مناحي تقصيرنا، فننحي باللائمة على هذا أو ذاك من سوانا دون أن نرى الضعف والعيب والفساد في نفوسنا. فما أكثر ما نسمع بيننا اليوم من شتم لليهود، ومن تنديد بالانكليز والأميركان والروس، وبمجلس الأمن ووسيط الأمم المتحدة، وبكل من يقف مناوئاً لنا في هذا الصراع. لا شك في أن هؤلاء عادونا ويعادوننا، ومن الضروري أن نحذرهم وأن نذكر لكلّ موقفه ونحاسبه عليه كلما سنحت لنا الفرصة واكتملت عندنا القوة. لا شك في أنه يجب أن نحمّل كلاً منهم مسؤوليته أمام التاريخ، ونجابهه بها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. لا شك في أنه يجب أن نحفظ هذا كله في قلوبنا ونلقنه أبناءنا وأحفادنا، ونعتبره في رسم سياستنا وتدبير أمورنا. ولكن يجب أن لا ننسى، في الوقت نفسه، أن السياسة لا تزال قائمة على القوة والمصلحة، وان كلاً من هذه الدول تتبع مصلحتها أولاً، وأنه لا يكفينا أن نندّد بها ونحملها مسؤوليتها، إذا نحن لم نندّد أولاً بمواطن الضعف فينا ونحمّل أنفسنا ما يترتب عليها من تبعة وما يصيبها من نصيب في نكبتنا الحاضرة. وإذا كان التهرب من الواقع، والقاء العبء على الغير، شراً خطراً في الأيام العادية، فهو في أيام المحن والشدائد أصل العلة ومصدر الفساد. وليس أفضل من هذه الأيام فرصة لمحاسبة النفس، ولاستكشاف مواضع الضعف والعمل لمداواتها، أو البدء بذلك على الأقل.

ومن العدل والانصاف كذلك، عند نظرنا في هذه النكبة، وتقديرنا لمداها ونتائجها أن نعلم أنها معركة في حرب طويلة الأمد، وأننا إذا غُلبنا فيها، فليس معنى ذلك اننا خسرنا الحرب كلها، أو هُزمنا هزيمة نهائية لا قيام لنا بعدها.

أجل! إن هذه المعركة فاصلة من وجوه عدّة. فعليها يتوقف تأسيس الدولة الصهيونية أو بطلانها. وإذا خسرنا المعركة بكاملها، وتأسست هذه الدولة، فمما لا شك فيه أن اليهود في العالم أجمع سيحشدون قواهم كلها للاحتفاظ بها وتقويتها وتوسيعها كما حشدوها لإنشائها. ولكن التاريخ مليء بالمفاجآت؛ والكيان المفروض بالقوة، الذي لا يقوم على سنن الطبيعة والاجتماع، لا يمكنه أن يبقى طويلاً إذا جابهته قوى طبيعية حية متمشية مع مجرى التاريخ.

ولذا، فلا مبرّر لليأس يستولي على نفوسنا، ويشلّ فعاليتنا، وينزع منا ثقتنا بأنفسنا وبأمتنا، كما فعل بالكثيرين منا، فأحدث ذلك التخاذل المعنوي الروحي الذي قلت انه أشد خطراً وأعظم هولاً من الخسارة المادية والهزيمة الحربية. بل علينا أن نعد للغد عدته، وأن نأخذ للمعركة القادمة أهبتها، وأن نتعلم من أعدائنا النظر البعيد والترتيب المحكم، والخطة المدبرة، والسعي الحثيث سنوات، بل أجيالاً، لتحقيق المطلوب وبلوغ الغاية. فما أكثر ما نُكب اليهود في تاريخهم، بل ما أكثر ما تعرض كيانهم في فلسطين في السنوات الأخيرة للانهيار والزوال. ولكنهم ظلوا صابرين على المكاره، متحملين الشدائد، واضعين أعينهم على الهدف المنصوب، إلى أن بلغوا ما بلغوه اليوم من قوة وبأس.

لا! لست أعني بالدعوة إلى العمل البعيد المدى، وإلى النظر إلى الحرب بكاملها، بدلاً من الاقتصار على المعركة الحاضرة ـ لست أعني بذلك مجرد الانتظار للحوادث تأخذ مجراها، والاتكال على الظروف تتناسب وتتوافق. فما الاتكالية المتفائلة بالنجاح المحتّم، استناداً إلى الظروف والمناسبات، خيراً من التشاؤم المطبق واليأس الشالّ الذي تثيره الهزيمة الآنية. ففي كليهما تهرّب من الواقع، وتخلص واع أو غير واع من المسؤولية المترتبة والواجب المفروض.

وإنما أعني بالنظر والعمل البعيدين، الاهتمامَ والتدبير على نطاق واسع ولمدى طويل. أعني مجابهة الواقع كما هو، وتعيين الغرض المطلوب، ورسم الخطة المحكمة لبلوغه، وتحقيق ذلك يوماً بعد يوم، دون يأس أو أي نوع من أنواع التهرب. هذه هي الطريق التي رسمها التاريخ للظفر في الحروب، ولبناء الدول وتكوين الأمم.

* * *

عسى أن أكون في ما ذكرت آنفاً قد أصبت الحق في وصف نكبتنا الحاضرة في فلسطين، فأبنت عن خطورتها وفداحتها، وشدتها علينا في حاضرنا ومستقبلنا. وعساي أكون كذلك قد صورتها في واقعها، ورسمت الاتجاه الذي يجب أن نتخذه منها، والنظر الذي يقتضي أن ننظر به إليها. فهذه هي الخطوة الأولى الضرورية لتحليل أية معضلة، ولبحث سبل معالجتها.

واجب المفكِّر

٢٠٥/٢

من شر ما تُحدثه بعض المحن والشدائد في الأمم توزّعُ الآراء وتفرق النزعات في الأفراد والجماعات. فترى هؤلاء من شدة ما يصيبهم ذاهلين ضائعين: يؤخذون حيناً بهذا الرأي، وحيناً بذاك، ويتبعون أيّ دليل يدّعي القيادة، إلى طريق الخلاص.

وشبيه بهذا ما حلّ بجمهور الشعب العربي، بل بقادة رأيه ومثقفيه، اثر النكبة التي حلّت بالعرب في فلسطين. فالواقع ان مئات الألوف من أهل هذا البلد المنكوب لم يشردوا من بيوتهم ويهيموا على وجوههم فحسب، بل ان أفكارهم وآراءهم، وأفكار أبناء وطنهم في شتى منازلهم، قد شردت أيضاً وهامت، فانتشرت فيهم بلبلة في الرأي، أقلّ ما يقال فيها انها نذيرٌ بشرّ أعظم إذا لم تُبدّد ويحل محلها تفكير صاف وعزم موحد.

من مظاهر هذه البلبلة هذه الاتهامات المختلفة تكال حيناً لهذا وحيناً لذاك، وتُصَبّ على هذه الجهة أو تلك. وترى الناس من أثرها شيعاً ينحازون إلى دولة من الدول العربية على أخرى، ويهاجمون هذا أو ذاك من زعماء العرب وقادتهم، فيُشغلون بذلك عن التفكير في العدو المشترك والمصاب الملمّ.

كذلك نختلف في تعليل النكبة وتحليل أسبابها. فمنا من يُرجعها إلى نقص في الدعاية لقضيتنا الحق، وآخرون لقلة استعدادنا بالعُدَد والأسلحة، وغيرهم إلى اختلاف النظر والعمل بين دولنا العربية، أو إلى غير هذه من مواطن الضعف فينا.

وتبرز هذه البلبلة، بصفة خاصة، في صفوف الشباب الواعي، المتحفز للعمل، المستعد لبذل ذاته في سبيل وطنه والمساهمة في حمل أعباء أمته. ينظر هذا الشباب إلى نفسه، وإلى ماضيه: يتفحص ما قام به من أعمال، وما حاول أن ينشيء من أحزاب، وما بذل من جهود في سبيل القضية العامة، فيجد أن هذه كلها لم تكن وافية بالغرض المطلوب، فلا هي استطاعت أن ترد الكارثة، ولا أرضت نوازع هذا الشباب أو أشبعت

طموحه الملحّ لخدمة أمته وتحريرها. ويتساءل هذا الشباب عما يجب أن يفعل تداركاً لشرور الحاضر، ودفعاً لأخطار المستقبل، فلا يجد أمامه سبيلاً واضحاً أو أسلوباً معيناً. فيتخبط في شتى الآراء والاتجاهات، ويتطلع حيناً إلى هنا، وحيناً إلى هناك، ويدور فكره في الأكثر على نفسه، فلا يؤدي إلى نتيجة ايجابية أو أثر محسوس.

هذا النفر من الشباب، الواعي، المتلمس طريق الواجب، المستعد للعمل والتضحية، المتحرق لخدمة الوطن هو ذخر هذه الأمة وعدتها لمستقبلها. هذا الشباب هو اليوم مضطرب البال، موزع الفكر، مشتت الإرادة. اجلس في أيّ من مجالسه شئت، ترَ هذا الاضطراب قائماً، وتلمس البلبلة الشديدة الأليمة في تعليل الوضع الحاضر، وفي تحرّي سبل الخلاص.

ولا جدال في أن هذه البلبلة ليست شراً كلها، فإن فيها من التساؤل والمحاسبة والتألم النفسي ما قد يشق طرقاً جديدة للمستقبل. ذلك أن التساؤل هو الخطوة الأولى للتقدم الفكري، كما أن الألم قد يبعث قوى النفس ويحفزها لبذل أوفر وجهد أشد.

غير أن هذا التساؤل والتألم قد يضيع ويذهب سدى، بل قد ينقلب شراً وسوءاً ـ قد يتحول التساؤل إلى حيرة وضياع، والألم إلى يأس قتال أو سلبية هدّامة ـ إذا لم يتصدّ لهما الفكر النير، فيفصل بين الصواب والخطأ، بين العناصر الايجابية والسلبية، بين عوامل القوة والأمل وعوامل الضعف والخيبة، فينصر الأولى على الثانية، ويوجهها التوجيه الحسن إلى ما يحفظ الأمة ويُبقي ثقتها بنفسها.

هي ذي اذن وظيفة الفكر الواعي في هذه النازلة، بل في كل شدة أو أزمة. هي أن يأخذ على عاتقه قيادة الرأي وسط الاضطراب والحيرة، هي أن يلقي ضوءاً على الوضع المتخبط، فيظهره على حقيقته، ويميز بين مختلف عناصره ووجوهه. وظيفته أن يفرق بين الأسباب والنتائج، فلا يقدم الثانية على الأولى، وأن يفصل بين الأسباب البعيدة والقريبة وبين الأصول والفروع، فيعطي لكل شيء أهميته، ويقدره قدره في العملية المعقدة المتشابكة.

فإذا فَصَل هذا الفصل وميز هذا التمييز عمد إلى وصف سبل المعالجة، فتناول الأسباب القريبة بمعالجة قريبة، وتوجه إلى الأسباب البعيدة بعمل طويل النفَس واسع المدى، ولم يهتم بالمظاهر اهتمامه بالعوامل، ولم يبذل للفروع ما يجب أن يبذله للأصول.

ولعل قادة العمل وحاملي المسؤوليات الكبرى لا يرتاحون كثيراً إلى مثل هذه المهمة، يأخذها المفكر على عاتقه. وهم في ذلك على حق إذا كان الفكر مجرداً لا تتصل جذوره بالواقع، وإذا كان المفكر غير شاعر بالمسؤولية، أو وازنها بالميزان الصحيح العادل.

حينئذ يحق لهم أن يقولوا: «الحرب بالمنظار هينّ»، وان ينظروا إلى المفكر شزراً، ويستخفوا به. حينئذ يكون الفكر خليقاً بذلك، بل خليقاً بأن يخفق من ذاته مهما كانت نظرة رجال العمل إليه، وتصرفهم نحوه.

إن هذا الشعور بالمسؤولية المترتبة على كل فرد من أفراد الأمة، وعلى مفكريها خاصة، في هذا الظرف العصيب، هو بالذات الدافع إلى وضع هذه الرسالة، وهو ما يشفع ـ فيما أرجو ـ بما تتضمن من خطأ، أو تنطوي عليه من ضعف. وما دامت ناشئة عن هذا الشعور، ومتسلحة بهذه العدة، فلن تخشى مذمة أو ملاماً في تبيان الخطأ وتحديد التبعة، وفي الكشف عن جذور الكارثة الحاضرة، والدعوة بصراحة وقوة إلى اقتلاعها. فلعلّ ان يكون منها بعض الفائدة في تبيان طريق الخلاص ودفع الفكر والنفس إليها.

المعالجة القريبة

قلنا إن نكبة العرب في فلسطين ـ كأمثالها من الأحداث في التاريخ ـ لها أسباب قريبة وأخرى بعيدة. وعلى الفكر أن يميز بين هذين النوعين من الأسباب، وأن يبيّن نوع المعالجة التي تناسب كلا منهما وتكون كفيلة باستئصاله والتغلّب عليه.

فلننظر اذن أولاً في المعالجة القريبة، لنرى ما يجب عمله لتدارك الخطر المحيق، وللوقوف في وجهه ومنع طغيانه، إذا لم يكن من الممكن الآن القضاء عليه قضاء تاماً نهائياً.

على أنه لا بُدّ من أن نلاحظ أولاً أنه لا يمكن الفصل فصلاً تاماً بين الأسباب القريبة والبعيدة، فما الأولى في أحيان كثيرة سوى مظاهر للثانية وثمار ناشئة عن بذورها. وليست الحياة البشرية من البساطة بحيث يمكن تقسيمها وتنظيمها وإقامة الحدود بين أجزائها بصورة اصطناعية. وهكذا لن تكون سبيل المعالجة الآنية مستقلة عن سبيل المعالجة الأساسية البعيدة، بل هي مرتبطة بها ومتفرعة عنها. وعلى المفكر أو المصلح أن يتناول الواجبين معاً، وينظر إليهما كوحدة، ولا يغفل عن النسبة، بينهما، بل يتصدى لكل منهما وعينه متجهة إلى الآخر بحكمة ودراية، وحسن تدبير وتنظيم.

وليس بالإمكان، في هذه المحاولة الدراسية، التعرض لجزئيات المعالجة ـ القريبة والبعيدة ـ ولتفاصيلها العديدة المتفرعة، خصوصاً إذا كانت تلك الجزئيات تنتظم في كليات، وهذه التفاصيل والفروع ترتد إلى أصول تجمعها وتوحّد بينها.

فما هي الأصول التي تستمد منها المعالجة القريبة، والأركان التي تقوم عليها؟

* * *

أركان هذه المعالجة، بل هذا الجهاد، في نظري، خمسة: أولها تقوية الاحساس بالخطر، وشحذ إرادة الكفاح. فهنا الخطوة الأولى، والعامل الأصلي. ولعل البعض يعتبر هذا القول خطأ أو جزافاً. كيف لا! وأعمدة صحفنا طافحة بالمقالات المفصلة للخطر

الصهيوني، والمحذّرة منه، والخطب في هذا الموضوع تترى في كل آن ومكان، وذكر الصهيونية وشرها يكاد يكون على كل شفة ولسان.

غير أن الواقع انه بالرغم من هذه الأقوال والأعمال لا يزال الجمهور العربي، بل فريق كبير من مثقفيه، بعيدين عن الاحساس الكافي بالخطر الأعظم الذي تمثله الصهيونية على كل بلد من بلدان العالم العربي. إذ لم تبين لهم بصورة مادية محسوسة وجوه هذا الخطر على موارد كسبهم، بل على كيانهم بالذات. ومع ما شاهدوا من الألوف المشردة، وما سمعوا عنه من أخبار التهديم والقتل والتمثيل وسواها من الفظائع، فإنهم لم يدركوا بعد حقيقة الصهيونية، وقوتها العالمية، وغايتها في الفتح والافناء، وقساوتها العارية في تحقيق هذه الغاية. لم يدركوا شدة النزعة الكامنة في صدور القوم، العاملة المتزايدة خلال العصور، في سبيل تأسيس دولة لهم في فلسطين، ثم ما تشرّبه فتيانهم وشبابهم في السنوات الأخيرة من النازية وسواها من حب السيطرة والفتح، وما يجدون في البلاد العربية، الغنية الموارد، المحتلة مركزاً وسطاً في العالم، من مجال لجهدهم القومي التوسعي هذا.

ولكن ما لنا وللجمهور الشعب. ألسنا نرى بين بعض حكامنا وأركان دولنا العربية من يضع هذه القضية أو تلك من قضايا بلاده على مستوى القضية الصهيونية أو قبلها، فيسمح لنفسه بأن ينحرف عن معالجة الخطر الأكبر الشامل إلى الاهتمام بالخطر الأصغر الزائل؟ فلا السودنة، ولا معاهدة بورتسموث، ولا قضية النقد السوري اللبناني، ولا أيّ من المشاكل المشابهة، توازي الصهيونية خطراً وبعدَ أثر. إذ إن ما تمثله من استعمار وعبودية شرّ زائلٌ يوماً، مهما بعدت أيامه وطالت جذوره. أما الاستعمار الصهيوني، فغايته إبدال وطن بوطن، وافناء قوم ليحل محله قوم آخر: هو الاستعمار العاري المجرد بأوضح ألوانه وأفظع أشكاله. وعلى هذا، فلا يجوز أن يشغلنا عنه شاغل، حتى تلك المشاكل القومية التي أقضت مضاجع حكوماتنا، وما تزال. هذا إذا صرفنا النظر عن السياسات التافهة، والعنعنات الضارة، والمنافسات الحزبية، والشهوات المحلية، التي كان يجب أن تلم أذيالها وتستحي، وتختفي من الميدان في هذا الظرف العصيب، وتجاه الخطر الجاثم.

ونحن كثيراً ما نسمع ونقرأ في الصحف عن حاجتنا إلى الدعاية لقضيتنا في البلدان الأجنبية. ومع ما في هذا القول من صحة، فإن الناظر المحقق ليرى انه بجانب هذه الدعاية الخارجية، يجب أن ننظم دعاية داخلية في عقر دارنا، وان حاجتنا إلى هذه ليست أقل من حاجتنا إلى تلك، بل قد تكون أقوى منها وأشد.

المهم في هذا التنبيه الداخلي أن يستقر في الذهن العربي وفي النفس العربية أن الخطر الصهيوني هو الخطر الأعظم على الكيان العربي. الأخطار الأخرى تتوجه إلى

بعض أجزاء هذا الكيان ونواحيه، أو تشمل العالم العربي وسواه من أجزاء المعمور. أما هذا الخطر فهو موجه إلى الكيان العربي بذاته، بمجموعه، بأبسس وجوده. فكل ما سواه هين بالنسبة إليه، ويمكن أن يُتسامح به، أو يؤجل حله، في سبيل دفع هذا الخطر الأشد والأشمل وصيانة النفس منه.

هذا ما يجب أن يوضع أمام الشعب العربي، مسنوداً بالأرقام والوقائع. هذا ما يجب أن يستقر في ذهن حكامنا وعامتنا. هذا ما يجب أن نلخصه في فِكر قاطعة وعبارات محكمة، ونلقنه أبناءنا وطلبة مدارسنا صباحَ مساء. هذا ما يجب أن تنصرف إليه أولاً دوائر الدعاية في حكوماتنا، مستخدمة الصحف والراديو وكل سبيل آخر من سبل النشر، لتنمي في نفوس العرب أجمعين هذا الاحساس بالخطر، بالخطر الأعظم، بالخطر الفريد، كي يكون كل فكر من أفكارنا وكل عمل من أعمالنا متأثراً بهذا الشعور وصادراً عنه. فإذا قوي هذا الاحساس قويت معه إرادة الكفاح، هذه الإرادة التي لا تزال، مع الأسف، ضعيفة فينا. فكفاحنا في هذه المعركة كان، على العموم، كفاحَ متصنّع متمهّل، لا كفاحَ مستميتٍ، كأن الجهاد كان فرضَ كفايةٍ لا فرض عين.

هذه التعبئة الحسية الإرادية، هي، في نظري، **الركن الأول** للجهاد الحاضر لدرء الخطر الصهيوني الجسيم.

* * *

أما **الركن الثاني** فهو التعبئة المادية في ميادين العمل كلها. هو تجنيد قوى الأمة الحربية بكاملها، وتوجيهها إلى ميدان الصراع. ورب قائل يقول: ان الدول العربية لا تزال ناشئة، وجيوشها قليلة العدد هزيلة العُدد، وان في داخلها ومن حولها من المشاكل والمخاطر ما لا يسمح لها بأن تلقي بمواردها الحربية كلها في الميدان. وفي هذا ما فيه من الصحة. غير أنه يصعب على المرء أن يقتنع بأن هذه الدول السبع لا تستطيع أن تحشد أكثر مما حشدته، أو أنها ــ لو توفر لها الشعور بالخطر وإرادة النضال على وجهها الصحيح، ولو أحكمت الخطة وأوثقت التدبير ــ لما استطاعت أن تجمع قوة حربية أعظم كثيراً من هذه التي أنزلتها للميدان فعجزت عن أن تقف في وجه الصهيونيين. ومن العيب الشائن حقاً ان تظهر الدول العربية ــ وملايينها التي نتبجح بها دوماً ــ بهذا العدد الضئيل من الجيوش، وبهذا العجز عن دك معاقل الصهيونية، بل عن الصمود أمامها. وإذا كان الصهيونيون بحدودهم الجغرافية الضيقة قد تمكنوا من تجهيز أنفسهم هذا التجهيز الوافر الواسع، فلـمَ يعجز العرب ــ بحدودهم الواسعة المفتوحة للشرق والغرب ــ عن أن يستجلبوا بالطرق المشروعة وغير المشروعة ما يحتاجون إليه، أو على الأقل ما يُظهرهم بمظهر حربي أقوى مما ظهروا به، إن كان حقاً ان هذا كان جل ما استطاعوه. ومع

الاعتراف بما للصهيونيين من موارد غزيرة وما يسندهم من قوى سياسية ومالية هائلة، فإن إمكانيات الدول العربية من هذه الوجوه هي أيضاً غير قليلة، لو أحسن استغلالها وتم لها التنظيم المحكم والتدبير المنشود.

وبجانب التعبئة الحربية، التعبئة الاقتصادية. فهي العصب الحساس والمورد الراوي. ولا أظن ان الشعوب العربية، إذا تفهمت حقيقة الخطر، تحجم عن التضحية بما يجب في سبيل هذه التعبئة. وانه لمما يحزن حقاً أن المناضلين العرب كانوا يفتقرون مثلاً إلى أبسط أنواع الأدوية وأدوات المعالجة، وان رسلهم كانت تؤم بيروت ودمشق وسواهما من المراكز العربية، لتستحصل على بعض الحاجات الأساسية التي يصعب على المرء أن يتصور عدم وجودها، في حين ان جميع الجهات الحكومية والشعبية المسؤولة كانت تعرف اننا قادمون على قتال، بل كانت هي نفسها تهدد بالقتال وتتوعد به. ومن المؤسف المثير ان نرى هؤلاء الرسل يطرقون أبواباً مختلفة، فيظفرون حيناً ويخفقون أحياناً، دون أن تكون هنالك سلطة واحدة معينة تُعنى بهذه الناحية على الأقل من نواحي الجهاد.

وكم هي مؤلمة تلك الملاحظات التي يسمعها أحدنا من الزوار والمشاهدين الأجانب الذين كانوا يؤمون البلاد العربية في أيام القتال، فلا يرون فيها مظهر الحرب الحقيقية. يرون السيارات بالألوف تلتهم بنهم عنصراً من أهم عناصر الحرب، ويشاهدون الناس يقبلون على أسباب اللهو والسرور، وعلى الحفلات والدعوات، شأنهم فيما قبل، دون أن تغير الحرب التي شنتها دولتهم والدول العربية الأخرى أياً من عاداتهم، أو أن تحرمهم شيئاً من ملذاتهم. ولقد كان أحدنا، وما يزال، إذا سمع ملاحظات هؤلاء الناقدين، صادقين كانوا أم غير صادقين، لا يجد نفسه قادراً على ردها، بل يشعر في داخله بخجل عميق.

ومع التعبئة الحربية والاقتصادية تجري التعبئة السياسية: في الداخل لتوحيد أغراض الدول العربية وسياساتها، وفي الخارج لاستمالة الدول الأجنبية. ولا نكران ان ساسة العرب قد بذلوا جهدهم في الناحية الأولى، ولعلهم لا يستطيعون في الوضع الحاضر أن يبلغوا أبعد مما بلغوه، ما دامت الاطماع لا تزال متحكمة، ومصالح السلالات والأفراد نافذة، وما دام الرأي العام في العالم العربي لم يتنبه بعدُ ويقوَ إلى الحد الذي يضغط به على أرباب هذه الأطماع والمصالح الضغط الكافي ليتجردوا منها، قبل أن تدك أرائكهم ويذهبوا هم وأطماعهم هباءً منثوراً...

أما العمل السياسي الخارجي فقد حاوله أيضاً ساسة العرب فأرسلوا الوفود واتصلوا بممثلي الدول، وبثوا دعايتهم في المؤتمرات الدولية، ولكن جهودهم في هذا السبيل كانت متفرقة غير حازمة. ولا يزال هنالك مجال واسع للعمل. وقد شعرت الجامعة العربية بهذا في الأيام الأخيرة، فكلفت بعض أركانها ــ على ما قالت الصحف ــ القيام

بمسعى سياسي قوي في أوروبا الغربية قبل انعقاد هيئة الأمم المتحدة في أيلول القادم. وهكذا دوماً تكون محاولاتنا: لا تنفيذاً لخطة محكمة بعيدة الأمد، بل بسبب مناسبة، وفي الساعة الأخيرة.

أما الاتصال بالدول الكبرى فسأتناوله عند عرضي الركن الخامس من هذا الحل. على أن هناك دولاً أخرى يجب تمكين الصلات بها، كدول أميركا اللاتينية مثلاً. ومع أن أكثر هذه الدول خاضع للنفوذ الأميركي والضغط الصهيوني، فلا يحسن بوجه من الوجوه اهمالها ونفض اليد منها. وهناك كذلك الدول الشرقية في آسيا التي تجمعنا بها أخطار الاستعمار الغربي، والتي عطفت على قضيتنا وآزرتنا، والتي يجب تنمية صلاتنا بها لضمان هذه المؤازرة وتقويتها. ومن المؤسف ان روابطنا بهذه الدول لا تزال ضعيفة، ولا تتعدى بالأكثر اتصال وفودنا بوفودها في المؤتمرات الدولية عند تأزم الخطر وتألب القوى.

هذا فيما يختص بالاتصال السياسي بالحكومات، وتعبئة القوى العربية من هذه الناحية. أما فيما يختص بالدعاية الشعبية والتوجه إلى الرأي العام في هذه الدول، فلقد كان جهد الدول العربية ضئيلاً جداً، وكان يأتي من مصادر مختلفة: حيناً من الجامعة نفسها، وحيناً من بعض دولها، وحيناً من المكاتب العربية التي لم يتضح تماماً باسم من تتكلم. فكان من الواجب أن تقوّى هذه الجهود وتعزز، وتتألف وتتوحد، لتحدث أثرها وتؤتي ثمرها. على أن هذه الدعاية الشعبية لن يكون لها، مهما قويت وتعززت، أثر بارز في المعركة الحاضرة، لأن الوقت قصير والخطر مداهم، وعملية التأثير في الرأي العام ليؤثر بدوره في حكوماته عمليةٌ طويلة المدى. ولذا، فمع حاجتنا إلى تقوية هذه الدعاية وتوسيعها استعداداً للمعارك القادمة وللحرب الطويلة، فإن جل جهدنا في هذه المعركة الحاضرة يجب أن ينصرف إلى الاتصال بالحكومات ذاتها، والتكلم بلغة المصلحة لا بلغة الحق والعدل، وتعبئة جميع قدراتنا على المساومة، في هذه السبيل. هذه التعبئة لقوانا السياسية يجب أن تمشي يداً بيد وتنتظم مع تعبئة مواردنا الحربية والاقتصادية بل جميع نواحي حياتنا.

هذا إذا أردنا النجاة والبقاء. وبالعكس، فإن الاستهتار والتهاون في هذه التعبئة العامة سيودي بنا إلى شر مما أودى ببعض دول أوروبا الكبرى في الحرب الأخيرة. ومردّ هذا الاستهتار، بلا جدال، إلى ما أشرنا إليه سالفاً، من عدم الاحساس بالخطر إحساساً كافياً، وبالتالي عدم تنمية الإرادة الواجبة للكفاح والنضال.

لقد أصبحت الحرب اليوم حرباً شاملة، لا تقتصر على الجنود في ميادين القتال بل تتعداهم إلى الشعب بكامله، ولا تكتفي بجانب من موارد الأمة، بل تتطلب تجهيز هذه الموارد بكاملها. وقد فهم أعداؤنا هذه الصفة الأساسية من صفات الحرب الحديثة، فأعدوا للأمر عدته وعبأوا له جميع مواردهم في الميادين كافة.

هذا هو واجبنا في الوقت الحاضر، وإلى مثل هذه التعبئة يجب أن نتوجه. وإذا اضطرنا ذلك لأن نوقف أعمال الاصلاح والبناء الداخلي، وإلى أن نحول لذلك الغرض مخصصات الأشغال العامة والمعارف والزراعة بل جميع موارد الدول العربية ــ فوق القدر الأقل الكافي للحياة ــ فليكن! إذ لا الطرقات، ولا الأبنية، ولا المدارس، ولا الأونيسكو، حتى ولا الحفلات والمآدب، لتغنينا نفعاً إذا انتصر الصهيونيون في هذه المعركة نصراً مؤكداً وأسسوا دولتهم، وغرزوا مخالبهم في جسم الأمة العربية...

* * *

ومن البديهي أن هذه التعبئة في كل من الدول العربية لا تكفي إذا لم تتوحد جهود هذه الدول إلى مدى أبعد مما بلغته في الأدوار السابقة من هذه المعركة. ولذا **فالركن الثالث** للجهاد الحاضر هو تحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الدول العربية: في ميادين الحرب، والسياسة، والاقتصاد، وسواها. ولا ريب في أن هذا التوحيد مقيد ــ كما قلنا ــ بأوضاع هذه الدول ومصالحها وأطماعها ومخاوفها. ولا يمكن أن يُحقّق على وجهه الصحيح إلا بتبديل عميق شامل. ولذا فهو يدخل في نطاق الحل الأساسي لقضية فلسطين، بل للقضية العربية بكاملها، الذي سنتناوله في الفصل التالي.

غير أنه، بانتظار هذا الحلّ الأساسي، وهذه المعالجة المديدة الأفق، لا بُدّ من اتخاذ كل اجراء ممكن لتأمين أوفر ما يستطاع من التنسيق والتوحيد بين جهود الدول العربية. ولا أظن أحداً من العرب أعطي شيئاً من الملاحظة والتفكير كان يؤخذ بأقوال ساستنا وتصريحاتهم عقب اجتماعات اللجنة السياسية أن الدول العربية لم تكن في وقت من الأوقات أكثر اتفاقاً مما هي عليه الآن، وان الجامعة العربية لم تكن يوماً أقوى مما هي في هذا الظرف العصيب. بل قد يخيل إلى المرء أن كثرة هذه التصريحات نفسها دليل على ضعف وانقسام يخشى ذيوعه ويراد اخفاؤه، وأن الجامعة لم تصبح بعد من القوة والبأس بحيث تستطيع أن تفرض على أعضائها اتحاداً مكيناً في الرأي والعمل.

كم مرة اجتمع أركان حرب هذه الدول في خلال هذه المعركة؟ وفي خلال هدنة الأسابيع الأربعة التي نمنا نحن فيها على فراش وثير بينما العدو يسعى وينظم ليلَ نهار؟ تُرى هل حزمت قيادتنا الحربية أمرها، ونظمت جهدها، واتفقت على خططها في العمل؟ أليس من أدل دلائل الضعف أننا كنا نسمع كل يوم أربعة أو خمسة بلاغات حربية، بدلاً من بلاغ حربي واحد؟ أليس من الضروري أن تتوحد نظم الجيوش العربية، وأسلحتها، بحيث يمكن للجندي العربي أن يخدم في أي جيش من الجيوش العربية بحسب الحاجة؟

وفي ميدان السياسة: أليس بالإمكان إيجاد أداة للتنسيق والتوحيد أخفّ وأكثر

فعالية من اللجنة السياسية، المؤلفة في أكثرها من رؤساء حكومات الدول العربية، يهرعون إليها بين آن وآخر، وعلى كل منهم أعباء وهموم ثقيلة تشده إلى بلده؟ أليس بالإمكان إيجاد هيئة دائمة ثابتة في مكان واحد يوكل إليها تنظيم الجهد ومتابعته على ضوء سياسة واحدة تضعها الحكومات؟

أما في ميدان الاقتصاد: فإن اللجنة الاقتصادية للجامعة، التي كان يفترض فيها أن تكون في هذا الظرف العصيب، أداة التنظيم والتنسيق في الحرب الاقتصادية والمالية، فإننا لم نسمع لها صوتاً، ولا أحد يدري ما إذا كانت قد تشكلت وظهرت إلى حيز الوجود، أم لا تزال في سجلات الجامعة ومقرراتها.

وكذلك الأمر في ميدان الدعاية. وفي هذا الميدان، قبل غيره، كان مفروضاً أن يُحقق الاتفاق والاتحاد، لأنه المظهر الأول لجهد الدول العربية، والدليل الخارجي على عزيمتها ومتانة قصدها. ولكن الواقع كان على عكس ذلك تماماً. فللهيئة العربية العليا وفودها، وللمكتب العربي فروعه، وقد وُجد ممثلو هاتين المنظمتين فعلاً في وقت واحد في نيويورك ولندن في أدق مراحل القضية، فلم يجتمع لهم جهد، بل كانوا على العكس في تباعد وتنافر وتنافس. ولا ينكر أن أفراد هذه الوفود وسواها، من التي أرسلت إلى البلدان الأخرى، بذلوا أقصى ما يمكنهم من جهد، ولكن انعدام الوحدة وتعدد السلطات وضياع المسؤولية كانت في النهاية تشل عملهم وتبطله، بل تأتي بعكس المطلوب منه.

قلت: إن هذا التوحيد المنشود في ميادين الحرب والسياسة والاقتصاد والدعاية وسواها مقيد بظروف الدول العربية ووضعها الحاضر، وإنه لا يمكن أن يرتفع فوق مستوى هذا الوضع. فهو الأثر والثمرة، والكيان العربي القائم هو الأصل والعامل. على أنّ الخطر قوي مداهم: لايمكن معه انتظار الانقلاب الأساسي في الوضع العربي لتأمين تلك الوحدة الأصلية الضرورية لحفظ الكيان ودفع البلاء. ولذا كان على ذوي السلطان وحملة التبعات في الدول العربية أن يضعوا الغرض العام قبل الأغراض الخاصة، وكان على الرأي العام في شتى أقطار العرب أن يلح في المطالبة بالتنسيق والتوحيد، وأن يضغط ما وسعه الضغط في هذا السبيل، وأن يثور على كل انقسام في الجبهة العربية، كي يذلّل ما أمكن العقبات القائمة اليوم في وجه التضامن العربي ويحمي كيان العرب في هذه المعركة.

* * *

وثمة **ركن رابع** للجهاد العربي الحاضر: هو إشراك القوى الشعبية في النضال. فالجهاد يجب أن لا يقتصر على الحكومات وعلى الجيوش النظامية، بل يجب أن يسري إلى عموم طبقات الشعب، بحيث يقوم كل فرد من أفراد الأمة بقسطه منه.

سيقال: ولكن الحرب الحديثة غير الحرب القديمة، وهي تطلب من أساليب التدرب والتمرس على استخدام أدوات القتال الميكانيكية ما يعجز عنه المقاتل غير النظامي، وأن مثل هذا المقاتل قد يعيق في أحيان كثيرة العملَ الحربي بدلاً من أن يساعده ويقوّيه.

على أن اختبار الأمم في الحرب العالمية الأخيرة التي استخدمت فيها أشد أنواع الأسلحة وأكثرها ضخامة وتعقيداً دلّ على أن القوى الشعبية، إذا أحسن تنظيمها، تستطيع أن تكون للجيوش النظامية سنداً قوياً، بل ان تأتي في بعض الأحيان بالضربة الفاصلة. هذا ما أثبته النضال الشعبي في بولونيا، وروسيا، والبلقان، وفرنسا، وغيرها من الدول الكبرى والصغرى. لقد أثبت أن تعلق الشعب بوطنه وتمسكه بأرض آبائه وأجداده، ودفاعه عن أسرته وشرفه ـ كل ذلك يبعث فيه من الشجاعة والتضحية والاستماتة ما يعوض على التدرّب الموفور للجيوش النظامية، بل ما يقوي روح المقاومة في هذه الجيوش، وفي الأمة بكاملها.

ولماذا نذهب بعيداً، والعدو أمامنا يعطينا على ذلك أفضل دليل وأسطع برهان، ترى هل اقتصر هذا العدو في نضاله على جيوش نظامية، أم أشاع هذا النضالَ في الشعب الصهيوني بكامله: في رجاله ونسائه، في مختلف جواليه ومستعمراته، فكان الفرد منهم يشعر أنه خلية من خلايا الجسم المناضل ويدافع ويهاجم بكل ما فيه من قوة وحياة! وإذا كانت هذه حال المغتصب، فكيف يكون حال المعتدى عليه المدافع عن أرضه ودمه وعرضه؟

وسيقال: لقد أثبت الشعب العربي في فلسطين ضعفه وعجزه، فما إن أطلقت القنابل الأولى عليه حتى انهزم شرّ هزيمة، وجلا عن مدنه ومراكزه وسلمها لقمة سائغة للعدو. بل إن جزءاً كبيراً منه انهزم قبل المعركة واحتمى بالبلاد العربية الأخرى، وبالمناطق النائية من فلسطين.

ولست أنكر أنه قد ظهر في الجسم العربي، في فلسطين وسواها، جبن وتفسخ. ولكن هذه التهمة الشاملة فاسدة في أساسها يردها تاريخ هذا الشعب بكامله، وما يتجلى به من شجاعة طبيعية ومن جرأة وتضحية في القتال. ويردها كذلك ما قام به هذا الشعب خلال الثلاثين سنة الأخيرة في ثوراته المتتابعة على السلطة الغاصبة وفي مهاجمته للصهيونية. ويرد هذه التهمة أيضاً ما بذله أبناء قراه ودساكره من أموالهم ومواردهم في شراء الأسلحة والذخائر بأعلى الأسعار للدفاع عن كيانهم، وما أظهروا من جرأة، وما أحرزوا من فوز في جيوش الانقاذ، وفي الجهاد المقدس، وحيثما تم لهم قسط من القيادة والتنظيم.

كلا! لم تكن العلة في الشعب نفسه، بل في قادته الذين لم يدربوه، ولم يسلحوه، بل لم ييسروا له سبل التسلح، ولم يدلوه على طريق العمل وسبيل الجهاد. أليس بين ألوف الشعب العربي، المتعلّم وغير المتعلّم، قلة يمكن تهيئتها لهذا النضال الشعبي، وجعلها خميرة لسريان روح هذا النضال في مجموع الأمة؟ أليس من بوادر الخذلان الشائن أن يلتفت فريق كبير من الشباب المتعلم في البلاد العربية حوله، ويبحث عن منحى يقوم فيه بنصيبه من الجهاد فلا يجده؟ أليس من الضعف والهزيمة أن تكون أبواب التطوع مقفلة أو ضيقة إلى أبعد حدود الضيق؟

ألا فليحذر أولئك الذين يتهمون الشعب ويعرضون عن النضال الشعبي. فهم بذلك يخسرون عنصراً أساسياً من عناصر الجهاد، بل يكبتون روح النضال في صميمها. على أن هذه الروح، وان أضعفت حيناً، فلا بُد لها يوماً من أن تهب، وقد تثور على قامعيها أولاً، ثم تنطلق في جوانب الأمة جميعاً، لتجعل الجهاد لحفظ الكيان وحماية الوطن جهاداً شاملاً بالمعنى الصحيح.

* * *

والركن الخامس للجهاد العربي الحاضر لحفظ فلسطين استعداد العرب للمساومة، وللتضحية ببعض المصالح لدرء الخطر الأكبر. فمن الضروري أن نشعر أننا لم نبلغ بعد من القوة والسلطان درجة تسمح لنا بنيل مطالبنا وتأمين مصالحنا كلها دفعة واحدة، وأننا مضطرون للتضحية بأشياء في سبيل غيرها، وان للدول الكبرى في بلادنا مصالح هامة يمكننا أن نساوم عليها لبلوغ غاياتنا. فلم يعد بالإمكان في هذا العصر الذي تشابكت فيه حياة الدول، أن تحل أية أمة مشاكلها بالاستقلال عن الأمم الأخرى، ودون تبادل في المصالح والمنافع.

على أن لهذا التبادل شروطاً إذا لم تحقق لم يأتِ بالفائدة المطلوبة، بل انقلب شراً ومضرة. من هذه الشروط ان لا يكون قائماً على العاطفة و«الصداقة التقليدية» و«المحالفة الطبيعية»، فهذه كلها لا تعدو في أكثر الأحيان أن تكون اشراكاً وأحابيل لإخفاء الأطماع وتغطية الاستغلال والاستثمار. والأساس الوحيد لهذا التبادل في دنيا المعاملات الدولية الحاضرة هو المصلحة، والمصلحة لا غير. ولذا كان من شروطه أيضاً أن يُقبض ثمن كل تنازل عن مصلحة بتأمين مصلحة مقابلة. فلا نحالف مثلاً الدول الديمقراطية على الشيوعية، ونضطهد الأحزاب اليسارية في بلادنا، لوجه الله وجرياً مع الصداقة، أو لمجرد التخاذل. وكذلك يجب أن يستهدف هذا التبادل مصلحة الأمة بكاملها، لا مصلحة فرد أو أفراد أو طبقة منها. فلا يكون هؤلاء حلفاء ــ واعين أو غير واعين ــ للغير على عامة الشعب. وأخيراً يجب أن تنظم مصالح الأمة في مراتب بحسب خطورتها،

فيضحى بالقليل في سبيل الكثير، وبالزائل من أجل الباقي.

ولا مراء في أن مصلحة العرب الأولى في هذا الطور من تاريخهم هي في حفظ كيانهم من الخطر الصهيوني. وعلى هذا كان مفروضاً عليهم ـ بسبب وضعهم الخاص والوضع الدولي العام ـ أن يضحوا بمصالح أخرى في هذا السبيل. غير أن عليهم كذلك أن يبذلوا هذه التضحية بوعي واحتراز وعلى الأسس التي بيّنا، وإلا انقلبت هذه المساومة تفريطاً، وجرت المنفعة من جهة واحدة فقط، وأضاع العرب مصالحهم تلك فوق مصلحتهم الكبرى في فلسطين.

ولا يعتقدنّ أحدٌ ان هذه المساومة عمل هيّن. فإنها تتطلب قيادة الأمة على صراط ضيق ملتوٍ محاط بالمزالق والمهاوي. وتتطلب بصيرةً وحسن دراية وتفهماً للعقل الغربي ولمصالح الدول المتضاربة. ولكنها تتطلب قبل هذا كله اخلاصاً لمصلحة الأمة، وتضحية بالأغراض والأطماع الشخصية في سبيلها. هذه هي الصفات المطلوبة في رجل السياسة للقيام بهذه العملية الدقيقة الخطرة. بها يقاس دهاؤه وتختبر أصالته. بها ترتفع سياسته عن معناها الضيق الحقير وتصبح أداة للبناء والخلق، فما تدخل شيئاً إلا «أصلحته». بها يستحق أن يحفظ له التاريخ ما حفظ للساسة البناة، الساسة الحقيقيين، من عز ومجد وفخار.

* * *

تلك هي، في نظري، الأركان الخمسة للجهاد الحاضر: الاحساس بالخطر وإرادة الكفاح، والتعبئة العامة، والتوحيد بين جهود الدول العربية، واشراك القوى الشعبية، والمساومة الدولية الواعية، هذه وسواها شروط أساسية لنجاح مسعانا العاجل في ردّ الخطر الصهيوني وحفظ كياننا القائم منه. وهي ضرورة بسبب التحول الذي طرأ على المشروع الصهيوني، وما أصابه من التقدم في الآونة الأخيرة.

فلقد دخلنا الحرب الحاضرة، والذهنية المسيطرة علينا هي أن الحال لا تزال على ما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وما قبلها وأن المظاهرات والمناوشات والهجمات المتفرقة هنا وهناك التي جرينا عليها في ثوراتنا على الدولة المنتدبة كافية في الحرب الحاضرة. وخفي علينا أن غاية هذه الجهود حينذاك كانت إزعاج الدولة المنتدبة وإضعاف هيبتها وخلخلة أسس حكمها، والتأثير بذلك على الرأي العام فيها وفي العالم لتخفيف وطأتها ودفع الخطر الصهيوني القائم على حمايتها. ولما كانت السلطة البريطانية سلطة منتدبة، وحكمها موقت، نظرياً على الأقل، ولما كانت قوتها العسكرية أقوى كثيراً مما يمكن أهل فلسطين حشده، كان طبيعياً أن يتخذ جهادهم هذا النوع من الكفاح والثورة.

أما الآن فقد اختلفت الحال: لم يعد الجهاد موجهاً ضد دولة منتدبة بل ضد جماعة تؤمن بحقها في البلاد، ويؤازرها في هذا الايمان فريق كبير من الرأي العام العالمي بفضل نفوذها وسيطرة دعايتها. وهي مستعدة لأن تلقي بجميع قواها في الميدان، لأن المعركة عندها معركة موت أو حياة: العرب أمامها والبحر وراءها، وإذا فشلت الآن فسيقضى على حلمها وعلى الجهود البالغة التي بذلت لتحقيقه خلال السنين.

ثم إنها قد حرصت في السنوات الأخيرة على استكمال عدتها وتقوية جهازها، وتحولت من جوالٍ متفرقة ضعيفة إلى قوة موحدة، محكمة الربط، شديدة المراس. فلم تعد تنفع معها المناوشات، والهجمات المتفرقة، والتجهيز الجزئي فحسب، بل أصبحت الحاجة في كفاحها إلى حرب شاملة بالمعنى الحديث الذي أثبته الاختبار في الحربين العالميتين الماضيتين.

هذا التحول في وضع فلسطين والصهيونية يفرض علينا اتجاهاً جديداً في جهادنا الحاضر، ويضطرنا إلى تحقيق الشروط التي ذكرناها آنفاً ـ بل إلى تبديل ذهنيتنا الكفاحية تبديلاً أساسياً ـ ليحقق جهادنا مطلوبه، ويؤتي ثمره، ولنكون حقاً أبناء الحاضر لا أبناء الماضي. وخاسرٌ دوماً من يحارب الحاضر بالغابر!

* * *

سيقول القارىء: كل هذا قد يكون صحيحاً جميلاً. ولكن ما شأنه في القضية القائمة الآن وفي الأسئلة الملحة التي تجابهنا؟ أيستمر العرب في الهدنة التي فرضت عليهم فرضاً والتي تقوّي كل يوم جانب الصهيونيين عليهم؟ أيقبل العرب بالتقسيم، وقد تألبت أكثر قوى العالم لتنفيذه؟ أيّ موقف تقفه الدول العربية من الأمم المتحدة فيما إذا أصرت على تحقيق التقسيم بالقوة؟

والجواب عن هذه الأسئلة وسواها مما يثيره الوضع الحاضر موقوف على قوة العرب الحربية، وعلى مقدرتهم في توجيه ضربة سريعة ساحقة. والآراء في هذا الموضوع متضاربة: بين مؤكد أن القوى العربية أعجز في الوقت الحاضر، لأسباب مختلفة، عن أن تحقق هذا الأمر، وبين موقن، من جهة أخرى، من أن هذه القوى لو أطلق عنانها وأحسن تنظيمها وتنسيقها لسحقت العدو في فترة قصيرة، ووضعت العالم أمام الأمر الواقع. وعِلمُ ذلك عند الله والراسخين من قادة الدول العربية وخبرائها العسكريين. فلا مجال اذن لأي فرد خارج هذه الدائرة، أن يحكم فيه. بل ان من الجرم ابداء أي رأي في هذا الأمر الجلل، إلا إذا توافرت الأدلة على صحته، لما يترتب عليه من نتائج خطيرة لوضع فلسطين ووضع الدول العربية ذاتها.

ولكن سواء أضربنا هذه الضربة الساحقة ونجحنا فيها وتوصلنا إلى إقامة دولة موحدة ديمقراطية في فلسطين، أم عجزنا عنها وفرض الصهيونيون والعالم علينا التقسيم، فالكفاح يجب أن يظل قائماً. وان أسوأ ما يخشاه الناظر المحقق أن تخمد روح الكفاح هذه، حتى في حال نجاحنا بإقامة الدولة الموحدة، فيسري خطر الصهيونية في جسمنا المهلهل السقيم سريان السرطان، ونصحو يوماً فإذا بفلسطين كلها ـ حربياً ومالياً وروحياً ـ في يد الأقلية الصهيونية الناشطة المناضلة. كذلك في حال فشلنا وتحقيق التقسيم، سنصبح لا محالة فريسة سهلة لقوة الصهيونية الامتدادية واطماعها الاكتساحية، إذا نحن لم نواصل جهادنا ونراعِ بيقظة ودقة الشروط التي ذكرنا انها واجبة لنجاحه.

بل ان هذا الخطر الامتدادي الاكتساحي ماثل الآن، وقبل نهاية المعركة، فلنحذر من متابعة طريقنا السابقة الملتوية، ولنجابهه بكل ما أوتينا من عزم وما نستطيع أن نؤلب من قوى، ولنوفّ لجهادنا الحاضر شروطه الخمسة الأساسية، فنبدأ بذلك طريق الخلاص الحقيقية!

إن عِظَمَ المجهود مقيسٌ بعظم الغاية!

الحلّ الأساسي

إن الجهاد الحاضر الذي وصفناه وأبنّا أركانه وشروطه واجب للمعركة القائمة الآن. غير أن محاربة الصهيونية لاستئصال جذورها والتغلب التام عليها لا تتم في معركة واحدة، بل تتطلب حرباً مديدة الأفق بعيدة الأجل. ولنسارع إلى القول ــ بكل صراحة واخلاص ــ إن هذه الحرب لن تؤدي إلى نصر العرب ما داموا في وضعهم الحاضر، وان جُلّ ما يستطيعون تحقيقه في هذا الوضع هو اتقاء شر الصهيونية الآنيّ وحماية ما يمكن حمايته من الكيان العربي. أما الغلبة التامة النهائية على هذا الشر، فسبيلها غير هذا: سبيلها تبدل أساسي في الوضع العربي، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها.

ان ما أحرزه الصهيونيون من نصر ــ ولن ينكر هذا النصر إلا متغافلٌ متعام ــ ليس مرده تفوّق قوم على قوم، بل تميّز نظام على نظام. سببه ان جذور الصهيونية متأصلة في الحياة الغربية الحديثة، بينما نحن لا نزال في الأغلب بعيدين عن هذه الحياة متنكرين لها. سببه أنهم يعيشون في الحاضر وللمستقبل، في حين اننا لا نزال نحلم أحلام الماضي ونخدّر أنفسنا بمجده الغابر.

الخطر الصهيوني، بل كل خطر اعتدائي علينا، لا يرده إلا كيان عربي قومي متحد تقدمي. فإنشاء هذا الكيان هو الركن الأول للجهاد العربي البعيد، ولا يتم ــ كما قلت ــ إلا بانقلاب أساسي في الحياة العربية، ومن هنا كان الجهاد الخارجي لدفع الأخطار الاعتدائية مربوطاً بالجهاد الداخلي لإقامة الكيان العربي السليم، بل موقوفاً عليه ومرهوناً بنجاحه.

تُرى أيحق لنا أن نقول إن ثمت وطناً عربياً؟ إذا عنينا بالوطن الجبال والأنهار،

والسهول والشواطىء، فهو موجود بلا شك، منذ أن نزل العرب ديارهم الحاضرة. أما إذا عنينا به ــ كما هو الواجب والصحيح ــ تغلغُل معنى الوطن في الذهن العربي، وتولد الإرادة لحمايته واعلاء شأنه واطراد تقدمه، فلا!

وسؤال آخر: هل ثمت أمة عربية؟ إذا أردنا بذلك شعوباً تتكلم اللغة العربية وتنطوي على إمكانات لتحقيق هذه الأمة، فالجواب بالايجاب. أما إذا أردنا بهذا اللفظ ــ كما هو الواجب والصحيح ــ أمة موحدة المنازع، محققة الإمكانات، تتوجه للمستقبل، وتفتح عينها للنور، وصدرها للخير، أنى كان مصدرهما، فلا!

الصهيونيون لم يكن لهم وطن قائم بالمعنى الطبيعي الأول فنسجوا من تاريخهم القديم ومن آلامهم الحاضرة وآمالهم للمستقبل حلماً وعمدوا إلى تحقيقه في أرض غير أرضهم، وقطعوا في هذا التحقيق شوطاً غير قصير، سلاحهم في ذلك تغلغل هذا الحلم وإرادة تحقيقه في صميم حياتهم، واتحادهم في هذه الإرادة، وتأصّل نفوسهم في الحياة الغربية الحديثة، واستعدادها لكل تقدم وتوثب.

ليس لهؤلاء الصهيونيين مزايا الأمة الموحدة. فهم من بلاد متباعدة، يتكلمون لغات مختلفة، وينهجون مناهج متباينة، لا تربطهم إلا رابطة الدين والألم. ومع ذلك فقد وحّدتهم الفكرة، وشحذت هممهم، وخلقت فيهم الإرادة الحاسمة للنضال، فكادوا يحققون ــ بهذه الإرادة، وبإقبالهم المطلق على الحضارة الحديثة ــ ما ليس طبيعياً، بينما ان الطبيعي عند العرب ــ ان يكوّنوا أمة ــ لا يزال غير محقق. وهنا الفارق الفاصل!

إن إرادة البقاء والكفاح لا تُصَدّ إلا بإرادة مثلها وأقوى منها. ووحدة الولاء لا تُقهر إلا بوحدة أتم وولاء أشد. والنظام القائم على المدنية الحديثة لا يُغلب إلا بنظام أوسع أخذاً لهذه المدنية وأوفر تسلحاً بقواها. والذهنية المتطورة المتوثبة لن تقف أمامها ذهنية بدائية راكدة. وبالإجمال نكرر: إن الخطر الصهيوني، بل كل خطر أجنبي لا يُدفع إلا بكيان عربي متحد محقق لهذه الصفات، ومثل هذا الكيان لا يتأتى للعرب إلا بانقلاب أساسي في نظم عيشهم. فإلى تفهم حقيقة هذا الكيان، وإلى تلمس سبل ايجاده، يجب أن تنصرف أذهان المفكرين والعاملين في البلاد العربية، الراغبين في حل القضية الصهيونية، بل القضية العربية بكاملها، حلاً أساسياً ناجعاً.

* * *

فما هي، اذن، صفات هذا الكيان العربي الذي يجب تحقيقه؟

أولى هذه الصفات الاتحاد: أي أن ينتظم العرب في دولة اتحادية توحّد فيها سياستهم الخارجية والاقتصادية، وقواهم الدفاعية. فإن خمس دول أو ستاً، أو سبعاً مستقلة الواحدة عن الأخرى استقلالاً تاماً ــ فيما عدا هذه الرابطة الضعيفة التي تمثلها

الجامعة ـ مهتمة كل منها بشؤونها ومصالحها الداخلية، واقعة تحت تأثيرات أجنبية مختلفة وسلطات داخلية ذات مصالح متضاربة ـ ان دولاً هذا شأنها لا تستطيع دفع عوادي هذا الزمن الجارفة. وإذا كان الاتحاد المنشود غاية قومية يستلزمها ما بين العرب من روابط لغوية وتاريخية ومصلحية، فإن الخطر الصهيوني قد جعلها شرطاً للبقاء ومستلزماً للحياة نفسها، لأن هذا الخطر، مضافاً إليه الأخطار الأجنبية الأخرى، كفيل بأن يندسّ بين هذه الدول، ويدق في جوانبها الأسافين، فيقوي الاختلاف، ويزيد المصالح المفرقة تباعداً وتناقضاً، والبناء العربي خلخلة وتصدعاً. والعصي ما دامت منفرطة أو مربوطة بخيط هزيل، فمن اليسير أن تكسّر الواحدة تلو الأخرى. ولا يسلمها من العطب، إلا شدّ وثاقها بحيث لا تنفرط، بل تواجه كل ضربة متحدة قوية، فتردها خاسئة خاسرة.

على أن هذا الاتحاد وحده لا يكفي. بل هو نفسه لا يتم إذا لم يتحقق للعرب شرط آخر أساسي: هو التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري. ولذلك وصفنا الكيان العربي القومي المتحد المنشود بأنه أيضاً تقدمي(١).

وقد أصبح من الضروري لنا أن نعلم ـ بعد ان غدت القومية عندنا لفظة سهلة تدور على كل لسان ـ ان التكون القومي لم يظهر في الغرب، ولن يظهر في أية بقعة من بقاع الأرض، إذا لم تتوفر له شروط اقتصادية واجتماعية وفكرية معينة. فهو لم ينشأ إلا على أنقاض الاقطاعية ـ بلهَ القبلية ـ والطائفية والجبرية والغيبية. لم يقم إلا عندما دخلت الآلة فقلبت النظام البدائي الراكد المتفرق في الاقتصاد والعيش إلى نظام متطور اختصاصي متشابك، وعندما خُفضت الحواجز المنيعة القائمة بين طبقات الشعب، وسرى العلم المنطقي المنظم فضبط نوازع الخيال ومجاري الفكر وحوّل العقلية البسيطة الساذجة إلى عقلية واعية متفتحة مركبة.

فالذين يعملون اليوم لإنشاء قومية عربية واتحاد عربي على أساس الوضع الاجتماعي الحاضر يحاولون عبثاً، لأن جهودهم لا تماشي مجرى التاريخ وقوانين الاجتماع. ولن تثمر هذه الجهود إلا إذا ارتبط الجهاد للاتحاد بجهاد للانقلاب الداخلي وبُني على أساسه. فالقومية والاتحاد القومي اللذان قاما في عصر معين ـ هو العصر الحديث ـ وما يمثله من تطور في الفكر والعمل، لا يلتئمان بشكل من الأشكال مع نظم

---

(١) يخشى بعض القوميين استعمال عبارات «التقدمية» و«الانقلابية» وأمثالهما لكثرة ما يرددها الشيوعيون، كأنها وقف عليهم وحدهم. على أني لست اعني بها هنا الثورة الطبقية أو سواها من معاني النظرية الشيوعية. وقد آن الوقت الذي يجب أن تعلم به فتاتنا المتحفزة للتحرر، ان التقدم والتوثب لتحقيق الحرية، والثورة على الرجعية والاستغلال ليست من احتكار الشيوعية، كما ان قوميينا يجب أن يدركوا أن أكبر خطر على قوميتنا هو الرجعية بشتى مظاهرها، وانهم إذا ارادوا أن يحاربوا الشيوعية حقاً فسبيلهم الوحيد ان تكون قوميتهم مجارية لقوى الزمان، مكافحة لمقيدات الماضي، ثائرة على كل استغلال متلمسة سبل التقدم انى كانت.

القرون القديمة والوسطى وعقليتها.

هذا التطور بل ـ في حالتنا نحن ـ الانقلاب، شرط لازم اذن لبناء كياننا المنتظر. والصفات الثلاث التي أطلقناها على هذا الكيان: «قومي متحد تقدمي»، مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، لا تقوم الواحدة منها إلاّ بالأخرى. وهذه التقدمية الواجبة للبناء القومي هي، في الوقت نفسه، سلاح لا بُدّ منه لمجابهة الخطر الصهيوني وسواه من الأخطار الاعتدائية. وبهذا السلاح ـ كما ذكرنا آنفاً ـ تغلب علينا الصهيونيون في هذه المرحلة من كفاحنا، وسيظلون يتغلبون ما دمنا عنه معرضين.

* * *

فما هي عناصر هذه التقدمية، وما هي غايات الانقلاب المنشود؟

ليس هنا مجال التفصيل في هذا الموضوع، ومقابلة ما عليه وضعنا الحاضر بما يجب أن نكون. وإنما نوجز فنقول إن غايات هذا الانقلاب تجتمع أخيراً في غاية واحدة واضحة، هي أن نصبح بالفعل وبالروح، لا بالاسم والجسم فقط، قسماً من العالم الذي نعيش فيه، نجاريه في نظم العيش والفكر، ونتكلم لغته، ونتصل بأصوله، ونضم مقدراتنا إلى مقدراته. ولبلوغ هذه الغاية يجب أن نتخذ خطى عديدة تقلب حياتنا من أوضاع العصور الوسطى والقديمة إلى وضع العصر الحديث.

وأهم هذه الخطى، في نظري، هي التالية، أعدّدها، تاركاً استقصاء بحثها وتفصيله إلى مناسبة أخرى.

أولاً: اقتباس الآلة واستخدامها في استثمار مواردنا على أوسع نطاق ممكن. والآلة هي في مقدمة العوامل التي أحدثت في الغرب ذلك الانقلاب الذي أدّى إلى نظام الحياة الحديثة. وادخالها في حياتنا الحاضرة، وما ينتج عنه من «تصنيع» لهذه الحياة، كفيل إلى حدّ بعيد بتهديم القبلية والاقطاعية وسواهما من النظم القائمة في وجه القومية.

ثانياً: فصل الدولة عن التنظيم الديني فصلاً مطلقاً، فإن الفكرة القومية منافية للثيوقراطية الحرفية. وكل دولة في الغرب إنما حققت من التماسك القومي بقدر ما استأصلت من جذور الطائفية ونظمت حياتها على أساس آخر ما توصل إليه العقل المتفتح والفكر المتراكم.

ثالثاً: تدريب العقل وتنظيمه بالإقبال على العلوم الوضعية والتجريبية، وتوجيه الجهد الثقافي في الأمة إلى تحقيق أكبر قدر من هذا الانتظام العلمي، والابتعاد ما أمكن عن الخيال المخدّر والرومانطيقية المائعة، الضائعة المضيعة. فليس كالعقل المنتظم أداة لاستئصال الباطل وتركيز حياة الأمة على أسس سليمة.

رابعاً: ـ وعلى وجه الاجمال ـ فتحُ الصدر واسعاً لاكتساب خير ما حققته الحضارات الإنسانية من قيم عقلية وروحية أثبت صحتها الاختبار الإنساني الجاهد ـ فكراً وعملاً ـ لبناء الحضارة. فإنشاء الدول لا يقوم على اكتساب الأدوات المادية والعقلية وحسن استخدامها فحسب، بل على متانة في الخلق، وعمق في الايمان، وصبر على المكاره، وانطلاق إلى الخير: وهذه كلها لا تتحقق إلا إذا ثبتت الأمة جذورها في القيم الأساسية التي كشف عنها الجهاد الإنساني خلال العصور.

هذه، عندي، هي الصفات الأساسية للتقدمية المنشودة وللانقلاب المرغوب فيه لحياتنا الحاضرة. وقد ينظر البعض إلى هذا الرأي شزراً، ويظنون أن في هذا الإلحاح على اقتباس المدنية الحديثة، بماديتها وروحيتها، خروجاً على تاريخنا وإضاعة لتقاليدنا القومية. والواقع ان من تقاليدنا ما هو زائل، وهذا سيتهدم وينهزم أمام قوى الحضارة الحديثة، سواء أشئنا أم أبينا. أما الصحيح الباقي، الموافق لهذا الزمان، بل لكل زمان، فهذا لا نستطيع أن نكتشفه ونفصله عن الفاسد الزائل، ونتمثله في حياتنا الحاضرة تمثلاً تاماً محيياً، إلا بفعل العقل المتحرر المنتظم الذي يجب أن نقتبسه من المدنية الحديثة ونبني انقلابنا على أساسه.

ومهما يكن من أمر، فليطمئن المشككون! إذ لن تستطيع هذه التقدمية أن تودي بنا إلى شر مما نحن عليه. فلقد انتهى وضعنا الحاضر، لدى الهزة التي أصابته من النضال الصهيوني، إلى افلاس مادي ومعنوي فاجع، ولم تغننا تقاليدنا في هذا النضال فتيلا. بل وجدنا ان عدونا ـ بالرغم مما اكتسب واختزن من الحضارة الحديثة، بل بفضل هذا الاختزان ـ يفوقنا في شدة الايمان،ووحدة الولاء والتمسك بالقوم والأرض والوطن، مثلما يفوقنا في الأسلحة الحربية والأدوات المادية. فلا خوف إذن علينا من هذه التقدمية القومية، بل الخوف كل الخوف من الانقباض عنها والتنكر لها والاختناق في أصدافنا الصلبة الموروثة.

* * *

بقي سؤال واحد وأخير: ما السبيل إلى هذا الانقلاب الشامل المحقق للتقدم القومي على أبلغ وجه وأوسع نطاق؟

هنالك سبل ممهدة لهذا الانقلاب ومساعدة له، منها: تشجيع الجهد الوطني في استغلال موارد البلاد، ونشر العلم والثقافة بشتى الوسائل، وتوسيع مدى الحريات السياسية والاجتماعية والفكرية، واصلاح سبل الإدارة، وما إلى ذلك من وسائل التطور والتقدم.

غير ان هذه الوسائل، على ما لها من الأثر البعيد في الانقلاب المنشود، محدودة من وجهتين: الأولى أنها بطيئة العمل، تحتاج إلى جهد مديد ووقت طويل لكي تحدث

التبديل الأساسي المرجوّ لوضعنا الحاضر. ونحن في حال لا نستطيع معها أن نفسح للوقت مداه، وان نطلق للجهد حريته ليقوم بعمله على مهل وبراحة. الأخطار الخارجية والداخلية التي تهدد كياننا لا تسمح لنا بانتظار التطور والتدرج، بل تفرض علينا الوثب والانقلاب، إذا أردنا السلامة وآثرنا البقاء. ثم ان هذه الوسائل المذكورة تحتاج إلى من يوجدها ويقويها ويعممها: إلى صَنَعَة مخلصين قادرين، وقادة مبدعين. فهي، من جهتها، تساعد على وجود هؤلاء القادة، ولكن هؤلاء، متى وجدوا، هم الذين يضبطونها ويوجهونها لتغزير نتائجها وتعزيز أثرها في احداث التبديل الأساسي المطلوب.

ان عوامل التقدم، كجميع قوى الحياة، متداخلة متشابكة، فالسبب يُحدث نتيجة، وهذه بدورها قد تصبح سبباً وتفعل في السبب الأول تقوية وتدعيماً. وليس من عاقل يود أن يُبطل الوسائل التطورية التي ذكرناها ــ كنشر العلم وما إليه ــ ولكن لا شك في أن نقطة الانطلاق في ما يجب أن نسعى إليه اليوم من تبديل وانقلاب إنما هي في القادة والصّنَعة، في الفئة المختارة المبدعة التي تستطيع أن تقبض على هذه الوسائل وتدفعها دفعاً في السبيل الوحيدة المطلوبة.

هذه الفئة المختارة التي ستُلقي على عاتقها هذه المهمة الخطيرة ــ بل التي ستأخذ هي هذه المهمة وتقتنصها اقتناصاً ــ يجب أن تكون قد حققت في نفسها التقدم والانقلاب اللذين تسعى إليهما في المجتمع. فالذي يعمل عن شهوة لا عن ايمان لا يستطيع أن يبث الايمان في الأمة، مهما علا صوته وزخرف قوله. والذي لم يحرر نفسه بل ظلّ عبداً لنوازعه وأطماعه لا يمكنه أن يحرر الغير، مهما ارتفع مركزه وعظمت سلطته. والذي يخيم الظلام على عقله ويعشش عنكبوت التعصب والرجعية في زوايا دماغه لن يتأتى له أن يبث النور في أمته، وأن ينشر التسامح والتضامن والوحدة في مجتمعه، مهما تظاهر بهذا اللون واكتسى هذا الكساء.

ولذا فالشرط الأول لنجاح العمل التقدمي الانقلابي ان يكون قادته وأربابه تقدميين في أنفسهم، انقلابيين في صميمهم. فعلى كل من يتصدى لهذه المهمة الخطيرة، ان يزن نفسه بهذا الميزان، ويقدرها هذا القدر، وعلى الشعب عامة ــ والمثقفين المتحررين منه خاصة ــ ان يحكّوا قادتهم بهذا المحك، فمن خلص معدنه كان حرياً بالقيادة، ومن ثبت زَغَله حُكم عليه ونال جزاءه.

ومن متممات وجود هذه الفئة المختارة ان تنتظم وتتحد في أحزاب ومنظمات محكمة تقوم على عقيدة صافية موحدة، وترتبط بولاء صحيح متين تُخضِع كافة نزعاتها له وتدين به عن رضى واختيار. وان نظرة واحدة إلى تاريخ النهضات في العالم لتدلّ بأجلى بيان على أن اجتماع قوى هذه الفئات المناضلة في هذه المؤسسات الحزبية وسواها كان أكبر عامل في إحداث النهضة وقلب الأوضاع.

ومن متممات وجود هذه الفئة كذلك ان تُبرز إلى الوجود الزعامة الحقيقية، وان تولد أولئك الأفراد الذين يبنون الدول ويخلقون الأمم ويصنعون التاريخ. أولئك الذين تمتد جذورهم عميقة إلى حياة الشعب كما هي، وترتفع أنظارهم في الوقت نفسه إلى ما يجب أن تكون، وما يزالون يعملون، بمساندة اخوانهم في العقيدة والولاء، حتى يتم لهم أو لمن بعدهم صوغ الحياة الجديدة وتعمير الكيان المتهدم. أولئك الذين يعيشون كل دقيقة من دقائق عمرهم تحت وطأة الضمير، وفي رهبة من حكم التاريخ. أولئك المتصوفون ـ لا تصوف زهد وإعراض، بل تصوف إقبال واقدام ـ الذين لا يسعون إلى الرضى والسعادة، بل تأتيهم السعادة والرضى في فناء ذواتهم بذات الوطن الكبرى. وبكلمة: أولئك الذين بدونهم، وبدون أمثالهم من المصلحين، ما وجدت أمة، ولا زهت حضارة، ولا كان للحياة الإنسانية أي طعم أو معنى.

* * *

ان الكيان العربي القومي المتحد التقدمي الذي يتضمن، كما قلنا، الحلّ الأساسي لقضية فلسطين بل للقضية العربية كلها، سيبقى حلماً وإمكانية، ما لم يتحقق أولاً في نفوس الفئة المناضلة من أبناء الأمة ـ وعلى رأسها الزعامة الحقيقية المتولدة منها ـ ثم في النظم التي تنتظم بها هذه الفئة، والأحزاب والمؤسسات التي تنشئها.

وينظر أحدنا حوله فيجد ان نقطة الانطلاق هذه ما تزال ضعيفة، وأن الفئة المناضلة المطلوبة ما تزال قليلة متفرقة، لم تتقوَ بعد بالنظر النير والجهاد الصاهر، وقد تضافرت مناوآت الاستعمار والطبقات الحاكمة ومغرياتها على إضعافها وتشتيتها، فكان لأفرادها بعض الأثر، ولكن لم يكن لها مجتمعةً متحدة اثر ملموس أو عمل بيّن.

ويلتفت فتيان هذه الأمم وشبانها، فلا يجدون ضالتهم، من جهة، في الزعامات القائمة، ولا تروي طموحهم المتوثب، من جهة أخرى، جهودُ الفئات القومية المتفرقة، فيجتاحهم اليأس، وتطغى على نفوسهم الحيرة: فإما أن ينتهوا إلى الشك في ذات أمتهم، والقنوط من إمكانيات شعبهم، ويتبعوا الطريق المرسومة في ارضاء الشهوات والتهالك على المغريات، وإما أن يصبحوا طُعماً لأية حركة هدمية، يجدون عزاءهم في الصخب والاضطراب لذاتهما، ومهما كانت نتيجتهما. ولا ينجو من هذه الأخطار ويحافظ على ايمانه وعقيدته إلا قلة من ذوي النفوس القوية والأعصاب المتينة. ولكن حتى هؤلاء في خطر من التفرق والضياع بعد نكبة فلسطين!

على أنه مهما كان من أمر، ومهما كانت عليه فئاتنا المناضلة في هذه الأيام من ضعف وتفرق، فمما لا شك فيه ان منها نقطة الانطلاق، ومبدأ الطريق، ومبعث الرجاء.

* * *

هوذا مبدأ الطريق. أما اتجاهه ففي شحذ روح المقاومة والجهاد عند هذه الفئات المناضلة، ودوام تفاعلها مع الشعب واحساسها بحاجاته، وتتبعها لنهضات الأمم الأخرى واكتسابها لاختباراتها، وتمكين تآلفها وانتظامها، وانصهارها في الولاء الواحد، وتكرّسها المتجدد للغاية المرسومة ـ إلى أن تصبح من القوة والاتحاد بحيث تحقق الكيان المرجو في ذاتها، فتغدو بذلك أهلاً لأن تحققه في مجتمعها.

إن الانقلاب الأساسي في وضعنا الحاضر، الذي فيه حلّ قضية فلسطين والقضية العربية بمجموعها، مرهون بمدى ما تقطعه فئاتنا المناضلة في هذه الطريق، وبنوع الزعامة التي ستتولد منها في جهادها هذا. ولعل هذه الفئات ستجد أن أول ما يتطلبه هذا الانقلاب انقلابٌ في ذاتها، وذهنيتها، وطرق تفكيرها وعملها. فالثورة، ما لم تبدأ في النفس وعلى النفس، لا يمكن أن تنتهي إلى الغير أو أن يكون لها أي أثر في المجتمع. فلتنظر فئاتنا المناضلة في نفسها بهذا المنظار، ولتحاسب نفسها هذا الحساب، فالموقف فاصل، والنتائج حاسمة، وقوى الحياة لا ترحم.

وفي النهاية لن يصيبنا، ولن نُصيب، إلا ما نستحق!

معنى النكبة

إن المتتبع لتاريخ الأمم وتطور الحضارات ليلاحظ أن نشوءها وتقدمها منوطان بما يكتنفها من صعاب وشدائد. وليس صحيحاً ما يقوله البعض إن الحضارات ظهرت أولاً في بلاد خصبة الأرض، سهلة الموارد، جيدة المناخ. فاليسر والسهولة لم يكونا يوماً من الأيام سبيلاً إلى النمو والتقدم. وإنما نشأت الحضارات ونمت عندما جابهتها في محيطها الطبيعي أو البشري مصاعب ومشاكل دعتها إلى جهد الفكر وبذل النفس للتغلب عليها. فكان في هذا البذل والجهد سبب تقدمها وسبيل خلاصها.

وحالُ الأمم في هذا حال الأفراد. وكلنا يعلم أن الفتى الذي ييسر له أبواه جميع أسباب التعلم والعمل، لا يصيب ما يصيبه الفتى المعوز المضطر من كسب ونجاح. ولهذا نرى الأسر في الأغلب أجيالاً: جيلاً يبني ويجمع بالجد والنصب، ثم يأتي من يتمتع ويتنعم، ثم من يبذر فيضيع.

فالمصاعب والشدائد ـ حتى النكبات ـ حافز إذن للأفراد والجماعات، وعلة من علل تنبهها ونهضتها. ولكنها ليست كذلك في جميع الأحوال. ففي بعضها تكون سبباً للتهدم والانهيار، والتبدد والزوال.

الضربة التي توقظ الفتى الناشيء وتؤدي إلى رد من جانبه عنيف قد تقضي على الشيخ الهرم المتداعي. والمشكلة التي تنبه العقل المتفتح وتزيده نشاطاً وفعالية قد تشلّ العقل المتفسخ المتراخي.

وكذلك عند الأمم: فربّ أمة تغلبت على ما في محيطها الطبيعي من عوائق وحواجز، وأخرى ارتدت عن مثل هذه العوائق عاجزة خاسرة. بل ان الأمة نفسها تكون في دور من أدوار حياتها أقدر على تذليل عقبة ما مما هي في دور آخر، وتستطيع في بعض الأحوال ان تتلقى الهجمات والنكبات وتنهض أكثر قوة وحيوية، بينما تنهزم، أو

تنعدم، في حال أخرى. والتاريخ مليء بالشواهد على هذا كله.

يعتقد البعض ان هجمات البرابرة هي التي قضت على الدولة الرومانية. والواقع ان الامبراطرية الرومانية كانت قد تلقت قبل البرابرة صدمات أشد هولاً وأعظم خطباً، فصمدت لها وتغلبت عليها، بل اكتسبت من عراكها قوة جديدة وعزماً أنفذ. ولكنها، عند مجيء البرابرة، كانت قد انحلت داخلياً، فلم تقف أمام هجماتهم. بل ان انحلالها ذاته هو الذي دعا البرابرة إليها، وأطمعهم فيها.

وما زال بعضنا يؤمن بأن غزوات الترك والتتر هي التي قضت على الخلافة العباسية وعلى الملك العربي عموماً. ولكن الواقع هنا أيضاً هو أن العرب كانوا قد غُلبوا على أمرهم داخلياً، قبل أن يغلبهم التتر، وأنهم لو شُنت عليهم تلك الغزوات وهم في دور تنبههم ونموهم لما طغت عليهم، بل لعلها كانت، بالعكس، منشطة لهم ومجددة.

وهكذا الحال عند باقي الأمم.

* * *

إن النكبة التي نزلت بنا اليوم هي اذن محك لوضعنا الداخلي الحاضر. فإذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا، فإن هذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالا وتفرقاً. أما إذا كان لعوامل التقدم والنمو بعض القوة ـ حتى لو لم تكن هي السائدة ـ فإن الصدمة العنيفة التي تلقيناها خليقةٌ بأن تعزز هذه العوامل وتمشي بها قُدماً بمزيد همة، وتراكم أثر.

وإنا كثيراً ما نتكلم عن نهضتنا العربية الحاضرة ونباهي بها. هذه النهضة هي اليوم رهن التحقيق، وفي نار المختبر: فإما أن تخرج بريئة خالصة، وإما أن يظهر ضعفها وفسادها، وطغيان قشورها على لبها، وصخبها على صحيح عملها.

ولما كانت القوى المناضلة التقدمية هي التي تحمل في النهاية أعباء هذه النهضة، فإن النكبة الحاضرة ـ بل كل صدمة تلقيناها في الماضي، أو سنتلقاها في المستقبل ـ هي في الحقيقة اختبار لها، وامتحان لمناعتها ومتانتها، ولكفاءتها للعمل وأهليتها للقيادة. وهذا الامتحان لا قيمة له ولا أثر إذا لم يكن المرء واعياً إياه، بل إذا لم يصبح هو ذاته الممتحَن والممتحِن بوقت واحد.

فعلى كل عربي يضع نفسه في هذه المرتبة أن يتفحص حاله ويتبين قدره. على رجال الفكر، وعلى المجاهدين في شتى مناحي العمل، بل على كل متوثب متحفز لخدمة أمته ـ على هؤلاء جميعاً أن يمتحنوا أنفسهم، فرادى وجماعات، ليروا ما إذا كانت هذه النكبة قد أضعفتهم وشتتتهم أو زادتهم عزيمة ومضاء واتحاداً.

ليمتحنوا خُلقهم ومقدرتهم على الصمود في وجه التعسف والإغراء!

ليمتحنوا عقيدتهم وولاءهم وقوتهما إزاء المحن والخطوب!

ليتفحصوا تقدميتهم وانقلابيتهم وحدّتهما وصلابتهما أمام ضغط الرجعية وحملاتها!

ليقيسوا تفتح أعينهم للنور، وصدورهم للتحرر بكل معانيه!

ليحاسبوا أنفسهم، ويثوروا على مواطن الضعف والتشتت فيها، ويحتفظوا بعناصر القوة ويمكّنوها!.

فإن فعلوا ذلك، خرجوا من هذه النكبة أمضى عزيمة وأقوى اتحاداً، وكان لأمتهم رجاء في الحياة وعدة للمستقبل.

عندها ينقّى، بنار المحنة، جوهرنا ويتبلور كياننا.

عندها، وعندها فقط، يكون للنكبة معنى ايجابي بنائي.

عندها، وعندها فقط، يخرج من العسر يسرٌ، ومن الاضطراب عزمٌ وصفاء، ومن النكبة بذور ظفر وانتصار!

ملحق
في مبادىء جهادنا في فلسطين

يجد القارىء في ما يلي فصلين كتبا في مناسبتين مختلفتين قبل النكبة، حاولت أن أبين فيهما المبادىء التي يرتكز عليها جهادنا في فلسطين. ويخيّل إليّ الآن، وقد حدث ما حدث، ان القارىء سيشعر لدى قراءتهما بشيء من الفراغ في ألفاظهما ومعانيهما، وسيتساءل عما إذا كان يصح لنا أن نتحدث عن المبادىء، بعد أن أثبت سير قضية فلسطين ان الكلمة العليا هي للقوة، وان المصلحة طاغية طغياناً تاماً في سياسات الدول وعلاقاتها بعضها ببعض.

سيقول، ولا شك: آمنت بسمو المبادىء التي تقوم عليها قضيتنا، ولكن ما نفع ذلك وغناؤه؟ ماذا أفاد العربَ صحة هذه المبادىء وعدالتها؟ أي أثر كان لها في القرارات التي اتخذتها أعلى المنظمات الدولية في هذه القضية، وفي السياسات التي تتبعها الدول الكبرى والصغرى تجاهها؟ هل ثمت ضمير دولي أو عالمي يتأثر بالحق والمبدأ، عندما تلوح المصلحة المادية، أو يفعل النفوذ فعله، أو تكشر القوة عن أنيابها؟ لنُشِح بوجهنا إذن عن الكلام الطيب والمعنى الجميل، ولننصرف بكل ما فينا إلى التجهز المادي وإلى استجماع القوى وتعبئة الموارد للمضي في كفاحنا.

وما أنا عن هذه الدعوة إلى بعث قوانا وتجميعها بغريب. بل إذا كان ثمت مغزى لتحليلي، في صلب هذا الكتاب، لأسباب نكبتنا وسبل معالجتها، فهو هذا بالضبط. هو تنمية روح الكفاح،وتعبئة الموارد، وتعميم الجهاد. هو استئصال جذور الضعف وبواعث التفرقة، وتنقية جسم الأمة من ادران الفساد والرجعية ليغدو سليماً قوياً مؤهلاً للبقاء والنمو، متغلباً على نفسه قادراً بذلك على الصمود لسواه. هو الانبعاث القومي الشامل، والتجدد التقدمي الدائم.

على ان هذه الدعوة إلىالتقوّي والانبعاث لا تنافي تحرّي المبادىء واتباعها. بل ان

١

الجهاد ليكتسب قوة إذا استند إلى عقيدة، وصدر عن ايمان، وتعلق بمبادىء سامية وقيم أصيلة. هكذا علّم التاريخ وأثبت اختبار الشعوب. فالقوة العارية الغاشمة كثيراً ما طغت في حياة الأمم، ولكن إلى حين. والثورات التي نشدت الاستيلاء على السلطة فحسب، لم تؤدِ إلى غير الاضطراب والهدم. أما الثورات الحقيقية، الثورات البانية المجددة، فقد كانت تدعمها المبادىء، وتسيرها الأحلام الجميلة والمثل العليا الساطية على أذهان القادة، المحركة لنفوس الشعب.

فلا يضير جهادنا في فلسطين إذن ان يصدر عن مبادىء صحيحة، ولا يضير انقلابنا القومي المنشود أن تدعو إليه عقيدة سليمة وترسمه أحلام صادقة ومثل عليا مبدعة. إنما الضير كل الضير ان نعتقد أن هذه أو تلك قادرة على حفظ كياننا وتأمين تقدمنا، إذا نحن لم نعقل جملنا، ونحزم أمرنا، ونعدّ لغدنا ما استطعنا من قوة.

وليست هذه القوة المنشودة في المال والسلاح والوسائل المادية وحدها. وإنما هي أيضاً في عمق الإيمان، وشدة الولاء، والاستعداد للتضحية، والثبات في وجه التثبيط والاغراء. هي في قوة الخلق، ومتانة العصب، وسلامة النفس. هي في اتفاق الرأي، واتحاد العمل، وانصباب الجهد في السبيل المؤدية للغاية.

هذه القوة، الخلقية الروحية، الضرورية للنضال لا تتأتى للمرء أو للشعب إذا لم يتبين المبادىء التي يرتكز عليها نضاله، والغايات التي يسعى إلى تحقيقها، وقيمة هذه الغايات والمبادىء في ميزان الاختبار التاريخي والتقدم البشري.

ان من دلائل الفساد واختلال القيم والموازين في هذا العصر ــ ذلك الفساد الذي بدا واضحاً فاضحاً في سير قضية فلسطين ــ ان يعمد رجل مهمته خدمة الفكر وغرس المبادىء في قلوب الناشئة إلى أن «يُلحق» بحثه في المبادىء إلحاقاً بدلاً من أن يضعه في المقدمة، وإلى أن يضطر إلى أن يبرر لنفسه ولقرائه ولوج هذا البحث. ولكن، ليُسجلْ لنا، على الأقل، اننا لم ننسَ هذه المبادىء، ولنظلّ، من جانبنا، نعمل في تثبيت أصولنا فيها، وتقوية نفوسنا بما تبعث من عزيمة وايمان، ولنحتفظ بها ونستند إليها ونستمد منها ونحن نجمع قوانا للكفاح الحاضر وللانقلاب القومي المنتظر.

هذا الذي أهاب بي إلى ضم هذين الفصلين إلى الرسالة، آملاً أن تتسق فكرتهما وفكرتها، وأن يؤديا معاً بعض ما أرجو في إعداد الفكر الصحيح والعمل المثمر لحل قضيتنا العاجلة والآجلة.

الصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين(*)

(*) نشر في العدد الخاص بعيد الميلاد (١٩٤٧) من جريدة **العمل** (بيروت).

طلبت مني جريدة «**العمل**» الغراء أن أكتب مقالاً في القضية الفلسطينية، فترددت لسببين: أولاً كثرة ما كتب في هذا الموضوع من نواحيه المختلفة، وما توافينا به الصحف والمجلات والراديو يومياً من آراء الساسة والكتّاب والمعلقين على الأخبار مما لم يعد يفتقر إلى مزيد، وثانياً ان هذه القضية قد بلغت حداً لم تعد الحاجة فيه إلى القول والجدل والمناقشة، بل إلى العمل السريع والتنفيذ الحاسم. غير اني عدت فلبيت الطلب، آملاً أن يكون في ما سأقول بعض الفائدة في إنارة المشكلة والكشف عن أسسها.

ولما كانت ظواهر هذه المشكلة متعددة، وتفاصيلها متشعبة، وكانت هذه الظواهر والتفاصيل قد أخذت، كما قلت، بالبحث الواسع والشرح المستفيض، رأيت أن خير ما يمكن عمله هو النفاذ إلى الجوهر ورد الفروع إلى الأصل. فالمشاكل لا تُفهم في حقيقتها إلا عندما تردّ إلى أصولها ومبادئها. وقد كان من أثر الدعاية الصهيونية الهائلة ان حيك حول لب المشكلة الفلسطينية نسيج من الآراء المضللة ألهى الرأي العام العالمي عن حقيقة ذلك اللب، فأصبح من العسير العودة إليه والوقوف على حقيقته. فلنعرّ هذه المشكلة اذن من ظواهرها وأعراضها، ولننفذ إلى الباطن والجوهر، ماذا ترانا نجد؟

نجد أننا أمام قضية يتصارع فيها المبدأ من ناحية، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية. وعلى هذا فأثرها لا يقتصر على العرب والصهيونيين فحسب، بل يتناول العالم أجمع فهي محك لحيوية الضمير العالمي، ولقوة التنظيم الدولي، وهي دليل على الاتجاه الذي سيتبعه المجتمع الإنساني: إلى العدل والسلام أو إلى الظلم والحرب المستمرة.

المبدأ في هذه القضية هو حق كل شعب بالأرض التي يعيش عليها، والتي عاش عليها أجداده قروناً طويلة، والتي صبغها بدمه وعرك ترابها بعرق جبينه، حقه في استثمار

مواردها، وفي أن ينشىء لنفسه عليها الكيان السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يختار، شرط أن لا ينتقص من حرية غيره من الشعوب وحقوقهم.

ولقد جاهدت البشرية قروناً عديدة في سبيل اقرار هذا الحق، فأهرقت باسمه الدماء وبذلت من أجله الضحايا، حتى كانت الحرب العالمية الأولى، فأعلنه زعماء الأمم الحليفة، وخُيل للعالم أنه سيكون أساس التنظيم الدولي بعد تلك الحرب. ولكن هذا الخيال ما لبث أن تحطم على صخرة المصلحة، وعادت القوة والتوازن الدولي يسيّران دفة العالم. وكذلك كان الأمر في الحرب الأخيرة: اعلان مبادىء سامية في ميثاق الأطلنتيك وسواه، وتنظيم دولي جديد في الأمم المتحدة، ولكن القوة والمصلحة والتوازن الدولي لا تزال، مع الأسف، هي العوامل الفعالة في السياسة الدولية.

ونحن إذا راجعنا جميع القرارات والاجراءات التي اتخذت بشأن فلسطين وجدناها مناقضة لحق العرب الطبيعي، وللمبدأ الأساسي في حق الشعوب بتقرير مصيرها، هذا المبدأ الذي أعلنت الدول انها تحارب من أجله، والذي بذلت باسمه الضحايا والنفوس بسخاء عجيب.

فوعد بلفور الذي أعطته انكلترا لليهود، والذي يتخذه الصهيونيون أول حجر أساسي في دعواهم القانونية، مخالف كل المخالفة للمبدأ المذكور. إذ ليس من حق الانكليز، بأي وجه من الوجوه، أن يتصرفوا بأرض ليست أرضهم، وأن يقرروا مصير شعب غير شعبهم. ولست أريد أن أتناول هنا مخالفة هذا الوعد للعهود التي قطعها الانكليز للعرب ــ على أهميتها ــ لأني اقتصر في بحثي هنا على الناحية المبدأية فحسب، دون النواحي الأخرى السياسية أو سواها، التي هي أيضاً في جانب العرب.

ولقد يقول قائل: إن الانكليز اكتسبوا حق التصرف بفلسطين بكونهم افتتحوها وغنموها من الأتراك العثمانيين. والرد على ذلك ان الانكليز لم يفتحوها وحدهم، بل بمشاركة العرب الذين حالفوهم وهبوا في ثورتهم الكبرى المعروفة لتحرير بلادهم. على أن الرد المبدأي الأهم هو أن حق الفتح لم يعد يمكن اتخاذه دستوراً في التنظيم العالمي، وإلا رجعنا بالمدنية إلى العصور المظلمة، ودسنا بأقدامنا المبدأ القومي الأساسي: وهو حق كل شعب بأرضه وبتقرير مصيره.

وقد يقول آخر: إن وعد بلفور قد اكتسب صفة قانونية دولية عندما أقرته جمعية الأمم وجعلت منه أساساً من أسس انتداب انكلترا على فلسطين. والجواب ان ما ينى على أساس فاسد يبقى فاسداً ولو أقره العالم أجمع. ثم ان الانتداب على فلسطين نفسه مناقض لمبدأ الانتداب العام المنصوص عليه في المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم. فقد جاء في الفقرة الرابعة من هذه المادة: «ان بعض المجتمعات التي كانت تابعة

فيما مضى للامبراطورية العثمانية قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف موقتاً بكيانها كأمم مستقلة بشرط أن تمدها بالمشورة والمعونة الادارية دولة منتدبة إلى أن تصبح قادرة على حكم ذاتها بذاتها. وينبغي أن يكون لرغبات هذه المجتمعات الاعتبار الأول في اختيار الدولة المنتدبة».

وعليه فإدخال وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين ليس مخالفاً لحق العرب الطبيعي فحسب، بل يناقض كذلك المبدأ الأساسي المتعلق بجميع الانتدابات على الأراضي التي كانت خاضعة للسلطة العثمانية والتي اعتُرِف باستقلالها موقتاً. فإن سياسة الهجرة والعمل لبناء وطن يهودي قومي ينتقصان، ولا شك، من هذا الاستقلال المعترف به. ناهيك بأن أهل فلسطين لم يؤخذ رأيهم لا في الانتداب نفسه، ولا في اختيار الدولة المنتدبة.

وهكذا ظلت فلسطين تحكم مدة خمس وعشرين سنة بنظام غير مبني على مبدأ طبيعي أو قانوني، بل قائم بالفعل على القوة والمصلحة. وبهذه القوة سُطي على سيادة العرب بدلاً من أن يحافظ عليها، وأصبح كيانهم في بلادهم محفوفاً بالخطر، مهدداً بالزوال.

وجاءت الأمم المتحدة اليوم فاقترفت الجريمة نفسها، وضحت بالمبدأ على مذبح المصلحة. فقرارها في التقسيم مخالف لحقّ أهل فلسطين بتقرير مصيرهم بالطرق الديمقراطية المعروفة ومناقض كذلك لميثاق الأمم المتحدة نفسه نصاً وروحاً. فلو فرضنا أن الانتداب على فلسطين يقوم على أساس قانوني ـ وهو ما أظهرنا بطلانه ـ فإننا لا نجد في أية مادة من مواد الفصل الثاني عشر من الميثاق، الذي يتناول البلاد المنتدب عليها، ما يعطي الأمم المتحدة حق تقسيم هذه البلاد أو التصرف بها كما تشاء. وإنما هناك مبدأ واحد وخطة معينة لا محيد عنهما. وهما مساعدة هذه البلاد على نيل استقلالها وتقرير مصيرها بنفسها.

ولذا فقرار الأمم المتحدة ـ كصك الانتداب ـ لا يقوم على أساس مبدأي أو قانوني. وقد تقدمت الوفود العربية باقتراح مآله احالة هذه المسألة إلى محكمة العدل الدولية لتبدي رأيها في صلاحية الأمم المتحدة لتقرير التقسيم، فرُدّ حتى هذا الاقتراح، مما يدل على أن الأمم المتحدة، تحت ضغط القوى والمصالح المختلفة، لم تكن مستعدة لأن تستمع إلى صوت أعلى مرجع قانوني في العالم في هذه القضية.

نستنتج من كل ما تقدم أن الكفاح ضد الصهيونية وضد إقامة دولة يهودية في فلسطين ليس، من جهة العرب، كفاحاً قومياً فحسب، بل هو كفاح من أجل مثل أعلى إنساني، كفاح بين الحق والقوة، بين المبدأ والمصلحة.

وقد يتساءل البعض: أليس للصهيونيين مبادىء يبنون عليها حركتهم ويكسون بها دعايتهم، فيكتسبون بواسطتها العطف والتأييد؟

أجل! انهم يلوحون بعدة «مبادىء»، ولكن ليس منها ما يقف أمام الحقيقة والبرهان.

يدعي الصهيونيون ان فلسطين وطن اليهود القومي لأنهم سكنوها أجيالاً طويلة في الماضي، ثم أجلوا عنها، ومن حقهم الآن أن يعودوا إليها. والواقع أن اليهود تسربوا إلى فلسطين في الأعصر القديمة، كما تسرب غيرهم من القبائل السامية إلى بلدان الهلال الخصيب، ولكنهم لم ينشئوا فيها ملكاً سياسياً موحداً إلا على عهد داود وسليمان (١٠١٧ ـ ٩٣٧ق.م.) ولم يدم هذا الملك سوى سنوات معدودة. حتى في هذه المدة القصيرة لم يشمل حكمهم فلسطين بكاملها بل ظل للفلسطينيين وسواهم قوة ونفوذ في البلاد. ثم انقسم ملكهم دولتين، شمالية وجنوبية، تهدمت الأولى سنة ٧٢٢ق.م. والثانية سنة ٥٧٦ق.م. وفي خلال الأعصر التالية تفرقوا وحاولوا بناء كيانات سياسية ولكنهم كانوا يخفقون المرة بعد الأخرى إلى أن تشتتوا نهائياً في القرنين الأول والثاني للمسيح. ومما يدل على أن علاقتهم بفلسطين علاقة عابرة ان الاسم الذي عرفت به هذه البلاد خلال التاريخ ليس مشتقاً منهم، بل من أعدائهم الألداء الفلسطينيين. ومن المهم ان نلاحظ أنهم حتى في أوج ملكهم لم يكونوا يقطنون المناطق التي ينزلونها الآن والتي أعطيت لهم في التقسيم: أي السهول والشواطىء، بل كانت هذه موطن الفلسطينيين ومركز نفوذهم.

ثم ان اليهود الصهيونيين الذين يهاجرون الآن إلى فلسطين لا علاقة لهم باليهود الساميين البتة. بل هم من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن الجنس السامي. وقد أثبت المؤرخون أن الكثرة المطلقة من يهود أوروبا الشرقية ـ وهم الذين ينصبّون على فلسطين الآن ـ يرجعون بنسبهم إلى قبائل الخزر التي اعتنقت اليهودية في القرن الثامن للميلاد وانتشرت في شرقي أوروبا ووسطها، فهم يمتون إلى اليهود الذين نزلوا فلسطين قديماً بالدين فحسب، ولا يصح ان يُتخذ الدين أساساً لبناء قومية أو إقامة دولة.

أما العرب في فلسطين، فلا يمثلون القبائل التي نزحت من الجزيرة في القرن السابع وحسب، إذ كان عدد هذه القبائل قليلاً، وإنما يمثلون جميع سكان فلسطين الساميين وسواهم (الفلسطينيين والكنعانيين والأموريين والآراميين إلخ.) الذين تتابعوا على فلسطين منذ فجر التاريخ، ثم تعربوا في القرن السابع وما بعده. فهم سكان البلاد الأصليون، ولم تكن إقامة اليهود في بلادهم سوى إقامة عابرة موقتة إذا قيست بتاريخ البلاد الطويل.

حتى لو سلمنا لليهود بحق تاريخي في الماضي، فأي حق يخولهم ذلك في

الحاضر؟ لو صحت العلاقة التاريخية أساساً للمطالبة بالبلاد والأراضي، لحقّ للعرب اليوم أن يطالبوا باسبانيا، وللطليان بانكلترا، ولوجب أن يجلو جميع سكان الولايات المتحدة عنها ويعيدوها للهنود الحمر.

فمن أية وجهةٍ نظرنا إلى المبدأ التاريخي الذي يدعيه الصهيونيون نجده لا يقوم على أساس أو يصمد لبرهان.

ويدّعي اليهود الصهيونيون ان فلسطين أرضهم، وعدهم الله بها، وتنبأ الأنبياء برجوعهم إليها حتماً. ويؤخذ بعض المسيحيين بهذه الأقوال نظراً لما ورد في بعض الكتب المقدسة من هذه التنبؤات. ولكن هؤلاء المسيحيين ينسون ان اليهود رفضوا الرسالة المسيحية بكاملها، وأنهم بتسليمهم بادعاء اليهود هذا يسلمون مهد دينهم إلى طائفة رفضته وحاربته خلال الأجيال. ثم كيف يمكننا أن نقبل ان شعباً ما من الشعوب هو شعب الله الخاص، وأن هناك عهداً بين الله تعالى وبينه، وان الله قد خصه بعلاقة أو ميزة معينة؟ ان فكرة «الشعب المختار» أقرب إلى النازية منها إلى أية فكرة أخرى، وستلقى نفس ما لقيته تلك من سقوط وانهيار.

ولنلاحظ أن الدولة الصهيونية التي تبنى الآن في فلسطين أبعد ما تكون عن الدين، فهي دولة علمانية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، تستخدم، في ما تستخدمه، المبدأ الديني سبيلاً للدعاية، ولكنها تركز نفسها في الواقع على الأرض والصناعة والثقافة وسواها من مقومات الدولة العلمانية، بل تقوم في أساسها على الفتح والاغتصاب ــ وما أبعد ذلك عن الدين الصحيح!

ويحاول الصهيونيون ان يسندوا دعواهم في إقامة دولة في فلسطين بما أصاب اليهود خلال الأجيال من اضطهاد، وما تحملوه من عذاب، خصوصاً تحت الحكم النازي وفي الحرب الأخيرة. ويشيرون إلى عشرات الألوف منهم الذين لا يزالون يعيشون في مخيمات اللاجئين في المانيا وسواها.

ولو فرضنا جدلاً أنه لم يكن لليهود أي يد في هذا الاضطهاد الذي أصابهم، ولم يسببوه بشكل من الأشكال، بل كان كله من مساوىء الشعوب الأخرى، فمن المسؤول عن ذلك، وعلى حساب من يجب أن يُصلح؟ أيصح أن تكون شعوب أوروبا هي التي تضطهد اليهود وتسومهم العذاب، ثم يُفرض ثمن ذلك على العرب؟ أمن العدل أن يطلب من العرب أن يعوّضوا بأرضهم وسيادتهم عن جرائم الشعوب الغربية واستبدادها؟ أمن الحق أن يُلقى هذا العبء الثقيل على عاتق العرب، ويجازوا هذا الجزاء، مع أنهم هم الذين حموا اليهود خلال الأجيال، ومنحوهم من الحرية ويسّروا لهم من الازدهار ما لم يمنحهم إياه أو ييسره لهم أي شعب آخر في الماضي؟

إن قضية اضطهاد اليهود قضية عالمية، ولا تحل إلا بانتشار روح التسامح الديني

والاجتماعي في العالم أجمع. أما اللاجئون والمشردون فتقع مسؤوليتهم على عاتق الشعوب التي اضطهدتهم. وما دام شبح النازية قد زال من أوروبا، فما الذي يمنع من إعادتهم إلى أوطانهم وتسهيل سبل عيشهم فيها؟ الحق لو أن صهيونيي أميركا أنفقوا على هؤلاء، وعلى وسائل اغاثتهم واسكانهم، جزءاً مما ينفقونه على الدعاية الصهيونية وعلى السلاح الصهيوني، لما بقي ما يدعى قضية لاجئين أو مشردين من اليهود.

وأخيراً، إن إقامة دولة يهودية في فلسطين لن تخفف في الواقع من اضطهاد اليهود في الغرب، ولن تحل مشكلتهم، بل قد تعقّد هذه المشكلة وتزيد التعصب والاضطهاد وتدفع بالشعوب الغربية، كلما نزلت بهم نازلة وشعروا أن لليهود يداً فيها، إلى أن يحملوا عليهم، ويدعوهم إلى الخروج من بلادهم والهجرة إلى فلسطين. وهذا ما ينظر إليه عقلاء اليهود في العالم بقلق شديد، ولكنهم لا يستطيعون أن يعلنوه وان يقفوا في وجه الأقلية الصهيونية المتماسكة المكافحة.

يقول الصهيونيون انهم لم يغتصبوا أرض فلسطين، بل اشتروها بمالهم، وان لهم بذلك حقاً في أن يقيموا دولة عليها. ويؤخذ البعض بهذا القول، ناسين أن فلسطين كانت في خلال السنين الخمس والعشرين الأخيرة تحت نوع من الحكم يسهل بيع الأراضي هذا، بدلاً من أن يحدده أو يمنعه. ومن هنا فائدة الاستقلال وقيام حكومة تحرص على سيادة الشعب وعلى حفظ تراثه. ترى لو أن جماعات غريبة نزلت لبنان أو أي بلد آخر مستقل وأخذت تستهوي أهله بالأثمان الباهظة فتشتري الأملاك، وتنال الامتيازات، وتؤلف الشركات لاستثمار موارد البلاد، وتسنّ لنفسها قوانين تحصر هذه الأملاك والموارد بها نفسها وتمنع عودتها بشكل من الأشكال إلى أصحابها الأصليين ـ ترى لو حدث ذلك، أتقف الحكومة مكتوفة اليدين، ولا تتخذ اجراءات لحماية الإرث الوطني والموارد القومية؟ لم تبذل الدولة المنتدبة هذه الحماية، بل بالعكس كان الوضع الاقتصادي الذي أقامته في فلسطين، والضرائب الباهظة التي فرضتها لدعم نظام مصطنع، كان ذلك مشجعاً على اضاعة ما أضيع من الإرث الوطني بدلاً من صونه وحمايته. وليس معنى هذا ان العرب غير مسؤولين مطلقاً عما حدث من هذا القبيل، وإنما معناه ان المسؤولية تقع في الدرجة الأولى على من حرم العرب استقلالهم، ووضع مقدراتهم في أيدي حكومة غريبة عنهم، وأنشأ في بلادهم وضعاً يرمي صراحة إلى هدم كيانهم واقامة كيان آخر على أنقاضه. يضاف إلى ذلك أن مجرد امتلاك أراض في بلد موحّد جغرافياً لا يصح أن يتخذ أساساً لتهديم هذه الوحدة الجغرافية، وإقامة دولة غريبة فيها. بل يجب أن يحافظ على هذه الوحدة ويُنشأ الكيان السياسي على أساسها بالطرق الديمقراطية المعروفة.

* * *

هذه هي بعض «المبادىء» التي يبني عليها الصهيونيون دعايتهم. وهي، وأمثالها مما لا يمكننا تناوله في هذا المقال، لا تستند، كما وجدنا، على أساس صحيح أو دعامة قوية. وكلها تنهار وتتبدد أمام الحقيقة الواحدة الناصعة التي لا تقبل رداً: وهي حق العرب في تقرير مصيرهم، وفي الاحتفاظ بميراثهم الطبيعي الذي ورثوه عن أجدادهم.

فما الذي يمنع عنهم هذا الحق؟؟

القوة والمصلحة.

أما القوة فقوة اليهود العالمية: سياسياً، ومالياً، وثقافياً.

لقد تجلّت هذه القوة في الحرب العالمية الأولى فاقتطعت من الحكومة الانكليزية وعد بلفور، وفرضت على أعضاء جمعية الأمم ادخاله في صك الانتداب، وظلت تحت الانتداب تعمل في انكلترا وأميركا لتأمين متابعة سياستها الاغتصابية، بالرغم من تنبه ساسة الانكليز إلى أخطارها، وبالرغم من الثورات العربية المتتابعة. ولقد تمركزت هذه القوة في السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة. ولا يستطيع أن يقدرها حق قدرها، ويتصور هول خطرها، إلا من أقام في تلك البلاد ودرس أحوالها. فكثير من الصناعات والمؤسسات المالية الأميركية هي في أيدي اليهود، وكذلك قل عن الصحف والراديو والسينما وسواها من وسائل الدعاية، علاوة على أصوات الناخبين اليهود في ولايات نيويورك والينويز واوهايو وسواها من الولايات التي لها أهميتها في انتخاب الرئاسة، خصوصاً في هذه الأيام والنزاع على أشده بين الديمقراطيين والجمهوريين، وكلاهما يسعى لاكتساب الأصوات من أية ناحية كانت.

ويكفي أن نعلم أن يهود الولايات المتحدة، جمعوا في سنة ١٩٤٦ مئة وخمسة ملايين دولار، وفي هذه السنة مئة وسبعين مليوناً، ويعدون الآن العدة لجمع ثلاثمائة وخمسين مليوناً، لإعانة الدولة اليهودية الجديدة ـ يكفي ان نعلم ذلك لنقدر خطر هذه القوة في الولايات المتحدة، وبالتالي في العالم أجمع.

هذه هي القوة: قوة اليهود. أما المصلحة: فمصلحة الأحزاب الأميركية الداخلية، وهي، في الواقع وكما يعلم حق العلم العارفون في أميركا، مناقضة لمصلحة أميركا العليا كدولة ذات مصالح هامة في البلاد العربية. ثم هناك مصلحة روسيا بأن تجد لنفسها منفذاً في الشرق الأدنى من وراء الحصون التي تبنيها في وجهها الدول الانكلوسكسونية في اليونان وتركيا وايران. فإذا اضطربت الحال في فلسطين وتدخل مجلس الأمن بمجموعه، أو بواسطة بعض أعضائه، كان للسوفييت مجال للنفاذ إلى هذه المنطقة الحيوية من العالم، من وراء خطوط دفاع الأنكلوسكسون الأولى.

هاتان المصلحتان: الأميركية الداخلية، والسوفياتية الخارجية، اتفقتا مع المصالح

الاستعمارية الأخرى ومع قوة اليهود العالمية، فأدت إلى قرار التقسيم، وإلى تضحية الحق والمبدأ.

* * *

ولذا أعود في ختام هذا المقال إلى ما قررته في بداءته من أن جوهر القضية الفلسطينية صراع بين الحق والمبدأ من ناحية، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية.

وسيكون هذا الصراع عنيفاً طويلاً وسيتطلب من العرب أعظم جهد وأبلغ تضحية. وإذا هم لم يبذلوا هذا المطلوب ولم يضحوا بالغالي والرخيص في هذا السبيل فقد عرضوا أنفسهم لخطر هائل يهددهم في جميع أقطارهم ومنازلهم.

فلو أقيمت دولة يهودية فعلاً في فلسطين وتركزت دولياً باعتراف الأمم المتحدة وسائر الدول بها، فلن يطول الوقت حتى يصبح لها أكبر قوة جويّة في الشرق الأدنى، وحتى نرى لها ـ لا سمح الله ـ أسطولاً تجارياً وحربياً يسيطر على هذه الشواطىء بكاملها، وجيشاً ميكانيكياً منظماً مدعوماً بالذخائر الوافرة والاختراعات الجهنمية. وستفتح هذه الدولة أبوابها لألوف المهاجرين يتدفقون عليها من أوروبا وللملايين الدولارات تنصب عليها من أميركا، فتغدو قوة بشرية ومالية يصعب حصرها في منطقتها، فتتسرب بكل شكل ممكن إلى بقية البلدان العربية، وفي حال اضطراب عالمي تشكل خطراً عظيماً على هذه البلدان. ويزيد في هذا الخطر كونها تحتل الشواطىء والمنافذ البحرية، وتقوم في بقعة حيوية بين البلاد العربية. ففلسطين بمثابة الجسر بين هذه البلاد إذا استولت عليه أيد غريبة قطعت في ما بينه العلاقات، وفكت عرى التعاون والاتحاد.

سيكون كفاح العرب عنيفاً مديداً، وسيقويهم في كفاحهم هذا انهم يردون عن أنفسهم خطراً من أشد ما عرفوه في تاريخهم هولاً وجسامة، خطراً يهدد ذات كيانهم في مختلف بلادهم، خطراً يعرض حقهم الطبيعي واستقلالهم المكتسب، أنى كانوا، للزوال والانهيار. وسيقويهم في كفاحهم كذلك أنهم في جانب الحق والمبدأ، يجابهون القوة والمصلحة في أفظع أشكالها. وقد تتغلب القوة على الحق، والمصلحة على المبدأ، حيناً، ولكنها لن تتغلب أخيراً. فبورك البذل، وبوركت الضحايا، في هذا الجهاد الكريم المقدس!

لماذا نجاهد في فلسطين؟(*)

(*) ألقيت من محطة الإذاعة اللبنانية مساء ٣١ أيار (مايو) سنة ١٩٤٨.

لماذا نجاهد في فلسطين؟ لـمَ ترمي الشعوب العربية بالألوف من شبانها في حومة النضال؟ لِمَ يرتفع صوت ممثلي العرب في الأمم المتحدة وسواها من المحافل الدولية دفاعاً عن موقف دولهم وشعوبهم؟ ما هي القضية التي هببنا جميعاً للكفاح في سبيلها بالقلب واليد واللسان، بل بالحياة نفسها؟

الجواب الأول على هذا السؤال هو أننا نجاهد لنرد عن أنفسنا التهجم والاعتداء، ولنحمي كياننا من هول التحكم والاستعمار. وفي الواقع ان البلاد العربية لم تجابه في تاريخها الطويل خطراً أشد من هذا الذي تتعرض له اليوم. فإن القوى التي يملكها الصهيونيون في شتى أنحاء العالم كفيلة، إذا تسنى لها أن تستقر في فلسطين، بأن تهدد استقلال جميع البلاد العربية وتكوّن خطراً هائلاً دائماً على حياتها. وأن ما لهذه القوى من وسائل النمو والتوسع سيجعل العالم العربي أبداً تحت رجمتها، وسيشل حيويته ويصرفه عن التقدم والتطور في معارج الرقي والعمران ـ هذا إذا قدر له البقاء.

فنحن إنما نجاهد إذن بالدرجة الأولى دفعاً لاعتداء غادر علينا، ومحافظةً على ذات وجودنا. وإذا تشدق المتشدقون في الأمم المتحدة أو سواها بأن عملنا هذا هو عمل اعتدائي، فإنهم إنما يقلبون الوقائع رأساً على عقب، ويجرمون في نظر الحق والتاريخ، ويسجلون على أنفسهم، بأنهم وحلفاءَهم هم المعتدون! ولا فرق في نظر التاريخ ما إذا كان هؤلاء المتشدقون يمثلون دولاً كبرى أو صغرى، فاللعنة ستلحق بهم أياً كانوا، وسينالون يوماً جزاء أعمالهم، لأن الشر كفيل بأن ينقلب على صاحبه والجرم بأن يعود فينصبّ على مقترفه.

* * *

على أن لجهادنا الحاضر معنى أهم من هذا الذي ذكرنا، وقيمة تتعدى حدودنا إلى العالم أجمع وتمتد من الحاضر إلى آفاق المستقبل البعيدة. ذلك أننا لا ندافع عن حقنا فحسب، بل عن مبادىء تهم كل شعب من شعوب الأرض وتتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية، ومغزى تاريخياً. وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الإنساني خلال العصور في سبيل الحفاظ على القيم الباقية والحريات البشرية الأصلية.

ومن حقنا نحن العرب، بل من واجبنا، أن نكشف عن هذا المعنى الأوسع الأعمق من معاني جهادنا، لنتبين، ولنبين للعالم، خطورة هذا الجهاد، ولنضع أنفسنا حيث يجب، في الموكب الإنساني المناضل عن الحق والمبدأ. وهو الموكب الوحيد الذي يسبغ على الحياة البشرية معناها ويخلق أثراً ايجابياً في التاريخ. إذ ليس التاريخ الحقيقي سوى قيم إنسانية تكتسب، ومواقف أدبية تتخذ، ومبادىء توضح وتحقق.

المبدأ الأول الذي ينطوي عليه جهادنا هو حق كل شعب في الأرض التي يعيش عليها، والتي ورثها من آبائه وأجداده ـ حقه في أن يستغلها ويقيم فيها النظام الذي يختاره، شرط أن لا يكون في ذلك تعدّ على سواه. هذا الحق، حق تقرير المصير، مبدأ إنساني أصيل ما زالت البشرية منذ فجرها الأول تسعى لتحقيقه، وما زال القادة والمصلحون ينادون به، والجماهير الشعبية تضحي بشيبها وشبابها في سبيله. فإذا قام العرب اليوم يكافحون من أجله، ضد الاعتداء الصهيوني، وإذا ظلوا يهبّون ضد كل محاولة أو مناورة في الحاضر أو المستقبل لتهديمه أو للتعدي الخفي باسمه وتحت لوائه، فإنهم لا يعملون لصون كيانهم فحسب، بل لتدعيم ركن من أركان الحياة البشرية السليمة، والتقدم العالمي الصحيح.

وعلى الأمم الكبرى التي كان وما يزال قادتها يلوّحون بهذا المبدأ كلما تأزمت أحوال العالم واحتاجوا إلى معونة الشعوب الصغيرة ـ على هذه الأمم أن تتبين اليوم أي موقف تقف منه، في الصراع القائم في فلسطين بينه وبين قوة المال والسياسة والنفوذ. لقد قال أحد قادة هذه الأمم في الحرب الماضية: «السلام وحدة لا تتجزأ». أجل وكذلك هو الحق، والحرية، والمبادىء وحدات لا تتجزأ: لا معنى لها إذا طبقت على شعب دون آخر، وفي صقع من أصقاع العالم دون سواه، أو إذا نودي بها خداعاً وتغريراً ولم تتسرب إلى صميم الفكر والعمل. ومهما كان موقف الأمم الأخرى، فالعرب يعلمون أين يقفون في هذا الصراع. وفي فوزهم فوز لمبدأ أساسي من مبادىء الاجتماع الإنساني، وغنم للبشرية جمعاء.

* * *

والمبدأ الثاني الذي يتضمنه الجهاد العربي في فلسطين هو التسامح الطائفي. فلقد

صور الصهيونيون للعالم كذباً وخداعاً ان في إقامة دولة صهيونية في فلسطين حلاً للقضية اليهودية العالمية. وفي الواقع ان الدولة المزعومة لا تحلّ هذه القضية الكبرى، بل تزيدها تعقيداً، وتهيب بالدول إلى الشك بولاء رعاياها اليهود، وإلى اعتبارهم أجانب عنها والضغط عليهم بشتى الطرق لاجلائهم إلى تلك الدولة الخادعة المخدوعة. بهذا سيبقى موقف اليهود متأرجحاً بين ولاءين، وسيظلون يُنظر إليهم شزراً، بل سيزداد موقفهم حراجة. فقد حاولوا محاولة خاطئة: حاولوا بناء قومية على أساس دين واعتقاد، خلافاً لما أثبته التاريخ وقضت به سنن السياسة والاجتماع.

لا! إن القضية اليهودية العالمية، لا تحلّ إلا على أساس نشر التسامح الطائفي، وتدعيم مبادىء الكرامة الإنسانية، بالجهاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي. انها مرتبطة بالكفاح الشعبي ضد الاستعمار الخارجي والداخلي، وضد كل استئثار ينال من حرية الفرد أو الجماعة. هي مشكلة عالمية يتوقف تذليلها على استعداد اليهود أنفسهم للانصهار في الجسم الإنساني، وعلى انتصار مبادىء حرية الفكر والعقيدة: وهي مبادىء لا تمس اليهود فحسب، بل كل فرد أو جماعة أو طائفة.

والعرب في دفاعهم عن التسامح الطائفي وحرية العقيدة إنما يجرون على تقليدهم الماضي. فقد بذلوا لليهود خلال التاريخ من الحرية ما لم يبذله لهم أي شعب آخر. وبلغ أبناء هذه الطائفة في عهود النفوذ العربي من الحكم وعلو الشأن ما لم يبلغوه في أية دولة أخرى. ولا يزال العرب يصرحون بأنهم مستعدون للعيش واليهود في ظل حكم ديمقراطي واحد ينال اليهود فيه من الحقوق ما يؤهلهم له عددهم، ويتمتعون بنفس الحريات والواجبات التي يتمتع بها العرب، مما لم يتحقق بعدُ فعلاً في كثير من دول العالم.

على هذا الشكل من تحقيق الحريات الديمقراطية تحل القضية اليهودية. والعرب في جهادهم لمنع إقامة دولة صهيونية في فلسطين، إنما يخدمون هذه الحريات نفسها بتوجيههم القضية إلى حلها الصحيح، ويكشفون القناع عن رياء الدول التي تنادي بالدفاع عن اليهود وتغلق بالوقت نفسه دونهم أبوابها. ان الجهاد العربي في فلسطين جهاد ضد هذا الباطل وأمثاله، وكفاح من أجل معالجة قضية طائفية على أسس سليمة، ولتحقيق حريات أساسية لا يزال المدافعون عن الصهيونيين أبعد الناس عن تحقيقها، بل هم بدفاعهم هذا يعملون، جهلاً أو عمداً، على اضعافها وتقويضها.

* * *

والمبدأ الأخير والأعم الذي ينطوي عليه الجهاد العربي في فلسطين هو تغليب المبادىء على المصلحة في التنظيم العالمي. ان العالم ليشهد اليوم أسوأ مهزلة عرفها

التاريخ. يشهد منظمة أممية تضم أكثر دول العالم، عاجزة عن أن تحلّ مشكلة واحدة من المشاكل الدولية. ها ان الأمم المتحدة، بهيئتها العامة ومجلس الأمن ومجلس الوصاية، لم تستطع بعد أن تحسم خلافاً واحداً من الخلافات التي تصدّع جبهة البشرية وتنذر بحرب جديدة هائلة: في كوريا والصين وأندونيسيا والهند وايران وفلسطين واليونان والمانيا، بل في كل بقعة حساسة من بقاع الأرض. وما ذلك إلا لأن الدول الأعضاء لا تزال تغلّب المصلحة على المبدأ، والدول الكبرى خاصة لا تزال تسيّرها شهوة التحكم والاستئثار لا الرغبة في تحقيق القيم الصحيحة في حياة الشعوب وعلاقاتها بعضها ببعض. والعرب في دفاعهم الحاضر إنما يقفون في وجه المصلحة والشهوة، فلا يخدمون أنفسهم فحسب، بل يخدمون العالم أجمع ويقومون بنصيبهم في تنبيه البشرية إلى الطريق الوحيدة التي تؤمن سلامتها ـ طريق المبادىء الأساسية الثابتة، لا المصلحة المترجرجة والشهوة الغاصبة.

* * *

ليس في بلاد العالم بلد له من القيمة العالمية ما لفلسطين. ولم تحتلّ فلسطين مكانتها في التاريخ بميزاتها الطبيعية ومواردها المادية، وإنما بالمعاني الإنسانية والقيم الرفيعة والمبادىء الأصيلة التي شعّت منها على العالم بأجمعه. والجهاد العربي اليوم لا يتخذ معناه الصحيح إلا من ضمن هذا الإطار وعلى ضوء هذه الحقيقة. انه جهاد عربي في سبيل الحفاظ على كيان العرب واستقلالهم، ولكنه إلى جانب هذا ـ بل أقول قبل هذا ـ جهاد إنساني عالمي أرجو أن يظل يتابع تقليد فلسطين الايجابي في بث القيم الصحيحة، والدفاع عن المبادىء والحريات والمسؤوليات الإنسانية الأصيلة.

مركز دراسات الوحدة العربية
مؤسسة عبد الحميد شومان

أيّ غدٍ؟

دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة

الدكتور قسطنطين زريق

أيّ غــــدٍ ؟

دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة

مركز دراسات الوحدة العربية
مؤسسة عبد الحميد شومان

أيّ غدٍ؟

دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة

الدكتور قسطنطين زريق

(*) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، في بيروت، ١٩٥٧.

المحتويات(*)

تمهيد ٧

المفكر العربي وتبعاته ١١

المجتمع التقدمي ٢٧

نحن والتنظيم ٤٣

التربية في المجتمع العربي ٥٧

العرب والثقافة الحديثة ٧٣

نحو ثقافة عربية أفضل ٩١

(*) اعتمدنا ترقيمين: **الترقيم الأول** في وسط ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد، ضمن المجلد. ولكل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة ترقيم خاص بعدد صفحاته. **والترقيم الثاني** في يسار ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم **أحادي** مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة الكاملة.

تمهيـد

أي غد؟؟

أي غد للشعوب العربية وللبشرية جمعاء؟؟

هُوذا السؤال الذي يرتسم في أفق حياتنا، ويتحدانا بعنف واستمرار. انه السؤال الذي يجب أن نعي مضمونه إذا أردنا لأنفسنا السلامة والرقي.

فحري بمفكرينا، وهم طليعة الأمة، أن يحاولوا اكتناه هذا السؤال، ومجابهة تحديه، واستجلاء المستقبل العربي في نطاق المستقبل البشري، كي تتضح الغاية ويكون سيرنا على هدى وبصيرة.

ولست أود أن أخدع القارىء، فأوهم ان هذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين يديه، حاملاً هذا العنوان، هو الجهد الفكري المطلوب سواء أفي اكتناه السؤال أم في الاجابة عنه.

ليس هذا الكتاب بحثاً منظماً في متضمنات غدنا ومتطلباته ـ ما هي وما يجب أن تكون.

وإنما هو مجموعة فصول ألقيت في الأصل كمحاضرات، تخيرتها من المحاضرات التي تيسّر لي اعدادها في السنوات الأخيرة، آملاً أن يجد فيها القارىء ما وجدت من تساوق وتكامل في الموضوع والمنحى والهدف، وأن يلمس طي سطورها اثر التساؤل عن بعض معاني حياتنا الحاضرة وعما ستتفتح عنه في المستقبل.

* * *

يتناول الفصلان الثاني والثالث موضوعين من الموضوعات التي تشغلنا كثيراً في هذه الأيام وهما التقدم والتنظيم. واهتمامنا بهما يبدو في جميع جهودنا الفكرية والعملية

إذ نحاول اليوم بناء مجتمع متحرر متحد متحضر. ولا عجب في ذلك، إذ ان في طليعة ما نحتاج إليه في هذه المحاولة هو أن ندرك معنى التقدم وبواعثه، وأسباب التنظيم وشروطه.

فخليق بنا اذن أن يكون فهمنا لهذين المعنيين، ولسواهما من المعاني التي يتطلبها انبعاثنا ونهضتنا، فهماً صحيحاً، كي نوفيها حقها ونؤدي واجبها على أفضل السبل وأكثرها ضماناً للنجاح. وعسى أن يكون في محاولتي لمعالجة هذين الموضوعين ما يساعد في بلوغ هذا الفهم المطلوب.

أما الفصول الثلاثة الأخيرة فتتناول بعض نواحي حياتنا التربوية والثقافية الحاضرة مبينة اتجاهاتها، وعلاقتها بتطور الثقافة الإنسانية الحديثة، وما يعتورها من عوائق داخلية وخارجية تحول دون الغاية المرجوة. ولا حاجة إلى تبيان ما للثقافة والتربية من مقام في حياة أي مجتمع، وما لهما من فعل في توجيهه وتطوره. ولذا كان من الخير ان يسهم مفكرونا، ما استطاعوا، في تبيان الصفات التي يجب أن تتحلى بها ثقافتنا لتفعل فعلها في خلق المجتمع، ولتحتل مقامها اللائق في كيان الثقافة الإنسانية الشاملة.

هذا الإسهام المنشود من المفكرين في هذا الميدان، بل في كل ميدان ينزلون إليه بحكم وظيفتهم، يجب أن يكون صادراً عن شعور دقيق بالتبعة العظيمة التي يلقيها الفكر على كل من يتصدى لحمل رايته وأداء رسالته. وهذا ما حاولت الإشارة إليه في الفصل الأول، الذي وضعته في صدر الكتاب، ايماناً مني بأن تقدير هذه التبعة حق قدرها هو الشرط الأساسي لأي جهد فكري نقوم به في هذه الأيام العصيبة والمحك الأول الذي يجب أن تمتحن به هذه الفصول.

* * *

لا يجد القارىء بين دفتي هذا الكتاب أبحاثاً في السياسة والاقتصاد. وليس السبب في ذلك قلة تقديري للعمل السياسي والاقتصادي في بناء المجتمع، بل قصر باعي في هذين الميدانين من ناحية، وايماني ـ من ناحية ثانية ـ بأن هذا العمل، على خطر شأنه، يتطلب لنجاحه صفات عقلية وخلقية في القائمين بأعبائه وفي المجتمع عامة، هي الأساس لأي نهضة صحيحة، فإليها يجب أن توجه الأنظار.

إن نهضتنا القومية، بوجوهها المختلفة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، يجب أن ترتكز أولاً على دعائم العقل والخلق، وأن تهدف إلى خلق أمة تتحلى بالصفات الإنسانية الأصيلة.

ما هي الصورة في ذهننا للإنسان العربي المرجو ؟ ما صفاته؟

إلى أي حد يتحلى القائمون بأعباء نهضتنا بهذه الصفات ليتمكنوا من تحقيقها في المجتمع؟

ما هو المحتوى الإنساني الايجابي لكياننا القومي المقبل؟

ما هي الشروط المادية والروحية لتكوين هذا المحتوى؟

هذه وسواها من التساؤلات الأساسية يجب أن تكون مدار اهتمام رجال الفكر والعمل بيننا وأن تنفذ إلى مشاغلهم المختلفة، حتى وهم يعالجون القضايا الملحة التي تطالعنا من كل صوب. أو على الأقل، فلتكن هي التساؤلات التي تبدو لرجال الفكر وهم ينظرون إلى المدى البعيد ويحاولون تبيين الأهداف ورسم الخطط.

قد تبدو هذه التساؤلات بعيدة أو غريبة عن أزمتنا الحاضرة. وانها لكذلك إذا نظرنا إلى هذه الأزمة كأزمة سياسية فحسب. أما إذا اعتبرناها، كما يجب أن تعتبر، أزمة في الكيان العربي ذاته، وليس الاضطراب السياسي سوى مظهر من مظاهرها، فلا تعود هذه التساؤلات بعيدة بل، تصبح من صميم ما نعنى به ويستبد باهتمامنا، وتكتسب وضوحاً وخطورة بفعل الأزمة السياسية ذاتها.

إن الاستعمار بمظاهره المختلفة، والصهيونية، وسواهما من الأخطار التي تحيط بنا، ما كانت لتفعل بنا ما فعلت، لو كنا غير ما نحن عليه اليوم: تقدماً، وانتظاماً، وتنبهاً عقلياً، ووعياً اجتماعياً، وإنتاجاً حضارياً.

فإذ نحاول أن نرد عنا هذه الأخطار بالسبل السياسية، وببناء القوة المادية، يجب أن نجهد، بالوقت ذاته، إلى بناء مجتمع تكون صفاته الانتظامية والتقدمية والحضارية الضمان الأخير للتغلب على هذه الأخطار في المدى البعيد.

هذا هو الغد الذي تتجه إليه فصول هذا الكتاب.

انها تتجه إليه بطرق متفرقة وبمحاولات تمهيدية، فلا تدعي تحقيق الكمال أو بلوغ الغاية.

فعسى أن يكون في ما بلغت بعض الفائدة لمن يتلمسون سبل المستقبل، وأن يكون في ما قصرت عنه أو أخطأت فيه باعث لتناول البحث من قبل رجال الفكر بصورة أتم وأصلح وأوفى بالمطلوب.

وعسى أن يكون في هذا كله مساهمة متواضعة في إعداد الغد المرجو.

الجامعة الأميركية في بيروت — **قسطنطين زريق**

في ١٢ شباط / فبراير ١٩٥٧

المفكّر العربي وتبعاته

— ١ —

ليس بيننا من ينكر أننا نمر اليوم في أوقات عسيرة، ونعاني شدة ثقيلة الوطأة وأزمة خطيرة. فأينما نظرنا في نواحي حياتنا القومية والإنسانية تجبهنا المصاعب والشدائد، وتعترضنا المشاكل والمنازعات. وما هذه المخاطر السياسية والحربية التي تحيط بنا من كل صوب، وهذه الفوضى في الأنظمة السياسية والاجتماعية والفكرية التي تجتاح العالم أجمع ــ ما هذه كلها سوى مظاهر لحقيقة لم تعد تحتاج إلى برهان: هي ان العالم بأسره ــ ونحن منه ــ يعاني أزمة مستعصية في أسس تفكيره وتنظيمه، أزمة ان لم تعالج بحزم ونفاذ ذهبت بالمجتمع الإنساني بكامله وأودت به إلى الهلاك والفناء.

هذه الأزمة البشرية العامة تتخذ في المجتمع العربي أشكالاً عدة لا مجال الآن لبسطها وايضاحها، ولكن لا خلاف في اتساع نطاقها وثقل وطأتها. يضاف إليها المصاعب الجمة التي نجابهها بسبب وضعنا الجغرافي والتاريخي والاجتماعي الخاص، والمشاكل العدة التي تحيط بكياننا القومي الحاضر وتعبث في داخله، مما يزيد خطورة الدور الذي نجتازه والشدة التي نرزح تحتها. وهذا كله قد أصبح ماثلاً للعيان، لا يحتاج إلى كبير تدليل أو ايضاح.

في مثل هذه الحال يجدر بكل فرد أو فريق من أبناء الأمة أن يتساءل عن واجبه، ويحدد لنفسه وظيفته، كي يقوم بقسطه في دفع الأخطار وتجنب العواصف، ويتعاون مع غيره على قيادة مركب الأمة إلى شاطىء الأمن والسلامة.

ومَن بين طبقات الأمة أجدر بهذا العمل من طبقة المفكرين؟ أليس مفروضاً أنهم هم الذين يتفهمون المشاكل، ويعينون الأهداف، ويرسمون الخطط، ويحددون الواجبات والوظائف؟ فخليق بهم إذن أن يبدأوا بأنفسهم، ويبادروا إلى إيضاح مهمتهم، ويحددوا

واجبهم قبل أن يحددوا واجبات غيرهم، وأن يكونوا في الطليعة من حيث تفهم نوع العمل الذي تفرضه الشدة عليهم، ومن حيث الاستعداد للقيام به وتحمل أعبائه.

ـ ٢ ـ

أول واجبات المفكر ـ بل واجبه الأساسي ـ في أوقات الأزمات هو أن يحس بالأزمة ويحياها، فلا ينشغل عنها بالأمور الطارئة بل يتمثّلها دوماً أمامه، ولا يكتفي بذكرها والتحدث عنها، بل يعيش أبداً تحت وطأتها. فالأزمة لا تكون حقيقة واقعة إلا عندما يُشعر بها ويدرك معناها وخطرها. أليس ثمة فرق بعيد بين الفقر والاحساس بالفقر، وبين الجهل والأنفة من الجهل، وبين الذل والثورة على الذل؟ ان في بعض مجاهل الأرض شعوباً ما زالت منذ فجر التاريخ تعيش في عوز شديد وظلمة دامسة وشقاء شنيع، وهي راضية بها كلها لأنها لا تشعر بها شعوراً فعلياً، ولا تعرف ما هو خير منها. كذلك كان أمر أمتنا العربية بعد أن فسد مجتمعها وتهدمت حضارتها: ظلت قروناً عدة غارقة في ظلمات الفقر والجهل والظلم، فلم تسعَ إلى التخلص منها إلا عندما بدأ عقلها يتنبه في السنوات الأخيرة فيجعلها تحس بها احساساً واقعياً وتثور عليها. الحق ان الأزمة لا توجد فعلاً إلا بقدر ما تنعكس عواملها الخارجية في نفوس الأفراد والجماعات فتخلق فيهم إحساساً واعياً وقلقاً واندفاعاً داخلياً يحفزهم إلى الثورة الهادمة فالعمل الباني. لا تقوم الأزمة في الأرض، ولا تسبح في الهواء، ولا تتمثل في البضائع والمحاصيل والأدوات، بل مقرها آخر الأمر في النفوس، ومردها إلى صميم الشخصية الإنسانية، ومظهرها الصادق في حياة الأفراد يلذعون بها ويكتوون بلظاها. فمن أحرى من المفكر بأن يتصف بهذه الصفات ويحيا هذه الحياة؟ من أحرى منه ـ وهو قلب الأمة النابض ووترها الحساس ـ بأن يكون أدق الناس شعوراً بها، ووعياً لمعناها، وعيشاً تحت وطأتها؟

العيش تحت وطأة الأزمة ـ هذا العيش الذي يجب أن يتمثل في المفكر أولاً ـ هو، الشعور الدائم بالخطر المحيق، هو مجابهة الشدة في كل لحظة، وترقب الأهوال تبرز من كل جهة، هو سلوك السبيل الضيق تحيط به المزالق وتكتنفه المهاوي، هو التأرجح الدائم بين الأمن والضياع والبقاء والزوال، هو العلم والشك بالعلم، والايمان وتزعزع الايمان، والرضا والثورة على الرضا، هو الهناء يلمع لحظة ثم يخبو ثم يعود، والألم يحز النفس وما إن يخف حتى يرجع أشد وأقسى. هذا هو شعور من يجابه أزمة عامة تنعكس في نفسه أزمة شخصية، فيحياها ويغذيها بعصارة قلبه وعقله. هذا هو شعور المفكر الحقيقي في أوقات الأزمات.

وهذا الشعور الحاد بالخطر الدائم يدفع المفكر إلى التنبه واليقظة والسهر المستمر. فالعدو نشيط محتال لا يأني ولا يرحم، بل يغتنم أي تقاعس أو توانٍ ليشهر سلاحه

ويضرب ضربته. فما من جهد يجب أن يضيع، وما من حركة يصح أن تذهب سدى، بل كلها: كل نبضة من نبضات القلب، وكل دفقة من دفقات الحياة، يجب أن تصب في سبيلها الصحيح: تنبهاً لا يخف وعملاً لا يكل، للخروج من المآزق والنجاة من الأخطار.

ويستتبع هذا الشعور عند المفكر إحساساً دقيقاً بالتبعة الملقاة على عاتقه: فالفكر يجب أن يحقق قبل أن يبرز، والكلام يجب أن يزان قبل أن يلفظ، والعمل يجب أن يقدّر قبل أن يقدم عليه. ولذا يعود المفكر، الشاعر هذا الشعور، العائش هذا العيش ـ يعود دوماً إلى نفسه محاسباً إياها على الكبير والصغير، على الجليل والحقير، خوفاً من أن تشتط أو تزل فتجر وراءها أسوأ النتائج. والشعور بالتبعة ومحاسبة النفس أمران متلازمان يؤدي أولهما حتماً إلى الثاني، ويكوّنان معاً صفة من أهم صفات الأشخاص الذين عاشوا حقاً، وكان لهم أثر في مجتمعهم ويد في صنع التاريخ.

هكذا يعيش المفكر تحت وطأة الأزمة: متنبهاً يقظاً، جاداً عاملاً، شاعراً بالتبعة، محاسباً نفسه أدق محاسبة: هذا هو نصيبه المقدّر له، بل النصيب الذي يقتطعه هو من الحياة. فيه شقاؤه وهناؤه، وألمه وعزاؤه، وبه يحقق وظيفته، ويدلل على أنه خليق بحمل رسالة الفكر في أيام الأزمات.

ـ ٣ ـ

ومن واجبات المفكر في هذه الأيام أن يحدد، تحت وطأة الأزمة التي يحياها، فهمه لوظيفته، ويثبت في نفسه معنى الفكر ومقامه ورسالته. ففي أيام اليسر والرخاء قد يجوز التغاضي عن اختلاط الغايات، وغموض الوسائل، وتردد الخطى وضلالها السبيل الصحيح. أما في زمن الشدائد والأزمات، فالمجال أضيق من أن يسمح بمثل هذه الأخطاء، لأن من طبيعة هذه الأحوال أن يكون أثر العمل فيها ـ خيراً كان أم شراً ـ مضاعفاً ونتيجته مجسمة. فإذا اتخذ المفكر لنفسه مثلاً وظيفة التاجر، وقصد من عمله إلى الربح المادي، وقدّم لأبناء مجتمعه السهل الرخيص الذي يطلبونه بدلاً من الصعب الغالي الذي يحتاجون إليه، ليجني من ذلك الثروة الطائلة والعيش المترف ـ إذا فعل ذلك فقد ضل غايته، وانتكس عن واجبه، وأنزل بنفسه وبمجتمعه شديد الأضرار، واستحق مذمة التاريخ. وإذا أراد المفكر لنفسه زعامة سياسية أو اجتماعية عن غير سبيلها الصحيح ـ سبيل الحق ـ وذلك بتغذية شهوات الجهلة والنزول إلى مستواهم بدلاً من رفعهم إليه، وبالاستسلام للقوى المسيطرة وبذل استقلاله وحريته ـ وهما أنفس ما يملك، بل علة كيانه ـ ثمناً لرضى هذه القوى وسندها، فقد أصبح عاملاً من عمال الهدم لا البناء ومصدراً من مصادر التأخر لا التقدم. وإذا سها عن باله في أية لحظة من اللحظات ان

وظيفته هي تبين الحق وتبنّيه، والتصدي للجهل ومكافحته، والثورة على الظلم والفساد ـ إذا اختار طريقاً غير هذه الطريق التي ترسمها وظيفته، فقد خان هذه الوظيفة وأضحى هو نفسه من عناصر الفساد التي يجب الثورة عليها واقتلاعها، بل غدا من رؤوس هذه العناصر، لأنه بحكم طبيعته وعمله يحتل أنّى كان مركزاً فعالاً موجهاً: إلى الخير والرقي كان هذا التوجيه أم إلى الشر والانحطاط.

ليست وظيفة المفكر هذه مرتبطة بمكان أو زمان، بل هي عمله الأساسي عند كل أمة وفي كل آن: وإنما من شأن أدوار الشدائد والأزمات أن تدفع المفكر ـ المفكر الحقيقي الذي يعيش هذه الأزمات وتجيش نفسه بأثرها ـ من شأنها أن تدفعه إلى استجلاء معنى هذه الوظيفة استجلاء لا يتسنى في أوقات الرخاء، وإلى النظر الحاد إليها والنفاذ إلى صميمها، والسير المباشر نحوها دون ارتباك أو مواربة.

بل لعلنا نذهب إلى أبعد من هذا فنتساءل: لو فرضنا أن المفكر لا يبغي من عمله تلك الغايات الخارجة عن وظيفته الأساسية في طلب الحق ومكافحة الباطل، أيجوز له أن يختار من الطرق المؤدية إلى غايته، تلك التي تبعث في نفسه لذة عقلية فحسب؟ أيكون في مثل هذه الحال مؤدياً حق التأدية الوظيفة الخاصة التي تقتضيها الأزمة؟ ليسمح لي أن أبدي شكي في ذلك، مع علمي بأن الكثيرين لا يوافقونني على هذا الموقف. ليس من ينكر ان اللذة العقلية كانت خلال العصور من أهم بواعث التقدم الفكري، ولكن الأزمات تتطلب أن تتخلى هذه الغاية عن مقامها الأول لذلك النوع من التفكير الناشىء عن شعور حاد بالتبعة وعن تقدير دقيق لمشاكل المجتمع واحساس عميق بواجب المفكر إزاءها. فلا يحق للباحث أن يقول: اني أتوجه إلى هذه الناحية من البحث لأرضي ميلاً خاصاً، أو اطرق هذا أو ذاك من أبواب العلم حسبما أشاء، لأن الشعور الصحيح بما عليه من تبعة فكرية يبدل أسس الاختيار فيضع الفائدة قبل اللذة ويقدم حاجة المجتمع على مجرد الرغبة. بل لعل المفكر يرتفع تحت تأثير شعوره بالأزمة إلى ذلك المستوى الذي تصبح فيه اللذة العقلية قائمة على تحقيق الواجب الفكري نفسه، فلا يبقى ثمة تعارض بينهما، بل تتجسد الرغبة في الواجب، وفيه وحده.

ومثل هذا ما يطلب من الأديب ورجل الفن على العموم. فالفن الصحيح لا يحتمل القيود، ولا يخضع لأوامر خارجية بالتوجه إلى هنا أو هناك، ولا يحيا ويزدهر إلا إذا فاض حراً طليقاً من منابع النفس البشرية. ولكن يحق لنا مع ذلك أن نطلب من رجل الفن ـ في أوقات الأزمات خاصة ـ أن يكون شاعراً بما يجيش به مجتمعه من قوى وما يصطرع فيه من إرادات، وأن تتأثر نفسه بهذا الصراع ليخرج فنه صورة صحيحة للحياة كما هي. يحق لنا أن نطلب منه أن لا يعيش على هامش الحياة، بل في صميمها، أن لا يهرب منها، بل أن ينزل إلى ميدانها، فتضطرب نفسه بما يرى ويحس ويصدر فنه قوة

تفتح مكامن النفوس وتكيّف سبل الحياة. عندها يكون هذا الشعور بالتبعة الذي نصف لا قيداً خارجياً يضغط ويقلص، بل قوة داخلية ترفع وتنمي، فتزيد ادراك الأديب للحياة وقدرته على تصويرها أولاً، ونصيبه في توجيهها وتحريرها ثانياً.

ــ ٤ ــ

وهذا يقودنا إلى واجب آخر من واجبات المفكر في أوقات الأزمات، وهو متصل بما تقدم اتصالاً وثيقاً، بل لا يخرج عن أن يكون ايضاحاً له وابرازاً لمضمونه. ان التفكير الذي تتطلبه الأزمة يجب أن يتوجه إلى المشاكل الأساسية في الكيان الفردي أو الاجتماعي مقدماً الأهم على المهم، والمهم على الحقير التافه. لنأخذ مجلاتنا العربية ذات الشهرة والانتشار، ولنتفحص قدر مواضيعها وصلتها بحياتنا الحاضرة. ألسنا نجد أن كثرتها المطلقة تدور حول مواضيع جزئية تافهة، بل لا تستهدف في أحيان كثيرة أي موضوع حقيقي؟ ان الكيان العربي ليجابه اليوم مشاكل رئيسية كبرى يتوقف ذات وجوده على كيفية حلها، فهل يجوز أن نلهو عنها بالقصص المسلي والثرثرة الفارغة والنتف الاخبارية المتفرقة التي تخدر العقل وترضيه ارضاء سهلاً فتصرفه عن الجد المطلوب، والعمل الواجب؟

أمامنا في السياسة ايضاح معاني الأمة، والقومية، والسيادة، والدولة، والاستقلال، والحرية، والوحدة، وأمثالها من المفاهيم الأساسية، التي تتردد ألفاظها على ألسنتنا كل لحظة تقريباً، فإذا سألتنا عنها وجدتنا نختلف فيها أشد الاختلاف ونتباعد في فهمها أقصى التباعد. أمامنا تكوين الفكرة القومية واستخلاصها من فلسفة قومية شاملة. أمامنا نسج هذه الفلسفة القومية من خيوط التفكير الفلسفي التحليلي من ناحية ووقائع ماضينا وحاضرنا من ناحية ثانية. أمامنا تجسيد هذه العقيدة القومية في أحزاب تحقق معنى التضامن والعمل المشترك وتنقل قيم الاستقلال والحرية والسيادة من حيز الإمكان إلى حيز الفعل. أمامنا بناء دولة مستقلة لا عن الخارج فحسب، بل عن أي طغيان في الداخل كذلك: دولة قد تناسقت سلطاتها وتماسكت أجزاؤها واطمأن أفراد الأمة لها.

وفي الاقتصاد: تجابهنا مشاكل إعمار الأرض واستخراج كنوزها الدفينة، وإقامة ما تؤهلنا له مواردنا من صناعة، وبناء المؤسسات الاقتصادية والمالية لتنظيم ثروتنا الداخلية وتوفيرها وربطها بالاقتصاد العالمي بحيث نكون قادرين، على الأقل، على أن نتكلم اللغة التي يستعملها رجال المال والأعمال اليوم وعلى فهم أغراضهم ووسائلهم والمصالح المتبادلة بيننا وبينهم. وبكلمة شاملة: علينا أن ننتقل ــ وبسرعة ــ من نظام اقتصادي أولي لا يكاد يلمس سطح ثروتنا ولا يستخرج منها إلا القليل ليوزعه توزيع غبن وإجحاف إلى نظام حديث يحيط بهذه الثروة احاطة تامة وينميها ليوزعها توزيع عدل وانصاف.

وفي الاجتماع والثقافة: أمامنا مشاكل البيت، والمدرسة، والمعبد، والقرية، والمعمل، وسواها من المؤسسات التي تربط أبناء المجتمع بعضهم ببعض. علينا تفهم معانيها، وتبيّن وظائفها، وايضاح الأسس التي يجب أن تقوم عليها لتكون سليمة من الفساد، متحدة بعضها ببعض، قائمة بنصيبها في بث الحياة الصحيحة في المجتمع وتوفير أسباب الرقي لأفراده.

هذا بعض ما يجابهنا في أزمتنا الحاضرة من مشاكل أساسية. وهو مطلوب جسيم هائل يحتاج إلى كل ما نملك من إمكانات عقلية وعملية. ولست أنكر أن البلاد العربية قد أخذت تتنبه إلى هذه النواحي وتبذل لها جهداً نلمس أثره في ما نقرأ من نتاج مطابعنا وما نشاهد من تقدم في نظمنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولكن أين هذا الجهد الأولي الضئيل من الواجب الملحّ؟ بل أين هو من الجهد ـ أو بالأحرى العبث ـ الذي يفيض من مجلاتنا وكتبنا ويرمي إلى ارضاء نزواتنا الآنية وكسلنا وحبنا للثرثرة، ويصرفنا عن المسائل الكبرى التي تحتاج معالجتها إلى عرق فكري متصبب، وبعد عن الصخب والضجيج، وتقدير لمقام الفكر وتبعته؟

ثم ان كلاً من المشاكل الأساسية تتضمن مسائل كلية وأخرى جزئية. والأولى أهم من الثانية ومتقدمة عليها. وجمهور العالم العربي لا يزال يجهل أكثر هذه الكليات، فهل يجوز أن نهملها وننصرف إلى معالجة المسائل الجزئية؟ أيجوز لعلماء اللغة مثلاً أن يملأوا أعمدة المجلات بتحقيقات ومحاولات تفصيلية، في حين أننا لا نزال نجهل مبادىء علم اللغة الحديث والمشاكل الرئيسية التي تقعد بلغتنا العربية اليوم عن أن تكون لغة حية بالمعنى الحقيقي، بل في حين لا يزال أولادنا وذخيرتنا لمستقبلنا مفتقرين إلى كتب مطالعة تقوّي فيهم ملكة لغتهم وتربطهم بتراثهم وتنمّي ثقافتهم القومية؟ أيسمح للمؤرخ العربي بأن يبذل نشاطه ووقته في تحقيق أحد الاعلام، أو في نشر أحد المخطوطات، في حين لا نملك بعد في اللغة العربية كتباً تبسط لنا تاريخ الأمة العربية بأسلوب علمي صحيح، وفي حين أن جمهرة المتعلمين منا لا تفهم بعد حقيقة التاريخ كعلم من جهة، وكقوة مسيّرة لحياة الأمم من جهة أخرى؟ أيصح أن ننصرف هذا الانصراف الجارف إلى الأدب، ونعالجه معالجتنا الجزئية السطحية، ونحن لا نزال ضعافاً قاصرين في ميادين البحث العلمي الذي تقوم عليها المدنية الحديثة؟

إن التفكير الصحيح ليثور في أوقات الأزمات على الأدب العابث، الساهي عن خطورة الحال، الصارف أنظار الناس واهتمامهم عن المشاكل الأساسية، البائع نفسه لشهوات الجاهلين وعبث العابثين، المدنس حرمة الفكر بالأغراض الخاصة والأهواء الجامحة. وهو، إذ يتوجه إلى هذه المشاكل بدافع الشعور بتبعته الجسيمة، يختار الأهم منها على المهم، والمهم على التافه، ويضع الأصول قبل الفروع، فيوفّر على مجتمعه جهداً ووقتاً هو بأشد الحاجة إليهما للقيام بما يتطلبه منه موقفه الدقيق وركبه المتأخر.

وفي مقدمة واجبات المفكر في أزمة ما، أن يكون فاهماً لحقيقة تلك الأزمة، واعياً لمتضمناتها، منبهاً شعبه إلى وجوه الخطر فيها. ولذا كان على المفكر العربي اليوم أن يقبض بعقله وبصيرته النيرة على أصول الشدة التي تعانيها أمته، لا على ظواهرها الخارجية فحسب، ليقوم بوظيفته في تشخيص حقيقة الداء واقتراح ناجع الدواء. فإن لم يبلغ هذه المرتبة، كان أي تأثير تحدثه الأزمة في نفسه تأثيراً عاطفياً، غير مبني على الفهم والادراك، وبالتالي غير مؤد إلى الخلق والابداع أو فاعل في تخفيف الشدة ومعالجة الحال. ولا بد، في نظري، لمن يحاول تفهم أزمة الحياة العربية الحاضرة من أن يتبين الحقائق التالية:

أولاً: ان هذه الأزمة متصلة أشد الاتصال بالأزمة العامة التي تعانيها البشرية جمعاء. فالعالم اليوم قد ارتبط بعضه ببعض ارتباطاً لم يعد ممكناً معه أن نفصل أي جزء منه عن سواه ونقصر اهتمامنا عليه. لقد عمل العقل البشري في الطبيعة، فقرب الأبعاد، وأحكم الصلات، وربط المصالح ووحد المشاكل. فلم يعد جائزاً، عندما نحاول تفهم أزمة المجتمع العربي أن نكتفي بالنظر إلى الحياة العربية وحدها، بل يجب أن يشمل نظرنا الحياة البشرية الحاضرة بكاملها، والموقف الذي تقفه من المشاكل الإنسانية الأساسية. ينبغي أن نفهم اللغة التي تتكلمها الشعوب الأخرى، والاختبارات العقلية والنفسية التي تمر بها، لأن داءنا متعلق بدائهم، وقضيتنا لا تنفصل عن قضيتهم. لقد أصبحنا، شئنا أم أبينا، قسماً من العالم الكبير لا يمكننا أن نعيش بمعزل عنه، أو أن نحل مشاكلنا دون التعرض إليه. فلنعتبر ذلك دوماً في تفكيرنا، وإلا ذهب هذا التفكير عبثاً، شأن كل تفكير يجهل الواقع أو يهزأ به، فينتهي الأمر بأن يهزأ به الواقع ويبدده تبديداً.

ثانياً: إن الأزمة العالمية المتجلية في مظاهر متعددة: من اضطراب سياسي إلى ضيق اقتصادي وارتباك اجتماعي وأخلاقي، ترجع في أساسها إلى أصل واحد هو ايمان الإنسان الحديث بالطبيعة وانصرافه اليها انصرافاً يكاد يكون تاماً، وعجزه بالوقت نفسه عن إنماء شخصيته إنماءً متناسباً مع هذا الايمان والانصراف. فلقد اتجه العقل البشري إلى الطبيعة فقبض على أسرارها، وفجر مواردها وأحيا قواها الدفينة، ولكنه لم يصب نفس النجاح في القبض على أسرار نفسه، وتنمية خلقه وشخصيته. فكان من ذلك ان الموارد الهائلة المستمدة من الطبيعة أخذت تستخدم للشر والظلم والنزاع بدلاً من أن تكون وسيلة للخير والحرية والائتلاف. كان من ذلك أن الإنسان وجد في يده أداة فعالة خطيرة، فاقت قوتها قوته، فعوضاً عن أن يضبطها ويسيطر عليها، أصبح لها عبداً وأسيراً. كان من ذلك هذه الأزمات الاقتصادية التي تتتابع على العالم بالرغم من موارده العظيمة، وهذه الحروب الطاحنة التي تمزق احشاءه بالرغم من أن الأرض أصبحت قادرة على أن توفر لأبنائه جميعاً العيش النعيم والرخاء العميم. كان من ذلك هذه الآلام التي تعانيها أكثر

الشعوب والطبقات من شرور التحكم والاستئثار، والغلبة والاستغلال. كان من ذلك، على الجملة، هذه العلل المختلفة التي تتفتق عنها الحياة الحديثة والتي تعمل في هذه الحياة تفكيكاً وتهديماً، وتهددها بالزوال والانقراض.

ثالثاً: إن الأمة العربية، والأمم التي تماثلها في التطور الاجتماعي، تعاني، زيادة على هذه الأزمة العالمية الشاملة، أزمة خاصة ناشئة عن تقصيرها في تطور عقلها وتسلط هذا العقل على عالمه. فلقد مضى على العقل العربي مئات من السنين توقف فيها عن الإنتاج، فتوقف بذلك سير المدنية في هذه الديار. وفي الوقت نفسه عاد العقل الغربي إلى التنبه، وكشف عن أسسه الماضية وأخذ يبني عليها، وما زال يعمل في البناء، وكلما تقدم زاد نشاطه واتسع نطاقه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم من رفعة وامتياز. ولقد حدث من جراء هذا الفارق البعيد بين تقدم العقل في الغرب وتقصيره عندنا، ومن بقاء شرور الأثرة والتحكم متسلطة على الإنسان، حدث من هذا أن غدت بلادنا عرضة لسيطرة الشعوب الغربية المتقدمة عليها، ولم يعد لنا غنى، لحماية أنفسنا من هذه السيطرة، عن أن نلحق بالعقل الغربي إلى المدى الذي بلغه في استنباط الطبيعة والتسلط على نفسه، فليس بالإمكان دفع العدوان بالخطب والمقالات، ولا بمجرد إثارة العواطف القومية، وإنما بمجابهة العدو بسلاحه واستخدام أساليبه ذاتها. ليس بالامكان ــ في المدى الأخير ــ دفع عدوان الغرب الحديث بنظام اقتصادي بدائي، ونظام اجتماعي اقطاعي طائفي، وعقلية تعود إلى القرون الوسطى. ليس بالإمكان بناء دولة قومية على هذه الأسس، لأن الدولة القومية لم تقم فعلاً في التاريخ إلا في القرون الحديثة وعلى أنقاض هذه الأسس. فإذا أردنا أن نعالج أزمتنا الخاصة معالجة صحيحة ونحمي كياننا من التحكم الخارجي ونصونه من الانهيار الداخلي، كان من أول واجباتنا أن نسعى لنصبح في الواقع جزءاً من العالم الذي نعيش فيه: كان علينا أن نقبل على الطرق والأساليب التي توصل إليها العقل الغربي في استغلال قوى الطبيعة، وفي تنظيم علاقاته الاقتصادية، وفي تنمية موارده العلمية، وأن نتخذها سبلاً لنا في تخطيط حياتنا الحاضرة وإنشاء كياننا المقبل. أعود فأقول: لا بد لنا من مكالمة الغرب بلغته، ومقابلته بتفكيره، ومجابهته بنوع عمله وتدبيره.

رابعاً: إن أزمتنا العربية الخاصة ناشئة لا عن تقصيرنا في الميدان العقلي فحسب، بل عن فعل نفس الغرائز التي تعبث بالغرب والتي لم يتغلب عليها بعد الإنسان الحديث: عن الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي للطبقات الكادحة، عن الضغط الفكري والاستعباد العقلي، عن الاستهتار بالغاية القومية واستغلال الشعائر الوطنية في سبيل المصالح الخاصة والأهداف القريبة. فلا بد اذن من الجهاد الدائم للتغلب على هذه الشرور. ولا بد من أن يكون المفكر في طليعة هذا الجهاد، وأن يدعو إلى مجابهة هذه العلل أشد مجابهة. فإذا كانت الأيام العادية تسمح بشيء من المداهنة والمداورة، فالأزمة

لا ترحم، بل تتطلب الرأي الجريء والعمل الحاسم، وتفرض أن توضع مصلحة الأمة فوق مصلحة الفرد والهدف العام قبل الغرض الخاص. الأزمة لا ترحم، والتاريخ حاكم عادل، قد يغضي عن الزائف حيناً، ولكنه لا يبقي ـ آخر الأمر ـ إلا الصالح، ولا يصح عنده إلا الصحيح. ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[1]. فعسى أن تكشف الأزمة أن نهضتنا الحاضرة ليست زبداً فحسب، بل فيها ما يمكث في الأرض وينفع الناس.

خامساً: مع أن الغرب لا يزال تحت سلطة غرائز الأثرة والتحكم التي وصفنا والتي تسبب ـ إلى حد كبير ـ الأزمة العالمية التي تتخبط فيها الإنسانية اليوم، فإن فيه قوى متزايدة تعمل لتحريره من هذه الشرور. فعلى العرب أن يميزوا هذه القوى من سواها، وأن يراقبوا جهادها الدائم للتغلب على قوى الرجعية والاستبداد والاستئثار في الغرب نفسه، وان يشتركوا وإياها في هذا الجهاد. ذلك ان الكفاح في سبيل الحرية غدا كفاحاً واحداً مشتركاً. فما لم تقهر قوى التحرر بواعث الطمع والشر في صميم المدنية الغربية نفسها ـ وهي اليوم المدنية المتسلطة ـ يبقى عمل الشعوب الناشئة ضعيفاً، ومهدداً دوماً بالخطر والاضمحلال. وهنا أيضاً يبدو لنا بكل وضوح ان جهادنا للتغلب على أزمتنا يضطرنا، سواء أشئنا أم أبينا، إلى مكالمة الغرب بلغته والتغلغل إلى صميم حياته وفكره.

هذه بعض صفات الأزمة الحاضرة التي تعانيها أمتنا العربية يجدر بالمفكر العربي أن يتبينها ويستوعبها، وليست كل ما يمكن قوله في هذه الأزمة، وإنما قد يفيد ذكرها لتنبيه المفكّر إلى واجبه في النفاذ إلى صميم الواقع، والقبض ـ كما ذكرت سابقاً ـ على أصول الشدة التي يرزح تحتها مجتمعه، ليكون لذلك المجتمع المرشد الواعي والقائد الحكيم، كما تتطلب وظيفته دوماً، وبصفة خاصة مشددة، في أوقات الأزمات.

ـ ٦ ـ

وفي زمن الأزمات تنصرف أذهان الناس إلى المشاكل العديدة التي تحيط بهم، فتتوزع آراؤهم وتشرد أفكارهم. وبذلك تعظم الحاجة إلى من يذكرهم ببعض الحقائق الأساسية في تاريخ الأمم وطبيعة العمران. ومن أجدر بالقيام بهذا التذكير من رجل الفكر الذي وظيفته أن يفهم كنه الإنسان ويعي سير البشرية؟ من هذه الحقائق، ان مصير أية أمة من الأمم متوقف آخر الأمر على مؤهلاتها للحياة، لا على الظروف التي تحيط بها. فالظروف قد تقدم بعض الشيء أو تؤخر. ولكن الأصل والأساس هو إتمام الشروط التي بدونها لا تقوم الحياة. فكما ان الإنسان لا يمكنه أن يعيش طويلاً إذا كانت تنخر جسمه

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد»، الآية ١٧.

علل أصيلة مستشرية، كذلك الأمة لا تستطيع أن تدوم ــ مهما كانت الظروف الخارجية مؤاتية ــ إذا كانت تعبث بجسمها جراثيم الظلم الاقتصادي والتنافر الاجتماعي والفساد الأخلاقي. فمصير كل شعب هو إلى حد بعيد في يده، والحياة تزنه بميزانها العادل وقسطاسها الدقيق ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾(٢)

ومن هذه الحقائق ان أهم ما يقاس به الفرد، أو المجتمع، أو الحضارة، هو مقدار ما يتضمن كل منها من قيم عقلية وخلقية وروحية. هذه القيم هي لب الحياة البشرية. بها يمتاز الإنسان على الحيوان، وبقوتها يصمد للعواصف والنكبات، وبتراكمها الايجابي تبنى الحضارة ويرتفع العمران. فإذا شاءت أمة من الأمم أن تعرف أهليتها للحياة، أو نوع الذكر الذي سيكون لها في التاريخ، فلتزن ما لديها من هذه القيم، ولتنط ايمانها بها دون سواها.

وحقيقة أخرى هي أن الأزمات تتضمن بطبيعتها إمكانات مضاعفة هائلة للشر أو للخير، لتبديد هذه القيم واضاعتها، أو لتنميتها واشاعتها. ففي مثل هذه الأوقات تظهر وثنيات جديدة أو تقوى وثنيات قديمة: كوثنية المال وعمادها الايمان بالربح السهل الرخيص واقتناص الثروة عن أي سبيل وبأي ثمن، ووثنية الجاه الاجتماعي والتحكم والتسلط والتنفذ، وسوى ذلك من الوثنيات التي تقوم على الشهوة وتضع الوسيلة قبل الغاية. وبجانب هذه الوثنيات، بل بسببها، تظهر إمكانات عظيمة لايمان جديد: قلق في النفوس، وحماسة في الصدور، وتعطش إلى المثل العليا، ورغبة ملحة في العمل النافع، وعلى الإجمال تطلع إلى حياة أسمى وأنبل وأنقى.

وحقيقة أخرى مرتبطة بما سبق هي أن هذه الإمكانات المتناقضة تفسح المجال لعمل الزعامة وتضاعف أثرها. الناس في حيرة واضطراب، وفي المجتمع قوى تندفع للتجند في مكافحة الفساد، والانطلاق إلى أجواء أرفع وأصفى، قوى تريد ان تؤمن وتنظم وتعمل، قوى مستعدة للتضحية في سبيل مبادىء تطمئن لها، قوى تتطلع إلى من يتسلم زمامها ويقودها. في مثل هذه الأحوال يحك الزعماء ويختبرون، فإما أن يرتفعوا إلى مقام المصلحين وبناة الأمم والأنبياء، وإما أن ينخفضوا إلى أدنى مراتب العبث والهدم والاستغلال. الأزمة كشافة فضاحة: تعري الأمة وتعرض مؤهلاتها للحياة، وتمتحن الزعامة وتبرز قابلياتها لصنع الحياة.

بهذه الحقائق، وبمثلها، يجب على المؤرخ أن يذكّر أمته في أوقات الأزمات. وبذا يؤدي وظيفته كمرشد وموجه، ومبشّر ومنذر، ويصرف اهتمام أبناء مجتمعه عن العرض الزائل إلى الجوهر الباقي، ويثبت في نفوسهم الحقيقة الأولية التي تكشف عنها العواصف

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة القارعة،» الآيات ٨ ــ ٩.

والأزمات: وهي أن متانة أي بناء تتوقف على صحة الأسس، وسلامة المواد وحكمة الباني وإخلاصه.

— ٧ —

ويجابه المفكر في أيام الأزمات واجب آخر يعرض للفكر الصحيح في كل زمان ومكان، ولكنه يشتد وتزيد حدته في المحن والشدائد. ذلك هو واجب التوفيق بين الفكر والعمل. إلى أي حد يستطيع المفكر أن ينخرط في العمل العام ويظل مع ذلك محافظاً على رسالته الصحيحة. ان التفكير الجدي يتطلب الهدوء والاستمرار، ويستدعي التعمق والتجرد، فإذا نزل المفكر إلى ميدان العمل خسرنا تفكيره من بعض هذه الوجوه. ومع أنه قد يكسب من وجوه أخرى، كالاتصال المباشر بالشعب، واختبار المشاكل الإنسانية اختباراً مباشراً، فمما لا شك فيه ان العمل ـ إذا اتسع نطاقه أو تعددت مناحيه ـ يصرف المفكر عن التعمق في النظر والمجالدة في البحث اللذين يفرضهما طلب الحق والكشف عن جوهر الأشياء. ولكن الأزمة نازلة ووطأتها على الأمة شديدة، أفيجوز للمفكر أن ينصرف عن معالجتها عملياً؟ أيجوز له أن يكون بعيداً عن الميدان، منعزلاً عن العمل السياسي أو التنظيم الاقتصادي أو التدريب الاجتماعي والثقافي؟ هذا السؤال قد لا يزعج المفكر كثيراً في أوقات الرخاء، أما في زمن الشدة فإنه يقف له بالمرصاد ويطلع عليه كل صبح ومساء. ويجد المفكر في هذه الأحوال أن لا غنى له عن قسط من العمل العام يساعده من جهة في فهم حاجات المجتمع الملحة، ويقتطع من جهة ثانية سهمه في مهمة الانقاذ ودفع الخطر، على أن يحفظ له هذا القسط ما يحتاج إليه من حرية وتجرد وسعة من القوة والوقت يتمكن بها من متابعة الجهاد الفكري والبحث النظري. إذ بدون هذه المتابعة قد تختلط عنده الأغراض، وتلتبس الحقائق. فلا يعود هادياً مصلحاً لأمته في وقت يعظم فيه خطر الالتباس وتتضخم نتائج التردد والضلال. ومما يسهل مهمته الصعبة هذه أن يكون منصرفاً في تفكيره، كما ذكرنا، إلى المشاكل الأساسية والمسائل الواقعية في مجتمعه، فيتقوى تفكيره عند ذلك بالعمل المنتج ويهتدي عمله بالفكر الصحيح. ولكنه سيجد نفسه على كل حال مضطراً دائماً إلى اليقظة والانتباه ليحسن التوفيق بين هاتين الوظيفتين، ويقوم بمهمته التامة على أفضل وجه، ويؤدي خير قسط في انهاض المجتمع وتوجيهه.

— ٨ —

وفي أوقات الأزمات يتوجب على المفكر أن يسلك سبيل التعاون مع زملائه المفكرين. فالحاجة ملحة، والأيدي قليلة، فلا يجوز اذن التفرق والاختلاف، ولا بد من

أن يسود حقل الفكر شيء من التنظيم الذي تخضع له الحياة المادية في أيام الشدائد والحروب. أقول: شيء منه، لأن الأمور الفكرية والروحية لا تخضع بطبيعتها لمثل التيسير والتوجيه الذي يفرض على الأمور المادية، فهي ميدان الحرية والابداع، تثور على كل تحكم أو ضغط خارجي، ولا تقبل من التوجيه إلا ما يبعثه الاقتناع الداخلي حين تتحد الحرية والواجب في نفس المفكر العامل. ونحن إذا نظرنا إلى حالة الفكر عند الأمم الغربية وجدناه صادراً عن تعاون وثيق بين رجاله يوحد جهودهم ويكفل حسن تصريفها. وجدنا الجمعيات العلمية والنوادي الأدبية، وحلقات الدراسة ومؤسسات البحث والتنقيب، ومكاتب الترجمة والنشر، وأمثالها من المنظمات التي توفر نتاج الفكر بخلق جو موافق للمشاركة العقلية المبدعة. وبذا يشعر الباحث الغربي أنه لا يقتحم مسالك البحث الوعرة وحيداً، بل ان له شركاء يصحبونه في سيره ويمدونه بشتى أنواع المساعدة، وان قافلة العلم تتقدم أبداً إلى الأمام أقوى عدة وأكثر عدداً.

ليس هنا مجال البحث في قضية التعاون الفكري بين البلاد العربية. إنما يكفي أن نقول ان التعاون الفكري الصحيح لم يتم عندنا بعد. ولن يتم إلا عندما ينشأ في هذه البلاد فكر صحيح. فالفكر الصحيح يشعر بحاجته إلى مثله ويسعى إليه أنى كان، فيكفل بنفسه التعاون المطلوب. وهذا التعاون لا يمكن أن يسن بمرسوم، أو يفرض من عل، أو يتم بخلق منظمة أو إنشاء مؤسسة. إنما الأمر على عكس ذلك: يحدث الاتصال العقلي والروحي أولاً، ثم تنشأ المؤسسات المختلفة لتنظيمه وتقويته واغناء ثماره. في هذا النوع من الاتصال: حيث تمتزج النفس بالنفس، وتتخمر الروح بالروح، حيث لا حواجز تفصل ولا ادران تعكر، ينمو الفكر الحي الصحيح ويثمر. أما الاجتماعات التي تقتصر على المؤانسة والمجاملة، والعلاقات التي لا تتعدّى مظاهر الحياة، فهذه لا تغني فتيلاً ولا تؤتي ثمراً صالحاً. وفقير حقاً المفكر الذي لا يشعر بضرورة المشاركة الفكرية التامة وبالحاجة إلى من يبادله التعبير عن خوالج النفس وبث سرائر القلوب. وما أقل هذه المشاركة والمبادلة بين أدبائنا ومفكرينا، فما أشد فقرنا الفكري، وما أبعدنا عن التعاون الفكري الصحيح! وإذا كان هذا النقص والفقر مخلاً معيباً في الأزمنة العادية، فما أحراه أن يكون كذلك حين تشتد الحاجة ويجسم الخطر في أوقات الأزمات.

— ٩ —

هذه بعض التبعات التي تلقيها الأزمة الحاضرة على عاتق الفكر العربي في هذه الأيام. ولو اتسع المجال لتبيّن لنا غيرها كثير. وكلها تبعات خطيرة وواجبات جسيمة. على أنه قد يوجد من يتبرم بهذا الكلام فيردد في نفسه: قد يكون صحيحاً هذا القول ولكن الواقع يصدمنا بحقائق مرة عنيفة لا يمكن تجاهلها. كيف يمكن المفكر العربي أن

يقوم بهذه التبعات وهو في الأغلب مضطر للعمل المستمر لكسب عيشه والقيام بأوده وأود عائلته؟ كيف يمكنه أن يتفرغ لما يتطلبه الفكر من متابعة ومواصلة، وهو يكدح ليل نهار في مهنة من المهن، تغدو على مر الأيام عملاً آلياً يشل موهبة الخلق ويميت القدرة على الابداع؟ هوذا شاب نابه ممتلىء جداً ملتهب حماسة ينهي دراسته الثانوية والجامعية بعد تضحيات جسيمة منه ومن ذويه، ويتحرق رغبة في السفر إلى الغرب لإكمال ثقافته وتنمية مواهبه، ولكنك تراه مضطراً للعمل سنوات لأداء دين، أو القيام بنفقات عائلة أو ـ إذا كان حسن الحظ معفياً من هذه الواجبات ـ لادخار المال اللازم لمثل هذه الرحلة. وفي خلال هذه السنوات قد تخور عزيمته، أو تتسلط عليه شواغل أخرى، فيقعد عن إتمام رغبته وتحقيق أمنيته. ولو فرضنا أنه من القلة التي لا يصدها عن متابعة التحصيل صاد، ولا تقف في طريقها عقبة، وذهب إلى بلاد الغرب وقضى فيها سنوات ينـمّي فكره ويوسع ثقافته، ثم عاد إلى وطنه متشوقاً للعمل متحرقاً للإنتاج، فأي سبيل يجد أمامه لاستغلال مواهبه والقيام بالواجب العظيم الذي بسطناه؟ سبيل الوظيفة الضيق، المحاط بالوساطات والشفاعات، ثم ماذا في الوظيفة بعد أن يفوز بها أكثر من تدقيق أوراق، وتحويل معاملات، وتوقيع هنا، وخط حاشية هناك، وأية فرصة في هذا الجو للنمو الفكري والاغتناء العقلي؟ أو سبيل التعليم، الذي يتطلب كدح ساعات طويلة يومياً في أداء الدروس والاستعداد لها وتصحيح فروضها، والراتب مع ذلك قليل، لا يكفي لكفالة العيش بل يدعو إلى عمل آخر، فيخف بذلك قدر الجهد والوقت الممكن بذلهما للخلق الفكري المطلوب، أو سبيل الصحافة وما أضيقها سبيلاً للعمل الفكري الصحيح بما تتطلبه من توزيع للفكر والجهد وبما تقتضي ـ خصوصاً في بلادنا ـ من اهتمام بالزائل التافه من الأشياء لتغذية شهوة القراء أو رغبة الحاكمين. أفنعجب، بعد هذا، إذا عجز طالب الفكر في بلادنا العربية عن أن يبلغ هدفه، ويتحمل تبعته، ويقوم بواجبه العظيم؟

أين الجامعات الكافية تيسر لأساتذتها سبل الدراسة المستمرة والتفكير الحر العميق؟ أين مؤسسات البحث والتنقيب تكفل للموهوبين مطالب العيش لينصرفوا إلى العمل الفكري المنتج؟ أين الجوائز توضع للأدباء والعلماء وتشجعهم على خوض المسالك الفكرية الوعرة؟ أين المنح الكافية تبذل للنابهين من الشبان لإكمال تحصيلهم ومتابعة دراستهم؟

أول ما تتجه إليه أفكارنا عند الاجابة عن هذه الأسئلة هو الحكومات. أجل إن على الحكومات العربية مسؤولية كبرى في هذا الميدان. فهي، بالرغم من الاعتمادات التي ترصدها لهذه الأغراض، لا تزال مقصرة عن البذل المطلوب لخدمة الفكر وتشجيعه. ولكن الحكومات لا تستطيع أن تقوم بهذا العبء الجسيم كله. وان نظرة واحدة على المؤسسات العلمية في الغرب لتظهر ان كثيراً منها لم يكن من عمل الحكومات وحدها،

بل لقد ساهم فيه بنصيب كبير أفراد وهيئات قدروا الفكر ووعوا خطره في حياة الأمم، فأنشأوا الكراسي في الجامعات، ووهبوا الجوائز، وتبرعوا بالمنح، وساهموا في تأسيس المعاهد، فيسروا لمواهب الأمة الفكرية أن تثمر، ولقابلياتها العقلية أن تتحقق. فهل يبلغ أغنياؤنا يوماً هذه المرتبة، فيشعرون بقيمة الفكر ويقتنعون بأن حاجة الأمة إلى ذخيرة عقلية فكرية كحاجتها إلى ذخيرة مادية بل أشد، وان المال الذي كدسوه يجب أن يكون للمجتمع منه نصيب، وان من خير السبل لانفاقه تيسير مهمة الفكر وتعبيد طريقه، وتوفير وسائل نضجه وإثماره؟ أم نقول مع القائلين ان هذا النصيب الذي للمجتمع من أغنيائه، ككثير من الحقوق الفردية والقومية، يؤخذ ولا يعطى، يقتطع اقتطاعاً ولا يبذل هبة وسخاء؟

ـ ١٠ ـ

ومهما يكن من أمر، فمن الخطأ أن يتكل المفكر العربي ـ بل أي مفكر ـ كل الاتكال على غيره في حل مشكلته: فالقضية قضيته، والصراع في النهاية صراعه. ولكن أيقيض له أن يربح هذه القضية، وينتصر في هذا الصراع، فيساهم في خلق أمته وخدمة المدنية؟

ان دون ذلك شرطاً واحداً أساسياً، هو أن تنعكس الأزمة العربية الحاضرة في نفس هذا المفكر، فيولد بفعلها ولادة ثانية. فكما قال السيد المسيح للذين لم يفهموا حقيقة الأزمة الروحية النازلة بعصرهم: الحق الحق أقول لكم إن لم يولد أحد ثانية فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله. كذلك يقال للمفكر العربي في هذا الزمان، بل لكل مفكر أو عامل في كل زمان ـ وبصفة خاصة في الأزمات ـ إن لم تولد ولادة ثانية فلن تبلغ غايتك ولن تحقق مهمتك.

ومتى سعد المفكر العربي بهذه الولادة الثانية انقلبت الأزمة في نفسه طمأنينة وتحول ألمها هناء ورضى. ولست أعني بهذا الرضى الاستقرار الركيك الذي يشعر به من لم يسبر غور الحياة، أو الطمأنينة الفارغة الزائلة التي تجلبها تغذية الشهوات. وإنما أعني الاستقرار والطمأنينة والرضى التي تشع من صميم العقل والنفس والتي لم ينعم بها سوى قلة من بني الإنسان: أولئك الذين يصح ان يقال انهم عاشوا حقاً، أولئك الذين خاضوا المعركة دون وجل وخرجوا منها ظافرين، وانصهرت نفوسهم بلظاها فجاءت أقوى وأصفى، أولئك الذين تلخص فيهم أزمة مجتمعهم ويقاس بهم رقي أمتهم ومقدرتها على البقاء وقابليتها للاغتناء والاغناء. أولئك هم ملح الأرض بهم يصلح طعم الحياة، وتسدد خطى الأمم، ويقيم الإنسان الدليل على تميزه، ويحقق معنى إنسانيته.

ترى أيصبح المفكر العربي تحت وطأة الأزمة العربية الحاضرة واحداً من أولئك؟؟

المجتمع التقدّمي

- ١ -

تدور على ألسنتنا في هذه الأيام بضعة ألفاظ أساسية نعبر بها عن عقائدنا الفكرية ومناهجنا العلمية، وعمّا نطمح إلى بلوغه من غايات وأهداف. من هذه الألفاظ: القومية، والديمقراطية، والاتحاد، والتقدمية، والاشتراكية وأمثالها. ولما كانت المعاني التي نسبغها على هذه الألفاظ لها خطورتها الكبرى في ما نصوغ من فكر وما نبني من منشآت، وجب علينا أن نوضح لأنفسنا حقيقتها، ونستخرج متضمناتها، كي نسير على هدى، ونشيد على أساس صحيح. ولعلنا إذا تبينا الجوهر، وكشفنا عن الأصل، لا نضيع ما نضيعه الآن من جهد ووقت في مناقشة الأعراض أو البحث عن الفروع.

ولا جدال في أن هذه المهمة الايضاحية تقع أولاً على عاتق رجال الفكر. فهم المسؤولون في الدرجة الأولى - إزاء مجتمعهم وإزاء التاريخ - عن تحديد المعاني، ورسم الأهداف، وتخطيط السبل. وإليهم يتطلع المجتمع لقيادته في الكشف عن الأسس، وتمييز الأصول من الفروع، ووضع الأهم قبل المهم، والمهم الباقي قبل التافه الزائل.

وليس بحثي الموجز هذا سوى محاولة لايضاح معنى لفظ من هذه الألفاظ الأساسية التي نكثر من ترديدها في هذه الأيام. فكثيراً ما نتحدث عن التقدم، والتقدمية، والمجتمع التقدمي، وننقسم شيعاً تبعاً لما نفهمه منها. ولذا كان حرياً بنا أن نقف بين آن وآخر لنتبين حقيقة ما نقصد إليه، ونتفق على ما نعني، توفيراً للجهد، وتوضيحاً لجوهر الخلاف - إذا كان ثمة خلاف - وإتباعاً للأسلوب العلمي المنظم في المناقشة الفكرية والسلوك العملي.

— ٢ —

فما هو المجتمع التقدمي، وما هي الصفات الأساسية التي تنطوي عليها تقدميته؟

المجتمع التقدمي هو، أولاً، مجتمع متحرك متطور. وإذا أردنا استعمال لفظة غربية قلنا: «ديناميكي». وليس من الصعب علينا أن نفرق بين مجتمع يتصف بهذه الصفات وآخر يغلب عليه الركود والجمود. فالمجتمع المتحرك الديناميكي يتميز بالقوة والتغير. أما قوته فبإنتاجه المادي والعقلي: إنتاجه في ما يستثمر من موارد الطبيعة، ويستغل من كنوزها، وما يبني من منشآت، وينظم من علاقات، وما يصاحب ذلك كله من نظر عقلي، وبحث علمي، وتركيز للمفاهيم، وتجميع للحقائق. وأما تغيره فبتطور منتجاته المادية، وأحواله المعاشية، وأخلاقه وعاداته، وسبله في الحياة عموماً. وعلى العكس من هذا كله المجتمع الراكد «الستاتيكي» فهو، من ناحية، ضعيف بإنتاجه المادي والعقلي، ومن ناحية أخرى ساكن واقف لا تتغير أحواله ونظمه إلا قليلاً على ممر السنين.

ولا حاجة بنا إلى القول ان الحركة في المجتمعات المتحركة، والركود في المجتمعات الراكدة، ليسا صفتين مطلقتين، وإنما الاختلاف بينهما نسبي يتوقف على أحوال هذه المجتمعات وعلى قوة العوامل المؤدية إلى الحركة أو الركود أو ضعفها. كذلك ليس مرد هاتين الصفتين إلى الجنس الذي يتكون منه المجتمع. فالأبحاث الحديثة قد أثبتت فساد التعليل الجنسي المطلق، وأقرت للعوامل الاقتصادية والاجتماعية بالأثر المستقل الراجح. ولكم من مجتمع كان راكداً في بعض مراحل حياته ثم انتفض وتحرك على ثبات في تكوينه الجنسي وإرثه العرقي. ولا ينكر أن للعرق أثره، ولكن هذا الأثر ليس مطلقاً، ولا ــ بعرفنا ــ راجحاً. وإنما الراجح في تطور المجتمعات هو العوامل الاجتماعية المتشابكة الناتجة من علاقة المجتمع بمحيطه وعلاقة عناصره بعضها ببعض.

وتبعاً لهذا نقول ان مرد الحركة (الديناميسم) في مجتمع ما إلى مقدرته على التفاعل ومحيطه الخارجي، وعلى التفاعل الداخلي في نفسه. والمحيط الخارجي ذو وجهين: محيط طبيعي مادي، وآخر بشري اجتماعي. والحركة والحياة ينشآن ــ حسب ما يقول المؤرخ العالمي توينبي ــ عندما يكون المحيط الطبيعي على درجة متوسطة بين اللين والشدة، بحيث تستدعي شدته نشاط المجتمع، وييسر لينه في الوقت ذاته لهذا النشاط أن يزدهر ويثمر. فإذا كان المحيط الطبيعي ليناً كل اللين، واستطاع الإنسان فيه أن يرضي شهواته البدائية بأيسر السبل، لم يكن هناك داع للهمة والنشاط ولتوليد الحركة وبث الحياة. ومن ناحية ثانية إذا كان المحيط في الطرف الآخر من حيث القسوة والشدة تغلب على مقدرة الإنسان، في المراحل الأولى من تطوره، وشل حركته، ومنع تقدمه. وهذا ما نرى واضحاً كل الوضوح في المناطق القاسية المناخ، حرارة أو برودة أو رطوبة أو جفافاً، أو التي يغلب عليها الجليد أو الأدغال أو الصحراء أو أمثالها.

ان هذه الظروف الطبيعية تؤثر، كما قلنا، تأثيراً حاسماً في المراحل الأولى من نشوء المجتمعات ونموها. وهي التي، في الأغلب، تبعث في مجتمع ما الحركة والخصب والتقدم، وتقضي على آخر بالركود والجدب والجمود. ولكن هذا الأثر يخف بمقدار تطور المجتمع وتقدمه. وها نحن نرى المجتمع الغربي الحديث قد سار شوطاً بعيداً في التحرر من هذه العوامل الطبيعية فهو يستخرج المعادن من بطن الصحراء، ويستغل الأدغال، ويوطد مراكزه في المناطق المتجمدة، ويركب متون البحار والأجواء، ويمكن كل يوم سلطته على محيطه الطبيعي.

ومثل المحيط الطبيعي، المحيط البشري. فإذا كان هذا المحيط هيناً ليناً لا يكمن فيه أي خطر استهان أهل المجتمع عيشهم، وانصرفوا إلى ملذاتهم، وساروا إلى الركود فالانحلال. وإذا كان على العكس من ذلك خطراً كله وتغلب على المجتمع بشكل حكم أجنبي استثماري أو استعمار مستغل منظم، شل حركة المجتمع وكبت حيويته. وتاريخ البشرية في الشرق والغرب مليء بالأمثلة الواضحة على ما نقول، فلا نحتاج إلى ايراد أدلة مفصلة وإنما يكفينا أن نشير إلى ما تعرضت له بلادنا العربية في الستمائة السنة الأخيرة من غزوات خارجية جامحة وضروب من الحكم الأجنبي المستأثر امتصت حيوية أرضها وسكانها، وجعلتها تركد وتعجز عن الإنتاج والتقدم. أما الحالة المؤدية إلى الحركة والنمو فهي وجود ذلك الخطر الذي ليس من النوع والجسامة بحيث يقضي على المجتمع ولكنه كاف لبعث الهمم، وإثارة النشاط، وتعبئة الجهود.

ولا تقتصر حيوية المجتمع المتحرك على تفاعله ومحيطه الخارجي: الطبيعي والبشري، بل تتمثل أيضاً في تفاعله الداخلي الدائم بين أفراده، ومنظماته، وطبقاته. فالعلاقات البشرية في المجتمع الراكد علاقات بسيطة، قليلة التغير. أما في المجتمع المتحرك، فهي تزداد على الأيام تطوراً وتعقداً. والحيوية المنصرفة إلى الخارج لا تلبث أن تضعف وتنحلّ إذا لم تصحبها حيوية في الداخل تؤدي إلى نمو في شتى دوائر المجتمع: في العائلة، والمدرسة، والدولة، وسواها. بل نقول ان التفاعل والنمو في داخل المجتمع هما أصدق دليل على مقدرته على مجابهة المحيط والصمود في وجه قوى الخارج.

وخلاصة القول ان المجتمع المتحرك الديناميكي هو مجتمع منتج متطور، متفاعل ومحيطه الطبيعي والبشري، ومتفاعل في ذاته داخلياً.

ـ ٣ ـ

ولكن ليست كل حركة تقدماً، ولا كل تطور نمواً وارتقاء. فما هو السبيل إلى ضمان هذه الأهداف المنشودة؟ وإذا أردنا نحن في البلاد العربية أن ندفع بمجتمعنا العربي إلى الأمام، فكيف نأمل أن يكون انبعاثه من ركوده، وتحركه من جموده، مؤديين فعلاً إلى نمو وتقدم، وغير مقتصرين على مجرد الحركة والتغير؟ وبكلمة أخرى، ما هي

المقاييس التي يقاس بها تقدم مجتمع على آخر، أو درجة التقدم، أو التأخر، في نفس المجتمع؟

توضيحاً لتفكيرنا في هذا الموضوع الأساسي أتقدم ببضعة مقاييس عامة، لعلها تكون أساساً صالحاً للبحث، وخطوطاً عامة نسترشد بها في هذا الميدان الواسع المتشعب.

أول هذه المقاييس، في نظري، هو مبلغ سيطرة المجتمع على الطبيعة وقدرته على ضبط قواها واستغلال مواردها. فالمجتمع الذي تحده قوة الطبيعة أو تتغلب عليه يكون عبداً لها خاضعاً لسلطانها، ويظل متأخراً عن سواه من المجتمعات التي سبقته في هذا المضمار. وتأخره عنها يكون في ناحيتين أساسيتين: الأولى سلبية، والثانية ايجابية. أما في الناحية السلبية فيبقى عرضة لأحداث الطبيعة وفعل عناصرها المادية والحية، يتحكم فيه نوع الأرض وشكلها وموقعها ودوران الفصول وتقلبات المناخ، وتتسرب إليه الجراثيم القتالة، والأعراض الفتاكة. فهو، من هذا القبيل، مغلوب على أمره، مستعبد لمحيطه الخارجي. ثم هو محدود من الناحية الايجابية أيضاً لعجزه عن استدرار غنى الطبيعة واستخدام هذا الغنى لتحسين معاشه وترقية حياته مادياً وأدبياً. وما دام ضئيل الإنتاج، مهدداً بالفقر والمرض، فهو حتماً متأخر عن سواه، وغير مجهز للسير في ميادين التقدم والرقي.

والمدنية الحديثة إنما تمتاز عن المدنيات السابقة في هذا المضمار. ولا حاجة بي هنا إلى التفصيل والايضاح، فالأمر ظاهر بيّن دون دليل أو برهان. وإنما يجدر بنا أن نلاحظ ان المدنية الحديثة هي، من هذه الجهة، وحدة غير متجزئة. ولا يغرننا اختلافها في نواح أخرى، فهي في هذه الناحية متفقة فيما بينها كل الاتفاق. لننظر إلى القوتين الجبارتين اللتين تتنازعان العالم اليوم: القوة التي تتزعمها أميركا، وتلك التي تقودها روسيا. نجد ان كلاً منهما تقوم على الحرص الشديد على استثمار الطبيعة واستغلال مواردها، والقدرة الجبارة على ذلك. في كل منهما، في الولايات المتحدة وروسيا على السواء، وفي الدول الأخرى بدرجات متفاوتة، اهتمام بالآلة، وانكباب على التكنيك، وحرص على الاقتصاد. وما الآلة والتكنيك والاقتصاد سوى الوسائل التي يتسلح بها الإنسان لضبط الطبيعة وتنظيم علاقته بها وبغيره من الناس.

هذا الانكباب على الوسائل الإنتاجية هو سر الحركة (الديناميسم) ومصدر القوة المادية والعقلية في المجتمع الحديث على اختلاف ألوانه واتجاهاته. وهو الواجب الأول الملقى على عاتقنا نحن العرب اليوم، لأننا لا نستطيع أن نحمي كياننا إلا عن سبيله. فالعالم أصبح يضيق بغنى غير مستثمر، وموارد غير مستغلة. والدول تكاد تسير في معاملاتها على أن المجتمع الذي لا يستثمر موارده يخسر حقه فيها. ولئن كان القانون الدولي لا يقر هذا المبدأ، بل بالعكس يصرح بسيادة الأمة على أراضيها وإرثها الطبيعي،

ولئن كانت شرعة الأمم المتحدة قائمة على مساواة الدول في هذه السيادة، فالواقع ان الدوافع المسيرة للدول في تصرفاتها هي غير ذلك. ولا نكران ان الصهيونية بنت جانباً هاماً من حجتها لقضيتها في فلسطين على تفوقها على العرب في استغلال الأرض واستخدام وسائل الإنتاج الحديث. وكان دعاتها وما يزالون يجوبون أطراف العالم مرددين هذه الدعاوة، ويستقدمون الوفود والبعثات ليطلعوهم على سبقهم للعرب في هذا المضمار. وكان نجاحهم في هذا، على مخالفته لأبسط قواعد الحقوق الدولية، مقنعاً لكثير من الناس وموجهاً للرأي العام العالمي في مصلحتهم. وليس هذا الواقع فعالاً في مثل هذا العدوان الفاضح فحسب، بل هو مؤثر أيضاً في التدخلات الأخرى الأكثر خفاء، التي تدفعها قوى لا ترد، من منطق المدنية الحديثة ذاته، لاستغلال البوار، واحياء الموات، أينما كان ولمن كان.

فاستثمارنا لمواردنا هو اذن داعم لحقوقنا فيها، وإهمالنا لها هو، بالعكس، وسواء أشئنا أم أبينا، منقص لهذا الحق في مفهوم العالم الحديث. ثم اننا بهذا الاستثمار نهيىء لأنفسنا من الناحية الايجابية وسائل الدفاع عن كياننا، في الميادين الحربية، والاقتصادية، والسياسية، والعلمية. ولا شك في ان سبق الصهيونية لنا أجيالاً في هذا الميدان هو الذي يسر لها سبل عدوانها علينا، واستجرار القوى السياسية والاقتصادية الكبرى إلى مساندتها في هذا العدوان.

وعندما نتبين هذا الواقع ونقرّه، نخرج منه إلى نتائج حتمية لا مفر لنا منها، خلاصتها ان نهضتنا القومية، بما تتضمن من سياسة داخلية ودولية ومن تنظيم اقتصادي واجتماعي وتعليمي، يجب أن تبنى أولاً على هذه الأركان المتسلسلة: آلة، تكنيك، اقتصاد، انشاء. فبها يتحرك مجتمعنا، وتسري فيه الروح الديناميكية التي تيسر له الوسائل لحماية كيانه أولاً، ولتقدمه في النواحي الأخرى ثانياً.

قد نختلف في فهمنا للتقدم والتقدمية نظرياً، ولكن كل جهد فردي أو حكومي لادخال الآلة الحديثة، ولاستثمار مواردنا عن طريقها، هو عامل أولي في حفظ بقائنا في عالم قائم على الإنتاج الواسع الشديد، وفي توفير وسائل نمّونا وتقدمنا. وإذا نظرنا هذه النظرة إلى الناحية التعليمية من سياستنا القومية، تحققنا حالاً ضرورة دعم التعليم الفني وتوسيعه، لنعدّ لأنفسنا العناصر البشرية القادرة على استخدام الآلة واستغلال الثروة الطبيعية، والمجهزة للقيام بالأعمال الإنشائية المطلوبة.

يضاف إلى هذا ان التجهيز للعمل الإنشائي له أثره وفائدته لا في النواحي المادية من حياتنا القومية فحسب، بل في سائر النواحي على الاطلاق، لأن الروح الإنشائية، إذا انطلقت في مجتمع ما، لا تقف عند حدود ولا تحبسها حواجز وسدود، بل تسري في حياة المجتمع كلها، وتعمل فيها بناء وتدعيماً وتنظيماً. ومن هنا تبدو خطورة الجهد الذي

يجب أن يبذل في الاستثمار والإنتاج، وفي الإفادة من الوسائل التي يهيئانها للمجتمع.

ـ ٤ ـ

على أن هذه الوسائل الإنتاجية الاستثمارية لا تأتي عفواً ولا تهبط من عَلٍ. وإذا استمددناها من سوانا فهي لا تبقى لنا ولا تعمل في مصلحتنا إلا إذا اكتسبنا معها القوى الأصيلة التي ابتدعتها. والشعوب التي تقدمتنا في هذا المضمار لم تنلها إلا بعد أن حققت شرطها الأساسي وباعثها الأصلي: وهو التحري عن الحقيقة، والأسلوب العلمي المنضبط الضابط، والنتائج العلمية المحققة المتراكمة؛ وبكلمة أخرى، العقل النامي المنتظم في نفسه المنظم لسواه.

ولا جدال في أن العقل الإنساني هو من أعظم القوى التقدمية في الوجود. فهو ما ينفكّ يبحث عن المجهول ويغتبط باقتحامه. وما اقتحام الرائد للمناطق المعزولة الصعبة بأيسر من اقتحام العالم للمجهول من أسرار الطبيعة والإنسان، وما نجاحه فيها أعظم، أو السرور الذي يبعثه في نفسه أشد. بل العالم هو في جوهره وكيانه رائد ممتاز، لا يحقق وظيفته ولا تسعد نفسه إلا بالمغامرة والإقدام.

ثم ان العقل، المتمثل في جهد العالم الرائد، ملحّ مستمر في تقدمه. فإن لم يطغَ عليه ما يطفىء جذوته أو يبطل عمله، سار من خطوة إلى خطوة، وقبض على حلقة بعد حلقة من سلسلة الحقيقة المترابطة. وهو لا يقف عند حد، ولا يرضى بحال، بل يندفع دوماً إلى الأمام منقباً باحثاً مكتشفاً. هذا هو منطقه وكيانه، وهو فيه منسجم مع منطق الحقيقة وكيانها.

ثم هو، بعد هذا وذاك، منتظم في تقدمه. فالخطى التي يقطعها متصلة، والحلقات التي يقبض عليها متماسكة. ذلك ان جوهر الحقيقة التي يسعى إليها ويتقيد بها ويخدمها جوهر متماسك متّحد. وليس معنى هذا ان العالم لا يخطىء ولا يخرج عن السبيل السوي. فكثيراً ما ضل وابتعد، وضاع وضيّع، لكن الأسلوب العلمي المنبعث عن طبيعة العقل وجوهره كفيل بردّه إلى الصواب. والعبرة ليست في تلك الضلالات العرضية، بل في السير الأساسي المتصل، والسلسلة المترابطة الحلقات. ان بناء العلم بناء متماسك الأحجار، وإذا حدث ان وضع فيه حجر فاسد، فالجهد العلمي خليق بأن يكتشفه يوماً، فيطرحه وكل ما بني عليه.

العلم إذن، بجوهره الخالص وتقليده الايجابي الأصيل، جهد تقدمي. وتقدميته تتميز بالتطلع، والاستمرار، والانتظام. ولذا كان مقياساً من أهم المقاييس التي نقدر بها تقدمية مجتمع من المجتمعات. وهو، من الناحية العملية التطبيقية، أساس المقياس الأول ــ أي قدرة المجتمع على الطبيعة ــ لأنه، كما ذكرنا، الباعث الأقوى للعمل الإنتاجي

الاستثماري. على أن له أيضاً ناحيته النظرية التي يتجلى فيها مقدار الحقيقة المكتسبة والمجهول المكتشف. فإذا أردنا اذن أن نقارن مجتمعين من حيث التقدم والتأخر، أو نقيس تقدمية مجتمع ما، أمكننا أن نركن إلى هذا المقياس: إلى درجة اكتساب المجتمع للأسلوب العلمي وخضوعه لسلطان العقل، وإلى مقدار الحقيقة المتراكمة التي يملكها ويؤمن بها ويسير على هداها.

وإذا أراد مجتمعنا العربي أن يكون تقدمياً فعلاً، وجب عليه أن يتمسك بهذا العنصر التقدمي الحي، ويؤمن به، ويجعل سيره مظهراً صادقاً له، وحياته تجسداً لايمانه به وبالحقيقة التي يؤدي إليها.

ــ ٥ ــ

ترى، أيكفي هذان المقياسان: مقياس القدرة على الطبيعة، ومقياس الاكتساب العلمي كيفية وكمية، لقدر تقدمية المجتمعات؟ ان النظر الدقيق ليظهر ان هذين المقياسين لا يستنفدان التقدمية الصحيحة. ذلك ان استثمار الطبيعة هو، في الواقع، عامل مساعد أكثر منه عاملاً أصيلاً. فهو يهيىء الوسائل للتقدم، ويدفع المجتمع في بعض النواحي، لكنه لا يضمن التقدم ولا يدفع المجتمع قدماً في جوهره وتمامه، إلا إذا توفر له عامل آخر مستقل عنه. انه يعد الأسباب، ويهيىء القوى، ويجهز النتائج، لكنه، بنفسه، لا يقرر الغايات التي يجب أن توجه إليها الأسباب والقوى والنتائج. انه يضع بين يدي المجتمع موارد وافرة استخرجها من الطبيعة، وثروات استمدها منها، وقوى فجرها من بطونها، ولكن، ترى، لأي شيء يستخدم المجتمع هذه كلها؟ أللبناء والتعمير أم للهدم والتدمير؟ أللتحكم والاستثمار أم لنشر العدل والمساواة؟ أللحرب أم للسلم؟ أللتقدم الشامل المتوازن، أم للتقدم الجزئي المضطرب؟

كذلك يقال عن العلم نفسه، المقياس الثاني الذي اتخذناه. انه يكتشف الحقيقة، والحقيقة وحدها غايته ومبتغاه. ولكن من الذي يستخدم هذه الحقيقة، ولماذا؟ هذا أمر خارج عن سلطته. فقد يساعد العالم، عن وعي أو غير وعي، في استخدام الحقيقة لأغراض مهدمة فتؤدي إلى التأخر والهلاك، في حين انها وجدت لتخدم التقدم والانبعاث.

فلضمان التقدم الصحيح، لا يكفي توفير الوسائل، بل يجب تحقيق الغايات الصحيحة التي توجه إليها. لا يكفي مجتمعاً أن يتغلب على الطبيعة ويضبطها، بل عليه مع هذا، إن لم نقل قبل هذا، أن يضبط نفسه ويتغلب على أهوائه. لا يكفيه أن يتبين الحقيقة التي اكتشفها بالعقل، بل عليه أن يولد الإرادة التي تمنع تشويهها أو استخدامها لما هو مناقض لطبيعتها وبالتالي مهدم لأركان المجتمع.

هنا تظهر العلة الأصيلة في المدنية الحديثة وداؤها الدفين. فلقد أحرزت هذه المدنية تقدماً شاسعاً واسعاً في ميدان استثمار الطبيعة، لكنها لا تزال مقصرة تقصيراً شائناً في معرفة الغايات التي يجب أن توجه إليها نتائج هذا الاستثمار، وفي تكوين الإرادة الصحيحة لهذا التوجيه. وقطعت كذلك أشواطاً طويلة في اكتشاف الحقيقة، لكنها لا تزال عاجزة عن الامتثال لها، بل هي تمعن في تحويلها عن غايتها واستخدامها للشر والفساد.

ومن هنا نشأ الخلل وعدم التوازن في كيان المدنية الحديثة: عدم التوازن بين الوسائل والغايات، بين التقدم العلمي والتقدم الأدبي، بين السلطة على المحيط والسلطة على النفس. هنا أصل العلل التي تعانيها هذه المدنية. هنا منشأ الأزمات الاقتصادية، والهزات السياسية، والمنازعات والحروب، والأخطار التي تهدد عالمنا الحاضر بالهلاك والدمار.

من هذا كله يظهر أنه لا بُدّ، لقدر التقدم الصحيح، من مقياس آخر غير المقياسين اللذين ذكرناهما: مقياس أعم وأشد خطورة، وأصعب من سابقيه تحديداً وتعييناً، هو المقياس الخلقي الأدبي. هو مقدرة المجتمع عامة، ومقدرة الأفراد الذين يؤلفونه، على التغلب على الهوى والطمع والاستئثار، هو احترامهم لكرامة الفرد وشخصية الإنسان.

هذا التقدم الأدبي يظهر بمظاهر عدة: منها توفر الحرية السياسية والاجتماعية والفكرية، وضمان العدل في القضاء، وتساوي الناس في الفرص، وما إلى ذلك من المبادىء التي جاهدت لتحقيقها الشعوب بالثورات حيناً وبالعمل المستمر حيناً آخر. وكل مرحلة من مراحل تطور البشرية تتميز بالجهاد في سبيل أحد هذه المبادىء. أما المبدأ الذي يشغل مرحلتنا الحاضرة، ويملأ أجواء عالمنا دوياً، فهو العدل الاقتصادي فالاجتماعي: أي حسن توزيع الوسائل التي يهيئها لنا استثمار الطبيعة. لم تعد مشكلة البشرية عامة مشكلة الاستثمار، بل مشكلة التوزيع. ولذا أصبح هذا المقياس الأدبي الذي نتحدث عنه أهم، من حيث بقاء البشرية وتقدمها، من المقياس الأول الذي بدأنا به.

هذا العدل الاقتصادي والاجتماعي أصبح، من حيث المبدأ، أمراً مبتوتاً، وان اختلفت الشعوب في مقدار العزم على تحقيقه وفي اختيار الطريق المؤدية إليه. ولذا غدا مفروضاً علينا، عند تقديرنا تقدم مجتمع ما، أن ننظر في الوسائل المادية التي يهيئها لأفراده، ودرجة تساويهم في هذه الوسائل، وبالتالي، في الفرص المؤدية إلى تقدمهم المادي والعقلي والروحي. ولكن هذا المقياس، على أهميته، لا يصلح لأن يؤخذ وحده، بل يجب أن يضم إليه مقدار الحرية السياسية والفكرية التي يتمتع بها الفرد في المجتمع. والصراع القائم بين قوتي العالم الجبارتين اليوم إنما هو صراع بين أولوية هذين المبدأين:

الحرية الفردية، والعدل الاجتماعي. وبقاء المدنية الحديثة وازدهارها منوطان بمقدرتها على التوفيق بينهما، والمحافظة على القيم التي ينطوي عليها كل منهما.

ولعلنا نستطيع أن نجملهما وسواهما من المقاييس الأدبية في مقياس واحد شامل هو: مبلغ احترام الشخصية الإنسانية أي الاقرار بأن لكل مواطن وكل إنسان شخصية لها حرمتها وكرامتها، وأن أي افتئات على هذه الشخصية بحرمانها من حق سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي هو اهانة لها، ووصمة في جبين المجتمع.

نستطيع هنا أن نفصّل هذا المبدأ الأساسي، فنتكلم عن مختلف الوجوه التي يتمثل بها. نتكلم عن حرية الفرد السياسية والاجتماعية والفكرية، وعن استقلال القضاء، وضمان العدل للجميع. نتكلم عن الفلاح وتحريره من نير العشائرية والاقطاعية، وعن العامل وضمانه من مساوىء الرأسمالية. يمكننا أن نوضح القضية النسائية ونبين العوائق التي يجب إزالتها من طريق المرأة والفرص التي يجب أن تفسح أمامها لتلعب دورها الخطير في حياة المجتمع. بوسعنا ان نلح على أهمية التعليم وضرورة نشره، وعلى حماية الصحة العامة، وتوفير الإمكانات المادية والاجتماعية للمواطنين على السواء. كل قضية من هذه القضايا وأمثالها وجه من وجوه النهضة والتقدم، وهي إذا تحققت بمجموعها كوّنت المجتمع التقدمي المنشود. ولكنها كلها تنشأ من أصل واحد، إذا لم يتكون ويثبت وينـمُ، كان الجهاد في سبيلها جهاداً متفرقاً متلاطماً. هذا الأصل هو احترام كرامة المواطن والإنسان وقدسية كيانه، والعزم الوطيد على محاربة كل تعدّ على هذه الكرامة أو أي ظلم لها، سياسياً أكان أم اقتصادياً أم اجتماعياً أم فكرياً، من خارج المجتمع أم من داخله.

ان المجتمع التقدمي مجتمع منسجم، يتساوى فيه المواطنون بالفرص، فلا يستأثر فيه فرد بفرد أو فريق بفريق بحكم ولادة أو ارث أو جنس أو أي فارق عرضي آخر، لأنهم كلهم متساوون في الجوهر: في مواطنتهم، وفي إنسانيتهم.

إلى أي حد تنتشر هذه الفكرة في مجتمع ما؟ إلى أي عمق تنزل في نفوس أفراده؟ إلى أي مدى يسعون الى تحقيقها عن طريق التعليم، أو الجهد السياسي، أو النشاط الاجتماعي، أو العمل الثوري؟ إلى أي حد يعتبر المواطن أو الإنسان وسيلة للاستثمار، أو بالعكس، غاية في ذاته وشخصية تفرض الاحترام وتستوجب التنمية والاغناء. هذا هو جوهر المقياس الأدبي، المقياس الأهم، خاصة في هذه المرحلة الحاضرة من تطور الإنسانية، نظراً إلى التقدم الذي حصل في استثمار الطبيعة وفي الميدان العلمي، والذي يكاد اليوم ينقلب تأخراً، بل انحلالاً ودماراً.

إن هذا العنصر الأخير ـ العنصر الأدبي ـ يختلف عن العنصرين السابقين في أن تقدمه ليس حتمياً كما هو الحال فيهما. فقد تحدث نكسات في حياة الشعوب يخف فيها احترام الشخصية الإنسانية والإرادة لتوفير أسباب نموها وازدهارها. ولذا تحتاج هذه الشعوب إلى الالتفات إلى تاريخها لتتحسس مجدداً تلك الهزات النفسية التي سمت بها فجعلتها تعي هذه المبادىء وتجاهد في سبيلها ـ تلك الأدوار في حياتها التي كانت فيها حقاً تقدمية.

وهنا تتجلى أمامنا مسألة طالما شغلت المفكرين والعاملين منا: وهي العلاقة بين النظرة التقدمية وبين التمسك بالكيان التاريخي والميراث القومي. والواقع انه ليس ثمة تناقض أساسي بين الأمرين إذا ضبطا وفهما فهماً صحيحاً، وكانت عند المختلفين حولهما الإرادة المكينة لرؤية الحق والسير على هداه. فالكيان التاريخي الايجابي والميراث القومي الباقي هما نتيجة لنظرة كانت عند الأسلاف تقدمية. لقد كان العرب في إبان نهضتهم تقدميين، جابوا الآفاق البعيدة، وساروا إلى غاياتهم بلا خوف ولا وجل: اقتحموا البلاد فاتحين وتجاراً ورواداً ومصلحين، نظرهم ممدود أبداً إلى الأمام، فبنوا دولة شاسعة الأطراف، وأنشأوا حكماً خلده التاريخ. وعندما اتصلوا بالمدنيات الأخرى، وتفتحت لهم من خلالها آفاق عقلية واسعة، لم يتأخروا عن ارتيادها فأنتجوا في ميادين العلم والفلسفة آثاراً ليس هنا مجال تبيان ضخامتها وجلالها. وأهم من هذا وذاك وأبقى، ارتيادهم للآفاق الروحية، وتطلعهم إلى القيم الخلقية والأدبية، وأثر هذا كله في حياتهم العملية وإنتاجهم الحضاري. هذا الاقتحام للميادين الطبيعية والعقلية والروحية هو باعث ابداعهم، ومصدر عزهم ومجدهم. فلما خبت جذوتهم، ضاقت آفاقهم، وتخلفوا في ميادين الإنتاج، فغلبوا على أمرهم. أما تراثهم الباقي فهو نتيجة تلك الروح التقدمية التي ذكرنا. وإذا ما عدنا اليوم إليه فلنقتبس جوهر تلك الروح، فنبدع كما أبدعوا، ونخلف لأنفسنا ذكراً كما خلفوا.

هذا النوع من الاستيحاء التاريخي لا يتعارض والنظرة التقدمية الحاضرة، خصوصاً إذا حققت هذه النظرة الشرط المتعلق بها، وهو ان تفهم التقدم بمعناه الواسع الشامل، فلا تقف عند عناصره المادية والعلمية فحسب، بل تتناول أيضاً العناصر الأدبية والروحية، تلك العناصر التي قلنا إنها أساسية في تقدير التقدم الصحيح، والتي كثيراً ما تهملها أو تقلل من أهميتها التقدمية الحديثة.

ينتج من هذا ان المجتمع التقدمي بالمعنى الشامل الصحيح لهذه الكلمة لا يحتاج لأن يقطع صلته بتراثه الباقي ما دام هذا التراث هو نفسه نتيجة لنظرة تقدمية وجهد تقدمي. بل، بالعكس، ان التقدمية الصحيحة والتاريخية الصحيحة نظرتان وسبيلان تتمّ

الواحدة منهما الأخرى وتسندها وتقويها. أما الخلاف والتناقض فبين التاريخية المتمسكة بما لم يكن في جوهره تقدمياً، والتقدمية الثائرة على الماضي بكامله المستخفة بالقيم الأدبية. وفي كليهما خلل وفساد. ولذا كان لا بد من أن يتنافرا ويتنازعا. أما الحق فمن طبيعته أن يتصل بالحق ويبتهج بلقياه والانصهار فيه.

— ٧ —

ذكرت، في ما سبق، ثلاثة مقاييس رئيسية لتقدير تقدم مجتمع ما: سلطة المجتمع على الطبيعة، وشيوع الروح العلمية، واحترام الشخصية الإنسانية. هذه المقاييس قد تبدو في ظاهرها عامة بسيطة، لكنها، فيما أرى، المقاييس الأصلية التي يتفرع عنها كل مقياس آخر. ويجب ألا تخيفنا بساطتها، فالحق في جوهره في غاية البساطة.

هذه المقاييس الثلاثة تتحد في النهاية في مقياس واحد شامل هو: الحرية. فاستثمار الطبيعة مؤداه تحرر المجتمع من سلطة المحيط الخارجي، وبالتالي من الفقر والمرض. والتقدم العلمي جوهره تحرر المجتمع من الوهم والجهل. والتقدم الأدبي لا يتم إلا بالتحرر من الخوف والذل، ومن الهوى والطمع. ولذا فالمقياس الشامل لتقدم مجتمع ما هو مقدار ما يوفر لأفراده من حرية: حرية من المحيط الطبيعي، ومن المحيط البشري، ومن الأمراض الداخلية: الوهم والجهل والهوى. والتقدم إنما يكون صحيحاً إذا تناول هذه الوجوه كلها، لأن أي خلل أو أي فقدان للتوازن بينها مدعاة للاضطراب ومجلبة للشر والنزاع كما هي حال عالمنا اليوم.

على أن الحرية لا تكون حقيقية، ولا تؤدي مفهومها، ما لم يصحبها عنصر متمم لها هو: الانتظام. فالجهد العلمي، سواء أكان عملياً تطبيقياً كاستثمار الطبيعة أم نظرياً مجرداً كاكتشاف الحقيقة، هو في الواقع عمل انتظامي. ذلك أن العلم، كما ذكرنا، بناء متماسك في نتائجه وأسلوبه. وكذلك التقدم الأدبي: إنه يصدر عن انتظام النفس بضبط الأهواء والشهوات.

ولما كان هذان المعنيان المتكاملان: الحرية والانتظام ــ شأن كل صفة عقلية أو نفسية ــ لا يقومان إلا في شخصية إنسانية، فإن المقياس الأخير للمجتمع التقدمي هو مقدار ما يتوفر فيه من شخصيات حرة منتظمة، شخصيات قد تحررت من محيطها ومن نفسها، وانتظمت قواها ومواهبها، فكان في انتظامها هذا كمال حريتها.

— ٨ —

لقد رددت في هذا البحث لفظتي: التقدم، والتقدمية. ولعلي لم أميزهما تمييزاً كافياً. فالتقدم شيء موضوعي يقاس بالمقاييس العامة التي ذكرناها، وبمقاييس أخرى تفصيلية متفرعة عنها. أما التقدمية فهي صفة داخلية في المجتمع تدفعه إلى السعي إلى

التقدم وإلى تحقيق المعاني التي تتضمنها هذه المقاييس. وهي تنطوي على عناصر الرغبة والعزم والإرادة. فإذا لخصنا مقاييس التقدم بما يتحلى به المجتمع، عن طريق الشخصيات المكونة فيه، من تحرر وانتظام، أمكننا أن نقدر التقدمية بمبلغ ما له من تحفز وعزم وإرادة لاكتساب هذه القيم وإنمائها. هذا التطلع والتحفز، هذا العزم والتصميم، هذه الإرادة الدافعة، هذه الهيئة النفسية المتجهة نحو القيم الإنسانية العليا التي يلخصها التحرر والانتظام: هذه هي جوهر التقدمية المنشودة.

وعسى أن لا يفهم من قولي هذا ان التقدمية صفة زائدة على التحرر والانتظام. ذلك انها في الواقع نتيجة ملازمة لهما. فالشخصية التي حققت هذين المعنيين المتكاملين هي شخصية تقدمية حتماً. وكذلك المجتمع: إذ ان صفته ـ كما قلنا ـ هي خلاصة صفات الأفراد الذين يتألف منهم. وبعبارة أخرى ان هذه المعاني الثلاثة ـ في الأفراد والمجتمعات ـ هي واحدة في جوهرها. فالتحرر إذا تحقق فعلاً كان هو نفسه انتظاماً فتقدمية. ويستنتج من هذا ان الشخصيات الحرة المنتظمة ليست هي نتيجة للتقدم ومقياساً له فحسب، بل هي ـ بمعنى أهم ـ العامل المؤدي إليه. ولا شك في انه من الصعب، عند تشابك العناصر الاجتماعية وتفاعلها فيما بينها، فصل النتائج عن الأسباب فصلاً تاماً حاسماً. فكم من نتيجة كانت بذاتها أيضاً سبباً لسواها، بحيث يعسر تحديد أية من هاتين الصفتين تغلب عليها؟ وهذا هو أصل الخلاف الذي ما زال قائماً في صفوف الفلاسفة وعلماء الاجتماع ومعللي التاريخ، والذي نجد صداه الصاخب عندنا في نظريات الباحثين وجهود العاملين.

ولما كان لا بد لكل باحث في هذا الموضوع من أن يبدي رأيه الصريح في هذه القضية الأساسية، لأن منه تتفرع آراؤه في القضايا الاجتماعية عامة، فموقفي الخاص هو أن العوامل الشخصية الإنسانية هي العوامل الأصيلة، وما سواها إما عامل مساعد لها أو نتيجة عنها. لقد تكلمنا مثلاً عن الآلة كسبب من أسباب التقدم لفعلها في استغلال الطبيعة وضبط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية. ولكن الآلة هي بدورها نتيجة عمل العقل المتحرر المنتظم. نعم! إنها تساعد في إزالة الموانع وتحطيم الحواجز القائمة في وجه تحرر العقل، فهي من هذا القبيل عامل مساعد. ولكن الأصل هو العقل الإنساني ذاته، بل الشخصية الإنسانية المكتملة بتحررها فانتظامها فتقدميتها.

وفي نظري ان ما يحرزه مجتمعنا العربي من تقدم متوقف ـ في الدرجة الأولى ـ على ما ينشأ ويعمل فيه من شخصيات متحررة منتظمة تقدمية في ذاتها. ولا عجب في هذا! ففاقد الشيء لا يعطيه. عبثاً ننتظر اشاعة الحرية ممن لم يتحرر في ذاته أولاً. عبثاً نتطلع إلى من لم ينتظم عقله وتنسجم قوى نفسه لأن يكون باعث انسجام وانتظام في

المجتمع. عبثاً نرجو ممن يخشى المغامرة واقتحام آفاق العمل والعقل والروح ان يدفع بمجتمعه إلى الأمام.

ولذا كان أخطر واجب علينا، وأجسم عبء ملقى على عاتقنا، تكوين هذه الشخصيات التي تصبح في المجتمع مبعث قوة وحياة واندفاع. ولا نكران ان للقوة والحياة والاندفاع مصادرها الأخرى، ولكن هنا ـ في الشخصيات الحية الفاعلة، المتحررة المحررة، المنتظمة المنظمة ـ المصدر الأول والمبعث الرئيسي.

وفي الواقع ان هذا الاعتقاد هو أساس ايماننا بأولوية التعليم، والجامعي منه بصفة خاصة. فإنما بذلك ننشد مداواة العلة في جذورها، وتهيئة العامل الرئيسي للانبعاث والتقدم. وعلى هذا الشكل يجب أن تفهم مهمة الجامعة الأصيلة. إن للجامعة مهمات عدة، على درجات متصاعدة من الخطورة والجلال. عليها تدريب شباب الأمة واعداده للمهن الحرة. وليس هناك من يستخف بهذه المهمة، خصوصاً في مجتمع كمجتمعنا يحتاج إلى إنشاء شامل وإلى عاملين اكفاء في شتى نواحي الإنتاج: في استثمار الطبيعة، في ضمان الصحة، في نشر التعليم... إلخ. وقد بينا أثر هذه الأعمال كلها في تقدم المجتمع، والضرورة الملحة لتدعيم تعليمنا الفني وتوسيعه. وللجامعة فوق هذا مهمة المحافظة على التراث العلمي الايجابي وتنميته بالبحث والتحري، ونقله إلى الأجيال الصاعدة. وبهذا أيضاً تساهم في التقدم، كحامية للعلم وخادمة للعقل. لكن مهمتها الكبرى، مهمتها الأصيلة، هي تكوين الشخصيات التي وصفنا، تلك الشخصيات التي يؤمن الجامعي بأنها العامل الأهم في التقدم والارتقاء.

هذا كان لب عمل الجامعات في التاريخ، وهذا فعلها في نهضات الأمم، فإليه يجب أن نوجه جهودنا في جامعاتنا.

عن هذا السبيل ـ وعنه وحده ـ تبرر الجامعة وجودها في الوطن. عن هذا السبيل تساهم مساهمة أصيلة في تكوين المجتمع العربي المستثمر إمكانياته، القابض على جوهر العلم، المتعلق بالقيم الأدبية والروحية، الصائن كرامة المواطن والإنسان، المجتمع العربي المتحرر، المنتظم، المجتمع العربي التقدمي، الجامع بتقدميته هذه المعاني كلها.

نحن والتنظيم

— ١ —

من ميزات أدوار الأزمات، كالدور الذي نعيش فيه اليوم، ان الأفراد والأمم يواجهون فيها أسئلة خطيرة ملحّة تطلع عليهم من كل صوب وتتطلب منهم أجوبة سريعة حاسمة. هذا أمر يتحققه بكل يقين ووضوح من يعيش حياتنا الحاضرة عيشاً كاملاً مليئاً، فهو يجد نفسه في كل مناسبة أمام عشرات من الأسئلة الدقيقة التي تثور في ذهنه وفي أذهان من يتصل بهم بفعل القوى الشديدة المتشابكة التي نرزح تحتها في هذه الأيام. من هذه الأسئلة ما يصدر عن ناحية خاصة من نواحي حياتنا، ويتعلق بها دون سواها، كالمشكلات الناشئة عن حاجاتنا الاقتصادية، أو المعضلات التي نجابهها في حقل التربية والتهذيب. ومنها ما هو أعم وأشمل يتناول عدة نواح، أو يضم حياتنا القومية بكاملها. ولعل من أهم هذه الأسئلة العامة الشاملة تلك التي تدور حول «التنظيم». إنها تعبر عن حاجة من أهم حاجاتنا، ومشكلة من أعمق المشكلات التي نتخبط فيها. ما هو التنظيم، ما هي عناصره، كيف يتم، بفعل أي عوامل، وفي أي ظروف، لماذا نجده ضعيفاً عندنا، وما هي سبل تقويته وتعميمه في صفوفنا واذاعته في شتى أعمالنا؟

ولما كان من واجب من يأخذ على عاتقه خدمة الفكر في المجتمع أن يوجه نظر الأمة إلى مشكلاتها الأولى وقضاياها الأساسية، فقد رأيت أن أبسط بضعة آراء حول هذا الموضوع، لا تتوخى استقصاءه أو الاحاطة بنواحيه كلها بل ترمي بالأحرى إلى اجلاء الأسس التي يقوم عليها، والمعضلات الأصلية التي يتضمنها. وقد اخترت، على سبيل الحصر والتخصيص، أن أبحث علل التنظيم، أي أسبابه وشروطه، حتى إذا تبينت لنا هذه الأسباب وتحددت واتفقنا عليها، أمكننا فيما بعد ان ننظر في مجتمعنا ونرى أياً منها هو

مفقود أو ضعيف عندنا، فنعمل على ايجاده أو تقويته، لنتم الشروط التي يتطلبها مجتمع منتظم راقٍ، كالذي نسعى إلى إنشائه.

كان أرسطو يقول إن علل الأشياء أربع، وانها وحدها تكوّن كل موجود من موجودات هذا الكون: مادة، وصورة، وفاعل، وغاية. فالبيت مثلاً لا يمكن أن يحصل ويخرج من حيز الإمكان إلى حيز الفعل إلا إذا توفرت علله الأربع كلها: المادة، وهي الخشب واللبن وما إليهما، والصورة وهي شكل البيت وهندسته، والفاعل وهو الباني، والغاية وهي الاسكان. هذا مبدأ قبله الفلاسفة القدماء، واتخذه أسلافنا العرب قاعدة أساسية لتفكيرهم، ولا يزال حتى اليوم من المبادىء المحققة الصحيحة.

فإذا أردنا أن ننظر في هذا الشيء الذي ندعوه التنظيم ونبحث في أسبابه وعلله، وجدنا ان هذه العلل لا تخرج عن الأربع التي حددها المعلم الأول.

فلنتناولها واحدة بعد أخرى، ولنبين حالة كل منها في مجتمعنا.

— ٢ —

أما المادة فموفورة والحمد لله. يظهر ذلك واضحاً عند أول نظرة ولدى أبسط امتحان. فبلادنا العربية لا تزال، بالرغم من تاريخها المديد، بلاداً بكراً، مواردها الطبيعية غزيرة غير مستغلة، تحيط بنا من كل جانب، وتبرز لنا من كل حيز: على الأرض وفوق الأرض وتحت الأرض. وفي كل يوم لنا برهان جديد على غزارة هذه المادة ونفاستها. وقد جاءت الحرب العالمية الأخيرة ففتحت الأعين ونبهت الأذهان، وإذا بالبلاد العربية ــ وهي لا تزال في بدء استثمارها لمواردها ــ تحتل مكاناً رفيعاً في التموين الدولي، وإذا بقادة السياسة والاقتصاد يتنبأون لها بمستقبل زاهر في السنين القريبة المقبلة.

وكذلك قل عن مواردنا الإنسانية: فإن الملايين من الرجال والنساء في البلاد العربية لا يزالون مادة خاماً، لم تستثمر مواهبهم ولم تنظم. تضيع حياة كثرتهم سدى، وتذهب جهودهم هباء منثوراً، لأنهم لا ينمون القوى التي حبتهم إياها الطبيعة، ولا يوجهون هذه القوى توجيهاً متناسقاً موحداً إلى غاية معينة. ومن هنا كان ضعفهم وضآلة أثرهم في ميادين السياسة الدولية أو الاقتصاد العالمي أو الحضارة البشرية. وإذا كانت العصور السابقة قد سمحت لنا بالبقاء بالرغم من هذا التقصير في إنماء مواهبنا وقوانا، فإن العصر الحاضر، الذي تتصارع فيه الكتل البشرية أعظم صراع عرفه التاريخ، لن يرحمنا، بل انه سيطالبنا بما عندنا بشدة وإلحاح، فإما أن نخرج من أنفسنا بالإنتاج والتنظيم ما يؤهلنا للحياة، أو نظل مستعبدين مغلوبين.

وليست هذه المادة موفورة فحسب، بل انها، كمادة أرسطو وابن سينا، مشتاقة

إلى صورتها، راغبة في أن تحقق وتنظم. فلو ان مواردنا الطبيعية استطاعت أن تنطق وتتكلم لأسمعتنا من كل صوب حاجتها لأن تستغل وتستثمر. الأرض الخصبة الواسعة قد ملت الراحة أو العمل الخفيف، وهي تصرخ طالبة الزراعة النشيطة المنتجة. المعادن تتحرك في جوف الأرض وتضطرب شوقاً إلى أن تستخرج وتستوفى. الجبال تود لو تحرج وتعمر. المياه تدعو لأن تجمع وتوفر. الشواطيء والسهول، البحيرات والوديان، بل جميع مواردنا الطبيعية، ومن ضمنها موقعنا الجغرافي الممتاز، قابلة للإنتاج، تستسلم بسهولة للاستغلال والتوجيه عندما تتوفر لها بقية العلل والشروط.

أما الموارد الإنسانية، فحدّث عن شوقها إلى التنظيم ولا حرج. أصوات تنبعث من كل صدر، وتمنيات يخفق بها كل فؤاد. ألسنا نسمعها حولنا في كل مناسبة، ومن شتى النواحي والجهات؟ التاجر والصانع والعامل يشكون من الاضطراب في ميدان الاقتصاد. المفكر والأديب تخيفهما هذه الفوضى المنتشرة في الأذهان. الجميع كباراً وصغاراً رجالاً ونساء يتساءلون عن التنظيم في السياسة، ويتطلعون إلى الترتيب والتنسيق في الإدارة، يسعون إلى هذه النعم فلا يجدونها، ويتحسرون ــ والشبان منهم خاصة ــ حتى ليكاد أملهم ينقلب يأساً، ويقينهم يصبح شكاً وارتباكاً.

ــ ٣ ــ

لا جدال إذن في أن العلة الأولى من علل التنظيم: العلة المادية، المنفعلة، بالتعبير الأرسطوطاليسي متوفرة لدينا. ولكنها وحدها لا توجد تنظيماً، كما أن اللبن والخشب وحدهما لا يكوّنان بيتاً. ولذلك كانت الضرورة لعلة ثانية تتخذ هذه المادة شكلها وتنطبع بطابعها. تلك هي الصورة، أي بالنسبة للبيت، هيئته وهندسته، وبالنسبة للمجتمع، شكل تنظيمه ونوع صفاته. فما هي الصفات الأساسية التي تميز المجتمع المنظم؟

يمتاز هذا المجتمع أولاً بوحدة الهدف الأصلي الذي يسعى أفراده وجماعاته إليه. فمما لا شك فيه أن مجتمعاً تجتذبه أهداف متباينة، وتتنازعه أهواء وأغراض متضاربة، لا يمكن أن يعرف استقراراً، أو ينقاد لأي تنسيق أو نظام. وكلما كانت الأهداف الفرعية، الشخصية أو الجماعية، أقل، وفعلها في النفس أضعف، كان المجتمع أقرب إلى المثل الأعلى في الضبط والإحكام.

ويمتاز هذا المجتمع ثانياً بما يسوده من توازن دقيق بين الحرية والسلطة، بين الحق والواجب. فالفرد فيه يعلم أين ينتهي حقه ويبدأ واجبه، ويدرك ان لحريته دائرة محدودة لا يمكنه تعديها. وكما يحترم هو الواجب والسلطة كذلك يحترم غيره ما له من حق وحرية. فالحد بين هذين الحقلين واضح مقبول، لا يثير أي تنازع أو تضارب: على أن هذا

الوضوح والقبول لا يتمان إلا إذا اعترف الجميع بسلطة واحدة إليها يرجع في الفصل والتحديد. ولكل من المجتمعات الإنسانية سلطته التي يعتبرها ويخضع لها في هذا الأمر الخطير. فهي في المجتمعات الدينية السلطة الإلهية، وفي النظم الدكتاتورية الزعيم الأوحد، وفي الدول الديمقراطية رأي الأمة الممثل في نوابها، وفي العالم الشيوعي الحزب الذي تنتظم فيه طبقة العمال، وهكذا. ولا شك في أن استقرار مجتمع ما، وحسن سيره، واضطراد نموه، تتوقف إلى حد بعيد على نوع السلطة العليا التي يؤمن أفراده بها وعلى مدى عمق هذا الايمان وانتشاره.

هاتان الصفتان الرئيسيتان: وحدة الهدف، والتوازن بين الحق والواجب، بين الطاعة والأمر، نجدهما عند أفراد كل مؤسسة من مؤسسات المجتمع المنظم. ففي العائلة توافق بين حقوق الآباء وواجبات الأبناء، وفي المدرسة اتساق بين سلطة الأساتذة ورغبة الطلاب. وهكذا في المعمل والمزرعة والمتجر، وفي الحزب السياسي، والمنظمة الادارية. وفي الوقت نفسه تكون هذه المؤسسات، المنظمة كلاً في داخلها، مرتبطة في ما بينها بارتباط محكم وترتيب متناسق، لا تطغى واحدة على أخرى، ولا يستأثر أي منها بسواها.

ولا ريب في اني في ما أقول الآن عن المجتمع المنظم ارسم صورة مثالية لم تتحقق بعد في العالم. ولكنها ليست مجرد حلم لا علاقة له بالواقع، وإنما هي مثل أعلى لما يجب أن يكون عليه مجتمعنا، وصورة لا غنى لنا عنها إذا أردنا أن نخرجه من حالته الانفعالية الحاضرة ليصبح فعلاً وفاعلاً في الحياة الإنسانية.

ومع أن هذه الصورة لم تتحقق تماماً على هذا الشكل المثالي، فإن بعض المجتمعات المعاصرة قد اقتربت منها واكتسبت بعض خطوطها. ولذلك وجب أن ندرسها في هذه المجتمعات، لنتبين شكلها العام ووجوهها المختلفة. في العالم الغربي الحديث فنون من التنظيم في الحياة الاقتصادية، وفي الجهاز الاداري والجهاد السياسي، تقوى كل يوم وتتعقد، وتوجه الحياة الحاضرة توجيهاً لا غنى لنا عن التعرف إليه إذا أردنا أن نساهم في عالم اليوم والغد ويكون لنا مكان مرموق فيهما.

وهذا يؤدي بنا إلى التساؤل: أتكون صورة التنظيم متوفرة عندنا كما هي مادته؟ أفي ذهننا رسم واضح له، تتحدد فيه هيئته الشاملة وتفاصيله الجزئية؟ لا إخالنا إلا مقرّين اننا هنا فقراء إلى أبعد حدود الفقر، ضعفاء ضعفاً قد يجر، إذا لم نبادر إلى معالجته، إلى أخطر النتائج وأسوأ العواقب. أين الدراسات العامة التي قمنا بها في الحقل الاقتصادي؟ ها هي الأحداث تقذف إلينا كل يوم بأوضاع مالية وتجارية جديدة، فنعالج الحاضر منها بالحاضر، ونتكل على الظروف الطارئة والصدف العابرة، ونسلم أنفسنا لغير المختصين العارفين، لأنه ليست لدينا خطة اقتصادية عامة نضع فيها كل أمر من هذه الأمور في

موضعه المناسب منها. كذلك نخوض المعارك السياسية، وننشىء النظم الدستورية، دون أن نهتدي في ذلك بصورة واضحة الى وضعنا السياسي المقبل، نجعلها أبداً نصب أعيننا، وننظر إلى كل حدث أو انقلاب على ضوئها. وفي حياتنا الفكرية اتجاهات متضاربة وآراء متباينة من أول أسبابها ان شكل ثقافتنا المقبلة لم يتضح في ذهننا بعد، ولم يستقر وينتظم بحيث لا يبقى مجال للتردد والاختلاف. وإذا كانت هذه الصور الجزئية لا تزال غامضة، فحري أن يصح الحكم نفسه، بل حكم أشد وأقسى، عن الصورة الكبرى لتنظيمنا القومي العام الذي يشمل هذه النواحي كلها من سياسة واقتصاد واجتماع وثقافة. من أجل هذا ترانا في الحقول المختلفة، وفي الحقل القومي الشامل، تسبقنا الحوادث بدلاً من أن نسبقها ونداويها بعد حدوثها، بدلاً من أن يكون لنا رأي أو عمل يؤثر سابقاً في نوعها وشكلها وظروفها.

وقد يذهب بنا القول بعيداً إذا حاولنا أن نشرح هذه الظاهرة الخطيرة في حياتنا القومية شرحاً يفي بحقها. ولذا سأقف عند هذا الحد مكتفياً بتأكيد حاجتنا الشديدة إلى الصورة التنظيمية.

— ٤ —

علىأنني اخال القارىء يقول: سئمنا سماع الشكوى، ووصف العلة، ونحن الآن نبغي العلاج، بل من يقوم بالعلاج؟ كيف نوجد هذه الصورة التنظيمية بخطوطها الكبرى ونواحيها الجزئية؟ ثم كيف نخرجها إلى حيز الفعل مجتمعاً قومياً منظماً؟ على يد من تتحقق هذه الصورة، وممن ننتظر صدورها وإثباتها؟

هذه أسئلة تجرنا إلى العلة الثالثة وهي الفاعل: أي الباني بالنسبة للبيت. وهي في نظري أهم العلل وأشدها أثراً. لقد كان أرسطو وكثيرون غيره من الفلاسفة يعتقدون أن الصورة توجد في الطبيعة بالاستقلال عن الإنسان، ولذلك لم يوفّوا الفاعل، الذي هو في الحق مبدع الصورة ومطبقها، حقه من الأهمية. الإنسان المفكر العامل، هو، في نظري، أعظم هذه العلل، وعلى نوع كيانه يتوقف آخر الأمر النظام القائم في المجتمع. ولكن، أي عنصر في الإنسان هو العنصر المنظم؟ لقد عاش البشر أجيالاً طويلة دون أن يعرفوا التنظيم الذي نراه في العصر الحديث. وها نحن في البلاد العربية، على كثرتنا، نشكو قلة التنظيم بل عدمه، فما هو النقص في الفرد العربي الحاضر الذي يمنعه عن الارتفاع إلى المرتبة التي نريدها له في هذا المضمار؟

أول عوامل التنظيم في الإنسان هو العقل. ولسنا نخطىء إذا قلنا ان أعظم قوة منظمة نلمسها في الحياة البشرية هي القوة المستمدة من العقل، العقل الذي يسطو على الطبيعة، فيستخرج مواردها وينظمها بحسب الخطة التي يضعها، أو الصورة التي

يرسمها. الطبيعة عظيمة، ولا شك، عظيمة بسعتها وغناها وجبروتها: جبال شاهقة، سهول فسيحة، بحار محيطة، أنهار تجري، براكين تتفجر، عواصف تهب وتبدد. يا لعظمة هذا كله ورهبته. ولكن أعظم منه وأشد رهبة هو العقل الإنساني الذي يفرض نفسه على هذه المظاهر الطبيعية فيقبض على ما تخبئه من مصادر قوة وثروة، ويوجهها الوجهة التي يشتهي. صغير، ضئيل، ضعيف هو الإنسان، إذا قيس بما حوله من القوى الجبارة، إلا ان هذه البذرة المباركة التي يحويها، بذرة العقل، أهّلته على صغره وضآلته وضعفه لأن يسود تلك القوى الهائلة ويخضعها لما يريد. فتراه قد طوى الأبعاد، وأخرج كنوز الأرض، وبنى صروح العمران، كل ذلك بأسلوب محكم منظم، ونسق متتابع مترابط الأجزاء متماسك الحلقات. لم تكن طبيعة الولايات المتحدة منذ ثلاثمائة سنة أقل غنى مما هي عليه اليوم، فما الذي جعلها تتقدم الآن إلى المقام الأول من حيث الثروة بين دول العصر الحاضر؟ لم تتسع سهولها، ولا غزرت مياهها، ولا زادت ـ بل نقصت كثيراً ـ معادنها. لم يحدث أي من هذه التبدلات في طبيعتها، في علتها المادية بحسب اصطلاحنا. وإنما الذي حدث فعلاً هو دخول العقل المنظَّم المنظِّم إليها. العقل قبض على تلك الإمكانات الهائلة ففجرها معامل وموانىء وسككاً حديدية ونواطح سحاب، وجعلها أرضاً زاخرة بالقوة جياشة بالحياة. ومن أهم الوسائل التي استخدمها في هذا العمل الإنتاجي التنظيمي: الآلة الحديثة، تلك الأداة الفعالة التي توفر الجهد وتضاعفه، باحكامه وتنظيمه. وما الآلة، آخر الأمر، حديداً مركباً، أو نحاساً مصبوباً، أو خشباً مخروطاً، وإنما هي العقل المختبىء وراءها، الخفي إلا عمن يدرك سره ويعي طبيعته.

ولم يقصر هذا العقل فعله على الطبيعة الجامدة، بل وجهه أيضاً إلى حياة الإنسان نفسها، فعمل فيها مبدعاً منظماً: نظر في العلاقات الاقتصادية فأحكم ربطها، منشئاً الشركات والمؤسسات الزراعية والصناعية والتجارية، والدوائر المالية، وسواها من المنظمات التي تزداد يوماً عن يوم اتساعاً وتعقداً. والتفت إلى العلاقات السياسية، فأوجد الأحزاب، والادارات، وصنع الدول. واهتم بعالمه الخاص، عالم الفكر، فألف الكتب، وبنى المدارس، وأنشأ المجامع، وخلق المدنية: أجل! حيثما نجد في العالم مظهراً من مظاهر الحضارة، مادياً كان أم فكرياً، فهناك قبس من نور العقل، وبذرة من غرسه، وأثر لعمله. وراء كل من تلك المنشآت التي تؤلف في مجموعها الحضارة البشرية، عقل يحقق ويوجه وينظم. المحراث، والمصرف، والحزب، والدولة، والكتاب، هذه وسواها ان هي إلا مظاهر لتلك القوة النافذة الناظمة، الصغيرة في أصلها، العظيمة في مدى فعلها وعمق أثرها. وهل العلم الذي يربط بشبكته الحياة البشرية الحاضرة سوى مجموعة معارف محققة منظمة؟ والحضارة؟ أتعدو كونها خلاصة الإنتاج البشري الباقي المنسق المتزايد؟ وما الذي يبقيه، وينسقه، ويزيده، وينقله من جيل إلى جيل تاريخاً يكمل وأساساً يبنى عليه؟ أليس

هو العقل البشري المتفتح المتكامل؟ هنا نقطة الارتكاز ومبدأ العمل، ومحط الرجاء. أنريد ابدع مثل للتنظيم، وأجمل منظر تتجلى فيه هذه الصفة الممتازة؟ ليس هو المعمل الذي يشتغل فيه ألوف العمال بمنتهى الدقة والتعاون فيخرجون سيارة كل دقيقة، ولا المصرف الذي يعرف كل فرد من أفراده عمله ويسجل كل قرش فيه في موضعه، ولا الحزب الذي يعمل أفراده ولجانه يداً واحدة وينبض قلبه نبضات منتظمة، وإنما هو عقل المفكر الذي يحقق ويحاكم وينظم، لأنه هو الأصل والمبدأ، عنه كل تلك المظاهر كانت، وبدونه لم يخرج منها إلى عالم الوجود شيء.

على أننا عندما نلتفت إلى وطننا العربي نجد هذا العقل، الذي كما تبين لنا هو أساس كل تنظيم، ضعيفاً إلى أقصى حدود الضعف، ضئيلاً كل الضآلة. فإذا أردنا تنظيماً صحيحاً، وجب قبل كل شيء أن نقوي فينا هذا العقل ونعمقه ونعمم أثره. وجب أن نفسح له المجال ليدخل إلينا عن طريق الآلة، ويعمل في بلادنا بواسطتها مستخرجاً منظماً. وجب أن يشع نوره منا فكراً، باحثاً في مشكلاتنا القومية المستعصية، رابطاً بين جهودنا المبذولة في شتى الميادين، منسقاً عملنا وموجهاً إياه إلى الغاية القومية الصحيحة. وجب أن يتراكم أثره فينا علماً متزايداً، وحضارة متكاثفة، وتاريخاً صافياً مشرقاً يؤدي إلى مستقبل أشد صفاء وإشراقاً.

ولما كانت المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها، هي الأداة التي ينـمَّى فيها العقل ويفتح، فمما لا جدال فيه ان حجر الزاوية في نهضتنا القومية اصلاح شامل لطرق تعليمنا يرمي إلى توفير سبل النمو للعقل الهادي المنتج، وذلك بقلب مؤسساتنا التعليمية من مصانع للشهادات إلى مراكز تتفتح فيها العقول، وتنتظم الأفكار، وتخلق الشخصية العربية خلقاً جديداً. إن الاضطراب والفوضى وانعدام التنظيم بيننا علل لا تداوى مداواة ظاهرية، ولا تحل حلاً آنياً مرتجلا، وإنما ينبغي علينا أن نكشف عن الجذور، وأن نقبض على الأصول، وأن نقيم البناء على أساسه المتين. ولا يعتريني أدنى شك في أن أصل كل تنظيم صحيح ثابت هو الفكر المنظَّم المنظِّم، وان هذا الفكر لا يصدر إلا عن عقل متفتح متمرس.

على أن الشخصية الإنسانية ليست عقلاً كلها، بل انها تضم، إلى جانب العقل، عنصراً آخر ليس في جوهره منظماً متراكماً، وإنما هو الذي يولد الدافع للتنظيم والتراكم. هو عنصر يصعب تحديده وتوضيحه، وقد اعتاد الناس أن يدعوه «الروح»، فلنتبعهم في ذلك. الروح وحدة لا تتجزأ، تشع في الشخصية الإنسانية اشعاعاً ينفذ إلى جميع جوانبها، ويسمها بسمة خاصة. وكل تمييز بين عناصر هذه الروح يجزئها، ويبدل حقيقتها. على أنه لا بد لنا من تلخيص بعض صفاتها ومزاياها، ذاكرين في الوقت نفسه أنها ليست مجموعة هذه المزايا والصفات، وانها لا تتمثل صحيحة كاملة إلا عندما

تندمج وتنصهر في الشخصية الإنسانية الموحدة.

أولى ميزات الروح الباعثة على التنظيم خلق كريم. وجوهر الخلق الكريم ان يكون المرء منزهاً عن الغرض متجرداً عن الشهوة، كي ينظر باخلاص إلى مثل أعلى، ويتعاون بصدق وحماسة مع أبناء أمته، ويؤثر مصلحة المجموع على مصلحته الخاصة. والتنظيم، كما نعلم، لا يقوم إلا على هذا الايثار، فكيف نأمل أن يشع إلا ممن يتصف بهذه الصفة، وتقوم حياته وأعماله على أساس من الخلق متين؟

ومن ميزات الروح المنظمة الجد والنشاط. فالتنظيم لا يحقق بكلام يصاغ، وخطب تلقى، وإنما يتطلب عملاً مستمراً، وجهداً متصلاً، ومراقبة دائمة. وهذه كلها لا تتأتى إلا لمن يستطيع أن يجلس ساعات طويلة إلى مكتبه يدرس وينقب ويلاحق، والذي يتقن فن المثابرة ولا يعرف الملل أو الكلال في متابعة القضايا الموكلة إليه، المتصلة بعمله.

حدثني صديق لي كان له حظ الاجتماع بالسياسي التركي الكبير الدكتور رشدي آراس في احدى زياراته للبنان، قال: عندما سألت هذا الرجل الذي خبر الحياة العالمية، وكان له باع طويل في بناء أمة حديثة عن واجب الشباب العربي، أجاب على الفور ان على هذا الشباب، إذا أراد نجاح بلاده، أن يعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، جاداً نشيطاً حازماً. وهذا قول حق يجب أن يتدبره ويسعى إلى تحقيق معناه كل من يطمح إلى عمل تنظيمي، كما يجدر أن تتبعه كل أمة تسعى إلى البقاء في خضم الحياة العالمية الصاخب.

ويتصل بالجد والنشاط تقدير المسؤولية حق قدرها. فالشعور بالمسؤولية شرط أساسي للعمل المحكم المترابط، لأن هذا العمل أشبه بالشبكة المؤلفة من خيوط وعقد عديدة، فإذا انقطع أحد تلك الخيوط أو ارتخت احدى العقد تأثرت الشبكة بكاملها. ولا يمكننا ان نأمن خطر الانقطاع أو الارتخاء في المجتمع إلا بايمان كل عضو من أعضائه بأن مصير الكل متوقف على مصيره، وان أي ضعف ينتابه يسري إلى المجموع بكامله، وبكلمة أخرى، إلا إذا تولد عنده شعور حاد بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه، وتصرف تحت تأثير هذا الشعور في الصغير والكبير من أموره. أقول الصغير، وأؤكد عليه قبل الكبير، لأنه كثيراً ما يخطر لنا ان الروح التنظيمية تتناول بعض أمور الحياة دون سواها، وان المرء قد يكون منظماً في حال ومضطرباً في أخرى، أو منسق الفكر والعمل في القضايا التي يعدها هامة، مهملاً لغيرها. لا! إن التنظيم، ككل القيم الغالية في الحياة، وحدة تامة لا تنفصل أجزاؤها بعضها عن بعض. فإما أن يكون، وإما أن لا يكون، ولا توسط بين الحالتين.

هذه صفات ثلاث رئيسية للروح المنظمة. وقد يطول بي الحديث ويتشعب إذا حاولت أن استقصي جميع الصفات التي تميز هذه الروح. فلأكتفِ اذن بهذا القدر،

خصوصاً ان الموضوع لا يوفي حقه كلام، ولا يكشف عن حقيقته شرح أو ايضاح، وإنما هو، ككل ما يتصل بأمور الروح، لا يدرك إلا عندما يوجد محققاً في الحياة. وأفضل تعريف للروح المنظمة هو الروح المنظمة نفسها، الممثلة في شخصية إنسانية. فما لم توجد هذه الشخصية عندنا، ونلمسها، ونتأثر بها، وتصبنا عدواها، فسيبقى كل كلام منا عنها عبثاً، وسيبدد في الجو هباء منثوراً.

وقد يعتقد البعض اننا إذا كنا، في مجتمعنا العربي الحاضر، مقصرين في العنصر العقلي من العنصرين الإنسانيين اللذين يخلقان التنظيم، فليس يعوزنا العنصر الثاني: أي الروح. كيف لا، وقد اعتدنا ان نصف أنفسنا كعرب أو كشرقيين أغنياء بالنزعة الروحية، وان نقابل صفتنا هذه بمادية الغرب. على أننا إذا أنعمنا النظر، وتفحصنا حالنا الحاضرة بإخلاص وتجرد، لم نستطع أن نقر لأنفسنا بهذا الفضل. لقد عرف أجدادنا الروحية العميقة، وأنشأوا، بما بعثت فيهم من قوى، حضارة مجيدة. أما اليوم فإنك لا تجد لهذه الروحية فينا أثراً باقياً تستطيع الوقوف عنده، بل ترانا، بالعكس، غرقى في خضم من المادية واسع، وفي نوع من العيش الفردي والتعاون الاجتماعي هو أبعد ما يكون عن خلوص الروح ونقاوة النفس. وأعظم دليل على هذا تأخرنا الشائن في شتى الميادين، ذلك التأخر الذي ما كان ليسطو علينا ويمنعنا من كل حيوية منتجة لو أننا نعمنا بنعمة الروح واهتدينا بقبسها الوضاء. فلنتضع اذن، ولنسعَ إلى أن ننمي في نفوسنا الخلق الكريم، والجد، وتقدير المسؤولية، وسواها من الصفات الروحية التي بدونها لا يكون أي تنظيم، بل لا يكون خَلق. وما التنظيم في النهاية سوى نوع من الخلق وشكل من الإبداع.

وقد يخطر للبعض ان هذه القوة الروحية التنظيمية ـ أو الابداعية بوجه عام ـ تهبط للفرد من عل، أو تحصل له بمجرد اشتهائه إياها، أو انها تتوزع اعتباطاً بين أبناء البشر. على أن من يطالع التاريخ، ويتأمل سير أولئك القادة الذين تجلت فيهم هذه القوة بأبهى مظاهرها ليلاحظ انها، في الأكثر، نتيجة الجهد الشديد المستمر الذي يبذله المرء في سبيل تحقيقها. أيكون الخلق الكريم، والنشاط الدائم، والتقدير الحاد للمسؤولية، صفات تمنح من الخارج، أو توجد بالفطرة، أو تحصل بالمصادفة؟ لا! لا تتم هذه أو سواها من صفات الروح المنظمة المبدعة إلا بقدر ما يحرص الفرد منا عليها، وما يبذل من الجهد في سبيلها، وذلك عن طريق الاتصال المباشر المستديم بأصحاب هذه القوة في العصر الحاضر، والعصور الماضية. بهذا الاتصال، وبما يفرض من ثمن ندفعه نشاطاً جسدياً وجهداً عقلياً، وقلقاً روحياً، نلتقط هذه القوة بالعدوى من أصحابها، وهم قادة الحياة وصانعوها، أولئك الذين تضيء نفوسهم بنورها، وينبعث من صدورهم لهيبها. ولكن لا يستطيع أن يقتبس ذلك النور، أو أن ينعم بحرارة هذا اللهيب، إلا من بذل ثمنه غالياً، وأدى ما يفرضه عليه من واجب.

يتبين مما سبق اذن، ان العلة الثالثة للتنظيم، أي العامل، ترتكز على الشخصية الإنسانية، وبالتحديد، على العنصرين اللذين يكوّنان إنسانية الإنسان: العقل الذي به يكون التنظيم، والروح التي تبعث على التنظيم. وتصل هذه العلة إلى أبعد مداركها، وترتفع إلى أعلى مراتبها، عندما ينصهر هذان العنصران وينسجمان في شخصية موحدة، تشع معرفة وإخلاصاً، وفهماً واندفاعاً، ونوراً وحرارة. تلك هي شخصية الزعيم الحقيقي، الذي يستطيع أن ينظم ويبعث، لأنه قبل أن يتصدى لتنظيم الأمة قد نظم فكره، وقبل أن يطمح إلى بعث الوطن قد بعث روحه، ولأنه كيان، بالمعنى الحقيقي للكيان، إذ لا يمكن أحداً أن يفعل شيئاً ـ ان يصبح علة فاعلة ـ إلا إذا كان شيئاً في نفسه أولاً.

ــ ٥ ــ

بقيت العلة الرابعة والأخيرة من علل التنظيم: الغاية. وإذا تابعنا المثل الحسي الذي بدأنا به، أي البيت، كانت، بالنسبة إليه، الاسكان. فما هي غاية التنظيم؟ لسنا نحتاج في ايضاح ذلك إلى إطالة أو تفصيل. فالتنظيم المحكم يؤدي أولاً إلى غزارة الإنتاج. وبيان ذلك أن الثروة، مادية كانت أو عقلية، تكون ضعيفة هزيلة ما بقيت متفرقة مبعثرة، فإذا ضم بعضها إلى بعض، وربطت أجزاؤها، وأحكمت حلقاتها، تضاعفت قوتها وتراكمت نتيجتها. والأمة القوية الثابتة تقوم على غزارة الثروة، العقلية والمادية. ذلك ان المجتمع الحديث لم يعد يسمح باستقلال أمة أو بمجرد بقائها، ما دامت في طور أولي، ضعيفة الموارد، ضئيلة الإنتاج. فالغاية من التنظيم اذن مرتبطة بصميم الوجود القومي، وإذا أنكرناها أو تعامينا عنها، كنا كمن ينكر أصل كيانه أو يشك به.

ثم إذا تقدمنا إلى ما بعد مجرد البقاء، وإقامة الاستقلال، وطمحنا إلى أن ننشىء مدنية زاهرة مبدعة، كالمدنيات الخالدة التي عرفها التاريخ، احتجنا كذلك إلى التنظيم، لأننا أنى توجهنا في الطبيعة الجامدة والحياة الإنسانية وجدنا التنظيم سر كل جمال وبهاء. أليست عظمة هذا الكون في ترابط أجزائه وتناسق عناصره، ترابطاً وتناسقاً يثيران اعجاب العلماء وتواضع المتأملين المدركين؟ أليس جمال الصور الفنية في توافق ألوانها، وسحر الموسيقى في انسجام الحانها؟ وهذا الكائن، الصغير في جسمه العظيم في أثره، الإنسان، أليس يدل جسده على انتظام تام بين أعضائه، وينبىء عقله المحقق فعلاً عن إحكام في قواه وتماسك في منتجاته، وتظهر روحه المنماة الناضجة كل انضباط وانتظام؟ أفلا يبلغ هذا الإنسان أعلى مراتبه، باني أمة أو مبدع حضارة، عندما تنتظم عناصره الثلاثة هذه في شخصية موحدة منسجمة متكاملة؟ أجل! ان التنظيم أساس كل صحة وغزارة، وسر كل عظمة وبهاء، وفي اجتماع هذه القيم غايته، ولتحقيقها يجب أن يتوجه جهده ونشاطه.

علل أربع للتنظيم، بل لكل شيء في هذا الوجود: مادة، وصورة، وفاعل، وغاية، أرجو أن أكون في هذا العرض الموجز الخاطف قد أظهرت ترابطها فيما بينها، وأثر كل منها في خلق التنظيم، ودللت على درجة وجودها أو انعدامها، في مجتمعنا العربي الحاضر. وأرجو أن أكون أوضحت ايضاحاً لا ينتابه أي شك أو غموض، ان أهمها، بلا مراء، العلة الثالثة، أي العنصر الإنساني الفاعل، فهو الذي يسيطر على المادة الطبيعية والبشرية وينظمها، وهو الذي يرسم صورة التنظيم، ويحدد غايته. فإليه، يجب أن يتوجه انتباهنا في الدرجة الأولى، وعليه ـ لا على غيره ـ اعتمادنا. فجدير بنا اذن أن نعمل بكل جد ونشاط لنحققه في مجتمعنا عقلاً مدرباً وروحاً باعثة، بل شخصية جامعة لهما ومؤهلة للتنظيم والابداع في شتى مناحي الحياة.

كثيراً ما تساءلت وأنا أدرس تاريخ أمتنا العربية الماضي عن أسباب انحلال سلطتها وتدهور حضارتها. وكنت فيما مضى أعزو ذلك إلى ما انتابها من حروب وما أصابها من غزوات. غير اني، لا أشك، غدوت الآن أعتقد أن السبب الأول والأهم في ذلك كله إنما كان الضعف الداخلي الناتج عن ضعف العلة الرئيسية من علل التنظيم والابداع، أي الشخصية العربية. فلقد أقفل العقل العربي على نفسه الأبواب والنوافذ، فانقطع عن النمو، وكل ما لا ينمو ينحل، كما ان كل ما لا يتقدم يتأخر، والتهت الروح العربية بالأهداف الشخصية واللذائذ المادية، فضعف خلقها، وقل جهدها، وانحط تقديرها للمسؤولية الملقاة على عاتقها، فلا بدع ان فقدت كيانها، ولم تعد ما هي، وأصبحت منفعلة بعد أن كانت فاعلة.

يقول مثل صيني قديم: إذا أردت أن تزرع لسنة فازرع قمحاً، وإذا أردت أن تزرع لعشر سنوات فازرع شجرة، أما إذا أردت أن تزرع لمئة سنة فازرع رجالاً. ونحن نطمح فيما أرجو إلى أن نبني كياناً يثبت على الدهر، ولا تفنيه المئات بل الآلاف من السنوات. فليكن همنا اذن ان نزرع الأشخاص. فالأشخاص هم، في الوقت ذاته، نتيجة الابداع والتنظيم، ومصدر كل ابداع وتنظيم.

التربية في المجتمع العربي

— ١ —

منذ أقدم الأزمنة يضطرب العقل الإنساني بين فكرتين متناقضتين: هما فكرة الثبات والدوام، وفكرة التغير والتبدل. فطوراً يميل إلى الأولى ويؤمن بأنها الحقيقة الأساسية في الكون والحياة، وطوراً يخضع للأخرى وينظر إلى ما حوله بمنظارها وتحت تأثيرها. حيناً يخلد إلى الاستقرار متمسكاً بحقائق وعقائد يعتبرها أزلية متعالية عن ظروف المكان والزمان، وحيناً آخر يسبح في بحران من الشك والاضطراب موقناً بأن كل ما حوله متبدل زائل.

وإذا نحن أمعنا النظر في حالة العالم اليوم وجدنا ان الفكرة الثانية هي الغالبة. فتقدم العلوم التطبيقية والفنون العملية وما أحدثه من تطور سريع بالغ في حياة الإنسان المادية، وما كان له من أثر في تعديل النظم الاجتماعية والمقاييس والمفاهيم العقلية، وما وقع فيه العالم بنتيجة هذا من أزمات حادة ومن منازعات وحروب شاملة ــ كل هذا قوى في المجتمعات البشرية اليوم الشعور بأن كل شيء هو وليد الظروف التي تحيط به، يتحول أو يزول بتحول هذه الظروف أو زوالها.

ولذا كان من الخير أن نعود بين آن وآخر في هذه الأيام إلى تبين العناصر الثابتة الباقية من خلال التغير والتطور، وإلى تلـمّس الحقائق غير المتأثرة بالمكان أو الزمان أو سواهما من الظروف، وأن نذكر أن الواقع الإنساني هو دوماً وليد عاملين مترافقين متفاعلين: هذه الحقائق الثابتة من جهة، ومن جهة ثانية مقدرة العقل الإنساني على ادراكها وتكييف الحياة بحسبها. وما الاختلاف الذي نشاهده في مظاهر الحياة وفنونها وأساليبها سوى اختلاف في مقدرة العقل، في مراحل تطوره المتتابعة، على ادراك هذه الحقائق، وفي مدى قربه منها أو بعده عنها، ودرجة خضوعه لها أو ثورته عليها.

والموضوع الذي نحاول معالجته هنا ــ التربية العربية ــ مثل واضح على ما أقول. فأهداف التربية هي واحدة ــ أو بالأحرى يجب أن تكون واحدة ــ مهما اختلفت الأجناس أو البلاد أو الشعوب، لأنها مرتكزة على أصل ثابت هو الإنسان، الإنسان أينما ومتى وكيفما كان. والتربية العربية لا يمكن أن تفترق في غاياتها الرئيسية البعيدة عن أية تربية أخرى، ما دامت كل منهما ترجع إلى أصلها الإنساني الواحد. هذا الأصل هو أن الإنسان كائن ذو شخصية، وأنه يتفرد عن الكائنات الأخرى بهذه الصفة، وأن الغاية التي يجب أن يسعى إليها هي تفتح هذه الشخصية ونموها، واكتسابها الحرية والكرامة. فالإنسان البدائي عبد: عبد للطبيعة التي تسطو عليه بمعالمها وقواها، وعبد لنفسه التي تتحكم به بأوهامها وأهوائها. وتقدمه ونموه وحضارته إنما تقوم على مدى ما يتحرر من هذه العبودية المزدوجة، وما يحقق بذلك من كرامته الذاتية.

إن جميع الجهود الايجابية الإنسانية: كالثورة على الظلم بشتى أنواعه ومظاهره، والاصلاح الاجتماعي بمختلف أشكاله، والإنتاج العلمي والأدبي والروحي، والتربية والتعليم، كلها تتجه إلى هذه الغاية الأصيلة وتسعى إلى ادراكها. وللتربية من بينها دور بارز ومقام ممتاز، وذلك لسببين: أولهما فعلها المباشر وأثرها النافذ، فهي تتوجه إلى الشخصية الإنسانية رأساً وتعمل لتحررها من الوهم والجهل والهوى، منمية قواها العقلية والروحية، باعثة إياها على التمييز بين قيم الحياة وعلى اكتساب أرفعها وأصفاها. قد تكون بعض الوسائل الأخرى أسرع من التربية فعلاً، وأبين أثراً. ولكن نتائج التربية تظل أعمق غوراً وأقوى ترابطاً وأكثر استمراراً وتراكماً. أما السبب الثاني لخطورة التربية فهو ان جميع الجهود الاصلاحية الأخرى موقوفة إلى حد ما عليها، لأنها هي التي تصل بينها وتنقلها من جيل إلى جيل، وتوجد العناصر البشرية الكفيلة بتنفيذها وبدفعها في سبيل التقدم والتكاتف. أليست التربية هي التي تغرس في النفوس تعاليم الثورات الاصلاحية والاندفاعات التقدمية فتحفظ نتائجها وتمهد لما يأتي بعدها؟ أليست هي العامل الأساسي في نقل الاكتشافات العلمية والانبعاثات الروحية وفي نشرها وتعميم ثمارها؟ أليست هي التي تكوّن الرجال والنساء المؤهلين للنهوض بهذا كله، بل بكل إنتاج منتظم تقدمي؟؟ إذن لا بدع أن يكون لها ــ كما قلنا ــ بين الجهود الايجابية الإنسانية المقام الممتاز والأثر البارز.

على أن هذه النظرة إلى التربية ــ كعامل أساسي في تحرر الشخصية الإنسانية واكتمالها واكتسابها كرامتها الذاتية ــ لم تكن هي النظرة السائدة في جميع العصور، ولعلها ليست السائدة في عصرنا هذا. إذ كثيراً ما كانت التربية تعتبر وسيلة لتلقين معلومات معينة أو التدريب على مهنة من المهن أو تنمية ناحية واحدة من الشخصية

الإنسانية، كالتفكير النظري أو الوضوح الذهني. وما يزال الأمر إلى حد كبير كذلك في وقتنا هذا. غير ان المفهوم الصحيح الشامل للتربية كما بينا آخذ في الاتضاح والانتشار، وعلى مدى هذا الاتضاح والانتشار يتوقف ما يرجى من اصلاح في التربية نفسها، وفي المجتمع الإنساني عموماً.

ـ ٢ ـ

ومفهوم التربية العربية لا يمكن أن ينفصل عن هذا المفهوم العام للتربية. فالتربية العربية يجب أن تهدف إلى تنمية شخصيات أفراد المجتمع العربي لتتحرر من الفقر والمرض والجهل والهوى ولتحقق كرامتها، فتتحقق للمجتمع العربي عامة حريته وكرامته. غير ان هذا المجتمع هو الآن في موقف معين من تاريخه، وفي مرحلة من مراحل تطوره، فلا غرابة في أن تتأثر التربية العربية في غاياتها ووسائلها بهذه الظروف المعينة، وأن تتفاعل وهذه الظروف فتقترب حيناً وتبتعد حيناً آخر من الهدف الأصيل للتربية الصحيحة.

ولكي نفهم التربية العربية الحاضرة، ونحكم بإنصاف لها أو عليها، يقتضي أن نقف على حال المجتمع العربي ونطلع على القوى التي توجهه والحاجات التي تستنهضه. وليس بالإمكان في هذا الحديث العام تحليل أوضاع مجتمعنا بتفصيل، خاصة ان العوامل التي تسيره، والتيارات التي تتنازعه، والمظاهر التي تتجلى فيها حياته ـ ان هذه كلها متداخلة متشابكة، وكل حكم عام يطلق عليها يبسطها ولا يؤديها حقها. ولكن لما كان لا بد من التبسيط والتعميم، فلنبادر إلى القاء نظرة عجلى على المجتمع العربي ولنبين أهم صفاته وحاجاته الحاضرة.

إن أهم هذه الصفات والحاجات هي، في نظري، ما يلي:

أولاً: انه مجتمع في المرحلة الأولى من نهضته. فلقد مضت عليه قرون أخضع فيها لحكم أجنبي أنضب موارده واطفأ أضواءه العقلية والروحية. وها هو الآن ينشط وينبعث، ويتلمس طريقه الجديدة في الوجود. فهو في أكثره فقير، جاهل، مريض. هو فقير لأن موارده الطبيعية إما في يد غيره أو لا تزال بوراً لم يستغل منها إلا القليل، ولأن هذا القليل المستغل ليس موزعاً توزيعاً عادلاً بين أفراده. وهو مريض وجاهل لأن عصور الظلام التي تتالت عليه أفقدته حيويته، وجعلته مستعبداً لسلطان الطبيعة ولسلطان أوهامه وأهوائه. ولذا فإن أولى حاجاته الأساسية هي إلى تحرير جماهيره من الأمراض الاجتماعية الطاغية عليها: الفقر، والمرض، والجهل، وما يتولد عنها من علل فتاكة أخرى.

ثانياً: إنه في مطلع هذه النهضة مقبل على تنمية موارده، بتوسيع الزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات، وتحسينها. لقد نفذت إليه مؤثرات المدنية الغربية وأحاطت به من كل جانب. ولما كان الجانب التكنيكي الإنتاجي من هذه المدنية هو الأبرز، وكان المجتمع

العربي قد أخذ يتنبه بسرعة متزايدة لحاجاته المعيشية والقومية، فقد عمد أفراده وجماعاته للعمل على استخراج موارده الدفينة واستثمارها، فبذلوا جهوداً ناشطة تتعاظم سنة بعد سنة، ولكنها لا تزال في المراحل الأولى بالنسبة للإمكانات الغزيرة، وللحاجات الوافرة التي تفرض نفسها بازدياد وإلحاح.

ثالثاً: ان المجتمع العربي الحاضر يحاول ايجاد أجهزة جديدة للحكم وللتنظيم الاجتماعي بشتى وجوهه. فتنمية موارده الاقتصادية تستدعي تنظيماً يختلف عن حياته الاقتصادية البسيطة السابقة ويتبع قواعد التنظيم الاقتصادي الحديث المتشابك المعقد. وكذلك القول في شؤون الدفاع والاصلاح الاجتماعي والتنسيق الاداري وما إليها. ويدخل في هذا كله ويسيطر عليه الجهد في إنشاء حكم ديمقراطي يكون للشعب الكلمة الأولى فيه ويوجه لمصلحة الشعب ذاته. وبعبارة أخرى ان المجتمع العربي مدعو إلى إقامة تنظيم دولي حديث بما يستتبع من ترتيب وتنسيق في الشؤون الداخلية، وما يقتضي من اتصال بالدول الأخرى في عالم قد تعددت روابطه وتوثقت صلاته، ولم يعد بإمكان أي مجتمع من مجتمعاته أن يعيش بعزلة عن سواه.

رابعاً: ان المجتمع العربي متعدد النزعات التي تتقاسمه والعصبيات التي تتوازعه، وفي مقدمتها الطائفية والقبلية والاقطاعية والإقليمية. وهو يحاول التغلب على هذه النزعات وصهرها في بوتقة واحدة ــ بوتقة القومية ــ ولذا يحتاج إلى ما يمكنه من توثيق وحدته وجمع كلمته وضم جهود أبنائه المتفرقة ــ المتنافرة أحياناً ــ إلى غاية واحدة في سبل متوافقة متساندة.

خامساً: انه مجتمع محاط بالأخطار الخارجية: خطر الاستعمار السياسي الذي لا يزال جاثماً على بعض أجزائه، والاستئثار الاقتصادي الذي يتحكم بقسم هام من موارده، والاطماع المختلفة التي تحيط به من كل جانب، وخطر حرب عالمية عاتية تكون بلاده ميداناً من أهم ميادينها، وتتعرض فيها جميع مظاهر حياته للتبديد والتهديم والزوال. وقبل هذا كله وفوق هذا كله خطر اسرائيل التي غلبته على أمره، وأقامت كيانها في قلب وطنه وهي تستعد الآن لجولة جديدة في صراع لا يستهدف مالاً أو غنيمة وإنما أرض الوطن ذاتها والوجود القومي في كنهه، صراع حياة أو موت لكل من الفريقين.

فمن حاجات المجتمع العربي الأساسية أن ينتبه إلى هذا الخطر ويشعر بجسامته، وأن تتكون فيه الصفات التي تؤهله للصمود في وجهه ثم التغلب عليه.

سادساً: انه مجتمع حائر بين تراثه القديم والمدنية الحديثة. فهو من ناحية يتحسس بمدنيته العربية الغابرة، ويرغب في تمتين أصوله المغروسة فيها، ويفاخر بما أنتجت هذه المدنية في زمن ازدهارها وما أغدقت على العالم من ثقافة وحضارة، ويسعى إلى أن يبعث

في نفسه الصفات والمواهب التي ولدتها هذه القومية. ولكنه، من ناحية ثانية، محاط بالمدنية الحديثة تطل عليه من كل صوب، وتفرض نفسها عليه بإلحاح، وتستهويه بنتاجها الايجابي الباهر وبمظاهرها المادية الخلابة. ولذا تراه، على العموم، متردداً بينهما، منقسماً على نفسه في النظر إليهما، لم ينجح بعد في أن يستخرج منهما قيماً منسجمة يسعى إلى تحقيقها بوضوح وعزم. فهو بحاجة ماسة إلى التوفيق بين مصادر حياته العميقة التي تغذي جميع مجاري نشاطه.

سابعاً: ان المجتمع العربي يسعى إلى جمع هذه المحاولات التي أشرنا إليها في جهد شامل هو الجهد لإنشاء كيان قومي يوفي هذه الحاجات الأساسية حقها، كيان متحرر من الاستعمار والتحكم الخارجيين، نام منتظم اقتصادياً واجتماعاً وسياسياً، متغلب على الفقر والمرض والجهل وسواها من الآفات الاجتماعية، كيان متراص موحد الغايات والنزعات، شاعر بما يحدق به من أخطار غير هياب لها، موفق بين تراثه القديم والمدنية الحديثة، مقيم صلة صحيحة بين ماضيه وحاضره ومستقبله. ولست أعني ان الفكرة القومية بمفهومها هذا هي السائدة في المجتمع العربي اليوم، فهناك فكر وعقائد أخرى تنازعها، كما أن القائلين بالقومية لا ينظرون إليها جميعاً هذه النظرة الجامعة الشاملة. وإنما أعتقد ان هذه النظرة، وهذا النوع من التفكير والجهد، هما اللذان يبقيان على الأيام وسيسودان في المستقبل، وهما المؤهلان لتحقيق أغراض المجتمع العربي وادراكه غاياته.

ثامناً وأخيراً: ان المجتمع العربي المجابه لتلك الحاجات الأساسية، المدعو إلى بذل هذه الجهود الجبارة داخلياً وخارجياً، يتطلع إلى قادة يحددون له الغايات ويخططون له السبل ويوجهونه إليها: قادة فكر يوضحون ويرسمون، وقادة عمل ينظمون ويدفعون. فكل ناحية من نواحي حياته تفتقر إلى هذا النوع من القيادة، وجهاده القومي العام بحاجة إلى القيادة المختارة التي هي الشرط الأول لبناء الأمم وإنشاء الحضارة.

ــ ٣ ــ

استميح القارئ عذراً إذا كنت أطلت بعض الشيء في ابراز الصفات العامة والحاجات الرئيسية لمجتمعنا العربي الحاضر. وقد يخيل إليه اني ابتعدت عن موضوع البحث، وهو التربية العربية. غير أن هذه التربية والحكم عليها لا بد من أن يكونا ضمن اطار واقعها وعلى ضوء متطلبات المجتمع الذي تخدمه.

فلنتساءل الآن: إلى أي حد تفي التربية العربية بهذه الحاجات؟ ماذا حققت وأين أخفقت؟ وما هي السبيل التي يجب أن تتبعها لبلوغ غاياتها القريبة والبعيدة.

قبل محاولة الاجابة عن هذه الأسئلة، لا بد من القول أولاً ان النظم التربوية التي أنشئت في البلاد العربية لم ترتكز على دراسة شاملة منظمة لحاجات المجتمع العربي. لا

شك ان هذه النظم تستهدف بعض الغايات التربوية العامة لهذا المجتمع، أو المجتمعات التي تؤلفه والتي من أجلها أنشئت هذه النظم، لا شك انها تسعى إلى نشر التعليم، وتنشئة المهنيين والاختصاصيين، وتحقيق الوحدة القومية. ولكن النظم بروحها وشكلها لم تأتِ بنتيجة ايضاح مسبق لهذه الغايات وتحديد وافٍ لحاجات المجتمع وعزم على توفية هذه الحاجات عن طريق التعليم، وإنما نقلت هذه النظم نقلاً عن بعض النظم الغربية ـ الفرنسية أو البريطانية خاصة ـ مع بعض تعديلات في البرامج والأساليب والوسائل لتتفق مع مقتضيات المحيط. ويجب ألا ننسى ان أسس هذه النظم ومعالمها الرئيسية وضعت في زمن الحكم الأجنبي وبيد الأجانب أنفسهم، ولم يلحقها في عهد السيادة تبديل أساسي يصلها بالمجتمع ويمتن جذورها فيه. اني لست من الذين ينكرون الاقتباس من الغرب، فالغرب لا شك سابق لنا بمراحل في شؤون التعليم وسواها، وعلينا أن نستفيد من اختباره الواسع في هذه الشؤون كلها. إنما يجب أن يكون اقتباسنا صادراً بالدرجة الأولى عن حاجاتنا الأصيلة وملبياً لها. كما يجب أن نسعى إلى آخر ما توصل إليه الغرب من اختبار وإنتاج. وهذا لا يصدق عن النظم التي أخذناها في حقول التربية والتعليم، إذ هي اليوم في بلادها موضع شك وتساؤل، وتعديل وتحسين. أما نحن فقد قبلناها على علاتها، وما زلنا بها متمسكين.

من ضمن هذا التحفظ ننظر إلى التربية العربية ونحاول قدر النتائج التي حققتها.

قلنا إن المجتمع العربي لا يزال في المرحلة الأولى من نهضته وان الفقر والمرض والجهل وما ينتج عنها من أمراض اجتماعية فتاكة لا تزال ساطية عليه. ولذا كانت حاجته الأولى، من الناحية التربوية، هي إلى مكافحة الجهل. ولا ريب ان الحكومات العربية والأفراد والهيئات الأهلية قد قامت بجهود عظيمة في هذه السبيل. فدساتير الدول العربية الديمقراطية تنص على واجب الدولة في تعميم التعليم وتمكين أبناء الأمة منه، وفي مكافحة الجهل والقضاء على الأمية. وان عدد الطلاب في المدارس، وعدد المدارس نفسها، لفي ازدياد مستمر، يدعو في بعض الحالات إلى الفخر والاعتزاز. ولعل من الضروري التنويه بصفة خاصة بالتوسع العظيم الذي حدث في تعليم البنات، مما لم يكن منتظراً حتى عهد قريب، كما تجب الاشارة إلى الارتفاع المتزايد في نفقات التعليم التي تتحملها الدولة، وفي النسبة المخصصة من ميزانيتها لهذا الغرض.

لست بحاجة إلى ذكر الأرقام والاحصاءات، إذ يمكن الرجوع إليها في حولية الثقافة العربية التي وضعها العلامة الأستاذ ساطع الحصري، وهي كلها تدل على الجهد النامي الذي يبذل في المجتمع العربي سعياً إلى هذا الهدف. كما ان هناك ظاهرة لا تنكر في جميع البلاد العربية يراها ويحس بها كل منا: هي اقبال الشعب على التعلم، وازدياد الطلب على الحكومات لفتح مدارس جديدة وتوسيع أبواب العلم، والتضحيات التي

يبذلها أفراد الشعب في سبيل تعليم أبنائهم وبناتهم. والحكومات تشعر بضغط متزايد لإنماء جهودها في هذا الميدان، ولتلبية المطالب الشعبية المنصبة عليها من كل ناحية.

على ان هذه الجهود تصطدم بعقبتين كؤودين: أولاهما إمكانيات الحكومات المادية، فإن هذه الحكومات، إذا استمرت على تحمل هذا الواجب على النحو الذي فعلت في السنوات الأخيرة، ستجد نفسها عاجزة عن القيام به، إذ انه يتطلب نسباً متزايدة من ميزانياتها، ويضعف فاعليتها في الميادين القومية الأخرى. ولمواجهة هذه الصعوبة يقتضي: أولاً، القاء جزء من هذا العبء على السلطات المحلية، كالبلديات وأمثالها، فتساهم في تقديم أبنية المدارس أو سواها من النفقات. لقد عمدت الحكومات العربية إلى محاولات من هذا القبيل، ولكن هذه المحاولات لا تزال في مراحلها الأولى، لم تأت بعد بالنتائج المطلوبة. ثانياً: تشجيع الهيئات الشعبية على تأسيس المدارس، وبسط شيء من العون لها في هذه السبيل، شرط أن تلتزم الأهداف القومية المفروضة في تربية النشء.

ان في هاتين الخطوتين فائدة مزدوجة، فمن ناحية تخفيف عن كاهل الحكومة المركزية الذي أخذ ينوء بتبعات التعليم المالية، ومن ناحية ثانية اثارة لاهتمام أفراد الشعب وجماعاته بشؤون التعليم في مناطقهم، بحيث لا تكون المدرسة جزءاً من جهاز الحكومة فحسب، بل خلية من خلايا المجتمع تتفاعل والخلايا الأخرى تفاعلاً حياً لنمو المجتمع وتقدمه. أما الخطوة الثالثة فهي الخطوة الرئيسية، ومؤداها تنمية موارد الأمة وتحقيق إمكاناتها الاقتصادية وتوفير دخلها القومي، ثم فرض الضرائب الضرورية العادلة على أفرادها. ويجب أن نذكر ان تعميم التعليم الابتدائي لم يتحقق في الغرب إلا بقدر ما تم لأممه من نهضة صناعية استغلت مواردها على نطاق واسع ومن استعداد عند أفرادها لتأدية واجبهم من الضرائب والتخلي عن قسم متزايد من دخلهم لحكوماتهم.

على أن العقبة المالية قد تذلل وتبقى العقبة الثانية، وهي ايجاد المعلمين. فالبلاد العربية بحاجة إلى عشرات الألوف من المعلمين للقضاء على الأمية ونشر التعليم. وتنشئة المعلم أشد صعوبة وأبعد منالاً من إيجاد المال، لما تتطلب من زمن للاعداد ولما تفرض من اختصاصيين للقيام بهذا العمل. وهكذا دوماً شأن الأمور الإنسانية، لا تتحقق باليسر والسرعة اللذين تتحقق بهما الأمور المادية. وان هذه الصعوبة في توفير المعلمين لتعظم وتشتد إذا لم تستهدف الكم فحسب، بل الكيف أيضاً، وإذا أردنا أن نهيىء للجيل الجديد العناصر الصحيحة، المؤهلة حقاً لهذه المهمة الخطيرة. لهذا كان من أهم الغايات التي يجب أن تستهدفها التربية العربية في هذه المرحلة من تطورها العناية المستمرة بدور المعلمين: زيادة عددها، وتعزيزها، ورفع مستواها، وذلك بتخصيص الاعتمادات الوافية لها، وبايجاد الاختصاصيين القادرين على تعهدها، وبكل وسيلة أخرى تكفل تخريج المعلمين الذين تحتاج إليهم البلاد العربية كماً وكيفية.

لقد نجحت التربية العربية، ضمن الحدود والقيود التي ذكرنا، في القيام بواجبها في نشر التعليم ومكافحة الأمية، كما نجحت، ضمن حدود أيضاً، في رفع مستوى التعليم عما كان عليه. فإنا إذا نظرنا إلى البلاد العربية نظرة عامة وجدنا بلا ريب أن هذا المستوى قد ارتفع عما كان عليه قبل ادخال النظم التربوية الجديدة، وأخذ الدول العربية على عاتقها هذا القسط الكبير من واجب التعليم. فالمدرسة الابتدائية اليوم هي غير الكتّاب أو أمثاله من المدارس القديمة، والتعليم الثانوي الذي كان في غاية الضآلة قد تركزت أصوله وهو آخذ بالنمو السريع، والتعليم الجامعي الوطني قد غرس وتعهد وبدأ يعطي أول ثماره.

هذا فيما يتعلق بالحاجة الأولى للمجتمع العربي: مكافحة الجهل. أما الحاجتان الثانية والثالثة وهما تنمية الموارد وإنشاء أجهزة الحكم والتنظيم الاجتماعي، فإن نجاح التربية العربية في تلبيتهما كان وما يزال أدنى كثيراً من المطلوب، وذلك لعيوب أساسية في النظم التربوية التي اتبعتها البلاد العربية في جميع مراحل التعليم: الابتدائي، والثانوي، والجامعي. فمركز الثقل في التعليمين الابتدائي والثانوي لا يزال التعليم النظري التقليدي. والمدرسة الابتدائية هي على العموم نفسها في الريف وفي المدينة، مع أن حاجات هذه هي غير حاجات تلك. ان المطلوب من المدرسة الابتدائية الريفية هو أن تكسب ابن الريف مبادىء المعارف وتجعله بالوقت نفسه عضواً منتجاً في مجتمعه بما تلقنه إياه من مبادىء الزراعة الحديثة وحفظ الصحة وأمثالهما مما يحتاج إليه في محيطه. أما مدرستنا الابتدائية الحاضرة فإنها بروحها ونظامها وبرنامجها تبعد ابن الريف عن أرضه وتنفره منها، وتدفع به إلى المدينة لمتابعة دراسته النظرية أو طلب الرزق من أعمال ليست في أغلب الأحوال إنتاجية كما هي العناية بالأرض. ولذا بدلاً من أن تكون هذه المدرسة عاملاً في تنمية موارد البلاد تصبح أداة لاقصاء النشء عن الأرض واهمال إمكاناتها. انني لست من القائلين بحصر أبناء الريف في مناطقهم، وعدم استفادة مراكز الحضارة والحكم من مواهبهم ـ فالأمة تحتاج في تكوين قيادتها إلى ما عند أبناء الريف من مواهب فطرية ونشاط طبيعي واتصال عميق بأرض الوطن وتقاليده. ولكنها إذا هي استنزفت الريف، خسرت أهم مصدر من مصادر قوتها. والتربية إذا اتجهت إلى هذا الاستنزاف ـ كما تتجه التربية العربية اليوم ـ تعرض عن هدفها الصحيح وتجر البلاد إلى عواقب وخيمة.

والحال نفسها نجدها في التعليم الثانوي. فالقسم المهني منه ضئيل جداً بالنسبة إلى القسم النظري. والحكومات والأهلون لا يبذلون له من العناية بقدر ما يتطلبه إنماء موارد البلاد. ولا أظنني بحاجة إلى ايراد الأدلة والإسناد لأبين ان الشريان الرئيسي للتعليم الثانوي في البلاد العربية (وأعني به ذلك المؤدي إلى الشهادة الثانوية العادية) هو نظري

بحت يكاد يكون خلواً من أي اتجاه عملي، وان الشرايين الفرعية الموازية له ـ التعليم الصناعي والزراعي والتجاري ـ ضيقة ضعيفة بالنسبة إليه. فالمدارس المهنية قليلة العدد، وهي لا تحتل في نظر الحكومة والرأي العام مقامها اللائق، كأنها وقف على الفقراء المحتاجين أو الذين يلفظهم التعليم النظري. ونتيجة لهذا كله تجد البلاد نفسها مفتقرة إلى المهنيين المدربين على المساهمة في الأعمال الإنشائية الإنتاجية، بينما هي تعج بالشبان الساعين إلى الوظائف غير المؤهلين للإنتاج المنمي موارد البلاد المحقق إمكاناتها.

وكذلك الأمر في التعليم الجامعي. ان نتاج الجامعات في البلاد العربية غير متفق مع ما تحتاج إليه البلاد من إنماء وتنظيم. فالمهندسون والكيميائيون والزراعيون والمختصون بعلم طبقات الأرض والتعدين أقل من الأطباء والمحامين. ولهذا كانت مساهمة جامعيينا في الإنماء الاقتصادي دون المطلوب في هذه المرحلة من حياتنا التي ندعو فيها لتفجير مواردنا واستغلال إمكاناتنا إلى أبعد حد ممكن. ونكاد نقتصر في سد حاجاتنا إلى التنظيم على تخريج الحقوقيين، بحيث أصبحت شهادة الحقوق عندنا السبيل الرئيسي لوظائف الحكومة ولكثير من الأعمال الحرة. أين المختصون بالاقتصاد والمالية والتجارة الذين يعتمد عليهم في تنظيم هذه النواحي الهامة من حياتنا؟ أين الذين انكبوا على العلوم الاجتماعية ليوضحوا لنا مشاكل الأسرة والعامل والفلاح والفئات الثائرة على المجتمع، ويرسموا لنا طرق حلها؟ بل أين الذين انصرفوا إلى دراسة شؤون التربية نفسها، ليعمدوا إلى تنظيمها على ضوء أحدث نتائج العلم والاختبار؟ الحق ان تعليمنا الجامعي مقصر ـ كالتعليمين الابتدائي والثانوي ـ في سد حاجة الأمة إلى الإنماء الاقتصادي، ورفع مستوى معيشة الشعب، ومقصر كذلك في ما يرجى منه، دون ذينك التعليمين، من توفر الاختصاصيين المؤهلين للقيام بشؤون التنظيم في شتى نواحي حياتنا.

لقد ذكرنا ان من الحاجات الرئيسية للمجتمع العربي الحاضر توثيق عرى تضامنه وصهر نزعاته المتباينة في بوتقة واحدة. والناظر في أمر التربية العربية يرى انها استهدفت هذه الغاية. غير انها سلكت طريقاً بعيدة معوجة لم توصل إليها، وأدّت بالوقت نفسه إلى مساوىء تربوية واجتماعية خطيرة. هذه الطريق هي المركزية الشديدة في الإدارة، ووحدة البرامج، وسيطرة الدولة على الامتحانات والكتب الدراسية وسواها من شؤون التعليم، والسبل المماثلة التي يعتقد خطأ انها تحقق الوحدة القومية. أجل ان من حق الدولة، بل من واجبها، أن تتأكد ان المعاهد العلمية تعنى العناية الكافية بلغة البلاد وتاريخها ودراسة أحوالها الحاضرة، كي لا يصبح أبناؤها غرباء في وطنهم. وكذلك من حقها ـ بل من واجبها ـ ان تسهر على أن تكون الكتب التي توضع بين أيدي النشء موافقة للأهداف الوطنية عاملة على بعث الروح القومية وتقوية رابطتها. ولكني لا أرى ان توحيد البرامج هو وحده الذي يؤدي إلى هذه الغاية.

إن تعزيز الوحدة القومية بالتربية له سبيل رئيسية واحدة، هي المعلم. المعلم هو نقطة الانطلاق وخاتمة المطاف. وشخصيته أقوى عامل فعال في نفس الطالب. فقد ننظم أفضل المناهج، ونحرص على ايجاد أحسن الكتب التدريسية ونبقى دون الوحدة القومية المرجوة إذا كان معلمونا ضعاف الأخلاق والقومية، مختلفي المنازع والأهواء. وبالعكس إنا بالغو هذه الوحدة عن طريق التربية إذا أحسنا اختيار المعلم وجهزناه تجهيزاً صحيحاً علمياً وخلقياً وقومياً، حتى لو ظلت مناهجنا خاطئة وكتبنا فاسدة. فإلى العناية بالمعلم: بحسن اختياره، بصحة تدريبه، بتنمية روح المسؤولية فيه، ببعث روحه القومية، بتعزيز شأنه في المجتمع ــ إلى هذا يجب أن تتجه أنظارنا لإدراك غايتنا في التوحيد القومي بل كل غاية من غايات التربية.

أما الطريق التي سلكناها فقد أدت كما قلت إلى مساوىء جمة نعرفها جميعاً، وأكتفي منها بما يلي:

أولاً: طغيان سلطان الدولة على شؤون التعليم، مما يخفف اهتمام الشعب وحرصه على المساهمة بهذه الشؤون، ويولد عنده فكرة خاطئة هي ان المدرسة جزء من جهاز الدولة لا خلية من خلايا المجتمع.

ثانياً: طغيان المركزية في الدولة ذاتها بحيث ان السلطات المحلية تفقد روح المبادرة، وتصبح مجرد آلات خاضعة للمركز، تتحرك بحركته وتقف بوقوفه.

ثالثاً: تعرض سياسة التعليم، ونظمه، ومؤسساته للتغيير والتبديل بتقلب الحكومات، وبذلك تفقد هذه السياسة صفة الاستقرار والتقدم الذاتي على ممر الأيام.

رابعاً: اضعاف روح الابتكار في المدارس، واحجامها عن انتهاج طرق تربوية جديدة واستنباط الوسائل والأساليب التعليمية الجديدة واختيارالأصلح منها.

خامساً: انصراف الطلاب إلى الحفظ وتلقن المعلومات وحشو الدماغ استعداداً للامتحان، بدلاً من تنمية قواهم العقلية ومداركهم الفكرية.

سادساً: قصر الاهتمام في التربية على الناحية العقلية من شخصية الطالب، دون الناحيتين الخلقية والروحية.

سابعاً: انتشار الاعتقاد ان عناصر التربية هي: البرنامج والكتاب، والامتحان، مع أن العنصرين الأساسيين هما الأستاذ والطالب. إن التربية الحقيقية هي اتصال شخصية بشخصية، شخصية فاعلة مكونة بشخصية منفعلة متكونة، وليست اتباع برنامج أو حفظ مواد أو اجتياز امتحان، أو هذه الثلاثة معاً.

مما سبق يتبين مقدار نجاح التربية العربية أو اخفاقها في توفية الحاجات الأساسية الأربع الأولى للمجتمع العربي: وهي مكافحة الجهل، وتنمية الموارد، وتنظيم الحكم والاجتماع، وتحقيق الوحدة القومية. وإذا كانت تربيتنا قد أصابت شيئاً من النجاح في هذه المواطن، فإنها أخفقت في تذليل الحاجات الأربع الباقية، وهي تنمية إحساس النشء بالخطر المحدق بأمته، والتوفيق بين التراث القديم والمدنية الحديثة، وتكوين العقيدة القومية الشاملة وتخطيط سبلها، وإنشاء قادة الأمة في ميادين الفكر والعمل. والأسباب المؤدية لهذا الاخفاق هي نفسها التي أشرنا إليها، وأهمها آلية التعليم منهاجاً وادارة، وتوجهه إلى التلقين والحفظ، وإهماله النواحي الخلقية والروحية من شخصية الطالب، وعدم العناية الكافية بتدريب المعلم. وبذا يخرج الطالب ولم يتعرف من دراسته إلى أحوال أمته، ولم يحس بأزمتها العميقة، ولم يدرب على التقشف والتضحية وتحمل التبعة ليحيا الحياة الصادقة التي يتطلبها موقف أمته الخطر. وبذا أيضاً تقصر تربيتنا عن تكوين الفضائل وتنشئة الشخصية الفردية والاجتماعية الضرورية للصراع العنيف الذي ستجابهه الأمة خارجياً وداخلياً والذي عليه يتوقف بقاؤها وتقدمها وازدهارها.

أما فيما يتعلق بالتوفيق بين التراث القديم والمدنية الحديثة، وتكوين العقيدة القومية الشاملة وتخطيط الجهاد القومي، فإنهما مرهونان بالحاجة الأخيرة والأهم، وهي تنشئة القادة. فإذا توفقت تربيتنا إلى اخراج القادة الصالحين، تولى هؤلاء هاتين المهمتين الخطيرتين، وأخذوا على عاتقهم المهام القومية الأخرى في التربية وسواها من الحقول. على أن تربيتنا الحاضرة ـ وهنا أقصد بالتخصيص التربية الجامعية ـ ليست موجهة لتنشئة القادة وتكوينهم. فالطابع التدريبي المهني لا يزال غالباً عليها، وهي خاضعة، بدرجات متفاوتة، للآلية الحكومية التي تسلب التربية كثيراً من محتواها الذاتي والإنساني. كما انها تعمل الآن في سبيل الكمية فلا تعنى العناية اللازمة بالكيفية، ولا تبذل الجهد المطلوب لتنمية الابتكار الشخصي، والاستقلال الفكري، والمقدرة على التتبع والبحث، والفضائل الخلقية والروحية التي يجب أن يتحلى بها القادة. إن أوضاع تربيتنا الجامعية، الذاتية والظرفية، تجعلها تتوجه إلى إنتاج وسطي وافر لا إلى إنتاج ممتاز مختار. فلا بدع ألا تخرج لنا القادة الصالحين ولا تولد لنا الزعامة المطلوبة.

ولا بد لي من الاشارة هنا إلى الدور البارز الذي تلعبه كليات الآداب والعلوم في تنشئة قادة المجتمع، في الميدان الفكري خاصة. فمع أن هذه التنشئة ليست مقصورة عليها وان للكليات المهنية حصتها وأثرها في هذا العمل الخطير، لا ريب ان كليات الآداب والعلوم هي المعاهد التي فيها تعالج المشاكل الإنسانية الأصيلة، وتوضح الفكر والمبادىء العامة التي عليها يرتكز كل بحث أو استقصاء. فيها يدرب الطلاب على التأمل، وعلى

مجابهة قضايا العقل والروح، وعلى استكشاف المنابع الأولى لحياة المجتمع والمثل العليا لنهضته ورقيه، وعلى التمييز بين القيم واحترام أرفعها وأعظمها شأناً. فهي بهذا الوصف لب الجامعة، وازدهارها ضروري لتغذية الكليات الأخرى كي لا يكون متخرجو هذه الكليات مهنيين فحسب، بل مثقفين ثقافة عامة بكل ما في الكلمة من معنى شامل عميق. كما أنها، كما قلنا، مدعوة قبل سواها لصنع قادة الفكر، وما أحوج المجتمع إليهم، خصوصاً إذا كان كمجتمعنا على مفترق الطرق، وفي غمرة أزمة كيانية يتوقف عليها كنه وجوده.

— ٥ —

والآن، بعد أن استعرضنا التربية العربية الحاضرة، وقدرنا نتائجها، وبينّا جهد المستطاع حدود نجاحها واخفاقها، بقي علينا أن نرسم بايجاز كلي السبل التي يجب أن تتبعها تربيتنا والشروط التي يقتضي أن تستوفيها لتقوم بمهمتها في المجتمع على الوجه الصحيح. هذه السبل والشروط هي:

أولاً: حماية الجهد التربوي من أهواء السياسة، وهي الداء الوبيل الذي يجعل التربية عرضة للتبديل وغذاء للأطماع والمصالح. والتربية أقدس من أن تكون وسيلة لأغراض شخصية أو حزبية، أو أي غرض آخر غير اكتشاف الحق وتنمية الشخصية الإنسانية. فعلى رجال السياسة أن يرعوا لهذا الميدان المقدس حرمته، وعلى رجال التربية أن يبرهنوا على أنهم أهل لهذه الحرمة وأنهم حريصون على صيانتها، وعلى الرأي العام اليقظ المستنير أن يسهر على هذه الصيانة ويكون لها الحارس الأمين.

ثانياً: تخفيف وطأة المركزية على التعليم، وذلك بإشراك السلطات المحلية الحكومية بنفقات التعليم العام وإدارته، وتشجيع الأهلين على إنشاء المدارس ومكافحة الأمية شرط أن يخضعوا في هذا لاشراف الدولة ومراقبتها، وتوزيع المسؤولية في ادارات المعارف المركزية، وإثارة روح المبادرة والإنتاج الشخصي والابتكار عند جميع المعنيين بهذه الشؤون.

ثالثاً: تعزيز الأجهزة الفنية في إدارات المعارف. ان الحكومات بأخذها على عاتقها هذا القسط الوافر من شؤون التربية حرية بأن تعد له عدته وتهيىء أسبابه. وفي مقدمة هذه الأسباب الأشخاص المختصون بهذا العلم. فلم يعد بالإمكان في هذا العصر الذي غدت فيه التربية علماً من أدق العلوم وأسرعها تقدماً ان تسلم هذه الشؤون الفنية إلى أي موظف كان، وأن تطغى عليها الروح الوظيفية الروتينية بل يجب أن تكون في أيدي المختصين بها، المتتبعين لأبحاثها، القائمين هم أنفسهم بأبحاثهم وتحرياتهم الخاصة كل في موضوعه.

رابعاً: تعزيز التعليم المهني في المرحلتين الابتدائية والثانوية. أما في الجامعة فإيثار التعليم المهني الإنتاجي (الهندسة، الزراعة، التجارة) على سواه من أنواع التعليم المهني (الحقوق وما شابه). وقد بينت أهمية ذلك في حفظ موارد البلاد وتنميتها.

خامساً: تعزيز دور المعلمين ورفع شأن المعلم. وليسمح لي أن أردد هنا مجدداً أن المعلم هو نقطة الارتكاز في أي إصلاح تربوي، وانه هو ـ لا البرنامج، ولا الكتاب ولا الامتحان، ولا الموظف المسؤول ـ العامل الأول في أي جهد أو تقدم في هذا المضمار. وليسمح لي أيضاً أن أناشد كل من له اتصال بهذه الشؤون، وأناشد المعلمين أنفسهم، أن نتعاون جميعاً لنعيد لهذا اللفظ ـ المعلم ـ حرمته وقداسته وما ينطوي عليه من بذل وإرشاد ورعاية عقلية وخلقية وروحية.

سادساً: توسيع البعثات العلمية ودعمها. إذ اننا لم نبلغ بعد في البلاد العربية الحد الذي نستغني به عن علم الغرب وثقافته، بل نحن في مرحلتنا الإنشائية هذه أحوج ما نكون إليهما. ومن الضروري أن تظل صلتنا العلمية بالغرب مستمرة ناشطة، وأن يسهل لشبابنا النابهين الاغتراف من معينه والاختمار في جوه.

سابعاً: صوغ برامج التعليم على ضوء حاجات البلاد. وتحقيق هذا يتوقف على الاعتقاد ان التعليم اعداد لحياة معينة محددة الظروف، متلائمة مع الحياة الإنسانية الأصيلة، ويقتضي عقلية متطورة تسعى إلى سبر غور المجتمع وتتبع اتجاهاته وتحرص على أن تظل برامج التعليم منسجمة مع الحاجات الأساسية التي تدل عليها هذه الحاجات.

ثامناً: تغليب مفهوم التعليم على مفهوم التلقين والحفظ. فالتعليم جهد فعلي يتضمن الاكتساب الذاتي لا مجرد التلقي من الغير كما هي الحال في التلقين، ويؤدي إلى تنمية المدارك الفكرية، لا الذاكرة وحفظ المعلومات فحسب. وتلك صفات أساسية نرجو أن نولدها في الشخصية العربية المرجوة.

تاسعاً: تغليب مفهوم التربية على مفهوم التعليم. فالتعليم ضيق النطاق ومقصور على ناحية واحدة من الشخصية الإنسانية، بينما ان التربية تتناول الشخصية بكاملها، وتسعى إلى تنميتها تنمية متزنة، تشمل الصفات والمزايا الخلقية والروحية بالإضافة إلى الصفات العقلية وبالانسجام وإيّاها.

عاشراً: توجيه التربية الجامعية إلى تكوين قادة المجتمع. وقد ذكرت خطورة هذا المعنى الأرفع من معاني التربية الجامعية، الذي يسمو بالجامعة عن مجرد التدريب المهني إلى مستوى المهمة الخطيرة التي قامت بها خلال التاريخ، مهمة صنع الرجال وتكوين القادة.

هكذا نعود، بعد اختتامنا مطافنا بالتربية العربية، إلى المبدأ الذي انطلقنا منه في مطلع هذا البحث، وهو أن مفهوم التربية العربية لا يمكن أن يفصل عن المفهوم الأساسي للتربية مهما اختلفت الظروف والأمكنة والشعوب، ألا وهو تنمية الشخصية الإنسانية وتحررها وتكاملها واكتسابها بهذا كله كرامتها الذاتية. ان التربية في العالم أجمع، ومن ضمنها التربية العربية، تتعرض اليوم لمنافسات شديدة وأخطار جسيمة. فبعد أن كان المعلم في الماضي هو العامل المؤثر الأكبر في حياة الطالب خلال دراسته، إذا به اليوم يجد بجانبه الزعيم السياسي والمفكر العقائدي والآمر الحزبي والصحافي والمذيع وسواهم، ينازعونه النفوذ على عقل الطالب ونفسه. في هذه الحال يصعب عمل المربين، وتتسع تبعته وتزداد خطورته. ولا أمل لهم بالقيام بهذه التبعة على الوجه الصحيح إلا إذا ركزوا أصولهم في المعاني الأساسية للتربية، المعاني التي جلاها اختبار العصور، وأبرزها العلم المتطور المتقدم. هذه المعاني هي التي تصل بين التربية والشخصية الإنسانية وتجعل التربية العامل الأساسي في تفتح هذه الشخصية واكتمالها، وبالتالي في تفتح المجتمع واكتماله.

إنا نبغي بناء مجتمع عربي جديد، فلنركز أصوله في القيم الإنسانية الأصيلة، مدعومة بقيمنا القومية التي جلاها ماضينا وفرضها حاضرنا ومستقبلنا.

لقد قال أحدهم: «ان الحضارة سباق بين التربية والدمار». فهل يقدّر لنا أن تكون تربيتنا العربية سباقة، تصون مجتمعنا من الدمار وتبعثه مجتمعاً عربياً جديداً محققاً لأخلص معاني الحضارة وأرقاها؟

هو ذا جوهر التحدي الذي تجابهه التربية العربية في موقفها، وموقفنا، التاريخي الحاضر.

العرب والثقافة الحديثة

٣٣٣/٣

ـ ١ ـ

إن المتتبع لأحوالنا في الشرق العربي ليدرك دون كبير عناء ان أهم ما يشغلنا في هذه المرحلة من حياتنا هو علاقتنا بالبلدان المتميزة بالمدنية الحديثة، المنقسمة على ذاتها إلى غرب وشرق، المندفعة عبر حدودها بقوة تكاد لا تقاوَم لبسط نفوذها على العالم أجمع. فما أكثر ما نتحدث ونتجادل ونتنازع في صلتنا بهذه أو تلك من الدول الكبرى وفي أطماعها في بلادنا، وفي كيفية التحرر من سلطتها، بل ان حياتنا بكاملها تكاد تكون، منذ مطلع نهضتنا في القرن الماضي، متسمة بهذا الطابع، طابع السعي إلى التحرر من النير الأجنبي ودرء الأخطار التي ينزلها بنا.

على أن أكثر اهتمامنا بهذا الأجنبي ـ على اختلاف ألوانه ومصادره ـ لا يزال على الصعيد السياسي. ومع أن لهذا الصعيد أهميته وخطره، فإن من الواجب علينا، إذا أردنا فعلاً ادراك كنه العالم المتدفق علينا بجيوشه وآلاته ونظمه وأحكامه، أن ننفذ إلى ما وراء السياسة والاقتصاد، إلى الدوافع الأولى التي تحرك هذا العالم وتكيّف حياته بكاملها.

هذا الفهم الصحيح لا يكون إلا على أساس الثقافة والمدنية. فالثقافة والمدنية هما الأصل الذي منه تتفرع جميع مظاهر الحياة في أي مجتمع من المجتمعات. ومشاكلنا في المجتمع العربي هي، في آخر الأمر، مشاكل ثقافية ومدنية: عنها تصدر جميع المشاكل الأخرى من سياسية واقتصادية واجتماعية. وكذلك علاقاتنا بالعالم الخارجي، وتفاعلنا وإياه، وأثره فينا، وخطره علينا. ولو أردت أن أدل على هذا بمثل واحد قاطع لقلت إن نكبة فلسطين ما كانت لتنزل بنا لو كنا نمثل في حياتنا، وفي علاقتنا بالغرب والشرق، غير ما نمثل في الوقت الحاضر من مدنية ومن ثقافة.

من هنا يبدو خطر الموضوع الذي يدور عليه هذا البحث، والذي أتهيبه كل التهيب، لأن في تفاعلنا والثقافة الحديثة جوهر حياتنا، ولب مشاكلنا، ومصدر ما يحمله لنا المستقبل من خير وشر، وسعادة وشقاء.

— ٢ —

ومن الواضح أنّا إذا أردنا أن ندرك موقفنا من الثقافة الحديثة، وموقفها منا، وجب علينا، بادىء ذي بدء، أن نحيط بمقومات هذه الثقافة. وليس هذا بالأمر السهل، بالنظر لغنى هذه الثقافة، وتعدد مظاهرها، وتعقّد عناصرها، وما تنطوي عليه من وحدة وتضاد، واتجاهات يصعب حصرها وتقييدها. ولذا كان لا بد، في هذا الحديث الموجز، من كثير من التبسيط والتعميم، أرجو أن لا يأتي مخلاً بالأساس، مخطئاً للجوهر.

ان المحك الأخير لأية ثقافة من الثقافات، أي ما يميزها عن سواها وما يحكم به لها أو عليها، هو نظرتها إلى الإنسان. في هذه النظرة تلخص صفاتها الأساسية المنبثة في مظاهر إنتاجها المختلفة من علم، وفن، وفلسفة، وسواها. ولذا، عندما نقارن الثقافات ونقابلها، يجدر بنا أن نتعدى المظاهر الجزئية المتعددة إلى الباطن الذي يوحد هذه المظاهر، ويسبغ عليها معناها، ويكوّن لها خصائصها وميزاتها، ألا وهو مفهومها للإنسان وحكمها عليه.

إن الثقافة الحديثة التي يتصف بها العالم اليوم لها جذور عميقة تمتد إلى أقدم العصور وتتصل بثقافات أخرى عديدة. ولكن انطلاقها في الوجهة التي اتبعتها في الأعصر الأخيرة حدث في الانبعاث الأوروبي، الذي جاء ثورة على ثقافة القرون الوسطى وتتمة لها. لقد تضمنت هذه الثورة نظرة جديدة إلى الإنسان، تعود إلى النظرة الاغريقية، ولكنها تتقدم عنها بفضل الاختبارات العميقة التي كسبها العقل والنفس خلال القرون الوسطى. تقوم هذه النظرة على الايمان بالإنسان وبمقدرته على ادراك الحقيقة وبلوغ الخير والسعادة في هذا العالم. ففي حين كانت ثقافة القرون الوسطى، المطبوعة بالمسيحية أو بالإسلام، تدفع البشر إلى التطلع إلى العالم الآخر، عالم الخير والسعادة والكمال، وتزهدهم بهذا العالم الأرضي. عالم الشر والشقاء والزوال، جاءت الثقافة التي انبعثت في أوائل العصور الحديثة توجههم إلى الأرض، وتدفعهم إلى اكتشاف مجاهلها والوقوف على أسرارها، وتقوي ايمانهم بالإنسان وبقدرته على أن يضمن لنفسه، بالاكتشاف والسيطرة على قوى الطبيعة، الغنى والسعادة والتقدم المستمر.

وكان سلاح أبناء القرون الوسطى الايمان، الايمان بالكلام المنزل والتعاليم الموحى بها. اما العقل فمداه محدود لا يتعداه، وأهم وظيفة له هي الدفاع عن صحة الوحي

وصدق المنزل. فلما جاءت النهضة أو الانبعاث انفلت العقل من قيوده واكتسب ايماناً مطلقاً بذاته، فغدا أقوى سلاح يجابه به الإنسان قوى الطبيعة وحوادث الدهر دون تهيب أو تردد. وبكلمة أخرى: انقلب الايمان البشري بوجه عام من ايمان بالله وبالعالم السماوي، إلى ايمان بالطبيعة وبالإنسان القادر بعقله على التسلط عليها واستغلالها لخيره وسعادته.

وصاحب تحرر العقل تحرر النفس، فاستعادت هذه ثقتها بذاتها وانطلقت تعبر عما يجيش بها من خوالج وأحاسيس، وترى الخير كل الخير في هذا التعبير الطليق، وفي ارتياد أجواء الخيال، والسعي إلى مواطن الجمال انى كانت، دون اعتبار للتقاليد أو للشعور الديني الذي كان متغلباً في القرون الوسطى، والذي كان يقـيّد هذا التعبير ضمن حدود ووجوه معينة.

هذا الإيمان الجديد بالإنسان، القائم على تحرر العقل والنفس، هو الباعث الأول للثقافة الحديثة، والدافع الرئيسي لما أنتجت من خير وشر: لمآثرها الجبارة وروائعها الخالدة، ولما يعتريها في الوقت الحاضر من ضعف واضطراب، وبالتالي للاضطراب والضعف اللذين جلبتهما للعالم الحديث.

أما مآثرها فظاهرة للعيان، لا تحتاج إلى دليل أو برهان، وهي تفيض علينا من كل صوب، وتبهرنا بفيضها وضخامتها ودقتها. ولعلي لا أعدو الصواب إذا أجملت أنواعها الرئيسية بما يلي:

أولاً: الإنتاج المادي الزاخر، سواء أكان باستخراج موارد الأرض، أو بالصناعة الآلية، أو بالبناء، أو بأي مظهر آخر من مظاهر العمران. فإن هذا الإنتاج يتزايد يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، بفعل الوسائل المتجددة التي تستنبط لتوفير كميته وتحسين كيفيته. ولو استطاع الإنسان الحديث أن يحسن استعمال هذا الإنتاج ووسائله، ويوجهها إلى الخير والبناء، لكفل للملايين المنتشرة في اصقاع المعمور مستوى من العيش والرخاء لم يرقَ إليه الخيال في سالف الأزمان، ولضمن لهم الطمأنينة والاستقرار، بدلاً من هذه الأزمات التي تجتاحهم والتي تكاد تقضي عليهم وعلى مدنيتهم.

ثانياً: درء أخطار الطبيعة والتغلب عليها. فلقد أصابت الثقافة الحديثة في هذا الميدان مثل النجاح الذي أصابته في استغلال قوى الطبيعة وتفجير مواردها. نرى ذلك في مقدرة الإنسان الحديث على مجابهة ثورات الطبيعة الجامحة وغضباتها المدمرة وعلى تقييد أثرها وتخفيف ضررها، وفي اكتشافاته لأسباب العلل والأمراض التي تنتابه وضبطه إياها وتسلطه عليها. وها ان الدلائل تتضافر منبئة كل يوم بنصر جديد يحرزه المجتمع

الحديث في معالجة الأمراض، وتحسين الصحة البشرية، وإطالة الحياة، ومضاعفة الإمكانات الحيوية التي يتمتع بها الإنسان.

ثالثاً: تقريب الأبعاد واختصار المسافات. لقد تمكن الإنسان الحديث بفهمه المتزايد لأسرار الطبيعة أن يخترق الحواجز التي كانت تقف في وجهه، وان يسود اليابسة والبحار والفضاء، فيجوزها بسرعة لم يكن يحلم بها الإنسان القديم، ويقرب أصقاع العالم بعضها من بعض، بل ان يوحد العالم من الوجهة الطبيعية والمادية، وإن لم يستطع بعد توحيده من الوجهة الاجتماعية البشرية.

رابعاً: لقد رافق تقلص الأرض وتقارب حدودها، اتساع العالم ـ بل العوالم ـ التي يستطيع الإنسان الحديث أن يجول فيها ويضبطها بعلمه وفكره. فالكرة الأرضية التي كانت عند الأقدمين مركز الكون، لم تعد في نظر الثقافة الحديثة سوى كوكب صغير جداً بين ملايين الكواكب والنجوم والأجرام السابحة في الفضاء اللامتناهي، ومن أقل هذه الأجسام السماوية حجماً وعمراً وتألقاً وأهمية من الوجهة الطبيعية. وفي هذا ما فيه من قلب للأوضاع والموازين، ومن تبديل في العالم الحقيقي الذي يحيا فيه الإنسان.

خامساً: من مآثر الثقافة الحديثة ما جلبته من تنظيم للحياة الاجتماعية يتسع نطاقه وتتوفر دقته ويزداد تعقده يوماً بعد يوم. فعلاقة الإنسان بالإنسان، بعد أن كانت نتيجة الشعور والمصلحة والتقليد فحسب، أخذت تخضع لأنظمة وقوانين يستنبطها الإنسان بالاختبار والمعرفة المحققة، فإذا الأسرة والمدرسة والمعمل والدولة وسواها من مؤسسات المجتمع تتفتح للعلم المنظم، وإذا المساهمة في أي منها تتطلب درجة متزايدة من الفهم والادراك والتملك من فنون التنظيم الاجتماعي. ولا شك في ان هذه الدقة وهذا التشابك والتعقد هما من أهم مزايا المجتمع الحاضر، وأنهما إلى حد بعيد نتيجة الثقافة الحديثة وتطور العقل الحديث.

سادساً: ومما يتصف به المجتمع الحديث أيضاً الجهد المستمر لتخفيف الفوارق بين طبقات المجتمع، ولتعميم الإنتاج المادي ووسائل الحياة على أكبر عدد ممكن من أبنائه وتيسير الفرص للجميع على السواء. نرى هذا في الأنظمة الاجتماعية الحديثة على اختلافها، ونلاحظه في التطورات التي تجتاح شتى بلدان العالم، وهو يقوى ويعم يوماً بعد يوم، بل يكاد يكون محور النشاط الاجتماعي البشري في هذا العصر.

هذا التعميم المتزايد للخيرات وللفرص هو إلى حد كبير من نتائج الثقافة الحديثة، التي سلطت العقل على الحياة البشرية، فأظهرت حقوق الإنسان الأصيلة في العيش الصحيح، وفي النمو والتقدم، وفي الكرامة الإنسانية. بهذه الحقوق نادى المفكرون، وفي

سبيلها جاهد الفلاسفة والعلماء، فكان هؤلاء وأولئك وسواهم من حملة الثقافة الحديثة من صنَعة الثورات والنهضات الاجتماعية التي ضمنت للإنسان درجات متتابعة متكاملة من هذه الحقوق. ولا شك في أن انتشار الشعور بضرورة تحقيق الكرامة الإنسانية للأفراد وللشعوب، على اختلاف الأجناس والألوان والطبقات والمذاهب، هو من أهم ميزات العهد الحديث ومن أبرز مآثر ثقافته.

سابعاً: هذه المكاسب في الحقول العملية: في زيادة الإنتاج المادي وتعميمه، وفي درء أخطار الطبيعة وتقريب أبعادها، وفي تنظيم المجتمع الإنساني ـ هذه وسواها ما كانت لتتم للإنسان الحديث لولا الذخيرة النامية من المعرفة النظرية التي كوّنها بفضل جهده العقلي المترابط الحلقات، المتماسك الأجزاء، المتقدم أبداً إلى الأمام. ومن هنا كان الاهتمام العنيف الذي تبديه المؤسسات الحديثة ـ من ثقافية واقتصادية واجتماعية وسواها ـ في دعم البحث العلمي المجرد، وفي بذل الوسائل الوافرة لتعزيزه، فهو أهم مظهر للعقل المتفتح الساعي إلى الحقيقة، وأساس أي تقدم أو كسب في رفع مستوى الحياة البشرية. ولقد كوّن هذا البحث ثروة غزيرة من المعرفة النظرية هي بذاتها ذخر ثمين للإنسان ومفخرة من مفاخر عقله المنطلق وثقافته المتطورة، بغضّ النظر عن فائدتها العملية. ويكفينا ان نذكر الثورات العلمية المتتابعة كتلك التي تمثلها أسماء كوبرنك، وغاليلو، وديكارت، ونيوتن، وداروين، وثورة العلم الذري المعاصر لندرك أي أثر كان لهذا الجهد العلمي في تكوين العقل الحديث. وبديهي ان هذه الثورات وأمثالها ليست سوى خلاصة وإبراز لهذا الجهد الذي لا ينقطع لأن طبيعته تفرض المجالدة والتقدم والتكامل.

ثامناً: من مآثر الثقافة الحديثة الروائع الخالدة التي ولدتها النفس الإنسانية في محاولتها التعبير عن ذاتها والتسامي إلى قمم الاختبار الإنساني. وليس هنا مجال بسط هذه الروائع في شتى مناحي الاختبار والتعبير: في الرسم والتصوير والنحت والموسيقى والشعر والمسرح وسواها. فتاريخ الفنون والآداب الحديثة مليء بهذه الذخائر التي تمثل، بلا جدال، فتوحات باهرة، ومكاسب عزيزة للنفس الإنسانية في سعيها لاقتناص صور الجمال والتمتع بها والكشف عنها. وهذه الذخائر ما كانت لتتولد لولا انفلات النفس لتجوب أجواء الخيال ومعالم الجمال، ولتجاهد ذاتها في الاختبار الإنساني، ولتفصح عن هذا كله بحرية وانطلاق.

تاسعاً وأخيراً: جهدت الثقافة الحديثة، المتمثلة بالعقل المنطلق، في الغوص على القضايا الكيانية الأخيرة التي ينطوي عليها الكون والحياة وما وراء الكون والحياة. فكان من أثر ذلك تساؤلات أساسية عميقة، ونتاج فلسفي ضخم، وثمار ايجابية في حقلي الأخلاق والدين، نظراً وعملاً. وقد انتشرت هذه الثمار والنتائج انتشاراً أوسع مما كان

عليه الحال في الماضي، ولكن قيمتها الأساسية لم تفق قيمة مثيلاتها في الثقافتين القديمة والمتوسطة، ولم تسمُ الثقافة الحديثة في هذا الميدان عما أحرزته وحققته تانك الثقافتان.

ومما تجب الإشارة إليه ان هذه المظاهر المختلفة للثقافة الحديثة ليست مستقلة الواحدة منها عن الأخرى، بل هي مترابطة متفاعلة، فالعلم التطبيقي والبحث النظري مترافقان ومتماسكان في تقدمهما، وكذلك الفلسفة والفن والنزعة الدينية: فهي تؤلف بمجموعها كلاً نتيجته خلق معين، وتكوين شخصي، ونظرة إلى الوجود، تميز الإنسان المتسم بهذه الثقافة.

ـ ٣ ـ

هذا، بايجاز كلي وتبسيط يكاد يكون مخلاً بالحقيقة، هو مجمل المآثر ـ وما أعظمها وأجلها! ـ التي حققتها الثقافة الحديثة. على أن هذه الثقافة لم تتمكن، بالرغم من هذه النتائج الباهرة، من احراز تقدم محسوس في حل مشاكل الإنسان الأصيلة. فلا يزال الإنسان يتخبط في خضم من الحيرة والاضطراب والنزاع، بل انه يجابه، بنتيجة هذه الثقافة ذاتها، أخطاراً أشد هولاً وفظاعة من أخطار الماضي، ومدنيته بكاملها معرضة للخراب وللتردي في المهاوي السحيقة التي تحيط به من كل جانب. فما هي بعض عناصر الضعف وأسباب العلة في الثقافة الحديثة التي أدت إلى الوضع الخطير الحاضر؟؟

لقد انكب العقل الإنساني على الطبيعة، فآمن بها، وبهرته النتائج التي توصل إليها، فوقف أكثر مما يجب له أن يقف، عند الحس كسبيل للحقيقة، وعند المادة كمصدر للقوة والسعادة. ومع أنه تخطى هذا الموقف الأساسي في مراحل عدة من سيره، فإن أثره لا يزال بارزاً في كيانه، متحكماً في نظرته إلى الأشياء وفي مسلكه العملي. ولذا نراه مهتماً اهتماماً فائقاً بالإنتاج المادي، تتنافس فيه المؤسسات والدول والشعوب، فتجعله هدفها الأول، وتقيس تقدمها به وبمقدرتها على تنميته. ونرى الأفراد يتهافتون على مظاهر العيش المادية، يطلبون كل يوم المزيد والمستحدث منها، ويتباهون فيما بينهم بما يملكون ويجمعون من أنواعها، معلقين عليها آمالهم في الاستقرار والسعادة. ولكن الآمال تخيب، والأحلام تتبدد، وتظل هذه الأهداف بعيدة المنال، لا تكاد تبدو لأعين الأفراد والجماعات حتى تزول ويختفي أثرها.

لست من الذين يحتقرون المادة ويدعون إلى التجرد منها. بل أدرك حق الادراك أهمية تنمية الموارد الطبيعية وتيسير وسائل العيش الرفيه ومكافحة الفقر والمرض والخوف وسواها من العلل التي تشّل الحياة الإنسانية وتحط من كرامتها. ولكن المادة لا تعدو أن تكون وسيلة. ومع كونها وسيلة ضرورية، فإنها لا تصلح لأن تكون غاية الحياة وهدف

الوجود. ولا شك عندي في أن من أهم أسباب الاضطراب في المجتمع الحديث هذا الانكباب المتزايد على المادة ـ الوسيلة، وما يصاحبه من غموض في الغاية وانصراف عنها. والغاية مصدرها وميدانها العقل والنفس والروح.

ومن مظاهر الضعف ومباعث الاضطراب في الثقافة الحديثة ما ولدته في الإنسان من تكبر وتجبر جعلاه يعتقد أنه وحده سيد مصيره، ومكوّن حياته وتاريخه، وأنه يستطيع بجهده الخاص أن يوجد جنته على الأرض، فلا يحتاج إلى أن يتطلع إلى ما فوق هذه الأرض أو قبلها أو بعدها. فهو المحور الذي حوله يدور الكون، وهو الأول والآخر. من هنا كان الابتعاد عن الله، والانصراف عن الدين، وقلة الاكتراث بمآل هذه الحياة.

ولكن الحروب المدمرة التي خاضتها البشرية، والأزمات العاصفة التي تهزها، والأخطار الشديدة التي تحيط بها: كل هذا أخذ يضعف ثقة الإنسان المطلقة بذاته، ويثير في كيانه تساؤلات جديدة، فيعود به حيناً إلى حظيرة الدين والايمان بالله وبهدايته، ويطلقه حيناً آخر في طريق اليأس حيث لا معنى للحياة ولا غاية للوجود.

وخلاصة القول ان الثقافة الحديثة قد فتحت للإنسان مجالات واسعة وإمكانات لا تحد: مجالات وإمكانات للخير، وللشر. فمن ناحية يسرت له وسائل الحياة الحرة الكريمة بشكل أوسع مما كان يراوده في الماضي، ومن ناحية أخرى ضاعفت مقدرته على إنزال الضرر ونشر الخراب. فهو عالق بين الخير العميم والشر المحيق. وهذا سر الأزمة الأصيلة العنيفة التي يعانيها، والتي تجتازها ثقافته ومدنيته.

ـــ ٤ ـــ

والآن، لا بد من أن نتساءل: أين هم العرب من هذا كله، وما موقفهم من الثقافة الحديثة؟؟

إذا كانت الثقافة الحديثة تمثل العقل المؤمن بذاته، الواعي إمكاناته، المنتظم النامي، المتغلب على الوهم، المنطلق إلى الآفاق بحرية واعتزاز وفرح، فلا شك أننا لا نزال على عتبة هذه الثقافة لم نحتل دارها ولم نحمل شعارها.

وإذا كانت تعني العقل المنكب على الطبيعة يكتشف أسرارها، ويصد أخطارها، ويستخرج كنوزها، ويقرب أبعادها، في سبيل رفع مستوى الحياة وتهيئة الوسائل لتحقيق الحرية والكرامة، وإذا كانت تعني كذلك العقل المنصرف إلى معالجة مشاكل الإنسان، فرداً ومجموعاً، في كسب معاشه وفي تعلمه وتثقفه وفي إدارة مجتمعه وتنظيم علاقاته ـ فلا شك أيضاً في أننا على العتبة دون الدار.

وإذا كانت الثقافة الحديثة تتضمن المساهمة في الإنتاج العلمي الخالص، الصادر عن البحث المجرد، المتراكم، المتزايد بالمشاركة والتعاون عبر الحدود الجنسية واللغوية والقومية، وإذا كانت تنطوي على الإبداع في اقتناص صور الجمال والتعبير عن خوالج النفس: أدباً وتصويراً ونحتاً وموسيقى ومسرحاً، فلا شك في أننا لا نزال بعيدين عن تلك المساهمة وعن هذا الإبداع.

وإذا كانت الثقافة الحديثة تثير تساؤلات كيانية عن ذاتها، وعن العقل وحدوده وعن الإنسان ومصيره، فيصدر عن هذه التساؤلات نتاج خلاق في ميادين العقل والروح، ويقف الإنسان أمام نفسه وجهاً لوجه، ويدرك تأرجحه الخطر بين الخلاص والهلاك ــ إذا كانت الثقافة الحديثة قد بلغت هذا الطور، فلا شك في أنّا لا نزال دونه بمراحل وأطوار.

هي ذي مواردنا الطبيعية لا تزال في أكثرها بوراً أو تستغلها أيد أجنبية. الأراضي الزراعية الشاسعة، الثروة البترولية الغزيرة، الموقع الجغرافي الممتاز، العنصر البشري المتوفر ــ هذه كلها قابليات وإمكانات، لا تتحقق ولا نجني فوائدها إلا بقدر ما يتسلط عليها عقلنا المتطور فيحسن استغلالها وتنظيمها وتوجيهها لمصلحتنا وخيرنا.

ولذا فالمقياس الأول لحظّنا من الثقافة الحديثة هو مقدرتنا على الإنتاج المادي. وهذه المقدرة مرتبطة بما قد حققناه من تصنيع، ومن تكنيك. وللتصنيع مظاهره المختلفة كعدد المصانع والمعامل وأنواعها، وغزارة إنتاجها، ونسبة السكان الذين يكسبون عيشهم من الصناعة، ونسبة الذين قد تهيأوا تكنيكياً لمزاولة فنونها، ومقدار الدخل القومي وما إلى ذلك من المظاهر والمقاييس التي يتخذها علماء الاقتصاد والاجتماع أدلة للحكم على هذه الناحية من حياة المجتمعات البشرية. ومما لا جدال فيه اننا إذا اتخذنا أياً من هذه المقاييس، أو كلها مجتمعة، وجدنا أن المجتمع العربي متخلف عن موكب المجتمعات المتصنعة، المالكة زمام التكنيك، المتحكمة بمواردها وقوى طبيعتها بفعل تمكنها من هذا العنصر الهام من عناصر الثقافة الحديثة.

إن الآلة الحديثة يجب أن تكتسح المجتمع العربي كما اكتسحت الغرب في الثورة الصناعية وبعدها. والآلة التي أعني هنا هي آلة الإنتاج التي تحيي الثروة الدفينة لا آلة الاستهلاك والتمتع التي تبدد الثروة المحققة. ولكن الآلة لا تكفي إذا لم تسعفها اليد القادرة على إدارتها، والعقل الفاهم لأسرارها، بل هي بذاتها مظهر للعقل النافذ واليد المدربة. ومع أنها قد تستعار أو تستورد من الخارج، فإن هذه اليد وذلك العقل، لا يمكن أن يستوردا إلا بمقدار، ولا يصح لمجتمع يبغي السلامة أن يكون عالة على سواه: سواء أفي آلة الإنتاج ذاتها أم في العقل الذي يصنعها واليد التي تحركها.

وعلى هذا، فالوجه الأول من وجوه العقل الذي يجب تكوينه في المجتمع العربي هو الوجه التكنيكي. وأعني بذلك العقل المتسلط على قوى الطبيعة وعلى مظاهر الحياة وعلاقات المجتمع، العامل فيها توليداً وإنتاجاً وتنظيماً. هذا العقل ذو درجات ومستويات مختلفة تتراوح بينٍ ما يبدو في العامل المدرب الحاذق، وما يتمثل في المخترع القادر على الاستنباط وفي المنظم الرابط بين المظاهر والعلاقات. ومقدار الإنتاج المادي في مجتمع من المجتمعات يتوقف على ما حققه المجتمع من هذا العقل ــ كمية وكيفية ــ وبالتالي على نصيبه المكتسب من الثقافة الحديثة.

إن هذا العقل العملي التكنيكي هو الذي يوفر للمجتمع ــ بما يحصّل من إنتاج مادي ــ الوسائل الضرورية لرفع مستوى العيش ومكافحة العلل والادواء وتعزيز الكرامة الإنسانية بتحرير الفرد من الفقر والمرض والجهل وما إليها، وهو الذي يمكن المجتمع أيضاً من إنشاء مؤسساته وتنظيم علاقاته على ضوء المعرفة المحققة بالاختبار والعلم النافذ إلى أسرار الحياة الفردية والاجتماعية.

ولكن هذا العقل العملي ليس سوى وجه من وجوه العقل النامي الذي تمثله الثقافة الحديثة. ولا يتفتح ويثمر إلا إذا غذاه عقل نظري يسعى إلى الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها، يرتاد الآفاق ويتتبع المجهول، طالباً لذته في الكشف وحده، باحثاً منقباً ناظراً معللاً، متحرقاً إلى مشاركة ما يماثله، ناشراً حصيلة سعيه للجميع. لولا هذا السعي الخالص، وهذا البحث المجرد، وهذا التحرق إلى الحقيقة التي لا ترمي إلى نفع عملي أو فائدة مادية أو استغلال، لما نما العقل العملي الحديث، ولظل الإنسان يدور على نفسه في دائرة ضيقة من الادراك والإنتاج. وتاريخ المدنية الحديثة مليء بالأدلة والبراهين على أن الاختراعات العملية والتقدم التكنيكي والنهضات الصناعية ترتكز كلها على جهود العلماء المتعلقين بالنظر والتأمل، المنصرفين إلى البحث المنتظم المتكامل. ومهما يكن من أمر، فهذان الوجهان من العقل النامي المتفتح، وجهان متلازمان لا يتحقق الواحد منهما دون الآخر.

وإذا كان المجتمع العربي قد بدأ يتنبه بعض الشيء إلى أهمية التصنيع والتكنيك والخبرة العملية، ويسعى إلى توفير بعض وسائلها ومتطلباتها، فهو بعد غريب عن ميدان المعرفة النظرية الحرة المجردة، لم يدرك خطورتها ولم ينشىء الوسائل لتوليدها وتنميتها. أين هم العلماء العرب الذين يقفون في مصاف علماء العالم اليوم المتقدمين بالمعرفة في مجالاتها المختلفة العديدة؟ أين هي المؤسسات التي ترعى هذا النوع من البحث، وتجمع في أكنافها هؤلاء الساعين إلى الحقيقة؟ أين هي الحكومات أو الجماعات الخاصة، التي تقدر خطورة هذا السعي العقلي، لا من حيث أثره العلمي فحسب، بل من حيث انه مطلب من أعز المطالب الإنسانية وثمرة من أفضل ثمار الثقافة الحية، فتسعى إلى تهيئة سبله وتعزيز أركانه؟ بل أين هو الرأي العام المتنبه الذي يدفع السلطات الحكومية وسواها

إلى شيء من هذا؟ ألسنا نرى بعض النابهين من شبابنا، المتحرقين إلى هذا النوع من الجهد والحياة، يتلمسون طريقهم إلى الغرب، أو يبددون مواهبهم في سبل أخرى، فيخسر المجتمع قابليات لو عرف قدرها وشجعها لضمنت له نصيباً من هذا الإنتاج العلمي، وفخراً باقياً لا يعادله فخر؟

والعقل النامي، المتمثل في الثقافة الحديثة، عقل ينقد ذاته ويعرف حدوده. وقد بدأ يشعر على كل حال بنقائص سعيه وتبعثر جهوده، وبأنه لم يكفل للإنسان الاستقرار المرجو والسعادة المنشودة. وأخذت تبدو له مجدداً عوالم خارج العقل أو فوق العقل لا بد للإنسان من أن يرتادها ليسمو إلى غايته ويحقق كامل قواه. وقد ذكرنا أن العقل الحديث يمر بأزمة عنيفة، هي في أساس الأزمة الإنسانية الشاملة، فإذا خرج منها متمكناً من أصوله وتقليده، مدركاً لإمكاناته وحدوده، متغلباً على جبروته وكبره، متواضعاً أمام الله تعالى متعطشاً إلى رحمته ـ إذا تم له ذلك انفسحت له وللإنسانية مجالات لا حد لها للتقدم والرقي والابداع.

وبديهي أن العقل العربي الذي لم يتمثل بعد الثقافة الحديثة لا يحس بأزمتها هذه، ولم يبلغ الطور الذي نتحدث عنه. أما أزمته هو فناشئة عن ضعف نموه، واستمرار خضوعه للوهم وللهوى، وعجزه تجاه العقل الفاعل المتجسم في المجتمعات القوية التي تحيط به والتي تهدد كيانه والكيان العربي بكامله.

والثقافة الحديثة ليست فعلاً عقلياً فحسب، وإنما هي أيضاً مساهمة في ابداع الجمال وروعة التعبير عن خوالج النفس وأشواق الروح. في هذا الإبداع والتعبير تكشف النفس عن ذاتها لكل نفس، وتتصل الروح بكل روح: فليس من لغة سوى لغة الجمال، وليس من شعور إلا ما يصدر عن الكيان الأصيل الذي يضم كل إنسان. ولذا كان الإبداع الفني الصحيح ابداعاً إنسانياً عالمياً بما في هذا الوصف من أصالة وشمول.

لا جدال في أن الثقافة الحديثة قد أنتجت أدباء وفنانين عالميين بهذ الوصف. فإين نحن من هذا؟ أين الشعر العربي الذي ينشده غير العربي فيضطرب له؟ أين الإنتاج العربي العالمي في الرسم والنحت والموسيقى والمسرح؟ أين النفس العربية المصقولة بالإحساس الفني، المطهرة بناره، المتسامية إلى ذلك الابداع الذي به يقترب المخلوق من الخالق ويحاكيه؟ أين هذا كله، أو شيء منه؟

من الواضح إذن أن المجتمع العربي لا يزال كما قلنا على عتبة الثقافة الحديثة سواء من حيث تطور العقل، أو إبداع الجمال، أو تعميم الخير.

— ٥ —

قد يقال: إن هذا حكم قاسٍ على المجتمع العربي لا ينصفه ولا يؤديه حقه. فهذا المجتمع خضع قروناً لحكم أجنبي شل فعله وقلص حيويته، وان العقل فيه لم يتنبه إلا حديثاً، فيجب أن نفسح للزمن مجاله وللتطور مداه. وهو قول صحيح، ولكن الواقع هو هو مهما كانت أسبابه وعلله. وخير لنا ان نجابهه بصراحة وجرأة، وأن نبادر إلى معالجته بعزم وحسم، من أن نركن إلى المبررات، وندغدغ كبرنا بها، ونعلق أملنا على الزمن وعلى مجرد التطور. فنحن، كما قلنا، محاطون بمجتمعات قوية جبارة لها في مواردنا الغنية ومركزنا الممتاز مطامع أي مطامع، وتجبهنا اسرائيل المغتصبة التي أنشأت كيانها على العلم، ودعمته بالتنظيم، وجعلت لكل أمر من أمورها خطة وحساباً، ومتنت أصولها في الثقافة الحديثة، فلا نستطيع رد خطرها والقضاء عليها بوفرة العدد أو بالمواد الخام، وإنما بقوة محققة تفوق قوتها وتصدر مثلها عن الثقافة الحية الفاعلة. لقد قلت عقب النكبة وما زلت أقول: «ان ما أحرزه الصهيونيون من نصر ـ ولن ينكر هذا النصر إلا متغافل متعام ـ ليس مرده تفوق قوم على قوم بل تميز نظام على نظام... والنظام القائم على المدنية الحديثة لا يغلب إلا بنظام أوسع أخذاً لهذه المدنية وأوفر تسلحاً بقواها. والذهنية المتوثبة لن تقف أمامها ذهنية بدائية راكدة. فلنضع هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن نكون جادين في معركة فلسطين، معركة البقاء أو الزوال».

— ٦ —

إذا كانت هذه حالنا من الثقافة الحديثة، إذا كنا على عتبتها، فما السبيل إلى ولوج بابها وتنسّم عبيرها بحيث نصبح من أبنائها بدلاً من أن نظل غرباء عنها؟

السبيل إلى ذلك صعبة متشعبة تقتضي جهاداً مستمراً مضنياً، لعل من أهم متطلباته ومن أقوى أركانه ما يلي:

ـ التواضع أمام الحقيقة والجرأة في مجابهتها. فلقد تعودنا أن نخدع أنفسنا عن الواقع إما بالالتجاء إلى مجد غابر لا يجدي في الصراع القائم، واما بتضخيم مؤهلاتنا الحاضرة وتعظيمها. وإذا كان العرب على العموم يرتكبون خطأ الاستسلام إلى الماضي فيخدرون ويعجزون عن مجابهة الحاضر، فإن خطأ لبنان، بوجه خاص، هو استسلامه إلى بعض فكر وعقائد عن ماضيه وحاضره تشبع شهوته وترضي اعتزازه فتضعف عزيمته على الجهد المطلوب والسعي الحثيث الواجب. إني من أول المؤمنين برسالة لبنان في الانفتاح والتحرر وتقدير شؤون العقل والثقافة. ولكن بين وضعنا الحاضر في لبنان وبين ما ندعيه من رقي واشعاع بون أي بون. فإذا أراد لبنان أن يكون فعلاً موطن العقل الفاعل والثقافة الحية المولدة، وجب عليه أن يؤدي الثمن المطلوب جداً وجهداً وتضحية وتهيؤاً وانتظاماً. والذين يكتفون بمظاهر الثقافة الحاضرة ويتباهون بها لم يعرفوا فعل العقل الحقيقي،

وجوهر الابداع الفني والروحي. وإلى أن يساهم لبنان فعلاً في الحضارة ـ اختراعاً واكتشافاً وإنتاجاً أدبياً وفنياً عالمياً، وجهاداً روحياً إنسانياً ـ يظل دون ما يبغي بمراتب ودرجات. وخير لنا جميعاً أن نجابه واقعنا بصراحة، ونعرّي أنفسنا بجرأة، فهذا أدعى إلى التهيؤ والاستعداد لبذل الجهد ودفع الثمن. إن الحقيقة لا تمالىء ولا ترحم.

وبعد، إن تبعة اكتساب الثقافة الحديثة وتعزيزها تقع في الدرجة الأولى على القلة من أبناء المجتمع التي أحرزت هذه الثقافة وعرفت قدرها ونفذت إلى جوهرها. وأول دليل على وجود هذه القلة وأصالتها هو اخلاصها للقيم العقلية والروحية، وتجندها للرسالة التي تحمل. فإذا رأيت مثقفي مجتمعنا الحاضر يتهافتون على مصلحة، أو ينزعون إلى ارضاء شهوة، أو يتنافسون في جاه أو مركز، فاحكم على ثقافتهم بالزيف والفساد. فلا هم من خدمة العقل ولا من حملة الثقافة ـ قديمة كانت أم حديثة.

ـ الاخلاص، والسعي الحثيث، والتعاون بين خدمة الثقافة هي التي تشيع في المجتمع تقدير العمل العقلي والابداع الفني، وتنبه الرأي العام إلى ماهية الثقافة: إلى كونها لب الحياة، ومبرر وجود المجتمع، وإلى أن الدولة بل الأمة، إذا لم تجسد ثقافة حية فاعلة، فلا خير فيها ولا بقاء لها.

فإذا شاع هذا التقدير، بل هذا اليقين، بفضل جهد المثقفين وجهادهم، أصبح للدولة هدف ومعنى، وغدت أداة لخلق أمة مثقفة متمدنة مبدعة ـ أمة تستحق هذا الاسم، وارتفعت الدولة عن أن تكون ملتقى مصالح ومرتكز أهواء ونتيجة تلاعب قوى. ترى، أتحقق الدول العربية اليوم هذا الشرط؟ لا شك في أنها تبذل جهوداً متزايدة في نشر التعليم العام، وهو واجب ملح، ولكنها لا تقوم بما عليها من واجب في إنشاء القيادة العقلية والروحية التي تحمل أكبر عبء في تكوين العقل وتعميم فضائله وفي اطلاق القوى المبدعة في الأمة أفراداً ومجموعاً.

ان العلاقة بين السياسة بمفهومها الواسع الأصيل وبين الثقافة علاقة حية متفاعلة: كل منهما تؤثر في الأخرى وتتأثر بها. وكذا شأن سائر عوامل الحياة إذ تؤلف بمجموعها كلاً مترابطاً متكاملاً. ولقد تطورت حياة المجتمع بحيث أصبح للسياسة ـ بمعنى بناء الدولة أو الأمة ـ أبلغ الأثر في رعاية الثقافة ودعمها ونشرها. ولكن الشرط الأول هو أن تكون السياسة بهذا المعنى: أي أن لا تأتي نتيجة مصالح أفراد أو طوائف أو هيئات أو دول أجنبية، بل مظهراً لإرادة عازمة على بناء دولة وخلق أمة.

إذا توفرت لنا هذه السياسة ـ ولن تتوفر إلا على أنقاض النظم القائمة في الشرق العربي ـ استطاعت الدولة أن تساهم في تكوين العقل وبعث الابداع بشتى السبل

والوسائل. ومن أهم هذه الوسائل:

ـ استمرار الجهد، بل مضاعفته، في سبيل نشر التعليم العام أداء لحق المواطن الإنسان، وتعزيزاً لحريته وكرامته، وضماناً للوعي والمعرفة والخبرة التي يجب أن يتصف بها المجتمع على اختلاف طبقاته. هذا التنور العام هو مبعث كل إنتاج في المجتمع، ودعامة وحدته وتقدميته، ومصدر قابليته للمساهمة الحضارية.

ـ اكتشاف المواهب، وافساح المجال لها للنمو، وتشجيعها بشتى الأساليب، وذلك لأن الموهوبين هم خميرة المجتمع وطليعة موكبه، وهم الذين يلعبون الدور الأول في ابداع رسالته الحضارية وتخليد وجوده.

ـ دعم مواطن الثقافة ومراكزها ومؤسساتها: كالجامعات ومؤسسات البحث العلمي التطبيقي والحر، والجمعيات الأدبية، والهيئات الاختصاصية، والفرق الفنية، وعلى العموم كل جهد خالص فردي أو جماعي لتعزيز القيم العقلية والأدبية والجمالية والروحية ونشرها في المجتمع القومي أو الإنساني.

ـ ضمان حرية الفكر والمعتقد والقول بأوسع معانيها، لأن الحرية هي للعمل الثقافي كالهواء لا يستغني عنها بل يذوي ويختنق بدونها، ولأن تعميم الحرية الخارجية وكفالتها هما السبيل لإنماء الحرية الداخلية، حرية العقل والروح، حرية الانتظام والمسؤولية.

ـ تمتين الصلات بمراكز الثقافة العالمية أينما كانت، شرط أن تكون موقوفة على الثقافة الخالصة، والاستعداد للأخذ والاكتساب منها، لأن مجتمعنا لا يزال في طور الحاجة إلى الأخذ، ولا يتأهل للعطاء إلا بمقدار ما يأخذ ويتعلم ويستفيد.

هذه الوسائل العامة تنطوي على منهاج يمكن تفصيله وتحديد خطوطه وخططه في مجال أوسع من مجالنا في هذه الدراسة. ولكن شرطه المسبق هو أن يكون لدى النافذين في المجتمع ـ حكاماً كانوا أو قادة رأي أو عمل ـ تجند لرسالة وتعاون ومشاركة، وأن يكون أبناء المجتمع عموماً مستعدين لما يتطلبه هذا المنهاج من بذل وتضحية.

ولأضرب على ذلك مثلاً واحداً:

ان منهاجاً كهذا يقتضي موارد مالية تفوق بكثير ميزانيات حكوماتنا الحاضرة، كما يقتضي تحويل الكثير من نفقاتنا الحكومية عن السبل التي تعودنا صرفها فيها. فهل نحن مستعدون لتعديل أنظمة الضرائب تعديلاً جذرياً لتوفير الموارد، وهل نتغلب على

أنفسنا فنوجه هذه الموارد إلى الأهم قبل المهم وإلى المهم قبل الحقير التافه. إن هذا لا يتم في دول قائمة على المصلحة والشهوة والاستهتار، بل في دول صحيحة ذات قصد وإرادة، وغاية ومعنى. فما هي مسؤولية كل منا في إنشاء هذا وتحقيقه في مجتمعنا الحاضر؟ لو رجع كل منا إلى ذاته وجابهها بهذا السؤال جاداً مخلصاً لارتد ثائراً على نفسه متعجباً من القدر الذي ما يزال يسمح لنا بالبقاء.

— ٧ —

بقيت ملاحظة أخيرة:

قد يخيل للبعض اني في حديثي هذا عن الثقافة الحديثة قد رفعتها فوق قدرها وقدستها، وجعلتها غاية الغايات، ودعوت إلى الأخذ بها والاقتصار عليها، وأني قد أهملت ما في تراثنا العربي من قيم يجب الاحتفاظ بها واحياؤها ونشرها تحقيقاً لشخصيتنا وخدمة للثقافة والحضارة. والواقع اني حاولت تبيان ما في الثقافة الحديثة من قوة وضعف، وما أنتجت من مآثر وما يعتريها من نواقص، والأزمات العنيفة الحاسمة التي تخوضها في هذه المرحلة من تطورها. كما أني غير غافل عن القيم التي ينطوي عليها تراثنا. ولكني أؤمن بأن هذه القيم لا يمكن احياؤها إلا بقدر ما نجلوها بالعقل المتفتح المنتظم الناقد، وبقدر ما نكون قد اتقنا فنون النظر الكلي والتحليل والتعليل التي نستمدها اليوم من الثقافة الحديثة، وأننا لا نستطيع أن نضيف إلى هذه الثقافة ونكملها بتراثنا إلا بعد أن نفهمها ونتمثلها، وان العطاء والابداع ـ فيما إذا كنا نطمح إلى شيء من هذا ـ لا يكون إلا بقدر ما نتواضع أمام الحق ونفتح صدرنا للنور.

حتى لو لم نكن نطمح إلى إبداع أو عطاء، ولم نبغ أكثر من مجرد العيش والبقاء، فإنا بحاجة إلى هذه الثقافة لأنا نعيش في وسط مجتمعات طامعة متوسعة قائمة على القوة، وقوتها مستمدة من هذه الثقافة، فلا غنى لنا عن مجاراتها والتجهز بسلاحها بل التفوق عليها في هذا المضمار. هذه حقيقة يجب ألا نخجل من الاعتراف بها ولا نكف عن ترديدها لأنفسنا حتى لا يعود يراودنا أي ريب بها.

لنتصور مؤرخ المستقبل يحاول تسجيل هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا! اني أتخيله حائراً مدهوشاً من هذا الاستخفاف بالمصير الذي يسود تفكيرنا وسلوكنا، ومن هذا الاستسلام للعجز والفوضى في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى القوة والوحدة والنظام.

إن هذا الاستخفاف المسيطر علينا هو مصدر الكثير من عللنا. وهو بدوره نتيجة وضعنا الكياني الحاضر. ولئن جاز في أية ناحية من نواحي الحياة، فيجب أن يظل بعيداً

عن الثقافة. ذلك ان الثقافة وليدة العقل والروح. والعقل والروح أقدس ما في الشخصية الإنسانية. فلا يصح أن يتصدى المرء لهما إلا بمثل الشعور الذي يخالج نفس المتصوف المتجرد أو الكاهن المتعبد. وحذار وحذار أن يصبحا ملهاة لعابث أو مطية لطامع، إذ ما أشد ارتدادهما وما أعنف ثورتهما، وما أتعس الأمة التي تجر على نفسها هذه الثورة وذلك الارتداد.

ونحن إذ نحاول تحديد موقفنا الحاضر سواء من الثقافة الحديثة أو من تراثنا التليد خليقون بأن نقبل على ذلك بكل ما نملك من جد وتهيب، ومن ترفع وتجند، ومن طموح وايمان، ومن حرص على المصير. فإن فعلنا استمددنا خير الثقافة الحديثة، وأحيينا خير ما في تراثنا، وبنينا أمة تتجسد في حياتها قيم العقل والروح، أمة لها سهمها المثمر في الحضارة، ومعناها المضيء في الوجود.

إن أقل من هذا ـ أو غير هذا ـ ليس جديراً بأن يكون لنا مطلباً!

نحو ثقافة عربية أفضل

ـ ١ ـ

الثقافة ـ أية ثقافة ـ مظهر من مظاهر حياة المجتمع، لا تفهم إلا من ضمن هذه الحياة. ولذا كان لا بد لنا، إذا أردنا أن نتفهم ثقافتنا العربية الحاضرة حق الفهم، من أن ننظر إليها على ضوء واقع المجتمع العربي. وكذلك الأمر عندما نتصدى لرسم صورة الثقافة العربية المنشودة. فلا بد، في سبيل ذلك، من أن نتطلع إلى المجتمع العربي الأفضل الذي نريده.

على أني إذا أطلت الوقوف عند المجتمع ذاته، ونظرت إليه من مختلف نواحيه، لم أستطع أن أوفي الناحية الثقافية ـ وهي موضوع هذا المقال ـ حقها من البحث. ولذا سأجمل صفات المجتمع العربي المنشود بصفتين هما، في نظري، شاملتان أساسيتان.

أولاهما: انه مجتمع قادر على البقاء. فالمجتمع الإنساني الحاضر منقسم على ذاته، قد توصل بفضل الجهد العقلي المتتابع خلال العصور إلى تحقيق قدرة مادية هائلة. ولكن الاطماع والأهواء البشرية ظلت، في الأكثر، على ما كانت عليه. وهي اليوم تستخدم هذه القدرة المادية الفائقة في سبيل التحكم والاستئثار، تحكم أفراد وجماعات بأفراد وبجماعات أخرى: طبقات كانت هذه وتلك أم طوائف أم شعوباً. وغدت بعض المجتمعات في خطر، خطر استئثار المجتمعات الأقوى بمواردها، وتوجيه مقدراتها، واستغلالها لأغراض خارجة عن ذاتها. وقد يقوى هذا الخطر أحياناً فيصبح خطر زوالها كمجتمعات ذات صفات معينة وحقوق في الحياة الحرة الكريمة.

والمجتمع العربي الحاضر محاط بأخطار من هذه الأنواع المختلفة. فهو يعاني صنوفاً من الاستئثار والاستغلال تنزلها به مجتمعات أقوى منه مادياً وعقلياً، وهو معرّض بصفة

خاصة لأطماع الصهيونية المتحفزة التي اغتصبت جزءاً ثميناً من أرضه فأجلت أهله عنه وعمدت إلى إحكام قواعدها فيه، متطلعة إلى الأجزاء الأخرى بعين ملؤها الشهوة، ومعدة العُدد لاغتصابات جديدة في المستقبل القريب والبعيد. فمن ضرورات المجتمع العربي، إذا أراد أن يكون أصلح وأفضل، بل إذا رام مجرد البقاء ــ من أشد ضروراته أن يكون قادراً على حماية ذاته من هذه الأخطار، وأن يولد في نفسه المناعة المادية والمعنوية ليتّقي أي هجوم جديد، والقوة النضالية ليستعيد ما فقد من إرثه القومي ويتحرر من ضروب الاستغلال التي يخضع لها الآن.

ولكي يتمكن من حماية نفسه، وضمان بقائه يجب عليه أن يحسن استغلال موارده. وقد أنعم الله عليه بموارد غزيرة تتنافس المجتمعات الأقوى للسيطرة عليها. وهي كفيلة، إذا توفرت له القدرة على استثمارها وحسن التصرف بعوائدها، بأن تجهزه التجهيز الضروري لصيانة كيانه. وهذا التجهيز لا يكون مادياً فحسب، لأن استغلال هذه الموارد يفترض نوعاً من التطور العقلي والتماسك الاجتماعي، يكوّن بذاته أداة فعالة لدفع الخطر والحفاظ على النفس.

على أن القدرة على البقاء ليست في ذاتها الغاية المنشودة ولا تكفي لتكوين مجتمع عربي أفضل أو فاضل. فلكم قام في التاريخ من مجتمعات استطاعت أن تحافظ على نفسها أجيالاً عديدة، بل تمكنت من بسط نفوذها ومد سلطانها، ولكنها عجزت عن أن تتميز عن سواها تميزاً ذاتياً جوهرياً. ولذا فالصفة الثانية والأهم للمجتمع العربي المنشود هي أن يسمو فوق مجرد القدرة على البقاء، فيغدو مستحقاً للبقاء وحرياً به.

قد يقول البعض إن استحقاق البقاء أمر لا يحتمل الجدل. فلقد جاهدت شعوب البشرية وقادتها جهاداً مستمراً لكي يصبح حق كل شعب في الحياة والاستقلال والتقدم مبدأ معترفاً به. وها هي النظم الدولية تجاهر بهذا الحق، وها هي الشعوب المتخلفة تستند إليه للتحرر من قيودها، وتسلم مقدراتها. أجل! ليس في هذا من شك على صعيد المبدأ العام والقانون. ولكن ثمة صعيداً آخر ينظر منه إلى هذه القضية: هو مقدرة مجتمع ما على حسن استخدام هذا الحق بالمساهمة في تنمية القيم الإنسانية، وهي غاية الحياة ومقصد الوجود. ان التاريخ حكم عادل إذا استنطقناه أعلمنا إلى أي حد كان شعب من الشعوب في الماضي حرياً بالبقاء، بل إلى أي درجة لا يزال باقياً فينا فعلاً، لأن جوهر المدنية الحاضرة إنما هو خلاصة العناصر الباقية في المدنيات السالفة.

ولاستحقاق البقاء، بهذا المعنى الأخير، مقياسان رئيسيان: أولهما مقدار ما يوفر المجتمع لأفراده من كرامة. والكرامة تصدر عن الحرية، الحرية من الخوف: خوف الجوع، والمرض، والحرية من التحكم ــ سواء أكان المتحكم من أبناء المجتمع أم من خارجه،

والحرية من الوهم، والشهوة، وحب الاثرة. فهذا المقياس يقتضينا ان ننظر في مستوى الشعب المادي، ومقدار تخلصه من سلطة الطبيعة وتمتعه بنعم الحضارة، وتغلب أفراده على الأمراض والأوبئة وتميزهم بالصحة الجسدية، وانتشار المعرفة بينهم، وتحررهم من الظلم والتعسف والاستئثار. ووراء هذا كله اعتراف المجتمع بكرامة الشخصية الإنسانية، وسعيه لتحقيق هذه الكرامة لأفراده وجماعاته. ولعلنا إذا نظرنا إلى المجتمعات الإنسانية على ضوء هذا الاعتبار، ووزناها بهذا الميزان، أمكننا أن نتبين مدى استحقاقها للبقاء، وأهليتها للحياة.

أما المقياس **الثاني**، فهو مقدار مساهمة المجتمع في الحضارة الإنسانية. وما هذه الحضارة سوى نتاج الجهد الإنساني لاكتشاف الحق وتوفير الخير والجمال. والمجتمعات الإنسانية تختلف في نوع مساهمتها في هذا النتاج. فهي تظهر على مسرح التاريخ وتمضي، ولا يبقى منها إلا ما تبدع وتعطي. ولذا فإن هذه المساهمة منها ليست مقياساً لأهليتها للبقاء فحسب، بل هي كذلك، كما قلت، مقياس لمدى بقائها الفعلي: لعدد الخيوط التي حاكتها في نسيج المدنية الإنسانية ولقيمة هذه الخيوط.

نرى اذن ان الصفتين العامتين اللتين ذكرتهما ـ القدرة على البقاء واستحقاق البقاء ـ تنطويان على جميع المعاني التي نتطلع إليها في مجتمعنا العربي المنشود. وليسمح لي القارىء بأن أكون صريحاً مع نفسي ومعه، وان أجابه الحقائق عارية خالصة، فأحك مجتمعنا العربي الحاضر بمحك هاتين الصفتين. اني إذا ما فعلت ذلك خرجت بنتيجة تهزني من أعماقي: هي شكي بمقدرة مجتمعنا هذا على البقاء، بل باستحقاقه للبقاء. أقول هذا دون النظر الى العوامل التاريخية التي أدت إلى وضع المجتمع الحاضر، ودون أن أحاول تعليل الأمور بردها إلى أسبابها وعواملها. أقوله تقريراً لواقع مهما كانت مقدماته ومكوناته. أقوله لننتبه أخيراً من التخدر الذي اعتدنا أن نركن إليه، فنجابه الخطر على حقيقته ونتبين الفارق الجسيم بين ما نحن عليه وما يجب أن نكون. أقوله وإن كنت أعلم ان البعض سيثور عليه، ويرى فيه تثبيطاً للهمم، واضعافاً لإيمان الأمة بنفسها. أقوله لأن النكبة التي منينا بها ـ النكبة التي لم نعها بعد حق الوعي ـ تفرض علينا، قبل كل شيء، الصراحة في مجابهة الواقع، والجرأة على أن نرى ذاتنا كما نحن وان ندين أنفسنا قبل أن يديننا الآخرون.

ـ ٢ ـ

والآن، بعد أن رسمنا صورة عامة للمجتمع العربي المنشود، لنتساءل ما هو نوع الثقافة التي يتميز بها هذا المجتمع. ان الحياة الإنسانية وحدة مترابطة الأجزاء متشابكة القوى. والثقافة تتفاعل وعوامل الحياة الأخرى، مؤثرة فيها ومتأثرة بها. فهي، إذا صح

جوهرها وصفا كيانها، عامل فعّال في خلق المجتمع الجديد. وهذا المجتمع يعمل بدوره، بما له من حيوية سياسية واقتصادية واجتماعية، في تنمية الثقافة وتوفير ثمارها. وكما رسمنا الخطوط الكبرى للمجتمع المنشود، فلنحاول أن نتصور الصفات العامة للثقافة التي تميزه، الثقافة الناتجة عنه الفاعلة فيه.

تتميز هذه الثقافة أولاً بأساسها الشعبي الواسع. ولا اخال أن هذا يحتاج إلى كثير من الايضاح والتبيان. فلقد مضى الزمن الذي كانت الثقافة محصورة فيه بفئة محدودة من البشر، بينما تعيش الجمهرة الغالبة في ظلام من الجهل دامس. ان الأساس الشعبي أصبح واجباً لأن المجتمع الحديث قد اعترف للمواطن والإنسان ــ كل مواطن وكل إنسان ــ بحقه الصريح في التعلم والتثقف. نصت على هذا دساتير الأمم وقوانينها، وأعلن في وثائق حقوق المواطن والإنسان، بعد أن جاهد في سبيله أجيال من المفكرين والمصلحين ومن جماهير الشعوب المختلفة. وهو حق مشتق من الاعتراف بقدر الشخصية الإنسانية، وكرامتها المستمدة من تحررها. فمن واجب المجتمع أن يؤهل أفراده لتحقيق هذا التحرر وتلك الكرامة، بفسح المجال لهم للتعلم والمشاركة في الميراث الثقافي.

والأساس الشعبي الواسع ضروري كذلك لضمان بقاء المجتمع وتقدمه. فالمجتمع يحتاج، للبقاء والتقدم، إلى حسن استغلال موارده وتنظيم ذاته. وقد يعتقد البعض ان استغلال الموارد يأتي عن طريق ادخال الآلة الحديثة فحسب، على أن هذه الآلة تظل عاجزة إذا لم يكن وراءها من يحسن استخدامها. ولذا كان للعنصر البشري المقام الأول في العمل الإنتاجي، ونحن اليوم نرى الأمم تتمايز بدرجة رقي اختصاصييها وعمالها، وبما لهم من أثر في إنتاجها القومي.

ثم ان المجتمع يحتاج إلى تنظيم منافع هذه الموارد لتأتي بأكبر فائدة ممكنة، وإلى ضبط علاقات أفراده وجماعاته بعضهم ببعض. ولقد أثبتت التجربة الإنسانية ان خير تنظيم للكيان الاجتماعي هو الأسلوب الديمقراطي. على أن هذا التنظيم يقتضي من عامة أفراد الأمة قدراً من الثقافة يسمح لهم بحسن اختيار الحاكم، ونقده، وردعه عند الاقتضاء. وعندما لا يتوفر هذا الأساس الشعبي الواسع المتين، نرى النظام الديمقراطي يخفق في بلوغ غايته وتحقيق قابلياته.

وهذا الأساس نفسه ضروري لنمو الثقافة. فالإنتاج الثقافي هو حصيلة جهد الموهوبين الجادين من الناس. والموهوبون لا ينحصرون في طبقة معينة، بل يبرزون من مختلف طبقات المجتمع فيما إذا أتيح لهم المجال للظهور. ولا يكون النتاج الثقافي حياً متجدداً متزايداً إلا إذا غذّي بالمواهب والجهود تنصب فيه من منابع المجتمع المختلفة، فتقوّي فعاليته وتوسع أثره وتزيد في قيمته ورونقه.

هذه هي **الصفة الأولى** للثقافة في المجتمع العربي المنشود. أما **الثانية** فقد أشرنا إليها بايجاز في معرض حديثنا عن الأولى، ولكن لا بد من توجيه النظر إليها بالذات وبسطها بشيء من التفصيل. وهي ان هذه الثقافة تتجاوب وحاجات المجتمع. فحملتها ـ من أدباء وعلماء وفلاسفة ورجال تنظيم وحكم ـ يحسون هذه الحاجات، بل يحيونها، ويأتي إنتاجهم ملبياً لها. ورجل الثقافة الحق، مهما تجرد عن محيطه وعني بالمشاكل الإنسانية الخالصة، لا بد من أن يبقى متصلاً بمجتمع معين، وأن يكون لهذا المجتمع أثره فيه، وأن يكون هو عاملاً فعالاً في تطور المجتمع وتقدمه. لا بد له من أن يشارك أبناء مجتمعه آلامهم وآمالهم، وأن يبين لهم بطريقته الخاصة سبل الخلاص ومناهج التقدم.

ويهمني أن ألفت النظر هنا إلى نوع معين من الثقافة له صلة وثيقة بحاجات المجتمع: هو الثقافة العملية والاختصاصية. وإذ أفعل ذلك يتسع معنى الثقافة هنا ليشمل، كما يشمل في نواحٍ أخرى من هذا الحديث، التربية والتعليم. ولقد ذكرت أن المجتمع العربي المنشود مجتمع له القدرة على البقاء، وأن هذه القدرة مرتبطة بحسن استغلاله لموارده. فهو ينكب على الموارد مستثمراً إياها أبلغ استثمار لكي يضمن وسائل الدفاع عن نفسه، إذ انه محاط بمجتمعات قد سبقته في هذا المضمار، فجهزت بذلك قوة تهدده إن لم يقابلها بما يماثلها أو يفوقها. وهو يقوم بهذا الاستثمار أيضاً ليكفل الوسائل المادية الضرورية لرفع مستوى أفراده وتلبية حاجاتهم في الصحة والتعليم وأسباب العيش الكريم.

هذا الاستثمار يقتضي من المنظمين له والعاملين فيه ثقافة اختصاصية تمكنهم من فهم الطبيعة والسيطرة عليها. وهذه الثقافة على درجات مختلفة تبدأ من الثقافة العملية البسيطة التي يحتاج إليها الفلاح في زراعته، والعامل في صناعته، وتمتد إلى الثقافة الاختصاصية المعقدة التي تؤهل صاحبها للإنشاء والابداع والتنظيم. ولا ريب في أن هذه الثقافة الاختصاصية هي أهم عامل في تجهيز القوة المادية التي يتطلبها المجتمع للحفاظ على كيانه وتحسين هذا الكيان.

والتجهيز لا يقوم على استثمار الموارد فحسب، بل على حسن توزيع خيراتها، وعلى صحة تنظيم العلاقات القائمة في المجتمع. وهذا أيضاً يقتضي معرفة اختصاصية في الاقتصاد والصحة والقضاء والادارة والتربية وسواها من وجوه النشاط الاجتماعي. فلقد غدا كل من هذه الوجوه موضوع علم، بل علوم معقدة، ويجب ألا يقبل عليه إلا من أعد له عدته وتسلح بالمعرفة التي تمكنه من الوقوف على أسراره وضبطها وتوجيهها إلى الغاية الصحيحة.

وأشير بصفة خاصة إلى ناحيتين من نواحي هذه الثقافة الاختصاصية الضرورية للاستثمار والتنظيم وإلى أثرهما في حياة المجتمع. **الأولى** أنها تهيىء الفرد أو المواطن لعمل

منتج. وهذا العمل ـ علاوة على ما فيه من فائدة للمجتمع ـ يعزز كرامة الفرد، ويطمئنه إلى أن المجتمع بحاجة إليه، وإلى أنه يقوم بعمل مفيد لنفسه ولسواه. فليس أثقل على النفس، وأشد ايلاماً، وأبعث على اليأس وفقدان الكرامة من أن يشعر المرء بأن مجتمعه في غنى عنه وان الثقافة التي تثقف لا تؤهله لعمل يضمن عيشه أو يفيد الغير. ولا شك في أن البعض قد لمس هذا الشعور عند الكثيرين ممن جازوا الدراسة الثانوية أو الجامعية عندنا، واكتشفوا بالاختبار المرير بعد الشقة بين عدتهم الثقافية وحاجات بلادهم.

أما الناحية **الثانية** فهي ان المجتمعات الحديثة تقوم في أكثرها على هذه الثقافة الاختصاصية وتتنافس فيما بينها في القدرة على الطبيعة ودقة تنظيم الحياة الاجتماعية ـ فهما مصدر القوة، ومبعث قابليات التقدم. وهي تنفق الأموال الهائلة وتقوم بالتضحيات العظيمة لتعزيز العلوم التطبيقية، سواء بما تنشئه من معاهد التعليم الفني بدرجاته المختلفة أو بما تقيمه من مؤسسات البحث والتنقيب في شتى نواحي الإنتاج والتنظيم. وان المتتبع لتطور التربية والتعليم في البلاد الغربية ليلاحظ مدى الاقبال المتزايد على المعاهد الفنية والاختصاصية، وما تبذله الدولة والجماعات الخاصة لدعم هذه المعاهد توصلاً إلى تجهيز المجتمع بالفنيين القادرين على استثمار موارده، وتنظيم شؤونه. وقد أصبحت كل ناحية من نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية موضوع اختصاص، بل اختصاصات، تقتضي فنيين من مختلف الأنواع لضبطها وتنظيمها. ومن واجب السلطات القائمة على شؤون التربية اعداد هؤلاء الفنيين واخراجهم لخدمة المجتمع.

أما مؤسسات البحث فحدث عنها ولا حرج. فهي تزيد وتتسع يوماً بعد يوم: ترعاها الحكومات، والصناعات، والوقفيات الخاصة، والأفراد الكثر الذين يقدرون قيمة البحث وأثره في حياة الأمم. كل ذلك ايماناً من القائمين على الأمر، ومن الرأي العام عموماً، بأن المعرفة العملية الاختصاصية المتراكمة هي السبيل الوحيد للتقدم في استثمار الطبيعة وتنظيم المجتمع. وليس من الضروري دوماً ان تأتي هذه المؤسسات بنتائج عملية سريعة، فقد تسلك في بعض الأحيان سبلاً في البحث بعيدة عن الحاجة الملحة، فلا يخشى القائمون على أمرها، بل يظلون يغذونها بالمال والرجال، لتيقنهم من أن البحث عن الحقيقة لن يخطىء في النهاية، بل سيؤدي حتماً إلى زيادة في القدرة والوعي وإمكانات التقدم.

وهذا يؤدي بنا إلى **الصفة الثالثة** للثقافة التي يجب أن نتطلع إليها في المجتمع العربي المنشود: هي ان هذه الثقافة تقوم على الايمان بالعقل وبالحقيقة التي يكشف عنها. فالعقل هو القوة المحققة المنتظمة المتراكمة المكونة للتقليد الايجابي المستمر في الحضارة البشرية. العقل عدو الوهم والانخداع، والتعصب والخداع. انه لا يفتأ يجوب الآفاق سعياً وراء المجهول، حتى يكشف عنه ويجلوه للعيان. إنه لا يكلّ عن نقد ذاته وسواه إلى

أن يقف على الحقيقة. انه بطبيعته منتظم وناظم، يتدرج خطوة فخطوة، ويربط حلقات المعرفة بعضها ببعض. قد يخطىء بعض الأحيان أو ينحرف، ولكنه قمين باكتشاف الضلال والعودة إلى الطريق السوي. وجهده جهد متراكم يعزز اللاحق منه السابق ويغذيه ويدفع به إلى الأمام.

من أجل هذه الصفات الذاتية كان العقل، كما قلت، الناظم لعقد النتاج الحضاري البشري، والقوة الباعثة على التقدم الصحيح. والثقافة التي ننشد يجب أن تكون ثقافة تحترم العقل وتخضع له، وتؤمن به، وتسير على هديه في اكتشاف الحقيقة، والتعلق بها دون سواها، وقبول أحكامها مهما كانت قاسية، فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الحقيقي. وعليه يجب أن تتمشى ثقافتنا المرجوة إذا أردنا ثقافة حية خلاقة لمجتمع حي خلاق.

أما **الصفة الرابعة** لهذه الثقافة فهي تأصلها بماضيها الايجابي. فكل ثقافة حية وحدة مترابطة ضمن وحدة الثقافة الإنسانية الشاملة، وهي تمتاز عن سواها بنوع تطلعها إلى الحقيقة وتبصرها إياها، وبما تبدعه من قيم الخير والجمال. فحري بها ان تظل واعية لماضيها، مستمدة من هذا الماضي القوة والايمان، ومنمية الإرث الذي يتناقله مجتمعها جيلاً بعد جيل.

على أن ايمانها هذا لا يؤدي بها إلى الانخداع، لأن ايمانها بالعقل والحقيقة أشد وأقوى. وهي تقبل حكم الحقيقة على ماضيها، كما تقبله على حاضرها. ولذا لا تتمسك إلا بما يجوز امتحان العقل، أي بما هو بدوره من نتاج العقل. فالعقل يغتبط بالعقل ويتحد فيه، ويكره كل ما عداه. لذا قلت ان ثقافتنا المنشودة متأصلة بماضيها الايجابي: أي بما في ذلك الماضي من نتاج عقلي، ومن ابداع جمالي وأدبي وروحي. وتأصلها هذا، لا يفيد معنى التعصب، لأن هذا المعنى يبدده فعل العقل الحي الذي فرضنا أنه منبث في طيات هذه الثقافة وباعث لها. ولا يعني التلفت الدائم إلى الوراء، لأن الثقافة الحية ثقافة متطلعة إلى الأمام، جوابة للآفاق، مغامرة في ميادين العقل والروح، لا تأخذ من الماضي إلا ما يوحي ويسند. شأنها في هذا شأن الثقافة الماضية ذاتها، التي إنما نمت وازدهرت عندما غامرت واقتحمت، وسعت إلى الحق حيث كان. فلما قعدت عن هذا السعي، واكتفت بما أنتجت، وغلب فيها الحرف على الروح والنص على العقل، ضعفت وانحلت وأصبحت عاملاً في ضعف المجتمع وانحلاله.

وهكذا تكون الثقافة المنشودة متفتحة لخير ما أنتجه الإنسان في خلال جهاده التاريخي. وبذا تتم صفة أخرى من صفاتها الأساسية. فلئن كان لكل ثقافة ميزاتها الخاصة ووحدتها، فإن الثقافات كلها تلتقي في ثقافة إنسانية شاملة. ذلك ان وراء المواطن وابن المجتمع، الإنسان بذاته الأصيلة: الإنسان بتلمسه الحقيقة وانحرافه عنها، بتساميه إلى

الأعلى وانجذابه إلى الأدنى، بإيمانه وخوفه واطمئنانه وقلقه، بألمه وأمله وحزنه وفرحه، بتجبره وانكساره، بجماله وقبحه، بإمكاناته وحدوده. هذا الإنسان قد جاهد الطبيعة، وجاهد نفسه، بظروف وأشكال وأزمنة مختلفة، فتولدت عن هذا الجهاد قيم جمالية تتمثل في الرائع من الأدب والتصوير والنحت والموسيقى وسواها من فنون التعبير، وقيم عقلية تبدو في ما اكتشف من حقائق الوجود وفي الانتظام العقلي المؤدي إلى هذا الاكتشاف، وقيم خلقية تتجسم في ما تسامى إليه من مراقي الخير وما حقق منه فرداً ومجموعاً، وقيم روحية في تساؤله عن نفسه وعن مبدعه وفي تعطشه إلى الله يخافه أولاً ثم يلجأ إلى رحمته وغفرانه ويجد خلاصه في تسليم نفسه إليه والركون إلى محبته الشاملة التي لا تدانيها محبة.

إن الثقافة المنشودة لتحرص على هذه القيم، وتسعى إلى تمثلها وتنميتها دون تردد أو خشية لأنها تعي انها تؤلف في مجموعها خلاصة الحضارة الإنسانية وليس للثقافة الحية الفاعلة أن تنكفىء على نفسها، وتنكمش في صدفها، وتقطع صلتها بالباقي الفاعل من هذه الحضارة. انها إن فعلت ذلك، اختنقت وخنقت معها مجتمعها، فلم يبق هذا المجتمع ولم يكن مستحقاً للبقاء.

على أن هذا التفتح للحضارة الإنسانية ليس سوى خطوة لعمل الثقافة الحية الحقيقي، وهو مساهمتها الفعلية في هذه الحضارة. ان هذه المساهمة هي الصفة المميزة الأخيرة للثقافة المرجوة تتم بنتيجة الصفات الخمس السابقة التي ذكرناها، وبها تبلغ الثقافة غايتها وتؤدي رسالتها.

والإنتاج الحضاري هو أبداً من عمل الأفراد: أولئك الذين يؤهلهم للإبداع استعدادهم الفطري وجهادهم العقلي والروحي. فعلى المجتمع أن يكتشف هؤلاء الموهوبين ويرعاهم، ويفسح لهم مجال الإنتاج. ان وراء كل حضارة قلة مبدعة من الناس: قلة تتميز عن الكثرة لا بالمال، أو الجاه، أو القوة المادية، أو الزعامة الشعبية، بل بالاستحقاق الذاتي: طبيعة وكسباً، قلة تحقق القيم وتعممها في المجتمع، قلة تعمل لا لذاتها بل للغير، قلة لا تتعالى ولا تتجبر، بل تحب وتخلص وتعطي، قلة متآلفة، متعارفة، منها تنطلق قوى التقدم ومجاري الانبعاث ومصادر الخلق والابداع.

لقد أصبح من نافل القول ان نردد ان أثر أي مجتمع إنساني هو في قيمة إنتاجه الحضاري، فالتاريخ أبلغ شاهد على ذلك. ولكن هذه الحقيقة لم تتأصل بعد في نفوسنا، ولم تنبث في كياننا. على أننا نبغي أن نتلمس الطريق إلى مجتمع عربي أفضل. فلنثق بأن فضل هذا المجتمع يكون بنسبة ما نحقق من هذا الانتاج يؤديه الموهوبون الجادون من أبنائنا، فيخـلُدون ويخلّدون، ويبقون ويبقى معهم مجتمعنا، على تعدد السنين وتقلب الأجيال، غذاء دائماً وكنزاً متزايداً للإنسانية جمعاء.

والآن بعد أن لمحنا الخطوط الكبرى للمجتمع العربي الأفضل، وتأملنا الصفات التي تتميز بها ثقافته، بقي علينا أن نتبين الخطى المقتضاة والواجبات المفروضة لتكوين هذه الثقافة المنشودة للمجتمع العربي المنشود.

من هذه الواجبات ما هو ملقى على عاتق الدولة وأرباب الحكم، ومنها ما يتعلق بالشعب عموماً، ومنها ما يسأل عنه رجال الثقافة أنفسهم بصفة خاصة.

أما الدولة ومن دار في فلكها الأعلى من القائمين على الحكم أو الطامعين فيه، فواجبهم **الأول** صيانة حرمة الثقافة. إذ الثقافة أنبل وأرفع وأقدس من أن تكون وسيلة لغاية. العقل، والروح، والشخصية الإنسانية المنطوية على إمكانات الحرية والمسؤولية والكرامة ـ هذه هي غاية الغايات: لا تستهان بل تحترم، لا تستخدم بل تخدم، لا تستباح بل يركع على عتبتها. ان الحاكم أو السياسي الذي يتخذ من التربية والتعليم أو أي شأن آخر من شؤون الثقافة سبيلاً لتحقيق غرض شخصي أو حزبي ـ كأن يسعى لتسليم مهمة التعليم لمن هو غير جدير بها، أو لاستغلال المدارس لتمكين نفوذه ومحاربة أعدائه، أو لإثارة الطلاب في سبيل غاية حزبية أو مطمع محلي، أو كأن يعمد لابتياع الأقلام من أجل شهرة، أو لتسخير المواهب وتحقيرها ـ ان مثل هذا الحاكم أو السياسي ليطعن أمته في الصميم، ويقوّض صرح بنائها بإهانته جوهر الفكر والثقافة، وتدنيسه حرمة العقل والروح. تعالت هذه القيم عن أن تكون مطية لطامع أو ألعوبة بيد عابث ساخر، وساء فأل أمة ينحط أرباب الشأن فيها إلى هذا الدرك!

ولنا في تاريخنا العربي أسوة حسنة. فهو مليء بأخبار التجلة والرعاية التي كان يبذلها الخلفاء لأرباب العلم ومؤسساته. فلكم اتضعوا أمام العلماء، وعززوا مقامهم، وأغدقوا على مراكز نشاطهم: كل ذلك ايماناً منهم بجلال الثقافة، وروحانية العلم، وقدسية المعرفة. ولنكن واثقين بأنا لن نعود إلى المساهمة الفعّالة في الحضارة، حتى نستعيد ـ ويستعيد ذوو الحكم والنفوذ فينا خاصة ـ هذا الاعتبار لكل ما يمس شؤون العقل والروح.

وينتج عن هذا الاعتبار واجب الدولة **الثاني**: وهو بذل المال وتوفير الوسائل لنشر الثقافة الصحيحة وتوسيع أساسها الشعبي. ولا نكران ان أكثر الدول العربية تسعى اليوم جهدها،تحت ضغط الرأي العام المتزايد، للقيام بهذ الواجب، بما تنشىء من مدارس ابتدائية وثانوية وبما تخصص من أموال في سبيل التعليم العام. غير أن هذا التعليم لا يزال عاجزاً عن تلبية حاجات الأمة. فهو، في أكثره، تلقين وحشو من المعلم ونقل وترديد من الطالب. يقر بعيوبه الأساسية رجال الدولة والقائمون على شؤون التعليم والرأي العام،

ولكن جهود الاصلاح ما فتئت بطيئة محاطة بالأشواك والعراقيل.

ليس هنا مجال التبسط في نواحي الاصلاح الواجب لأهداف تعليمنا ونظمه ومناهجه، توصلاً إلى إنشاء الثقافة المرجوة. ولكن ليسمح لي بأن أشير اشارة ـ ولو عابرة ـ إلى ثلاث من هذه النواحي اعتبرها رئيسية: **الأولى** ـ تعزيز التعليم المهني والاختصاصي على مختلف درجاته. فلقد ذكرنا ان في مقدمة حاجات المجتمع العربي للمحافظة على كيانه والتقدم نحو حالة أفضل تنمية موارده الطبيعية وحسن تنظيمها وضبط شؤونه الاقتصادية والاجتماعية. وواضح انه لا يستطيع توفية هذه الحاجات باخراج المئات والألوف من الشبان والشابات العاجزين عن القيام بعمل إنتاجي، وباتباع نظم تعليمية تشجع القروي على هجر قريته، وتدفع به وبالمدني إلى سلوك سبيل التوظيف أو هجرة الوطن. ونحن اليوم نعيش في عصر يقوم على التكنيك والفنون العملية، فكيف يمكننا أن نقف في وجه أعداء مجهزين أحدث جهاز ومسلحين أنفذ سلاح، إذا لم نولّد القوة التكنيكية الكافية لاستثمار مواردنا وضبط شؤوننا، على أدق ما تفرضه الحياة الحديثة؟ ان الكلام ليطول في هذا الموضوع، فلأوجز مؤكداً انه لجرم قومي في حق الأجيال الحاضرة والمقبلة أن نمضي في ما نحن عليه عموماً في البلاد العربية من تعليم نظري غير متجاوب وحاجات حياتنا في الإنتاج والتنظيم وصون الكيان.

أما الناحية **الثانية** فهي اصلاح مناهج هذا التعليم ليتحول عن حشو الذاكرة وتلقين المعلومات، إلى تقوية المدارك العقلية بالاستنتاج والاستقراء، والتنشئة على الاستقلال الفكري وتقدير القيم الأخلاقية وتنمية الشخصية الذاتية والحس بالكرامة القومية والإنسانية. ان هذا الاصلاح يقتضي تبديل مفاهيمنا في هذا الميدان تبديلاً أساسياً من التلقين إلى التعليم، ومن التعليم إلى التربية ـ التربية الفعلية ـ لا الانفعالية ـ المنمية شخصية الفرد والمواطن انماء منسجماً متزايداً.

على أن هذا كله مرتبط بالناحية **الثالثة**، وهي أهم هذه النواحي بل نقطة انطلاق أي اصلاح، وأعني بها إعداد المعلم الصالح. فرفع مستوى التربية لتصبح أداة فعالة في تكوين الثقافة المنشودة منوط آخر الأمر بالمعلم. النظم والمناهج لها أهميتها، ولكن المعلم هو العامل البشري الذي يحولها مادة حية محيية أو ميتة قتالة. ومن العبث أن نسعى إلى تكوين الوحدة القومية عن طريق توحيد النظم والمناهج والامتحانات والشهادات إذا نحن لم نوجد المعلم البناء الشاعر بتبعته القادر على القيام بها. وايجاد هذا المعلم لا يكون بحسن اعداده فحسب، بل بأن نضمن له عيشاً كريماً وحرمة مادية وأدبية، إذ كيف ينتظر منه أن ينشىء الجيل على الكرامة واحترام القيم إذا لم يكن هو نفسه مصوناً مكرّماً؟

ولننتقل الآن إلى واجب **ثالث** من واجبات الدولة في سبيل تكوين الثقافة التي

وصفنا، وهو انشاء مؤسسات البحث والتنقيب ورعايتها وتعزيز شأنها. فلقد أصبح واضحاً لكل ذي بصر أن الأمم لا تكوّن ارتجالاً، والمجتمعات لا تنظم اعتباطاً، بل ان وراء كل ناحية من نواحي الإنشاء والتنظيم الصحيحين ذخيرة علمية تجمع بالجهد المستمر، المرعي من محيطه، المتآلف المتعاون في داخله، المحمي من السياسات المحلية والتقلبات العارضة. وان نظرة سريعة إلى الأمم المتحفزة في الغرب والشرق وإلى الصهيونية في الجنوب لتظهر بأجلى بيان ما تبذله هذه المجتمعات من وسائل مادية ومن رعاية أدبية لدعم البحث العلمي، سواء أكان موجهاً إلى حل مشاكل عملية ملحة يجابهها المجتمع أم كان حراً طليقاً لا يبغي سوى اكتشاف الحقيقة وتنمية الذخيرة العلمية القومية والإنسانية. الحق ان من يقف منا على مبلغ هذا البذل وعلى النتائج التي يؤدي إليها ليصغر وأمته في عين نفسه، وليرتعد فرقاً من حالة الضعف التي هو فيها بالنسبة إلى القوة الهائلة الممثلة في هذه الذخيرة العلمية المتزايدة.

ومن واجبات الدولة رعاية الموهوبين من أبنائها: اكتشافهم، وتمهيد سبل التثقيف لهم، وامدادهم بالوسائل المادية والأدبية الميسّرة للإنتاج والابداع. ولقد ذكرنا ان الإنتاج الحضاري هو، آخر الأمر، ابداع فردي تقوم به القلة المختارة من أبناء المجتمع. ولا أدري كم منا من يقابل الجهد الذي نبذله في سبيل المعوزين والمرضى والعجزة من أبناء مجتمعنا، والجهد الذي نوجهه للممتازين المبدعين أو ذوي القابليات للابداع. حاشا لي أن انتقص قدر العواطف النبيلة والمساعي الجميلة المنصرفة إلى مكافحة العوز والمرض، وتخفيف الألم والعاهات التي يشكو منها مجتمعنا. حاشا لي ان أدعو إلى غير سبل البر والرأفة والاحسان. لكن أليس واجباً علينا أن نبذل جهداً مماثلاً نحو الذين يملكون امكانات التفوق ومؤهلات القيادة، والذين باستطاعتهم، إذا فسح لهم المجال، أن ينهضوا بقومهم وبالإنسانية إلى مراقي الحق والخير والجمال؟ لا شك في أن الديمقراطية تقضي بتعميم العلم والصحة ووسائل العيش لمختلف طبقات الشعب، ولكن هذه الديمقراطية تغدو عقيمة وتؤدي إلى تدني مستوى الحياة إذا لم تستطع أن تكتشف المواهب وتجلوها وتنـمّيها وتدفع بها إلى مراكز القيادة وتهيىء لها أجواء الصفاء والابداع.

لقد مضى الوقت الذي كان فيه زاد العلماء خبزاً وماء، وأصبح طريق الإعداد العلمي طويلاً شائكاً ومتطلبات الإنتاج الفكري كثيرة عزيزة المنال. كذلك لم يعد من المعتقد ان الأديب لا يمكنه أن يأتي بالروائع إلا إذا افتقر وشقي وصارع ظروف الزمان وحاجاته. ولعل من أقوى أسباب ضآلة الإنتاج الثقافي في المجتمع العربي الحاضر ان رجاله لا يستطيعون أن يتفرغوا له، بل يضطرون إلى كسب معاشهم من أعمال أخرى تستأثر بنشاطهم ووقتهم وأعصابهم ولا تترك لهم متسعاً للانصراف إلى العمل السامي الذي هيأتهم الطبيعة له.

ولعل البعض يتساءل: ما هي واجبات الحكومات العربية في تنمية العلاقات الثقافية في داخل هذا المجتمع تمهيداً لخلق الثقافة المرجوة. والجواب عندي ان الحكومات تستطيع أن تكون أعظم فعالية وأقوى أثراً في التوفيق بين سياساتها التعليمية، ودعم الاتصال بين رجال الثقافة في البلاد العربية، ولكن عملها في هذا الميدان الأخير لا يتعدى بذل الوسائل المادية والسبل العملية لتعزيز هذا الاتصال. أما الأصل والأساس فهو العمل على تهيئة رجال الثقافة الصحيحة في كل من البلاد العربية. فإذا وجد هؤلاء فإنهم سيتعارفون حتماً ويتعاونون، لأن العقل يفرح بلقاء العقل، والروح تسعى إلى الروح، والثقافة الخالصة لا تعدم طريقاً للوصول والاتصال.

هذه بعض واجبات الدولة وأرباب الحكم. أما الشعب فواجبه، من جهة، أن يردع ذوي السلطة والطامعين فيها من استغلال شؤون الثقافة لمآربهم الخاصة ويحثهم على صيانة حرمتها، ومن جهة ثانية أن يساند جهودهم وجهود الدولة بصفة عامة لنشر التعليم وتعزيز الفكر والأدب والفن. فلقد غدت أعباء دولنا العربية في هذه الميادين ثقيلة تنوء بها موازناتها ووسائلها، فإذا لم يقبل أبناء الشعب على المشاركة في حملها سواء عن طريق تأدية حق الدولة من الضرائب أو عن طريق النشاط الخاص الخارج عن النطاق الحكومي، فإن سير القافلة سيكون بطيئاً وبلوغ المحجة عسيراً. ونخص بالذكر هنا الأغنياء الموسرين القادرين على البذل والامداد. قد يكون بين أغنيائنا من تبرعوا من مالهم الخاص لإنشاء المدارس، ولكن هؤلاء قلة ضئيلة بالنسبة إلى مجموع هذه الطبقة في المجتمع العربي وإمكاناتها. ثم كم بينهم من أنشأ كرسياً في جامعة، أو مكّن بعض الموهوبين من إعداد أنفسهم وإكمال تخصصهم للإبداع في حقول المعرفة المختلفة، أو قدم جائزة حرية بالذكر لتنشيط ناحية من نواحي الأدب أو الفن، أو فكّر في تأسيس معهد للبحث مهما كان محدود النطاق؟ من منهم وقف مالاً يستثمر في هذه أو أمثالها من وجوه تشجيع الثقافة وتنميتها؟ لقد آن الوقت ليشعر ذوو الثراء منا ان ثراءهم وديعة في أيديهم يجب عليهم أداؤها للمجتمع، وان للثقافة نصيبها الوافر في هذا الأداء.

بقي أخيراً، ولا أقول آخراً، واجب رجال الثقافة أنفسهم. وهو واجب عظيم لأن الأمر يتصل بهم أولاً، ولأنه محك لجدارتهم لحمل هذا اللقب واحتلال هذه المرتبة الرفيعة. وهم المسؤولون الأولون عن حفظ الأمانة وأداء الرسالة. فإذا طالبنا أرباب الحكم وأبناء الشعب بحماية الثقافة وصيانة حرمتها، فحري بنا أن نطلب هذا من رجال الثقافة أنفسهم، وأن ننتظر منهم أن يكونوا أكثر من غيرهم حرصاً على المحافظة على هذه الوديعة وضمان استقلالها ونموها. فإذا هم استخدموا ما يحملون من ثقافة لتحقيق مآرب أو خدمة أغراض، خانوا رسالتهم ولم يحق لهم أن يدعوا سواهم إلى احترامها. وإذا

تبذلوا وأهرقوا كرامتهم بين أيدي أرباب السلطة والجاه، كانوا هم أقوى الهادمين لصرح الثقافة الذي يسعى مجتمعهم لإقامته، وضاع أي أثر نافع كان يرجى منهم. «وجّه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتيه فيحدثه، فقال مالك: ان العلم يؤتى، فصار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار، فقال: يا أمير المؤمنين من اجلال الله تعالى اجلال العلم، فقام وجلس بين يديه، وبعث إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه، فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به»[1].

إن حفظ المثقفين لكرامتهم وكرامة الثقافة التي يمثلونها يقوم على مبلغ اخلاصهم لهذه الثقافة. لقد قلنا ان من حق المثقفين على المجتمع أن يضمن لهم عيشاً مرضياً، ولكن من حق المجتمع عليهم، بل من حق الثقافة ذاتها، أن يخلصوا لها، فلا تكون لهم سبيلاً لتجارة، أو أداة لجر مغنم، أو وسيلة لكسب نفوذ. الثقافة الصحيحة تقتضي النقاء من شوائب الشهوة والأثرة، والتطهر من أدران التعصب والتخاذل. المثقف الحق يقول مع الامام الغزالي: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله». الثقافة الصافية الواسعة كالمحبة التي تحدث عنها بولس الرسول، تتأنى وتترفق، لا تحسد، لا تتفاخر ولا تنتفخ، لا تُقبّح ولا تطلب ما لنفسها، لا تحقد ولا تظن السوء، لا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق، تحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتبصر كل شيء، انها لا تسقط أبداً.

ومن حق الثقافة على المثقفين الجد في طلبها والسعي الحثيث لاستكمالها. هذه حقيقة أولية تغيب عن ذهن مدعي الثقافة عندنا. ما أشد كسلهم وما أرخص الوقت عندهم، في حين ان الثقافة تتطلب الجد المستمر والجهاد العقلي الدائم لتظل حية نامية. وقديماً كان العلماء العرب يضربون في الآفاق ويقومون بالرحلات الطويلة المضنية طلباً للعلم. يروى عن الخطيب التبريزي انه حصلت له نسخة من كتاب **التهذيب في اللغة** لأبي منصور الأزهري في عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة، فدل على المعرّي فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً، فنفذ العرق من ظهره إليها، فأثّر فيها البلل وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب المذكور[2].

---

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، هذبه واختصره ابراهيم زيدان (مصر: مطبعة الهلال، ١٩٠٢)، ص ١٤.

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣٤٦.

أين نحن من هذا السعي، وأمثاله من وجوه الجد والتضحية التي تزخر بها سير الآباء؟ وأين نحن مما نعرف من صبر علماء الغرب وثباتهم وإلحاحهم في سبيل غايتهم؟ حقاً ان ثقافة أية أمة هي خلاصة سير مثقفيها، ونتاج اخلاصهم وتشوقهم لرؤية الحق والاغتباط به، مهما كلفهم ذلك من عناء جسد ومجاهدة نفس.

— ٤ —

بهذه الجهود المشتركة المتآلفة تبذلها الدولة والشعب والمثقفون أنفسهم تتولد الثقافة التي يتميز بها، بل ينشأ عنها، المجتمع العربي الأفضل. ولا بدع أن تكون الثقافة هي التي تنشىء المجتمع وأن تكون فضيلة المجتمع من فضيلة ثقافته. وقديماً علمنا سقراط ان الفضيلة هي المعرفة، والمعرفة لب الثقافة. أجل! ان سبيل المجتمع العربي الأفضل هو الثقافة: الثقافة المنبثة في صفوف الشعب، المتجاوبة وحاجات المجتمع، القائمة على احترام الحقيقة، المتأصلة في ماضيها الايجابي، المشاركة في الحضارة الإنسانية، المعطية لهذه الحضارة. بهذا النوع من الثقافة الحية الفعّالة يتكون المجتمع العربي الحي الفعال، المجتمع العربي القادر على البقاء، الحري بالبقاء، الباقي فعلاً في الإرث الإنساني المشترك — المجتمع العربي الأفضل!

مركز دراسات الوحدة العربية

مؤسسة عبد الحميد شومان

نحن والتاريخ

مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ

الدكتور قسطنطين زريق

نحن والتاريخ

مطالب و تساؤلات

في صناعة التأريخ و صنع التاريخ

مؤسسة عبد الحميد شومان
مركز دراسات الوحدة العربية

نحن والتاريخ

مطالب وتساؤلات
في صناعة التأريخ وصنع التاريخ

الدكتور قسطنطين زريق

(*) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، في بيروت، ١٩٥٩، والطبعة الخامسة ١٩٨١.

إلى معلميَّ

ومرشدَيَّ الأوّلَين في معارج التأريخ

الدكتور فيليب حتي

والدكتور أسد رستم

تقدمة ولاءٍ واعترافٍ بالجميل

المحتويات(*)

الإهداء ٥
توطئة ٩
لماذا التأريخ ١١
موقفنا من الماضي ٢٣
ماهية التأريخ والغرض منه ٣٩
صناعة التأريخ ٥٣
فضائل الصناعة التأريخية ٦٩
التفكير التأريخي ٨٥
التعليل والحكم ١٠١
الثقافة التأريخية ١١٩
صُنع التاريخ ١٣٥
نحن والتاريخ ١٥٣
١ ـ وضعنا الحاضر ١٥٥
٢ ـ التاريخ العبء والتاريخ الحافز ١٦٠
٣ ـ حكمنا في التاريخ ١٦٩
٤ ـ حكم التاريخ فينا ١٧٨

(*) اعتمدنا ترقيمين: **الترقيم الأول** في وسط ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد، ضمن المجلد. ولكل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة ترقيم خاص بعدد صفحاته. **والترقيم الثاني** في يسار ذيل الصفحة؛ وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي **رقم أحادي** مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب التسعة في المجموعة الكاملة.

توطئة

ليست هذه الفصول التي أتقدم بها اليوم إلى القراء عرضاً شاملاً لقواعد علم التأريخ، أو بحثاً مستفيضاً في فلسفة التاريخ، أو دراسة مكتملة لعلاقة الإنسان بماضيه. وإنما هي، كما ذكرت في عنوان الكتاب، «مطالب وتساؤلات» تدور حول هذه الموضوعات، أثارتها في ذهني معاناة الجهد التأريخي ـ بحثاً وتعليماً ـ عدة سنوات، كما دعا إليها النظر في الواقع العربي واختباره ومجابهة المشكلات الفكرية التي تنجم عنه.

ولا يقوم هذا الكتاب مقام دراسة الفلسفات التأريخية البارزة التي ظهرت في الماضي، أو التي تسود الأجواء العقلية الحاضرة، فهذا مطلب آخر، له جلاله وخطورته، لم يتصدّ له بعد مفكرونا ومؤرخونا بصورة منتظمة، ونرجو أن يوفّى حقه في اللغة العربية في أقرب حين. نقول هذا لأن وضعنا الحاضر، والوضع العالمي في هذا العصر، يتميزان ـ كما ذكرنا مراراً في سياق الكتاب ـ بتنبه الاحساس التاريخي وانتشاره وبتيقظ وعي الأفراد والشعوب لماضيهم وتأثرهم به. فحريّ بهذا الوعي عندنا أن يسترشد المحاولات الجبّارة المثمرة التي حاولها قادة الفكر عبر العصور للنفاذ إلى لبّ الحياة الماضية، وادراك سننها وقوانينها، وفهم الروابط التي تشدّها إلى الواقع الحاضر وإلى المراحل المقبلة.

ومع أن الكتاب لا يطمح إلى ما ذكرت، فإنه حصيلة قراءات واسعة في هذا الحقل، وتأملات للمسائل التي تبرز فيه. ولئن لم أشر فيه صراحة إلى ما استفدته من هنا ومن هناك، ولم أثقله بالهوامش والحواشي؛ فإن القارىء المطلع ليلحظ مدى استمدادي من المؤلفات المختلفة في هذا الموضوع وتأثري بها.

وتبقى صفة الكتاب الأولى أنه محاولة شخصية أحببت أن أشارك بها القارىء

العربي: محاولة لتلمّس الأسئلة الهامة التي تثيرها علاقتنا بماضينا. وكل ما أرجو هو أن تكون الأسئلة التي تبينت لي أسئلة صحيحة، أساسية، باقية ـ لا أسئلة زائفة، سطحية، عارضة ـ وأن تكون قد بدت لي من خلال اختبار صادق مدرك للواقع العربي وللواقع الإنساني، وعلى هدي الفكر الصحيح الصريح ـ وقبل كل شيء، أن أكون قد أقدمت على هذا كله بحسّ عميق بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتق المفكر في كل آن، وبصفة خاصة في هذه الآونة الخطيرة.

* * *

وكما اني مدين للكتب ولمؤلفيها الاعلام، كذلك أجدني مديناً لزملاء كرام يجدر بي أن أنوه بفضلهم. في مقدمتهم الدكتور جورج طعمه، الزميل السابق في التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت، الذي شاركني، خلال قيامي باعباء رئاسة الجامعة، في الكثير من القراءات والتلخيصات والدراسات التي تطلّبها إعداد مواد هذا الكتاب، والذي أفادني ـ خلال المناقشات الكثيرة التي جرت بيننا ـ في ايضاح مسائله وتركيز أفكاره، ثم عاد فقرأ مسودته وأمدني بملاحظاته السديدة وبآرائه المستقاة من مطالعاته الواسعة في هذا الموضوع. وقد جاءت الفصول التالية تحمل الكثير من آثار جهده وعلائم فضله. وانه ليسرني أبلغ السرور أن أقر بإسهامه الجزيل في الكتاب، أو بالأحرى بشركته فيه.

وقد تكرّم فريق من زملائي في الجامعة فقرأوا أصول الكتاب وأفادوني بآرائهم المرشدة وتصويباتهم الجمة وهم الأساتذة ألبرت بدر وجبرائيل جبور وشفيق جحا ومحمد توفيق حسين وزين نور الدين زين وجورج شهلا وفؤاد صروف ونبيه أمين فارس ومحمد يوسف نجم. فإليهم جميعاً عاطفة التقدير والامتنان العميق.

على أن المؤلف هو وحده مسؤول عما في الكتاب من نقص وخطأ. وحسبه أن يكون قد اجتهد، وحسبه أن يؤدي جهده هذا إلى الانتقاد الذي يكمل النقص ويصحح الخطأ، ويوضح المسائل المثارة ويمهد السبل لحسن الاجابة عنها. حسبه أن يكون هناك من هذا كله اسهام ضئيل في ادراكنا لتحدي الماضي، على ضوء مقتضيات الحاضر وآمال المستقبل، وفي صحة ردّنا على هذا التحدي.

برمانا في ١٨ تموز ١٩٥٩

قسطنطين زريق

(*) يؤسفني أني سهوت عن أن أذكر في هذه التوطئة ان هذا الكتاب قد أعدّ ضمن منهاج الأبحاث والدراسات التي تتعهدها هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت بإدارة زميلي الدكتور نبيه أمين فارس. واني أنتهز مناسبة هذه الطبعة الثانية لأقر بفضل الهيئة ومديرها في رعاية هذه الدراسة وعضدها.
شباط ١٩٦٣

لماذا التأريخ؟

٣٧٧/٤

الكتاب الذي نضع الآن بين يدي القارىء محاولة تمهيدية في سبيل تفهم الوعي التاريخي عند الأفراد والشعوب، وادراك معنى التأريخ كعلم ينتظم فيه هذا الوعي، وتحليل موقفنا ـ نحن أبناء العربية اليوم ـ من ماضينا وتاريخنا وأثر هذا الموقف في حاضرنا ومستقبلنا.

ولا بد لنا بادىء بدء من أن نوضح لبساً يكتنف لفظة «التأريخ» وينساب إلى جميع نواحي الموضوع الذي يدور عليه هذا الكتاب. فهذه اللفظة تطلق تارة على الماضي البشري ذاته، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية أخباره، أوالعلم المعني بهذا الموضوع، ويظهر ان الذهن البشري يتنقل عفواً بين المعنَيين دون تمييز دقيق بينهما. فنحن نرى هذا اللبس ذاته في اللغات الأجنبية الحية. فـ: Histoire الفرنسية وHistory الانكليزية وGeschichte الألمانية تستعمل للمعنيين على السواء، إذ يراد بكل منها أحياناً حوادث الماضي وأحياناً أخبار هذه الحوادث أو العلم الذي يحققها. وقد حاول بعض الباحثين الغربيين محاولات شتى للتمييز، فأطلق بعض الفرنسيين مثلاً Histoire (بـ H كبرى) على الماضي وhistoire على العلم، واحتفظ بعض الألمان بـ Geschichte للمعنى الأول وHistorie للمعنى الثاني، واضطر هيغل إلى أن يعود إلى اللاتينية ليميز بين res gestae وhistoria rerum gestarum[1]. ولكن العادة الجارية ظلت غالبة، ولا يزال هذا اللبس قائماً، ولعله ناشىء عن شعور أصيل في الإنسان بالارتباط الدقيق بين معرفة الماضي والماضي ذاته. ويقوى هذا الشعور بصفة خاصة في الأدوار التي يزداد الإنسان فيها إحساساً

(١) Georg Wilhelm Friedrich Hegel, *The Philosophy of History*, translated by J. Sibree (New York: [n.pb.], 1900), p. 60.

بماضيه وتلفتاً إليه وتأثراً به.

أما في العربية، فإن استخدام لفظة «التاريخ» للتعبير عن حوادث الماضي أمر حديث الشيوع. وقد جاءنا، فيما نعتقد، من اللغات الأجنبية والفكر الغربي الحديث وشاع في الآونة الأخيرة مع تنبه شعورنا بالماضي وتجدد اهتمامنا به. ولكي نجتنب هذا اللبس بعض الاجتناب جرينا في هذه الفصول على اطلاق «التأريخ» (بالهمز) على دراسة الماضي و«التاريخ» (بالألف اللينة) على الماضي ذاته الذي هو موضوع هذه الدراسة. ونحن نقر بأن هذا التمييز ليس من البيان والوضوح بحيث يؤدي الغرض المقصود على أفضل شكل، ولكنه يجاري الاستعمال الشائع، وليس هو، على كل حال، أقل دقة من التمييزات التي حاولها البعض في اللغات الأجنبية الكبرى.

* * *

ولقد يتساءل البعض عن جدوى هذه الدراسة التي نقوم بها ـ بل جدوى الاهتمام التاريخي بكامله ـ في الوقت الحاضر: في هذا الوقت الذي تتصارع فيه الأمم والشعوب، ويسعى كل منها إلى السلامة والظفر، وتغشّي سماء العالم غمائم قاتمة تنذر بشرّ العواصف، ويطغى على الجميع القلق والاضطراب والخوف من المصير. أليس أجدى، في مثل هذه الحال، أن تنسى الإنسانية الماضي أو تتناساه، وتنصرف إلى ما يكفل بقاءها ويقيها الأخطار الداهمة ويضمن لها سبل الأمن والاستقرار؟

الحق ان الاضطراب الشامل المسيطر على العالم اليوم يهدد الإنسانية جمعاء بأخطار لم تعرفها سابقاً، وبكوارث لم تكن تتصورها. وهو يتطلب ـ أول ما يتطلب ـ تضافر الجهود وتوجيهها إلى كفالة السلامة وضمان البقاء. ولكن هذا الاضطراب لا يعالج معالجة صحيحة حاسمة تزيح كابوس الخطر إلا بالنفاذ إلى جذوره العميقة واستئصال أسبابه البعيدة. فكل معالجة تنصرف إلى المظاهر السطحية البارزة ولا تتصدى للعلل الباعثة الخفية مقضيٌّ عليها بالخيبة والخسران، مهما يكن نجاحها الآني باهراً ومهما يبدُ فعلها في وقته عظيماً.

وأول ما تفرضه المعالجة الجذرية تبيُّن هذه العلل الباعثة وادراك الأسباب الأصيلة الفاعلة في تكوين المشكلات الإنسانية الحاضرة، وكشف طبيعة هذه الأسباب والعلل وتعيين مداها ونوع أثرها. فالإنسان، فرداً ومجموعاً، هو، إلى حد بعيد، نتاج الماضي. وكل مشكلة من المشكلات التي تعترض الإنسانية في هذه الفترة الحاسمة من حياتها لها جذورها وأسبابها المغروسة في التراث الذي تسلمته من الأجيال السابقة والذي يفعل فيها، كما تفعل هي أيضاً فيه. ومن هنا نرى أن أية

معالجة صحيحة للقضايا الكبرى التي تجابهها الإنسانية اليوم يجب أن تستند إلى معرفة تأريخية شاملة المدى بعيدة الغور، معرفة تثير الأسئلة الأساسية عن واقع المدنية الحديثة وعن كيفية تكوّن هذا الواقع. ما هي المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها هذه المدنية؟ ما هو نظرها إلى الطبيعة، والإنسان، وما وراء الطبيعة والإنسان؟ ماهي القيم التي تؤمن بها وتسعى لتحقيقها؟ ثم ـ وهذا ما يهمنا الآن بصفة خاصة ـ كيف تكونت هذه المفاهيم، والنظرات، والقيم؟ من أية جذور نبتت وتفرعت، وبأي غذاء اغتذت حتى بلغت ما بلغته في مرحلتها الحاضرة؟ ما هي عناصر القوة في هذا الغذاء وفي تلك الجذور التي ولدت مآثر هذه المدنية الجليلة وفتوحاتها الباهرة، وما هي عناصر الضعف التي تبث فيها الفساد وتكاد تدنيها من الانحلال بالرغم من تلك الفتوحات والمآثر؟ ما هي طبيعة التراث الذي يتمتع به الإنسان المشارك في المدنية الحديثة، وكيف يختلف هذا الإنسان عن غيره من الناس الذين لم يتلقوا هذا التراث ولم يفيدوا منه؟

هذه الأسئلة، وسواها مما يكمن وراءها أو ينتج عنها، تدلنا على أن الإنسان الذي يعيش الحياة الحاضرة لا يمكنه أن يشيح بوجهه عن الماضي، وأن نشدان السلامة والاستقرار لمركب الإنسانية المتأرجح ـ الذي يجب أن يتوجه إليه ويسهم فيه كل إنسان وكل شعب ـ لا يكون مجدياً إلا إذا استند إلى فهم صحيح للأصول والأسباب الموروثة وحكم صادق عليها، وإلى ادراك نيّر لكيفية الإفادة مما تنطوي عليه من قوة وغنى والتغلب على ما يشوبها من ضعف وفساد. وهكذا، لا بد لنا، كأفراد وكأمة، إذا أردنا أن نحيا، كما هو واجب علينا، واقعَ الإنسانية الحاضر ـ لا بد لنا من أن نجابه التاريخ.

وثمة ناحية أخرى نصطدم فيها بالتاريخ. ذلك ان من مظاهر الاضطراب الإنساني الحاضر هذه المذاهب المتنافرة والعقائد المتناحرة التي تقتسم الأفراد والجماعات والأمم، وتوجههم وجهات متباعدة وتنمي في نفوسهم ولاءات متناكرة، وتدفع بهم إلى العداء والاعتداء والتخاصم والتنازع. ونحن إذا نظرنا في هذه المذاهب والعقائد وجدنا أن كلاً منها يتضمن تعليلاً معيناً للماضي وللعوامل التي سيرته، وفهماً خاصاً لأسلوب مجابهته في عملية بناء الحاضر واعداد المستقبل. وقد يكون هذا التعليل واضحاً منتظماً بارزاً، وقد يكون خفياً مرتبكاً غامضاً، ولكنه هناك على كل حال، لأن الماضي منساب في جوانب حياتنا جميعاً، وليس باستطاعتنا أن نقف من حاضرنا أو من مستقبلنا موقفاً يهمله أو يتغاضى عنه. ولعلنا نكتفي، تدليلاً على ما ذكرنا، بالإشارة إلى أن النظامين الكبيرين اللذين يتنازعان العالم اليوم ـ النظام الديمقراطي الغربي والنظام الشيوعي ـ ينطويان على اختلافات أساسية في فهم

الماضي وتعليله. وهكذا الأمر في جميع الفلسفات والعقائد التي يتأثر بها الأفراد أو تفعل في الأمم في هذه الأيام. فلا غنى لنا اذن، إذا أردنا أن نحدد موقفنا من هذه العقائد، لنقبل أو نرفض النتائج النظرية والعملية التي تصدر عنها ـ لا غنى لنا عن أن نتبين، في ما نتبين منها، موقفها من الماضي، والتراث، والتطور، والتقدم، والتأخر، وأمثالها من المفاهيم التاريخية التي تتضمنها. فنحن اذن، هنا أيضاً، أمام التاريخ.

* * *

هذا، فيما يتعلق بالواقع الإنساني. ولنا نحن، أبناء البلاد العربية، علاوة على هذا الواقع الإنساني الذي نشارك فيه أو يجب أن نشارك فيه، واقعنا العربي الخاص. وفي هذا الواقع يطل علينا التاريخ من نوافذ متعددة، فنلقاه أينما التفتنا أو توجهنا. نلقاه في خضم هذه الهبة القومية التي تدفعنا إلى إقامة حياة جديدة والتي تدعونا في الوقت ذاته إلى أن نستلهم الماضي ونستمد منه عناصر القوة والفخر والاعتزاز. إن هذا العود إلى التاريخ طبيعي في كل آن ومكان، ولكنه يشتد بصفة خاصة في عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لتنشد الوحدة والقوة فتجد أن من أهم مقومات وحدتها تقاليدها الماضية وأمجادها وبطولاتها السالفة، فتعود إلى هذه الأمجاد والتقاليد، ويعيدها إليها قادتها وموجهوها، لتتقوى بها ولتفيد منها العضد المعنوي والروحي في نهضتها المتوثبة وفي سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة.

والعرب اليوم في مثل هذه الحال. لقد كان تنبهنا لتاريخنا من أعظم العوامل في نهضتنا الحديثة منذ بزوغ فجرها في القرن الماضي، وما زال كذلك حتى الآن. فما دمنا نعود إليه مختارين أو غير مختارين، واعين أو غير واعين، وما دمنا نستلهمه ونستوحيه، فمن الخير لنا أن تكون عودتنا عودة أصيلة متبصرة؛ يهديها العقل ويوضحها فهم صادق لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا، وتمييز دقيق بين عناصر تراثنا المختلفة: بين تلك التي يجب أن نحرص عليها ونبني على أساسها وتلك التي ينبغي أن نطرحها جانباً ونتخطاها إلى ما هو أفضل وأبقى. وبعبارة أخرى: ما دمنا مدفوعين في هبتنا القومية إلى وعي تاريخي، فليكن هذا الوعي صحيحاً، متفتحاً، مستنيراً، كي يكون لنا مصدر قوة دائمة لا مبعث هزات عابرة، وعاملاً من عوامل البناء والإنتاج والابداع، لا قوة تجرنا حيناً إلى الوراء وحيناً إلى الأمام فتحيرنا وتعيق سيرنا وتحول دون ما نبتغي من تقدم ثابت وانطلاق خيّر حثيث.

ونجابه التاريخ بوجوه وأشكال أخرى، منها تلك الاختبارات المريرة، والنكبات والمآسي التي عرفناها في العقود الأخيرة. فلقد جهدنا، وما نزال، للتخلص من التحكم الأجنبي، وجهدنا، وما نزال، لمكافحة الأدواء الداخلية المتوارثة عن الأجيال. فظفرنا في ميادين، وهزمنا في ميادين أخرى أهمها ميدان فلسطين، ولا تزال

هذه الهزيمة طعنة نكراء لكرامتنا وعزتنا وخطراً على كياننا ومستقبلنا. ورافق هذا كله سفك دماء، وتشريد واجلاء، وقلق واضطراب. هذا، بالإضافة إلى الاضطراب الناتج عن تبدل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وتحوّل الأخلاق والعادات والعقائد والتقاليد.

إن هذه التجارب التي نمر فيها لتدفع الكثيرين منا إلى التساؤل عن أسباب هذه الأحداث التي توالت علينا، وعن أصول العلل التي أضعفتنا وأوقفتنا زمناً طويلاً عن النهوض وأخضعتنا لغيرنا ونشرت في جسمنا الأدواء. ويقودنا هذا التساؤل إلى التلفت إلى تاريخنا، فمنا من يرتمي في أحضانه ليستريح وينتشي، ومنا من يجابهه ممتحناً ناقداً حاكماً. وكل من هذين الموقفين، أو أي موقف آخر، يتضمن لقاء للتاريخ ويقتضي فهماً صحيحاً لواجبات هذا اللقاء ونتائجه.

ويذهب البعض منا في مجابهتهم ونقدهم إلى حد الثورة. ففي عرفهم أننا في هبتنا الحاضرة لبناء مجتمع جديد ناهض ووطن قوي زاهر لأحوج ما نكون إلى نقض ما ورثناه من الماضي مما يعرقل سيرنا ويحد انطلاقنا، هذا الانطلاق الذي يجب أن يكون مندفعاً سريعاً دون ما هوادة أو تخلف. فلنحجم اذن عن الالتفات إلى الوراء، ولنمعن في الحاضر قلباً وتبديلاً، متطلعين بأنظارنا كلها إلى المستقبل وإلى مُثل الحياة التي نعتزم تحقيقها. تجاه هذا القول يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه الثورة ذاتها تستدعي ــ إذا أردناها صحيحة مثمرة ــ أن نكون مدركين لما نثور عليه حق الادراك، وإلا قضت على الصالح والفاسد دون تحقيق أو تمييز. وهي تتطلب أيضاً تقديراً مضبوطاً لنطاقها وحدودها ــ للمدى الذي تستطيع فيه أن تتجرد هي ذاتها من الماضي أو أن تجرد أصحابها منه. ثم أليست هي نفسها، بعد هذا وذاك، دليلاً على إحساس متنبه بالماضي وبالأثر الذي له في حياة الأفراد وفي واقع الأمة؟ فما دام الأمر كذلك: ما دمنا لا نستطيع أن ننفصل كل الانفصال عن الماضي حتى عندما نثور عليه، فخير لنا أن تكون هذه الثورة قادرة هذه الحقيقة حق قدرها، مهيبة بنا إلى تفهم جديد لتراثنا، ووعي متنبه للعوامل التي كونته، فتزيد بصرنا حدة، وإدراكنا نفاذاً، ونقدنا وحكمنا رجاحة وحسماً، وتقودنا إلى أن نعرف أنفسنا وكيفية تكوننا وإمكانات غدنا معرفة أدق وأصدق. إنها إذا فعلت ذلك سارت إلى أهدافها على هدى وبصيرة، وعملت على جعل أزمة الواقع العربي الحاضرة مصدر خلق وابداع، فإذا القلق المهيمن لا يتهرب من الحياة بل يجبهها ويشق لها طرقاً جديدة، وإذا الاضطراب يغدو سبيلاً إلى فهم أوفى وعمل أجدر وأجدى.

من هذه الوجوه جميعاً نرى أن واقعنا العربي، بالإضافة إلى الواقع الإنساني، يفرض علينا مجابهة جديدة صريحة لماضينا القومي وللتاريخ الإنساني عموماً،

مجابهة ترتفع إلى مستوى هذين الواقعين الخطيرين وتنهض بمطالبهما الدقيقة العسيرة.

* * *

إن القلق والاضطراب ليفعلان فعلهما اليوم في تنبيه الوعي التاريخي عند الأمم السائرة في طليعة المدنية الحديثة في الغرب والشرق. فهما يهيبان بالمفكرين والفلاسفة والعلماء إلى المزيد من التساؤل عن الماضي واستجلاء معانيه، وإلى التطلع بشوق وإلحاح إلى استكشاف ما يتضمنه هذا الماضي من عناصر استقرار يمكن أن يركن إليها في خضم الاضطراب الشامل، ومن عوامل تقدم ورقي يجب أن يسعى إليها ويتمسك بها ويحرص على الاستفادة منها.

وقد لاحظ المفكر الروسي نقولا بردياييف، كما لاحظ سواه من المفكرين المحدثين، ان عهود النكبات في التاريخ الإنساني كانت دائماً حافزة إلى التفكير في الماضي وفي المصير، ومثيرة للاهتمام في تفسير التاريخ وتعليله. فأغسطينوس الذي عاصر نكبة من أعظم النكبات ـ وهي تداعي العالم القديم وسقوط روما ـ وضع أول مذهب شامل في تعليل التاريخ كان له أثر عظيم في المذاهب التي تلته. وكذلك كان عصر الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية خصباً في ما أثمره من محاولات لتفهم التطور التاريخي ولاستكناه جوهره ومعناه(٢).

وفي التراث العربي نلاحظ كذلك ان جهد ابن خلدون الجبار في دراسة العمران البشري واستخراج قوانين التطور الاجتماعي جاء في عهد كان فيه العالم الإسلامي المترامي الأطراف قد انقسم دولاً متناحرة تغير عليها جحافل الغزاة، وكانت مدنيته قد سارت خطى واسعة في طريق الانحطاط والانهيار. فأثار هذا كله في نفس ابن خلدون تساؤلات خطيرة عن نشوء الأمم وتطورها وتداعيها، وجاءت تلك المقدمة الرائعة التي نظم بها هذه التساؤلات وأجوبته عنها فكانت أثراً خالداً من أبرز آثار التفكير التاريخي والاجتماعي.

ولقد قال هيغل، كبير فلاسفة التاريخ الجرمان، ان بومة مينرفا (الحكمة) لا تبدو إلا عند الغسق. وها نحن نرى ان شعوب الأرض يعتريها اليوم خوف وقلق ملحّان، إذ تخشى أن تكون شمس المدنية الحديثة قد مالت إلى الغروب، وأن يكون الغسق قد بدأ يغشاها ويغشى العالم الذي آمن بها. فهذه الفتوحات الباهرة التي رفع

---

(٢) Nickolai Aleksandrovich Berdiaev, *The Meaning of History* (London: [n.pb.], 1945), pp.1 ff.

لواءها العلم، والخيرات المتدفقة التي فجرتها الآلة من بطون الطبيعة، والإنتاج الضخم الذي يندفع كالسيل الهادر من المعامل والمصانع ـ هذه وسواها من مآثر المدنية الحديثة تبدو وكأنها لم تجلب للإنسانية الأمن والصفاء والسعادة المرجوة، بل توشك أن تقودها إلى شفير هاوية لا يعلم إلا الله قرارها. فلا عجب في أن يتساءل العقل الإنساني في مثل هذه الحال عن الاتجاه الذي تسير البشرية فيه، وعن المجرى الذي يحملها من ماضيها إلى حاضرها، ومن حاضرها إلى مستقبلها. لا عجب في أن يتساءل ويلح في التساؤل عن المصير: ما هو، وما هي طبيعته، ما هي القوى التي تدفعنا إليه، وكيف يمكننا أن نسيطر على هذه القوى ونوجهها إلى ما فيه السلامة والخير ونحوّلها عن سبل الخسران والشر.

ونحن، أبناء البلاد العربية، الذين يكتنفنا هذا الاضطراب العالمي الشامل كما يكتنف سوانا، والذين خبرنا في تاريخنا الحديث فوق هذا كثيراً من المآسي والنكبات، خليقون بأن نبذل جهدنا لنسبر اغوار هذا الواقع المتأزم المزدوج في مظهريه القومي والإنساني، وبأن يدفعنا هذا كله إلى ادراك أدق لأسرارنا وسبر أعمق لأغوارنا، فنتساءل عن ماضينا الذي نندفع منه وعن مصيرنا الذي نندفع إليه، كي نعي حقيقة هذا وذاك، ونعمل ما في استطاعتنا للتحكم بالمصير، بدلاً من أن نكون له محكومين مسيرين.

* * *

وسواء كنا في عهد اضطراب عالمي أو لم نكن، وسواء انطلقنا في انبعاث قوي أو لم ننطلق، فكل منا، من حيث هو إنسان، مرتبط بماضيه وبإحساسه بهذا الماضي ارتباطاً محكماً غير منفصم. فالإنسان، كما سنوضح في ما يلي من الفصول، «تاريخي» بجوهره. فمنذ أن بدأ يدرك ما حوله ويدرك ذاته ـ منذ أن بدأ يصبح إنساناً، كان تذكره وإحساسه بما جرى له جزءاً من وعيه المتنبه، وبالتالي جزءاً من إنسانيته. هذا التذكر والإحساس هو عنصر من العناصر الهامة التي تميز الإنسان عن الحيوان. فلا إنسان بلا تاريخ، ولا تاريخ بلا إنسان..

وتاريخية الإنسان لا تقتصر على تذكره للماضي وتسجيله له. وإنما **الإنسان**، كما سنرى، تاريخي بمعنى آخر: بمعنى أنه كائن حي فاعل، وبهذه الصفة لا يتأثر بالواقع فحسب، بل يؤثر فيه، ولا يكتفي بأن يكون نتيجةً ومحصولاً بل يطمح إلى أن يغدو سبباً فاعلاً ـ لا يقف عند التأثر بالتاريخ والخضوع له، بل ينشيء الحياة ويصنع التاريخ. إن اهتمامه، وقلقه، وفكره، وتطلعه إلى المستقبل تدفعه إلى الاحساس بأنه في وسط مجرى الحياة المتدفقة، فهو مدفوع ودافع، وموجَّه وموجِّه، هو ابن

التاريخ وأبو التاريخ في وقت واحد، وتاريخيته تتضمن هذين المعنيين معاً.

وارتباط الإنسانية بالتاريخية ليس هو من حيث الأصل والكيان فحسب، بل من حيث التفاعل والتأثير المتبادل أيضاً. فكلما ارتفع الإنسان في مراتب الإنسانية، ارتقت نظرته التاريخية وغزر فعله التاريخي، وكذلك كلما كان وعيه للماضي أصفى ومجابهته له أصدق وأعمق اغتنى كيانه الإنساني وغدا أقدر على الإنتاج والإبداع.

ونحن نرى هذا بين شعب وشعب: نرى الفارق بين الفهم التاريخي المبدع عند الشعوب المتطورة والشعور التاريخي المائع الغافل أو المسكن المخدر عند الشعوب المستكينة المتأخرة. وكذلك نرى هذا الفرق بين أدوار حياة الشعب الواحد: الأدوار البدائية الأولى، وأدوار العز والإبداع، وأدوار الهلهلة والانهيار.

وما دام الأمر على هذه الحال ــ ما دامت إنسانية كل منا مرتبطة بحسه التاريخي وفعله التاريخي، وقيمتنا كأمة متأثرة بهذا كلّه ــ فحريٌّ بنا أن ننفذ إلى ذلك الحس ونتفحص هذا الفعل، لنرى صحتهما ونضجهما وجدارتهما بما نطمح إليه من مرتبة إنسانية وقيمة ذاتية، كأفراد وكأمة.

هذا الاعتبار، المستقل عن ظروف واقعنا القومي الخاص والواقع الإنساني الذي يشملنا، هذا الاعتبار الذي يمس كلاً منا من حيث طموحه ومرتبته كإنسان، ويمسنا كأمة من حيث المزايا الإنسانية العريقة التي نجهد لتحقيقها والتي نريد أن نُعرف بها ــ هذا الاعتبار يجب أن يكون حافزاً آخر من الحوافز التي تدفعنا إلى السعي لإدراك الماضي على حقيقته، ولاتخاذ موقف سليم منه، ولربطه ربط فعل وإنتاج بالحاضر الذي نعاني مشكلاته وبالمستقبل الذي ننشد بناءه.

* * *

وبعد، فلكل منا عمله ووظيفته اللذان قد اختارهما أو دفع إليهما. وعليه أن يسهم، من خلالهما، في تعزيز الفهم الصحيح ودعم العمل البناء. على كل منا أن يضع الحجر الذي يخصه في الصرح القومي وفي الصرح الإنساني. والذين منا قد اتجهوا إلى التأريخ واتخذوه مجالهم في ميادين الفكر والعمل مدعوون إلى أن يثابروا على توضيح وظيفتهم لأنفسهم كي يستطيعوا ايضاحها لسواهم. إنهم مدعوون إلى أن يرتفعوا فوق مجرد رواية الأحداث وترديد الأخبار إلى استجلاء معانيها لهم ولقومهم وللإنسانية، وإلى تبيان آثارها في مشكلات حياتهم الحاضرة وفي المصير الذي يتوجهون إليه أو الذي يهيئونه هم بأيديهم وعقولهم. فإذا هم لبوا هذه الدعوة ووفوا بمقتضياتها، حققوا أسمى مطالب وظيفتهم، وكانوا مبدعين فكراً وعملاً: في تبين المصير وفي إعداده والتحكم فيه.

هذه الدعوة التي تتوجه للمؤرخ في الأيام العادية ـ أيام الدعة والاستقرار ـ يشتد الحاحها ويعظم خطرها في أوقات الاضطراب وفي أزمنة الهبّات والثورات. ذلك ان الحاجة إلى الفهم والافهام تغدو في هذه الأزمنة والأوقات أبلغ منها في سواها، وأثرها يكون أعظم وأضخم. فإن هذه الأدوار من حياة الأمم تتميز بالتغير السريع والتبدل المتتابع، وبتراكم النتائج وتضخمها. ولذلك كانت التبعة فيها على المفكرين والعاملين أثقل منها في الأدوار الأخرى: إذ إن طاقات الخير والشر وإمكانات الاصلاح والافساد هي فيها أشد سعة وأسرع انطلاقاً مما هي في سواها. وعلى المؤرخ، كمفكر وكعامل، أن يلبي هذه الدعوة وأن يضطلع بهذه التبعة، وأن يرد على تحدي الشدة والاضطراب بالجد المتزايد لاستيضاح مهمته وايضاحها، واستجلاء الموقف الذي يجب أن يتخذه هو ومجتمعه من الماضي، والعمل لجعل هذا الموقف فعالاً مبدعاً في إنارة الفكر وتقدمه، وبناء الحياة ورقيها.

على ضوء هذه الاعتبارات كلها نرى أن الواجب يدعو إلى إثارة التساؤلات التي نعرضها في الفصول التالية، وإلى الاجابة عن هذه التساؤلات بقدر ما يتبين لنا من نور، وما يتراءى لنا من حق.

وانا لنأمل أن تثير هذه التساؤلات تساؤلات أخرى أعمق منها وأبعد نطاقاً وأشد خطورة، توسع مدى اختراق الحجب واطلال نور الحقيقة. إذ بهذا النور يجب أن نهتدي في حل مشكلاتنا، وبناء حياتنا الحاضرة، وإعداد مستقبلنا ـ **وبصورة خاصة** ـ في تنقية كياننا الذاتي وتأصيله واغنائه: هذا الكيان الذي هو السند الأخير والجوهر الباقي لأية خطة نختطها، أو أي نظام ننشئه، أو أية قومية نبعثها، أو أي مجتمع انساني نبنيه، لأنه اللب والمحتوى، وكل ما سواه رهين به وقائم عليه.

وبنتيجة سعينا هذا ترتفع «تاريخيتنا»، وبالتالي «إنسانيتنا»، إلى مستوى الواقع الذي نعيش فيه، فنكون به خليقين وعليه قادرين.

موقفنا من الماضي

إن موقفنا من ماضينا ـ شأننا في هذا شأن أي مجتمع من المجتمعات ـ مظهر من مظاهر موقفنا العقلي أو موقفنا الكياني العام. فنحن اليوم في دور تحول وتبدل: من مجتمع تسطو عليه نظم القرون الوسطى وذهنيتها إلى مجتمع يتطلع إلى حياة جديدة قائمة على النظم التي تمثل المدنية الحديثة وعلى العقلية التي أنشأت هذه النظم والتي لا تزال تعمل في تحويلها وتعديلها.

والظروف والأحوال التي نعيش فيها ـ ظروف العالم الذي يحيط بنا من كل صوب وظروفنا التاريخية الخاصة ـ تدفعنا إلى الاسراع في التحول والقفز في مجالات التطور، وإلى الاندفاع الثوري في الفكر والعمل. فقد ضقنا ذرعاً بما حملنا في القرون الماضية القريبة من أثقال، وما تعرضنا له من أخطار، وما أصابنا من نكسات، ونفد صبرنا، وأخذنا نحس بقوى تنبعث منا وتلح علينا إلحاحاً مشتداً مدوّياً للتخلص مما نحن عليه من تخلف واستكانة ولتحقيق كرامتنا في الوجود، وذلك بأسرع وقت وأقصر سبيل.

هذا الشعور الدافق الذي يعترينا، وهذه القوى الصاخبة التي تفعل فينا، هي التي أدت إلى الهبّات الثورية التي نعانيها في العالم العربي، والتي تعمل في قلب نظم الحكم ومفاهيمه، وتصب همها على تجميع القوى للتأهّب الكامل والاصلاح العاجل. وهي نفسها وراء التيارات الثورية التي تجتاح تفكيرنا ومسالك عملنا في نواحي الحياة الأخرى: في النظم والعلاقات الاجتماعية، في المبادىء الخلقية والاتجاهات الأدبية والمعتقدات الدينية.

في مثل هذا الموقف، المتصف بالتحول السريع، تتلاقى التيارات المندفعة من كل صوب وتختلط، وتصطدم النزعات بعضها بالآخر فتتقارب أو تتنافر. وهذه

حال تختلف عما يحدث في التطور البطيء الرفيق الذي تؤدي به كل مرحلة إلى ما يليها بهدوء وفي جو من الاستقرار والاستمرار. في الدور الذي نشهده ونختبره تتلاقى المراحل المتباعدة جنباً إلى جنب وتصطرع العقليات التي تمثلها اصطراعاً شديداً قد تكون نتائجه خيراً ونفعاً أو قد تنقلب شراً ومضرة وفقاً لاستعدادنا الفكري العام وما يتصف به قادتنا ومجهودنا من نفاذ في الفكر وصدق واتزان في العمل. فمنا مثلاً من لا يزال يعيش في القرون السحيقة في القدم وبذهنيتها، ومنا من يصارع تيارات القرن العشرين الصاخبة، ومنا من يقف في مرحلة من المراحل العديدة بينهما. بل منا من يفكر ويعيش في جانب من حياته في مرحلة، وفي جانب آخر في مرحلة أخرى بعيدة عنها كل البعد مختلفة عنها أشد الاختلاف. فإذا بالشخصية الواحدة منقسمة على ذاتها: انقساماً لاشعورياً مضحكاً في بعض الأحيان، وانقساماً في أحيان أخرى واعياً ثائراً منطوياً على كثير من الألم المولد والتفاعل النفسي المثمر.

* * *

هذا الوضع ذاته، من حيث تعدد التيارات وتصادم النزعات، نجده في موقفنا من تاريخنا، إذ لا يعدو أن يكون هذا الموقف مظهراً من مظاهر موقفنا من الوجود والحياة بوجه عام. فنظرتنا إلى الماضي هي في هذه الأيام مزيج مشوش تختلط فيه تيارات متنوعة ونزعات مختلفة أو متناقضة. ولئن بدأت بعض هذه النزعات تتفاعل تفاعلاً ايجابي المحتوى والأثر، فإن هذا التفاعل لا يزال في أدواره الأولى، ولا يزال زاخراً بالإمكانات التي تنتظر الفكر النيّر والعمل الجريء لتعطي ثمارها يانعة خصبة محيية.

من هذه التيارات يمكننا في هذا العرض التمهيدي الاكتفاء بأربعة نعتقد انها أهمها وإن كانت تتفاوت فيما بينها سعة انتشار وقوة أثر. ولا شك في أن كلاً من هذه التيارات يختلف شدة وشكلاً ولوناً حسب الظروف والأحوال والطبقات الاجتماعية التي يجري فيها. على أن لها جميعاً أيضاً ـ ضمن هذا الاختلاف ـ مميزات أصيلة هي مصدر الموقف التاريخي الأساسي الذي تنبعث منه. وهذا الموقف الأساسي هو ما سنحاول النفاذ إليه وعرضه في الملاحظات التالية:

أول هذه التيارات: التيار التقليدي. وهو الذي لا يزال ينبع من مصادر القرون الوسطى، ويجري ضمن الحدود والسدود التي تكونت في خلال القرون الماضية، ولا يقبل مطلقاً ـ أو لا يقبل إلا متردداً ـ على الاستمداد من منابع ومصادر أخرى، إذ إنه مكتفٍ بمنبعه، وواثق بأنه مصدر كل حق، وبأن الابتعاد عنه أو التوجه إلى سواه زَيْغ وضلال.

يتميز هذا التيار بالاتجاهات التاريخية التالية:

١ ـ لا يزال تاريخنا في عرف السائرين في هذا التيار هو تاريخ «الأمة» الإسلامية كما أن مجرى التاريخ الإسلامي هو عندهم المجرى الرئيسي في التاريخ العالمي، ولذا يكاد اهتمامهم يكون مقصوراً عليه، وإذا نظروا إلى سواه فمن خلال أحداثه ومراحله الماضية والحاضرة. ولما كان أي موقف من الماضي لا ينفصل عن الموقف المتخذ من الحاضر والمستقبل، فإن همّ أصحاب هذا الموقف هو تمتين بعث «الأمة» الإسلامية وانقاذها من الاعتداءات الخارجية التي نزلت بها ومن الشوائب الداخلية التي لحقتها، واحياء أمجادها لتعيد رسالتها الماضية الحافلة بالعز والعطاء.

٢ ـ إن تعليل نشوء الأحداث وتطورها هو، بحسب هذه النظرة، تعليل إلهي. فدوافع التاريخ ليست، أو على الأقل ليس أهمها وأبلغها فعلاً، في يد الإنسان، بل تحكمها مشيئة إلهية وقوانين سماوية. وحياة الأفراد والشعوب على هذه البسيطة ليست سوى مقدمة للحياة الحقيقية، حياة السعادة الدائمة أو الشقاء الدائم، في العالم الاخر. فمن العبث اذن أن نحاول تعليل الأحداث الإنسانية بإعادتها إلى الجنس أو المحيط أو أي عامل من العوامل الطبيعية أو البشرية الأخرى. إن محور التاريخ ليس في هذا العالم بل في العالم الأعلى.

٣ ـ من حيث أسلوب المعرفة التأريخية، لا يزال الاتجاه السائد عند أصحاب هذا الموقف هو التصديق والركون إلى أخبار السلف. فمع أن الدين في جوهره ومبادئه الروحية الأساسية لا ينفي النظر النقدي إلى مصادر التأريخ والأسلوب العلمي في استنتاج حقائقه بل يقبلهما ضمن حدود معينة يرسمها لهما، فإن الكثرة الغالبة من أصحاب الموقف التقليدي عندنا لم تطلع على أساليب التحقيق التأريخي التي استنبطت في القرون الثلاثة الأخيرة، بل لا نغالي إذا قلنا انها ضعيفة الصلة بأساليب النقد التي استنبطها العلماء المسلمون في عصور نهضتهم وإنتاجهم.

وإذا أردنا أن نوجز موقف هذا الفريق من مواطنينا قلنا إنه موقف متميز بالعقلية التي كانت سائدة في الشرق والغرب في القرون الوسطى، بل في أواخر تلك القرون، عندما فقدت تلك العقلية حيويتها وإنتاجها، بخسرانها الاقدام والتفتح ونقد الذات.

وليست هذه النظرة الدينية التقليدية مقصورة على الكثرة الإسلامية في المجتمع العربي، بل تبدو أيضاً عند فريق من الأقلية المسيحية يتصف أساساً بنفس العقلية التي حاولنا رسمها وإن كان يتجه اتجاهاً مختلفاً من حيث مصدر وحيه وغاية احيائه. إنه يلتفت إلى الماضي ويجابه الحاضر ويتطلع إلى المستقبل ضمن الاطار التقليدي المسيحي، ويرى في هذا الإطار متن التاريخ الإنساني، وكل ما عداه هامشاً له أو حاشية. ويعلل احداث التاريخ تعليلاً إلهياً خارقاً للطبيعة، ويهمه أن يتحقق في هذا العالم المجتمع المسيحي الأفضل الذي لا يتعدى أن يكون صورة ومقدمة للعالم

الحقيقي السرمدي وراء التاريخ البشري وبعده وفوقه.

قلت إن هذه النظرة تنطبق على فريق من المسيحيين في المجتمع العربي. وهو فريق أصغر، بالنسبة إلى مجموع المسيحيين العرب، مما هو الفريق التقليدي الإسلامي بالنسبة إلى مجموع المسلمين. وما هذا الاختلاف سوى نتيجة لعوامل تاريخية فعلت فعلها في القرون الأخيرة. فالأقلية المسيحية كانت بحكم أوضاعها أسبق إلى التأثر بالفكر الغربي وبالحياة الغربية عموماً. ثم إن المسيحية في مراكز ثقلها وتجمّعها في الغرب قد تعرضت في القرون الخمسة الأخيرة لتنبهات العقل الحديث المتتابعة المتراكمة منذ عهد النهضة الأوروبية وتفاعلت وإياها، فكان لا بد لها من أن تتأثر بها، وكان لا بد من أن تتسرب بعض نتائج هذا التأثر إلى المسيحية في الشرق عن طريق الصلات المتعددة التي قامت بينهما في غضون هذه القرون.

ويلاحظ القارىء أننا في وصفنا لهذا المجرى التقليدي، لم نجد غنى عن توجيه النظر رأساً إلى المفاهيم الدينية، الإسلامية والمسيحية. فهذه المفاهيم هي، عند الذين لا يزالون ضمن هذا المجرى، الدليل الأمين إلى حقائق الحياة الأساسية، وإلى معنى الأحداث المتعاقبة في الزمن وإلى العلة الفاعلة في هذه الأحداث. ولنذكر ثانية أن هذه العقلية هي التي كانت سائدة في القرون الوسطى، في الغرب المسيحي وفي الشرق الإسلامي، وهي تختلف عن العقلية الغالبة في العصر الحديث والتي تنزع إلى الاهتمام بهذا العالم الأرضي، وبالعوامل البشرية والطبيعية المسيرة للأحداث، وبالعقل المنطلق إلى استكشاف الحقيقة بالملاحظة والاختبار والذي يخضع كل شيء، مهما قدم عهده أو عظمت حرمته، لمحك الامتحان الدقيق والنقد المحكم المتزن. ولا ننكر أن فريقاً من أرباب الفكر في العصر الحديث، ممن هالهم ما أصاب المدنية البشرية من كوارث في هذا العصر، وممن لاحظوا عجز هذا العقل الذي وصفنا عن كفالة السلام والسعادة لبني الإنسان، أخذوا يرتدّون إلى الأصول الدينية، ويتطلعون إلى ما وراء هذا الكون، ويعودون إلى التعليلات الإلهية، ويدعون إلى الايمان بالحقائق الإنسانية والالهية التي لا سبيل للعقل المنطقي إلى كشفها. ومن هؤلاء من يدعو صراحة إلى بعث تفكير القرون الوسطى ويحمل لواء موقف عقلي «وسيطي» متجدد (neo-medievalism). ولكن هذا الفريق واقرانه قد تمثلوا جوهر العلم الحديث والتقليد العقلي الذي تراكم في القرون الخمسة الأخيرة، وشعروا في الوقت ذاته بالحاجة إلى تخطيهما. أما عندنا، فلم يحدث هذا التمثل والتخطي، وإنما لا يزال التقليديون منا يحتفظون بتقليد القرون الوسطى ـ أو بالأحرى بما اتصف به هذا التقليد من ركود وجمود في أدواره الأخيرة، دون أن يجوزوا اختبارات العقل ومكاسبه في العصور الحديثة.

إن الذين يقفون هذا الموقف التقليدي اليوم ـ وسواهم من المواطنين ـ يجب أن يعرفوا جوهره واتجاهه وحدوده، كما يجب أن يعرفوا جواهر المواقف الأخرى واتجاهاتها وحدودها ـ كل ذلك بتفتح تام لنور الحقيقة وايمان بها وخضوع لها، كي لا نزيغ ولا نخدع أنفسنا في تصور ماضينا أو معالجة حاضرنا أو بناء مستقبلنا.

* * *

أما التيار **الثاني** الذي يتجلى في نظرنا إلى الماضي، فهو تيار صاعد متضخم يزداد يوماً بعد يوم سعة مجرى وقوة اندفاع. نعني به التيار القومي، سواء أعربياً شاملاً كان أم إقليمياً محصوراً، والتضخم والتصاعد أبين في الأول وأعظم.

إن هذا التيار، ككل تيار قومي، يصدر من منابع كيان الإنسان من حيث هو فرد من جماعة، يشاركها لغتها وتقاليدها وآمالها وآلامها؛ ويجد سلامته ومنعته في سلامتها ومنعتها، ويطمح إلى أن يراها تحتل مراتب العز والفخار. ولكن المجاري التي يجري فيها هذا الشعور تختلف باختلاف النظم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية السائدة. ولقد كان المجرى الرئيسي الذي اتخذه في العصر الحديث هو المجرى القومي. فغدا هذا الشعور، بتأثير قوى هذا العصر واتجاهاته يتمثل بمفاهيم ونظم معينة: مفاهيم تقول بوحدة الأمة المستمدة من وحدة لغتها وتقاليدها ومصالحها وآمالها وآلامها، ونظم تتجلى فيها إرادة تمتين الكيان القومي واغناء نتاجه المادي والعقلي والروحي والجهد لحمايته من الأخطار الخارجية.

وقد حدث هذا التطور أول ما حدث في بلدان غربي أوروبا بفعل الاختبارات الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التي جازتها في أوائل العصر الحديث حين ثارت على مفاهيم القرون الوسطى ونظمها. ومن هذه البلدان تسرب هذا التطور إلى البلدان الأوروبية الأخرى وإلى القارة الأميركية، وها هو منذ أوائل القرن الحاضر يجري باندفاع متزايد نحو شعوب آسيا وافريقيا سواء العريقة منها التي أصابها انتكاس فتراخى فعلها وطمر مجدها الغابر، أو التي بدأت تلج اليوم ميدان التاريخ الحي الفاعل. وقد كانت هذه وتلك قد خضعت لنفوذ الأمم الغربية واستعمارها، فأخذت بنتيجة تأثرها بتطورات الحياة الحديثة تستفيق لتتحرر منهما؛ ولتنشد الاستقلال والوحدة ورفع مستوى العيش والإسهام في الحضارة.

هذا ما أخذنا نتحسس به نحن العرب منذ منتصف القرن الماضي، فكان تنبهنا وئيداً في بادىء الأمر، ثم أخذ يزداد قوة وسرعة إلى أن بلغ ما بلغه اليوم من حدة وانتشار. وقد تكيّف، في خلال تطوره، بعوامل متعددة داخلية وخارجية، منها:

اقتباسنا لمفاهيم الحياة الحديثة ونظمها، وسرعة تطور هذه النظم والمفاهيم في السنوات الأخيرة؛ ومنها اختبارنا في جهادنا الأمم التي تغلبت علينا، والصراع القائم بين هذه الأمم ذاتها؛ ومنها ما يصاحب التنبه القومي عند جميع الشعوب ـ وبخاصة عند الشعوب العريقة ـ من التفات «رومانطيقي» إلى الماضي، ومن تأثر بالغ بما يوحيه.

وهذا يقودنا إلى الناحية التي تهمنا هنا: وهي النظرة التأريخية التي تتجلى في هذا التيار القومي. إن هذه النظرة، في ما يبدو لنا، تتصف بما يلي:

١ ـ اقبال على الماضي اقبالاً يكاد في بعض الأحيان يبلغ حد الانغماس التام والخضوع الكلي له، بحيث ينصرف الخيال والفكر والسعي إلى ما يبدو لنا في ذلك الماضي من أمجاد، فنقف عندها ونتغنى بها وننزع إلى إحيائها وبث روائعها في القلوب والنفوس. يتجلى هذا الاقبال وهذا الاستيحاء في مظاهر عدة: منها المكانة التي نحل بها التأريخ القومي في مناهجنا الرسمية، واتجاه هذه المناهج والكتب التي تؤلف لتطبيقها، ومنها هذا الميل الجارف الذي نجده عند أدبائنا إلى معالجة موضوعات التاريخ القومي، وإلى كتابة سير أبطاله واحياء أمجاده بأسلوب شعبي مشوق (راجع مثلاً إنتاج عباس محمود العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل وأمثالهم، مع ملاحظة اختلاط الاتجاه القومي عندهم بالاتجاه التقليدي) ومنها الرواج الذي يجده عند الناشئة وفي صفوف الجماهير هذا النوع من الأدب التأريخي وما يكتب على نهجه، مما ينشر في سلاسل المطبوعات العامة أو في المجلات والصحف السيارة، ومنها أخيراً ـ بل أولاً ـ هذا الصدى المحبب الذي تلقاه في صدورنا أية استثارة للماضي في الخطب السياسية، أو القصائد الحماسية، أو الروايات المسرحية، وأية دعوة، مهما كان مصدرها ولونها، لتبيان محاسن السلف واحياء مآثرهم.

ولسنا في هذا كله بمختلفين عن سوانا من الشعوب التي اجتازت هذا الطور نفسه الذي نجتازه اليوم. ذلك ان كل احياء قومي في العصر الحديث قد رافقه بعث للتاريخ القومي. حصل هذا في انكلترة وفرنسة والمانية وايطالية وروسية وغيرها في القرنين الماضيين، كما يحصل اليوم، لشعوب أخرى، في الشرق والغرب، في مثل هذه المرحلة من التطور. ففي هذه المرحلة يرتد كل شعب إلى تاريخه وحضارته الماضيين ـ إلى سير الأبطال، وسجل الفتوحات والانتصارات، وروائع الأدب والفن، ومآثر العلم والفلسفة وإلى التقاليد الشعبية والأخلاق والعادات المتوارثة ـ يعود إلى هذا كله لإحيائه وبثه في الحياة الجديدة، ايماناً منه بوحدة الحياة القومية واستمرارها، وبخصائص تقاليده القومية وضرورة بقائها وتجددها لحفظ كيانه من جهة وللاسهام في الحضارة الإنسانية من جهة أخرى.

٢ ـ إن هذا الاحياء القومي الذي نبتغيه ونسعى إليه يختلف حسب تقديرنا لواقعنا وحسب الصورة التي نرسمها لمستقبلنا. فالذين يؤمنون منا بقومية عربية شاملة

ينصبون على التاريخ العربي والحضارة العربية. أما الذين يؤمنون بقومية أخرى ـ سورية كانت أو لبنانية أو مصرية أو عراقية ـ فإن كل فريق منهم ينصرف إلى احياء مجد البلد الذي يخصه والحضارة التي يعتقدها لب قوميته وميزة أمته. وهنا أيضاً نجد ما يماثل هذا الاختلاف في اختبارات الأمم التي سبقتنا في هذا التطور. نجده في تاريخ فرنسة والمانيَة وايطالية وغيرها من الأمم. وهو ان دل على شيء، فعلى حقيقة أساسية تتغلغل في فكر الإنسان وفي كيانه، وتتراءى لنا من مختلف نوافذ البحث الذي نتناوله في هذه الفصول. هذه الحقيقة هي أن نظرة الإنسان لماضيه تتأثر إلى حد بعيد بنوع تقديره لحاضره وبالصورة التي يرسمها لمستقبله. ففي ذهن الإنسان الحي ونفسه يتجاذب الحاضر والماضي والمستقبل تجاذباً دائماً، وتتفاعل جميعها تفاعلاً مستمراً، فلا يستطيع الفرد أو الشعب أن ينصرف إلى أي منها انصرافاً تاماً مستقلاً بل هو أبداً في وسط تجاذبها وملتقى تفاعلها. والنظرة التي يكونها لكل منها، وقيمة هذه النظرة وأثرها، تأتيان دائماً نتيجة لنظرته المشتركة لها جميعاً.

٣ ـ ان لب الماضي، حسب هذه النظرة القومية، هو الماضي القومي. وهذه النظرة، إذ تضخم هذا الماضي، تهمل في أحيان كثيرة الروابط التي تشده إلى تواريخ الشعوب والأمم الأخرى، وتسهو عن وحدة التاريخ البشري المتشابكة. والخطأ الذي يؤدي إليه مثل هذا الموقف هو بتر هذه الوحدة واغفال المؤثرات الخارجية التي تعرض لها الشعب في مراحل حياته، أو الانتقاص من قيمتها وأثرها. فكثيرون منا مثلاً يبدأون درس التاريخ العربي بالجاهلية، ويتابعون مجراه تحت حكم الخلفاء في الحجاز والشام وبغداد ومصر والأندلس حتى سقوط بغداد في أيدي التتر أو زوال ملك أبي عبد الله في غرناطة، ثم يقفزون متخطين قروناً عديدة إلى عصر النهضة الحديثة. وهم في غالب الأحيان يضربون صفحاً عن كل ما جرى في هذه البلاد العريقة قبل ظهور العرب في ميدان الفعل التاريخي، ويهملون التفاعلات الحضارية التي حدثت بعد ظهورهم بينهم وبين سواهم من الشعوب، فيعزلون بذلك التاريخ العربي عن المجاري التي انصبت فيه وتلك التي انصب فيها، ويخلون بوحدة الحياة الكبرى التي يؤلف هذا التاريخ جزءاً منها.

إن أي فصل بين أجزاء الحياة المتماسكة أو أي تقطيع للخيوط التي تربطها أو أي سد مصطنع نقيمه بين مجاريها ـ ان اي انحراف من هذا القبيل يقف دون فهمنا الصحيح للحياة البشرية وحكمنا الصادق لها أو عليها وتحكمنا الفاعل بها. وسنعود إلى هذا في مناسبة أخرى.

٤ ـ أما من حيث نقد حوادث التاريخ أو تعليلها، فإن الذين يتجهون هذا الاتجاه لا يتخذون موقفاً معيناً ثابتاً بل يختلفون في نوع مواقفهم ودرجة وضوحها

وحدّتها. فنراهم من جهة النقد يتأرجحون بين التصديق التام لروايات التأريخ وتغليب الخيال والوهم على النقد والتجريح وبين النظرة الموضوعية التي تنزع إلى التحقيق والتدقيق واستخراج اللب الصحيح مما علق به من خطأ وبطلان. منهم من هو في الطرف الأول، ومنهم من هو في الطرف الآخر، ومنهم من هو على درجات متفاوتة بينهما، وان كانت الغلبة لا تزال، فيما نعتقد، للتصديق وللانسياق في مجرى الخيال المثير المضخم أكثر مما هي للنقد الضابط المقيد.

وكذلك الأمر في التعليل: فبين تعليل لا يزال ثيوقراطياً في جوهره واتجاهه وآخر يشد الحياة القومية إلى جذورها الطبيعية والبشرية، تضطرب الميول وتختلف المنازع، واعية أو غير واعية، وتتخذ مواقف متفاوتة، بحيث لا يمكننا أن نطلق عليها حكماً عاماً أو وصفاً مميزاً. ونحن نرى هذا لا عندنا فحسب، بل عند شعوب أخرى، في حال كحالنا أو في أحوال مختلفة. إذ قلّ بين الناظرين إلى الماضي ــ بل قلّ بين المؤرخين الاختصاصيين أنفسهم ــ من أوضح في ذهنه تفسيره لنشوء الحوادث وتطورها وسلك مذهباً صريحاً ثابتاً في تعليله. فلا غرابة في أن يصدق هذا على أمة في حال تكوّن سريع وتبدل جذري وما يعتور هذه الحال من تشويش وميعان لا يقتصران على النظرة التأريخية بل يكتنفان جوانب الحياة جميعاً. لا غرابة في هذا، ولكن لا ضرورة لبقائه واستمراره، فإن وضوح المواقف النهائية والتمييز بينها شرط من شروط الادراك الصحيح، والتقدير المتزن، والعمل المنتج.

هذه هي أبرز خصائص التيار القومي في انطلاقه إلى الماضي. وهو، كما قلنا، تيار يتسع ويتضخم ويتشعب. غير اننا لا نود أن نختتم هذا الرسم الخاطف له دون الاشارة إلى ظاهرتين هامتين من الظواهر العديدة التي يبدو فيها في حالته المتموجة الجائشة في الوقت الحاضر. الظاهرة الأولى هي من رسوبات الماضي. وأعني بها أن الفكرة القومية ــ خاصة عند الذين يقولون بالقومية العربية ــ لا يزال يعتريها غموض وابهام، ولا تزال تلتبس في كثير من الأذهان بجوانب من الموقف التقليدي الذي وصفناه سابقاً. فهذا الماضي الذي نريد احياءه أهو ماض عربي أم إسلامي؟ وهذا المستقبل الذي ننشد بناءه أهو مستقبل قومي بكل ما في هذه الكلمة من معنى؟ نعود فنقول إن للقومية معنى وخصائص إذا فقدتها، فقد فقدت جوهرها. وفي مقدمة هذه المعاني علمانية الحركة القومية وعلمانية الدولة التي يراد إنشاؤها. وليس معنى هذه العلمانية انكار الدوافع الروحية أو الكفر بالله تعالى، بل بالعكس ان القومية تؤيد كل ما يقوي الإيمان في النفوس وينزهها عن الشر ويدفعها في سبل الخير، ولكنها تقيم المجتمع على أساس علماني، وتنبذ كل عصبية طائفية، وكل تمييز بين مواطن ومواطن على أساس الدين والعقيدة. وبهذا المعنى تفهم «القومية» و«الأمة» في العصر

الحاضر. والقومية العربية إذ تنظر إلى التاريخ الماضي يجب أن تراه على حقيقته الثيوقراطية، وألا تسعى إلى تجريده من هذه الحقيقة، ولكن يجب أن تعلم أيضاً أنه لا يمكن أن تكون أمينة لذاتها وللقومية إذا لم تعِ مفاهيمها الجديدة وتعمل بمنطق القوى التي أوجدت القومية في العصر الحديث.

أما الظاهرة الثانية التي نريد الإشارة إليها فهي من حوافز المستقبل، وتنبعث من الرغبة في التبدل السريع والانقلاب الجذري والأخذ بأسرع ما يمكن من الوقت بأسباب القوة والمنعة لحماية الكيان وابراز الأثر القومي. ان فريقاً من الذين يحسون بهذه الرغبة وينزعون هذا النزوع يشعرون بأن الاغراق في التلفت إلى الماضي والانغماس فيه قد يورث الضعف بدلاً من القوة، ويشيع التواكل بدلاً من التوثب، ويصدر في أحيان كثيرة عن هرب لاشعوري من مشكلات الحاضر ومتطلبات المستقبل إلى سحر الماضي ومخدراته. فإذا سطا هذا الاغراق وتملك النفس أصبح حالة مرَضية تشل الإرادة وتضعف العزم وتصرفنا عن الجهد الملح الذي يفرضه علينا اللحاق بركب المدنية المنطلق. ان هذا الفريق يفكر ويعمل ضمن النطاق القومي، ولكنه يؤمن بالانقلاب السريع لا بالتطور البطيء وبالتبديل الجذري لا بالمعالجة المترفقة الوئيدة. وهو يوافق سواه من القوميين في الدعوة إلى الإنشاء القومي ويجهد معهم في هذا السبيل، ولكنه لا يذهب إلى الحد الذي يذهبون إليه في استيحاء الماضي والاستمداد من منابعه، بل يذهب في بعض الأحيان إلى الطرف المعاكس: إلى التمرد الشامل على الماضي، والرغبة في التحرر منه، والتحول عنه تحولاً تاماً إلى الحاضر والمستقبل. فإذا أردنا أن نصف اتجاهه الأساسي وصفاً مبسطاً قلنا انه إرادي فعلي أكثر مما هو شعوري انفعالي، ثوري جذري أكثر مما هو تطوري تدرّجي، «مستقبلي» متطلع أكثر مما هو «تذكري» متلفت. وليس اتصافه بهذه الصفات على درجة واحدة، بل على درجات متفاوتة تقربه من النزعات القومية الأخرى أو تبعده عنها. وهنا أيضاً نلاحظ كيف أن الموقف المتخذ من الماضي يتأثر بصورة الواقع المجابه والغد المرتجى، وبنوع الفكر والعمل اللذين تبعثهما هذه الصورة.

* * *

يقودنا هذا إلى التيار **الثالث** من التيارات التي تندفع فيها اتجاهاتنا إلى الماضي والأحكام التي نطلقها عليه. ذلك هو التيار الماركسي والفلسفة التأريخية المادية. إنه تيار ينبع من العالم الشيوعي وقد بلغنا وشق مجراه بيننا وجرف فريقاً منا، كما فعل، بدرجات وإلى حدود مختلفة، في أجزاء أخرى من عالم اليوم.

هذا التيار يجري في مجرى معين واضح المعالم، لأنه يصدر عن فلسفة شاملة

في تعليل الكون والإنسان والتاريخ. فالمادة في نظره أصل الكون، والإنسان قد نشأ منها بالتطور والارتقاء. وليست ثمة قوة فوق هذه الطبيعة قد سببت هذا النشوء أو أحدثت الارتقاء أو أثرت فيه. أما المجتمع البشري، فهو مجتمع متطور، والعامل المسير المحتم لهذا التطور هو التطورالذي يحدث في وسائل الإنتاج والذي يعين نوع العلاقات الاقتصادية في كل مرحلة من المراحل. وهذه العلاقات الاقتصادية تحتم بدورها نوع الأوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية والمذاهب الأخلاقية ـ بل الحياة العلمية والفكرية والروحية بكاملها.

ومن طبيعة هذه العلاقات الاقتصادية أن تقسم المجتمع البشري طبقات تختلف في مقادير تسلطها على وسائل الإنتاج. ومن طبيعة الطبقة السائدة في دور معين أن تتمسك بسيادتها، بينما الطبقة أو الطبقات المحرومة تنهض لاقتناص هذه السيادة منها متنبهة إلى تطور جديد في وسائل الإنتاج، وساعية لامتلاك هذه الوسائل الجديدة. فتكون هذه الطبقة طليعة الدور المقبل، وقائدة لركب التاريخ في مرحلته التالية. أما الطبقة الأولى فتمثل الرجعية التي تقف في وجه التاريخ.

ولا تتمكن الطبقة الجديدة عادة من التغلب إلا بالثورة ـ الثورة التي قد تتأخر أو تعاق، ولكنها ستنجح حتماً لأنها تمثل تقدم القوى التاريخية التي لا تخطىء. فالتاريخ البشري ليس في النهاية سوى صراع طبقات تفوز فيه الطبقة التي تنسجم مع تطور وسائل الإنتاج والعلاقات الاقتصادية الناشئة عنها، والتي تكون مؤهلة بفعل هذا الانسجام والتجاوب إلى الثورة على الماضي وتحقيق الدور التاريخي الذي يليه. ويظل هذا الصراع قائماً إلى أن تفوز طبقة العمال فتزيل الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، فيتساوى الناس المساواة الاقتصادية التامة، وهي في نظرهم المساواة الحقيقية، ويصبحون كلهم طبقة واحدة، وتذهب بذلك أسباب الحروب وتنتشر ألوية العدل والإخاء والسلام.

وما الدولة القومية، في نظر هذا التعليل، سوى نوع من التنظيم السياسي والاجتماعي تفرضه علاقات اقتصادية معينة وسيادة طبقة من الطبقات ـ طبقة البرجوازية ـ في دور معين محدود من أدوار التطور. فإذا انتهى هذا الدور زالت الدولة بزواله، وتغيرت طبيعة الأمة والقومية، وتكيف هذا كله بحسب مصلحة الطبقة الجديدة ومفاهيمها.

إن للمذهب الماركسي الذي يتضمن هذا التعليل سحره وفتنته، خاصة لمجتمع في مثل وضعنا السياسي والاجتماعي والعقلي. فهو صادر من البلاد التي تنازع الغرب السلطة والنفوذ والزعامة، وسائد فيها. ولما كنا نحن في خضم ثورة على الاستعمار الغربي ومآسيه، فإن الكثيرين منا يجدون فيه وفي كتلة الشعوب التي

تعتنقه حليفاً لنا في هذه الثورة وسنداً في معركة التحرر السياسي.

ثم انه مذهب يبدو محكماً متماسكاً، يعلل الأشياء والأحداث تعليلاً مبسطاً حتمياً، ويبشر بالثورية سبيلاً للتقدم، وينظر إلى المستقبل نظرة تفاؤلية، قاطعاً الوعود العذبة الخلابة وناسجاً الآمال الزاهية الزاهرة. وفي هذا ما فيه من جذب وسحر للشعوب التي ناءت بالذل والجمود زمناً طويلاً، وأخذت تتطلع اليوم إلى الرخاء والعدل والمساواة وتؤمن بالثورة سبيلاً إلى تحقيق هذه الآمال. يضاف إلى ذلك وضع هذه الشعوب العقلي، القابل للتعليلات المبسطة الحتمية، غير المتنبه لتعقد الحياة وتشابك عواملها، ولتعقد الطبيعة الإنسانية ذاتها وتداخل أغراضها وميولها ونوازعها.

لسنا الآن في معرض تحليل الماركسية كمذهب فلسفي أو كنظام اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، ولا نتصدى هنا لنقد نظرتها التأريخية، كما أننا لم نتصد لنقد المجريين التأريخيين ـ التقليدي والقومي ـ اللذين ذكرناهما سابقاً. ذلك اننا مكتفون، في مجال هذا الفصل، بالوصف والعرض دون النقد والتجريح، وغايتنا لا تتعدى رسم صورة نرجو أن تكون صحيحة واضحة للمواقف التي نتخذها اليوم من تاريخنا وللعوامل التي تكيف هذه المواقف. فكل ما نريد أن نؤكده، على ضوء هذا الغرض المحدود، هو ما تنطوي عليه الماركسية من نظرة إلى الوجود وإلى التاريخ، وانسياب هذه النظرة من مصادرها الخارجية إلينا، وشقها طريقها في مجتمعنا بفعل التطاحن العالمي القائم وبعض نتائج المدنية الحديثة التي نقتبسها، وبتأثير ظروف داخلية تابعة للمرحلة التطورية التي نجتازها الآن. وهنا دليل آخر على تأثر الموقف المتخذ من الماضي بمشكلات الحاضر وآمال المستقبل. فالقوة التي تشد من تشد منا إلى هذا الموقف الذي نصفه صادرة عن الوضع السياسي ـ وضعنا والوضع العالمي ـ وعن الثورية التي تجتاحنا للتخلص من هذه الأوضاع الحاضرة وإقامة أوضاع جديدة، أكثر مما هي ناتجة عن دراسة موضوعية لهذا الماضي أو عن إقبال أوليّ على التعليل الماركسي للتاريخ واقتناع مسبق بصحته. ولذا فإن من أهم الصراعات الفكرية والسياسية التي تنتظرنا والتي أخذت تبدو مقدماتها، الصراع بين الثورية القومية التي أشرنا إليها آنفاً والثورية الماركسية: بين مذهبين يتفقان في الوسيلة ـ وهي الثورة ـ ويختلفان في المصدر والاتجاه والغاية وفي النظر إلى التاريخ وتعليل الكون والإنسان. فالخير كل الخير في توضيح أسس كل منهما، وتبيان ما فيهما من صواب أو خطأ، وتعيين مركزنا في هذا الصراع، إذ إن على نتيجته يتوقف اتجاهنا الجديد ويتعين مصيرنا إلى زمن بعيد. وعسى أن يكون في الدعوة التي تمثلها هذه الفصول إلى ايضاح موقفنا من ماضينا ما يؤدي إلى إثارة هذه المسائل الأساسية

بكاملها، وإلى تحليلها تحليلاً مجرداً عن العاطفة والهوى، مفعماً بروح المسؤولية، متفتحاً للحق، منصتاً للضمير، كي نكون مجهزين التجهز الكافي لمعركة المصير.

* * *

بقي ان نصف تياراً **رابعاً** وأخيراً من التيارات البارزة التي توزع فيها نظرنا إلى الماضي. هذا هو التيار العلمي الذي يتكون تدريجاً بفعل تنبهنا للمدنية الحديثة واقتباسنا عقليتها. ولعلنا نبالغ ونعدو الحقيقة إذا دعوناه تياراً، فهو لا يزال جدولاً صغيراً يتزايد يوماً بعد يوم، ولكنه لا يعادل التيارات الأخرى زخماً واتساعاً. زد إلى ذلك أن من طبيعته أن يجري هادئاً، وأن يسير بحذر وتبصر، مبتعداً عن الصخب مجافياً للدعاوة وحب التسلط. غير أنه، على هدوئه وتدرجه، يمثل أملاً من آمال المستقبل لأنه لا يقبل إلا العقل هادياً ومرشداً وإلا الحق الذي يكشفه العقل هدفاً وسيداً.

يتوجه هذا المجرى إلى الماضي دون فكرة مسبقة أو فلسفة مفروضة ويحاول استعادة الماضي من أصوله، أي من آثاره المادية والأدبية، فيقبل على هذه الآثار ليستخرج نصوصها وأشكالها الأولى ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ثم يستنطقها ويحقق في رواياتها، ويخضع هذه الروايات للتدقيق والنقد، فلا يقبل منها إلا ما تثبت صحته وعدالة رواته حسب أحكام العقل وقواعد العلم. وأخيراً يسعى إلى ربط الحقائق المفردة المضبوطة بعضها ببعض لكي يستخرج منها صورة الماضي، إن لم تكن صادقة كل الصدق، فهي أقرب ما يمكن إلى ذلك. وتبقى هذه الصورة، على كل حال، خاضعة للتبديل والتعديل حسبما يظهر من أصول جديدة، أو ما يكتشف من حقائق مجهولة، أو ما يصحح من أخطاء في التدقيق والاستنتاج.

هذا الأسلوب العلمي كانت له جذوره عند المؤرخين العرب القدماء، وكانت بدايته مرتبطة بما بذلوا من عناية في جمع أحاديث الرسول ونقدها وتجريحها. ثم أخذت الرواية تتغلب على التحقيق، والعقل يخضع للتصديق، فلم يكتمل هذا الأسلوب ولم يعم المؤرخين، بل لم يكن مقدراً له أن يكتمل ويعم ما دامت العقلية السائدة حينذاك ـ في الشرق والغرب ـ هي عقلية القرون الوسطى. فلما حدثت ثورة العقل في مطلع العصر الحديث، وأخذت هذه الثورة تتكامل وتتسع، اكتسحت في ما اكتسحته المجهود التأريخي، وتكوّن في القرون الثلاثة الأخيرة تقليد علمي متراكم، وتيار متضخم، هو التيار الغالب في دوائر العلماء المؤرخين في الغرب، والصابغ عقلية مثقفيه بشكل عام.

أما عندنا فلا تزال منابع هذا التيار قليلة ومتفرقة. تجدها، بدرجات مختلفة قوة

وضعفاً، في الجامعات الحديثة في الشرق العربي، وعند الذين تدربوا فيها أو في الجامعات الغربية، فاكتسبوا هذا الأسلوب في النظر والعمل، وعمدوا إلى استخدامه في احياء آثار الماضي واستخراج صورته من خلالها. وطبيعي أن يكون تعزيز هذه الجهود، كمية وكيفية، وتلاقيها في تيار متضخم عملاً بطيئاً لأنها تتطلب التدرب الصارم والمرانة الطويلة، ولكنه أمر في غاية الضرورة والخطورة إذا أردنا أن يكون نظرنا إلى الماضي صحيحاً متزناً، وإذا أردنا هذا الأسلوب العلمي المنضبط الضابط ان يتعدى فئات القلة من المتخصصين المتباعدين منا ليؤثر في تفكير جمهور مثقفينا وفي اندفاعات عامة شعوبنا. فالتيارات الثلاثة التي ذكرناها سابقاً لها دوافعها القوية وسلطتها المنتشرة، ومن الواجب أن تمتحن وتضبط بأدوات هذا الالتزام العلمي وقيوده، وأن تهتدي بهديه، بل أن تفرض هي على نفسها أقسى أنواع النقد وأشد أساليب التحقيق، ليخلص ما تتضمنه من حق ويكون له فعله المبدع الدائم. ولما كان جهادنا لحاضرنا ومستقبلنا مرتبطاً ــ كما قلنا ــ بنوع تصورنا لماضينا واستلهامنا إياه، فحريٌّ بهذا الجهاد أن تكون ملهِماته نقية غزيرة متلاقية متفاعلة ليأتي على ما نرجوه له من إزهار وإثمار وإحياء.

* * *

هذه هي المجاري الرئيسية التي يسير فيها ويتكون منها نظرنا إلى الماضي وتفكيرنا فيه. وانا لنخشى أن نكون بسّطنا صورة الواقع بوقوفنا عند هذه المجاري الأربعة، على أهميتها وخطورتها. فمنابع حياتنا الحاضرة، خصوصاً في هذا الدور السريع التبدل الخاضع لعديد المؤثرات، أكثر من أن تحصر ومجاريها شديدة التنوع مختلفة الاتجاهات. وإذا كان لا بد، في سبيل استخلاص صورة تقريبية، من شيء من التمييز والتحديد والتوكيد، فإن هذا يجب ألا يصرف نظرنا عن التنوع والتعقد اللذين تتصف بهما الحياة في كل دور، وتتصف بهما خاصة حياتنا في هذا الدور.

كذلك نخشى أن نكون عند وقوفنا أمام كل من هذه المجاري قد رسمنا صورة خاطفة له لا تفيه حقه من حيث تفرعه واختلاف ألوانه ومدى تدفقه وفقاً للطبقات التي يمر فيها وللأحوال التي تطرأ عليه. وهنا أيضاً يجب أن يؤخذ هذا التبسيط بتحفظ. كمنطلق لتكوين صورة أدق وأقرب إلى الواقع. فالحياة أغنى مما نتصور وأغزر عناصر وألواناً، ولا تدرك في حقيقتها ــ في غناها، وغزارتها، وتعقده ــ إلا بالنظر المتتابع والجهد المتراكم

إن هذه النظرة الواسعة المتكاملة ترينا أن المجاري الأربعة التي وقفنا عندها، وسواها، تتفرع وتتحد، وتتباعد وتتلاقى، وتتنافر وتتجاذب، بتأثير قوى الحياة

المتحركة المتدافعة. فالتقليد والقومية والماركسية والموضوعية العلمية لا تنفصل بعضها عن الآخر بحواجز وسدود، بل تتلاقى وتتصادم وتتفاعل فيما بينها في كل وجه من وجوه حياتنا وتفكيرنا. ومن ضمن هذه الوجوه: نظرتنا إلى ماضينا. فما هو الماضي الذي نريد احياءه؟ أهو الماضي الديني، أم الماضي القومي، أم الماضي كصراع طبقات، أم الماضي كما كان حقيقة - wie es eigentlich gewesen ist - على قول زعيم النظرة التأريخية الموضوعية في العصر الأخير ليوبولد فون رانكه؟ وفي سبيل أية غاية نبغي هذا الاحياء؟ أفي سبيل العلم المجرد، أم في سبيل تكوين مجتمع إسلامي أو مسيحي جديد، أم في سبيل خلق الأمة العربية أو سواها من المجتمعات القومية التي يدعو إليها هذا الفريق أو ذاك منا، أم في سبيل دخول معترك الطبقات العالمي لتحقيق نصر طبقة على طبقة وسيادة نظام سياسي واقتصادي واجتماعي قائم على الفلسفة المادية التأريخية؟

هذه وكثير غيرها من الأسئلة تنبثّ خلال المواقف المختلفة التي نتخذها من التاريخ. وهذه المواقف تتفاعل، كما قلنا، فيما بينها. ولكن تفاعلها هذا لم يبلغ بعد درجة الوعي والنضج والاثمار. ولذا ترى نظرتنا التأريخية خليطاً مشوشاً مشتتاً، تشوبه العاطفة وتتنازعه الأهواء. فلا بد اذن من عودة إلى الأصول، ومن محاولة لايضاح معنى الماضي وعلاقته بالحاضر وبالمستقبل، ولتعيين الغاية من احيائه، والسبيل الذي يجب أن يتبع في هذا الاحياء وما يعترض هذا السبيل من عقبات وما يفرضه من متطلبات. إن هذه المحاولة التوضيحية ضرورية لا لفهم تاريخنا فحسب، بل لإدراك واقعنا وصوغ مستقبلنا صوغاً صحيحاً. إنها مساهمة من أجل تكوين الفكر الهادي للعمل، في خلية مركزية من خلايا الحياة الفردية والاجتماعية ـ الخلية التذكرية الاحيائية ـ وفي دور من تطورنا ومن تطور العالم أصبح فيه لهذه الخلية فعلها البليغ وأثرها المتزايد في حياتنا كأمة وفي الحياة الإنسانية بوجه عام.

في سبيل هذه المحاولة، والمساهمة، كانت فصول هذا الكتاب.

ماهية التأريخ والغرض منه

لنبدأ هذه المحاولة من منطلقها الطبيعي، فنعين وجهة سيرنا في طريقنا المتعرج المتشابك، ونتقي ما أمكن شرور الزيغ والانحراف. لنبدأ بتحديد موضوع التأريخ والغرض منه. فالناس ما فتئوا منذ فجر يقظتهم ينظرون إلى التأريخ نظرات مختلفة تتقارب حيناً وتتباعد أو تتناقض أحياناً. ولسنا هنا في سبيل استعراض هذه النظرات جميعاً، أو تعداد أنواع التعريفات أو التحديدات التي صيغت لهذا المجهود الفكري الإنساني. فذلك أمر يطول بنا ويبعدنا عن غايتنا إذ يتطلب منا تتبع الإحساس التأريخي في تطوراته وتقلباته المتتالية، بل يكاد يوغل بنا في جوانب أخرى من تطورات الثقافة والحضارة، لما للحس المذكور من ارتباط وثيق بالفكر والحياة في كل مكان وزمان.

لنتجه إذن رأساً إلى ما نريد، ولندلِ برأينا بكل ايجاز وبساطة. إن التأريخ، في ما نرى، هو «**السعي لإدراك الماضي البشري واحيائه**». هذا التعريف الموجز يتضمن لب المطلوب، ولكن هذا اللب يحتاج إلى نشر وايضاح، وإلى زيادة في التحديد، وإلى التمييز بينه وبين ما قد يعلق به أو يغشاه من معانٍ عارضة أو مغايرة. فلنقدم على هذا التحديد والتمييز، متناولين كلاً من أجزاء التعريف وتعابيره، في سبيل استخراج صورة جامعة واضحة لموضوع التأريخ ولغرضه الأصيل.

* * *

لنذكر أولاً أن التأريخ ينصب على الماضي. وهو بهذا يتميز عن سواه من المجهودات الفكرية الإنسانية. وليس معنى هذا أننا نستطيع أن نفصل فصلاً جازماً بين الماضي والحاضر والمستقبل. فقد رأينا في ما سبق، وسنرى أيضاً في المراحل

التالية من دراستنا، ان الحياة في سيرها وحدة متكاملة، وان المواقف المتخذة من الماضي تتأثر بمعتقدات الحاضر وآمال المستقبل، كما تتأثر هذه بتلك.

وكذلك لا نقصد مما ذكرنا إلى أن العلوم والفنون الأخرى تهمل الماضي وتشيح بوجهها عنه. فلكل منها تأريخها الخاص بها كتواريخ الطب والفلسفة والنظم الاقتصادية والسياسية والأدب والتصوير وما إلى ذلك ـ حتى إنه ليمكننا القول إنه حيثما نجد تغيراً وتراكماً في الحياة البشرية فثمة مجال للتأريخ. ان التأريخ لا يرتد عن أي حقل من حقول الإنتاج البشري بل يطمح إلى ولوجها جميعاً وإلى تتبع التغيرات التي طرأت عليها والمراحل المتتابعة التي جازتها.

بل نذهب إلى أبعد من هذا فنلاحظ ان كل عالم أو أديب أو فنان لا غنى له في عمله أو فنه من أخذ الماضي بعين الاعتبار والتأثر به إلى حد قريب أو بعيد. فالطبيب إذ يعالج الداء يبدأ، أول ما يبدأ، بالسؤال عن نشوئه وتطوره وعما اعترى المريض من علل سابقة، والفلكي الذي يتتبع تكوّن العوالم والأجرام السماوية ودوران الكواكب في أفلاكها لا بد له من أن ينظر إليها في تحولها مما كانت عليه إلى ما هي الآن وإلى ما ينتظر أن تكون، والكيميائي إذ يخضع مادة من المواد لعملية معينة يدرس تغيرها من حال إلى حال، من «ماضٍ» إلى «حاضر» أو «حاضر» إلى «مستقبل». والعالم الاجتماعي ـ أياً كان اختصاصه ـ لا يستطيع دراسة المشكلات التي يعالجها إذا لم يأخذ بعين الاعتبار الجذور التي نبتت منها والتبدلات التي طرأت عليها. وهكذا الأمر في العلوم الأخرى، الطبيعية منها والبشرية. فكلها تهتم بماضي الحقائق المتعلقة بموضوعها، وتنظر إليها كـ «أحداث»، وإن كان هذا النظر والاهتمام على درجات متفاوتة وبأشكال مختلفة بحسب طبيعة كل منها.

أما الأديب والفنان، فهل بمكنة أي منهما، إذ ينتج ما ينتج، ان يتعرى عن اختباراته السابقة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذي نشأ فيه والتقاليد السائدة في محيطه وعصره؟ ذلك أمر مستحيل ما دام الإنسان ـ أيّ إنسان ـ وليد أحداث وملتقى عوامل متطورة مطورة تعمل في نفسه وفي مجتمعه.

فالتأريخ هو إذن، من هذا الوجه، منساب في شتى العلوم والآداب مرتبط بها متفاعل وإياها. ولكنه يتميز عنها من حيث انصبابه على الماضي بالذات، بينما هي تتجه إلى أغراض وغايات أخرى.

إن الهم الأول للأديب أو للفنان هو روعة إنتاجه المستمدة من عمق اختباره ومن مقدرته على رؤية الجمال والتعبير عنه. هذه الروعة هي مثله الأعلى، ومقاييسها هي المقاييس التي يخضع لها، والتي على أساسها يُحكم له أو عليه. أما تحديد منشأ هذه الروعة والمنابع التي صدرت منها، فهو من وظيفة العالم النفسي أو المؤرخ

الفكري أو الاجتماعي. وللتأريخ منها نصيب وافٍ في الحالة الأولى، والنصيب كله في الحالتين الأخريين. ومن هنا كان لازماً في إنتاجنا الأدبي ومناهجنا التربوية، ان نميز تمييزاً دقيقاً بين الأدب وتأريخه، إذ إن التباس أحدهما بالآخر يؤدي إلى الارتباك بينهما وإلى ضعف الإنتاج واضطرابه في كل منهما.

أما العلوم الطبيعية، فليست غاية العالم فيها الأحداث الماضية بذاتها، بل غايته استخلاص القوانين التي تربط هذه الأحداث، أو النظريات التي تفسرها. فالعالم الفيزيائي لا يهمه من اسقاط حجر إلى الأرض، أو رفع حرارة مادة من المواد، إن هذا أو ذاك حدثٌ ماضٍ أو متحوّل من ماضٍ إلى حاضر أو من حاضر إلى مستقبل، بقدر ما يهمه أن يستنبط منه قانون جاذبية الأرض أو قوانين الحرارة. يضاف إلى ذلك ان هذا وأمثاله من العلماء بمكنتهم أن يعيدوا هذه الأحداث مرة أو مرات حسب ما يتطلبه منهم الاختبار من أجل استنباط القانون المنشود. أما المؤرخ فلا يهتم بهذه الإعادة ولا يدخلها في حيز عمله، وهي على كل حال غير متيسرة له، لأن الأحداث التي يتناولها لا يمكن إعادتها بوسائل الاختبار كما يفعل العالم الطبيعي.

ووضع العلوم الاجتماعية شبيه من هذا القبيل بوضع العلوم الطبيعية في أنها ترمي إلى استنباط القوانين التي تنتظم بها الأحداث البشرية، ولا تكتفي بمجرد ادراك تلك الأحداث بالذات. على أن هذه الغاية هي في العلوم الاجتماعية أبعد منالاً وأصعب سبيلاً منها في العلوم الطبيعية، لأن مادة تلك العلوم ـ وهي الإنسان فرداً ومجموعاً ـ أشد تعقيداً وأعمق غوراً وأبلغ فعلاً من مادة العلوم الطبيعية. والتأريخ يشارك العلوم الاجتماعية بمادته الإنسانية، ولكنه يختلف عنها في أنه ينصرف إلى هذه المادة من وجهة نشوئها وتغيرها وتسلسلها الزمني. فإذا شاء أن يتعدى هذا إلى استخلاص قوانين التغير أو التطور فقد دخل حيز دراسة أخرى يمكننا أن نميزها عن التأريخ الصرف، وإن كان لا بُدّ للمؤرخ، كما سيتبين لنا، من أن يلجها من بعض أبوابها. هذه الدراسة هي فلسفة التأريخ، أو علم الاجتماع التأريخي، أو علم «العمران البشري» كما دعاه ابن خلدون. ذلك أن العلوم الاجتماعية تهدف أولاً إلى معرفة هذه القوانين، وتوجه اهتمامها إلى فهم العلاقات الاجتماعية في الحاضر، وتطمح أحياناً إلى التنبؤ بما سيحدث في المستقبل. وإذا هي تناولت الماضي، فمن أجل الاستعانة بمادته فحسب، ولكي تضم هذه المادة إلى النتائج المحققة بالاختبار، في سبيل تكوين النظريات والقوانين التي تفسر هذا الجانب أو ذاك من الحياة الاجتماعية الحاضرة أو التي تدل على اتجاهها المقبل.

نستخلص من هذه الملاحظات كلها أن التأريخ يتخلل الجهود الفكرية الإنسانية الأخرى ويمتزج بها ويتفاعل وإياها، ولكنه يتميز عنها بأن غرضه الأول هو

ادراك الماضي ذاته، في حين أن لتلك أغراضاً أخرى عندما تنظر إلى الماضي، وهي تستخدم التأريخ أو تستفيد منه في سبيل تحقيق هذه الأغراض.

* * *

ولكن ما هو هذا الماضي الذي يكوّن موضوع التأريخ؟ يوسع البعض نطاق هذا العلم حتى يجعلوه يشمل جميع أنواع الأحداث، وكل ما ينظر إليه من الناحية الزمنية التغيرية، فيقولون حيثما يكون تغير فثمة تأريخ. والتغير يتناول كل مظهر من مظاهر الطبيعة والإنسان، من أعظم المجرات إلى أدق الذرات، ومن أصغر الخلايا الحية إلى أضخم المجتمعات الإنسانية وأشدها تعقداً. على أن التقليد التأريخي قد حصر نفسه بجزء من أجزاء هذه الصيرورة الشاملة: وهو الجزء الذي يتعلق بالإنسان، ولذلك قلنا في تعريفنا إن التأريخ يسعى لإدراك «الماضي البشري». أما الصيرورة في عالم الطبيعة وفي الكائنات الحية غير الإنسانية، فهي من نصيب علوم أخرى. كعلوم الفلك، وطبقات الأرض، والحيوان، والنبات وما إليها. فلكل من هذه العلوم اهتمامها بالوجوه التكونية التطورية من مادتها، ولا يدخل هذا الاهتمام في نطاق الوظيفة التي أخذها على عاتقه التأريخ بمعناه التقليدي المحدود.

ولقد أظهر العلم الحديث، في قفزاته الجبارة المتتابعة في القرن الأخير؛ ان هذا الجانب الذي يختص به التأريخ هو جزء ضئيل جداً من سياق الصيرورة الكونية، وان زمنه في غاية القصر إذا قيس بالملايين، بل بالبلايين من السنين التي مر بها التطور الكوني. لقد امتد أفقنا الزمني إلى أبعاد لم نكن نحلم بها إلى عهد قريب. وطال مدى الماضي وبعد، وقصر الجزء الذي يعنى به المؤرخ وقرب نسبياً. على أن للمؤرخ من هذا فائدة جزيلة. فمع أنه لا يعنى عناية مباشرة بتلك الأبعاد السحيقة وتلك التغيرات والتطورات المتطاولة، فإن من الخير العظيم له أن يدركها وأن يتابع جهود زملائه العلماء في كشفها، إذ بذلك يقوى شعوره بالوحدة التي تربط وجوه العلم جميعاً، ويرى موضوعه في حيزه الصحيح، وضمن إطاره المتسع، المغرق في الاتساع يوماً بعد يوم.

حتى «الماضي البشري» ذاته يحتاج إلى تحديد. فالتطور الذي جازه جسم الإنسان إلى أن أصبح إنساناً لا يدخل في نطاق علم التأريخ، بل يتناوله علم الأحياء أو بالأحرى علم خاص من مجموعة علوم الأحياء، هو علم الإحاثة (الباليونتولوجيا) البشرية وتفرع الإنسان إلى أجناس؛ والعوامل التي أدت إلى هذا التفرع، والمراحل التي قطعها، هي من اختصاص علم معين هو علم الأجناس (الأنثروبولوجيا) الطبيعي. فالتأريخ يتناول الإنسان منذ أن اكتمل تكوينه الطبيعي وانقسم إلى أجناسه وأسره

المعروفة وبدأت تنبثق إنسانيته. بل انه يتراجع عن هذا الحد الأول، ويكتفي بالإنسان منذ أن مارس الكتابة واكتشف المعادن وأنشأ أجهزة الحكم الأولى ـ منذ أن بدأ يعي نفسه ويستغل الطبيعة وينتظم في مجتمع، وبعبارة أوجز: منذ أن أصبح إنساناً ناطقاً اجتماعياً. أما التطورات السابقة لهذا الحد، وهي أطول زمناً وأبعد غوراً وأكثر بطئاً، فتقع ضمن ما اعتيد أن يدعى «قبل التأريخ». ولها اختصاصيوها والباحثون المتفرغون لها. وهم يعملون باتصال وتساند مع علماء الآثار من جهة والمختصين بعلم الأنثروبولوجيا الثقافي من جهة أخرى. ومع أن أسلوب هؤلاء الاختصاصيين أسلوب تأريخي في جوهره، فإن نوع المصادر التي يستمدون منها نتائجهم، وهي مصادر مادية متفرقة، والمراحل البشرية التي يعالجونها، وهي سابقة للحضارة المنتظمة، تميزهم عن جمهرة المؤرخين الذين يعملون في ضوء التاريخ والحضارة. على أن هذا التمييز، الذي يدعو إليه الاختصاص، يجب أن لا يمنع التعاون المشترك بين الفريقين، بل بالعكس يجب أن يوسعه ويمتنه لأن الأسلوب واحد في أساسه والغاية واحدة، وهي فهم الإنسان في مختلف مراحله وتطوراته.

لقد حددنا «الماضي البشري» من وجهة الامتداد الزمني. فلنحاول الآن تحديده من وجهة سعة المحتوى. انا نجد هذه السعة تزداد يوماً عن يوم، بل نجد ان الحدود قد زالت تماماً أو كادت. فالتأريخ يعنى بالماضي البشري من جميع وجوهه، لا يهمل منها شيئاً ولا يرتد عن شيء. لقد كان الناس فيما مضى ـ والمؤرخون في مقدمتهم ـ يوجهون عنايتهم إلى الوقائع الحربية والتقلبات السياسية ويعتبرونها لب الماضي وجوهره الحريّ بالاعتبار، وإذا هم اهتموا بسواه أتى اهتمامهم جزئياً سطحياً وبدا في نتف ضئيلة مشتتة لا تدخل في صلب التأريخ ولا تبدل صفته الغالبة كسجل للحكام وللحروب. أما المعنى الذي نعرب عنه في تعريفنا، والذي ينتشر اليوم بين المؤرخين وفي طبقات المثقفين عامة، فهو ذلك الذي يشمل الحياة البشرية الماضية بجميع مظاهرها. فالنظم الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية، والاعتقادات والتقاليد الدينية، والمذاهب الخلقية والأساليب الأدبية والفنية كلها تدخل، من حيث تطورها الماضي، في نطاق العناية التأريخية، لأنها كلها وجوه لحياة واحدة. ولئن كانت الأحداث السياسية والوقائع الحربية أبين من سواها وأشد جذباً للنظر لما يصحبها من صخب وضجيج، فإن الأحداث الأخرى الأكثر خفاء ـ كالتطورات الاقتصادية أو الاجتماعية أو العقلية ـ لا تقل عنها في الغالب أهمية وفعلاً، بل كثيراً ما تكون هي العاملة وراءها المسيرة لها.

وليس معنى هذا ان الحياة مؤلفة من أجزاء ووجوه منفصلة، وان التأريخ مجموعة تواريخ خاصة للسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب وسواها. بل معناه ان

الحياة البشرية هي في الماضي مثلها في الحاضر: وحدة عضوية تتفاعل فيها مختلف العناصر وتتكامل. فكل حدث من الأحداث ـ كبيراً كان أو صغيراً، بارزاً أو خفياً ـ هو ملتقى مؤثرات متداخلة وعلاقات منبثة، والحياة التي تتألف من هذه الأحداث هي كيان متشابك معقد ولكنه، بالوقت ذاته، مترابط موحد يأبى التجزؤ والانقسام. ولذلك يصح أن يقال ان المرء لا يدرك حدثاً من أحداث الحياة على حقيقته إلا إذا وعى الحياة كلها، ولا يدرك قسماً من أقسام التأريخ إدراكاً صحيحاً إلا إذا فهم التأريخ البشري بكامله.

فلنجمل إذن مقصدنا بالماضي البشري بقولنا: انه الحياة البشرية في وحدتها المتعددة المظاهر، وفي تطورها من فجر الحضارة ـ من تكوّن الإنسان الاجتماعي الناطق ـ إلى يومنا هذا.

* * *

ولننتقل إلى عنصر آخر من عناصر تعريفنا. لقد قلنا إن التأريخ يسعى إلى «ادراك» الماضي البشري. والادراك هو غير التوهم أو التخيل أو التصور، سواء أكان هذا أو ذاك أو ذلك عن وعي أم عن غير وعي. فالشعوب في مراحلها البدائية، حين يغلب الوهم على العقل، والخيال على النقد، والتصور على التحقيق، تتناقل أحداث ماضيها مضخمة صاخبة مفعمة بالبطولات ـ بطولات الآلهة وبطولات البشر ـ فتروي الخرافات، وتنشد الملاحم، ولا تلتزم الواقع كما حدث فعلاً. وقد بقي هذا العنصر الوهمي أو الخيالي ملتصقاً بالمجهود التأريخي يؤثر فيه إلى حدود بعيدة أو قريبة إلى أن انتظم علم التأريخ الحديث في القرن الأخير، فدعا إلى التحرر من هذا العنصر، وإلى مجابهة الماضي وأخباره بأجهزة النقد والتحقيق التي تتميز بها المعرفة العلمية. ومع أن هذا الاتجاه قد أخذ يسود فئة الاختصاصيين، فهو لا يزال بعيداً عن طبع العقلية التأريخية عند سواهم، ولا تزال الكثرة من الناس تتوهم ماضيها وماضي غيرها، ولا تدركهما.

والتخيل قد يكون، كما قلنا، عن وعي وقصد. فالشاعر أو الروائي أو الرسام لا يعنى بحقيقة الماضي بقدر ما تهمه روعة الصورة التي يستخرجها منه. ان غرضه هو غير الغرض الذي نحن بصدده. ولسنا هنا في مجال الحكم على غرضه، وابداء رأينا في مقاييسه. وإنما جل ما نريد هو أن نميز مسعاه عن المسعى التأريخي، الذي يرمي إلى ادراك الماضي واستجلاء حقيقته بالنظر العقلي وبأساليب التحقيق التي خبرها وأقرها العلم الحديث، وكذلك قولنا في المصلح السياسي أو الاجتماعي الذي يعمل للحاضر وللمستقبل والذي لا يعنيه من الماضي إلا ما يوحيه له ولمجتمعه. فهو لا

يجد غضاضة، بل هو، على العكس، يجد الخير كل الخير، في صب الماضي في قالب رسالته واكراهه على تأييدها. وقد يكون لهذا الاستيحاء والاكراه ما يسوغه، ولكنه ليس على كل حال العمل التأريخي الذي نعالجه، بل يختلف عنه غاية وأسلوباً.

ان غاية التأريخ هي ادراك الماضي كما كان، لا كما نتوهم انه كان. وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون، أو كما نريده ان يكون. فثمة فئات من المفكرين، في خلال العصور المتتابعة إلى يومنا هذا، قد آمنوا بفلسفة من الفلسفات أو عقيدة من العقائد يفسرون بها طبيعة الكون والحياة والإنسان ونشوءها وتطورها، فإذا نظروا إلى الماضي اختطوا له خطته وحصروه في مجرى عقيدتهم، وضاقوا بكل ما ينفلت من هذا التحديد، وفرضوا عليه الانصياع والانسياق. لقد ظهر هذا الاتجاه في فلسفات وعقائد تختلف أو تتناقض في تعليلها للكون وللإنسان، ولكنها تتشابه في فرض تعليلها الخاص على أحداث الماضي. وليس يعنينا هنا جوهر أي منها ــ إلهياً كان أو مثالياً أو مادياً أو غير ذلك ــ وإنما الذي يعنينا هو هذا الاتجاه «الفرضي» الذي نجده عندها جميعاً والذي نعتبره إخلالاً بالتأريخ وصرفاً له عن غايته الأصلية. وسنرى فيما يلي أن المؤرخ، بل أيّ إنسان، لا يستطيع أن يتخلى عن معتقداته الأساسية في الحياة، وان قيمته الذاتية والابداعية تتوقف على قيمة هذه المعتقدات وخصبها. ولكن ثمة فرقاً صريحاً بين التمسك بهذه المعتقدات تمسكاً يؤدي إلى فرضها على الأحداث، والاقتناع المتجرد المتفتح المستعد في كل آن لتعديل هذه المعتقدات على ضوء ما تكشفه المعرفة التأريخية والعلمية والفلسفية. هذا الاتجاه الأخير هو الذي يتميز به «الادراك» الذي نعنيه في تعريفنا.

وإذا كان هذا الادراك يتميز عن المحاولات المخلصة لتصوير الماضي على مثال معين ــ سواء أكان ذلك لايمان بحقيقة عليا دينية أو فلسفية، أم لإثارة الهمم ودفع الحياة الجديدة، أم لإبداع صور الجمال ــ فما أحراه أن يتميّز عن كل تحريف للماضي في سبيل ارضاء هوى أو نيل كسب أو فرض سيادة أو غير ذلك من الأغراض التي لا تمت إلى الحق بصلة. بل الواقع أن التحقيق التأريخي يأخذ على عاتقه كشف هذه الأغراض والتحذير منها مهما يكن شكلها جذّاباً أو لونها لامعاً براقاً.

هذا الادراك الذي نبغيه يتميز اذن بغرضه وغايته: بأنه يسعى خالصاً متجرداً إلى فهم الماضي كما كان على حقيقته. وفي هذه الغاية يلتقي التأريخ والجهود العلمية الأخرى المنصرفة إلى اكتساب المعرفة الإنسانية بتجرد واخلاص.

كثيراً ما يتجادل الناس في ما إذا كان يصح أن نعتبر التأريخ علماً من العلوم. وهو جدال لا يتضح أو يهدأ إلا إذا حددت الخصائص التي تميز العلم: أهي الغاية، أم الطريقة، أم الموضوع، أم النتائج، أم سواها؟ ثم أهي بعض هذه أم كلها مجتمعة؟ ان

جل ما نود أن نثبته هنا هو أن المعرفة التأريخية لا تختلف عن أية معرفة أخرى من حيث الغرض الدافع والغاية المرتجاة. فالغرض الذي يدفع أي علم ـ مهما يكن موضوعه ـ هو كشف الحقيقة، والتزام العلم لهذا الغرض قد طبع التقليد العلمي المتراكم خلال العصور وكان من أهم أسباب تقدمه وارتقائه. والتأريخ الذي نصف هنا جزء من هذا التقليد. فهو، من هذه الناحية، علم، والادراك الذي ينشده ادراك علمي.

* * *

ان من طبيعة الادراك عندما يتم على شكله الصحيح أن يفعل فعله ويفصح عن ذاته. فليس ثمة معرفة مجردة لا علاقة لها بكيان العارف ولا أثر لها فيه. وكذلك شأن المعرفة التأريخية. فهي إذ تقبل على الماضي وتدرك ما تدرك منه تحيي ذلك الماضي وتبعثه من رقاده. ولكن أين يكون هذا «الاحياء»؟ أفي مصادر هذا الماضي ومخلفاته وآثاره؟ لا شك ان الحس التأريخي المتيقظ يدفع إلى البحث عن هذه المصادر وجمعها وحفظها ونشرها. وفي هذا احياء لها، وبعث للوسائل التي تيسر لنا ادراك الماضي. أما احياء الماضي ذاته فلا يكون إلا في عقل المدرك ونفسه: في نوع فهمه للماضي، وتأثره بهذا الفهم، وتجلي هذا التأثر في مجمل ادراكه، وفي نزوعه النفسي، وسلوكه الفردي والاجتماعي.

ومع أن هذا الاحياء هو، كما قلنا، نتيجة طبيعية للمعرفة الصحيحة، فقد رأينا أن نذكره صراحة في تعريفنا للتأريخ عندما قلنا انه السعي إلى ادراك الماضي واحيائه. على أن لهذا الاحياء معنى آخر هو أيضاً نتيجة لكل معرفة. ذلك ان من طبيعة المعرفة إذ تحصل أن تبتهج بذاتها وبالحق الذي كشفته، فتجهد إلى الاعراب عن ذاتها وعن هذا الحق، وإلى أن تشارك سواها فيه. من هنا كان التأليف العلمي والفلسفي والأدبي خلال العصور، وكانت هذه الآثار الثقافية الضخمة التي تظهر جهود البشر المتراكمة في السعي والبحث والكشف، والتي تكوّن عنصراً من أهم عناصر الحضارة وأغناها فعلاً وأشدها دلالة على إنسانية الإنسان ومدى ابداعه.

ومن ضمن هذه الآثار تلك التي نتجت عن الرغبة في نشر معرفة الماضي: من أقدم نقش سجّل وقائع سالفة عبر العديد الذي لا يحصى من المؤلفات التأريخية خلال العصور إلى آخر إنتاج تأريخي في وقتنا هذا. فالكتابة التأريخية خلال العصور إلى آخر إنتاج تأريخي في وقتنا هذا. فالكتابة التأريخية التي يقصد منها إلى نشر معرفة الماضي واشراك الغير بها جزء من الجهد التأريخي الذي حاولنا الاحاطة به في تعريفنا.

ولسنا نجهل ان جزءاً غير يسير من هذا الأدب التأريخي لم يقصد به إلى الحق خالصاً، بل شاركت فيه أغراض أخرى، ولكن ما نريد أن نثبته هنا هو أن الجهد

التأريخي عندما يتوجه خالصاً للحق ولأداء مهمته كاملة لا يقف عند مجرد بلوغ المعرفة التأريخية بل يتعداها إلى نتيجتها: إلى عرض هذه المعرفة، واحياء الماضي بهذا المعنى وعن هذا السبيل. وسنرى في فصل مقبل ان لهذا الاحياء قواعده وضوابطه، المجارية للغرض العلمي الخالص، وأن روعة التعبير يجب ألا تطغى على دقة التحقيق، وان قيمة أي إنتاج تأريخي تقاس بصحة الادراك والمعرفة أولاً، وبمقدار ما تتحلى به هذه المعرفة من جمال في العرض وابداع في البيان ثانياً.

* * *

بقي علينا أن نوضح المقصود من الكلمة الأولى التي بدأنا بها تعريفنا وهي «السعي» إلى ادراك الماضي. ان كل جهد ايجابي إنساني هو سعي إلى غاية. والعلم، من بين الجهود الإنسانية، سعي إلى غاية معينة هي الحقيقة، وبقدر ما يكون هذا السعي خالصاً، وبقدر ما ينطلق بقوة وتراكم، تعلو قيمته ويغزر فعله وتتعاظم نتائجه.

والتأريخ يشارك غيره من العلوم في أنه مثلها سعي وجهد. وليس المهم هنا ضخامة النتائج وغزارتها. فأية نتيجة علمية، مهما غزرت وضخمت، تتضاءل قيمتها على مر الزمن، بل قد تتفرق وتندثر، إذا خف السعي، وتوقف العقل عن الاقدام والاقتحام، وزال الطموح إلى تخطي هذه النتائج إلى ما هو أبعد منها وأدنى للحقيقة. ان محرك التأريخ ـ بل محرك أي علم ـ هو القلق الدائم والجهد المثابر. فإذا انطفأ هذا المحرك، لم يكن ثمة علم، ولم تكن حضارة، بل لم يكن إنسان حريّ بهذا الاسم.

على أن للسعي معناه الخاص بالنسبة للتأريخ. وهذا المعنى راجع إلى الفرق الهائل بين جسامة موضوع هذا العلم وضآلة وسائله. وهو فرق أشد سعة وخطورة وأدعى للتدبر والرهبة مما هو في العلوم الأخرى.

الماضي البشري: ما أطوله مدى، وأوسعه مجالاً، وأشده تداخلاً وتعقداً! أحقاب مديدة، وأحداث متتابعة متشابكة، وأمم تعاقبت على مسرح الوجود، وشعوب تصارعت وتفاعلت وأنتجت وأجدبت، وحضارات تتالت وأخذ بعضها عن الآخر، وفعل بعضها في الآخر، أخذاً وفعلاً قليلهما بارز بيّن وكثيرهما خفي قصي. حياة إنسانية غنية القوى متنوعة العناصر تشترك في تكوينها خوالج القلوب وهبّات النفوس، وانطلاق الخيال وتوثب الفكر، وتصطدم في مرافقها الرغبات والأهواء والمطامع، ويمتزج في صنعها الخير والشر والحسن والقبح والحق والباطل. سلاسل متماسكة من الأحداث، ترتبط فيها السياسة بالاقتصاد، والأدب بالاجتماع، والفن بالأخلاق، وتنبث هذه جميعاً في خلاياها فتفعل وتنفعل، وتؤثر وتتأثر، وتخرج نتاجاً متموجاً

صعب الممسك سريع الانفلات.

أي عقل بشري يستطيع أن يحيط بهذا كله ويسبر غوره؟ أي ذهن له من السعة والنفاذ ما يؤهله لوعي حقيقته؟ قد يقال إن سبيل التأريخ هنا هو سبيل أي علم من العلوم: انه الاختصاص الذي يتناول جزءاً من هذا الموضوع الواسع الشامل ولا يزال يعمل فيه درساً وتحقيقاً إلى أن يجلوه ويستنفده، فإذا تم هذا بأجزاء الماضي جميعاً، تجلت صورته وبانت حقيقته وبلغ علم التأريخ غايته.

أجل! هذا هو السبيل الذي يتبعه التأريخ في مرحلته المعاصرة: زيادة في الاختصاص، وتوغل في الجزئيات. ومع أنه ليس من تعارض مبدئي بين التدقيق الاختصاصي والفهم الكلي، فإنه ندر بين المؤرخين من يستطيع الجمع بين هاتين الميزتين. ولذا نجد الأبحاث التأريخية في الوقت الحاضر تزداد ضيقاً وتفرعاً، فتزداد بذلك صعوبة الاحاطة بها وربطها بوحدة التأريخ المستمدة من وحدة الحياة. وقد أظهر الاختبار أنه كلما تفرع هذا النظر الجزئي ضعف الادراك الكلي، وكلما تناثرت الأبحاث صعب إعادتها إلى وحدة التأريخ المستمدة من وحدة الحياة. فلا مراء في أن المطلوب ضخم، بل لعله أضخم مطلوب استهدفه علم من العلوم.

وان هذه الضخامة لتتضح ويتضاعف أثرها في النفس إذا قوبلت بضآلة الوسائل التي يملكها التأريخ، بالنسبة إلى ما تملكه العلوم الأخرى. ففي حين ان هذه العلوم تجابه موضوعها مباشرة، وبعضها يستطيع أن يتحكم فيه، كما يفعل العالم الطبيعي في مختبره إذ يتناول المادة التي يبحثها رأساً ويخضعها للاختبار قدر ما يشاء، نرى المؤرخ محجوباً عن الاتصال المباشر بمادته وعاجزاً عن التحكم بها. انه لا ينفذ إلى الماضي إلا بقدر ما خلف الماضي من آثار، وإلا من خلال هذه الآثار. إنه لا يتصل بالماضي ذاته، بل يستنطق مخلفاته، ليستخرج منها صورته. وكلنا يعلم الغايات العديدة المتضاربة والأهواء المتناقضة التي دفعت إلى وضع هذه الآثار أو فعلت في كتابتها، وكلنا يعلم ما أصابها في خلال العصور من تفرق وتشتت وضياع. فكيف يمكن أن تستخرج منها صورة صحيحة كاملة لهذا الماضي الذي نبغيه، وكيف يؤمل أن تدر هذه الوسائل الناقصة المتفرقة، المنحرفة في أحيان كثيرة عن غايتها، النتائج السليمة المتماسكة التي نطمح إليها؟؟

ان تعقد الحياة البشرية وخفاء أسرارها هو الذي يجعل العلوم التي تعنى بها، وهي العلوم الإنسانية والاجتماعية، أقل اطمئناناً لنتائجها وأبعد عن التأكيد والبت، مما عليه الحال في العلوم الطبيعية حيث المادة أبسط تركيباً وأسهل منالاً. ولذا يتردد البعض في اطلاق لفظة العلم على هذه الجهود العقلية، ويشكّون في إمكان قيام «علوم» اجتماعية. وهم أكثر تردداً وأقوى شكاً فيما يختص بـ «التأريخ»، لأنه يجابه،

بالإضافة إلى صعوبة الموضوع التي يشارك فيها «العلوم» الاجتماعية الأخرى، صعوبات خاصة ناشئة عن نقص الأجهزة المتاحة له واضطرابها وتفرقها.

إن الذين يقفون هذا الموقف يتخذون دقة النتائج ودرجة الاطمئنان إليها وإمكان التنبؤ مقياساً لتحديد العلم. ونحن نرى ان للعلم مقاييس أخرى غير هذه، ولعلها أهم منها. من هذه المقاييس: الغاية التي يسعى إليها جهد عقلي معين. وقد أوضحنا ما أمكننا في هذا الفصل ان غاية التأريخ في الكشف عن نصيبه من الحقيقة هي الغاية ذاتها التي يستهدفها أي علم يتصف بهذا الوصف، وأنه لا غبار علينا، من هذه الوجهة، إذا أطلقنا عليه هذا اللفظ ووصفناه به.

على أن ثمة مقياساً آخر: هو الطريقة التي يتبعها الجهد العقلي لبلوغ الحقيقة. وهنا أيضاً نجد أن التأريخ قد اختط لنفسه في القرون الأخيرة طريقة دقيقة وصناعة (تكنيكاً) محكمة يحاول التزامها واتباعها دون زيغ أو انحراف في سبيل غايته. ولئن كان موضوعه أصعب من موضوعات العلوم الطبيعية، ولئن كانت أجهزته أضعف من أجهزة سائر العلوم، فإن هذه الصعوبة وهذا الضعف بالذات، يفرضان عليه أن يكون أكثر حرصاً على انضباط أسلوبه ودقة طريقته، وأوفر تقيداً بقواعد صناعته، مما لو كان موضوعه أقرب مأخذاً وأسهل منالاً.

فالسعي لادراك الماضي البشري واحيائه الذي عرّفنا به التأريخ وبَيّنا منه غرضه يتطلب، كأي سعي علمي آخر، أسلوباً يضمن له بلوغ الغاية ويقيه شرور الانحراف والانزلاق، وصناعة يتدرّب بها ويخضع لقواعدها ويلتزم حدودها. والعلم ـ بمعناه الأصيل الشامل ـ يفرض التزاماً لأسلوب وصناعة، كما يتطلب التزاماً لغاية. وهذا الالتزام المزدوج هو الذي أدى إلى رقي العلم وتوافر نتائجه وتعاظم أثره.

فلنتقدم إذن إلى تعريف هذه الصناعة في ما يختص بالتأريخ.

صناعة التأريخ

نعني بالصناعة هنا ما يعنى في اللغات الغربية بـ «التكنيك»، أي الجهد المنصرف إلى غاية معينة والمنضبط بقواعد حققها بالاختبار تكفل بلوغه تلك الغاية عن أسلم الطرق وأضمنها وأوفرها نتاجاً. ولقد كان بإمكاننا أن نقول «فن» التأريخ تعبيراً عن المعنى ذاته، لولا خوفنا من أن يلتبس المقصود إليه هنا بالاخراج الأدبي للبحث التأريخي الذي يختلف عما نريده ويؤلف جانباً آخر من موضوعنا سنعرض له في مكان تالٍ من هذه الفصول.

إن هذه الصناعة هي نتيجة تطور طويل المدى بدأ منذ أن أخذ الإنسان يلتفت إلى ماضيه ويسجل حوادثه. ولكن هذا التطور ظل بطيئاً متفرقاً خلال قرون عديدة، ولم ينطلق ويتجمع ويتكامل حتى العصور الحديثة، بل لنقل حتى القرن التاسع عشر الماضي عندما قوي فعله في الإنتاج التأريخي، ثم أدى في أواخر ذلك القرن وأوائل القرن العشرين إلى تحديد نظري للصناعة التأريخية، ودراسة خاصة بهذا الموضوع.

هذه الصناعة تعرف في الغرب بمثودولوجية التأريخ. وقد دعاها الدكتور أسد رستم في أول كتاب ألّف في هذا الموضوع في اللغة العربية «مصطلح التأريخ»[1]، جرياً على التسمية التي أطلقها العلماء المسلمون على علم «مصطلح الحديث»، ذلك العلم الذي عمدوا فيه إلى نقد أحاديث الرسول واستخلاص قواعد هذا النقد. ومن المعلوم أن هذا النقد قد تسرب أثره من الحديث إلى التأريخ، وأن المؤرخين المسلمين الأولين استفادوا منه في نقد رواياتهم. ولكن ظروفهم، والمرحلة التي بلغها عصرهم من التطور العقلي، لم تسمح لهذه البذور بأن تتفتح، وأن تؤتي ثمارها

---

(١) أسد رستم، **مصطلح التأريخ: وهو بحث في نقد الأصول وتحري الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها** (بيروت: المطبعة الأميركية، [١٩٣٩]).

الكاملة التي نعرفها اليوم. ومع هذا، فإنه يحسن بنا أن نعود إلى هذه الجهود الأولى، وإلى جهود نقد الحديث من ورائها، إذ نجد فيها مبادىء مستنبطة حرية بأن تُبعث وتحقق وتنشر، وبأن يجلى ما تتضمنه من سبق وابتكار، لتحتل مكانها في تاريخ الجهد النقدي التأريخي الذي ساهمت فيه الشعوب المختلفة خلال القرون. ولقد أصاب الدكتور رستم إذ اتجه في بحثه هذا الاتجاه وربط بين مبادىء الصناعة التأريخية الحديثة ومبادىء «مصطلح الحديث»، فكان له فضل السبق بين المؤرخين العرب المحدثين، سواء من جهة التأليف في المثودولوجيا التأريخية عموماً أو من جهة تبيان فضل علماء الحديث في هذا الباب.

ان الأسلوب الذي تنطوي عليه الصناعة التأريخية يتكون من سلسلة من الجهود المحكمة المتتابعة تبدأ من اكتشاف الأثر أو الوثيقة التي خلفها الماضي وتنتهي بالتأليف التأريخي. وهو، كما قلنا، قد أصبح موضوع دراسة منظمة مستفيضة، بل كاد يؤلف علماً خاصاً من العلوم المتصلة بالتأريخ. ومن الواضح أننا لن نستطيع، في هذا الفصل المجمل، الاحاطة بهذه الدراسة والتبسط فيها، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أهم مراحلها ومقوماتها، كي يبين المقصود من الصناعة التأريخية، ويظهر فعلها في استعادة الماضي، وأثرها في الموقف الذي نتخذه منه(٢).

* * *

(٢) يمكن من يريد التبسط في قواعد هذا العلم الرجوع إلى المؤلفات العديدة التي وضعت فيه. وأقدم كتابين رسما هذه القواعد وكان لهما أثر كبير في تثبيتها ونشرها هما:
Ernst Bernheim, *Lehrbuch der historischen Methode und der Geschichtsphilosophie* الذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٨٨٩، و Charles Victor Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques* (Paris: [s.n.], 1898), translated from French by G.G. Berry, *Introduction to the Study of History,* with a preface by F. York Powell (New York: Holt, 1898).
ومن المؤلفات الأخرى: John Martin Vincent, *Historical Research: An Outline of Theory and Practice* (New York: Holt, 1911); Fred Morrow Fling, *The Writing of History: An Introduction to Historical Method* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1923); John William Fortescue , *The Writing of History* (London: Williams, 1926); Allen Johnson, *The Historian and Historical Evidence* (New York: Scribner, 1926); Allan Nevins, *The Gateway to History* (Boston; New York: D.C. Heath and Company, 1938); Sherman Kent, *Writing History* (New York: F.S. Crofts, 1947); Louis Halphen, *Introduction à l'histoire* (Paris: [s.n.], 1948); Marc Leopold Benjamin Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien* (Paris: [s.n.], 1949), translated from French by Peter Putnam, *The Historian's Craft,* introduction by Joseph R. Strayer (New York: Knopf,

تفرض الصناعة التأريخية أن يكون المؤرخ قد اختار حقبة من حقب الماضي أو ناحية من نواحيه لدراستها وجلاء غامضها. ولا تعنينا هنا الدوافع التي دفعته إلى هذا الاختيار والتي سنعرض لها في مناسبة تالية، وإنما يهمنا أن نشير إلى أنه قل بين المؤرخين اليوم من يتناول الماضي البشري بكامله، وأن العمل التأريخي يبدأ عادة برغبة أولية في العناية بهذا أو ذاك من وجوه الماضي، وقد تستمر هذه العناية في الوجه ذاته أو تتحول إلى سواه حسب اختبار المؤرخ وتطور عمله.

ولقد قلنا إن الماضي يُستخرج من الآثار التي خلفها السلف. فهي «مصادر» التأريخ، يوجد بوجودها ويضيع بضياعها. وعلى هذا، فالخطوة الأولى من خطى الصناعة التأريخية هي البحث عن المصادر المتعلقة بموضوع المؤرخ. وهذه المصادر على أنواع عديدة، تختلف قيمة كل نوع منها حسب الفترة أو الناحية المعنيّ بها. فثمة الأبنية والنقوش والتماثيل، والمخلفات المادية من آنية وألبسة ونقود وما إليها، والوثائق المكتوبة التي دوّن فيها السلف خوالج نفوسهم أو ضروب معاملاتهم، أو التي سجلوا فيها أحداث زمانهم أو أخبار الماضي. وبايجاز: ان كل أثر، مادي أو أدبي، خلفه لنا الماضي هو مصدر من مصادر التأريخ. بل كثيراً ما يتجاوز المؤرخ هذه الآثار المحسوسة ويحاول استنطاق الحياة الحاضرة لينفذ من خلال مظاهرها المتعددة، كاللغة والمعتقدات والعلاقات الاجتماعية، إلى الأصول التي نشأت منها والتحولات التي طرأت عليها. على أن أهم هذه الآثار بلا جدال ـ إلا في تاريخ العصور المتباعدة في القدم ـ هي الوثائق المكتوبة، وبصفة أخص المؤلفات «التأريخية» التي سجل فيها السلف الأحداث المعاصرة أو السابقة. ولذلك نحصر أكثر قولنا في هذا الفصل بها.

إن التقدير المتزايد لهذه الحقيقة ـ لاعتماد التأريخ على المصادر اعتماداً أساسياً إن لم نقل كلياً ـ هو الذي يدفع المؤرخين، وسواهم من المهتمين بالماضي، إلى **التفتيش** عن هذه الآثار، وجمعها، وحفظها من التلف والضياع، وتيسير الوصول إليها. من هنا كانت المتاحف والمكتبات وسواها من المؤسسات، القائمة في أنحاء العالم المتحضر، المتسابقة إلى البحث عن الآثار المخطوطة وغير المخطوطة، وإلى

= 1953); Louis Reichenthal Gottschalk, *Understanding History: A Primer of Historical Method* (New York: Knopf, 1950); Gustaaf Johannes Renier, *History: Its Purpose and Method* (London: Allen, 1950), and Henri Irénée Marrou, *De la connaissance historique*, (Paris: Seuil, 1954).

وفي اللغة العربية: رستم، المصدر نفسه، وحسن عثمان، **منهج البحث التأريخي** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٣).

اقتنائها وصيانتها من العبث والاندثار. ومن هنا أيضاً كانت الفهارس الوافرة الضخمة لوصفها وإرشاد الناس إليها، والوسائل المستحدثة لتسهيل نقلها وتصويرها وجعلها في متناول من يريد الاطلاع عليها.

وعندما يعمد المؤرخ إلى البحث عن المصادر المتعلقة بموضوعه، يجب عليه أن يستقصي هذا البحث إلى أبعد حد ممكن، فلا يزدري أياً من المصادر أو يهمله، لأن اضألها وأحقرها لدى النظرة الأولى قد يغدو بعد التحقيق أشدها خطورة وأغناها بالمعلومات، والحجر الذي يرذله البناؤون قد يصير رأس الزاوية.

وتتلو عملية التفتيش والجمع هذه أو تصاحبها عملية **النقد**. فالمؤرخ لا يأخذ الوثائق على علاتها، بل يعمد، بأساليب من النقد والتمحيص، إلى فحص كل منها لتبين قيمته ومدى إمكان الركون إليه في استخراج أخبار الماضي. وهذه الأساليب النقدية متعددة متتابعة، تقسم عادة قسمين رئيسيين: النقد الخارجي الذي يتجه إلى تثبيت نصّ الوثيقة وتعرّف مؤلفها وزمانها ومكانها، والنقد الداخلي الذي يتناول روايات النص لفهم معناها، وقدر اتجاهات مؤلفها، ومدى تسرب الخطأ إليها، أو تأثير التشيع فيها.

عندما نجابه الوثيقة تعترضنا حالات مختلفة. فقد تكون هذه الوثيقة النسخة الأصلية التي وضعها المؤلف. عندها تخف متاعبنا ونبادر إلى اعتماد نص هذه النسخة، خصوصاً إذا كانت سليمة لم تتعرض لأي فساد أو تحريف. ولكن هذه الحالة حالة نادرة نظراً لما لحق بالوثائق التأريخية من تشتت وضياع. والأغلب أن تكون قد حُفظت لنا نسخة أو نسخ منقولة عن النص الأصلي اما رأساً أو بالواسطة. وهنا تبدأ عملية صعبة معقدة ترمي إلى ترتيب هذه النسخ حسب علاقتها بعضها ببعض، وتبين الحلقات الضائعة بينها، ومحاولة استخراج النص الأصلي منها أو الوصول إلى أقرب صورة ممكنة لذلك النص. وهذا العمل النقدي يتطلب معارف متنوعة بالخط والورق والحبر وسواها من وسائل الكتابة والنسخ، ويعتمد أدلة من الوثائق ذاتها ومن خارجها. وغايته، كما قلنا، استخراج أصح نص ممكن (أي أقرب ما يمكن إلى الأصل)، ثم نشر هذا النص ليبقى مرجعاً ثابتاً للباحثين. وكثيراً ما يحدث أن يُبذل هذا الجهد التحقيقي الوافر ويتوج بالنشر ثم يكتشف نص أقدم من النصوص التي اعتمدت أو أحرى منها بالثقة، فتعاد المحاولة ثانية على ضوء هذا الدليل الجديد.

وبعد تثبيت النص، قدر ما يمكننا التثبيت، نتساءل عن المؤلف: من هو؟ هل هو ذلك الذي تدعي الوثيقة انها من تأليفه، أم شخص آخر؟ وبكلمة أخرى، هل الوثيقة صحيحة أم مدسوس فيها أم مزورة، وما هو مبلغ الدس والتزوير فيها؟ وهل هي

من نتاج مؤلف واحد أو أكثر من مؤلف، وما هي الأقسام الخاصة بكل منهم؟ وسبب هذا البحث كله هو أن الناس لم يكونوا يتورعون في الماضي ــ ولعل بعضهم لا يتورعون اليوم ــ من التلاعب بما لديهم من نصوص ومن محاولة تبديلها والإضافة إليها والحذف منها و«تصحيحها»، وذلك لغايات متباينة بعضها بريء وأكثرها غير بريء. ويصاحب هذا التساؤل عن المؤلف تساؤلات عن زمانه ومكانه، وعن زمان الوثيقة الأصلية ومكانها، وعن كل ما يساعدنا على وضعها في موضعها الصحيح وتصور الأحوال التي كتبت فيها والتطورات التي تعاقبت عليها.

هذه هي أهم مراحل «النقد الخارجي». وهي تمهد لمراحل «النقد الداخلي»، إذ بعد أن نتثبت من النص ونتعرف مؤلفه وزمانه ومكانه، نبادر إلى رواياته لنتفهم مقصود المؤلف: ماذا يقول، أو ماذا كان يريد أن يقول. وأول ما يقتضينا هذا التفهم معرفة اللغة التي كتبت بها الوثيقة. وكثيراً ما يكون جهل لغة من اللغات عائقاً عن الاستفادة من نصوص هامة ووثائق خطيرة. ولما كانت اللغة تتطور والمفردات تكتسب معاني مختلفة حسب تطور الحضارة، فيجدر بالباحث أن يكون واقفاً على لغة العصر الذي كتبت الوثيقة فيه واصطلاحاته الخاصة ومعاني المفردات والتراكيب المستعملة فيه. كذلك قد لا يكفي، في أحوال كثيرة، تفسير ظاهر النص، بل يحتاج المؤرخ إلى استكناه باطنه والنفاذ من اللفظ الخادع أحياناً إلى لب المعنى المقصود.

وتتبع محاولة فهم النص محاولة أخرى هي تقدير قيمة المؤلف وصحة شهادته: هل كان قريباً من الحوادث التي يروي أخبارها أم بعيداً عنها، وهل كان في وضع يساعده على صحة مشاهدتها ودقة ملاحظتها ورواية خبرها، وهل هو منضبط ضابط لشهادته وروايته، عدل أمين في تحقيقه ونقله، أم متشيع متغرض تدفعه عوامل داخلية أو خارجية للزيغ عن الحق واعلانه على غير ما هو؟ ان غاية هذه الأسئلة وسواها من أسئلة التعديل والتجريح هي قدر قيمة المؤلف كشاهد، وبالتالي قيمة الشهادة التي يدلي بها، كل ذلك استعداداً للعملية التالية: عملية استخراج حقيقة الحادث التاريخي من الشهادات الباقية عنه.

* * *

إن عمل المؤرخ في هذه المرحلة النقدية هو أشبه ما يكون بعمل المستنطق في الدوائر القضائية الذي يأتي بالشهود والرواة فيستنطقهم ويدقق في شهاداتهم ويحقق في إفاداتهم ويقدم نتيجة تدقيقاته وتحقيقاته ليستند إليها في الحكم في ما جرى. ولكن المؤرخ لا يقف عند عمل المستنطق، بل يتجاوزه إلى عمل المدعي العام، وإلى عمل المحامي ــ متخذاً وجهة الادعاء تارة ووجهة الدفاع أخرى ــ ثم

يصل أخيراً إلى عمل القاضي الذي يحاول **اثبات الوقائع** قبل أن يقدم على الحكم فيها.

إن المؤرخ يتناول الروايات بعد أن تكون قد نقدت كما ذكرنا فيقارنها ويقابلها بسواها من الروايات المنقودة مثلها، وما يزال يقابل ويقارن، ويقارب ويوازن ـ مقدماً في ذلك كله الشك على التصديق والاتهام على التبرئة ـ إلى أن يكوّن قناعة ما عن الحادث وكيفية وقوعه. فإذا فعل هذا وجد أنه لا يستطيع أن يجزم في أحكامه إلا في أحوال نادرة، وأنه مضطر في أكثر الأحوال إلى ترجيح رأي على رأي أو قناعة على قناعة، أو إلى مجرد ذكر الروايات دون اتخاذ موقف منها إلى أن تظهر روايات أو تحقيقات جديدة تقوي عنده الشك أو الترجيح، أو تمكنه من الاثبات أو الانكار.

هذه الأحكام التي يطلقها المؤرخ على الحوادث هي «الحقائق» المفردة التي تتبين له من الماضي. وهي أشبه ما تكون بالحجارة المتفرقة التي تحتاج إلى **جمع ورصف وتركيب** ليتكون منها البناء كاملاً أو أقرب ما يمكن إلى الكمال. ولكن كثيراً ما تكون بعض هذه الحجارة مفقودة بسبب سكوت السلف أو ضياع آثارهم، فتظهر ثلم وثغر يجد المؤرخ ضرورة لسدها وملء فراغها. وسبيله إلى هذا الملء الاجتهاد والقياس، أي استنتاج ما يمكن أن يكون قد حدث بالاستناد إلى ما حدث فعلاً في ظروف مماثلة أو إلى قوانين طبيعية أو اجتماعية يستمدها من العلوم الأخرى. ولا غنى عن القول إن القياس والاستنتاج والاجتهاد يجب أن تكون متصفة بالحذر والاحتياط، كي لا يجمح بالمؤرخ الخيال أو يغرب به التكهن، وكي لا يبعد عن الواقع التاريخي كما حدث فعلاً. فلكم خيب هذا الواقع تصورات المؤرخين والباحثين، فجاء مخالفاً لما ظنوه «معقولاً» أو «ضرورة محتمة»، ولما قدروا بالاستنتاج انه كان ممكن الحدوث أو واجب الحدوث.

إن المؤرخ ليجد أنه يحتاج في سبيل هذا الاستنتاج والاجتهاد ـ بل في سبيل العمل التأريخي كله ـ إلى أن يكوّن لنفسه نظرية شاملة واضحة يفسر بها نشوء الأحداث البشرية وتطورها. بل لا غنى لأي إنسان حي واع عن معتقدات أساسية نجدها منبثّة في مختلف آرائه وتصرفاته وطابعة إياها بطابعها الخاص. ويستمد المؤرخ هذه المعتقدات من نظره في العلوم الفلسفية والاجتماعية ومن اختباراته العقلية والروحية، كما يستمدها من الحقائق التي يكشفها البحث التأريخي ذاته. على أنه لا يفرضها على هذه الحقائق فرضاً، ولا يؤمن بها ايماناً أعمى، بل يعتبرها قابلة للتبديل والتعديل حسب ما يظهر له من أضواء جديدة تلقيها حقائق التأريخ أو النتائج العلمية الأخرى. وهكذا تتفاعل في التأريخ النظرة الفلسفية والتحقيق العلمي، شأنهما في العلوم الأخرى، تفاعلاً خصباً مثمراً مفيداً لهما جميعاً. فالتحقيق في الجزئيات

يستفيد من هدي النظرة الكلية إذ يرى الحقائق الجزئية في ترابطها واتصالها بعضها ببعض، والنظرة الكلية بدورها تُحك وتمتحن بالمعارف التفصيلية وتنمو وتتطور بنمو هذه المعارف وازديادها وتطورها. وسنعود إلى بحث هذا التعليل التأريخي في فصل خاص من هذا الكتاب.

* * *

إن غاية هذه المراحل، مراحل النقد والتحقيق والاستنتاج، هي استخراج حقيقة الماضي بجزئياتها وكليتها. وهي مراحل علمية في جوهرها، ولكن لا بد من أن تتخللها، كما تبين لنا، جهود تعليلية فلسفية خصوصاً في مراحل الجمع والتأليف. أما المرحلة الأخيرة من العمل التأريخي فهي مرحلة أدبية فنية يلجها المؤرخ عندما يعمد إلى **عرض** ما توصل إليه ونشره بين الناس. وهنا تتجلى ملكة المؤرخ في حسن الأداء وروعة التعبير، ونقل الاختبار النفسي بأبلغ الوسائل وأجملها وأشدها تأثيراً. ولئن كان التأريخ علماً من حيث تحقيقه، وفلسفة من حيث ما يحاول من تفهم كلي وربط للأحداث وتعليل للأسباب والنتائج، فهو أدب وفن من حيث العرض والأداء والبيان. ولا يعني هذا طبعاً أن يعتبر التأريخ أدباً فحسب، أو أن تتغلب فيه العناية بالتعبير عن الدقة في التحقيق، كما حصل عند فريق كبير من المؤرخين من مختلف الأجناس والثقافات. فإن صفة التأريخ الأدبية يجب ألا تتجاوز صفته العلمية وألا تسلبها مقامها الأول ومرتبتها الأساسية. والمؤرخ المتميز هو الذي يعرف كيف يكسو العلم الدقيق بالأسلوب الرفيع. وهذا توفيق لا يتأتى إلا لنفر قليل من الموهوبين الجاهدين: أولئك الذين خلدوا أسماءهم في سجل الكتابة التأريخية، وبلغوا بها إلى أعلى قممها، والذين يعود الناس إلى مؤلفاتهم عصراً بعد عصر فيكتسبون منها ذوقاً وأدباً وغنى نفسياً مثل ما يكتسبون منها علماً ومعرفة وحكمة.

* * *

هذه هي الخطة الطويلة الوعرة التي ترسمها الصناعة التأريخية. ونرجو أن يكون هذا الوصف المجمل الخاطف لها قد أظهر ما يعتورها من مصاعب وما يعترضها من عقبات. فإن كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها محفوفة بالأشواك والمزالق، تتطلب أقصى الجهد وتقتضي أوفر العناء، ولا تتم بنجاح إلا إذا روعيت قواعد هذه الصناعة الدقيقة ووفيت شروطها العسيرة، وتجلى بها التدرب العقلي المنتظم والمرانة الجاهدة الدائبة.

أجل! إن هذه الصناعة شديدة المطالب: فإن كلاً من مراحلها المختلفة تقتضي معارف خاصة، بحيث ان من يسير في هذا الطريق إلى نهايته ليحتاج إلى ذخيرة غزيرة

من المعارف، وإلى إلمام بعلوم وآداب مختلفة لها اتصالها المتزايد بالتأريخ. ولا بأس من أن نشير إلى بعض هذه المعارف المساعدة المطلوبة في المراحل المتتابعة. ولا بأس أيضاً من أن نذكر ان بعض هذه المعارف قد انتظمت علوماً لكل منها نطاقه وأسلوبه واخصائيوه. فهناك مثلاً العلوم والفنون المختصة بالآثار (Archeology)، والنقوش (Epigraphy)، والكتابات القديمة (Paleography)، والنقود أو النميّات (Numismatics)، والأختام (Sphragistics)، والوثائق (Diplomatic)، وما إليها من علوم وفنون تهتم بجمع المخلفات التأريخية المختلفة واستنطاقها. ومن البديهي أن هذا الاستنطاق يتطلب، فيما يتطلب، معرفة باللغة أو اللغات التي كتبت فيها هذه النصوص. ولما كان تأريخ أي شعب من الشعوب متصلاً بتواريخ شعوب أخرى، فكثيراً ما يحتاج الباحث إلى أكثر من لغة واحدة للوقوف على نصوص موضوعه الأصلية ومصادره الأولية. وتتضح هذه الحاجة مثلاً عندما يقبل البعض منا على التأريخ العربي وهم لا يملكون من اللغات إلا العربية، فإن جهدهم يكون محدوداً بالنصوص المكتوبة بهذه اللغة، ولا يستطيعون الاستفادة من النصوص التي وضعت بلغات أخرى كالسريانية أو اليونانية أو اللاتينية أو سواها، وهي نصوص لها قيمتها الخاصة في دراسة بعض أدوار هذا التاريخ. ولئن لم يكن هنا موضع ابداء ملاحظة ثانية، فلنستفد من كلامنا عن اللغات لذكرها: وهي ان نشاط الجهود التأريخية في العصر الحديث يدعو المؤرخ إلى أن يكون ملماً باللغات الحية ـ الانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية وأمثالها ـ التي عُرضت بها هذه الجهود. والذي يقبل اليوم على التأريخ العربي ـ أو على أي تأريخ آخر ـ ليجد نفسه مضطراً إلى معرفة أكثر من لغة من هذه اللغات ليستطيع الإفادة من هذه الجهود السابقة، ومتابعة الدراسات التي تجري فيها، وللمشاركة بما تحمله هذه اللغات من ذخيرة علمية وثقافية هي من أهم عُدد المؤرخ وأفضل أجهزته.

أما في مراحل اثبات الحقائق المفردة وتركيبها والتأليف بينها وتعليل الأسباب وإبراز النتائج، فلا بد للباحث من تجهز واسع بمعارف مستمدة من علم الأجناس بفرعيه الطبيعي والحضاري (Anthropology: Physical and Cultural) والجغرافيا، والاقتصاد، وعلم النفس الفردي والاجتماعي، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة، وأمثالها. إن هذه الحاجة لتختلف باختلاف الناحية التي هي موضوع البحث: فلكل ناحية مطالبها واحتياجاتها واستمداداتها الخاصة من هذه العلوم.

ولما كانت هذه العلوم يتصل بعضها بالآخر ويؤدي بعضها إلى الآخر، فإن هذه الاحتياجات والاستمدادات سائرة إلى توسع وازدياد. ويدلنا الاختبار على أنه كلما اتسعت معارف المؤرخ وغزرت ثقافته كان أكثر نجاحاً في تفهم الحياة الماضية

ووضع الناحية التي تهمه منها في إطارها الصحيح.

ولا بأس هنا من أن نشير ثانية إلى حاجة المؤرخ ـ أياً كان موضوع اختصاصه ـ إلى سعة أفق ونظر كلي ومقدرة على الإحاطة والربط مستمدة كلها من الدراسة الفلسفية، كي يأمن من الضياع في الجزئيات وكي يستخرج معنى الأحداث ويحسن تعليلها. كما أنه لا بد له أخيراً من خبرة في فنون الأدب كي يحسن اكتشاف خوالج النفوس ونقل اختباراتها، وكي يجيد العرض والأداء فيأتي نتاجه رائعاً مؤثراً.

هذه المطالب الفائقة التي تقتضيها الصناعة التأريخية، وهذه المعارف المتزايدة التي تحتاج إليها، هي أهم العوامل التي تدفع التأريخ في الطريق ذاته الذي تسلكه العلوم الأخرى في مرحلتها الحاضرة، وهو طريق التفرع والاختصاص. فلقد أقبل المؤرخون على الماضي البشري يقتسمونه عصوراً وحقباً ووجوهاً ونواحي، وتوغلوا في دراسة هذه الأقسام، وكلما ازداد توغلهم تفرعت هذه الأقسام وضاقت دوائر الاختصاص، فإذا ببعض المؤرخين مثلاً يقضي حياته في بحث سيرة رجل من الرجال أو حادثة معينة من حوادث الماضي أو جانب ضيق من الحياة الإدارية أو الاقتصادية أو الاجتماعية في عهد من العهود، وإذا بالاختصاصات تتعدد وتتباعد وتغزر نتائجها التفصيلية، حتى ليصعب على الباحث أن يتابع ما يتعدى دائرته الضيقة أو لا يتصل بها بأسباب قريبة. وقد ظهرت اختصاصات أخرى في العلوم المساعدة للتأريخ ـ ذكرنا بعضها في ما سبق ـ وفي الأعمال الممهدة له كجمع الوثائق، وضبطها، وفهرستها، ونشر نصوصها. وأقبل على هذه الأعمال الأفراد واللجان والجمعيات، وتعددت المجلات والنشرات الاختصاصية في المواضيع المتكاثرة المتفرعة.

هذه هي إحدى النتائج البارزة التي أدت إليها صناعة التأريخ. وهي كسب لهذه الصناعة وللمعرفة التأريخية بوجه عام، نظراً لما يوفره الاختصاص من إمكانات التحقيق والتدقيق، واستمداد المعرفة من أصولها، وجلاء الأدلة والحقائق المفردة التي تبنى عليها الأحكام. وهي كسب كذلك بما تفرضه من تعاون بين الباحثين ومن ترابط بين أجزاء العلم الواحد، وبالشعور الذي تنميه بأن الجبهة العلمية وحدة متراصة، وبأن تعاونها وتماسكها وتنظيم جهودها أمور ضرورية لها لأداء مهمتها وبلوغ غايتها. وهكذا نرى المؤرخين المحدثين يؤلفون الجمعيات وينشئون المؤسسات ويضعون المشروعات لجمع الجهود وتنسيقها والسير بركب العلم سيراً منظماً: شأنهم في هذا شأن غيرهم من الباحثين في ميادين العلم الأخرى.

على أن هذه المكاسب تخفي في طياتها صعاباً ومخاطر لا بد من التنبيه إليها: وهي تجزئة الحقيقة التأريخية تجزئة تكون في كثير من الأحوال اصطناعية،

وحصر النظر في الجزئيات، وطغيان التحليل على التأليف، وعجز الباحثين المتزايد عن رؤية الصورة الشاملة، وعن نقلها أو نقل نتائج أبحاثهم الخاصة إلى جمهور المثقفين. ومن هنا كان ميل الاختصاصيين إلى الاحجام عن الكتابة التأريخية العامة وإهمال شأنها، وتركهم ميدانها مفتوحاً للكثيرين ممن لم يتدربوا على قواعد الصناعة التأريخية ولم يوفوا شروطها فيأتي نتاجهم ناقصاً أو مختلاً أو خادعاً مضللاً. هذه النقائص والمزالق، التي يشارك بها التأريخ العلوم الأخرى في مرحلتها الحاضرة، تكوّن مشكلة من أهم مشكلات العلم الحديث، هذا العلم الذي يزداد في جميع وجوهه تفرعاً وانقساماً واختصاصاً سنة بعد سنة، بل يوماً بعد يوم. وقد أخذ العلماء وسواهم يتنبهون إلى هذه المشكلة ويحاولون معالجتها ودرء أخطارها. ومما يزيد في خطورتها تضخم أهمية العلم في الحياة الحديثة، ونهضة الجماهير في أنحاء الدنيا جميعاً إلى الأخذ به، وحاجة هذه الجماهير إلى المعرفة العلمية المبسطة وإلى الثقافة الإنسانية الشاملة. ولا مراء في أن الاطلاع التأريخي عنصر هام من عناصر هذه الثقافة، فيجب ألا يحصر بالاختصاصيين، بل ان يمتد نفعه لجمهور الناس، وأن يقوم بهذه المهمة من أعدوا أنفسهم لها وقاموا بمتطلباتها.

يتبين من هذا أنه يجدر بمن يقبل على الصناعة التأريخية أن يعي متضمناتها ونتائجها، ومشاركتها في الهدف والاتجاه للصناعة التي يتميز بها العلم الحديث في شتى وجوهه. وبذلك يقف المؤرخ موقفه الصحيح بين سواه من الساعين إلى زيادة المعرفة الإنسانية، ويدرك صلاته بهم من ناحية، وخصائصه المنبثقة عن نوع موضوعه من ناحية ثانية.

* * *

والآن، بعد أن وصفنا هذه الصناعة التأريخية وأوجزنا قواعدها وشروطها ونتائجها، يجب علينا، في هذا البحث الذي نحاول فيه تبيان موقفنا من ماضينا، أن نتساءل عن حالة هذه الصناعة في ديارنا وعن درجة خبرتنا بها ومدى امتلاكنا لناصيتها. ولن نجد صعوبة في الإجابة عن هذا التساؤل، فالنهضة العلمية في البلاد العربية حديثة العهد طرية الجذور. ولما كانت الصناعة التأريخية مرتبطة بتطور الفكر العلمي والروح النقدية بوجه عام، فلا بدع إذا كانت لم تقوَ عندنا بعد ولم تنتشر ولم تؤتِ ثمارها اليانعة المرجوة.

لقد بدأ تطبيق هذه الصناعة في التأريخ العربي والشرقي من قبل العلماء الأجانب، وظل إلى عهد قريب محصوراً في يدهم. فهم الذين تنبهوا، بفعل السبق الذي أحرزوه في استنباط هذه الصناعة والأسلوب العلمي عموماً، إلى مصادر تاريخنا

قبل أن نتنبه نحن إليها، فأقبلوا على اقتنائها بشتى الطرق والأساليب وعلى جمعها وحفظها في مكتباتهم ومتاحفهم، حتى غدت هذه المؤسسات زاخرة بنفائس المخطوطات وأمهات المصادر التي لا غنى للباحثين ـ ولنا نحن أبناء هذا التاريخ ـ عن الرجوع إليها. كما أنهم عمدوا إلى تنظيمها ووضع لوائحها وفهارسها لإرشاد الناس إليها، ونشروا العديد منها نشراً علمياً حسب قواعد الصناعة، فجعلوها في متناول أرباب الاختصاص وسواهم من المعنيين بها. ثم انهم قاموا بأبحاث في هذا التاريخ، ونشروا نتائج هذه الأبحاث في كتبهم ومؤلفاتهم وفي المجلات الاختصاصية العديدة التي أنشأوها للعناية بهذه الشؤون. فبرز منهم علماء ثقات، احتلوا مراكزهم في الجامعات أو في سواها من مؤسسات البحث، وغذوا علم التأريخ بنتائج أبحاثهم وتحقيقاتهم. ولا يزال لهم فعلهم البارز في هذا المضمار، ولا يزال منهم فريق متميز باختصاصه، ولا نزال نحن نقر لهم بهذا التميز عندما نوفد بعض شبابنا من البلدان العربية للتدرب على يدهم. كما أن سبقهم هذا ليبدو في نواحٍ أخرى: في حاجتنا إلى الرجوع إلى المجلات الاستشراقية التي ينشرون فيها أبحاثهم، وفي اضطرار المختص منا بتاريخنا ـ كما ذكرنا سابقاً ـ إلى اتقان أكثر من لغة أوروبية واحدة للوقوف على نتائج هذه الأبحاث الماضية والحاضرة.

لا ننكر ان الدوافع إلى هذا الاهتمام لم تكن كلها علمية خالصة. ولا ننكر أن فريقاً من هؤلاء الباحثين نظروا إلى تاريخنا من غير نافذة العلم وعلى ضوء أغراض غير غرض الحق. ولكننا لا نكون منصفين، والإنصاف من أول الشروط التي يتطلبها التأريخ الصحيح، بل التي تتطلبها الحياة الرشيدة ـ نقول: لا نكون منصفين إذا لم نقر للمستشرقين الأجانب بما لهم من فضل في العناية بأصول تاريخنا وفي دراسته، وما كان لهم من سبق في أخذه بأساليب الصناعة التي ذكرنا، وفي ما أدى إليه هذا الأخذ من نتاج زاخر مفيد.

وقد بدأنا، كما قلنا، نتنبه لأهمية هذه الصناعة ولضرورة سلوك طريقها واتباع أساليبها، ونأنف من أن نظل عالة على سوانا في شأن هو من أخص شؤوننا، إذ أي أمر هو ألصق بنا وادعى إلى اهتمامنا من حياتنا الماضية ومن تاريخنا الذي يفعل في كل وجه من وجوه كياننا الحاضر؟ وبنتيجة هذا الشعور أخذت حكوماتنا تسن القوانين وتضع الأنظمة لحماية آثارنا من الضياع ومن التسرب إلى خارج البلاد، وتسعى لكفالة وسائل حفظها والعناية بها. ومن هذه الوسائل الاهتمام بإنشاء المتاحف وتنظيمها، وبأقسام المخطوطات في دور الكتب وسواها من المؤسسات، كمعهد المخطوطات العربية الذي أنشأته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية والذي يبدي نشاطاً وافراً مشكوراً في هذا السبيل. ومنها كذلك الجهود التي تبذلها هذه المؤسسات

والمجامع العلمية واللغوية والجامعات والمعاهد العلمية والمكتبات والأفراد من العلماء في تحقيق هذه المصادر ونشرها حسب الأصول والقواعد الحديثة.

ومن مظاهر هذا الاهتمام بالمصادر اقبال بعض دور النشر التجارية على نشرها وإحيائها، بالرغم من ضخامة بعضها وما تكلفه من نفقات. ومع أن هذا النشر لا يراعي في بعض الأحوال الأصول والقواعد العلمية، فإنه يظهر تقدماً محسوساً في هذا المضمار، ويدل، على كل حال، على توسع الاهتمام العام بالمصادر وانتشار الرغبة في احيائها والاستفادة منها.

نضيف إلى مظاهر العناية هذه، الدراسات والتحقيقات في نواحي تاريخنا التي أخذ يضعها المختصون من أساتذة الجامعات وأعضاء المجامع العلمية وسواهم من الذين حذقوا أساليب الصناعة التأريخية وعمدوا إلى دراسة موضوعاتهم متسلحين بأجهزتها ووسائلها. وتظهر نتائج هذه الدراسات في الكتب والرسائل، وفي الأبحاث التي تنشر في المجلات الاختصاصية ـ العربية والغربية ـ أو التي تلقى في المؤتمرات العلمية، وما إلى ذلك من مظاهر النشاط التأريخي.

على أنه يجب أن نقر بأن هذا النشاط لا يزال في بدايته، ولم تتوافر له بعد جميع أسباب القوة والازدهار. وليس هذا غريباً، فإن الصناعة التأريخية ـ شأنها شأن الجهد العلمي بكامله ـ إنما جاءت نتيجة تطور مديد مستمر. هكذا كان سيرها في البلاد التي سبقتنا إليها في العصر الحديث، وهكذا سيكون أمرها عندنا. فالمرانة العقلية التي تتطلبها، وتقدير هذه المرانة من قبل الفرد والمجتمع، والاستعداد لتهيئة أسبابها ودفع ثمنها: هذا كله لا يبتدع ابتداعاً، ولا يأتي طفرة، بل يحتاج إلى أن تعد له العدد وتمهد له السبل.

ومما يحد أيضاً من هذا النشاط التأريخي انصراف حكوماتنا وأرباب الأمر فينا إلى التجهيز المادي والتنمية الاقتصادية، واقبال ناشئتنا على تعلم المهن والدراسات العلمية الطبيعية والتشجيع الذي يلقونه للتدرب على الفنون العلمية. ولكل هذا ما يسوغه في وضعنا الحاضر، وفي تحفزنا إلى الأخذ بأسباب القوة والمنعة والعزة والرخاء. ولكنه يجب أن لا يقف مانعاً دون تقوية الجهود المطلوبة لتعزيز العلوم الإنسانية ولتنمية الثقافة الوطنية، ولخلق جيل قادر على رسم الغايات الصحيحة قدرته على تحقيق الوسائل المستحدثة. والثقافة التأريخية تكوّن ـ كما قلنا ـ عنصراً خطيراً من عناصر الثقافة الوطنية والإنسانية. فخليق بالذين يخططون للمجتمع المقبل أن يعنوا بالثقافة النظرية عنايتهم بالثقافة العملية، وأن يمدوها بالعون والتشجيع في ما يهيئون من بعوث علمية، وما ينشئون أو يرعون من مؤسسات ومعاهد، وما يخصصون من موارد للتعليم والبحث العلمي. وخليق بالصناعة التأريخية ـ بل

بالثقافة التأريخية عموماً ـ ان يقوى فعلها ويتكاثف وينتشر أثرها كي تقوم بدورها في نهضتنا الحاضرة. ذلك ان هذه النهضة لن تؤتي ثمارها صحيحة خيّرة إلاّ إذا شملت نواحي حياتنا جميعاً، الإنسانية والمادية، وأدت إلى خلق أجيال جديدة واعية لماضيها وحاضرها، مجهزة بالفضائل العقلية والخلقية الكفيلة بتحقيق القيم الوطنية والإنسانية ـ تلك القيم التي تعزز الكيان الفردي والاجتماعي وتبعث قوى التقدم والرقي وتسبغ على الحياة معناها وقيمتها وكرامتها.

* * *

عسى أن تكون هذه اللمحة الموجزة في الصناعة التأريخية قد أدت، على الأقل، غرضها الأول، وهو اقناع القارىء بوجودها، وبأن دراسة الماضي ـ شأن أية دراسة علمية أخرى ـ تقتضي أسلوباً معيناً في التفكير والعمل، ومعرفة شاملة لعديد من نواحي الحياة الإنسانية، دقيقة متعمقة في بعضها، وأن هذه المعرفة وهذا الأسلوب لا يتيسران إلا للذي يقوم بمتطلباتهما العسيرة ويؤدي ثمنهما الباهظ.

هذا الاقتناع يجب أن يتسرب إلى نفوسنا ويمتلك عقولنا في الشرق العربي. ذلك أننا ما زلنا، في الأعم الأغلب، ننظر إلى التأريخ كأرض مشاع يستطيع كل من أمسك قلماً أو تأدب بنوع من الأدب أن يلجها ويعبث فيها كما يشاء. ترى أيطمع أي منا في أن يؤلف في الرياضيات دون أن يقف على دقائق أسلوبها، أو أن يمارس الفيزياء أو الكيمياء أو الطب دون أن يتدرب في مخابرها ويفني السنين الطويلة في دراستها نظراً وتطبيقاً؟ فلماذا لا نقر للتأريخ بمثل هذه الحاجة إلى فن ودراية وتدرب عقلي صارم؟ ان البحث التأريخي هو، عند التحقيق، أشد دقة وأبعد منالاً من الأبحاث العلمية الطبيعية، لأن مادته أصعب من مادتها وأشد تعقداً ومقاييسه أخفى من مقاييسها وأعسر تحديداً. فلا بدع في أن تكون مقتضياته أوفر وأشد دقة وصرامة، ولا غرابة في أن يكون ـ كما قال بعضهم ـ «أصعب العلوم». ان هذه الحقيقة لا تزال خافية عن سواد الناس عندنا ـ بل لنقل أيضاً انها تخفى عن سواد الشعوب التي سبقتنا في هذا المضمار ـ ولكن آن لها أن تبدو للخاصة من مثقفينا، وأن تدفعهم لأن يفرضوا على أنفسهم وعلى كل من يتصدى للتأريخ منا توفية الشروط التي تتطلبها هذه الصناعة. فالحقيقة التأريخية مطلب بعيد، وخصم عنيد لكل عبث في القول أو وهم في الخيال أو خفة في الحكم. يضاف إلى هذا أن الضرر الذي يحدث من الأحكام التأريخية الفاسدة قد يعم الناس ويسري في عقولهم ويؤثر في تصرفاتهم حتى ليصبح من الصعب إزالته، خصوصاً إذا لقيت هذه الأحكام هوى في النفوس وتجاوباً في الصدور. فليس أعسر عندئذ من العودة إلى رؤية الحق والاهتداء بهديه والتزام

طريقه. إن هذا الأثر القوي الذي يحدثه التوجيه المستمد من التأريخ، الناطق باسمه، يجب أن يبعث في نفس كل من يتصدى له أدق شعور بالمسؤولية وأعمق تقدير للتبعة فلا يباشره إلا بعد أن يقوم بمقتضياته ويوفي شروطه ويعتزم على أن يسلك إليه سبيله الصحيح مهما تكن تكاليفه.

إن هذا الشعور بالمسؤولية هو، كما سنرى، من أولى الصفات المطلوبة من الذي يعاني التأريخ، بل هو السر الكامن وراء الصناعة التأريخية بكاملها. فلولاه لما كانت هذه الصناعة، ولما تجشم العلماء المشقات العقلية والنفسية التي تفرضها. انه ينبثِ في مختلف مراحل العمل التأريخي الصحيح، يفعل حافزاً دافعاً في أول الطريق، وينتج كسباً متوفراً في نهايتها. فلنؤكده اذن في ختام هذا الفصل، ولندعُ بقوة وصراحة إلى تدبر معناه، ولنقدم على هديه إلى تبين ما يتصل به ويجاريه من صفات وفضائل تتطلبها الصناعة التأريخية وتنميها بالمرانة وتسهم بها في اغناء الثقافة ورقي الإنسان.

فضائل الصناعة التأريخية

لقد جهدنا في الفصل السابق لأن نظهر أن التأريخ، ككل دراسة علمية أخرى، يقوم على صناعة معينة، وأن هذه الصناعة لها قواعدها وضوابطها وشروطها، وأنها توشك أن تكون أكثر الصناعات العقلية مطالب وأثقلها تكاليف. فهي تقتضي معارف واسعة متصلة بشتى العلوم والآداب والفنون، وأسلوباً في التحقيق والتدقيق والعرض والتعليل يزيد في دقته وصعوبته تعقد الموضوع وسعته واضطراب الوسائل أو المصادر التي يعتمدها.

ولا مراء في أن أهم هذه المتطلبات هو الأسلوب، أو الطريق التي نتبعها للوصول إلى الحقيقة. فلولا هذا الأسلوب في التحقيق والاختبار والاستنتاج والاستقراء، الذي عرف بالأسلوب العلمي، لما انكشف حق أو حدثت معرفة أو تكوّن علم. ولا مراء أيضاً في أن جوهر هذا الأسلوب، والحافز الذي يدفعه في طريقه ويحميه من الانحراف والضياع، إنما هو مجمل الصفات العقلية والخلقية التي يكتسبها العالم والتي توجهه وتهيمن عليه في شتى مراحل عمله.

ولما كانت هذه الصفات والفضائل هي، من ناحية، أهم مكونات الأسلوب وأعظم مقومات الصناعة، ومن ناحية ثانية، أثمن الثمار التي تنتج عنهما وأنفس القيم التي يولدانها، فقد آثرنا أن نقف عندها بعض الشيء، وأن نفرد لها هذا الفصل، اعتقاداً منا أن كل عمل علمي هو، في نهاية الأمر، نتاج صفات مكتسبة مُنمّاة، وحصيلة فضائل يكونها جهاد العقل والنفس، وان قيمة أي بحث لا يمكن أن تعلو، في أي حال من الأحوال، فوق قيمة الإنسان الباحث ذاته.

قلنا: العمل العلمي والبحث على الاطلاق، ولم نخصص التأريخ. ذلك أن الصفات والفضائل المطلوبة في الصناعة التأريخية هي، في جوهرها، ذات الفضائل

والصفات التي تدعو إليها وتطبقها وتنميها الجهود العلمية الأخرى على اختلاف موضوعاتها واتجاهاتها. على أنها تكتسب مظاهر ومعاني خاصة بالنسبة لهذه الاتجاهات والموضوعات. وقد رأينا أن للتأريخ موضوعه ووسائله وقيوده ومتطلباته الخاصة به. فلهذا السبب تبرز فيه بعض هذه الصفات على بعض وتكتسي أكثرها مظاهر ومعاني معينة. ومن الخير لنا أن نتقصاها وأن نجلوها ما استطعنا، في سياق محاولتنا هذه لتبين الموقف الذي يجب علينا أن نتخذه من ماضينا. إذ إن هذا الموقف مرتبط أشد الارتباط بنوع المزايا العقلية والخلقية التي نتمتع بها، أو التي نتطلبها من أنفسنا، عندما نجابه الماضي.

فما هي أهم هذه المزايا؟

لعل القارىء يعجب إذا وضعنا في مقدمة هذه المزايا المطلوبة والفضائل المكتسبة: **الجد والمثابرة**. على أننا نفعل ذلك لنؤكد هذه المزية في كل عمل علمي، وفي البحث التأريخي بوجه خاص. فالباحث المنتج هو الذي يروض نفسه على الجد والجلد، وعلى العمل الشاق المستديم، وعلى الابتعاد عن الجلبة والضوضاء، وعلى الصبر على ما يبعثه البحث أحياناً في النفس من شعور بالوحشة والغربة وما يدعو إليه من وحدة وانزواء وتأمل. ولقد أخطأ من ظن أن العامل الأول في الإنتاج العلمي هو الحذق والذكاء، وان الشعوب التي تفوقت فيه تتميز عن سواها بحدة الذهن أو بصفات طبيعية أخرى. فإن الإنتاج هو، في الأكثر، وليد ما بذله أفراد هذه الشعوب من جهد عقلي ونفسي، وما أدوه من ثمن عسير، نصباً ومشقة ومجالدة، في سبيل الوصول إلى الحقيقة واعلانها والدفاع عنها. ولا يعرف هذا الجهد إلا من عاناه، ولا هذه المجالدة إلا من كابدها، أو من أتيح له، على الأقل، أن يشاهد هذه المزية ممثلة في عمل الباحث الدؤوب، مجسمة في حياته، مهيمنة على شعوره وتفكيره وسلوكه.

ولئن كانت هذه المزية شرطاً أساسياً من شروط أي عمل علمي، فهي مطلوبة بصفة خاصة في البحث التأريخي، نظراً لوعورة هذا البحث وتفرع مسالكه وتشتت مصادره. ولولاها لما كانت لنا تلك المجموعات من المصادر التي بذل الجامعون والمنقبون السنوات المتعاقبة والجهود المتراكمة في سبيل العثور عليها واقتنائها وحفظها، ولا تلك المجلدات الضخمة في فهرسة هذه المجموعات ووصفها، ولا تلك النصوص المنشورة التي اقتضى تحقيقها وتدقيقها ونشرها عناء وافراً وانكباباً متصلاً، ولا تلك الأبحاث المستقصاة التي غالباً ما تكون نتيجة عمل سنوات أو خلاصة عمر بكامله يبذل تتبعاً وتدقيقاً ومعالجة.

ونحن في البلاد العربية اليوم بحاجة إلى أن نعي هذه الحقيقة وأن نقدر هذه المزية حق قدرها. ذلك أننا كثيراً ما نضع سرعة الخاطر ولمعان الذهن والحذق في التصرف فوق الدأب المستمر العنيد الذي لا يبهر ولا يفتن، والذي يضحي بالنتيجة اليسيرة في المدى القريب في سبيل ما هو أرسخ وأبقى وأكثر جدوى في المدى البعيد: وما أجدرنا بأن نعود إلى العلماء المنتجين من أسلافنا لنستمد منهم الفضائل التي ولدت ذلك الإنتاج. إنّا إذا فعلنا أدهشنا ما تحلى به هذا السلف من دأب وصبر، ومن جد ومجالدة نفس: سواء أكان ذلك في الرحلة الشاقة في طلب العلم، أم في الانكباب على التحقيق والتدقيق والتأليف، أم في الجهد الرضي السخي للتعلم والتعليم، أم في غير ذلك من فنون البذل التي بدونها لم يكن ممكناً أن يحصل ذلك الإنتاج العلمي الضخم وذلك الاسهام الخير في مجرى الحضارة. كذلك شأن العلم في كل مكان وزمان. إنه، أولاً وآخراً، سعي وجهاد، وقيمته مرهونة بما يتصف به هذا السعي من حرص واستمرار وعناد.

* * *

ومن المزايا المطلوبة في البحث التأريخي: **الشك والنقد**. ولا نغالي إذا قلنا إن التأريخ بدأ يتخذ صفة علمية منذ أن أخذ رجاله يشكون في الروايات التي نقلت إليهم بالسماع أو الكتابة، ومنذ أن عمدوا إلى نقد صفات رواتها أو حاولوا امتحان مضمونها. وما فتىء تطور التأريخ كبحث علمي مرتبطاً أشد ارتباط بتقدم هذا النقد وانضباط قواعده واتساع تطبيقه.

إن الإنسان ميال بفطرته إلى التصديق. وهكذا كان في عهوده الأولى قبل أن ينشأ العلم وتقوى أصوله. بل هذا ما لا تزال عليه الجمهرة من الناس حتى في هذا العهد الحديث الذي نما فيه العلم أعجب نمو وفتح فتوحاته الباهرة الخارقة. فما أكثر ما يتناقل الناس الأخبار دون أن يدققوا فيها، وما أكثر ما يسرعون إلى التصديق وإلى أخذ ما يسمعون ويقرأون على علاته. حتى أن العلماء الذين اعتادوا ممارسة الشك وتطبيق أساليب النقد في حقولهم الاختصاصية يكادون أحياناً يتصرفون تصرف العامة في قبول اشاعة سارية، وفي تناقل خبر من الأخبار لمجرد أنه نشر في صحيفة أو ورد في اشاعة. ومن هنا كان هذا التسابق العنيف الذي نشهده اليوم إلى استخدام أساليب الاذاعة والنشر وإلى دعم قوتها وتوسيع نطاقها. وما كانت هذه الأساليب لتحدث أثرها لولا ميل الإنسان الطبيعي إلى التصديق، ولولا ما يحتاج إليه الحس النقدي من تطور فكري سبيله التدرب والممارسة والجهد المستمر.

حقاً إن اكتساب هذا الحس النقدي وضبط قواعده وتطبيقها بروية واتزان ــ إن

هذا لمن أهم ثمار الثقافة ومن أبرز مميزات الحضارة الناهضة النامية. ولكنها ثمرة لا تحصل إلا بفعل جهود وافرة شاقة تبذل في اقتلاع الأشواك ونسف الصخور وتمهيد الأرض وحرثها ورعايتها رعاية مستمرة. فإذا قل تقدير مجتمع من المجتمعات لهذه الثمرة أو ضعف اهتمامه بها أو تراخى سعيه في سبيلها، جفّت أسرع جفاف وسقطت وضاعت، وضاع معها الكثير من نتاج الحضارة ومفاخر المدنية. هذا ما نراه في سير الأمم المتعاقبة وفي أدوار الرقي والانحطاط في سيرة الأمة الواحدة. فعندما يكون حس الأمة النقدي نافذاً جريئاً، ويكون في الوقت نفسه عارفاً حدوده ضابطاً ذاته كما يضبط سواه، تتقدم الأمة في مجالات الرقي، وتحقق خيرات ثقافية ومآثر حضارية، ويصبح لها فعلها الايجابي وذكرها الباقي. ولكنها تظل مع ذلك معرضة للخطر، لما ينتاب العقل من كسل وتخاذل واسترخاء، ولأن الشك أصعب من التصديق وأيسر ضياعاً، والنقد أعسر من النقل وأوعر مسلكاً. فإذا ضعفت همة الاقتحام، وخارت عزيمة المجابهة، ومال العقل إلى القعود والاستسلام، شاع النقد والتقليد، وعاد التصديق فغلب على التحقيق، وأخذ الناس يهتمون باللفظ دون المعنى وبالحرف دون الروح. وعندها تتوقف الحضارة عن النمو بل تسير في طريق الانكماش والتفسخ. ولسنا بحاجة إلى أن نخرج من دائرة تاريخنا لنرى هذه الحقيقة واضحة بينة. فالفرق بين الازدهار والإنتاج والاسهام الحضاري التي تميز بها التاريخ العربي في عصوره الناهضة الأولى والجدب والعقم والاجترار التي سادت عصور الانحطاط المتأخرة هو بالضبط الفرق بين التفتح والجرأة والدراية والنقد (نقد الغير ونقد الذات) من جهة، والانكماش والنقل والتمسك بالحرف والظاهر من جهة أخرى، أو بتعبير أوضح: بين العقل الممتحن المنضبط المولد والذاكرة السادرة المرددة المقلدة.

إن النقد ركن أساسي من أركان أي جهد علمي. ولكن له قدره وخطورته الخاصة في مايتعلق بالتأريخ، وذلك لأسباب عديدة نقتصر هنا منها على ثلاثة: **أولها** ان هذا العلم هو، في جوهره، علم نقلي، لا يتسع فيه مجال الاختبار كما يتسع في العلوم الأخرى. ولذلك فالميل الطبيعي فيه هو إلى الاكتفاء بالنقل والرواية، كما أن وسائل النقد فيه أقل دقة وأعسر تحقيقاً مما هو في العلوم الطبيعية مثلاً، ولذلك تتطلب من الجهد ما لا يستسيغه ويقوى عليه العقل إلا في حالات التنبه الحاد والنمو الناضج. أما السبب **الثاني** فهو ان موضوعه يتأثر، أكثر مما تتأثر مواضيع علوم أخرى، لا سيما الطبيعية منها، بالأهواء الفردية والنزعات الاجتماعية التي تتسرب إليه من كل ناحية وتفعل فعلها فيه قوياً منتشراً. ومن هنا تتضاعف الحاجة فيه إلى النقد وإلى التزامه بحرص واستمرار في كل مرحلة من مراحل الصناعة، من البحث عن المصادر إلى آخر خطوة في التأليف التأريخي. والمطلع على تطور هذا العلم، وعلى التاريخ

البشري بوجه عام، يعلم مبلغ الأخطاء التي شاعت والانحرافات والأضرار التي حدثت بسبب قبول بعض الوثائق التأريخية على علاتها دون محاولة اثبات صحتها أو زيفها أو بسبب تناقل بعض الروايات أو الأحكام دون تدقيق أو تحقيق.

ويقودنا هذا إلى السبب **الثالث**؛ وهو ان بعض هذه الوثائق الماضية تكتسب على مر الزمن حرمة وقداسة تبعدانها عن ميدان النظر العقلي. ويزداد هذا البعد والإبعاد كلما خفّ فعل العقل وتضاءل الايمان به، فتزداد بذلك صعوبة أخذها بالامتحان العقلي والنقد التأريخي. وهنا أيضاً نلاحظ اختلاف التأريخ عن العلوم الطبيعية، بل عن بعض العلوم الاجتماعية، كالاقتصاد مثلاً، التي لا تحاط موضوعاتها بمثل هذا التحريم والتقديس. ولذا نرى كثيرين من الناس يلجون أبواب هذه العلوم بأجهزة الامتحان والنقد والاختبار، ولكنهم يقفون دون ذلك عند دراسة بعض وثائق التاريخ أو البحث في بعض موضوعاته: فهم عقليون مقدمون ناقدون في جوانب من نفوسهم، تقليديون متراجعون مصدقون في جوانب أخرى.

لقد قلنا في مناسبة سابقة إن مهمة المؤرخ شبيهة بمهمة المحقق الذي يستنطق الشهود ويجمع شهاداتهم وينقدها في سبيل استجلاء ما حدث. وهي شبيهة بمهمة القاضي من حيث انه يحاول، بمقارنة هذه الشهادات ومقابلتها وسماع أقوال جميع الفرقاء والموازنة بينها، استخراجَ الواقع قبل الحكم عليه. ولا يستطيع المحقق أو القاضي أن يؤدي مهمته هذه على وجهها الصحيح، إذا لم يأخذ هذه الشهادات والروايات بالشك المتحفظ، وإذا لم يغربلها غربلة دقيقة، لفصل فاسدها عن صحيحها. ولكن الأصول القضائية هي، مع هذا، ارحم من الأصول التأريخية. فمن أصول الأحكام القضائية براءة الذمة، وان المتهم بريء إلى أن تثبت ادانته. أما في التأريخ فالاتهام أصل ومبدأ: فكل نص مشكوك فيه إلى أن تثبت صحته، وكل رواية متهمة إلى أن يقوم الدليل على براءتها. ولذا كان لا بد للذي يتعاطى هذه الصناعة من أن يتجهز بالشك النافذ المتزن وأن ينمي في ذاته الحس النقدي الحاد الواعي وأن يقبل بهذا وذاك على كل خطوة من خطى عمله ويطبقهما في هذه الخطى جميعاً.

قلنا: الشك المتزن والحس النقدي الواعي. ذلك أن ثمة تطرفاً في الشك ومغالاة في النقد يجب اتخاذ الحذر منهما وتجنب مزالقهما. فالفضيلة هي هنا، بالمعنى الارسطوطاليسي، وسط بين طرفين: بين انعدام الشك والنقد، والمغالاة فيهما. وقد بدت هذه المغالاة (hypercriticism) عند بعض المؤرخين الغربيين، فاستسلموا إلى الشك كما استسلم سواهم إلى التصديق، وتطرفوا في التساؤل والانكار كما تطرف هؤلاء في القبول والاثبات، وطغت على عملهم الروح السلبية فلم يجلب شكهم ونقدهم الفائدة الايجابية المرجوة. ولعل أهم صفة تطلب من

العالـم هي صفة الاتزان، ولعله أحوج ما يكون إليها في هذه الناحية النافذة المؤثرة من عمله: ناحية النقد والتجريح. فما أحرى المؤرخ، وهو من أشد العلماء تعرضاً للأهواء والنزعات، بأن يحرص على هذا الاتزان، وأن يلتزمه في ما يحاول من اتهام وتبرئة، وما يقبل عليه من تجريح وتعديل.

* * *

هذا الاتزان المنشود يتطلب مزية أخرى ويصاحبها، هي **الدقة**: الدقة والأمانة في النقل، والدقة في التفكير، والدقة في التعبير. ولسنا بحاجة إلى الاطالة في وصف هذه المزية، فهي شرط أساسي صريح من شروط أي بحث علمي، وهي في صميم تقليد العلم المتراكم وعامل من أهم عوامل تقدمه ورقيه. وإنما يكفينا أن نؤكد هنا، ما أكدناه بشأن المزايا السابقة، من أنها لا تأتي عفواً ولا تحصل إلا بكثير من المجالدة والمرانة. فالإنسان يميل بطبيعته إلى أن يصول ويجول في ميادين الفكر والخيال، ويأنف من الانتظام والانضباط، ويؤثر التعميم والاطلاق على التخصيص والتقييد والاحتياط. وكل من يمارس التعليم يدرك أية مشقة جسيمة يتطلبها تعويد النشء ضبط الفكر والقول، بحيث تأتي الفكرة محددة صافية والعبارة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام، وبحيث تترابط الفكر والعبارات ترابطاً منطقياً متلازماً نيراً. ولعل هذه الكلمة ــ «الدقة» ــ هي أكثر ما يجب أن يردده المعلم ويؤكده ويحاول غرسه في العقول والنفوس، حتى تصبح الصفة التي تدل عليها عادة يحرص عليها المتعلم وتنطبع بها شخصيته بكاملها. وعلى كل حال، ان اختبارنا الخاص قد أظهر لنا حاجة نشئنا القصوى إلى اكتساب هذه المزية، وإلى السير في الطريق الضيقة الصعبة التي تتطلبها، بل حاجتنا جميعاً إلى ترويض الذهن على الانضباط والانتظام، وعلى مكافحة أي اضطراب في الفكر أو في القول. ولهذا جئنا نلح على هذه الحاجة هنا، وندعو ما استطعنا إلى توفيتها حقها.

وإن دعوتنا هذه لتنطبق انطباقاً خاصاً على التأريخ. لأن مجال الإبهام والتعميم والزلل فيه أوسع وأيسر مما هو في الدراسات العلمية الأخرى. فلكم نسمع ونقرأ من التعميمات المطلقة والأحكام الجارفة على هذه الأمة أو تلك، أو على هذا العصر أو ذاك، بل على الأحداث البشرية كلها، ولكم تستهوينا الاستنتاجات السهلة والعبارات الأخاذة فنقبل عليها أو نرددها دون امعان أو تدبر. وهذا ما يجعل التأريخ سلاحاً هيناً يستعمله من يريد لتأييد رأي أو بث دعوة أو لاستهواء السامع أو القارىء.

إن كل خطوة من خطى الصناعة التأريخية تستدعي الدقة بأقصى معانيها وأضيق حدودها. فالبحث عن المصادر يقتضي عدم الاكتفاء بما يبين للعين أو يعثر عليه

بأيسر جهد، بل يتطلب الاستقصاء البعيد والتفتيش الدقيق في كل ركن وزاوية أملاً في أن ينكشف شيء جديد. واثبات النص وتعرّف المؤلف ومكانه وزمانه يستدعيان تقييم النسخ ومقابلتها ومقارنتها والنظر في الأدلة المستنبطة من النص ذاته ومن سواه: كل ذلك بانتباه وامعان وحرص، ولزوم دائم للنص والدليل. واستخراج الحقائق المفردة من النصوص يتطلب هذه الشروط ذاتها. أما استخلاص الأحكام العامة وتعليل الأحداث، فيفرض جودة في الربط، وإحكاماً في الاستنتاج، ودقة في الحكم، كأشد ما يفرضه أي جهد علمي مماثل. وأخيراً ان عرض هذه الحقائق والأحكام يحتاج إلى انضباط في التعبير، وحرص على تأدية الحقيقة بأوضح الأساليب وأصرحها وأبعدها عن الغموض والاضطراب والميعان. وهكذا نرى ان الصناعة كلها تكاد تكون تجسيماً لهذه المزية ــ مزية الدقة ــ وتطبيقاً لها تطبيقاً شاملاً صارماً لا هوادة فيه ولا التواء، فلا غنى لمن تصدى لهذه الصناعة، وأراد أن ينظر إلى ماضيه نظراً صحيحاً، عن أن يجهد لاكتساب هذه المزية والانطباع بها وأداء تكاليفها في كل آن وحال.

* * *

ومن المزايا المطلوبة في التأريخ، والتي يكثر الجدل فيها: مزية **التجرد**. وهنا نرى انها مزية مطلوبة في كل علم، مفروضة على كل باحث، مهما يكن موضوع اهتمامه. ولكنها أيسر تحقيقاً في العلوم الطبيعية منها في العلوم الاجتماعية، وفي التأريخ بنوع خاص. فليس عسيراً على المرء أن يتجرد من ميوله وأهوائه وهو يحل مسألة رياضية أو يحلل مادة كيميائية أو يستخرج قانوناً طبيعياً. وإنما العسر كل العسر في أن يحصل هذا التجرد عندما ينظر في ماضي أمته ونصيبها من الحضارة، وما حققت من ظفر، وما أصابها من وهن وانتكاس. ولذا نجد التحيز غالباً على الإنتاج التأريخي في أكثر الأحيان، ونلاحظ ان التجرد لم يتحقق إلا ببطء وبمقادير محدودة، وأنه لا يزال، في الوقت الحاضر، عزيزاً نادراً إلا عند فريق من العلماء، وأنه معرض، حتى عند هؤلاء، إلى أن يضعف أو يضيع إذا ما عصفت الأهواء وعظمت الشدائد.

ترى، أيمكن المؤرخ حقاً أن يتجرد من ميوله وأهوائه؟ لقد طمح إلى هذا عدد كبير من المؤرخين خلال العصور. ولعل ليوبولد فون رانكه (Leopold von Ranke) زعيم المدرسة العلمية الحديثة في التأريخ، وواضع أسسها في القرن الماضي، كان أبعدهم طموحاً وأشدهم تطلباً. فلقد تمنى أن يطفىء جميع رغباته، بل نفسه ذاتها، ليصبح مرآة صافية تنعكس عليها صورة الحوادث التي حدثت دون أن يكون له أي

تأثير فيها. وتبعه في هذا التمني والتطلب أصحاب هذه المدرسة الذين استنبطوا أصول الصناعة التأريخية وحددوا مطاليبها، فقد جعلوا في مقدمة هذه المطاليب، الموضوعية المطلقة والتجرد التام، بحيث أصبح المثل الأعلى للمؤرخ عندهم شبيهاً بالمرآة الصافية المجردة التي تحدّث عنها رانكه أو بالعدسة الفوتوغرافية التي تعكس الصورة أو بالشريط الذي يسجلها فحسب.

ولكن، هل من الممكن أن يتحقق هذا المثل الأعلى، وهل تحقق فعلاً عند هؤلاء؟ بل هل هو الغاية المرجوة والهدف المنشود؟ هذا ما يتساءل عنه اليوم عديد من المهتمين بالتأريخ من مختلف النزعات والاتجاهات. فلنبادر أولاً إلى أن نسقط منهم أولئك الذين يتذرعون بهذه الصعوبة في سبيل المثابرة على استخدام التأريخ لدعم حجة أو بث دعاوة أو خدمة غرض خاص. ان هؤلاء ليسوا من صلب التقليد العلمي، ومقاييسهم تختلف عن المقاييس التي تتطلبها النظرة الصحيحة إلى الماضي والتي نتوخاها في بحثنا هذا. فلنقتصر إذن على أولئك الذين يحرصون فعلاً على الوصول إلى حقيقة الماضي، ولكنهم يجدون هذا التجرد التام الذي يطفىء شخصية المؤرخ صعب التحقيق، بل يكاد يكون مستحيلاً أصلاً، نظراً لطبيعة الإنسان القائمة إلى حد بعيد على الشعور والإرادة والإيمان. انهم ينظرون إلى الإنتاج التأريخي في الماضي فيجدون ان من ألمع المؤلفات التأريخية ذكراً وأبقاها أثراً تلك التي وضعها أشخاص ذوو معتقدات أساسية حية وإحساسات واعية بمشكلات عصرهم، وتأثر بمجرى الحضارة وتأثير فيه. لقد قال مومسن، أحد كبار المؤرخين الألمان المحدثين: «إن الذين خبروا أحداثاً تاريخية كما خبرت لا بد لهم من أن يروا أن التأريخ لا يكتب وان التاريخ لا يصنع بدون حب أو حقد». فما معنى التجرد في العمل التأريخي إذن، وما هو سر هذه الفضيلة، الذي يضمن قوة الإنتاج وخصبه وسموه دون التضحية بالشرط الأساسي، وهو التزام الحقيقة والسعي جهد الطاقة لابرازها؟

ليس التجرد صفة سلبية فحسب. ليس هو التخلص من كل شعور أو فكر أو معتقد. فما من شخص يستطيع ذلك عملياً، وان هو استطاع، فلن يأتي عمله بأفضل النتائج وأخصبها. وإنما للتجرد في التأريخ معناه الايجابي، وهو أن يتمكن المؤرخ بما له من دقة شعور وحدّة بصيرة من أن ينفذ إلى أعماق الأفراد والجماعات في الماضي فيحس أحاسيسهم، ويتلمس أهواءهم، ويختبر ميولهم ورغباتهم، وآمالهم وأمانيهم، والظروف التي كانت تحيط بهم، وتأثرهم بهذه الظروف وتأثيرهم فيها. وبذلك يصبح كأنه واحد منهم، ينطق بلغتهم، بل بلغاتهم جميعاً، لا يلتزم أي فرد منهم أو أية شيعة أو أمة دون سواها. فالماضي حصيلة ميول وإرادات، ومطامع ومعتقدات، وتفاعلات حية دائمة بين الفرد والمجتمع وبين المجتمعات المختلفة. ولا بد

للمؤرخ من أن ينفذ إليها إذا أراد أن يفهم هذا الماضي على حقيقته. وهو يجد فيها ما يحب وما يكره، ما يقر وما ينكر، ما يثير في نفسه الرضى والاعجاب وما يبعث الأسى والازدراء وواجبه أن يسعى دوماً إلى اثبات هذا وذاك كما تجليا له بالضبط ودون أن يجعل لحبه أو كرهه أثراً في هذا الاثبات. واجبه أن يصوّر الأهواء دون هوى، ويمثل الميول دون ميل، ويستخرج العوامل المحيطة والتفاعلات البشرية ولا يفرضها ــ كل ذلك لأنه يعيش الماضي ويختبره في نفسه وينطق بروحه.

وبهذا المعنى لا يكون تجرد المؤرخ سلبياً فحسب، لا يعود عمله محض تلقٍ وانفعال. ولا يعود هو مجرد مرآة تنعكس عليها الصور أو شريط تسجل فيه الأحداث، وإنما يغدو ذهناً تتلاقى فيه أفكار الماضي ومعتقداته، ونفساً مفعمة بمشاعر الأجيال واختباراتها، على ما فيها من شبه واختلاف، ومن هدوء وصخب، ومن تجاذب وتنافر وتناقض. لقد استطاع أن يجعل الماضي حياً فيه، فاكتسب تجرده صفة ايجابية فاعلة.

والتجرد التأريخي المثمر إيجابيّ بمعنى آخر. فالمؤرخ الحق لا يحيا الماضي فحسب، بل يعيش الحاضر أيضاً ويختبره في نفسه وينطق بلغته وروحه، ولا يمكن أحداً أن يطلب منه ــ ولا يسوغ له أن يطلب هو من نفسه ــ أن يتخلى عن معتقداته الأساسية ومواقفه الفكرية الأصلية. وهذه المعتقدات والمواقف تؤثر، كما قلنا، في حكمه في الماضي (وفي ما ينطوي عليه هذا الحكم من اختيار وتنسيق للأحداث ومن تعليل لعواملها). ولكنه يدرك تماماً أين ينتهي احياء الماضي وأين يبدأ الحكم فيه، فلا يمزج العملين ولا يخلط بين الوظيفتين. فالتجرد بهذا المعنى الثاني هو اذن ليس التخلص التام من الحاضر، أو من أية مبادىء أو معتقدات أو مواقف منبعثة منه، وإنما هو معرفة الحد بين الاختبارين ــ اختبار الحاضر واختبار الماضي ــ ووظيفة كل منهما، وعدم السماح لأي منهما بأن يطغى على الآخر، بل بالعكس ــ وهنا الوجه الايجابي الجديد للتجرد ــ السعي إلى تقابلهما وتفاعلهما بحيث يحتفظ كل منهما باستقلاله ويقوى ويغنى بالآخر. وهذا التجرد الايجابي المزدوج هو سمة التأريخ الرائع الخالد الذي تتميز به أمهات الكتب التأريخية الثابتة على الدهر. بل هو، بوجه عام، صفة الفكر المولد والحياة الخصبة حيثما كانا.

* * *

ان هذا ليقودنا رأساً إلى الفضيلة التي تنبعث منها الصناعة التأريخية كلها والتي تكمن وراء جميع الفضائل الأخرى: نعني بها **محبة الحقيقة**. فلولا هذه المحبة، ولولا الشعلة التي تذكيها في النفس، لما كان هناك جد وصبر في السعي، ولا ثار

شك أو نقد، ولا حرص أحد على دقة وتعمق، ولا بدا أي تجرد، ولا حدثت أي من الفضائل الأخرى التي ترتكز إليها الصناعة التأريخية ويقوم عليها النظر الصحيح إلى الماضي. فكل جهد إنساني مرتبط أوثق ارتباط بالغاية التي يسعى إليها، وقيمته مستمدة، إلى حد بعيد، من قيمة هذه الغاية ومن درجة التزامه إياها وخضوعه لها. ومن أجل هذا خصصنا الفصل الثالث من هذا البحث لمناقشة الغرض من التأريخ، قبل محاولة رسم قواعده وأسلوبه. فالأساليب والقواعد سبل وطرق لا تفهم على حقيقتها إلا إذا عرفت الغاية التي تتجه نحوها. وعسى أن نكون في ذلك البحث الذي عرفنا به التأريخ بأنه السعي إلى «ادراك الماضي البشري وإحيائه» ـ عسى أن نكون أوضحنا دون لبس أو ابهام أن جوهر هذا السعي والدافع الأول إليه هو محبة الحقيقة والرغبة في جلائها ونشرها لتفعل فعلها في العقول والنفوس.

لولا هذه المحبة والرغبة لم يكن التأريخ علماً، بل لولاهما لم يكن ثمة علم أو تقليد علمي. ونحن نجد الناس يقبلون هذا القول فيما يتعلق بسائر العلوم، ويقرون بأن الفيزياء والكيمياء وعلوم الاحياء وأمثالها لا تقوم إلا إذا اتخذت لها الحقيقة هدفاً خالصاً، ويكادون يطبقون الحكم ذاته على العلوم الاجتماعية من اقتصاد واجتماع وإدارة وما إليها، ولكنهم يترددون عن قبوله فيما يختص بالتأريخ أو ينكرونه كل الإنكار.

إن هؤلاء المترددين والمنكرين فريقان: فريق ينكر إمكان تحقيق هذه الغاية في التأريخ بسبب ارتباطه بجذور حياة الإنسان وبأهوائه ورغباته وآماله وأمانيه، فيفرضون ان كل جهد تأريخي هو لا محالة مصبوغ بهذه الأهواء والرغبات وان التجرد فيه أمر مستحيل واستهداف الحقيقة الخالصة وهم وخيال وخداع للنفس. هؤلاء هم الذين عرضنا رأيهم وناقشناه عندما تكلمنا عن مزية التجرد في القسم السابق من هذا الفصل. أما الفريق الثاني فهم الذين يعتقدون أن التأريخ هو، في نهاية الأمر، واسطة لا غاية، وأنه يجب أن يخدم غرضاً آخر خارجاً عن ذاته أو عن الحقيقة المجردة المفروضة على سائر العلوم. وهذا هو الرأي الذي يستوقفنا الآن.

لا شك أن التأريخ قد استُخدم في الماضي، ولا يزال يستخدم في الحاضر لأغراض عديدة. لقد كتب بعض المؤرخين للترفيه عن القارىء أو تسليته أو إثارة خياله أو ارضاء لذته الفنية، وقصد آخرون منه إلى الدفاع عن سلطة سياسية أو عقيدة دينية أو رأي فلسفي، وأراد سواهم أن يبعثوا بواسطته الهمم أو يلهبوا العواطف أو يثيروا الحفائظ والأحقاد، ورغب غير هؤلاء وأولئك في أن يستخرجوا من خلاله العبر ويستخلصوا القواعد التي يجب أن تتبع في السلوك الفردي أو في السياسة والحكم. هذه الأغراض هي، كما نرى، على أنواع ومراتب، فمنها ما يصدر عن شهوة أو هوى

أو ارضاء نزعة خاصة، ومنها ما يهدف باخلاص إلى نفع وفائدة وخدمة عامة، ومنها ما هو على درجات متفاوتة بينهما.

ولعل أقوى هذه الأغراض في مجتمعنا اليوم هو الغرض القومي، الذي ينشد من التأريخ بعث الأمجاد الماضية وتركيز أصول الأمة وإثارة الهمم لبناء النهضة القومية المرتجاة. ولسنا وحدنا في هذا الميدان. فلقد سبقتنا إليه أمم أخرى في عهد تكوّنها القومي، بل لا تزال هذه الأمم وسواها تصول فيه وتجول، حتى إننا لا نغالي إذا قلنا إن اتصال التأريخ بالشعور القومي والأغراض القومية هو من أهم بواعث الاهتمام التأريخي والكتابة التأريخية في العصر الحديث، كما أنه من أبرز ما يعنى به المربون ورجال الدولة والمصلحون.

هوذا موضوع واسع الأرجاء متشابك السبل والمسالك يصلح لأن يكون مجال بحث خاص مستقصى. أما في سياق بحثنا العام هذا، فيهمنا أن ندلي بالملاحظات التالية:

أولاً: لقد كان للتأريخ، عندما أحسن استعماله واستغلاله، أثره الايجابي في بعث الروح القومية عند مختلف الشعوب في العصر الحديث، ودوره البارز في تكوين الأمم ودفعها إلى ما تنشد من نهضة وعزة ومجد. ويكفينا لتبين هذا الدور وادراك ذاك الأثر أن نرجع إلى المؤلفات التأريخية التي وضعها أرباب هذا العلم في عهود الانبعاث القومي في فرنسة وانكلترة والمانية وايطالية وروسية، أو إلى المقام الذي يحتله والشكل الذي يتخذه تعليم التأريخ عند الشعوب الناهضة أو المتحفزة للنهوض.

ان من الطبيعي اذن في الوضع الذي نحن فيه، وفي هبتنا لإنشاء كيان قومي ثابت زاهر، أن نعمد إلى أمجادنا الماضية ونستمد منها ما يشيع في نفوس الناشئة شعور العزة والكرامة والإقدام. من الطبيعي أن نجد عند الكتّاب والموجهين والأساتذة والأدباء منا هذا الحرص الشديد على الاستفادة من تاريخنا في سبيل تعزيز وحدتنا القومية، وأن نرى رجال الدولة والقائمين على التخطيط والتنظيم يهتمون بأن يتوجه تعليم التأريخ عندنا، في المراحل الابتدائية والثانوية خاصة، إلى هذا الغرض ذاته.

ثانياً: اننا نلاحظ أنه كان للتأريخ، بجانب هذا الأثر الايجابي البناء، أثر سلبي ضار عندما استخدم أداة لإثارة الأحقاد والفتن سواء بين فئات الشعب الواحد أو بين الشعوب المختلفة، أو وسيلة لدعم النظام القائم وتبرير وجوده واغداق المدح والثناء عليه. فما أكثر ما غذى التأريخ وتعليمه في البلدان الأوروبية من ضغائن وشرور أدت في ما بعد إلى حروب ومجازر، وما أكثر ما أدى إلى تفرقة وقسمة، وخدم مصالح طائفية أو طبقية أو حزبية أو شخصية مغايرة لمصلحة الأمة ولخير الإنسانية.

ثالثاً: يستنتج من هذا أن استخدام التأريخ في سبيل غاية قومية يتوقف نفعه أو ضرره على أصالة فهم الموجهين والباحثين والمربين لهذه الغاية، وصحة ادراكهم لها. ان التأريخ يصبح هنا أداة ووسيلة، وقيمته وأثره ومبلغ نفعه أو ضرره تغدو متوقفة على صحة الغاية ونبلها أو خللها وفسادها، وعلى نوع الجهد المبذول في استجلائها والسعي إليها. ولا ينطبق هذا على الغاية القومية فحسب بل على أية غاية يوجه التأريخ إليها ويستخدم من أجلها.

رابعاً: وعلى هذا، فإن استغلال التأريخ للغايات القومية له خطره الذي يجب أن يعيه كل من يقدم عليه، مهما سما قصده وخلصت نيته وصفا سعيه. فإن هذا الاستغلال قد يفسح المجال لاستغلالات أخرى في سبيل أغراض منحرفة ضارة لا يؤمن شرها. ذلك أننا إذا قبلنا المبدأ وأجزناه لأنفسنا، فليس ما يمنع الغير الذي يسعى إلى غاية غير غايتنا أن يجيزه لنفسه عندما يستطيع ذلك. ولذا تبقى أسلم الطرق وآمنها لتحقيق الغاية القومية ذاتها، وأحفظها لقدر التأريخ وحرمة الماضي، أن نؤكد استقلال هذا العلم، ونشده شداً وثيقاً إلى غايته الأصيلة وهي كشف الحقيقة، ونسعى دون خوف أو حذر إلى فهم الماضي كما حدث فعلاً. إن كل استغلال ـ من أي نوع كان ـ لا بد من أن يكون له أثره السيىء في المستغِل والمستغَل على السواء. والتأريخ لا يشذ عن هذه القاعدة: شأنه في ذلك شأن أي علم آخر، بل أي مسعى إنساني عملي أو عقلي.

خامساً: ان الغاية القومية ذاتها لا تؤتي نتائجها البعيدة المدى إلا إذا وافقت الحقيقة واهتدت بهديها. ولا عبرة بالنتائج القريبة، مهما عظمت، إذا كانت مبنية على خطأ في الفهم أو فساد في السعي. ليس مثل الحقيقة غذاء للنفس، ومورداً للعقل، ومكوناً بانياً لشخصية المواطن والإنسان. وليس لبناة الوطن والموجهين والباحثين والمربين عمل أجلّ ومهمة أسمى من تربية النشء على مجابهة الحقيقة مهما تكن في بعض الأحيان صعبة المراس أو مريرة الطعم. فإن الذي يروض نفسه على هذه الجرأة وهذه الصلابة لا يخشى عليه من التحول والالتواء ومن الانحلال والفساد، بل يكون، في أيام الشدة وأيام اليسر على السواء، الضامن الأقوى لتحقيق الغاية القومية، لأن صحة قوميته مستمدة من صحة خلقه وصلابة عقيدته وسلامة كيانه الإنساني، ولأن من قدر على البذل في سبيل الحقيقة فقد هان لديه كل بذل آخر.

إنا نعلم أننا نتكلم هنا كلاماً يعتبره أكثر الناس مثالياً، وندرك أنه، ما دامت الأمم في صراع محتدم والفكر والأهواء في نزاع صاخب، وما دمنا نحن في دور تكون قومي، فلا بد من أن نسعى إلى الاستفادة من التأريخ لتحقيق أغراضنا القومية، نظراً لما يمكن استمداده منه من عون وقوة، ولما له من أثر في النفوس ـ نفوس

الناشئة والجماهير بصفة خاصة. على أنا نلح على أن تكون الأيدي التي تتسلم هذا التوجيه أيدياً سليمة أمينة واعية المفاهيم القومية أدق وعي وأشمله ومفعمة بروح الاخلاص ومنزهة عن الشوائب الخلقية. كما أننا نرجو أن يظل رجال هذا العلم أنفسهم جاهدين ما استطاعوا في سبيل الغرض الأصلي وهو الحقيقة، عاملين على جلائها والدفاع عنها. نقول هذا لا من أجل علم التأريخ وحده، بل من أجل الغاية القومية ذاتها التي نحن حريصون عليها، لأن ادراك هذه الغاية على أفضل وجه وأبعد مدى وأخصب نتاج رهين، آخر الأمر، بمقدار ما يتجمع لدى الأمة من ذخيرة الحق النامية الفاعلة: معرفةً وقدرة وفضيلة.

* * *

ها نحن قد عددنا بعض المزايا التي تتطلبها صناعة التأريخ والتي تنميها في نفس من ينهج طريقها. ونحن في تعدادنا هذا قد اقتصرنا على الهامّ في نظرنا من هذه المزايا، دون سواها مما يحسن ذكره ووصفه لو اتسع المجال. ونأمل أن يكون عرضنا قد كشف عن صعوبة هذه المزايا وثقل تكاليفها، فليست هي بالكسب الهين الذي يحصل عفواً أو بيسر، أو الذي يأتي هبة أو منحة. وإنما هي نتيجة لتدرب عقلي صعب المراس، ومجالدة نفسية شديدة المطالب. وفي سياق هذا التدرب والمجالدة تتجلى صفتان أخريان: **الشعور بالمسؤولية، والتواضع**. فالذي يتصدى للماضي بروح العبث، غير شاعر بدقة المهمة، وبشدة ما تتطلبه منه، وبخطورة ما تؤدي إليه، يعود منها بأضعف النتائج، بل بالضرر والسوء لنفسه ولسواه. وبالعكس نرى ان من أبرز الصفات التي تبدو عند المتميزين من المؤرخين هذا الشعور الذي يملأ نفوسهم بنبل عملهم، وبحرمة مسؤوليتهم، والذي يدفعهم إلى أن يطالبوا أنفسهم أشد مطالبة ويقهروها على أداء شروط السعي كي تأتي أحكامهم ونتائجهم خالصة مفيدة. ان كل نوع من أنواع السعي المجدي يتطلب هذا الشعور، ولكن التطلب يقوى، والحاجة إلى ادراك المسؤولية تعظم، عندما يكون السعي ــ كما هو في التأريخ ــ وعر المسلك بالغ التكاليف، وعندما يأتي أثره في النفس بارزاً ونتيجته ــ للخير أم للشر ــ نافذة فعالة. وإزاء ضخامة المهمة وخطورة التبعة يشيع في نفس المؤرخ الإحساس بحدوده وبضآلة ما يملك بالنسبة لما يبغي وبضيق دائرة المعلوم عندما يقاس بالمجهول، فيكتسب ذلك التواضع الذي يسبغه العلم الصحيح، والذي يبدو عند العلماء الأمناء في كل صقع وجيل. بهذا التواضع يتجلى علم العلماء أفضل تجلٍ، ويرقون هم لا في مراتب العلم فحسب، بل في مراتب الكيان الإنساني ذاته. وحري بالمؤرخ الذي لا تقل مهمته صعوبة عن مهمة أي منهم، ولا تتدنى تبعته عن أية تبعة علمية أخرى ــ حري به أن يكون أعمقهم تواضعاً وأدقهم إحساساً بالعبء الملقى

على عاتقه، وبالتالي أكثرهم جداً وانصرافاً وأوفرهم على المطلوب عزيمة.

* * *

وهذا ينتهي بنا إلى الملاحظة الأخيرة التي نود أن نختتم بها هذا الفصل. وهي أن المزايا العقلية التي يفرضها التأريخ هي في جوهرها فضائل خلقية. ولذا حرصنا على أن يكون موضوع هذا الفصل «فضائل» الصناعة التأريخية. فنشدان الحق ــ وهو الشرط الأول لأي بحث علمي ــ إنما يأتي نتيجة لقرار خلقي سابق لأي جهد فكري ومصاحب له وضابط لنزعاته في كل مرحلة من مراحله. والصبر والجد وتحمل النصب في جمع الوثائق وإثبات صحتها واستخراج الأحكام منها تتطلب مجاهدة النفس مجاهدة عنيفة مستمرة وترويضها على سلوك الطريق الضيق وأداء الثمن الباهظ وتجنب الشهرة الرخيصة في سبيل ما هو أبقى وأبعد منالاً. أما الدقة فقد تبدو صفة عقلية فحسب، ولكنها في الواقع قائمة على الأمانة: الأمانة للأصل والمرجع، والأمانة للفكر، والأمانة في التعبير. وكذلك القول في الشك والنقد، وفي التجريح والتعديل، إذ إن غايتها ليست سوى إظهار الحق ونفي الباطل. أما التجرد عن الهوى، والشعور بدقة التبعة، والتواضع إزاء خطورة المهمة، فلا جدال في أصولها الخلقية وجذورها الأدبية.

جميع هذه الفضائل التي يقوم عليها التأريخ بوصفه علماً، والتي ينميها في النفس، تستند إلى قرارات أساسية ينبغي لمن يتصدى لمعرفة الماضي أن يتخذها ويلتزمها التزاماً أميناً مستديماً. وهذا الالتزام يفترض مراقبة حثيثة للنفس، ونقداً صارماً للذات، ومحاسبة دقيقة دائمة. فعلى الذي يختار هذا الطريق أن يكون مستعداً للقيام بهذه الفروض الخلقية وأن يجهد لاكتساب الفضائل التي تولدها في النفس.

ان العالم ــ أي عالم ــ لا يستطيع أن يرتفع بعلمه فوق منزلته من حيث هو إنسان. والتأريخ الذي يجابه من الصعوبات ما لا يجابهه أي علم آخر، والذي يتعرض أكثر مما يتعرض سواه للأهواء والنزعات، خليق بأن يخضع لهذه القاعدة، وأن يتطلب من الذي يتصدى له أن يحقق في ذاته القيم والفضائل الإنسانية أفضل تحقيق وأبعده وأتمه.

ذلكم هو الشرط الأساسي لأي موقف صحيح نريد أن نتخذه من ماضينا. وهو، بالوقت ذاته، الكسب الثمين الذي نحصله من الصناعة التي لا غنى لنا عن سلوك سبيلها لبلوغ هذا الموقف.

التفكير التأريخي

إن الصناعة التأريخية التي حاولنا عرض قواعدها وشروطها ووصف دقتها وأثرها وفضائلها لا تستنفد معنى التأريخ. إنها عنصر هام من عناصره، ولكنها ليست كله. فالصناعة، أو التكنيك، أو الفن العملي ــ سمِّها ما شئت ــ هي طريقة وأسلوب يستهدفان بلوغ غاية معينة. وقيمتها هي في ارتباطها بهذه الغاية وعدم انحرافها عنها، وفي دقة سيرها وانتظامها، وتحقيقها لأوفر النتائج بأيسر جهد وأقصر وقت. ذلك هو شأنها مثلاً في الإنتاج المادي الذي يكوّن ركناً هاماً من أركان المدنية الحديثة. فنحن، أنى التفتنا اليوم، واجهنا «التكنيك» بمظاهره المختلفة وسعينا إلى اقتباس قواعده وبناء حياتنا على أساسه، حرصاً منا على ما يوفّر من نتائج وما يخدم من أغراض. ولكن الذين يمعنون النظر في هذا التكنيك الذي يتغلغل في كل ناحية من نواحي حياتنا المادية والعملية يلاحظون أمرين: أولهما أنه هو نفسه نتيجة لنوع معين من التفكير، ولا يمكن أن يُقتبس أو يحقق إلا بقدر ما يتحقق هذا التفكير ويكتمل، وثانيهما انه لا يستوعب معنى المدنية أو الحضارة، وأن من أعظم الأخطار التي تتعرض لها مدنيتنا الحديثة طغيان التكنيك عليها، وسيطرة الوسيلة على الغاية، والأداة التي استنبطها الإنسان على كيانه ذاته.

وكذلك الأمر في العلم. فالطريقة العلمية عنصر من عناصر العلم، ولكنها ليست كل العلم. فثمة نوع معين من التفكير هو التفكير العلمي يستخدم هذه الطريقة، أو التكنيك، أو الصناعة، ولكنه لا يقف عندها، بل يظل دوماً ينظر في متضمناتها، ويتأمل نتائجها، فيستطيع التجديد والابتكار في العلم ويحسن ربطه بسواه من وجوه الفكر والحياة. ولا مراء في ان من اختبر العلم وعرف العلماء حق المعرفة يستطيع أن يميز بين من حذق الصناعة العلمية فحسب وبقي ضمن حدودها فكان تكنيكياً محضاً، ومن اتسع أفقه وألح تساؤله وعمق اختباره فحقق معنى العلم والعالم بصورة

أشمل وأغنى، فنفذ إلى متضمنات الأسلوب وعرف حدوده، وناقش موضوع علمه ومعطياته، وربط نتائجه بنتائج سواه من العلوم، وسيطر بفكره على مادته وأسلوبه وصناعته بدلاً من أن يكون محدوداً بها وخاضعاً لها.

وإذا صدق هذا في العلوم التي تبحث في المادة غير الحية، فهو أصدق في العلوم الإنسانية لتعقد هذه العلوم من ناحية، ولصلتها الوثقى بحياة العالِم من ناحية أخرى. ولعله أصدق ما يكون في التأريخ لتغلغله العميق في فكر الإنسان وعاطفته ودوافع سلوكه. ونحن نرى بين المؤرخين المحدثين عدداً وافراً متكاثراً من الذين امتلكوا ناصية الصناعة التأريخية، فأقبلوا على المصادر يدرسون نصوصها ويستخرجون منها الحقائق الجزئية، ويملأون صفحات الكتب والمجلات بها. ولسنا لننكر خدماتهم الجزيلة في هذا المضمار، ولكننا نعتقد انهم لا يتممون وظيفة التأريخ كاملة إلا إذا ضموا إلى هذه الصناعة الدقيقة، النظر المتأمل في أحداث الماضي، الرابط بينها، الحاكم لها أو عليها، المكتشف أثرها في الحاضر، الدافع إلى الفهم الشامل الصحيح والعمل الايجابي المثمر. وبكلمة أخرى: ان هذه الصناعة كثيراً ما يذهب بها الحرص على الدقة وإلى تجزئة الماضي وإلى اضعاف صلته بالحاضر، فتحدث ثمة هوة بين «المعارف» التأريخية المتكاثرة المتناثرة و«الفكر» و«الاتجاهات» التأريخية التي يجب أن تحتويها الثقافة الفردية والاجتماعية ـ هوة بين التأريخ كصناعة فحسب، والتأريخ كتفكير معين له ميزاته وخصائصه التي تكمل معنى الصناعة فيه والتي تميزه بالوقت ذاته عن التفكير الذي يتجلى في العلوم الأخرى.

فما هو هذا التفكير التأريخي؟ وما هي شروطه ومميزاته؟

* * *

إن أول ما يتميز به التفكير التأريخي هو أنه نظر في **الإنسان**. فالمعروف المتناقل ان التأريخ يبحث في الماضي. ولكن ماضي من أو ماذا؟ ان للكائنات غير الحية: للكواكب والنجوم، للجبال والسهول والبحار ـ إن لهذه كلها ماضيها. ولكن هذا الماضي هو موضوع علم أو علوم أخرى غير التأريخ بالمعنى الدقيق، ولا تتصل بهذا التأريخ إلا بقدر ما أثرت الأحداث التي تعنى بها، بالإنسان أو بقدر ما أثر هو بها. وكذلك إن للنبات والحيوان ماضياً، إذ هما يخضعان للتحول والتغير. على أن التأريخ هنا أيضاً لا يعنى بهما إلا بالنسبة لعلاقة هذا التغير والتحول بالإنسان فاعلاً أو منفعلاً. ولذا قلنا: «لا تأريخ بلا إنسان».

إن كثيرين من الناس يدرسون التأريخ ويدرّسونه بشكل مجرد، فيسلبونه لبه

ومحتواه. إنهم يرددون سنوات وأسماء وأحداثاً دون أن ينفذوا إلى الحياة البشرية التي تنساب فيها. وكذلك ينظر بعض المؤرخين إلى الآثار والمخلفات الماضية: يقرأون نقوشها، ويفكون رموزها، ويحللون لغتها، دون أن يلمسوا النشاط الإنساني الذي صدرت عنه. فوراء أي أثر أو نقش أو كتاب أو أية بقية مادية من بقايا الماضي: إنسان، أو أناس عاشوا وجهدوا، وأحبوا وكرهوا، وفرحوا وتألموا، واختبروا الحياة اختبارات قد تكون مماثلة لاختباراتنا الحاضرة أو مختلفة عنها، ولكنها على كل حال، اختبارات إنسانية هي، في النهاية، لب الماضي ومحتواه.

قلنا في ما مضى إن من أغراض التأريخ «إحياء» الماضي. ومن البديهي ان هذا لا يتم إلا إذا بعثنا ما كان يجيش فيه من حياة، أي إذا رجعنا، وراء الأحداث المروية والأسماء المرددة والاثار المخلفة، إلى الأفراد والجماعات الذين كانوا يحوكون نسيج الماضي بما كانوا يشعرون ويفكرون ويعملون، وإلا إذا استطاعت حياتنا أن تتصل بحياتهم اتصال ملامسة وادراك وتفاعل. إن هذه الحقيقة قد تكون، كما قلنا، بديهية. ولكننا كثيراً ما نسهو عنها، بل كثيراً ما يعجز عن ادراكها وتطبيقها المختصون بهذا العلم. فقد يضعون المباحث الضخمة ويتوصلون إلى الأحكام المفصّلة، ولكن نتاجهم هذا لا يحدث فينا أثراً محركاً، ولا يلهمنا فكراً أو شعوراً، لأنه لم يقبض على ناصية الحياة كما كانت تُحيا، ولم يستضئ بقبسها أو يلتهب بجذوتها.

وكذلك الأمر في تعليم التأريخ في كثير من الأحيان: إنه يكاد لا يتعدى تلقين «حقائق الماضي» ـ وأهمها في نظر الملقِّنين والملقَّنين أسماء الملوك والحكام وقادة الحرب، والمعارك التي خاضوها والمعاهدات التي عقدوها، والأحداث السياسية والتواريخ التي جرت فيها. هذه «الحقائق» ينتظر من التلميذ أو الطالب أن يحفظها ويرددها. فلا عجب في أن يعرض النشء عن هذا العلم ويجفوه، وأن يتحول عنه إلى ما هو ادعى إلى اعمال الفكر وأوثق صلة بالحياة. بل كثيراً ما يكون التدريب العلمي التأريخي في المراحل الجامعية خلواً من هذا العنصر الاحيائي، فيأتي فاتراً جافاً آلياً قد ينجح في الترويض على أسلوب وطريقة، ولكنه يخفق في تفتيح العقل وإنماء الشخصية. والعيب في هذا التعليم كله أنه لا يتوصل إلى الكشف عن جوهر الماضي، واحياء العنصر الذي يكونه، ألا وهو الإنسان، فرداً ومجموعاً: الإنسان شاعراً ومفكراً، مغتبطاً ومتألماً، جاهداً وخاملاً، غالباً ومغلوباً، حريصاً على العيش وخائفاً من الفناء، متأثراً بما حوله ومؤثراً فيه. إن النفاذ إلى هذا الجوهر هو الشرط الأول من شروط التفكير التأريخي الصحيح.

* * *

على أننا لا ننظر إلى هذا «الإنسان» الذي نعده لب التاريخ نظراً مجرداً، وإنما نقصد به كائناً فعالاً ومنفعلاً متأثراً ومؤثراً. ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نفصله أو نبتره عن سواه من الناس، وبصفة خاصة عن الجماعة أو الجماعات التي يرتبط بها ويتفاعل وإياها. فلئن كان شعور الإنسان وتفكيره واختباراته وليدة طبيعته التي يتميز بها عن سائر الكائنات، فهي أيضاً وليدة صلاته الاجتماعية والتفاعل القائم ضمن مجتمعه وبين مجتمعه وسائر المجتمعات. ولذا فالتفكير التأريخي يحرص على أن يضع **الإنسان في حيزه الاجتماعي**، وأن يدرك العلاقات التي تربطه بما حوله وأثر هذه العلاقات في تكوين معتقداته وأساليب فكره وعمله. فالإنسان، كما قال أرسطو، حيوان ناطق، ولكنه بتعريف آخر لأرسطو أيضاً: حيوان سياسي (أي اجتماعي). بل إن المعنى الأول (النطق أو العقل) لا يتحقق، ولا تتحقق بالتالي إنسانية الإنسان، إلا بالاجتماع. ولذا فكل «تجريد» للإنسان، أو فصل للفرد عن المجتمع، إنما هو اخلال بالحياة وتجاوز لسننها، لأن الحياة كيان عضوي متماسك يأبى البتر ويرفض الانقسام. حتى الناسك المتزهد المنعزل عن سواه من الناس، لا يمكننا أن ننفذ إلى صميمه وندرك حقيقته إلا إذا وضعناه في حيزه الاجتماعي ضمن الظروف والأحوال التي كانت سائدة في مجتمعه، وأدركنا على ضوئها الدوافع التي دفعته لأن يثور على المجتمع أو يهرب منه.

ويذهب بعض الباحثين في تأكيد هذه الحقيقة إلى جعل الإنسان كله مجتمعاً أو طبقة أو أمة أو حضارة. فالتأريخ عندهم هو ادراك المجتمعات أو الطبقات أو الأمم أو الحضارات الماضية في علاقاتها بعضها ببعض وفي تطورها بعضها إلى بعض. وهم ان اختلفوا في ما يعدونه الوحدة الاجتماعية الأصيلة ـ الأمة أو الطبقة أو الحضارة أو سواها ـ فهم يكادون يتفقون في جعل وحدتهم التي يختارون محور الحياة ولب التاريخ. على أننا نخشى إذا غلونا في هذا الاتجاه أن نكون تخلصنا من «تجريد» لنقع في «تجريد» آخر لا يقل عنه خطأ وإخلالاً بالحياة. فللأمة وللطبقة وللحضارة ـ ولكل وحدة اجتماعية ـ محتواها الإنساني، بمعنى أنها تتألف من رجال ونساء لهم مشاعرهم وخوالجهم وتطلعاتهم وتأثرهم بما حولهم وتفاعلهم فيما بينهم. وإذا لم يكن من الممكن أن نفصلهم عن الوحدة أو الوحدات الاجتماعية التي ينتمون إليها، فليس ممكناً كذلك لهذه الوحدة أو الوحدات مهما تَقْوَ رابطتها أو يعظُمْ أثرها أن تستنفد معاني حياتهم كلها، وليس ممكناً لنا أن نفهمهم على حقيقتهم إذا أغرقناهم اغراقاً تاماً ضمن هذه الوحدات، وتصورنا الحياة الإنسانية مجموع وحدات اجتماعية فحسب. ان الحياة أغنى وأشد تعقّداً مما يبديه هذا النوع من التصور.

وفي الواقع ان من مقومات التفكير التأريخي الصحيح ابداء ما تتميز به الحياة

الإنسانية من **غنى وتشابك وتعقد**. لنأخذ أي حدث من الأحداث التي تتوالى على مسرح حياتنا الحاضرة: نرَ انه نتيجة عواملٍ كثيرة متداخلة، وملتقى تيارات تجري من كل صوب وناحية. كيف يمكننا مثلاً أن نسبر غور ما يجري في الجمهورية العربية المتحدة في هذا اليوم الذي تصحح فيه مسودات هذا الكتاب، ونعني به انتخاب اللجان المحلية في الاتحاد القومي. هل يمكننا فهم هذه الانتخابات على ضوء التشريعات والتنظيمات التي دعت إليها فحسب، أم تجدنا مضطرين إلى النفاذ وراءها إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أوجدتها الثورة، وإلى ما كان سائداً قبلها، وإلى نمو الفكرة العربية، وإلى تنبه الجماهير، وإلى نقمة النفوس على التسلط الخارجي والمفاسد الداخلية؟ وهل ننسى ما لقضية فلسطين من أثر باق في هذا كله؟ أليس يقودنا بحثنا وتحليلنا إلى النظر في الوضع العالمي وانقسام العالم جبهتين متطاحنتين وجبهة ثالثة تسعى إلى التزام الحياد بينهما، وفي التيارات الايديولوجية التي تكتسح البشرية وتوقظ الجماهير، وفي ما وراء هذا كله من قوى تفعل فعلها في الحضارة الحديثة وتدفعها في اتجاهاتها المختلفة وتكيف نظرتها أو نظراتها المتضاربة إلى الحق والباطل والخير والشر والوجود والمصير؟ إننا لنجد عند التحقيق ان هذا الحدث وأمثاله من الأحداث متصلة بأحوال سياسية واقتصادية واجتماعية وعقلية واسعة المدى شديدة التداخل، وأنه لا سبيل لنا إلى تفهمها إلا من ضمن هذه الأحوال جميعاً.

ليس معنى هذا ان هذه العوامل والأحوال هي متساوية الفعل والأثر، وأنه لا يمكننا إذا توافرت معلوماتنا وصح تفكيرنا أن نصنفها في مراتبها، وأن نقدر مبلغ تأثير كل منها في الأحداث المؤدية إلى الانتخابات التي نتكلم عنها. وإنما المقصود انها كلها متشابكة متماسكة متفاعلة، وان التفكير الاجتماعي والتأريخي الصحيح يحسّ بهذا التشابك والتفاعل، ويأنف من الأحكام السهلة والتعميمات الجارفة التي تبسط الحياة، وتنظر إلى بعض وجوهها دون الأخرى، وتقطع الخيوط التي تربط أجزاءها أو تقيم الحدود والسدود بين مجاريها المتلاقية المتنافرة.

ولقد يقول قائل إن انتخابات الجمهورية العربية المتحدة التي اتخذناها مثلاً لما نقصد إليه هي حدث هام يتصل بحياة الملايين من الناس، فلا غرابة إذا جاءت دليلاً على تضافر عوامل عديدة وتشابك عناصر وافرة مختلفة. وهو قول صحيح إلى حد، لأن بعض الأحداث البشرية أغنى من البعض الآخر مادة وأوفر حركة وحياة وأخصب نتاجاً، إذ تلتقي بها المجاري السارية وتتفاعل فيها القوى الفاعلة أكثر مما تفعل في سواها. ولكن هذا التضافر والتشابك إذا اختلف في الأحداث البشرية درجة واتساعاً، فهو لا يختلف نوعاً. فكل حدث بشري، مهما ضؤل، نتيجة تفاعلات

متعددة. وهذا واضح بيّن لمن يحاول تحليل أي من المواقف التي يتخذها هو نفسه أو أي من الأعمال التي يقبل عليها: إنه يرى أنه لا يستطيع أن يستوعب مضمونه بيسر وسهولة، إذ كلما أمسك بخيط تبينت له خيوط، وكلما كشف عن وجه برزت له وجوه كانت خافية عن عينه لدى النظرة الأولى. وإذا صدق هذا في النوايا والمواقف والأعمال الفردية، فأحر به أن يصدق في الأحداث الاجتماعية التي تلتقي أو تصطدم بها نوايا الجماعات ومواقفها وأعمالها، وكل منها مزيج زاخر ونسيج كثيف.

وهكذا نعود فنقول إن التفكير التأريخي الصحيح يضع الأحداث البشرية في حيزها الاجتماعي ويرى العلاقات المتشابكة التي تصلها بعضها بالبعض الآخر، وهو بذلك يفي الحياة الإنسانية ــ والحياةُ موضوعُهُ ــ ما هو حقّها، ويكون أميناً لطبيعتها وجوهرها، وسننها وقوانينها.

* * *

على أن هذه الاتجاهات التي وصفنا ــ الكشف عما في الأحداث من مضمون إنساني ووضع هذا المضمون في حيزه الاجتماعي (بأوسع معاني «الاجتماع» وأشملها) ــ إن هذه الاتجاهات لا تميز التفكير التأريخي وحده بل تنطبق على التفكير الذي تتطلبه جميع العلوم الإنسانية أو الاجتماعية. فالمفكر السياسي أو الاقتصادي، أو العالم النفسي، أو الناقد الأدبي، أو المحلل الاجتماعي، أو المربي ــ كل واحد من هؤلاء ــ لا يؤدي حق موضوعه إذا لم ينفذ وراء المظاهر التي يراها إلى الحياة الإنسانية التي تنم هذه المظاهر عنها، وإذا لم يدرك ما تتصف به هذه الحياة من غنى وكثافة وتداخل وتفاعل.

أما التفكير التأريخي فهو يضم إلى هذه الميزات ميزة أخرى يتفرد بها، وهو أنه لا يكتفي بوضع الأحداث في حيزها الاجتماعي. بل يتناولها في حيزها الزمني أيضاً. إنه **يعي الزمن**. فإذا نظر غيره إلى الأمور بأبعادها الثلاثة (ولنقل في حيزها المكاني)، أضاف هو بعداً رابعاً، ووضعها في حيزها الزماني والمكاني معاً. إنه يتساءل عن الـ «متى» ولا يستقر أو يستريح إلا إذا ربط الحدث بما قبل وما بعد وركزه في برهة معينة من مجرى الزمن المتدفق.

على أن التفكير التأريخي يأبى هنا أيضاً التجريد وبتر الأوصال. فليس الزمن الذي يهتم به شيئاً قائماً بذاته منفصلاً عن الحياة، وإنما هو الحياة نفسها في تحركها وجيشانها وتدفقها وانتقالها من حال إلى حال. وبكلمة أخرى هو الحياة في صيرورتها. فموضوعه ليس موضوعاً جامداً ثابتاً، بل «الأحداث» البشرية، والأحداث نتيجة تغير وتبدل. فإذا وقف عند أحد هذه الأحداث، كإعلان الحرب بين انكلترا

والمانيا في ١ أيلول ١٩٣٩، أو كمبايعة أهل الشام لمعاوية بالخلافة في شوال سنة ٤٠هـ، أو كاكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية صيف عام ١٦٦٦، فإنه لا يتمالك من أن يتساءل عما حدث قبله وأدى إليه، وعما جاء بعده ونتج عنه. وإذا «جمّد» هذا الحدث بعض الوقت ليمعن النظر فيه، فإنه يدرك ان هذا «التجميد» هو عمل اصطناعي، لأن الأحداث ـ بل الحياة بكاملها ـ هي في سيلان دائم لا يقف، وكل ما هو الآن، أو ما وجد في أية فترة ماضية، هو في انتقال مما كان إلى ما سيكون. إنه يدرك تمام الادراك ان الحياة شيء ديناميكي متحرك متغير دوماً من حال إلى حال وأن الحاضر ليس سوى التقاء الماضي والمستقبل.

ان هذه النظرة إلى الماضي، أو إلى الحياة كتحول وتغير مستمرين، قويت واتسعت في القرن التاسع عشر بفعل عوامل متعددة تلاقت في توجيه النظر إلى أهمية التبدل والتطور في الطبيعة وفي الإنسان، فأدت بالتالي إلى إثارة الحس التأريخي وإشاعة أثره. من هذه العوامل ردة الفعل على الثورة الفرنسية وعلى التفكير العقلاني الذي سبقها في عصر «التنور»، وقيام الحركة الرومانطيقية وتوكيدها على العودة إلى الأصول واستيحاء الماضي، واشتداد الشعور القومي واتساع نطاقه، والتقدم المسرع الذي حدث في العلوم الطبيعية وفي الإنتاج الصناعي، ومذهب دارون وصحبه في النشوء والارتقاء الطبيعي، وفلسفة هيغل الديالكتيكية وما تلاها أو نشأ عنها من مذاهب كان أهمها وأبلغها أثراً بلا مراء الماركسية المادية. هذه وسواها من التطورات في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية تعاونت على تشديد الاهتمام بالماضي وبالصيرورة والتطور، فغزر الإنتاج التأريخي وعظم نفوده، وتسرب أثره إلى العلوم الأخرى، بل إلى الحياة الفكرية عموماً، حتى اعتاد البعض أن يدعوا القرن التاسع عشر بـ «العصر التأريخي»، وحتى غدت النظرة التحولية أو التطورية هي السائدة أو كالسائدة لا في مجالات العلم فحسب، بل في التفكير العام وفي مسالك الرأي والعمل جميعاً. وهذا ما دفع المؤرخ الألماني مينكه (Meinecke) إلى أن يدعو هذه النظرة الجديدة التي أخذت تعرف بِـ historicism «أعظم ثورة روحية عرفها الفكر الغربي»(١)

ولا شك ان التفكير التأريخي استفاد من هذه التطورات، وأفاد. لا شك أننا أصبحنا بفضل انصبابه على تتبع التغير والتطور أكثر فهماً وأدق ادراكاً لكثير من الاتجاهات الفردية والاجتماعية في الماضي، وأعمق تحسساً بِـ «الأصول» التي

(١) Friedrich. Meinecke, *Die Entstehung des Historismus* (Munich: [n.pb.], 1936), vol. 1, p. 1.

نشأت عنها، و«المراحل» التي اجتازتها، و«السياق» الذي جرت فيه. ولكن هذا التفكير قد غلا وتمادى في بعض اتجاهاته، ثم جاءت الهزات العنيفة التي خضت الإنسانية في العقود الثلاثة الماضية، فصدمته وزعزعت الثقة به، فغدا مثار شك ونقد، وبانت حاجته إلى التقيد والتحوط والانضباط ليتجرد من الشوائب التي اعترته أو التطرف الذي انساق إليه وليحتفظ بمضمونه الخالص وجوهره الايجابي. وأهم التحفظات التي يتطلبها هذا التفكير التأريخي ليكون صحيحاً متزناً ما يلي:

١ ــ قد يستنتج من قولنا هذا ان الحياة صيرورة دائمة وسيلان مستمر، وان هذه الصيرورة هادئة سليمة في جميع مراحلها، وان نهر الحياة يجري وادعاً مطمئناً في اتجاه واحد دون انحراف أو ارتداد. ولعل هذه النظرة كانت سائدة في القرن الماضي لما كان يشعر به الناس حينذاك من ثبات واستقرار ومن تقدم مستمر في العلم والإنتاج. غير ان الزعازع التي عصفت بالإنسانية في النصف الأول من هذا القرن، والأخطار التي تلوح في الآفاق الحاضرة وهي أشد هولاً، قد هزت منا الوعي والضمير، وجعلتنا نعود فندرك مجدداً ان مجرى الحياة يختلف في مراحله المتتالية هدوءاً وصخباً، وعلواً وهبوطاً، وبطءاً وسرعة، وان الصيرورة تأتي رفيقة مستقرة حيناً عنيفة عاصفة حيناً آخر، وأن طريقها ليس مستقيماً دوماً، بل كثيراً ما يلتوي وينحرف ويرتد. ولذا يجب علينا أن نميز بين هذه المراحل المختلفة، ونتبين خصائصها، ونلحظ الشدة والعنف والثورة والارتداد كما نلحظ الدعة والاستقرار والتقدم، ونرى الابداع حيث يكون الابداع ونقرّ بالجدب والتأخر والانتكاس حين تطل علينا حقائقها المؤلمة من وراء الأحداث. ان الحياة ظفر ومأساة، والتفكير التأريخي الصحيح يدرك ما ينطوي عليه كل من هذين المعنيين، وما ينطويان عليه معاً.

٢ ــ يقودنا هذا التحفظ إلى تحفظ آخر متصل به. وهو شكنا وارتيابنا في كل تحتيم يؤكد ان الحياة قد سارت في الماضي وستسير في المستقبل نحو غاية معينة ليس لها بدل ولا عنها مرد. لقد عرف الفكر الإنساني مذاهب متعددة تقول هذا القول، وهي ان اختلفت في تعيين القوة أو القوى التي تدفع التاريخ في مجراه، أو في تحديد الاتجاه الذي يسير فيه أو الغاية التي يجدّ نحوها، فإنها تكاد تتفق في **تحتيم** الاتجاه والمراحل والمصير. فمنها مثلاً ما يرى ان الحياة في ارتقاء مستمر وتقدم دائم إلى أن يبلغ الإنسان الكمال والسعادة التامة على سطح هذه البسيطة، ومنها ما يقول إن كل حضارة تنشأ وتزدهر ثم تنحط وتندثر بحسب قوانين معينة لا هرب لها منها ولا نجاة. بعضها تجعل القوة المسيرة المحتمة قوة علوية، وأخرى تؤمن بالقوى الإنتاجية والعلاقات الاقتصادية، وغيرها تركز اهتمامها بالعقل واستمرار تفتحه وتدرجه في رؤية الحقيقة والسير في هديها. وليس من ينكر ان ثمة نواحي في الحياة

الإنسانية تسير في اتجاه يمكن استخلاصه من خلال التغيرات والتقلبات وعبر الانحرافات والانتكاسات. فالعلم مثلاً يجري في طريق النمو والتوافر، وسيطرة الإنسان على الطبيعة تشتد وتقوى يوماً بعد يوم، والعلاقات الاجتماعية تتضاعف سعة وتعقداً، وارتفاع مستوى العيش المادي وتنبه الجماهير وتحقيق الإمكانات البشرية قد ازدادت خلال التاريخ وها هي اليوم تنطلق سراعاً. ولكن هل يصح أن نقول القول ذاته في الحياة الإنسانية بمجموعها، وان نحتم لها طريقاً معيناً وغاية لا محيد عنها؟ إن الإنسان مجموع إمكانات وقابليات، منها ما هو للخير، ومنها ما هو للشر. وليس ثمة ما يسوِّغ الدعة والتفاؤل المطلق كأن سير التاريخ سيؤدي حتماً إلى السعادة والصفاء والكمال، كما ان ليس ثمة ما يحتم تهدم أية حضارة أو انحطاط الحضارة الإنسانية بتمامها وتشتتها أو زوالها. فالتاريخ من صنع الإنسان، ومجاله يتسع لشتى إمكانات التقدم والرقي، كما أنه معرض لمختلف أنواع الأخطار، وفيه من الكسب والابداع قدر ما يرى الإنسان من حق ويقهر نفسه عليه، ومن الشر والخسران قدر ما يضل عنه أو يتأباه. ولكن ليس ثمة ما يحتم في أية مرحلة من مراحله، أو في المرحلة النهائية التي نتصورها له، أنه سيتخذ هذه الوجهة أو تلك كما نرسمها بالضبط.

أجل! لاينكر، كما قلنا، ان للحياة الإنسانية سننها وقوانينها، وأننا نلاحظ ترابطاً بين مؤسساتها المختلفة، ونوعاً من الانتظام في المراحل التي تتبعها هذه المؤسسات في تطورها وتفاعلها. لا ينكر مثلاً ما للأوضاع الاقتصادية في عصر من العصور من أثر في وجوه الحياة الأخرى، أو ان هذه الأوضاع قد اتبعت في تطورها اتجاهاً يمكن تصويره بشكل عام. ولكننا لسنا من الذين يقولون بأن هذه السنن والقوانين لها ما للسنن والقوانين الطبيعية من انتظام وتماسك، وبأنها تجيز لنا التنبؤ بالأحداث المقبلة كما تجيز هذه، لأننا نعتقد، كما ذكرنا، ان التاريخ من صنع الإنسان: فرداً أو جماعة، وأن الأوضاع القائمة تحد هذا الصنع، وتقيم القيود والسدود في وجهه، ولكنها لا تملك أن تمنعه منعاً تاماً، أو أن تمنعه في أحيان كثيرة عن تجاوز الحدود والقيود، والاختيار بين ما ينفسح أمامه من إمكانات بالرغم منها. ولذا، ليس التفكير التأريخي الصحيح، في عرفنا، تحتيمياً جازماً، وإنما هو يسعى إلى ادراك التغيرات والتقلبات على حقيقتها، وإلى استخراج أصولها وعواملها القريبة والبعيدة كما تبدو له بالاستنطاق التأريخي والنظر العقلي. ولما كان يرى من خلال هذه التقلبات والتغيرات أن للإنسان اختياراً وفعلاً وأنه ليس مسيراً كل التسيير، فإن هذا الادراك ينتهي به إلى نوع من اليقظة والقلق، ويبعث هذا القلق في نفس صاحبه شعوراً حاداً بالمسؤولية يتجلى في كل ما يقدم عليه من فكر وعمل. وبهذا كله يرتفع إلى مرتبة التفكير الواعي الفاعل المبدع.

٣ ـ ومن أخطاء التفكير التأريخي المتطرف في تركزه على الصيرورة والتغير، نظرته إلى كل حدث من حيث زمنه وعصره ومرحلته فحسب. فكل عمل من الأعمال الإنسانية يصبح، حسب هذه النظرة، نتيجة «الظروف» التي كانت قائمة في زمنه، و«الأحوال» التي كانت سائدة، فإذا فهمنا منشأه والمرحلة التي يمثلها، فقد استوعبنا معناه، ولن نستطيع أن نحكم له أو عليه إلا من ضمن هذه الظروف والأحوال. فليس ثمة شيء ثابت مطلقاً: ليس ثمة حقيقة ثابتة أو خير ثابت، أو أية عناصر في الإنسان غير خاضعة للتحول والتغير. بل كل ما لدينا أشياء وأحداث وأحكام نسبية تصح في زمن ولا تصح في زمن آخر، وتقوم في مرحلة وتختفي في أخرى.

إن هذه النسبية التي تتهرب من كل ما هو مطلق، تغدو هي ذاتها نسبية مطلقة، فتخلّ، في ما نرى، بمفهومها لطبيعة الإنسان بتجريدها إياها من صفاتها الأصلية. فمع ان الإنسان الحديث يختلف عن الإنسان القديم في عصور الفراعنة، أو عما كان عليه أبناء المدنية الصينية أو الهندية في فجر تاريخهم، أو عن الإنسان اليوناني أو الروماني في العصور القديمة أو العربي في القرون الوسطى ـ مع أنه يختلف عن هؤلاء في أشياء، فإنه يشبههم أيضاً في أشياء لا تتبدل بتبدل الأزمان والبيئات. فهو مثلهم يأمل وييأس، ويحب ويبغض، ويغتبط ويتألم، ويضحي ويطمع، ويوقن ويشك ويكفر، ويتسامى إلى الخير ويهوي إلى الشر. كما أن له عقلاً منتظماً في تدرجه وتفتحه، متماسكاً في سعيه إلى الحقيقة وتطبيقها، ولولا هذا الانتظام والتماسك لما كان ثمة تقليد حضاري ايجابي متراكم عبر العصور. وليس جوهر هذه الصفات المستمر خلال التاريخ بأقل أهمية من المظاهر المختلفة التي تبدو فيها أوالتطورات التي تعتريها. فليحرص تفكيرنا التأريخي على أن لا يقع في الأخطاء التي يدعو إلى تجنبها: فلا يهرب من بعض ألوان التجريد لينتهي إلى تجريد الإنسان من جوهره الباقي، ولا يمعن في النسبية بحيث تصبح هي مطلقة، أو بحيث تختبىء وراءها مطلقات يؤمن بها إيماناً ضمنياً متسلّطاً. ولعلنا نعود إلى هذا الموضوع، عند البحث في الحكم التأريخي، في مناسبة أخرى من هذا الكتاب.

* * *

الحياة الماضية صيرورة حية وتفاعل مستمر. وإذا كانت كذلك، فقد وجب على التفكير التأريخي الصحيح ألا يقف عند تصوير هذه الحقيقة، بل ان ينفذ من خلال هذه الصيرورة لتلمس **العوامل الفاعلة فيها**. نقول: العوامل، ولا نقول العامل، لأنّا نؤمن، كما بينّا مراراً، بتعدد عناصر الحياة وبتفاعل هذه العناصر في تكوينها، ونرى أن اهمال بعض هذه العناصر والانصباب التام على بعضها ـ أو على واحد منها

فحسب كما فعل نفر من المفكرين ـ إنما هو تبسيط وتجريد واخلال بمحتوى الحياة وسلب لمضمونها.

وإذ يقدم التفكير التأريخي على ذلك يتبين تنوع هذه العوامل واختلافها: فمنها ما هو ناشيء عن محيط الإنسان الطبيعي، ومنها ما مصدره طبيعته الإنسانية ذاتها، ومنها ما يرجع إلى العلاقات القائمة في مجتمعه أو بين مجتمعه والمجتمعات الأخرى. ويتبين كذلك ان هذه العوامل يؤثر بعضها في البعض الآخر ويتأثر به. فالسبب في زمن وحال قد يغدو نتيجة في زمن تالٍ وحال أخرى، وقد يعود فيصبح سبباً أشد فعلاً أو أخف أثراً في حال ثالثة. بل هو لا يخلو، في كل حال، من أن يكون فاعلاً ومنفعلاً في الوقت ذاته، وإنما الفرق هو في درجة الفعل أو الانفعال وفي غلبة أحدهما على الآخر.

ولا شك في أن بعض هذه العوامل أفعل وأبلغ أثراً من غيرها، وأنها تختلف من حيث نوع هـذا الأثر وقيمته. ولذلك يحرص التفكير التأريخي على أن يصنف هذه العوامل ما أمكنه التصنيف، وان يتبين أثر كل منها، وما إذا كان لهذا الأثر اتجاه معين يمتد ويتكامل خلال المراحل المختلفة أو اتجاهات متعددة تختلف وتتباعد وتتناقض.

وبصفة خاصة ينبغي للتفكير التأريخي، في نظرنا، أن يستجلي العوامل التي أدت إلى تقدم الإنسان ورقيه وتحرره وتلك التي عملت على اضعافه وتأخره وانحطاطه. ذلك أن أي علم أو فكر، بل أي جهد إنساني، يجب أن يرمي، آخر الأمر، إلى الاسهام في رقي الإنسان واكتماله واكتسابه حظوظاً جديدة من الحكمة والحرية والكرامة. وللتفكير التأريخي نصيبه الهام في هذا المجال، وهو نصيب مطلوب منه ومفروض عليه إذا أراد أن يقوم بوظيفته وينتهي إلى غايته. فبمحاولته أن يكشف العوامل الباعثة للتغير، وأن يميز بين ما حفز منها إلى تقدم وتحرر وما أدى إلى تأخر وفساد، يسعى لتفهم الماضي على حقيقته، وفوق هذا يلقي ضوءاً على الحاضر ويمهد سبيل الفكر والعمل للمستقبل. وبهذا كله يصبح تفكيراً حياً فاعلاً، كما يجب أن يكون التفكير.

ولا جدال في أن القيام بهذه المهمة يتطلب فهماً صحيحاً لطبيعة التغير، ولمعنى التقدم ومفهوم التحرر. وهنا لا بد لهذا التفكير من أن يستعين بجهود العلم ـ العلم بميادينه المختلفة: الطبيعية منها والاجتماعية، العلم الدائب في استجلاء طبيعة العالم المادي وطبيعة العالم الإنساني. كما أنه لا غنى له كذلك عن الإفادة من الفلسفة التي تحاول الربط بين نتائج العلوم المتفرعة، واستخراج متضمناتها، والنفاذ من ظواهر الأشياء إلى بواطنها. كل ذلك لكي تأتي موازينه صحيحة ومقاييسه دقيقة،

فلا ينخدع بالمظاهر، ولا يقف عند الجزئيات، بل يميز تمييزاً صائباً بين الصحيح والفاسد، والمحرر والمستعبد، والحافز إلى التقدم والداعي إلى التأخر، ويضع كلاً منها في مرتبته ومنزلته.

وإذا كان هذا التمييز ضرورياً في كل وقت وحال، فإنه أشد ما يكون ضرورة في أحوال الثورة والتحفز والانقلاب السريع، كي يكون للشعوب المتحفزة ما يهديها في ما تنهض إليه، وكي تكون نقمتها على عوامل الضعف والاسترخاء صحيحة حاسمة، وتلمسها سبل التقدم والرقي سليماً مثمراً. ان من أهم ما تتطلبه هذه الأحوال، بل ما تحتاج إليه البشرية في كل حال، هو الجهد الفعال للتغلب على ما في الطبيعة والإنسان ذاته من قوى سلبية تعوقه عن اكتماله وتحقيق كرامته، والسعي الدائم لدعم كل قوة ايجابية تعزز هذه الكرامة وتدفع ذاك الاكتمال إلى أبعد حدوده. فما أجدر التفكير التأريخي أن يكون له حظه من هذا الجهد ونصيبه من هذا الخلق والابداع.

* * *

ولكي يكون للتفكير التأريخي هذا الاسهام المثمر، يحتاج إلى أن يستكشف هذه العناصر الايجابية في التاريخ، وهل هي متماسكة متكاملة، أو منفرطة موزعة؟ وبعبارة أخرى، هل حصل ثمة **تراكم وتكامل** في سياق الماضي أم لم يحصل، وهل شمل هذا التراكم والتكامل الحياة الإنسانية بكاملها أم انحصر في بعض وجوهها؟ وعلى نتيجة تساؤله هذا تتوقف نظرته إلى الإنسانية وإلى الحضارة. هل الإنسانية وحدة كاملة تسير في تطور معين، وهل ثمة حضارة إنسانية واحدة تتقدم من مرحلة إلى مرحلة، أم هل «الوحدة التاريخية» هي الأمة، أو المجتمع، أو الحضارة الخاصة؟ من الناظرين في الماضي من اتخذ الوجهة الأخيرة، فانكر وحدة الإنسانية، وقال إن هناك حضارات مختلفة لكل منها روحها وطبيعتها ومآثرها، ولكنها تنشأ وتتطور ثم تنحط وتنحل حسب قوانين معينة. ومنهم، بالعكس، من جعل هذه الحضارات مظاهر لتطور واحد قد يتخذ طريقاً مستقيماً أو متعرجاً أو لولبي الشكل، وقد يتفرع إلى طرق ومسالك، ولكنه في جوهره واحد، لأنه منبثق من وحدة الإنسانية الأصيلة. وينتج من هذا التساؤل تساؤل آخر: هل هناك تاريخ واحد، أم تواريخ متعددة؟ وإذا كانت ثمة تواريخ متعددة، فهل تخضع لقانون معين أم لقوانين مختلفة؟ هذه وأمثالها من المسائل الكبرى التي يثيرها النظر في الماضي متصلة بمعاني التقدم والتراكم والتكامل في الحياة الإنسانية ولا غنى للتفكير التأريخي من أن يجلوها لنفسه إذا أراد أن يفهم الماضي وينقل فهمه للآخرين. وقد يبدو بنتيجة هذا التساؤل ان التراكم والتكامل والتقدمية هي من خصائص ناحية أو نواحٍ معينة من الحياة الإنسانية دون سواها. إننا نراها، مثلاً، في عمل العقل المتجه إلى الطبيعة المحاول استجلاء

أسرارها والسيطرة عليها. فالعقل منتظم متماسك متكامل. وتاريخ العلم، الذي يمثل عمل العقل خير تمثيل، تاريخ متراكم متقدم، بالرغم مما اعتوره من انحراف أو ارتداد في بعض المراحل أو الأدوار. ولولا هذا التراكم لما استطعنا أن نبني على الأسس التي ورثناها، ولما كان للعلم معناه أو للتعليم أثره في تطور الإنسانية. إن هناك، ولا شك، تراثاً علمياً ايجابياً، وتقليداً عقلياً مترابطاً، ناشئين عن هذه الصفة الأصلية في العقل الإنساني وفي أسلوب فعله وشكل تفتحه. ولكن أيصدق هذا الوصف على الحياة الإنسانية بكاملها، أم هل ثمة انفصال أصيل في طبيعة الإنسان، وتنازع وصراع بين عناصر في كيانه تقدمية وأخرى غير تقدمية؟ وهل نحن فعلاً، في مجمل حياتنا، أرقى مما كانت عليه الإنسانية في بعض مراحلها السابقة؟ هل نحن سائرون إلى اكتمال متوافر، أم إلى مزيد اضطراب وفساد، أم إلى انحلال وزوال؟

ليس غرضنا هنا الاجابة عن هذه الأسئلة وما يتصل بها. وإنما هو الإشارة إلى نوع الأسئلة التي يطلب من التفكير التأريخي أن يثيرها إذا أراد أن يقوم بكامل وظيفته، فلا يكتفي بمجرد اثبات أحداث الماضي وترديدها، بل يطمح إلى أن يكون، كما يجب أن يكون، تفكيراً واعياً نافذاً فاعلاً.

* * *

بلغنا من محاولتنا وصف التفكير التأريخي وتبين خصائصه إلى نهايتها، فوجدناه ينفذ من خلال الأحداث الماضية إلى مضمونها الإنساني، ويرى ما في هذا المضمون من غنى وتعقد وترابط صلات، وما يجيش به من حركة، وما يتصف به من صيرورة، ثم يسعى إلى الوقوف على أسرار هذه الصيرورة، من حيث اتجاهها ومصيرها والعوامل الدافعة لها ومدى ما تتضمنه من تراكم وتقدم ومن وحدة وتكامل. ولا نريد أن نختتم هذا الفصل دون أن نشير إلى شرط آخر من شروط هذا التفكير. وهو أن يظل **واعياً لتاريخيته:** أي لكونه، هو ذاته، وجهاً من وجوه الحياة القائمة في عصره، فلا بد من أن يتأثر بنوع النظم والعلاقات السائدة، وبالعوامل المتفاعلة في تكوينها، وبالمشكلات التي يجابهها الفرد والمجتمع والإنسانية بكاملها في ذلك الدور بالذات. فإن من التجريد المخلّ ان تخرج أي تفكير من المحيط الذي ظهر فيه والأحوال التي اكتنفته وان ننسى أنه، إلى حد، وليد هذه الأحوال ونتيجة للعوامل الفاعلة فيها. نقول: إلى حد، لأننا، مع اقرارنا بالتبدل والتغير، لا نسهو عما في الحياة من مشكلات دائمة، وما في طبيعة الإنسان من عناصر باقية، ولا نؤمن بالنسبية التأريخية المطلقة. ونحن إذا راجعنا نتائج هذا التفكير التأريخي خلال العصور، وجدنا انها، على تباينها وتأثرها بأحوال المجتمعات وأنواع الحضارات التي صدرت عنها،

تعالج مشكلات أساسية واحدة. تتساءل عن الإنسان ومنشأه وتطوره ومصيره: هل هذا كله من فعل قوة علوية مدبرة أو قدر مجهول، أم للإنسان نصيب فيه؟ هل هذا المصير إلى تقدم مستمر أم إلى زوال محتم، أم يدور دورات متتالية متشابهة؟ هل للحياة قوانين معينة، وأي أثر للإنسان في السيطرة على هذه القوانين أو الخروج عنها؟ ما معنى التاريخ، وما الذي يلقّننا إياه من دروس؟ ما معنى الحاضر بالنسبة إلى ما مضى، وإلى ما سيأتي؟ هذه الأسئلة وأمثالها يتصدى لها التفكير التأريخي عند جميع الأمم والشعوب، فيختلف اهتمامه بها وتتنوع أجوبته عنها، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص منها أو يعرض عنها. إنه أبداً متأثر بها، حتى عندما ينكرها. ولذا لا بد من أن ننظر إلى الشكل الذي يتخذه في دور معين، ولا بد من أن ينظر هو إلى نفسه، نظرة مزدوجة: من خلال المشكلات الباقية الدائمة، ومن خلال المظهر الذي تبدو فيه هذه المشكلات ونوع الاهتمام بها في ذلك الدور المعين بالذات. وبكلمة أخرى: إن التفكيرالتأريخي هو كالحياة الجائشة ذاتها التي يحاول ادراكها: ثابت متغير، أو على الأقل لا يمكننا أن نستوعبه أو نحكم عليه إلا من الناحيتين معاً.

نرى مما تقدم أن التفكير التأريخي يؤدي حتماً إلى تعليل الأحداث وإلى الحكم فيها، أو هو يتضمن في آخر مراحله الحكم والتعليل. ونظراً لأهمية هذين العملين الفكريين، وللمشكلات التي يثيرانها، فقد رأينا أن نعالجهما على حدة ونفرد لهما الفصل التالي من هذا البحث.

التعليل والحكم

ليس غرضنا في هذا الفصل أن ندلي بتعليل شامل للتاريخ، أو بنظرية معينة في نشوء الحياة الماضية وتطورها ومصيرها. فلسنا ندعي اننا سبرنا أغوار الماضي ووقفنا على أسراره بحيث نستطيع أن نستوعبه كله بفلسفة شاملة أو نظرية كاملة. ولئن كان لنا رأينا في النظريات والفلسفات المختلفة التي تتصدى لذلك، فليس هنا مجال عرض هذه النظريات ونقدها، بل نترك هذا لمؤلف خاص نرجو أن نقوم به على حدة. وتبقى غايتنا هنا أدنى من هذا وأقرب: هي إثارة مشكلة التعليل التأريخي بالذات، والنظر في دوافع هذا التعليل وأغراضه، وفي الشروط التي يجب أن يحققها ليسلم من الخطأ والزلل والانحراف.

ما هو التعليل التأريخي؟ إنه محاولة استكشاف علة الأحداث الماضية أو عللها. إنه الإجابة عن السؤال: لماذا؟ لماذا وقعت حادثة ما، أو لماذا اتخذت شكلها المعين؟ وبالمعنى الواسع الذي يقصد إليه بـ «تعليل التاريخ»: لماذا حدث التاريخ كما حدث، واتخذ الشكل الذي يتراءى لنا به؟

إن الناظر في الحياة الإنسانية الماضية يلاحظ ان الإنسان ما فتيء منذ ان أصبح إنساناً يحاول محاولات شتى للنفاذ إلى ماضيه وتفهم القوى العاملة في تكوينه. لقد أكدنا مراراً «تاريخية» الإنسان: أي احساسه بالماضي وتعلقه به، ذلك الاحساس الذي يؤلف عنصراً أساسياً من عناصر كيانه الذي يميزه عن سائر المخلوقات. ولا تقتصر هذه «التاريخية» على توق الإنسان، في كل حال وزمان، إلى تذكر حوادث الماضي وحفظها وترديدها، بل تتعدى ذلك إلى التساؤل عن القوى التي تحرك ذلك الماضي، وعن المصير الذي يسير إليه، والقدر المخبأ له. نرى هذا التساؤل في دعوات الأنبياء والمصلحين، وفي تطلعات الشعراء والفنانين، وفي استقراءات العلماء

والفلاسفة، بل في خلجات نفس كل حي وتأملات فكره عندما يعود إلى نفسه ويحاول استجلاء معنى الحياة وسر الوجود.

ومن هنا كانت الاعتقادات الشعبية والنفثات الشعرية والنظم الدينية والنظريات الفلسفية والعلمية التي أنتجها هذا الشوق إلى تفسير الماضي وتعليله. ولكل منها مذهبها في القوة أو القوى التي تسير التاريخ: ففي فجر الإنسانية توجهت النفس إلى الآلهة أو الأرواح وراء مظاهر الطبيعة، ثم جاء الأنبياء فبشروا بالله الواحد، خالق الإنسان ومبدعه، وحافظه والمهيمن على حياته ومصيره. وفي العصر الحديث قوي الايمان بالعلم وبالاختبار وأخذ الناس يتطلعون إلى العوامل الطبيعية والاجتماعية المؤثرة في الحياة الإنسانية. فمنهم من اهتم بفعل المحيط الطبيعي والخصائص الجغرافية، ومنهم من مال إلى أثر العقل في مجابهة الطبيعة وفي الكشف عن المجهول، ومنهم من تعلق بالمادة المتحركة المتطورة وبالعلاقات الاقتصادية، ومنهم من جعل محور التاريخ ودافعه الأبطال البارزين والقادة المبدعين، ومنهم من تنبه إلى عوامل أخرى غير التي ذكرنا وركز اهتمامه بها وعلل التاريخ على ضوئها.

ومن هذه النظريات القديمة والحديثة ما يستند إلى عامل واحد مسير، ومنها ما يرى عدة عوامل متفاعلة وموجهة حسب قوانين معينة. كذلك تختلف هذه النظريات والتعليلات في تصوير الغاية التي يندفع التاريخ إليها. فمن مؤمن بالحياة الأخرى، ومن مبشر بالتقدم الدائم غير المتناهي، ومن منذر بالزوال المحتم، ومن قائل بتعاقب الحضارات وتتابع المدنيات في أشكال متماثلة، وهكذا. وتتفاوت هذه التعليلات أيضاً في درجة «التحتيم» الذي تفرضه، وفي مدى ما تترك لفعل الإنسان ذاته واختياره وسيطرته على حياته وتوجيهه لمصيره.

وما هذا كله، على اختلافه وتفرعه وتناقضه أحياناً، إلا دليل على ميزة أصيلة في الإنسان، بدت فيه منذ أن أصبح إنساناً وستظل مصاحبة له وفاعلة فيه ما دام على وجه هذه البسيطة: وهي نزوعه إلى الاستطلاع والنفاذ من ظواهر الأحداث إلى بواطنها واستجلاء «المعاني» و«العبر»، وقلقه الذي يدفع به إلى البحث عن الحقيقة وإلى التساؤل عن المصير. وهذا أول ما نريد اثباته في هذا الفصل: وهو ان تعليل التاريخ أمر طبيعي للإنسان، مرتبط بإنسانيته، منبثق عنها، وليس بمكنته أن يتعرى منه أو يلقيه جانباً.

* * *

نريد أن نثبت هذا الواقع لأن فريقاً من المؤرخين الذين ضاقوا ذرعاً بالتعليلات القائمة على الخيال أو غير المستندة إلى الاختبار أو إلى التحقيق العلمي المنضبط،

والذين انصبوا انصباباً تاماً على «الصناعة التأريخية» ـ ان هؤلاء اعتادوا أن ينظروا إلى التعليل التأريخي شزراً وأن يشتبهوا به ويعرضوا عنه. ان التأريخ في نظرهم لا يتعدى اثبات الحقائق الماضية وربطها وتسجيلها. أما تعليل هذه الحقائق، أو استخراج العامل أو العوامل الفاعلة فيها، أو استنباط القوانين التي تسيرها، فهذا أمر غير ممكن، وإن يكن ممكناً فهو، على كل حال، ليس من وظيفة المؤرخ. قد يكون من وظيفة رجل الدين أو الفيلسوف أو العالم الاجتماعي: ولكنه شيء، والتأريخ شيء آخر.

ونحن لا نقر هذا الموقف ولا نؤمن بصحته لسببين رئيسيين: **أولهما** ما ذكرنا سالفاً من أن الإنسان ما دام حياً، فلا بد له من أن يقلق ويفكر ويتأمل، ولا بد له، من ضمن تفكيره وتأمله، من أن يتساءل عن ماضيه وعن سير الحياة في مراحلها السابقة والمقبلة. فمن غير الممكن أو الطبيعي أن نحاول ما يريده منا البعض فنتجرد كل التجرد من هذا التفكير، أو من أية نظرة لنا في الحياة والوجود، عندما نتصدى لدراسة الماضي. والتجرد، بهذا المعنى، أمر مستحيل، ولا يصح أن يطلب من أي إنسان مفكر. إذ من العبث أن نوقف آلة العقل، أو أن نطمس آثارها ونمنعها من الظهور ونعتبرها كأنها لم تكن. إن كلاً منا له «فلسفته» في الحياة و«تعليله» للماضي، سواء أكان يعي هذه الحقيقة أم لا يعيها، وسواء أكان تعليله وفلسفته منتظمين واضحين، أم كانا، كما هما في أغلب الأحوال، خفيين منبثين في طيات تفكيره وفي اتجاهاته العامة. وإذا عاد أحدنا في هذه الأحوال إلى نفسه وحاول امتحان تفكيره واستخراج متضمناته والنفاذ إلى أصوله، تبين له ما كان خافياً عليه وبدا له بوضوح الموقف الذي يتخذه من الماضي والزاوية التي ينظر منها إليه. وإذا كان الأمر كذلك ـ إذا كان لا بد من أن يكون لكل منا مبادئه واعتقاداته الأساسية ـ فخير له أن يمتحن هذه الاعتقادات بمحك النقد والاختبار، وأن يحرص على صحتها وانتظامها ووضوحها، بدلاً من أن تظل غامضة أو مخطئة، وأن تتحكم في نظرته إلى الماضي دون أن يكون واعياً لهذا التحكم أو شاعراً بضرورة نقده وتصحيحه.

أما السبب **الثاني** الذي يفرض تعليل التاريخ فهو الحاجة التي نشعر بها إلى اختيار بعض الحوادث الماضية دون بعض أو ايلائها قسطاً من العناية والاهتمام أعظم مما نولي سواها. فحوادث التاريخ غزيرة متدفقة متشعبة، وليس بمكنة أحد أن يحيط بها كلها. ومهما يحاول المرء أن يحدد مجال دراسته أو يضيق الناحية التي ينظر إليها، فإن الحقائق التي تنكشف له، أو يمكن أن تنكشف له، هي أكثر مما يستطيع استيعابه وأغزر وأوسع نطاقاً. حتى انه لو اقتصر على أحداث سنة من السنوات في تاريخ شعب من الشعوب، أو على مدة محدودة من سيرة إنسان، يظل هذا القدر الضيق المحدود يشمل أحداثاً وافرة ليست كلها جديرة بالحفظ والتسجيل. وتتضح

هذه الحقيقة ذاتها لأي منا عندما يستعرض حياته بكاملها أو فترة محدودة منها، فإنه يقف عند بعض حوادثها المتتابعة دون البعض الآخر ويهتم ببعض حلقات السلسلة دون سواها.

وهنا يعرض السؤال: كيف يحدث هذا الاختيار ولماذا؟ ثم لماذا نهتم بدراسة سيرة ذلك الشخص بالذات، أو ذلك الشعب من الشعوب، أو تلك الفترة من فترات التاريخ أو تلك الناحية من الحياة الماضية؟ قد يكون اختيارنا قد جاء عرضاً: لوقوفنا على مصدر جديد لم يعرف من قبل، أو لقربنا مكاناً أو زماناً من موضوع اختيارنا، أو لأن أحداً من الناس وجهنا إليه. أو قد نكون انجذبنا إلى الموضوع بدافع اللذة والاستمتاع، فأقبلنا عليه، ثم أخذنا نختار من أجزائه ومن الأحداث التي ينطوي عليها ما فيه متعة وطرافة. ولكننا إذا تعمقنا في تساؤلنا، وجدنا أننا، لا شك، نعتبر بعض الأحداث أشد أهمية من غيرها، وأحرى بالحفظ والتسجيل. وقد يكون اعتبارنا هذا واعياً واضحاً، وقد يكون غامضاً خفياً، ولكنه هناك على كل حال يدفعنا إلى نوع من الاختيار.

وبمجرد ما نعتبر أن بعض الحوادث أشد أهمية من غيرها، فقد ولجنا باب التعليل وبدأنا نجول في ميدانه. إذ ما معنى «الأهمية» هنا؟ أليس معناها مقدار ما للحوادث من فعل وأثر في سواها؟ أليست الحوادث الهامة في نظرنا هي تلك التي فرضت نفسها والتي امتد أثرها واتسع؟ وعلى هذا، ألا ينطوي هذا الاختيار وهذا التمييز في الاهتمام على نوع من التعليل. أي على تصور، واعٍ، أو غير واعٍ، لمجرى التاريخ وللشكل الذي اتخذه وللعوامل التي دفعته ولقيمة هذه العوامل؟

ولقد يقول قائل إن أشد الحوادث أهمية ليست بالضرورة أبعدها أثراً، بل هي أصدق الحوادث تمثيلاً لعصرها أو للحضارة التي قامت فيها أو للمرحلة التي تخصها من تاريخ الإنسانية. على أن هذا القول يقودنا أيضاً في نهايته إلى النتيجة ذاتها. لماذا جاءت أصدق تمثيلاً؟ ما هي صورة ذلك العصر، أو تلك الحضارة أو المرحلة، ولماذا اتخذت هذه الصورة أو تلك دون سواها؟ ما هي العوامل التي فعلت فعلها في الحياة عامة حينذاك، والتي برزت بشكل خاص في تلك الحوادث «الهامة» فجعلتها عنوان تلك الحياة وتعبيراً صادقاً عنها. هنا أيضاً لا بد من التعليل، ولا مفر من استقراء شكل الماضي أو أشكاله، والعوامل التي كونته كما كان، أو كما نتصور أنه كان.

* * *

ليس الخطأ إذن في محاولة عمل لا بد منه ولا مفر. وإنما يحصل الخطأ في الغاية المستهدفة والأسلوب المتبع. إننا نخطىء عندما «نفرض» تعليلاً معيناً على التاريخ فرضاً، ونقسر الحوادث لتدخل في نطاقه وتنصبّ في قالبه. وهذا ما حدث فعلاً في أكثر التعليلات التي حاولت «فلسفة» التاريخ. إننا نجد أصحابها قد تعلقوا بها وتمسكوا بمنطوقها، وضربوا صفحاً عما يخالفها، فجاء فهمهم للماضي مبتوراً أو مختلاً أو مناقضاً لطبيعة الحياة.

ويحدث هذا الفرض لسبب من سببين. قد يكون لغرض في النفس: لبث دعاوة أو بلوغ غاية عملية، فيأتي التعليل التأريخي من ضمن «المبررات النظرية» لدعوة من الدعوات أو حركة من الحركات. هنا ينبث الانحياز وعدم التجرد، فيصبح التعليل التأريخي والتأريخ ذاته واسطة لغاية أخرى غير غايتهما الأصلية التي يجب ألا ينحرفا عنها، .وهي الادراك المتجرد الصحيح. فكل صاحب سلطة، وكل منظمة أو هيئة أو طبقة ـ كل فرد أو جماعة ـ يستخدم التعليل التأريخي في سبيل هدف خاص ويفرضه على الماضي فرضاً، يخرج به عن غايته ويخل بوظيفته، وينافي التجرد الذي هو شرطه الأساسي.

ويأتي هذا الفرض من ناحية ثانية نتيجة لاقتناع خالص، ولكنه اقتناع مستمد من خارج التاريخ، غير خاضع خضوعاً كافياً للنقد والامتحان بمحك الحوادث التاريخية ذاتها. فمن هؤلاء المعللين من يستمد نظرته التأريخية من اعتقاداته الدينية، إذ اللاهوت أو الكلام هو عنده أضمن الطرق وأسماها إلى المعرفة وإلى الحقيقة، فما ينكشف فيه يجب أن يصدق على التاريخ، ولا يمكن أن يكون التاريخ إلا تعبيراً عن الحقائق الأساسية التي أظهرها الوحي أو التقليد أو التأمل. ومنهم من يصدر في تعليله التأريخي عن عقيدة فلسفية توصل إليها بالنظر العقلي: فهو مادي، أو مثالي، أو واقعي، أو ما إلى ذلك من المذاهب الفلسفية، وتصويره للماضي ناتج حتماً عن مضمون مذهبه واتجاهه. ومنهم من تتكون معتقداته الأساسية من العلم الاختباري. وهؤلاء أيضاً فرق متعددة حسب ما يؤدي إليه علمهم من مفاهيم لطبيعة الكون، ولجوهر الإنسان وتأثره بمحيطه وتأثيره فيه. فبعضهم مثلاً يجعلون الإنسان، وبالتالي التاريخ، وليد المؤثرات الجغرافية وحدها، وبعضهم يعتبرونهما نتيجة لقوى الإنتاج المادي وللعلاقات الاقتصادية، وآخرون يرون ان الإنسان هو في جوهره عقل وأن التاريخ ليس سوى تفتح هذا العقل وتجسده في شتى المظاهر الحضارية والاجتماعية، وهكذا.

إن هؤلاء جميعاً يختلفون في تعليلهم للتاريخ. ولا بأس في ذلك، ولا ضرر ـ ما داموا مستعدين لأن يحكوا تعليلاتهم المختلفة بمحك الاختبار، ويمتحنوها بواقع

الحوادث كما تكشفه تدريجاً دراسة الماضي. ولكن الخطأ كل الخطأ هو في تجاهل هذا الواقع، والانقياد الأعمى لتعليل معين، أو في المحاولة، الواعية أو غير الواعية، لتطبيق الواقع على التعليل، أو سكبه في قالبه. وهذا ما حدث ويحدث لأكثر التعليلات التأريخية، وما يدفع الكثير من المؤرخين اليوم لأن يشكوا بها، ويتنكبوا عنها، ويقصروا عملهم على تسجيل الماضي فحسب، دون أية محاولة تعليلية أو جدل تعليلي. وهكذا تكونت هوة واسعة عميقة بين فريقين من الباحثين في الماضي: فريق يقدم على النظرات الشاملة والتعليلات الجريئة، المستمدة أصولها في أكثر الأحوال من خارج التاريخ، والمعرضة، لحد قريب أو بعيد، عن مواد الماضي ووقائعه ذاتها، وفريق آخر يغوص في جمع المصادر وتحقيقها، واثبات الأحداث الجزئية، والإمعان في التخصص، دون أن يرتفع فوق الحقائق المفردة والنتائج المحدودة، ليدرك مقامها في الحياة الإنسانية عموماً، وليستكشف العوامل الفاعلة فيها، والمعاني التي تنطوي عليها.

ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن النزعة الثانية هي التي غلبت في الأعصر الأخيرة، خصوصاً بعد التقدم الذي أحرزته «الصناعة التأريخية» في القرن الماضي. على أن الأحداث الجسام التي تتابعت على البشرية في الخمسين السنة الأخيرة، والعواصف التي اجتاحت العالم وهزته هزاً عنيفاً، والقلق والاضطراب والفوضى التي تسوده في الوقت الحاضر ـ كل هذا أخذ يهيب بالمفكرين إلى الشك في كفاية هذا الأسلوب العلمي في التأريخ، كما كان يتصور ويطبق، وإلى الاحساس بضرورة فهم المجرى العام الذي جرى فيه الماضي، والقوى الفاعلة فيه، و«المعاني» التي ينطوي عليها. ومن هنا كان الاهتمام الجديد بتعليل التاريخ: هذا الاهتمام الذي لا يقتصر على المؤرخين وحدهم، بل يتعداهم إلى دوائر الفلسفة والأدب والعلم واللاهوت. من هنا كانت اهتمامات توينبي، وبردييف، وهيديجر، وسارتر، وسوروكين، وماريتان، وكسيرر، وبترفيلد، وكثيرين سواهم. ومن هنا كانت الحظوة التي تلقاها مباحثهم ومباحث أتباعهم وشراحهم عند الخاصة من المفكرين، بل عند عامة المثقفين في هذا الجيل القلق الحائر الذي يفتش عما يدله على معنى الحياة ويبعث ايمانه بل ويضمن له بعض الثقة والاطمئنان.

هذا في العالم الغربي. أما في العالم الشيوعي، فمن المعروف أن الحياة كلها قائمة هناك على فلسفة معينة، وان من أهم أركان هذه الفلسفة تعليلاً معيناً للتاريخ يطغى على مسالك الفكر والعمل جميعاً. أما العالم الآسيوي الافريقي غير المنحاز، الناهض بسرعة متزايدة، فهو بين التعلق بالماضي والجد في بعثه وصوغ الحياة الجديدة على مثاله وبين الثورة عليه وعلى الحاضر الذي نتج عنه والسعي إلى تبديل

«جذري» يتخطاهما ويعلو عليهما. وفي كل حال، ان الأحداث الضخمة التي يتعرض لها هذا العالـم، والهزات التي تعتريه، قد أيقظت حسه التاريخي وأمعنت في تحريكه ونشره. وهكذا نرى التعليل التأريخي اليوم عنصراً بارزاً من عناصر الفكر والحياة في العالـم أجمع.

* * *

يتبين مما ذكرنا ان الخطأ الذي تعرض له أكثر الذين عللوا التاريخ قد اندس من جهة من جهتين أو منهما معاً. فهو يأتي اما عن استمداد التعليل من خارج التاريخ ذاته (من الدين، أو الفلسفة، أو العلوم التجريبية)، أو عن محاولة «فرض» هذا التعليل على أحداث الماضي فرضاً قسرياً والاغضاء عما يخالفه أو يناقضه منها، والخطأ الثاني أجسم وأشد خطورة. ذلك انه لا بد، في التعليل، من الخروج من التاريخ والارتفاع فوقه. لا بد من التأمل الفلسفي ومن الاستفادة مما أنتجه النظر العقلي وما حاول استكناهه من أسرار الحياة. لا بد من تتبع العلم التجريبي في خطاه الجريئة في دراسة مظاهر الكون وفي استكشاف علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقته بالمجتمع وعلاقات المجتمعات بعضها ببعض. لا بد من الاهتداء بكل نور شع من تطلع الإنسان إلى الحقيقة ومن اصطراع الخير والشر في نفسه: سواء أكان ذلك ايماناً دينياً، أم اختباراً روحياً، أم استشرافاً أدبياً وفنياً. لا غنى للمؤرخ عن هذه وسواها من الاستطلاعات والاختبارات إذا أراد أن يضمن السلامة من الزلل، وأن يكون تعليله صحيحاً ناضجاً مثمراً. بل نكرر ما قلنا سابقاً من أن كل من يقبل على الماضي بشيء من التفكير، فهو مقبل حتماً بنظرة إلى الحياة وبنوع من التعليل. قد تكون هذه النظرة وهذا التعليل مصيبين أو مخطئين، واضحين أو غامضين، وقد يكون صاحبهما واعياً إياهما أو غير واعٍ. ولكنهما هناك على كل حال يفعلان فعلهما فيه ويصبغان فكره التأريخي. فمن الخير اذن اخراجهما من الظلمة إلى النور، ومن الخفاء إلى الوضوح، وامتحانهما بكل ما أثبته وحققه التقليد العقلي والتجريب العلمي والاختبار النفسي، واخضاعهما دوماً للنقد والتصفية والتجديد.

وبصفة خاصة لا غنى للتعليل التأريخي ـ وكل تأريخ صحيح ينطوي على تفكير، وبالتالي على تعليل ـ لا غنى له عن نظرية معينة في الإنسان: الإنسان الذي هو لب التاريخ وموضوع التأريخ. ما هو هذا الكائن العجيب الذي ملأ الدنيا وشغل الكون؟ أهو مادة تتحرك وتتطور؟ أهو عقل يتفتح وينتظم، ويخطط وينظم؟ أهو مخلوق الله وعبده أو ابنه؟ أهو ملاك أم شيطان أم مزيج منهما؟ أهو وليد عوامل طبيعية وصورة يحتمها المحيط الجغرافي؟ أهو نتاج العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية

السائدة؟ أم هو مركب من بعض هذه العناصر أو منها كلها، أم هو غير هذا وذاك وذلك؟

ثم، هل طبيعته راكدة أم متحركة، ثابتة أم متطورة؟ أهو مطلق أو فيه شيء مطلق، أم هو نسبي كله وتابع لظروف المكان والزمان ودرجة التطور؟ هل هو فاعل أم منفعل، وإلى أي حد في كل من الحالين؟ هل هو صانع التاريخ، أم مظهر له فحسب؟ هل هو بسيط أم معقد؟ هل ينطوي على عناصر التقدم والرقي المستمرين، أم هو في نزاع دائم بين الخير والشر، وبالتالي في اضطراب بين التقدم والتأخر والخلاص والهلاك؟ هل هو مخير أم مسير، وما هي مباعث الاختيار وعوامل التسيير فيه، أداخلية كانت أم خارجية؟

هذه وأمثالها من الأسئلة تثار عندما نحاول سبر غور الإنسان وتكوين نظرية فيه. ولا محيد لنا عن ذلك، كما قلنا، إذا أردنا فهم التاريخ، ما دام يدور أصلاً حول الإنسان. ومن البديهي أننا نستمد بعض وجوه نظريتنا من التأريخ ذاته: من ملاحظاتنا لتصرف الإنسان ـ فرداً ومجموعاً ـ وتغيره وإنتاجه خلال العصور المختلفة. ولكن هل هذا كافٍ؟ لو كان كافياً لأصبح التأريخ العلم الوحيد، أو بالأحرى العلم الإنساني الوحيد. وهذا ما يقول به الفيلسوف الايطالي بنديتو كروتشي عندما يؤكد بشدة واستمرار ان كل فلسفة هي تأريخ وكل تأريخ فلسفة، وان لا معنى لأحدهما إلا بالآخر. ولكن الواقع ان لكل علم مقصده، وان جميع العلوم ـ ومعها الفلسفة والآداب والفنون ـ تتضافر في توضيح طبيعة الإنسان وإبراز مكامنها وتفتيح مغالقها. حتى العلوم الطبيعية الباحثة في أسرار الكون المحللة مظاهرها، لها نصيبها في هذا الاستكشاف والاستفهام، ويجب ألا تهمل في أية محاولة لإدراك الإنسان وفهم التاريخ.

وعلى هذا، فلا بد من نظرية في الإنسان. ومن الخير أن تُستمد هذه النظرية من أصولها جميعاً، وأن تحك بكل محك ممكن، وأن تُمتحن بكل حقيقة يكشف عنها العقل أو يؤيدها الاختبار. ومن الخير لنا عندما نتصدى لدراسة الماضي أن نعي كل الوعي النظرية التي كوّناها، والتعليل الذي نفسر به طبيعة الإنسان. ولكن حذار أن نفرض هذه النظرية على التاريخ فرضاً. ليكن موقفنا منها موقف «افتراض»، لا «فرض». ان الفرق بين الموقفين واضح، والنتائج الحاصلة منهما تختلف اختلافاً جسيماً. ونحن ندعو إلى موقف الافتراض، أي أن نؤمن بالنظرية التي توصلنا إليها ببحثنا وتفكيرنا وتأملنا، وأن نمتحنها، في الوقت ذاته، بالوقائع التاريخية لنرى إذا كانت هذه الوقائع تؤيدها أو تدعو إلى تعديلها أو نقضها، ولا نتردد عن التعديل أو النقض إذا اقتضت الحاجة. ونظل نسير في هذا الطريق: نظرتنا واعتقاداتنا الأساسية توضح لنا «معنى» الأحداث الماضية، وهذه الأحداث ذاتها، التي نحاول اثباتها بأدق أسلوب

علمي، تختبر بدورها تلك الاعتقادات وتضبطها. وهكذا يظل العمل التأريخي في تفتح نير، وفي تصحيح وتوضيح متبادل بين الكليّ والجزئي، وبين النظرية العامة والحقائق التفصيلية. وهكذا أيضاً يربط التعليل التأريخي التأريخ بسواه من العلوم، بل بجميع الاختبارات الإنسانية، برباط الامتحان المتبادل والتفاعل المثمر والفهم المشترك المتدرج.

في بدء التأريخ اذن افتراض: افتراض في تعليل الكون وما وراء الكون والحياة ودوافعها ومجاريها، وبصفة خاصة افتراض في طبيعة الإنسان. والمهم في هذا الافتراض أن لا يأتي عفواً أو بخفة ويسر. فهو، إذا فهم على حقيقته، أخطر ما يقبل عليه المرء. إنه خلاصة ايمانه، ومعقد رجائه، ومصدر القرارات الفكرية والعملية التي يتخذها. إنه أصدق تعبير عن شخصيته، إذ فيه يتمثل مقدار احساسه بالمسؤولية، ومدى الجهد الذي بذله لتبين الحق وقدرته على هذا التبين. منه يظهر نوع الأسئلة التي تثيرها الحياة في ذهنه، وموقفه إزاءها وقراراته بصددها. فالخير كل الخير في أن يتخذ له المرء كل عدة ممكنة، من حيث التجهز الفكري والاطلاع العلمي والاختبار النفسي، وأن يكون استعداده هذا مفعماً بالشعور بالمسؤولية الدقيقة والتبعة الخطيرة، والنقد الذاتي الملح الصارم.

هذا في البداية، ولكن ما قولنا في النهاية؟ أين نهاية الطريق وختام المطاف؟ نقول: إنّا لا نعرف لهذا الطريق نهاية ولا لهذا المطاف ختاماً. بل إن التاريخ ليدلنا على أن أي فرد أو أي فريق من الناس اعتقد أنه بلغ الحقيقة النهائية وقبض على ناصيتها، فقد بدأ يسير، بتأثير هذا الاعتقاد، في طريق التحجر والتقلص، ويضعف أو يعجز عن الإنتاج والتقدم. ان الحياة كلها مغامرة ــ أية مغامرة! ــ ومن وقف في الطريق واعتقد أنه «وصل»، فقد أخذ في الانكفاء والانزلاق والارتداد. ولكأن الإنتاج، في الفكر والعمل، شبيه بتسلق قمم متتابعة متسامية، كل قمة منها تشرف على أفق جديد. فمن اكتفى ببلوغ احدى هذه القمم وظن أنه رأى كل ما يمكن أن يرى، فقد تجمد وتعطل وأوشك أن يصبح في مؤخرة الركب. ليس معنى هذا أن القمم لا تفصلها بين آن وآخر أودية وسهول، وان الرقي لا يتخلله هبوط وانحطاط. وإنما معناه ان العقل الإنساني خليق بأن ينهض بعد عثرة، ويتحرك بعد جمود، ويرقى بعد انحطاط، وان اتجاهه هو إلى مزيد تفتح ورفعة رقي، وان الحقيقة تتكشّف تدريجاً وبشكل متزايد كلما ازداد هذا الرقي والتفتح. ولذا فإن التعليل التأريخي، وهو وجه من وجوه الجهد الذي نبذله لاستبانة حقيقة الوجود، ان هذا التعليل يجري، إذا تمت له شروطه، في طريق التكامل، وتصحيح الأخطاء، وتعديل الانحرافات، متوغلاً في ادراك طبيعة الكون والإنسان وفي ادراك حوادث الماضي، ضابطاً وداعماً ومخصباً كلا من

الادراكين بالآخر. ولسنا نرى الآن لهذا التكامل من نهاية يقف عندها.

وعلى هذا يمكننا القول إن تعليل التاريخ هو، في الوقت ذاته، مقدمة للتأريخ وخاتمة له: مقدمة، لأنه يكشف عن الافتراضات التي ينطوي عليها نظرنا إلى الإنسان وإلى الماضي، وخاتمة لأنه يظهر خلاصة مفهومنا للماضي المستمدة من الحوادث، كما تكشفت لنا بالتحقيق العلمي ومن الافتراضات الممتحنة بها. وبين المقدمة والخاتمة اغتناء مستمر وبيان متزايد. ولكن كل خاتمة، مهما تكن جليلة، ليست، في معيار التعليل الصحيح، سوى مقدمة لجهد آخر. وهكذا دواليك: شأن التعليل في هذا شأن أي تفكير حي وأي عمل مثمر.

* * *

قلنا هذا هو شأن التعليل إذا تمت شروطه. وهذه الشروط عديدة: منها صحة النظر، والاستعداد الفكري، والجهد الناشط المبذول، والاحساس الدقيق بالمسؤولية، وغير ذلك من الشروط الأصلية المطلوبة في أي تفكير صحيح. ولكن ثمة شرط خارجي لا بد من توجيه النظر إليه لخطورته في هذا الشأن بل في كل شأن من شؤون الحياة. وهو انطلاق **الحرية الفكرية**. فما دامت التعليلات في بدئها افتراضات، وما دامت الافتراضات لا تؤيد أو تعدل أو تنقض إلا بإخضاعها لحكم الواقع، وبامتحانها بعضها ببعض، فمن الضروري أن ينفسح المجال لهذا الامتحان المتبادل ولهذا التفاعل المثمر على أوسع نطاق ممكن. بهذا الجو من الحرية السمحة، المقرونة طبعاً بأدق احساس بالتبعة، تتنافس التعليلات في إظهار نصيبها من الحقيقة، فيكون للفكر وللتأريخ من هذا التنافس أجل ربح وأجزل فائدة. وهكذا يصدق على التعليل التأريخي ما يصدق على أي تفكير أصيل من أنه لا ينمو ولا ينتعش إلا في جو عابق بالحرية.

ونحن إذا استعرضنا التعليلات التأريخية وجدنا أن تلك التي تصلبت في اعتقادها أنها قبضت علي الحقيقة كاملة هي التي قُرنت بحركات اجتماعية ونظم سياسية قيدت حرية الفكر وضيقت نطاقها. ومن جهة ثانية نرى ان الحركات التقدمية الصحيحة هي التي آمنت بالحرية الفكرية وبأن التاريخ يكشف ذاته لنور العقل بقدر ما لهذا النور من قوة، فآثرت أن تطلق مجال هذه الحرية واسعاً، كي يحتك العقل بالعقل، ويقوى النور بهذا الاحتكاك. ولذا، فحيثما وجدت تعليلاً تأريخياً ينتج عنه تقييد للحرية الفكرية، أمكنك أن تحكم عليه بأنه ناقص أو فاسد، أو بأنه، على الأقل، قد فقد قابلية النمو والاعتدال، وسار في طريق التطرف والتمادي.

ولعلنا، إذا أطلقنا مجال الحرية وسمحنا لهذه النظريات والتعليلات بأن

تمتحن بعضها بعضاً وأن تتنافس وتتفاعل، نستطيع أن نرى في أكثرها قسطاً من الحقيقة، وان اختلفت هذه الأقساط وزناً وقيمة. ولعل التأريخ يدلنا على أنه ليس ثمة عامل واحد أو عوامل محتمة تفعل فعلها النافذ المحتم ذاته في كل ظرف وزمان ومكان، وإنما هناك عوامل مختلفة في طبيعة الإنسان وفي طبيعة العالم الذي يحيط به، وأن بعض هذه العوامل هي في وقت ما أشد فعلاً من سواها، وأن نفاذها وأثرها يختلفان باختلاف الأحوال. ولعلنا لا نستطيع أكثر من أن نعين العوامل الفاعلة ومدى فعلها في فترة محدودة من الزمن، وفي حال معينة. أما أن نقرر هذه العوامل ونعين مدى أثرها في خلال التاريخ بكامله، فأمر أوسع وأعمق من أن تحيط به أو تنفذ إليه معرفتنا في الوقت الحاضر وقد لا تقدر عليه معرفتنا المقبلة. فليس ما يدل على أن العقل الإنساني قادر على حل أسرار الكون والحياة الإنسانية كلها، وعلى تفتيح جميع مغالقها. فحري به، وقد قام بفتوحاته الباهرة وإنتاجه الضخم الذي يعظم يوماً بعد يوم، حري به أن يقدر أيضاً حدوده، وأن يقف متواضعاً متسائلاً مدهوشاً أمام بعض مكنونات الحياة وأسرار الوجود. وقد يكون في هذا الموقف المتواضع من الادراك ما يفوق الأحكام الجازمة التي تدعي انها وقفت على الحقيقة كاملة، أو أنها تستطيع تعليل التاريخ من ألفه إلى يائه.

من أجل هذا نؤثر أن نعتبر التعليلات المختلفة نقاط انطلاق نحكها بمحك الحوادث التاريخية، فنرى ما ترشدنا إليه من معانٍ في الناحية التي نعنى بها من التاريخ، ونحاول تقدير مدى انطباقها على هذه الحوادث أو ابتعادها عنها، ومدى ما تتضمنه من صواب أو خطأ، ومن غلو أو اعتدال، وذلك في سبيل فهم تلك الناحية التاريخية ذاتها، وفي سبيل ادراك أوسع وأعمق لطبيعة الإنسان ولمجرى الحياة. وقد يعتقد البعض ان في هذا الموقف تهرباً من الحقيقة وعجزاً عن ادراكها، ولكننا نرى انه أقرب إليها وأشد اتصالاً بطبيعة العلم وروحه من اتخاذ تعليل جازم شامل، خصوصاً إذا كان هذا التعليل يدور حول عامل واحد من عوامل الحياة ويفرض فرضاً مسبقاً على حوادث التاريخ. ان الحياة، في نظرنا، لأعقد وأدق من أن تدرك أسرارها وتفتح مغالقها بمثل هذه السهولة.

* * *

هذا بشأن التعليل. فلننتقل منه إلى الناحية الأخيرة التي سنعالجها من التفكير التأريخي ومن عمل المؤرخ بوجه عام. وهي ناحية الحكم على الماضي ورجاله وأحداثه. أيجوز لنا عند النظر في الماضي أن نصدر أحكاماً فيه: أن نقول مثلاً إن هذا أو ذاك من رجال التاريخ، أو ذلك الفريق أو الجماعة أو الشعب قد أخطأ أو أصاب،

وأساء أو أحسن، وأضر أو أفاد، وكان عامل تأخر وانحطاط أو مصدر تقدم ورقي؟ أيكون من وظيفتنا أن نحكم على أرسطو لأنه برر الرق واعتبره حالة طبيعية نلإنسان، أو أن نحمل على أبناء القرون الوسطى لما أظهروه من تعصب ديني وللاضطهادات والمذابح والحروب التي دفعهم هذا التعصب إليها، أو أن ننقد الأجيال السالفة من العرب في القرون الأخيرة لأنهم استكانوا للظلم وخضعوا للتحكم وقعدوا عن النهوض؟ ومن ناحية ثانية: أيجوز لنا أن نهتف للخير عندما نراه، وأن نثني على الأفراد أو الفئات أو الأمم عندما تحسن أو تفيد أو تدفع بنفسها أو بالإنسانية إلى الأمام؟ أيتسع التفكير التأريخي للمدح والذم، والثناء والقدح، والاقرار والانكار، والنقد والحكم؟

من المؤرخين من ينكر هذا ويدعو إلى تنكبه. فالمؤرخ في نظره ليس قاضياً حاكماً، بل مستنطقاً ومحققاً فحسب. ان غايته هي اثبات الحوادث كما جرت، ووصف الأفكار والأعمال كما وقعت، ووضع الأمور في تسلسلها التاريخي. يكفيه أن يقول إن أرسطو برر الرق، وان الحروب الدينية أطاحت بالمئات والألوف من الناس، وأن العرب عجزوا في القرون الأخيرة عن النهوض، وان حاكماً من الحكام أنشأ المنشآت وقام بالاصلاحات، وان عهداً من العهود قد سجل تقدماً في هذه الناحية أو تلك. ولكن يجب ألا يسمح لنفسه بأن يتجاوز مجرد الوصف إلى الحكم في الصواب والخطأ، والحسن والسوء، والخير والشر. هذا، في نظر هؤلاء، عمل آخر يخرج عن نطاق التأريخ. فإذا كان العمل سياسياً كان من مهمة العالم السياسي أن يحكم له أو عليه بمقاييس علمه. وإذا متّ إلى الاقتصاد أو الاجتماع بصلة كان نقده من وظيفة أرباب هذا العلم أو ذاك. أما الأحكام الأدبية، فلنتركها للفيلسوف أو رجل الدين أو العالم الأخلاقي الذي يعنى بالحسن والسوء والخير والشر ويضع لها الأقيسة والمعايير ويجعلها مثار اهتمامه ومدار عنايته. ان العمل التأريخي يقتصر على الوصف، فهو يهيىء المادة لأرباب الاختصاصات الأخرى، ويترك لهؤلاء أن يعالجوا هذه المادة ويحكموا لها أو عليها، كل ضمن اختصاصه. وجل ما يجب أن يصبو إليه المؤرخ هو أن يحرص على صحة هذه المادة وسلامتها، وعلى مطابقة الوصف للحقيقة كما وقعت. وكل خروج عن هذا العمل المحدود والغاية البينة يؤدي إلى تداخل الوظائف بعضها في بعض، وتعدي الاختصاصات بعضها على بعض، وإلى اضطراب وغموض وفوضى في الأعمال العلمية جميعاً.

ومن المؤرخين من يتخذ الموقف ذاته متجنباً الحكم في التاريخ، لسبب آخر غير هذا الذي ذكرنا. ان الحكم في التاريخ هو، في نظر هذا الفريق، غير ممكن، لأن الحوادث إنما هي وليدة عصرها وبيئتها ولا يمكن أن تكون غير ما كانت. لم يكن

ممكناً لأرسطو أن يرى في الرق غير ما رآه، لأن تطور المجتمع، أو تطور العقل، كان حينذاك في مرحلة لم تكن تسمح له بغير ذلك. ولا يصح ان نصف أبناء القرون الوسطى بالتعصب الديني، لأنه في نظرهم لم يكن تعصباً كما نراه اليوم: لم يكن رذيلة بل فضيلة. وليس لنا أن نحكم على العرب في القرون الأخيرة لأنهم خنعوا واستكانوا، فظروفهم وأحوالهم لم تكن تؤهلهم لغير تلك الحال. وهكذا فإن كل حدث هو نتاج القوى المتفاعلة فيه، في حالة ومرحلة معينة، و«الحكم» الوحيد الذي يمكننا أن نستخرجه هو اظهار مطابقة الحوادث للقوى الباعثة لها، وللمقاييس والنظم السائدة في عصرها وبيئتها. وبكلمة أخرى: ان كل حدث، أو كل جهد إنساني، هو أمر «نسبي»، ويجب ألا ينظر إليه إلا «بالنسبة إلى» الحال أو الأحوال التي تحيط به. ولكل عصر من العصور، أو مرحلة من المراحل، أو بيئة من البيئات، مقاييسها ومعاييرها. فتعدد الزوجات قد يكون صالحاً في حالة وغير صالح في حالة أخرى، والديمقراطية قد تكون خيراً في بيئة وشراً في بيئة ثانية، والعدل هنا قد يعتبر ظلماً هناك، وهكذا. فلنحذر عندما ننظر إلى الماضي من أن نحكم فيه إلا من ضمنه، ولنتجنب أي حكم مبني على مفاهيمنا الحاضرة.

إنّا، مع تقديرنا لما في هذين الموقفين من حذر واحتراز، لا نستطيع أن نقرهما، بل نرى ان الحكم في التاريخ هو من صلب التفكير التأريخي وان لا مفر منه ولا مهرب. فهل يستطيع أحد منا أن يكتب التأريخ دون أن ترد في كتابته أمثال النعوت التالية: العادل والظالم، الصالح والفاسد، المحسن والمسيء، المحرر والمستبد، الرفيع والذليل، العظيم والحقير؟؟ الواقع ان أمر الحكم شبيه بأمر التعليل. فكما ان كلاً منا لا بد من أن يكون له عندما يتصدى للنظر في الماضي نوع من التعليل ـ وغالباً ما يكون هذا التعليل منبثاً في ثنايا شعوره محاطاً بالغموض والاضطراب ـ كذلك ان لنا مقاييس للخير والشر وللحسن والسوء نطبقها من حيث ندري أو لا ندري على أحداث الماضي ورجاله وجماعاته وشعوبه، فنحكم لها أو عليها. ومن الخير في هذا الشأن، كما هو في شأن التعليل، ان نخرج هذه المقاييس من خفاء الشعور واللاوعي إلى نور العقل والوعي، وان نتناولها بالنقد والايضاح، ليأتي حكمنا، الذي لا مفر لنا منه، صحيحاً واعياً معتدلاً.

وليس صحيحاً، كما يقول الفريق الثاني من الذين ينفون الحكم، ان كل حدث هو وليد عصره وبيئته فحسب وان علاقته المكانية الزمانية الظرفية هذه تستنفد معناه كله، وأنه لا يمكنه أن يرتفع فوق هذه الأحوال المحتمة التي تتحكم فيه. فأرسطو كان ممثلاً لعصره وبيئته في نظرته إلى الرق والعبودية، ولكنه تخطاهما بمراحل واسعة في نواحي الاستنباط العلمي والاستقراء الفلسفي. فما دامت في التاريخ

إمكانات لفهم جديد يتخطى حدود المعلوم، وما دامت ثمة حرية واختيار، على اختلاف سعتهما أو ضيقهما، بين مجالات العمل المتنوعة ـ فقد جاز النقد والحكم، بل وجبا.

ترى، أكان محتماً على روما أن تنحط وتسقط أمام هجمات البرابرة؟ أو قل: أكان محتماً عليها أن تسقط عندما سقطت؟ أفرض على العرب أن يضعفوا ويستكينوا ويرضوا بالضعف والاستكانة بين القرن السادس عشر والقرن العشرين؟ أكان لازماً أن يظهر من ظهر من أبطال التاريخ وعظمائه في أوقاتهم وأن يقوموا بما قاموا به من أعمال؟ ولِم لم يظهر أمثالهم في مناسبات مماثلة؟ إننا نرى في التاريخ ظروفاً وأحوالاً محدِدة مقيدة، ولكن الحدود والقيود تختلف شدة وجسامة، فتختلف بذلك حرية الأفراد والجماعات في الخضوع لها أو تخطيها، وفي قدرتهم على هذا التخطي. كذلك يختلف الأفراد والجماعات في قدرتهم الفطرية والمكتسبة وفي حريتهم الذاتية، ولولا هذه القدرة والحرية وإمكانات التخطي لما كانت عظمة، ولا حصل تقدم، ولظلت الحياة في ركودها وظلامها. ولولا الرضى بالقيود والحدود، ولولا الاسترخاء والاستعلاء والاستسلام للشهوات والوقوف في وجه قوى التقدم، لما كانت المآسي التي تفيض بها صفحات التاريخ والصراع والنزاع والآلام التي عرفتها البشرية في أدوارها المختلفة.

وحيثما تكون الحرية يصح النقد ويترتب الحكم. ولكن ما هو مقياس الحكم؟ إنه مقياس مزدوج: المقياس الزمني النسبي، والمقياس المتراكم خلال العصور. ويتكون المقياس الأخير من خلاصة ما حققته البشرية في تطلعها إلى الحق وفي نزوعها إلى الخير. فلا شك عندنا ان ثمة تقليداً ايجابياً متراكماً خلال الأجيال، وأن من يشارك في هذا التقليد يستمد منه أسمى المقاييس التي عرفها الإنسان. لنأخذ على ذلك مثلاً: الحرية. لا شك أن الاختبار الإنساني الايجابي المتراكم قد أظهر ان الحرية على مراتب، لعل أسماها هي الحرية التي هي في الوقت نفسه واجب ومسؤولية، حرية التضحية من أجل الغير، حرية الاستشهاد في سبيل المبدأ. والتقدم، كالحرية، على مراتب: فهناك تقدم في الحياة المادية، وفي رفاهية العيش ورخائه. وهناك تقدم عقلي في الوقوف على أسرار الطبيعة والإنسان، وهناك تقدم في الاختبار النفسي الذي يرقى ببعض الناس إلى أن يصبحوا قديسين اطهاراً. هذه القمم التي تتراءى لنا: في الادراك، والحرية، والتقدم، والقداسة (وبكلمة واحدة: في الكرامة الإنسانية) تؤلف في مجموعها خلاصة الكسب الإنساني وجوهره. وجلال الأفراد أو الفئات أو الشعوب خلال التاريخ هو في مقدار اسهامها في هذا الكسب كمّاً وكيفية، وبنسبة ما حققته لنفسها وللإنسانية جمعاء من معاني الكرامة الإنسانية.

هذا هو المقياس الأول والأثبت. على أننا لا نجهل أن هذه المعاني لم تتحقق فجأة ولم تظهر ظهوراً كاملاً في وقت معين، وأن هناك تدرجاً وتطوراً وعوامل زمنية وبيئية لها أثرها. ولا بد من اتخاذ هذه العوامل بعين الاعتبار، ولا بد من استخدام المقياس الزمني النسبي. لا بد، مثلاً، من أن ندرك ان الظلم في عصر الفراعنة كان له مدلول غير المدلول الذي له اليوم، فلا يصح أن نحكم على الفراعنة حكماً مبنياً كله على ما نراه ونتبينه في وقتنا الحاضر. ولكن من جهة مقابلة، لا يكفي أن نحكم لهم أو عليهم بمقاييس زمنهم فحسب. وإنما يكون حكمنا في أي إنتاج ماض أكمل وأوضح وأجدى إذا بني على مفاهيم العصر والبيئة المعيّنة من جهة، وعلى مقدار تخطي أصحاب ذلك الإنتاج هذه المفاهيم المرحلية من جهة أخرى، وإذا لم ينحصر في الإمكانات المفسوحة لهم، بل تناول مقدار توسيعهم لتلك الإمكانات، أو خلقهم إمكانات جديدة. وبتعبير آخر: يجب ألا يحكم على ذلك الإنتاج بالنسبة إلى مرحلته فحسب، بل أن ينظر إليه أيضاً بالنسبة إلى قمم الادراك والحضارة كما تتجلى في التاريخ، وبالنسبة إلى اسهامه في الكسب الإنساني المتراكم.

نقول أحياناً عن بعض مآثر الشعوب انها مآثر خالدة. ماذا نعني بذلك؟ نعني ان قيمتها تتعدى المكان والزمان اللذين نشأت فيهما. هناك الزمني العابر، وهناك الأصيل الباقي، وكل جهد في التاريخ، فردي أو جماعي، يجب أن ينظر إليه من الناحيتين معاً، ويقاس بالمقياسين، لا بواحد منهما. وكمثال محسوس: إنّا عندما نلتفت إلى الحياة العربية الماضية يجب علينا أن ننظر إليها بمنظار المفاهيم السائدة في عصرها ونزنها بمعيار المرحلة التي كان قد بلغها تطور المجتمع وتفتح العقل في زمنها. ولكن هذا النوع من النظر والحكم وحده لا يكفي، لأنه لا يسمح لنا بأن نقارن ونقابل قيمة هذه الحياة ومآثرها بمآثر الأمم والمدنيات الأخرى. وإذا اقتصرنا عليه لم نستطع أن نقول إنها أعظم من سواها أو أقل عظمة، أو أعلى أو أدنى مرتبة، وان مآثرها أغنى وأثمن في مجموعها أو في ناحية من نواحيها. لن نستطيع ذلك إلا عندما نتجاوز النظر فيها بصفتها مرتبطة بمرحلة معينة إلى الحكم القائم على أساس التقليد الايجابي الحضاري المتراكم ومقدار اسهامها في تكوين هذا التقليد. ومن الواضح ان هذا الحكم لا يتيسر، على وجهه الصحيح، إلاّ لمن كان حقاً وريث هذا التقليد، وتمثله في فكره ونفسه، فلا يأتي حكمه عن جهل أو ادعاء، بل عن جدارة واستحقاق.

إن الاكتفاء بالمقياس الزمني وحده يؤدي إلى ميعان في الحكم، فلا نستطيع أن نقول عن شيء انه حسن أو سيّىء لأن هذا الشيء لا يمكنه أن يكون غير ما كان

عليه. والحكم بمقياس «التقليد التراكمي» وحده يؤدي إلى القسر والفرض لأنه لا يعتبر الظروف والأحوال، والحدود والقيود. أما الحكم التاريخي الكامل، المؤلف بين هذا وذاك، فإنه يجمع الميزتين ويتنكب الخطأين، ويأتي نتيجة للمعرفة المتزنة: النافذة الشاملة الصارمة المحبة، الناقدة السمحة. وبهذا يغدو من أهم عناصر التفكير التاريخي ومن أفضل ثماره.

الثقافة التأريخية

لقد استعرضنا في الفصول السابقة العملِ التأريخي في خلال مراحله المتتابعة ومظاهره المختلفة ــ صناعة، وتفكيراً، وتعليلاً، وحكماً ــ وحاولنا، ما أمكن، تبين طبيعة هذا العمل، والشروط التي يجب أن يوفيها والصفات التي يجب أن يتحلى بها، ليأتي صحيحاً متزناً مثمراً. ويجدر بنا الآن أن نتقدم بهذا البحث إلى مرحلته التالية فنتساءل عن معنى هذا العمل بكامله: عن الأثر الذي يتركه في الفكر والنفس، وعن نتاج فعله في تهيئتنا لمعالجة الحاضر وإعداد المستقبل.

لنبادر إلى القول إن هذا العمل يكسب المرء نوعاً معيناً من الثقافة. ان هذه الثقافة ــ ولندعُها «الثقافة التأريخية» ــ هي خلاصة ما يجني الإنسان من جهده في استكشاف الماضي، وبهذه الصفة تكون عاملاً فعالاً في تكييف نظرته وتعيين اتجاهه بالنسبة إلى الحياة بكاملها: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وهي، ككل ثقافة، مؤلفة من عناصر مختلفة يحسن بنا أن نميزها. إنها تتألف، **أولاً**، من معارف متنوعة، بل من معرفة واحدة متماسكة، تتناول حوادث الماضي والروابط التي تربطها والعلل التي أحدثتها والآثار التي نتجت عنها. وقد لاحظنا ان الماضي البشري مديد واسع متشابك، وان من الصعب، إن لم نقل من المستحيل، ان نقف على حقيقته بكاملها. ولكن كلما كانت معرفتنا أوسع وأشمل وأشد ترابطاً وتماسكاً كانت ثقافتنا التأريخية أغنى وأرحب وكان فعلها أبرز وأجدى فائدة. وكذلك تبينا ان الطريق إلى هذه المعرفة طريق طويلة شاقة وعرة. ولكن هنا أيضاً، كلما توغلنا في هذه الطريق وحققنا معرفتنا بالتدقيق والنقد والمقارنة والمقابلة، كانت ثقافتنا التأريخية أقرب إلى الصحة وكان أثرها أفعل في سلامة النظر واعتدال الحكم.

أما العنصر **الثاني** من عناصر هذه الثقافة فهو ملكات عقلية تتولد في خلال

الجهاد لاكتساب المعرفة التأريخية. ان هذه الملكات هي، في الوقت ذاته، وسائل لاكتساب هذه المعرفة، وضوابط تضمن سلامتها، ودوافع لاستمرار نموها وازديادها وتوسعها. وتتصل هذه الملكات بالعنصر الثالث الذي تتألف منه الثقافة التأريخية وهو البواعث النفسية والفضائل الخلقية التي تنميها هذه الثقافة في الإنسان والتي تطبع بها شخصيته بكاملها. ولقد بدت لنا أهم هذه الفضائل والملكات في خلال استعراضنا لمراحل العمل التأريخي، وستعود فتنكشف من ثنايا تحليلنا للثقافة التأريخية واستطلاعنا لأثر هذه الثقافة في الموقف المتخذ من الحياة وفي الجهد الرامي إلى توجيهها وتسييرها.

فما هي ميزات الثقافة التأريخية، وما هو أثرها المنشود؟؟

* * *

قبل أن نجيب عن هذا السؤال، يجب علينا ايضاح ناحية هامة من نواحي العلاقة القوية التي تربط الإنسان بماضيه وتدفعه إلى تذكره وبعثه وتأريخه. لقد نوهنا مراراً في ما سبق بهذه الميزة التي يتفرد بها الإنسان من سائر المخلوقات، وذكرنا ان «تاريخيته» هي وجه هام من وجوه كيانه الإنساني. فحيثما وجد على سطح هذه البسيطة، ومهما تختلف ظروفه وأزمنته وأحواله، نجده يحن إلى ماضيه، ويحاول تذكره، ويروي أخباره، ويسجل وقائعه. إنه أبداً مشدود إلى الماضي، ملتفت إلى الوراء. قد يقوى هذا الالتفات أو يضعف، وقد يختلف أثره فيكون مبعث نشاط واقدام أو علة جمود وتخلف، ولكنه هناك على كل حال لا ينفصل عن الإنسان ما دام إنساناً.

ولكن هذه التاريخية التي يتميز بها الإنسان لا تستوعب طبيعته بكاملها. إنه يذكر الماضي، ولكنه أيضاً يعيش الحاضر ويخطط للمستقبل. ولعل «حاضريته» و«مستقبليته» ليستا أقل خطراً من «تاريخيته»، بل لعلهما أشد تعبيراً عن إنسانيته وأقوى أثراً في مجهوده وحياته. انه يحن إلى ما مضى، ولكنه أيضاً مشغول بما يعرض له من مشكلات، متطلع إلى ما يخبىء له الغد المقبل. ولعل حنينه ذاك نتيجة لهذا الانشغال وهذا التطلع. فهو أبداً يسعى ويجد لسدّ حاجاته الطارئة والدائمة، ويأمل ويقدم. ويخطط ويبني لنفسه ولأولاده ولقومه وللإنسانية ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ولآخرته كأنه يموت غداً.

ونحن نخطىء إذا اعتقدنا ان الماضي شيء مجرد خارج عن الإنسان، مستقل عن نزعاته وميوله وآماله الحاضرة. وهذا هو الخطأ الذي ينطوي عليه موقف المدرسة

الموضوعية التي ركزت ايمانها على «الصناعة التأريخية» وذهبت بها إلى أبعد حدودها. فليس من الممكن ــ مهما حاول رانكه وسواه ــ ان ينعزل الإنسان عن حاضره انعزالاً تاماً ليكتشف حقيقة الماضي كأنها حقيقة قائمة بذاتها منفصلة عنه. بل لا بد لكل إنسان ولكل جيل من أن ينظر إلى الماضي من خلال اعتقاداته واهتماماته وآماله. ورانكه وأمثاله من مؤرخي القرن التاسع عشر لم يروا التاريخ كما رأوه إلا لأنهم أبناء ذلك القرن، ولو عاشوا قبله أو بعده ــ لو كانت اهتماماتهم ونظرتهم إلى الأمة والإنسانية والفكر والحياة غير ما كانت عليه ــ لجاء نتاجهم مختلفاً عما بلغنا منهم. وما يصدق عنهم يصدق عن سواهم في كل بيئة وجيل، ولذا كثيراً ما تكون مؤلفات المؤرخين ــ حتى عندما تؤرخ الماضي السحيق ــ أصدق تعبيراً عن عصرهم وبيئتهم وعما يسودهما من اعتقادات ودوافع مما هي عن الماضي الذي يعالجونه.

وها نحن الآن ننظر إلى ماضينا بغير العين التي نظر بها أجدادنا إليه. فما يهمنا منه الآن هو غير ما كان يهمهم. إننا في خضم هبة قومية نفهم الأمة بغير مفهومهم، ونقبل على تطورات اقتصادية واجتماعية وعقلية لم يكونوا يعرفونها أو يحلمون بها، فلا بدع إذا استلهمنا من الماضي ذاته غير ما استلهموا وإذا اخترنا منه غير ما اختاروا وإذا كانت الصورة التي له في ذهننا والأثر الذي يحدثه في نفسنا يختلفان عن تصورهم له وتأثرهم به. ولن يكون غريباً، بعد أن تستقر نهضتنا القومية وتنضج وبعد أن نجوز التطورات التي نتمخض بها الآن ــ لن يكون غريباً أن ينظر أبناؤنا إلى تاريخنا الماضي وإلى التاريخ البشري عامة نظرة جديدة منبعثة عما سيكوّنون من معتقدات ويتخذون من مواقف وما سيجيش في صدورهم من آمال وأحلام.

وليس معنى هذا ان ليس في الماضي عناصر ثابتة، وان لا مهرب لنا من النسبية المطلقة التي عرضنا لها وحذرنا منها في فصل سابق. وإنما معناه أن هيئة هذا الماضي كما تتراءى لنا تختلف بحسب قربنا منه أو بعدنا عنه وبحسب المنظار الذي ننظر به إليه. ولعلنا لا نخطىء كثيراً إذا شبهناه بالسهول والوهاد والأودية والتلال الممتدة وراءنا ونحن نرقى جبلاً من الجبال. إنه هناك حقيقة واقعة، أو قد وقعت، بلا جدال. ولكننا كلما صعدنا أو تحولنا في سيرنا تبين لنا منه ما لم يكن ظاهراً قبلاً وتبدلت هيئته العامة نوعاً من التبدل. ومن يكن منا في مكان آخر من الجبل وينظر إليه من الزاوية التي يحتلها تتبين له صورة تختلف عن الصورة التي تبدو لنا. ولهذا نجد أن كل جيل يعود ويكتب التأريخ من جديد: لا لأنه اطلع على حقائق جديدة فحسب، بل لأن المرحلة التي بلغها في طريق التطور تجعله يرى الحقائق القديمة على غير ما كانت تراها الأجيال السابقة. ولهذا، أيضاً، كان للتأريخ ذاته تأريخ. وما تأريخ التأريخ

سوى متابعة هذه النظرات المتعاقبة للماضي التي كونتها الأجيال المتتابعة وتفهم أثر هذه النظرات في التأليف التأريخي خاصة وفي الفكر والحياة بوجه عام.

نخلص من هذا كله إلى تقرير حقيقة أساسية: وهي اننا نعود إلى الماضي من خلال اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل. فبقدر ما نكون أحياء فاعلين يساورنا القلق ويشغلنا الاهتمام: القلق من المشكلات القائمة والحاجات المادية والفكرية والروحية الطارئة، والقلق من مخبآت الغد ومكنونات المصير. إن الماضي بذاته لا يبعث على القلق. وإنما هو القلق من الحاضر والمستقبل، وما يبعثه في النفس من طموح ونشاط أو من خوف وحذر وما يثير من ألم وأمل ـ إنما هو هذا القلق الذي يعيد النفس إلى الماضي لتستوحيه وتتقوى به أو لتثور عليه وتنطلق من قيوده وحدوده.

إن الإنسان الحي الفاعل هو أبداً في صراع داخلي تتجاذبه اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل وذكريات الماضي. وانه ليرقى في مراتب الكيان والحرية والإنتاج كلما كان هذا التفاعل نيراً ايجابياً مثمراً. فلا غرق في الماضي يشل النشاط والحيوية، ولا غرق في الحاضر يضيق مجال النظر ويعمي عن أصول الأشياء وعللها، ولا غرق في المستقبل تضيع فيه الحقيقة في أعماق الأحلام العذبة الخادعة. وإنما، كما قلنا، تفاعل حي بين الأمل والحنين، بين التطلع والتلفت، بين الحرص على ما هو كائن والنزوع إلى تخطيه، تفاعل بين «التاريخية» و«الحاضرية» و«المستقبلية» في طبيعة الإنسان يبعث كلاً منها ويضبطها ويخرج من كل منها، ومنها جميعاً، أفضل النتائج وأخصب الثمار.

* * *

على ضوء هذه الحقيقة لنعد إلى موضوع بحثنا في هذا الفصل ولننظر في مميزات الثقافة التأريخية وفي أثرها في الفكر والنفس. وأول ما يبدو لنا من هذه المميزات ومن وجوه هذا الأثر هو أن الثقافة التأريخية **توسع اختبار الإنسان وتعمقه**. فالإنسان الذي يعمد إلى معالجة مشكلاته أو مشكلات أمته أو مشكلات الإنسانية جمعاء، أو الذي يسعى إلى تحقيق آمال أو تنفيذ مشروعات أو تخطيط سبل جديدة ـ ان الذي يفعل في الحاضر ويمهد للمستقبل ليحتاج إلى مرانة وخبرة كي لا يخطىء الهدف وكي يبلغ أفضل النتائج. وليس التعلم كله سوى الجهد لاكتساب هذه الخبرة (بأوسع معاني هذه الكلمة وأغناها)، وليس التعليم والتثقيف والتربية سوى محاولة نقل هذه الخبرة وتوليد القدرة على اكتسابها. وفي هذا السبيل ـ في سبيل نقل الخبرة واكتسابها ـ كانت الجهود المستديمة والتضحيات الجسيمة والبذل السخي في ميادين التربية والتعليم.

لسنا نعني بالخبرة المهارة في فن من الفنون ولا التجربة المكتسبة في القيام بعمل معين من الأعمال، وإنما نعني النظر الواسع إلى الأمور الذي يتناول أصولها وعللها، ومظاهرها ونتائجها، وتشابهها واختلافها، وأسس تقديرها وتقييمها، كما نعني المعالجة التي تستند إلى هذا النوع من النظر والتفكير. وهذا كله لا يأتي عفواً ولا يحصل بيسر بل يتطلب معرفة أصيلة واختباراً مديداً. ونحن نرى في حياتنا اليومية فرقاً بيناً محسوساً بين الذي يقدم للمرة الأولى على معالجة أمر من الأمور، والذي يكون قد جاز مثل هذه المعالجة مراراً عديدة. فإن النظر إلى المشكلة، والأسلوب الذي يتبع في معالجتها، يختلفان في الحالة الثانية عما هما في الأولى لما يكون صاحبهما قد اكتسب من تجربة ونضج واختمار. وإذا كان المرء يكتسب من اختباره الخاص، فهو يكتسب أيضاً من اختبار غيره. والثقافة التأريخية تمده بهذا الاختبار: لا باختبار فرد أو أفراد فحسب، بل باختبار أجيال وشعوب وثقافات وحضارات. فإذا بحياته قد طالت وامتدت وشملت حياة المئات والألوف بل الملايين من الناس، وإذا بمعرفته قد اتسعت وشملت معرفتهم، وإذا بخبرته قد غزرت واغتنت بما أفاد من خبرتهم المديدة المتنوعة.

لنعد إلى مثلنا الذي ذكرناه: مثل الرجل الذي بلغ في سيره الوئيد عبر السهول والوهاد والجبال مكاناً معيناً. فقد يحصر الرجل نظره في المكان الذي بلغه أو في دائرة ضيقة حوله. وبمقدار هذا الحصر يقصر فهمه لذاته ومشكلاته وظروفه وتحد قدرته على تخطيط سيره المقبل. أما إذا التفت إلى الوراء ووعى كل ما اجتازه من مسافات وما بذل من جهود، وما حقق من انتصارات وما أصابه من اخفاق وانكفاء ـ إذا استطاع ذلك فقد أصبح فهمه لموقفه أصح وأشمل وإعداده للمرحلة التالية من سيره أضبط وأدق وأضمن.

يعتقد البعض أن للثقافة التأريخية فائدة عملية مباشرة، استناداً إلى القول المردد: «إن التاريخ يعيد نفسه». ويتوهمون ان من اطلع على التأريخ وعرف كيف وقع حادث من الأحداث استطاع أن يتنبأ بحدوثه مجدداً في الحاضر أو المستقبل وتهيأ له وعلم نتائجه وأدرك طرق معالجتها. ونحن لا نقول بهذه الفائدة العملية المباشرة، لأننا لا نعتقد بعودة التاريخ، وتكرار الأحداث كما وقعت تماماً. فالحياة تتبدل وتتطور، وكل حدث جديد يؤثر فيها ويكيفها بعض التكييف. ولئن كانت مراحلها تتشابه في بعض ميزات ومظاهر، فهي تختلف وتتباين في أخرى. وهي تتضمن الخاص والفريد من الأحداث والمظاهر الاجتماعية، كما تتضمن العام والمستمر منها. ومع أن لها بعض اتجاهات عامة تتبعها في تبدلها وتغيرها، ومع أننا نصوغ هذه الاتجاهات أحياناً بشكل قوانين، فإن هذه القوانين لا يمكنها ـ نظراً لتعقد الحياة

ذاتها ولوجود الحرية والاختيار فيها ـ ان تبلغ الدقة والتحديد التي للقوانين الطبيعية، بل لا بد لها من أن تزداد تعقداً وتقل ضبطاً وانضباطاً كلما تطورت الحياة وتتابعت الأحداث، لأن لهذه الأحداث، كما قلنا، آثارها الخاصة التي تتراكم أو تتناقض والتي ما تفتأ تفعل فعلها في تغيير شكل الحياة وتعديل مجراها.

إننا لا ننكر الفائدة المجنية من معرفة الاتجاهات العامة التي اتبعتها الحياة الماضية في سيرها، وما تمكننا إياه هذه المعرفة من ادراك أفضل لمشكلات الحاضر وللتطورات الممكنة في المستقبل. وإنما الذي ننكره هو القول بالفائدة العملية المباشرة المستندة إلى الاعتقاد بأن التاريخ دولاب يدور، وأن ما حدث في الماضي سيتكرر بالشكل نفسه في المستقبل، وان من اطلع مثلاً على الوقائع الحربية السالفة يستفيد مباشرة في الفنون الحربية الحاضرة أو المقبلة، ويستطيع أن يطبق ما حدث في الظروف والأحوال القائمة الآن. فإن سرعة تبدل هذه الأحوال ـ خصوصاً في هذا العصر الذي يقفز العلم فيه كل يوم قفزة جبارة جديدة ـ لتزيد في اختلاف أحداث الحاضر عن أمثالها في الماضي، وتنفي المعنى الضيق الذي يفهم به البعض تكرار الأحداث وعودة التاريخ و«العبر» و«الأمثولات» التي نستمدها من المعرفة التأريخية. إننا نقول بالفائدة المستمدة من معرفة الاتجاهات العامة في الماضي، ونقول فوق ذلك بفائدة أعم وأشمل نجنيها من الثقافة التأريخية، وهي التي تحصل لنا حين نستخلص اختبارات الأجيال المتلاحقة والأمم المتعاقبة والثقافات والحضارات في تكونها وازدهارها وانحلالها ـ حين نؤمن مع المؤمنين، ونشك مع الشاكين، ونسعى مع الساعين، وننتصر مع المنتصرين، ونتخذل مع المنخذلين ـ حين تغنى حياتنا وتزخر بما نستمده ممن سبقنا من علم ومعرفة، ومن ألم وأمل، ومن اقدام وقعود، ومن كسب واخفاق، ومن كل اختبار يجعل الحياة أدق إدراكاً لذاتها وأقدر على شق سبلها المقبلة. ان حياة كل منا قصيرة المدى، وخبرته ضيقة، وقدرته على الفهم والفعل محدودة. فمن فضل الثقافة التأريخية، في ما نرى، أن تمد إلى أبعد حدود ممكنة طول حياتنا وسعة اختبارنا وقدرتنا على الادراك والفعل. وفي الاغناء الناتج عن هذا كله أول ميزة نلاحظها من ميزات الثقافة التأريخية وأول أثر من آثارها المنشودة.

* * *

لقد قلنا في ما سبق إننا قلما نعود إلى الماضي من أجل الماضي ذاته وان الذي يستحثنا إليه هو في الأغلب مشاغل الحاضر والمستقبل. وينتج من هذا أننا إذا تدبرنا معنى هذه الثقافة التأريخية التي نتحدث عنها وجدناها في آخر الأمر **سبيلاً من سبل ادراك الذات**. فسواء نظرنا إلى أنفسنا كأفراد أو كأبناء أمة واحدة أو كأعضاء في

الأسرة الإنسانية، وجب علينا أن نحرص على تفهم ذاتنا أو ذواتنا وأوضاعنا على حقيقتها. نحن إنما نعود إلى الماضي ونطلع على مجرى أحداثنا لكي يساعدنا هذا الاطلاع على معرفة أنفسنا. وبالعكس، كلما صحت وازدادت معرفتنا لواقعنا كنا أقدر على تفهم الماضي واستخراج معناه. وهكذا تتفاعل الثقافة التأريخية وسواها من عناصر الثقافة في الشخصية الموحدة الغنية النيرة الفاعلة.

وتتجلى هذه المعرفة الذاتية أصدق تجلٍ في نوع الأسئلة التي نثيرها عن طبيعتنا وواقعنا. اننا نفرض ان كل إنسان حي ـ كل إنسان يستحق هذا الاسم ـ يتساءل بشكل من الأشكال. ولكن تساؤله يختلف حدة وعمقاً ومرتبة وقيمة حسب حظه من الثقافة. ومن شأن الثقافة التأريخية أن تساعد على إثارة الأسئلة الأساسية في نفسه وأن تستحثه للإجابة عنها وبالتالي إلى ادراك ذاته على وجه أدق وأشمل. إنها تدفعه مثلاً إلى التساؤل عن الصلات التي تربطه بسواه من الناس وعن تنوع هذه الصلات واختلاف أسبابها. لماذا يشعر بصلة بأعضاء أسرته وأبناء أمته أقوى من صلته بسواهم؟ كيف تطورت الأسرة وكيف تكونت الأمة، وفي أية مرحلة من مراحل تكونهما وتطورهما يعيش في هذا الوقت بالذات؟ وما يصدق عن الأسرة والأمة يصدق عن سائر المجتمعات التي ينتمي إليها. ثم إنه يجد انه يشبه سواه من أبناء مجتمعه في أشياء ويختلف عنهم في أشياء، ويجد أن مجتمعه يشبه سائر المجتمعات في أشياء ويختلف عنها في أشياء. فما هي أسباب هذا التشابه والاختلاف وما هي عللها وأصولها؟

ويقوده هذا النظر في التشابه والاختلاف إلى أن بعض المجتمعات أكثر حظاً من التقدم والرقي والمدنية من سواها، ويتساءل عن حظ مجتمعه أو قومه منها، ولماذا كان له هذا الحظ بالذات؟ لماذا هو متقدم على غيره أو متأخر عنه، وما هي أسباب هذا التقدم والتأخر وعلله المتحدرة من الماضي؟ فإذا بلغ هذا المبلغ وكانت ثقافته التأريخية صحيحة متفتحة اضطر إلى التساؤل عن معنى التقدم والتأخر وعن مقاييسهما، وعن معايير الرقي والحضارة وقيمهما، كي تأتي مقارناته ومقابلاته سليمة وحكمه على نفسه وعلى سواه معتدلاً منصفاً.

وانه ليجد أنه إذا سار في هذا الطريق فسيبلغ المرحلة ذاتها التي بلغها عن طريق آخر كنا قد أشرنا إليه سابقاً، طريق تعليل الأحداث الماضية والحكم فيها. هذه المرحلة هي مرحلة التساؤل عن طبيعة الإنسان: عن خصائصها الأصيلة، وعن مظاهرها المتبدلة خلال التاريخ. ولا بد له هنا أيضاً من أن يكوّن لنفسه نظرية في الإنسان تنطلق منها نظرته إلى الكون وإلى ما وراء الكون وإلى الحياة وميزاتها وغاياتها ودوافعها. هل الإنسان مادة أم عقل أم روح، أم مركب منها، وفي هذه الحال أيها أفعل

فيه؟ هل هو وليد ظروفه وبيئته ومجتمعه أم فاعل مولد لها، وإلى أي حد في كل من الحالين؟ هل هو ابن الطبيعة أم ابن الله؟ هل هو مسير أم مخير؟ هذه وسواها من الأسئلة لا بد للمرء من مجابهتها إذا أراد أن يكون حياً فاعلاً. ومن شأن الثقافة التأريخية أن تقوده إليها وتثيرها في نفسه وتدفعه إلى الاجابة عنها. حتى عندما يتوصل إلى جواب معين، تظل هذه الثقافة تلح عليه بامتحان هذا الجواب على ضوء الأحداث التأريخية لاختبار صحته وتلمس ضرورة حفظه أو تعديله أو نقضه.

لسنا نقصد بهذا إلى أن الثقافة التأريخية هي العامل الثقافي الوحيد الذي يقود الإنسان إلى هذا التساؤل المتتابع والذي يضعه آخر الأمر أمام أهم ما تثيره الحياة من أسئلة ومشكلات. ولكننا نقصد إلى ان الثقافة التأريخية إذ تعود بالإنسان إلى ماضيه وتطلعه على مراحله ومظاهره المتتابعة والمتنوعة وتحاول استكشاف أسباب التغيّر والتبدل والنمو والتطور والتأخر تسهم بنصيبها الهام في إثارة أسئلتها المعيّنة وفي دعم الأسئلة التي تطلقها الجوانب الأخرى من الثقافة الإنسانية أو في إلقاء أضواء جديدة عليها. وبهذا تدفع صاحبها إلى أن يجابه، وإلى أن يجعل أبناء قومه ومجتمعه يجابهون، مشكلات الحياة الأساسية ـ مشكلات التقدم، والحضارة، والحرية، والعقل، والإنسان، والكون، وما وراء الكون والإنسان ـ وأن يمتحنوا أوضاعهم على ضوئها، فلا يكتفوا بالسطحي الظاهر، وبالطارىء العابر، بل يغوصوا ما أمكنهم إلى الأعماق ليستكشفوا الأصول والمنابع وليلتمسوا الجوهر الباقي. وبهذا أيضاً يتوصل الفرد، ويتوصل القوم، إلى ادراك أوفى لذواتهم وأحوالهم ومشكلاتهم، فيكون للثقافة التأريخية نصيبها الوافر في تكوين تلك الميزة الهامة للإنسان الحي الناهض وللأمة الحية الناهضة، وهي: معرفة النفس.

* * *

وعندما ينظر المرء، مدفوعاً بثقافته التأريخية، في أصوله، ويجابهها وجهاً لوجه مجابهة وعي وفهم وادراك، يشيع في نفسه **شعور بالحرمة** التي يجب أن تكون لها. فهذه الأصول تمثل جهود أجيال وأجيال وحياة نفوس تعايشت وتتابعت خلال العصور. ولا شك في أن هذه الأجيال والنفوس تختلف قوة وضعفاً، وخصباً وجدباً، وكسباً وخسراناً، وجمالاً وبشاعة. ولكنها كلها تعبير عن الحياة الإنسانية. وللحياة الإنسانية كرامتها وحرمتها: في قوتها وفي ضعفها، في ما قدرت عليه وفي ما عجزت عنه، في ارتفاعها إلى أسمى المراتب وفي انخفاضها إلى أدنى الدركات. ان الشعور بكرامة الإنسان وحرمته هو من أبلغ الأدلة على رقي الفكر وأصالة الثقافة. فحري بالثقافة التأريخية أن تبعث في أنفسنا هذه الحرمة للأجيال التي سبقتنا فنحفظ لها كرامتها

ونقر لها بفضلها. نقول هذا ونؤكده في هذا المجال لأنه يبدو لنا أننا نعيش في عصر قد ضاع فيه كثير من الحرمات وساده كثير من الهزء والازدراء. وقد كان للماضي ـ ماضينا وماضي سوانا ـ حظه الوافر من هذا كله. فكأن التقدم الذي أحرزته المدنية الحديثة في حقول العلم والإنتاج المادي، وكأن التحفز الذي تجيش به صدور الأفراد والأمم اليوم ـ كأن هذا وذاك، على ما فيهما من عناصر الخير، قد أديا بنا، في كثير من الأحيان، إلى الثورة على كل ما في ماضينا وفي الماضي الإنساني من تراث وعلى الهزء به وانتقاص قدره.

على أنه يجدر بنا أن نذكر ان التخلص التام من هذا التراث والتجرد من «تاريخيتنا» المتأصلة في إنسانيتنا أمر مستحيل. وهو بعد هذا مخلٌ بما لهذا التراث علينا من واجب التقدير والاحترام، إن لم يكن لشيء فعلى الأقل لكونه ـ كما قلنا ـ تعبيراً عن الحياة الإنسانية، وهي عنوان الحرمة وموضوع الكرامة. وإذا كانت هذه الحرمة واجبة نحو الماضي بكامله، فهي أشد وجوباً نحو الماضي الذي يتصل بنا ويربطنا بمجتمعنا أو أمتنا. ومن الطبيعي أن يكون لنا حدبنا الخاص على هذا الماضي وميلنا إليه، وافتخارنا به، وأن يكون له مكانه البارز وفعله النافذ في قلوبنا ونفوسنا. ومن الطبيعي كذلك أن نعمد إلى إنماء هذا الشعور في ناشئتنا، وأن نحيط ماضينا القومي بهالة من الإكبار والإعزاز ليغدو لنا مصدر إلهام ومبعث انطلاق وحافزاً على تحقيق الآمال الجديدة، والسير قدماً في طريق الإنتاج المادي والحضاري وتوفية أسباب الكرامة والعزة والمجد. على أن الاحترام الواعي والاستلهام الرشيد شيء والهوس الفائر والانقياد الأعمى شيء آخر. فالماضي لا يمكن أن يرجع أو أن يسترجع كما كان تماماً، ولا يمكن عجلة التاريخ أن تعود القهقرى. وما دام ثمة عقل، وما دامت ثمة حرية، فإن إمكانات التقدم والرقي وتخطي المآثر الماضية تبقى قائمة ويبقى مجالها منفسحاً رحباً. ولذا، فإن من ميزات الثقافة التأريخية التي نتحدث عنها انها ثقافة واعية وأن تعلقها بالماضي واحترامها له لا يصدران عن شعور بدائي أو حماسة هوجاء بل عن تقدير متزن قد صقله الفكر واضاءته المعرفة. ولا شك، في نظرنا، في أن الايمان بحقيقة الماضي وقيمة فعله الذي يبعثه مثل هذا التقدير المتزن في النفس هو أقوى وأرسخ من سواه، وان الاستلهام الذي ينطوي عليه يكون أصفى وأثبت، وأن فعله في صنع الحياة الجديدة يأتي أصدق وأنفذ وأبعد مدى.

ومن شأن هذا الاحترام الواعي الذي تبثه الثقافة التأريخية الصحيحة انه **يركز الفرد ويركز الأمة ويوطد كيانهما**. فإن الاحساس بالجذور المتأصلة والأسس الراسخة يبعث في النفس شعوراً بالثقة والاطمئنان وينمي المناعة والصلابة في وجه

الأحداث، فلا يبقى المرء، ولا تبقى الأمة، عرضة للأهواء الجامحة وللزعازع العاصفة. وان الناظر الناقد ليستطيع التمييز بيسر وسهولة بين المرء الذي له جذوره القوية المديدة في الأرض والتاريخ، وذلك الذي هو ابن يومه ومكانه الطارىء فحسب. وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الأمم. فثمة أمم أقوى جذوراً من أخرى أو أشد شعوراً بهذه الجذور. فإذا كانت هذه الجذور سليمة تمد بأسباب الحياة والنمو وكان الشعور بها شعوراً واعياً نيراً، كان هؤلاء الأفراد والأمم أصدق ادراكاً للواقع وأصح حكماً على الأشياء من سواهم، واستطعنا أن نلمس في كيانهم وتصرفهم الثقة والاستقرار والايمان منبعثة من نفوسهم ومنبثة منها إلى ما حولهم. ومن هنا كانت صفة «الأصالة» أو «العراقة» التي يتمايز بها الأفراد والشعوب، والتي تجعل حياة بعضهم أغنى من حياة البعض الآخر وأنفس وأكثر استقراراً وأقدر على تحمل الهزات والنوائب. ومن البديهي أننا هنا أيضاً نعني الأصالة الحقيقية التي تستند إلى ماضٍ واقع لا إلى ماضٍ موهوم، الأصالة الفعلية لا الأصالة المدعية، الأصالة التي لا تزال نابضة بالحياة لا التي هرئت روابطها وانحلت شرايينها وأوردتها.

فمن ميزات الثقافة التأريخية اذن انها تؤدي إلى تركيز حياة الفرد والأمة وتوطيدهما وإلى تقوية الأصالة الفردية والقومية والإنسانية وتنقيتها، وإلى تنمية الشعور بهذه الأصالة وجعله عامل استقرار وثقة بالنفس ومبعث تجدد وتقدم في الوقت ذاته.

* * *

على أن التجدد والتقدم لا يكونان صحيحين دائمين، إلا إذا لازم الشعور بالقدر الماضي وحرمته شعور بحدوده وقيوده وقصوره، وإلا إذا كانت معرفة الذات المؤدية إلى احترام الذات وتقدير الماضي هي أيضاً **نقد للذات وللماضي**. لقد قلنا إن نسيج الماضي محوك من خيوط تختلف متانة وضعفاً، ونفاسة وضعة، وجمالاً وقبحاً، ونقاوة وفساداً. بل قلنا إننا نحب الماضي ونتعلق به من أجل نقائصه كما نحبه من أجل فضائله. ولو لم تكن فيه نقائص وحدود لما جاء تعبيراً صادقاً عن الحياة، وهي لم تأتِ في أي طور من أطوارها مثالية أو متصفة بالكمال المطلق، بل كانت تجمع دوماً بين التحقيق والتقصير، بين الكسب والخسران، بين الايجاب والسلب، بين الانطلاق والتقيد. ولا نعرف هذه الحياة حق المعرفة إلا إذا أدركناها من الناحيتين معاً، وكذلك لا تكون معرفتنا لأنفسنا وللماضي صحيحة إلا إذا تضمنت نقداً له ولذاتنا. إن الاحترام الصحيح للتاريخ ـ بل لأي شيء ـ لا ينفي النقد بل يستوجبه.

والمحبة الخالصة لا تخشى الثورة: لا تخشى أن تثور أو أن يثار عليها، بل كثيراً ما يأتي أخلص احترام وأصدق محبة نتيجة للنقد والثورة، لأن الاحترام والمحبة يصدران حينذاك عن وعي تام وادراك شامل، ويكتسبان منهما القوة على مغالبة الخوف وعلى مجابهة الحقيقة. ان المعرفة الذاتية التي تطمح الثقافة التأريخية إلى أن تولدها ــ المعرفة المحترمة الناقدة، المحبة الثائرة ــ خليقة بأن تزيل من نفس الفرد، ومن نفس الأمة، ما يعتريهما من مركبات نقص أو من مركبات تفوق، وأن تجعلهما يريان ذاتهما وماضيهما على حقيقتهما وأن يعتزما تخطيهما بتحقيق أوسع للإمكانات المنفسحة، وتخطّ للحدود والقيود أبعد وأجرأ، واحراز قيم وفضائل أعظم وأنبل.

لقد قلنا في ما مضى في معرض حديثنا عن الصناعة التأريخية وفضائلها ان حاسة النقد لم تتولد عند الإنسان عفواً وبيسر، وان الطبيعة الإنسانية كانت، وما تزال إلى حد بعيد، أقرب إلى التصديق منها إلى النقد وأميل إلى التوهم والتخيل منها إلى مجابهة الحقيقة. وإذا كان هذا يصدق عن النقد بوجه عام، فهو يصدق بصورة خاصة عندما يكون موضوع النقد متصلاً بالإنسان ذاته أو بقومه أو بتاريخه أو بأي شيء آخر متعلق به أو أثير عنده. ولهذا نرى نقد الذات من أصعب الأمور التي يقدم عليها الفرد أو المجتمع ومن أكثرها تطلباً وتكليفاً وأبطئها تحقيقاً وتنفيذاً. إن الفرد ليميل إلى حبس نظره على فضائله ومآثره وأمجاده، أو على ما يتوهمه من ذلك، ويؤثر أن ينطلق في أجواء الأحلام ويستعذب كل ما يستثير في نفسه الاعجاب بالذات والافتخار والمباهاة. وكذلك شأن الأمة أو أية جماعة أخرى. فإن معرفة النفس على حقيقتها تتطلب بحثاً وتتبعاً وتدقيقاً، وفي هذا ما فيه من الجهد والمشقة إذا قيس بيسر التوهم وعفوية الحلم والتخيل. يضاف إلى ذلك أن هذا الجهد الرامي إلى المعرفة قد يؤدي إلى كشف العيوب والحدود، وقد يبدي وجوه الضعف والنقص، مما لا ترضى به النفس بطبيعتها ولا تستسيغه. فلا بد اذن من مشقة مضاعفة ومن مجالدة فائقة، ومن مغالبة للنفس وبذل دائب لقهرها على رؤية الحق. لا بد من هذا كله، ولكن لا سبيل سواه إلى معرفة النفس معرفة صحيحة، تلك المعرفة التي هي أساس كل عمل مثمر وأقوى منطلق إلى الرقي والاكتمال والابداع.

وإذا كان نقد الذات مطلوباً من كل فرد ومن كل قوم في جميع أدوار حياتهما، فإنه مطلوب بوجه خاص من الأفراد والأمم عندما تكون سطوة الماضي قوية نافذة وصورته مستولية على النفس متحكمة بالعقل، فيكون من نتيجة هذه السطوة والاستيلاء أن يتوقف النشاط وتخف الحيوية، اكتفاء بما حقق وقناعة به واستكانة إليه، أو أن ينحصر الجهد والنشاط في محاولة إعادة مجرى التاريخ ورسم الحاضر

على صورة الماضي ومثاله. وفي كلتا الحالتين ضرر وسوء: في الأولى استرخاء وعجز ورضى بالهين السهل وقعود عن الجد الدائب والتجدد المستمر اللذين تتطلبهما الحياة الصحيحة، وفي الثانية جدب وعقم لما في محاولة اعادة الماضي من قسر وإرهاق واصطناع، بل من بطل واستحالة. أما النقد الذاتي فإنه يزيل نير السطوة المتحكمة ويزيح كابوسها، بتمييزه بين الصالح والفاسد، والباقي والزائل، والنافع والضار، والباعث إلى التقدم والرقي والداعي إلى التأخر والانحلال، ويغدو هو ذاته عامل نهوض وتحفز لتحقيق نتائج جديدة واستكشاف آفاق مجهولة.

لقد قلنا إن للثقافة التأريخية المحترمة للماضي فعل تركيز وتوطيد وتأصيل. أما عندما نعمد إلى نقد الماضي فإنها **أداة اطلاق وتحرير**. انها تحررنا من سطوة الجهل ومن غرور الوهم والتواكل، وتهيب بنا إلى تحري الحقيقة مهما يكن طلبها شاقاً وتكاليفها عسيرة. إنها تنمي في نفوسنا القدرة على مجابهة نتائج هذا التحري واستساغتها مهما يكن منظرها مؤذياً أو طعمها مراً. إنها تطرد الخوف من قلوبنا وتبعث فينا الجرأة وتكسبنا المتانة العقلية والخلقية والنفسية التي تصمد أمام الواقع وتعلو عليه. إنها تصفي أصالتنا مما علق بها من ادران وتعيد الحياة والنشاط إلى جذورها، فتجعلها أصالة ايجابية مثمرة لا أصالة ادعاء وتيه وارتداد.

ولا يعتقد أحد ان التركيز والتحرير عملان متناقضان ينفي أحدهما الآخر ويزيل أثره، وان الأول يشد روابط النفس والثاني يحلها، وان ما ينتجه الأول من تثبيت وتوطيد ينقضه ما في الثاني من انطلاق وانعتاق. انهما، على العكس، عملان متكاملان يقوي أحدهما الآخر وينميه. ولئن كان بينهما تناقض واصطراع داخلي، فإن هذا الاصطراع ذاته ـ هذا التجاذب والتنافر ـ هو عامل من عوامل النمو والاغتناء والخصب والابداع. فكل من الاتجاهين يتغلب بايجابيته على سلبية الآخر فتعزز بذلك ايجابية كل منهما وايجابيتهما المشتركة. وبهذا تبلغ الثقافة التأريخية الداعية إلى معرفة النفس ونقدها، المركزة المحررة، المؤصلة المتسامية ـ تبلغ هذه الثقافة غايتها، وتحدث آثارها المنشودة في الفكر والعمل، في فهم الحياة وفي صنع الحياة.

* * *

لقد استعرضنا أهم ميزات الثقافة التأريخية التي عنينا بها في هذا الفصل وأبرز آثارها في نفس الفرد وفي حياة المجتمع. ولعل من المفيد في ختام هذا الاستعراض أن ننفذ إلى لب هذه الآثار وأن نحاول جمعها وتلخيصها. إنّا إذا فعلنا وجدنا أنه

٤٩٨/٤

بإمكاننا أن نحيط بها كلها بكلمة واحدة، وان الصفات التي تنميها هذه الثقافة تتلخص في صفة جامعة هي، في الواقع، نتيجة كل جهد ثقافي، وحصيلة الثقافة الإنسانية بمجموعها. ونعني بها «**الحكمة**»، الحكمة التي يولدها عمق الاختبار وسعته، فتأتي دليل النضج والاختمار، الحكمة التي تثير الأسئلة ولا تخشاها والتي تلح في التساؤل حتى تكشف عن جذور المشكلات وعن أعمق ما تخبئه الحياة، الحكمة التي تحث على معرفة النفس واحترامها وتقدير أصولها، والتي لا تخشى النقد بل تقدم عليه وتسلط أضواءه على أحب الأمور للذات وأشدها اتصالاً بها وأعزها عليها، الحكمة التي تدرك الحدود والقيود وتدعو إلى الانطلاق منها، الحكمة المحبة الثائرة، المركزة المحررة، الأصيلة المنطلقة، المنبعثة الباعثة. هذه الحكمة هي غاية الثقافة ولب نتاجها. وحسب هذا اللون الخاص من الثقافة ـ الثقافة التأريخية ـ ان يسهم في بلوغ هذه الغاية وتكوين هذا النتاج.

وحسب الفرد ان يجهد لاكتساب هذه الفضيلة، وحسب الأمة ان تسعى ليكون لها منها نصيب وافر وذخيرة نامية. فبقدر ما نحقق منها ـ أفراداً وجماعة ـ يرقى كياننا ويجلّ عملنا ويكون لحياتنا قيمتها ومعناها لنا ولسوانا.

صُنع التاريخ

٥٠١/٤

ليس سبيل ادراك الماضي واكتساب الوعي التأريخي الصحيح سبيلاً مختصراً هيناً، وإنما هو سبيل طويل عسير، يتدرج فيه الساعي من الجهد لتحقيق أحداث الماضي بأدق أساليب الصناعة التأريخية، إلى التفكير فيه تفكيراً نافذاً شاملاً يربط بين تلك الأحداث ويسبر غورها، إلى محاولة استكشاف العوامل التي تفعل فيه، إلى الحكم على مظاهره ونتائجه بأضبط الموازين وأعدلها. وتتكون من نتيجة هذا السعي معرفة متدرجة نامية لحقيقة الماضي، كما تتكون في الساعي ذاته فضائل عقلية وخلقية وثقافة متميزة تتوّجها كلها فضيلة الحكمة ــ تلك الفضيلة التي هي غاية الجهود العقلية وأنفس ثمار الثقافة وأعزها وأبقاها.

على أن الإنسان ليس كائناً مدركاً فحسب، وإنما هو كائن عامل أيضاً. لا يكتفي بإدراك العالم الذي يحيط به وادراك ذاته (ومن ضمن ذلك ماضيه)، وإنما يظل يعمل وينفذ ويحقق، ومن خلال هذا كله يحدث أثره في تبديل عالمه وتبديل ذاته. إن الإنسان هو، من بين المخلوقات كلها، الكائن الذي يحس بالمشكلات التي تجبهه وينهض لمعالجتها، ويرى الإمكانات التي تنفسح من خلالها ويختار بينها. لقد وجد على وجه هذه البسيطة، تكتنفه طبيعة زاخرة القوى عميقة الأسرار، فجاهد جهاداً عنيفاً طويل المدى لاقتناص وسائل عيشه وكفالة أمنه وحماية ذاته وذويه من فعل هذه القوى، وانصرف ما أمكنه الانصراف إلى محاولة التغلب عليها وتسخيرها لمصلحته وخيره. وكذلك جابه مشكلات طبيعته البدائية، وما تتصف به من طمع وغرور وجهل، وسعى ــ ناجحاً حيناً مخفقاً حيناً آخر ــ إلى أن يقهر ضعفه ونقائصه ويسمو بحياته الفردية وبتنظيمه الاجتماعي إلى المراتب التي يكشفها له عقله المتطلع إلى الحق ونفسه المتشوقة إلى الخير. ولم يكن هذان الجهادان ــ جهاد الطبيعة وجهاد النفس ــ منفصلين مستقلين، بل كانا مترابطين متفاعلين يستفيد أحدهما من الآخر ويتقوى به

ويقويه. وكانت المدنية الإنسانية والثقافة الإنسانية، بمختلف مظاهرهما وأشكالهما، نتيجة هذين الجهادين، بل هذا الجهاد المشترك، الذي قام به الإنسان، فرداً وجماعة، والذي ما زال يتابعه ـ بل الذي سيظل يتابعه ما دام إنساناً ـ لمجابهة مشكلات عالمه الخارجي وعالمه الداخلي.

ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن رقي أي إنسان يقاس بطبيعة المشكلات التي يحس بها والتي تثير قلقه واهتمامه، وبنوع هذا الاحساس والقلق والاهتمام، وبقيمة النتاج المادي والفكري والروحي الذي يؤدي إليه ويبرزه إلى حيز الوجود. وما ينطبق على الفرد ينطبق على الجماعة والأمة والحضارة، فإن مرتبة كل منها في مدارج الرقي ومعارج التقدم رهن بنوع المشكلات التي تتحداها وبطبيعة إحساسها بها وطرق مجابهتها لها. ذلك ان المشكلات الإنسانية والأسئلة التي تثيرها تختلف من حيث البدائية والتطور، والبساطة والتعقد، والجدب والخصب، ومبلغ الأصالة والبقاء والأثر. كما ان الاحساس بها ورؤية الاختيارات الناتجة عنها يختلفان صفاء وحدّة وامتلاكاً للنفس، وسبل معالجتها تتفاوت دقة وصحة وإثماراً. ومن هذا كله يكون الاختلاف والتفاوت في قيمة النتاج ومرتبة الحضارة.

وإذا قلنا الإنسان العامل المجابه للمشكلات، فقد قلنا ضمناً الإنسان الحر في تصرفه، الواعي لحريته، المختار بين شتى السبل المفتوحة أمامه. فليس من عمل منتج لا تسبقه حرية واختيار. ونوع الإنتاج وقيمته يتوقفان على مدى الحرية التي يتمتع بها المرء، وعلى ادراكه لهذه الحرية، وعلى استخدامه لها في ما يتوصل إليه من قرارات وفي ما يقدم عليه من أعمال. إن الإنسان الحي هو الإنسان الذي يحس بضرورة اتخاذ قرارات إزاء ما يعترضه من مسائل، هو الذي يشعر بالتحدي ـ تحدي الطبيعة والتحدي البشري ـ وبالحاجة إلى الرد عليه، هو الذي يدرك إمكانات الاختيار ومواضع القرارات ويحسن الاقدام عليها. ولعل هذه هي أبلغ أمثولة يلقننا إياها التاريخ: وهي ان الحياة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنوع اختيارنا ومداه، وبطبيعة قراراتنا، وانها بالتالي تتأثر بما نعتزم وما نصنع، وتتوقف إلى مدى بعيد على مؤهلاتنا للاعتزام الواعي الصادق والصنع المحكم السليم. نقول هذا غير ناسين أو متناسين ان للحياة قيودها وحدودها ـ من حيث المحيط الطبيعي والمؤسسات الاجتماعية والأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية. فإن من صفات الاعتزام والصنع الصحيحين تبين هذه الحدود والقيود. وإنما نقوله لأننا نرى في الماضي إمكانات للاختيار من ضمن الحدود، وأحياناً عبر الحدود، قد حققت حيناً، ولم تحقق حيناً آخر، تبعاً لمؤهلات الأفراد والجماعات الذين انفسحت أمامهم. وبكلمة أخرى: إننا لا نجد التاريخ، كما

لا نجد الحياة الحاضرة، حصيلة قوى متسلطة على الأفراد والجماعات، مستقلة عنهم، غير متأثرة بهم، حارمة إياهم جدوى الاختيار والفعل وإمكان الاسهام في تكييف مجرى هذه القوى ذاتها.

* * *

يختلف الناس من هذا القبيل: من قبيل مجابهتهم للمشكلات ومدى ما يتصفون به من اختيار وعزم ـ وينقسمون فرقاً وفئات. فمنهم فئة لا تشعر إلا بأقرب المشكلات إليها من حيث ضمان العيش واستمراره، وتجابه هذه المشكلات بإحساساتها البدائية أو بالتقليد السائد في مجتمعها. تلك هي الفئة الغالبة في المجتمعات البدائية، والتي نجدها أيضاً في المجتمعات المتحضرة، ولكنّا لا نجد لها اسهاماً في حضارة هذه المجتمعات أو أثراً في شق طرق جديدة أو ابداع أشكال متطورة راقية لحياتها أو لحياة قومها أو للحياة الإنسانية عموماً. وبعرفنا ان هذه الفئة لم تحقق إنسانيتها، أو لم تحقق إلا أدنى مراتب هذه الإنسانية. فهي تطفو على مجرى التاريخ، يجرها معه إلى هنا وهناك، دون أن يكون لها أثر في توجيهه أو تعديل سيره، لأنها لم ترَ ما يعترض هذا المجرى ويسد عليه سبيله، ولم تتنبه إلى ما ينفسح أمامها من وسائل وإمكانات من خلال هذه السدود أو على رغمها، ولم تحقق هذه الإمكانات تحقيقاً يمكنها من أن تفرض ذاتها، من قريب أو بعيد، على مجرى التاريخ. إنها في المستوى الذي تعيش فيه، قد تذكر ماضيها أو تتخيله أو تتوهمه، ولكن هذا التذكر لا يسمو ليصبح عاملاً حافزاً على التحكم بالحاضر أو اعداد المستقبل، فلا يسهم بالتالي في صنع حياة.

ومن الناس فئة ثانية قد شعرت بما يعترض طريقها من صعاب وما يحيط بها من قيود وحدود، ولكنها لم تؤمن بأن لها يداً في التغلب عليها أو قدرة على التحكم بمجرى الحياة. فهي مستسلمة إلى هذا المجرى، أو بالأحرى إلى القوة أو القوى الخارجية أو الداخلية الفاعلة فيه، الموجهة إياه في سيره المحتم. وقد يكون السير المحتم في نظر بعض أرباب هذا الاعتقاد تقدم الحياة الإنسانية تقدماً مستمراً إلى أن تتحقق طوبائية تامة في نهاية الشوط، وقد يكون في نظر آخرين انزلاق المدنية إلى هاوية الانحلال والفناء، أو اجتياز دور معين من الأدوار أو مرحلة من المراحل ليتبعها دور تالٍ أو مرحلة قادمة حسب نظام محتم يسري حكمه على الأمم والحضارات بلا رفق أو هوادة. على أن هؤلاء جميعاً يؤمنون انه مهما يكن نوع السير ومهما كانت غايته، فإن أثر الفرد أو الجماعة فيه أثر ضئيل أو معدوم وأن لعوامل المحيط أو لدوافع المؤسسات الأثر كل الأثر، ولذا فالخير كل الخير في الرضى

والقناعة والاطمئنان، والاكتفاء بإدراك القوة أو القوى المتحكمة والايمان بها والاستسلام لها.

إن هذه الفئة لم تكن فئة مبدعة في التاريخ. فبقدر ما حددت أو نفت اختيار الإنسان وحريته ومقدرته على تعيين مصيره، حددت أو نفت بالتالي فعلها في تجديد الحياة وتوجيهها وتحويل مجراها. فالابداع والتجديد وتغيير الأوضاع وتطويرها إنما جاءت على أيدي الأفراد أو الفئات التي أقدمت وغامرت، وآمنت ان بإمكانها أن تختار بين هذا وذاك وأن لها قدرتها وفعلها وأثرها، ومضت تنفذ الاختيار وتحقق القدرة وثبت الفعل والأثر. ولا شك في أنها اصطدمت أحياناً بالحدود وانساقت إلى المزالق وتعرضت للشرور، ولا شك في أنها جرّت معها سواها من أبناء المجتمع لهذا كله أو لبعضه، ولكن هذه الأخطار هي ـ على ما يبدو ـ الثمن الذي تدفعه الإنسانية من حين إلى حين في سبيل التقدم والنمو. ولسنا نعني بهذا ان كل إقدام يؤدي إلى تقدم، وان كل مغامرة تنطوي ضرورة على ابداع، وإنما الذي نعنيه من الابداع والتقدم لا يحصلان بالاستكانة إلى الواقع، والاستسلام إلى القوى التي تحتمه، بل يتضمنان الايمان بالاختيار والحرية والقدرة الإنسانية، والاقدام بفعل هذا الإيمان. أجل! ليس الاختيار والحرية مطلقين، وليست القدرة الإنسانية غير محدودة. ولذا كان فضل هذه الفئة المستسلمة التي نصف أن موقفها يذكر الأفراد والجماعات بقيود المحيط الطبيعي والمؤسسات الاجتماعية وحدود الطبيعة البشرية ذاتها، فلا يتملكهم الغرور ولا يتحكم بهم الخيال، ولا يعتقدون خطأ ان بيدهم القدرة الشاملة، أو أن الحياة تخضع لرغائبهم كل الخضوع. ولكن التذكير بالقيود والحدود شيء، والوقوف عندها والاستسلام لها شيء آخر. ومن هنا كان، على العموم، عجز هذه الفئة عن الاسهام الخصب في النتاج الحضاري وفي التقدم الإنساني.

وثمة فئة ثالثة. إنها تؤمن بالاختيار وتسعى وتجهد لتتحكم بمجرى التاريخ، ولكنها تبذل هذا السعي لايقاف المجرى أو إعادته إلى الوراء. أولئك هم الرجعيون. وهم أيضاً على أنواع. فمنهم من ارتضى بما ينعم به من خيرات ومن نفوذ بارز أو مصلحة قائمة، فهو يخشى أي تبدل أو تغير إذ يرى فيه خطراً على نعمه وخيراته وخسراناً لنفوذه ومصالحه. إن موقف هؤلاء إزاء الحركات الاصلاحية أو النهضات التحررية ظاهر بيّن من خلال التاريخ، كما ان من الظاهر البيّن أيضاً أنهم إن استطاعوا أن يحتفظوا بمكانتهم ويحموا مصالحهم زمناً فإنهم لا يستطيعونه أبداً، وانهم ان تمكنوا من الوقوف في وجه التاريخ المتبدل والحياة المتطورة فلحين محدود وأمد محصور. وقد ضاق هذا الأمد في الأحقاب الأخيرة بعد أن تنبه الأفراد والجماعات والشعوب إلى حقوقهم، وبعد أن انتشر الوعي والتحفز إلى الانطلاق والتحرر

والتجدد، وبعد أن قويت الثورة على كل من يقف حجر عثرة في الطريق أو من يسعى إلى صد المجرى المتدفّق.

ومن هذه الفئة الثالثة أولئك الذين يسعون، عن عقيدة وايمان، لا إلى ايقاف مجرى التاريخ فحسب، بل إلى إعادته القهقرى. لقد سطت على شعورهم وعقولهم صورة عصر ذهبي ماضٍ، واعتبروا أن كل ما جاء بعده تدهور وانحطاط، وان شر الحياة الحاضرة وفسادها إنما هما في تحولها عن صور ذلك العصر وابتعادها عنه. قد يكون هذا العصر عند البعض، كما كان عند الفيلسوف الفرنسي روسو، حياة الطبيعة البدائية «الحرة»، أو قد يكون عصر بركلس الذهبي في آثينا، أو عصر الخلفاء الراشدين في المدينة، أو عهد رسل الكنيسة وآبائها، أو عصر النهضة في أوروبا، أو غير هذا وذاك من عهود التاريخ القومي أو التاريخ الإنساني الزاهية الألوان الخصبة الإنتاج. ويهون الأمر، بل يصبح مفيداً جداً، لو أن هؤلاء المتلفتين ركزوا اهتمامهم على الحيوية الفاعلة في تلك العهود وعلى الدوافع الخلقية والعقلية والروحية التي أدت إلى الإنتاج والابداع فيها. ولكنهم في أغلب الأحيان يطمحون إلى أن يستعيدوا، مع الروح الباعثة، الأشكال التي اتخذتها الحياة في تلك العهود، والنظم الاجتماعية التي كانت سائدة فيها، والأحكام والقوانين والتقاليد والأساليب التي تمثلت بها. وهم يجهلون أو يتجاهلون أن هذه كلها مرتبطة بدرجة التطور العقلي التي بلغتها المجتمعات في تلك الآونة، وانها خاضعة لسنن التبدل والتحول، وأنه لا يمكن استعادتها كما كانت، وان كل جهد من هذا القبيل جهد فاشل عقيم.

إن الاختيار الذي تتخذه هذه الفئة اختيار خاطىء، واعتزامها إعادة الماضي بصوره وأشكاله يرهق الحياة ويناقض طبيعتها، وقد أظهرت التجربة الإنسانية جدبه واستحالة تحقيقه. وقد أظهرت هذه التجربة أيضاً ان الابداع التاريخي لا يأتي عن الخضوع المطلق للتاريخ، بل يتطلب نوعاً من التحرر يتيح للمرء أن يرتفع فوق التاريخ وأن يحكم فيه فيميز بين الأصيل الباقي من تراثه والطارىء المتغير من أحواله وصوره وأشكاله. إن العمل التاريخي، الذي فيه صنع للحياة الجديدة، يتضمن ادراكاً لحدود التاريخ وقيوده، كما يتضمن اختياراً للانعتاق منها وعزماً على تخطيها.

وهناك فئة رابعة يناقض موقفها هذا الموقف الذي وصفنا مناقضة تامة. فهي تعيش بكل جوارحها وأفكارها في المستقبل الآتي، لا في الماضي المنقضي. تستهويها صورة عصر ذهبي مقبل، لا عصر ذهبي فائت. إنها ثائرة على الماضي ثورة شاملة جارفة. وإذا كانت الفئة السابقة تمثل «التاريخية» المطلقة، فإن هذه الفئة تمثل «المستقبلية» المطلقة. إنهما تتشابهان في روحيتهما وحدّة شعورهما وعنادهما. كل منهما مؤمنة بغايتها، وبسبيل الخلاص الذي اختارته. كل منهما مجاهدة في سبيلها.

على أن السبيلين متناقضان متعاكسان، ولا إمكان للاتفاق الجوهري بين الفريقين، لأن موقف كل منهما منافٍ لأي تقارب أو اتفاق.

لقد كانت هذه الفئة «المستقبلية» في طليعة الحركات الثورية في التاريخ ـ الثورات السياسية والاجتماعية والفكرية ـ وكان دأبها القضاء التام على الماضي وتقويض أركانه ودعائمه في سبيل بناء حياة جديدة. ولئن قامت بدورها الذي تتطلبه سنة الحياة المتوثبة المتجددة ـ دور تقويض الأوضاع والنظم القديمة ـ فكثيراً ما أحدثت ردة استعاد بها الماضي نفوذه بشكل جديد ونحو مغاير. ذلك أنه لا يمكن أن ينقض التاريخ نقضاً تاماً، ولا بد لقواه المتراكمة من أن تعود فتحدث فعلها مهما اشتدت ثورتنا عليها وانكارنا لها. فالحياة تعاقب بين الثبات والتغير، بين الاستقرار والثورة: كل ثورة فيها تؤدي إلى استقرار جديد، كما ان كل استقرار لا بدّ من أن يحمل في طياته بذور ثورة مقبلة.

إن عمل هذه الفئة عمل تاريخي وإبداع تاريخي من بعض وجوهه. فهي مؤمنة بالاختيار، حاسمة في اتجاهها، متطلعة إلى الأمام، ضائقة ذرعاً بالقيود والحدود، محاولة الانفلات منها وتخطيها. ولكنها تنكر صفة أساسية من صفات الإنسان، وهي تاريخيته، وتناقض سنة من سنن الحياة، سنة التماسك والترابط والتراكم. ولذا تقصر عن الصنع التاريخي المكتمل والابداع التاريخي الناضج. ولئن كانت تقترب من هذا وذاك أكثر مما تقترب الفئات الثلاث الأخرى، بما تمهد لهما من سبل وتخدم من أغراض، فهي تقف دون تحقيقهما تحقيقاً تاماً وتعجز عن الارتفاع إلى مراتبهما السامية.

* * *

فما هو اذن الصنع التاريخي الصحيح، الذي جعلناه محور حديثنا في هذا الفصل، ومن هم الأفراد أو الفئات المؤهلون له القادرون عليه؟

لقد اهتممنا في الفصول السابقة بـ «التأريخ»، بأوسع معاني هذا الجهد العقلي وأشملها، فحللنا أهدافه ووسائله: صناعة وتفكيراً وثقافة، وبيّنا ثماره. ولكنا لاحظنا، في مطلع هذا الفصل، ان الإنسان ليس كائناً مفكراً فحسب، بل هو كائن عامل كذلك. بل نقول إن الحياة هي تفاعل دائم بين الفكر والعمل، يبعث أحدهما الآخر ويسنده ويقويه، وكلما كان الفكر رشيداً نيراً حكيماً والثقافة غنية خصبة كان العمل أشد إحكاماً وأوفى عائدة، وبالعكس ان العمل المحكم المنتج يساعد على اختبار الفكر ونقده وضبطه. وهكذا إذا صفا الفكر وضبط العمل رقي كل منهما بفعل الآخر، ورقيت بهما الشخصية الإنسانية: الفردية والاجتماعية.

ولـما كنا قد بحثنا في العناية التأريخية وحاولنا أن نصف كيف يكتسب الإنسان التفكير التأريخي الراجح النير، فقد وجب علينا أن نكمل هذا البحث بالنظر إلى الإنسان العامل المنشيء الحياة الصانع التاريخ ونرى أية علاقة تقوم بين العمل التاريخي، والجهد الفكري التأريخي.

إننا نعني بالعمل التاريخي ـ أول ما نعني ـ العمل الذي له أثره البيّن في مجرى التاريخ. والواقع ان هذا المجرى يتكون من جميع الأعمال الإنسانية على اختلاف مداها وقدرها وخطرها. فسيرة الفرد هي خلاصة أعماله المتتابعة، وسيرة الجماعة أو الأمة نتيجة الجهود التي بذلها أعضاؤها: أفراداً ومجتمعين، وسيرة الإنسانية عامة هي المجرى الذي تجتمع فيه هذه السير الفردية والجماعية والقومية. ولكن من المعروف أن بعض هذه الموارد أكثر فعلاً وأبهى لوناً من سواها وان بعض الجهود والأعمال أقوى أثراً وأبعد مدى وأبقى ذكراً. ولذا بدأنا تعريف العمل التاريخي بقولنا إنه ذلك العمل الذي يخلف أثراً بيّناً في مجرى التاريخ.

ولكن قوة الأثر ليست بذاتها الصفة المثلى أو الغاية المرجوة. فلكم من فاتح قاد جحافله إلى المدن الآمنة وسلط عليها غضبه أو أطماع أتباعه، فعاث فيها فساداً وأعمل في سكانها تقتيلاً وتشريداً، وفي معالمها وحضارتها تهديماً وتبديداً. فكان له حقاً أثره القوي، ولكنه أثر سلبي لا ايجابي وفعل في تفكيك الحياة ونقضها بدلاً من أن يكون في إنشائها وإبداعها. وكم من طاغٍ مستبد استطاع أن يتحكم بشعبه زمناً وان يسلبهم نشاطهم ويشلّ حيويتهم ويمنعهم من الاكتساب الحضاري أو من الخلق والإنتاج. وكم من هبّة جماعية هزت ما حولها واجتاحت كل ما في طريقها دون تمييز بين النفيس والتافه، والعظيم والحقير، والنافع والضار، فأضاعت الكثير من مكاسب المدنية ومفاخر الحضارة.

إن لبعض قوى الطبيعة أيضاً فعلها القوي: فالبراكين تلقي بحممها على ما حولها فتحرق وتهدم وتميت، والهزات الأرضية تقوض العمران وتبتلع الحياة، والعواصف الهوجاء تذهب في أيام أو ساعات بجهود سنين أو أجيال. والفيضانات والأوبئة وأمثالها من «غضبات» الطبيعة أبادت في الماضي الملايين من بني الإنسان وأضاعت نتائج جهودهم، وما زال لها فعلها الساطي وخطرها القائم في بعض أصقاع الدنيا.

أجل! إن قوة الأثر في الأعمال الإنسانية ـ شأنها في الظواهر الطبيعية ـ ليست الصفة المبتغاة. وإنما ما يبتغى هو ان يكون الفعل موجهاً إلى الإنشاء لا إلى الهدم، إلى بعث الجهد لا إلى تبديده، إلى صنع الحياة لا إلى نقضها. ما يبتغى هو أن يكون في العمل تحقيق ايجابي، وارتقاء في مراتب الكيان، وكسب وإبداع. فالعمل

التاريخي المقصود هو العمل المبدع. والابداع، لا شك، على مراتب ودرجات، والأعمال التاريخية تختلف في ما تحققه منها، ولكنها لا تدخل في صلب التاريخ الباقي ولا في نسيج الحضارة إذا لم تتميز بنوع من الابداع وصفة من صفاته.

فكيف يحصل العمل التاريخي المبدع، وما هي متطلباته، وما هي مؤهلات الفرد أو الجماعة التي تقوم به؟؟

* * *

أول متطلبات العمل التاريخي المبدع **صحة الاحساس بالحاضر وحدّة** هذا الاحساس. فلقد ذكرنا في بدء هذا الفصل ان الإنسان الحي الفاعل هو الذي يشعر بما يعترضه من مشكلات، والذي تثير هذه المشكلات في نفسه قلقاً ونزوعاً واهتماماً. وكلما ارتفعت مرتبة هذا الشعور، عظمت مؤهلات الإنسان للعمل الجليل المبدع. وتتوقف مرتبة هذا الشعور وقيمته على الصفتين اللتين ذكرناهما: صحته، وحدّته. فالمشكلات التي تجابه الإنسان، وأمته، والإنسانية جمعاء، على أنواع: منها الأصيل والدخيل، والخطير والتافه، والعام والخاص، والباقي والزائل، وما إلى ذلك من أنواع وأجناس. والاحساس الصحيح بها هو الذي يحسن التمييز بينها، ويرتبها مراتب ودرجات بحسب أولويتها وقيمتها وأثرها، كي لا يضيع الجهد في معالجة الطفيف الضئيل دون العميق الأصيل، وكي تأتي هذه المعالجة محكمة حاسمة. ولكم تبذل الجهود في الوجوه الخاطئة أو الناقصة، فتتبدد الآمال، بل تنقلب يأساً وانتكاساً. ولذا كانت قيمة العمل التاريخي المبدع متوقفة على قدرة صاحبه على هذا التمييز المطلوب، وعلى وضع المشكلات التي تجابهه وتجابه مجتمعه في مواضعها الصحيحة، وتبين أنواع الاختيارات التي ترتسم أمامها في المدى القريب والمدى البعيد.

وقد يكون هذا الاحساس صحيحاً دون أن يبلغ الدرجة المطلوبة من الحدة والدقة، كما هي الحال عند فريق من المفكرين المتجردين الذين يحسن رأيهم ولكنه لا ينفذ إلى أعماق نفوسهم ولا يثير فيها القلق الملح والتوتر العنيف. أما العمل التاريخي المبدع فيتطلب من صاحبه ان يحيا حاضره حياة قوية عميقة، فتخفق نفسه بما يضطرب به مجتمعه وجيله من آمال وآلام، ومن أفراح ومآسٍ، وينبض قلبه بما يحققانه من كسب وانتصار وبما يصيبهما من اخفاق وانهزام. فهو أبداً ابن الحاضر يستقي من منابعه، ويكتوي بناره، ويحسه في كل جارحة من جوارحه وفي كل خلجة من خلجات ذاته. إنه أمين للحياة التي يحياها، فلا يهجرها ولا يتهرب منها إلى عالم خيالي ماضٍ أو مقبل، بل يشعر بارتباطه الوثيق بها وتعلق مصيره بمصيرها،

ويدرك بالتالي مسؤوليته إزاءها.

وبمجرد قولنا إن الإنسان الفاعل المبدع يدرك الاختيارات التي تتجلى أمامه وأمام مجتمعه فقد ألمحنا إلى صفة ثانية من صفاته: هي **تطلعه إلى المستقبل وإقدامه عليه**. إن المبدعين في التاريخ كانوا أبداً متطلعين إلى الأمام، كانوا روّاداً مقدمين مغامرين. لقد تبينوا مثُلاً جديدة فطمحوا إلى بلوغها وتمخضت نفوسهم بآمال ضخمة فنهضوا لتحقيقها. إنهم المكافحون المناضلون الذين قادوا مجتمعاتهم في ميادين الحرية ومعارك الدفاع عن المبدأ والعقيدة. إنهم الروّاد الذين جابوا البراري وقطعوا البحار وتجشموا الأخطار ملبين نداء المجهول مستكشفين عوالم جديدة. إنهم العلماء المدفوعون بقوة خفية إلى الغوص على حقائق الكون واستكناه أسرار الوجود. إنهم الشعراء يحدوهم التوق إلى مواطن الجمال والتشوف إلى اقتناص بدائع الصور. إنهم المصلحون تجذبهم مثل الخير الرفيعة فينهضون بمجتمعهم إليها. إنهم الأنبياء يبعثون الحياة بعثاً جديداً ويهدونها سبل الكرامة والخلاص. إن هؤلاء جميعاً ــ وسواهم من المبدعين ــ لم يكونوا من الحيارى المترددين، ولم يغرقوا كل الغرق في ماضيهم وحاضرهم، بل توجهوا قدماً بعزم وثبات نظر، مؤمنين مغامرين، يشعرون بقوة خفية تدفعهم لمنازلة القدر وصنع التاريخ.

على أن العمل التاريخي المبدع المنبثق من أحاسيس الحاضر ومن رؤى المستقبل **يظل ذا صلة بالماضي**، وصلته هذه صلة ادراك، وحكم، واستلهام، وتسام. فهو يقوم على رغبة صادقة ملحة في معرفة هذا الماضي كما وقع فعلاً، ولا يرضى بالتوهم والتخيل والتصور بدلاً عن الادراك الصحيح وعن كشف الحقيقة. والمؤهل لهذا العمل التاريخي شغوف بالحقيقة متطلع إليها لأنه لا يريد أن يخدع نفسه أو أن يخدع سواه، ولأن له من صلابة عقيدته ومتانة ايمانه ما ينفي من نفسه كل خوف من مجابهتها، ولأنه يعلم ان خداع النفس لا يجدي، آخر الأمر، ولا يفيد بل يؤدي حتماً إلى الخيبة والخسران.

إن من طبيعة هذا الادراك اذن أن يؤدي إلى الحكم في الماضي: في ما له وفي ما عليه. إنه يميز بين عناصر الماضي الايجابية وعناصره السلبية: بين المغانم الحقيقية التي غنمها والحدود التي وقف عندها، بين ما استطاعه وما عجز عنه، بين الأصيل الباقي من تراثه والأشكال الطارئة لهذا التراث الخاضعة لسنن التبدل والتطور، بين العوامل التي دفعت به إلى الإنتاج والرقي والتقدم وتلك التي أضعفت حيويته وأوقفته في مسيره وأخرته عن قيادة الركب بل عن مماشاته، بين القوى والدوافع التي أدت إلى النمو والتكامل والنضج وتلك التي جرّت إلى الشلل والتفرق والانحلال. وبكلمة موجزة ان هذا الادراك، والحكم الناتج عنه، يبيّنان حقيقة «التراث»: (التراث

القومي، والتراث الإنساني)، فيشدّان صاحبهما إلى جوهره ويؤصّلانه فيه، ويحررانه، من جهة ثانية، من أشكال الماضي العابرة، ويغذيان في نفسه الثورة على كل ما خلفه من قيود وحدود ومن عناصر تعيق عن التغلب على مشكلات الحاضر وتحقيق رؤى المستقبل.

فالذي يقوم بالعمل التاريخي هو اذن، كما قلنا في فصل سابق، متأصل ومتحرر بالوقت ذاته. إنه متركز في التراث الايجابي والكسب الحضاري مستلهم إياهما في ما يفكر فيه ويعده ويقدم عليه، وهو أيضاً ثائر على عوامل الضعف والتأخر والانحلال في الماضي، طامح إلى تخطي هذا الماضي والتسامي عليه. إنه أمين لماضيه: أمين في تمسكه بتراثه الأصيل، وأمين كذلك في ثورته على ما في ذلك الماضي من قيود ونقائص. وذلك لأن التراث الأصيل هو، عند التحقيق، من صنع أولئك المبدعين الذين كانوا في زمانهم متطلعين إلى الأمام، ثائرين على القيود والحدود، طامحين إلى تخطيها، عازمين على أن يجعلوا مستقبلهم خيراً من ماضيهم وأجلّ وأجمل.

ويتجلى من هذا أن العمل التاريخي المبدع هو النتاج الصحيح للماضي، لأنه متصل بلب الماضي وجوهره: وما هذا اللب والجوهر سوى التراث الايجابي، القومي أو الإنساني، المتكون من خلاصة الأعمال التاريخية المبدعة في ماضي الأمة، أو ماضي الإنسانية جمعاء. وصانع التاريخ، الطامح إلى إبداع الحياة الجديدة بتخطي الماضي، هو في الواقع الابن الحقيقي لذلك الماضي، لأنه وارث أصالته ووارث كذلك ما تجلى فيه من ثورة وتخطّ وتسام وإبداع.

ولنؤكد هنا ما ألمعنا إليه قبلاً من ان الإنسان الحي الفاعل، صانع التاريخ، ليس «مستقبلياً» مطلقاً سابحاً في الرؤى والأحلام، ولا «حاضرياً» مطلقاً غارقاً كل الغرق في ما حوله من مشكلات، ولا «تاريخياً» مطلقاً يحن إلى الماضي ويبغي أن يرجعه كما كان. وإنما هو يعيش في توتر دائم بين الحاضر والمستقبل والماضي، تتفاعل ذاته وإياها جميعاً بإدراك متزن صحيح، وبشعور دقيق نافذ، فيكون من أثر هذا التفاعل العمل التاريخي المبدع، الأمين للماضي، المتسامي عليه، المتغلب على الحاضر، المخطط للمستقبل، الداخل في صلب الحضارة، المسهم فيها، المتشوق إلى من يأتي بعده ويتخطاه في مجالات الصنع والابداع والاسهام الحضاري.

ومن الطبيعي ان صانع التاريخ هذا لا يستطيع تحقيق كيانه وبلوغ هذه المرتبة التي نصف إذا لم يشعر **بقدرته على الاختيار** وإذا لم يكن **مستعداً لتنفيذ اختياراته**. فالذي لا يرى السبل المختلفة المرتسمة أمامه، ولا يثير هذا الاختلاف قلقاً في نفسه، ولا يحس ان عليه أن يختار بينها، وان يعتزم ويقرر، وأنه قادر على هذا ومسؤول في

نهاية الأمر عنه ـ الذي لا يتصف بهذه الصفات أو ليس مؤهلاً لها يقصر عن الارتفاع إلى مرتبة العمل التاريخي ويظل تابعاً يجر قدميه في مؤخرة الركب ولا يتوصل إلى مقدمته. وشعور المرء بحريته الذاتية كإنسان ـ بأنه مخير لا مسير ـ شرط أساسي من شروط اقدامه وابداعه وتأثيره في مجرى الحياة. ومن هنا تتبين خطورة تنمية هذا الشعور في أفراد المجتمع، إذ هو، من ناحية، عنصر رئيسي من عناصر إنسانيتهم وكرامتهم الذاتية، ومن ناحية أخرى ضرورة لبروز قابلياتهم كمفكرين عاملين مبدعين. فأذا أقفل صانع التاريخ هذه الأبواب على أبناء مجتمعه، ومنعهم من اكتساب شعورهم بالحرية والاختيار والقدرة وأرادهم تابعين مقلدين وأدوات تنفذ ولا تختار، فقد سد أمامهم سبل الابداع وانضب منابعه فيهم، وحال دون قيامهم بالأعمال التاريخية الباقية الأثر الدافعة إلى استمرار الكسب وتنمية نتاجه. ولا شك في أن قيمة أي مجتمع وقدرته على المحافظة على كيانه والسمو بهذا الكيان ـ إن هذا كله يتوقف على مقدار ما يضم من أفراد قد حققوا إنسانيتهم بحسن ادراكهم لمعاني الحرية والاختيار والاعتزام واتخاذ المواقف والقرارات، وصحة تطبيقهم لهذه المعاني في ما يقدمون عليه من تفكير وتخطيط وعمل وتنفيذ.

وصانع التاريخ، الشاعر باختياره وقدرته، العامل على تنمية هذا الاختيار والقدرة في سواه، **شاعر أيضاً بحدوده.** ذلك أنه ليس ثمة قدرة إنسانية مطلقة. ففي الوقت الذي يشعر فيه الفرد ـ مهما عظمت صفاته وجلّ عمله ـ بأنه أصبح على كل شيء قدير، فقد بدأ يسير في طريق الشطط والزلل وبدأ ابداعه ينقلب مضرة وخطراً. وفي الوقت الذي تأخذ أية جماعة أو أمة ـ مهما تعلُ منزلتها ـ في تأليه ذاتها، فقد انحرفت عن جادة الصواب، وأصبح أثرها يتجه إلى الشر والفساد بدلاً من أن يكون عامل نمو ورقي ورشاد.

وحدود الإنسان ناشئة عن ضعف طبيعته، وعن نقائص ذاته. فإنه يأتي إلى هذا الوجود عبداً لشهواته وميوله ورغائبه وتظل هذه تفعل فيه طول حياته. وسبيل تحرره منها وتحويله إيّاها إلى مقاصد الخير والفضيلة سبيل طويل شاق يقتضي التعلم المستمر والتثقف الدائم والسهر ومراقبة النفس أشد مراقبة ومحاسبتها أقسى محاسبة. ولذا يفرض على الإنسان أن يكون في صراع داخلي لا يهن ولا يهدأ، فإذا زاغ بصره أو فترت همته عادت الشهوات والأطماع فتملكته وتنكبت به عن سبل الحق والخير. ولعل هذا الاضطراب الذي نعيش في خضمه في هذا العصر الحاضر مرده إلى اعتداد الإنسان الحديث بنفسه، الذي تملكه منذ عصر النهضة، وإلى مغالاته في الثقة بقدرته وجبروته، واغتراره بما حقق من فتوح في حقل الاكتشاف والاختراع، وتغاضيه عن حدوده ونقائصه، حتى أخذت هذه النقائص تفرض ذاتها عليه وعلى المدنية التي

شادها فتشيع في دنياه الاضطراب والارتباك وتعرض مدنيته لخطر التفكك والانحلال. فحريّ بمن يقدم على العمل الجليل أن يجمع إلى الإيمان بحريته واختياره وقدرته التنبهَ اليقظ إلى ما يقيد هذا كله ويضعفه، كي لا يغفل عن مكافحة الضعف وعن التحرر ما أمكن من القيود، وكي لا يدعي لنفسه فوق ما هو خليق به وقادر عليه. وهنا أيضاً نلاحظ كيف ان هذا الإنسان الحي الفاعل يشعر بتوتر داخلي يظهر بمظهر آخر غير المظهرين اللذين ذكرناهما سابقاً (بين «المستقبلية» و«الحاضرية» و«التاريخية»، وبين الخير والشر المتأصلين في طبيعته)، ونعني به هذا التوتر بين الاحساس بالقدرة والاحساس بالحد، بين عزيمة المغامرة وادراك المدى الذي تنحصر فيه، بين الثقة الزاخرة بالنفس والتواضع الذي يمليه الاختبار، بين تملك الايمان وهيبة التبعة. ومن طبيعة هذا التوتر ــ عندما يكون صادقاً واعياً نيراً ــ ان يؤدي إلى اعلاء مرتبة الكيان الإنساني وتعزيز إنتاجه وتوفير ابداعه.

ومن هنا تتبين لنا الصفة الأخيرة من صفات صانع التاريخ التي نود الإشارة إليها في هذا المجال. لقد ذكرنا ان هذا الفريق من بني الإنسان قد أحسن ادراك التاريخ الماضي حتى استطاع أن يحكم له وعليه. ولكننا نراه، من جهة أخرى، شاعراً **بأنه هو ذاته خاضع لحكم التاريخ**. إن احساسه بالمشكلات الحاضرة وبضرورة حلها على ضوء رؤى المستقبل وبروح الأمانة للتراث الماضي، وشعوره باختياره وقدرته وبقيوده وحدوده ــ ان هذا كله يملأ نفسه روعاً وتهيباً. فإذا به يقدر جلال المهمة وثقل التبعة، وإذا به يرى ما لا يراه غيره من أن التاريخ حاكم قوي المراس لا يهن ولا يلين، وأنه يعدل ولا يرحم، وان الأجيال القادمة واقفة لنا جميعاً بالمرصاد وان الامتحان الذي سنجوزه سيكون شاقاً عسيراً.

إن صانع التاريخ الحقيقي يهمه ــ كأي إنسان ــ أن تسجل له الأجيال القادمة روائع العمل ومفاخر العز والابداع. ولكنه لا يرمي أولاً إلى هذا، بل إلى أن يرضي ضميره بأنه أحسن القيام بمهمته والنهوض بتبعته، وبأن عمله سيؤدي إلى خير الأجيال القادمة وسيسهم في تحقيق القيم الإنسانية وتعميمها. إنه قلق دوماً لأنه حريص على أن يكون عاملاً من عوامل دفع التاريخ لا من عوامل ايقاف عجلته وتأخير سيره. وفي هذا القلق ذاته الناشىء قبل كل شيء عن دقة احساسه بمسؤوليته، سر عظمته وجلال قدره.

وهنا أيضاً نعود إلى المبدأ الذي ذكرناه في ما مضى، وهو ان الحرية تكتسب أسمى معانيها وترتفع إلى أعلى مراتبها عندما تغدو إحساساً بالتبعة وشعوراً بالمسؤولية. ولعل أعظم الصفات التي ينتج عنها العمل التاريخي المبدع، والتي يرتفع بها الكيان الإنساني إلى ذروته، هي صفة الحرية التي هي في الوقت ذاته

مسؤولية، والتي يمارس بها المرء اختياره تحت وطأة الضمير الساهر اليقظ، الشائع أثره في الشخصية بكاملها.

* * *

ولا بد لنا قبل أن نختم القول في متطلبات العمل التاريخي المبدع وفي الصفات التي يتحلى بها صاحبه من ابداء ملاحظتين ايضاحاً لبعض المعاني التي حاولنا التعبير عنها. فلقد يتبادر إلى ذهن القارىء أننا نحصر «صنع التاريخ» بفريق خاص من المبرزين من بني البشر، فريق قادة السياسة والحرب الذين يحرزون الانتصارات الرائعة في هذه الميادين ويحدثون في الأرض دوياً تردده الأجيال التالية. وقد يظن أننا نرمي إلى تأليه هؤلاء الأفراد، أو إلى الدعوة إلى تمجيد هذا العمل دون سواه. ونحن لا ننكر للفاتحين وأرباب السيف وقادة السياسة أثرهم القوي وذكرهم المدوي، ولكننا ننكر أن يكون هذا الأثر في جميع الأحوال أثراً مبدعاً، وان تكون أعمالهم وفتوحاتهم قد أدت حتماً إلى الرقي والتقدم، فمنها الكثير الذي هدم المعالم وبدد المكاسب ونشر الدمار. ونؤكد أنهم لم يأتوا بإبداع إلا بقدر صحة الفكرة التي ناضلوا من أجلها وسمو العقيدة التي كافحوا تحت رايتها وبقدر أمانتهم للفكرة وخضوعهم للعقيدة وتلبية نفوسهم لصوت الضمير وإحساسها بنبل المسؤولية وخطرها.

كما أن صنع التاريخ لا يقتصر على هؤلاء. فثمة، كما ذكرنا، العلماء الذين يستهويهم المجهول ويقلقهم الجهل، فيندفعون للبحث عن الحقيقة ويجدّون ويكدحون لاكتشافها ونشرها بين الناس. وهناك الفلاسفة الذين يربطون أجزاء المعرفة بعضها ببعض ويتحرون المعاني ولا يفترون في سعيهم إلى جواهر الأشياء وعللها وإلى معرفة أسرار الكون وما وراء الكون، والشعراء وسواهم من أرباب الفنون الذين يتطلعون إلى مُثُل الجمال ويطمحون إلى رفع نفوسهم ونفوس سواهم من البشر إليها. وهناك أرباب الاختبار الروحي الذين يحاولون جهاد النفس واقتحام سيرها الشاق العسير في سبيل الرفعة والصفاء، والمصلحون الاجتماعيون العاملون في إقامة مجتمعاتهم على أسس المبادىء والعقائد، بل هناك كل رائد في ميادين العمل أو الفكر يؤدي جهده إلى نوع من أنواع الخلق والتجديد والإبداع.

إن سر العمل التاريخي ليس اذن في قوة الأثر ذاتها، بل في ما ينطوي عليه من إبداع. والإبداع ليس محصوراً بفئة من الناس دون سواها. وإنما نجده حيث يكون ارتقاء كياني واكتساب حضاري، وبقدر ما يؤدي إليه هذا الاكتساب والارتقاء من إشاعة معاني الكرامة الإنسانية ومؤهلات الابداع في أفراد المجتمع وتحقيقها فيهم وفي المجتمع عموماً.

أما الملاحظة الثانية التي نود إبداءها فهي ان العمل التاريخي المبدع ليس مقصوراً على الفرد، بل يكون أيضاً من نصيب الجماعة من الناس. وقلّ بين الأفراد المبدعين من لم يكن في إبداعه فرداً من جماعة: قد يكون هو رائدهم وقائدهم، وقد يفوقهم قدراً ومرتبة، ولكن إذا لم يكن له ممن حوله من يشاركه في ايمانه، ومن يحس بمشكلات الحاضر ويرى رؤى المستقبل مثلما يحس بها هو ويراها، ومن له مثله حظ من القابلية للتصميم والاختيار، فمن الصعب أن يكون لعمله القدر المرتجى والأثر المنشود. والأمة جماعة من الجماعات، وهي مؤهلة شأن سواها من الجماعات للأعمال التاريخية المبدعة. ولذا نرى الأمم تختلف فيما بينها بمقدار ما توفر لأنفسها من الأهلية والاستعداد، وتؤمن بهما، وتصرفهما في مجالات الإنتاج والابداع.

الأفراد، والجماعات المؤتلفة ــ كائنة ما كانت ــ هم الخمائر التي ينبعث منها العمل الإبداعي إلى محيطه وعالمه، والمنائر التي تشع منها الرؤى، والموارد التي تنطلق منها قوى الاختيار والتحقيق. فبقدر ما تكون الخمائر غنية والمنائر مضيئة والموارد زاخرة، يكون المجتمع الذي يضمها مجتمعاً فاعلاً، ناهضاً بالأعمال التاريخية الجليلة، ايجابي الأثر في إسهامه في الابداع وإغنائه للحضارة.

وثمة كلمة أخيرة. لقد ذكرنا في بدء هذا الفصل ان الإنسان كائن عامل مجابه للمشكلات متميز بالاختيار، وأن إنسانيته تقاس بمقدار ما يكتسب من هذه الصفات وبنوعها ومرتبتها، وان هذا القياس ذاته ينطبق على الجماعة والأمة. والذي نريد أن نثبته هنا هو أن بعض الظروف والأحوال التي يجوزها الأفراد والجماعات والأمم أدعى من سواها إلى تنمية هذه الصفات وابرازها. فهذه الأحوال تختلف يسراً وعسراً، وبساطة وتعقداً، وأمناً وخطراً. ولقد دلّ التاريخ على أن الأحوال المعقدة العسيرة الخطرة تنبه الناس إلى ما يجبههم من مشكلات وما يرتسم أمامهم من سبل الاختيار أكثر مما تفعل الأحوال الوادعة اليسيرة الآمنة. ومن هنا فضل الشدائد والأزمات التي تنزل بالأفراد أو بالأمم. إنها تسبغ على المشكلات حدة وبروزاً وتبعث فيها قوة ضغط وشدة إلحاح لا نشاهدها في ظروف اللين والاستقرار. ان الذي يختبر أزمة من الأزمات ويعيش تحت وطأتها يحس بالمشكلات ترتسم في ذهنه بارزة حافزة ملحة، ويرى السبل تتفرع وتشتبك أمامه فيشعر بقوة خفية صارخة تدفعه إلى الاختيار وإلى اتخاذ القرارات وتعيين المواقف، ويدق ادراكه لخطر هذا الاختيار وللمسؤولية المترتبة عليه. ويكون من فعل هذا كله أن يشتد التوتر الذي يصطرع في نفسه ويسمو ويخصب ــ التوتر بين متطلبات الحاضر ورؤى المستقبل وتراث الماضي، وبين

القدرة وحدودها، وبين الحرية والمسؤولية ــ فتنمو قابليته للعمل التاريخي الحاسم المبدع.

إن أيام الأزمات هي أيام العزم والتصميم. وبهذا تساعد على الأعمال التي توجه الحياة توجيهاً جديداً فيكون منها صنع للتاريخ. ولكن دون ذلك شرطين أساسيين: أولهما أن يشعر الفرد أو المجتمع بالأزمة وأن يصل فعلها إلى أعماقه. فلكم من شدائد تصيب الأفراد والجماعات، وكم من أزمات تحيق بهم، فلا يكون لها في نفوسهم صدى ولا تترك فيها أثراً. وكم من شعوب نزل بها الظلم، فلم تشعر بظلم، أو حلت بها المصائب فاستسلمت لها. وما ذلك إلا لأن حيويتها كانت مشلولة، وادراكها كان سادراً مخدراً، ومنابع قوتها ونشاطها كانت ناضبة. فما كانت خليقة بالأزمات التي مرت بها، ولا مؤهلة لفعلها الحافز المنبه. بل ان الأزمات لا توجد حقاً، ولا يصح أن ندعوها بهذا الاسم، إذا لم يكن أولئك الذين تصيبهم قد أحرزوا حظاً من التنبه والاحساس بالمشكلات والنقمة على الحال التي يرسفون بها. عندها تفعل الأزمة فعلها في تقوية الحس وزيادة حدته، وإثارة النفس على الأوضاع ودفعها للاختيار والتبديل وسلوك السبل الجديدة.

على أن الاختيار لا يكون ضرورة للخير، والتبديل لا يعني حتماً التطور والرقي والتقدم. وهنا يبرز الشرط الثاني. وهو أن يكون الفرد أو المجتمع مؤهلاً للتمييز بين الغايات والتفضيل بين الوسائل، بما اكتسب من علم، وما اختزن من خبرة، وما أدرك من القيم التي بها يستطيع التمييز والتفضيل. ولذا كان العمل التاريخي المبدع منوطاً بهذه القابليات كلها، وبما سبقها ونماها من جهد وسعي، ومن كد وجد في سبيل الادراك الصحيح والرقي الذاتي. وتأتي الأزمات فتفعل فعلها في تنمية هذه القابليات، وفي توجيهها إلى الصنع الصحيح.

فلكي يكون الفرد أو الشعب خليقاً بالأعمال التاريخية المبدعة التي تحفز عليها الأزمات وتوسع مجالاتها، يجب أن يكون مؤهلاً لهذه الأزمات وخليقاً بها. ولا يمكنه أن يصنع التاريخ أو يتحكم به ــ في أوقات الأزمات أو في سواها ــ قبل أن يحكم له التاريخ ويجده صالحاً جديراً.

نحنُ والتاريخ

١ ــ وضعنا الحاضر

لقد آن لنا أن نلم أطراف هذا البحث وأن نجمع خيوطه وأن نستخرج منه بعض ملاحظات واستنتاجات تفيدنا في تبين الموقف الذي يجب أن نقفه من تاريخنا بوجه خاص ومن التاريخ الإنساني بوجه عام. وقد أشرنا مراراً في ما مضى إلى أن الحياة الإنسانية تفاعل مستمر بين الحاضر والماضي والمستقبل، وأن الموقف الذي يتخذه الفرد أو المجتمع من تاريخه يرتكز إلى حد بعيد على القوى والمشكلات التي تجبهه في حاضره وعلى الغايات التي يرسمها لمستقبله. ولهذا، لا بد لنا من أن نصف بايجاز حاضر المجتمع العربي تمهيداً للبحث في النظرة التي له، أو بالأحرى النظرة التي يجب أن تكون له، لتاريخه وماضيه. ومن الطبيعي أننا لا نستطيع هنا أكثر من رسم الخطوط الكبرى لواقعنا، لأننا لا نقصد إلى هذا البحث بالذات وإنما نتوسله مقدمة وسبيلاً إلى غايتنا: وهي ايضاح علاقتنا بماضينا.

من الواضح البين أن المجتمع العربي اليوم هو في طور انبعاث وتحرك يتمخض بقوى عديدة شديدة تدفعه إلى التبدل والتحول. لقد انتهى الدور الطويل، الممتد على خمسة قرون أو تزيد، الذي كان فيه سادراً مخدراً مستكيناً بفعل عوامل مختلفة، داخلية وخارجية، تضافرت على احلاله تلك الحال من الشلل والاستكانة. وبدأ منذ أوائل هذا القرن ــ أو قبل ذلك بقليل ــ دور جديد: دور يقظة وتنبه وتحفز. وسرت قوى التنبه هادئة متفرقة في أول الأمر، ثم أخذت تشتد وتتفاعل وتتجمع، بفعل التطور ذاته وبفعل الأحداث العالمية العنيفة المتتابعة، إلى أن بلغت في يومنا هذا درجة من الشدة والحدة جعلتها تفرض ذاتها لا على الشعوب العربية فحسب، بل على أنظار الشعوب الأخرى وقادتها أيضاً.

إن هذه القوى، المنبعثة من مصادرها المختلفة، تلتقي في إثارة التبرم بالحاضر وبالماضي القريب وفي النقمة على العوامل والظروف الخارجية والداخلية التي أدت إليهما، وفي الرغبة في تبديلهما إلى ما هو أقوى وأفعل وأفضل. فثمة نقمة عارمة على التحكم الخارجي وعلى الاستعمار الأجنبي الذي تسلط زمناً طويلاً على أكثر أجزاء الوطن فبسط نفوذه فيها واستغل مواردها واستخدمها أداة لمصالحه ووسائل لغاياته. ولئن تكن البلاد العربية قد تحررت سياسياً، فلا تزال للاستعمار خططه وأطماعه وأساليبه المتعددة الوجوه والأشكال والمصادر. وكذلك مكّن الاستعمار للحركة الصهيونية العالمية الواسعة النفوذ المتفرعة الجذور من أن تستولي على جزء عزيز من الوطن، وأن تقيم فيه دولة طامعة معتدية، وما زال يمد هذه الدولة بوسائل الحياة وموارد القوة، في حين أن أبناء الوطن مشردون عن ديارهم أو راسفون في قيود الحكم الصهيوني والاحتلال العدواني. فلا بدع، في مثل هذه الحال، أن تثور النقمة على الاستعمار وعلى الصهيونية، وأن تجتاح أبناء الأمة الدعوة إلى التحرر منهما ومن آثارهما، وأن تلتهب الروح الثورية في الجماهير العربية، وألا يهدأ العرب ولا يستقروا حتى يستعيدوا حقوقهم في فلسطين وحتى يحققوا لأنفسهم أسباب المنعة والسيادة لصيانة كيانهم من شرور الاعتداء من أية جهة جاءت.

ويشعر العرب بأن سبباً هاماً من أسباب ضعفهم وسوء ماضيهم القريب وحاضرهم الذي يطمحون إلى تبديله إنما هو تفرقهم وتشتتهم وتبعثر قواهم وجهودهم. فليس من الغريب إذن أن ينزعوا نزوعاً شديداً إلى جمع الشمل وتعزيز الاتحاد في ما بينهم. وقد اتخذت جهودهم ومساعيهم في هذا السبيل مظاهر عدة، لم يكتب لها النجاح المنتظر. ولكن التيّار الذي تمثله سيفرض نفسه عاجلاً أو آجلاً. ومع أنه من الصعب تحديد الشكل الذي سيتخذه اتحاد الشعوب العربية في المستقبل، ومع أن هذا الاتجاه نحو الاتحاد يصطدم برواسب داخلية كثيفة موروثة من الماضي وبأغراض وعوائق خارجية، فإنه آخذ في التزايد والانتشار، وسيكون بلا جدال عاملاً من أهم عوامل تطوير المجتمع العربي في المستقبل القريب.

على أن عوامل الحياة ليست منفصلة متباعدة، وإنما هي متصلة متفاعلة، ولذلك فإن هذا النزوع إلى الاتحاد مرتبط أشد ارتباط بالتطور الداخلي في المجتمع العربي. إن التحرر السياسي والاتحاد دعوتان تحمل لواءهما فكرة القومية العربية وحركتها. ولكن التاريخ قد دلنا على أن الحركة القومية ـ أية حركة قومية كانت ـ لا تتحقق وتنجح إلا في مجتمع قد بلغ نوعاً معيناً من التطور والانسجام. وبعبارة موجزة مجملة يمكننا أن نقول ان القومية لم تقم في الغرب في مجتمع تسوده أوضاع القرون الوسطى، بل قامت على أنقاض هذه الأوضاع. ان القومية

تتعارض والثيوقراطية، وتتطلب ــ أول ما تتطلب ــ علمانية الدولة. ولم تتأصل جذور القوميات في العالم، ولن تتأصل جذور القومية العربية، إلا على هذا الأساس. وكذلك تتنافى القومية ــ أية قومية ــ والاقطاع الذي يحصر قسطاً هاماً من موارد المجتمع في أيدي فئات قليلة نافذة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. وفوق هذا تتطلب القومية تطوراً اقتصادياً مبنياً على الآلة وقائماً على جهود الطبقات الوسطى والعاملة، وتطوراً اجتماعياً ناشئاً عن انتشار العلم والمعرفة، وتحرير المواطنين من المرض والعوز، ومن النزعات القبلية والطائفية والمحلية، ومن الشهوات المصلحية والآفات الاجتماعية والعلل الخلقية.

ليس معنى هذا ان الحركة القومية تقف مشلولة اليد إلى أن تتحقق هذه الشروط كلها. فإنها هي ذاتها أداة فعالة في هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي والعقلي، تجعله، كما تجعل التحرر السياسي والاتحاد، غاية لها، بل تنظر إلى هذه الغايات الثلاث في ترابطها وتفاعلها، فترمي إلى إنشاء وطن متحرر متحد متحضر، وترى ان المعركة، على تعدد جبهاتها، معركة واحدة تؤثر كل جبهة منها في الأخرى، وأن الظفر منوط بنجاح كل منها وبنجاحها معاً.

وخلاصة القول اذن ان المجتمع العربي هو في دور تمخض وانبعاث وفي نزوع إلى تبديل الأوضاع، وأن هذا النزوع والانبعاث يتخذ الطابع القومي الذي يرمي إلى إنشاء أمة متحررة متحدة متحضرة. وينتج من هذا أن أصالة الحركة القومية العربية وصحتها وابداعها تتوقف على صحة فهمها لهذه الأغراض الثلاثة: التحرر، والاتحاد، والحضارة، وعلى المقاييس التي تقيسها بها، والسبل التي تتخذها لها، وعلى ما فيها من قابليات للنمو والتقدم والسمو، فكراً وعملاً، تخطيطاً وتنفيذاً، في هذه المجالات كلها.

* * *

ومما يتصف به الوضع العربي الحاضر النزوع إلى الثورية في الفكر والعمل. فالدعوة قوية ملحة إلى نقض الأوضاع القديمة، وإلى معالجة الأدواء والمشكلات معالجة حاسمة، وإلى اختصار الطرق والأساليب إلى الغايات المرجوة. فالناس قد ضاق ذرعهم بما هم عليه، وبما يحيط بهم من أخطار خارجية وما يشعرون به من تخلف داخلي، فكأنهم في سباق مع الزمن، وكأن القوى التي تستحثهم لا تسمح لهم بأي تمهل أو هوادة. إن الثورية التي تجتاح المجتمع العربي لا تقبل بإبقاء الأوضاع القائمة أو بمسايرتها، ولا بإصلاحها اصلاحاً متدرجاً متمهلاً، بل تدعو إلى «الانقلابية» في الفكر والعمل: إلى «الثورة» على هذه الأوضاع، وإلى اختيار الحلول

«الجذرية» والمعالجات «الحاسمة». وهذه الشعارات والدعوات وأمثالها إن دلت على شيء، فعلى ما تغلي به الصدور والنفوس من أحاسيس بالحاجات الملحة ومن اندفاعات لنهب المسافات وسبق الزمن. ولولا هذه الأحاسيس والاندفاعات لما قامت النظم الثورية في البلاد العربية ولما أنجزت ما أنجزته مهما يكن تقديرنا لإنجازاتها وآثارها. إن النقمة على الحاضر جعلتنا نشعر كأننا مضطرون إلى أن نحقق في سنوات ما حققه سوانا في أجيال، وأننا لا نستطيع أن نركن إلى التطور وان ليس لنا أمل ورجاء إلا بالحلول الجذرية السريعة مهما تتطلّب من جهود وتكلّف من تضحيات.

وهنا لا بدّ من القول ان وصفنا للاندفاع القومي وللنزوع الثوري اللذين يتمخض بهما المجتمع العربي ليس سوى وصف مجمل لا يفيهما حقهما ولا يستوعب جميع معانيهما ومتضمناتهما، لأن الحاضر ــ كما قلنا ــ ليس هو مقصودنا بالذات. ولا بد كذلك من القول ان قوة هاتين النزعتين وحدّتهما وحظهما من الأثر والانتشار ــ ان هذا كله يختلف باختلاف أوضاع البلاد العربية، بل باختلاف الطبقات الاجتماعية في البلد الواحد. فهما في بعض البلدان العربية أعنف منهما في غيرها. ولكن ليس من بلد عربي لم ينفذا إليه ولم يفعلا فيه فعلهما، حتى تلك البلاد التي تبدو ساكنة سادرة بعيدة عن مجاري التبدل والتحفز. وكذلك ان هاتين النزعتين هما أبرز ما يكون في الأجيال الصاعدة وفي الطبقات المتوثبة التائقة إلى تبديل الأوضاع، ولكن ليس من طبقة اجتماعية لا تحس بأثرهما وبالجو الذي تسبغانه على المجتمع العربي بكامله. ولا شك، على كل حال، في أنهما في مقدمة العوامل التي تكيف مستقبل هذا المجتمع وتنشىء حياته الجديدة.

ولا بد من القول أخيراً ان هذا التبدل الذي يحدث في المجتمع العربي والذي يتخذ أقوى مظهر له في الحركة القومية الثورية ــ إن هذا التبدل يجري في وسط عالم متبدل مضطرب تصطرع فيه شتى القوى والتيارات التي تجذبه ذات اليمين وذات اليسار. فالعرب ليسوا منفصلين عن العالم المحيط بهم، بل هم متصلون به أشد اتصال. ان التيارات العنيفة التي تضطرب بها الدول الكبرى، والحرب الباردة القائمة بين الجبهتين الضخمتين، والتطورات التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية التي تتدفق من المجتمعات المتقدمة في ميادين العلم والتطبيق ــ ان هذا كله، والكثير المتصل به أو الناتج عنه، له فعله النافذ وأثره البارز في التطورات التي يجيش بها المجتمع العربي. ولهذه التطورات أيضاً ما يماثلها في مجتمعات أخرى تشبه أوضاعها أوضاع هذا المجتمع. وعلى العموم، لا نكون مغالين أو بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا ان الثورية تجتاح اليوم العالم أجمع. فالعالم الشيوعي قائم على

فلسفة تعتبر الثورة سنة الحياة، والعالمان الغربي والشيوعي ـ السبّاقان المتسابقان في ميادين العلم والاختراع ـ يعيشان في خضم تكنولوجية ثورية تتوالى فيها الاكتشافات والاختراعات وتقفز بالإنسانية بجرأة وسرعة فائقتين إلى عصر الذرة والفضاء. وهي قفزة لا تعدلها أية قفزة أخرى في تاريخ الإنسانية العلمي، وتصغر إزاءها «الثورة الصناعية» في مستهل عصرنا الذي تعودنا أن ندعوه بـ «العصر الحديث» والذي يتقادم عهده يوماً بعد يوم. وكذلك تجتاح النزعات الثورية العالم الآسيوي الأفريقي حيث نرى مثل ما نرى في المجتمع العربي من تحفز لتبديل الأوضاع وإنشاء الحياة الجديدة بأسرع الطرق وأقصر الوسائل.

هذه صورة خاطفة لوضعنا الحاضر وللقوى والنزعات والتطورات التي يتمخض بها مجتمعنا ضمن المجتمع الإنساني الأوسع. ولا جدال في أن سلامة المستقبل العربي تتوقف على صحة اتجاهاته وأصالة مواقفه في خضم هذه التبدلات الجارفة التي تعصف في داخله من حوله. ولقد ذكرنا في مناسبة سابقة ان الأزمات التي تسطو على الأفراد والأمم تضخّم أثر قراراتهم وتضاعف نتائج أعمالهم. وكذلك شأن المجتمع حين يعيش في جو ثوري. بل نقول ان نزعتنا الثورية ناشئة عن الأزمة التي بدأنا نشعر اننا نعيش فيها، وما هي بالفعل سوى رد على تحدي هذه الأزمة. وينتج من هذا ان القرارات والمواقف التي نتخذها في هذه الأيام والأعمال التي نقبل عليها لها أثر في مستقبلنا أعظم وأشد مما يكون لأمثالها في أيام الدعة والاستقرار والتطور الوئيد.

ولما كان موقفنا من التاريخ ـ ومن تاريخنا بوجه خاص ـ هو أحد المواقف الأساسية التي تتجلى بها نظرتنا إلى الحياة ويبرز منها فعلنا. فقد وجب علينا أن نحرص على أن يكون هذا الموقف سليماً وأن يأتي أثره في معالجة الحاضر وبناء المستقبل ايجابياً مثمراً. فما هي الشروط التي يجب أن يحققها هذا الموقف، والصفات التي يجب أن يتصف بها، لكي يكون له هذا الفعل المبتغى والأثر المنشود؟

٢ ـ التاريخ العبء والتاريخ الحافز

للتاريخ أثران متناقضان. بل لنقل ان التاريخ تاريخان: التاريخ العبء، والتاريخ الحافز. فثمة تاريخ يثقل كاهل صاحبه ـ فرداً كان أو أمة ـ ويشل حيويته، ويضعف همته، ويجعل إنتاجه هزيلاً سقيماً. وثمة تاريخ آخر يحفز وينشط ويبعث، ويدفع إلى الابداع والتقدم. ولما كنا، أبناء الأمة العربية، كما ذكرنا، بأشد الحاجة إلى السير الحثيث والإنشاء المتصل والعمل المستديم لبلوغ الغايات التي نطمح إليها بشوق ملح ونزوع ثائر، فإن من الخير لنا ولمستقبلنا أن تكون أحمالنا خفيفة وأن ننزع عن كواهلنا ما يعيق ويؤخر، وأن نسعى إلى كل ما يضاعف همتنا ويبعث نشاطنا للقيام بالواجبات الضخمة المتتابعة التي تجبهنا. ان من الخير ان يكون تاريخنا حافزاً لنا، لا عبئاً علينا.

إن أثر التاريخ ـ أيّ تاريخ ـ ينتج عنه بالذات، وعن الموقف المتخذ منه. فتواريخ بعض الشعوب أزهى وأنفس وأبلغ روعة من سواها. وكذلك المواقف التي تتخذ منها تختلف صحة وفساداً، وقوة وضعفاً، وتحرراً وعبودية. ومن الواضح ان التاريخ ذاته هو هو لا يتغير، وأنه لا يمكن أحداً، مهما يسعَ أو مهما يعظم فعله، ان يبدله أو أن يعود فيفك خيوطه لينسجها من جديد. أما الموقف المتخذ منه فهو تابع لدرجة الاستعداد ونوع الأهلية وما ادخر الفرد والقوم من معرفة وخبرة وما اكتسبوه من صفات عقلية وخلقية. فلكم من تاريخ جليل حافل كان لأهله عامل استكانة وتأخر، وكم من تاريخ هزيل مظلم كان لأبنائه مثار نقمة ومبدأ انطلاق لأعمال باهرة مجيدة. ولذا فإن نوع الأثر الذي يكون لتاريخنا فينا متوقف، آخر الأمر، علينا. فكون الأثر ايجابياً أو سلبياً، أو نصيبه من هذه الصفة أو تلك، رهين بجدارتنا واستحقاقنا وصحة موقفنا. فكيف نأمن أن يكون التاريخ عبئاً ثقيلاً عائقاً، وكيف نجعله حافزاً ملهماً باعثاً؟

يكون تاريخنا عبئاً علينا إذا سحرنا وقبض على نفوسنا وشدّنا إلى أجوائه وعالمه وحصرنا ضمن حدوده. فمن الناس من يعيشون في ماضيهم الخاص وما يفتأون يذكرون ذلك الماضي ويحنون إليه ولا يجدون رضى وقناعة إلا فيه، فتراهم يرددون في مجالسهم أخبار الحوادث الماضية التي جرت لهم والأعمال الجليلة وغير الجليلة التي قاموا بها، وكأنهم أسرى ذلك الماضي لا يستطيعون الانفلات منه

٥٢٦/٤

أو الانصراف عنه إلى الاهتمام الجاد المنتج بمشكلات الحاضر. فلا غرابة إذا سئمهم الناس بعد حين، وضاقوا ذرعاً بهم، خصوصاً في هذه السنوات التي تثور فيها اهتمامات الحاضر وتبرز آمال المستقبل. ومن الأفراد والجماعات من يأسرهم ماضي مجتمعهم أو أمتهم، فلا يرتاحون إلا إليه، ولا ينفكون يستعيدونه ويتغنون به ويلتجئون إليه، عن وعي أو عن غير وعي، هرباً مما يحيط بهم من هموم وتحديات. وكذلك نجد الأمم تنجذب في بعض أدوار حياتها إلى ماضيها، فتبقى متلفتة إلى الوراء، قانعة بهذا التلفت، عاجزة عن أن تولي وجهها شطر الميادين المتفتحة أمامها والسبل التي ترتسم في أدوار حياتها المقبلة.

ولقد عاش المجتمع العربي قروناً طويلة ـ منذ حوالى القرن الخامس عشر للميلاد ـ على هذه الحال، سادراً مأسوراً مسحوراً. ولا يزال لهذا السحر، بالرغم من الثورية التي يتمخض بها مجتمعنا اليوم، فعله في فريق كبير من أفرادنا وجماعاتنا، ولا تزال النظرة التي ينظرون بها إلى الأمور، والأحكام التي يطلقونها عليها، والقيم التي يزنونها بها، هي نظرة القرون الخالية وأحكامها وقيمها، ولا تزال رسوبات هذا الماضي وبقاياه هي التي توجههم وتتحكم في تفكيرهم وعملهم.

ولقد ألمعنا في ما مضى إلى أن الفرد الحي المبدع هو الذي يحس بمشكلات حاضره وبآمال مستقبله إحساساً مدركاً دقيقاً. وكذلك شأن الأمة الحية المبدعة. وأشرنا أيضاً إلى أن الحيوية وقابلية الابداع تتمثلان بتبين الاختيارات التي تنفسح أمام الفرد أو الأمة وبمقدرتهما على التمييز بينهماواتخاذ القرارات بشأنها. فبقدر ما يكون سحر ماضينا متسلطاً علينا، حاصراً إيانا في نطاقه، مانعاً إيانا عن تبين الغايات والسبل المرتسمة أمامنا وعن الاختيار بينها بروية وادراك للمسؤولية ـ بهذا القدر تضعف حيويتنا وتخف قابلياتنا للابداع. وبهذا القدر يكون تاريخنا عبئاً علينا، لا حافزاً لنا.

* * *

ولا ينحصر فعل السحر الذي يتسلط به تاريخ أمة عليها في صرفها عن مهامّ حاضرها ومطامح مستقبلها، بل يتعدى ذلك إلى تضييق نظرتها إلى ذلك التاريخ بالذات وإلى إهمال الصلات التي تربطه بما قبله وتشده إلى ما عاصره وتوثق الصلة بينه وبين ما جاء بعده. فيبدو هذا التاريخ كأنه قائم بذاته مستقل منفصل عن سواه. والواقع ان تاريخ أي شعب من الشعوب مرتبط بتواريخ شعوب أخرى سبقته أو عاصرته أو خلفته. ولئن كانت الروابط البشرية قد قويت وانتشرت في هذا العصر الحديث باتساع وسائل الاتصال واختصار المسافات والأبعاد، فإنها لم تكن معدومة في

الماضي. وليس بين الشعوب التاريخية من لم تتصل حياته بحياة شعوب أخرى وتتفاعل وإياها، ومن لم يأخذْ ويعطِ بصور وأشكال تكون ظاهرة في أحيان، خفية في أحيان أخرى؟

ومن ناحية ثانية، إن الاختبارات التي تمر بها الشعوب تتشابه في أشياء وتختلف في أشياء. فهي في أساسها اختبارات إنسانية متماثلة، ولكنها تتفاوت وتتباين تبعاً لظروف الزمان والمكان ودرجة التطور العقلي والروحي ولذا لا يمكن أن تفهم هذه الاختبارات على حقيقتها إلا بمقارنتها ومقابلتها بسواها مما عاصرها أو سبقها أو تلاها. إذ بهذه المقارنة والمقابلة تظهر طبيعتها الإنسانية المشتركة من جهة، وميزاتها القومية الخاصة من جهة أخرى. وعلى هذا، فإن أي تاريخ قومي لا يدرك إدراكاً صحيحاً إلا إذا نظر إليه في الإطار العالمي العام، أي إذا فهمت صلاته بتواريخ الشعوب والحضارات الأخرى، وقورنت وقوبلت اختباراته واختباراتها، واعتبر مظهراً من مظاهر التاريخ الإنساني له جوهره العام المشترك، وفي الوقت ذاته، مميزاته وطوابعه الخاصة.

ويتضح من قولنا هذا اننا نخطىء عندما نبدأ دراسة التاريخ العربي بعرب الجاهلية في الجزيرة دون أن نفي الشعوب التي سبقتهم في هذا الشرق الأدنى حقها من الاهتمام، ودون أن نطلع الاطلاع الكافي على المدنيات التي قامت قبلهم أو عاصرتهم، كالمدنيات الساميّة المختلفة، ومدنيات الفرس والاغريق والرومان. فالصلات التي تربط الأجيال الأولى من العرب بهذه الشعوب والمدنيات أوفر وأقوى مما يبدو للوهلة الأولى. وكذلك يجدر بنا عند تتبع هذا التاريخ ألا نسهو عن الروابط التي تربطه في خلال مراحله المتتابعة بالشعوب القريبة والبعيدة، من غربية وشرقية، فنلحظ الظاهر الواضح من هذه الروابط ونسعى لاستكشاف الخفي المنبث منها. وكلما اتسعت نظرتنا، ووضعنا تاريخنا القومي ضمن اطاره العالمي، فلمسنا صلاته بما سبقه وما عاصره وما تلاه، واستطعنا أن نقارنه ونقابله بسواه ـ كلما وفقنا إلى ذلك، جاءت نظرتنا إليه أصح وأسلم، وفهمنا له أدق وأعمق، وفعله فينا أجلّ وأفضل.

إذ كيف يمكننا مثلاً أن نفهم الأدب العربي إذا لم نطلع على صلاته بالآداب التي تأثر بها أو أثر فيها، وإذا لم ندرك أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الآداب العالمية الأخرى؟ وما يقال عن الأدب يقال عن الفلسفة والفن، بل عن أي مظهر من مظاهر الحضارة. وليس معنى هذا، كما قد يعتقد البعض، انتقاص قدر التاريخ القومي والدعوة إلى الخروج عنه إلى سواه، بل بالعكس انه، كما قلنا، السبيل لمعرفة هذا

التاريخ معرفة صحيحة ولتبين خصائصه وميزاته على حقيقتها. وهكذا شأن أي شيء من الأشياء، فإن جوهره وطبيعته وصفاته لا تبين إلا على ضوء علاقاته بسواه من الأشياء ومشاركاته لها واختلافاته عنها.

نخلص من هذا إلى القول ان التاريخ القومي إذا سحرنا وحصرنا في نطاقه ومنعنا من أن نراه في إطاراته الواسعة، وميزاته العامة والخاصة، فقد أوشك أن يغدو، من هذه الوجهة أيضاً، عبئاً علينا بدلاً من أن يكون حافزاً لنا. ومهما يكن أثر هذا السحر محبباً إلى نفوسنا في بادىء الأمر، فإنه يصبح بتتابع الأيام وتطور الظروف عامل اعاقة وتأخر في حين يجب أن يكون مصدر بعث وتقدم.

* * *

الانجذاب إلى الماضي الذي يحوّل النظر والاهتمام عن الحاضر والمستقبل، والانحصار التام في دائرة معينة من الماضي ـ أثران من آثار هذا السحر التاريخي الذي تكلمنا عنه، نضيف إليهما أثراً ثالثاً، وهو الاكتفاء بالماضي وعدم الرغبة في تخطيه. ويظهر هذا الاكتفاء اما بصورة انفعالية أو بصورة فعلية. ونعني بالصورة الانفعالية استمرار الفرد أو الأمة، بفعل رسوبات الماضي وآثاره المتراكمة، في النظر إلى الحاضر والمستقبل بأفكار الماضي وسننه وأشكاله ودوافعه، دون التنبه إلى اختلاف الظروف وتبدل الأحوال. فكأن الفرد يعيش ظاهراً في جيل، وباطناً في جيل آخر: يأكل ويلبس ويتنقل ويعمل في عصر الكهرباء، ويفكر ويتصرف ويندفع إلى هنا وهناك بفعل قوى أجيال سابقة مختزنة فيه. أو يحدث أحياناً أن تكون حياته الداخلية موزعة منقسمة على ذاتها، فيفكر تفكيراً معاصراً ويعمل عملاً حديثاً في جوانب من شخصيته، ويخضع لدوافع الماضي السحيق واتجاهاته في جوانب أخرى. ولكم نرى بين المتعلمين وحملة الشهادات العليا، من يتقنون فناً من الفنون أو اختصاصاً من الاختصاصات الدقيقة، ولكنهم يتصرفون أحياناً تصرفاً لا ينسجم ومقتضيات العصر، بفعل رسوبات متراكمة في نفوسهم وبواعث عميقة في أفئدتهم لم يتحرروا منها، لأن الماضي قابض على نواصيهم، فهم راضون به مستكينون إليه، أو واجدون مصلحتهم في بقائه واستمراره. ألسنا نرى التعصب الطائفي مثلاً، المتحدر من الماضي، الموروث عنه، والذي لم يعد له أدنى مسوغ في عصر القوميات، بل في عصر الذرة والفضاء ـ ألسنا نرى هذا التعصب يصدر في أحيان كثيرة عن أولئك الذين يعيشون في جانب من حياتهم في هذا العصر، وفي جانب آخر في عصر زال وانقضى، فإذا هم أقدر من سواهم على إثارة رسوبات الماضي وتحريك دوافعه في نفوس الآخرين، وإذا هؤلاء وأولئك عبيد أسرى لهذه الدوافع والرسوبات، ولشهواتهم الخاصة، وإذا

الوطن يتحمل أوزار هذا الأسر والعبودية تفرقة واضطراباً، وخسراناً مادياً ومعنوياً، وتخلفاً عن ركب الإنتاج والحضارة؟

أما الصورة الفعلية لهذا الاكتفاء التاريخي الذي نتحدث عنه ـ وليس ثمة حدود فاصلة بين الانفعال والفعل في هذا الاتجاه العقلي والنفسي ـ فتتجلى عند أولئك الذين يرتضون الماضي وينعمون به إلى الحد الذي يحدوهم إلى محاولة اعادته كما كان وتطبيق نظمه وسننه ومفاهيمه في الحياة الحاضرة. وهي محاولة مخفقة حتماً، لأن العقل الإنساني في تطور مستمر، وأشكال الحياة ونظمها التي تبتدع في عصر ما وفي درجة معينة من درجات التطور لا تصلح للدرجات التالية، والسعي لفرضها فرضاً مصطنعاً لا بد من أن يظهر عجزه واستحالته إزاء قوى الحياة المندفعة. ولئن نجح آناً أو في حدود معينة، فإنه سينكفىء ويتراجع وسيضطر آخر الأمر إلى مجاراة سنن التطور. هذا ما دلت عليه اختبارات الأمم جميعاً وتواريخها المختلفة. وفي هذه المحاولة ما فيها من إضاعة للوقت وتبديد للجهود ـ خاصة في هذا العصر الذي تتسابق فيه الأمم وتتنافس إلى العمل والإنتاج أشد تنافس وتسابق.

حتى الأمجاد الماضية، بما تتضمنه من روعة وعظمة، لا يمكن أن تستعاد بالأشكال التي اتخذتها في العصور الغابرة، بل يجب أن تكتشف وتقتبس البواعث التي دفعت إليها. وعندما نفعل هذا نرى أن تلك الأمجاد لم تكن لتحدث لو أن أصحابها كانوا مقيدين عقلياً ونفسياً بحسّ الاكتفاء التاريخي، ولم تحصل فعلاً إلا عندما خرجوا عن دائرة هذا الاكتفاء وتخطوا الزمن بدلاً من أن يستعيدوه. والأمم الحية المبدعة هي التي ترى ان آفاق المجد لا تحد وان ذراه لا تنتهي، وأن بعد كل أفق ماضٍ آفاقاً جديدة، وفوق كل ذروة قد اقتحمت في السابق ذرى تعلوها وتستهوي جهود العاملين اليها. وهنا أيضاً يبدو هذان الإمكانان المختلفان للتاريخ: إمكانه عبئاً، وإمكانه حافزاً، ويظهر فعل سحر التاريخ، الدافع إلى الاكتفاء به، في تقوية الإمكان الأول واضعاف الثاني.

ولنا في التاريخ العربي أمثلة كثيرة على هذا الاكتفاء التاريخي ـ الانفعالي والفعلي ـ وعلى أثره العائق الضار عندما أخلد العرب لرواسب ماضيهم أو حاولوا استعادة أشكال حياتهم الموروثة. فقد ورثوا مثلاً عن الجاهلية القديمة عصبيات قبلية ومنازعات قيسية ويمنية، وهي عصبيات إن كان لها مكان في الحياة البدوية فقد أصبحت منافية لملك منظم وامبراطورية واسعة الأرجاء. فكان تمسك العرب بها، وحملهم إياها إلى بلادهم الجديدة من خراسان شرقاً إلى الأندلس غرباً، وعجزهم عن أن يصهروها في رابطة أوسع وأمتن ـ كان هذا كله عاملاً في اضعاف شأنهم وتفكك

حكمهم. كذلك ورثوا عن الجاهلية شعراً له مكانته في عالم الصحراء، ولكنه لم يكن يفي كل الوفاء بأغراض مدنية زاهرة، فكان اكتفاؤهم به وتعصبهم له واحتذاؤهم إياه احتذاء يكاد يكون أعمى سبباً في أنهم لم يرتفعوا فوقه ولم يكن لهم في تاريخ الأدب تلك المكانة التي كانت لهم في تاريخ العلم. ففي العلم نراهم في عهد نهضتهم قد ماشوا المدنية في مجراها الرئيسي، أما في الأدب فقد انفصلوا عن هذا المجرى فخفّ بذلك أثرهم الباقي. حتى في ميدان العلم ذاته ـ ونعني بالعلم التفكير المنتظم على اختلاف مظاهره وتعدد فروعه ـ نراهم عندما توقفوا عن الارتياد العقلي للآفاق المجهولة، وخضعوا لنير التقليد فاقتصروا على مآثر الماضي واكتفوا باختصارها وشرحها والتعليق عليها، قلّ إنتاجهم وبدأوا يتنحون عن القيادة، ويتخلفون عن قافلة البشرية المنطلقة. عندها كان تاريخهم ـ أو بالأحرى موقفهم الواعي أو غير الواعي من تاريخهم ـ عبئاً عليهم مثقلاً مؤخراً، لا حافزاً لهم للتحقيق المتزايد والارتقاء المتسامي.

* * *

هذه بعض آثار السحر التاريخي عندما يكون متسلطاً كل التسلط، آخذاً بتلابيب النفس. يضاف إلى هذه الآثار ـ وهي الانشغال عن الحاضر، والنظر الضيق إلى التاريخ ذاته، والاكتفاء به ومحاولة استرجاعه ـ بل يتخللها ويدعمها في أحيان كثيرة، أثر آخر نختتم به هذا القسم من البحث. وهو نزوع الفرد أو المجتمع إلى توهم تاريخه، أو تخيله، أو تصوره، بدلاً من السعي إلى ادراكه على حقيقته. والتوهم والتخيل والتصور أسهل وأيسر وأحب لأكثر النفوس من السعي الجاد الذي يتطلب جهداً ومشقة، والذي قد يؤدي إلى بعض الحقائق التي لا تستسيغها هذه النفوس. وكل ما نستطيع أن نقوله هنا هو اعتقادنا المكين ان كل جهد يتعامى عن الحقيقة سيصطدم بها آخر الأمر وسينحني أمامها، وكل بناء يشاد يكون ضعيفاً بمقدار بعده عنها وتنكره لها. ولما كان من ضمن واقع أي مجتمع وحقيقته واقع ماضيه، فلا خير في الانخداع عن هذا الواقع، وفي محاولة تخيله كما يخطر لنا أو كما نريده أن يكون. بل الخير كل الخير في السعي لإدراكه دون زيغ أو ضلال، ولاستجلاء جوهره وعناصره ومقوماته كما هي بالذات. ومن الخير كذلك تدريب نفوس أبناء الأمة على التشوق إلى الحقيقة والقدرة على مجابهتها وتحمل رؤيتها، بل على انشراح الصدر لها والاستمتاع بخيرها. وكلما ارتقت أمة ونضجت، كانت هذه الصفات في أفرادها وفيها كمجموع أبين وأبرز وكان فعلها البناء المنتج أقوى وأخصب.

ومن هنا تبدو خطورة الجهود التي بدأت تبذل عندنا لأخذ التاريخ بأساليب الصناعة الدقيقة: بالتفتيش عن المصادر وحفظها ونشرها واستنطاقها بروية واحكام قصد استكشاف حقيقة الماضي. فإن هذه الجهود حرية بكل رعاية وتعضيد، سواء من قبل الحكومات أو من قبل الجامعات أو المؤسسات أو الأفراد. ان العاملين في هذا الحقل لا يزالون قلة متفرقين، ولا يزال أثرهم ضئيلاً بالنسبة إلى ما يجب أن يكون. ونحن لا نتعامى عن حاجات الساعة، وعن ضرورة العناية بالنهضة التكنولوجية، وتدعيم أسباب العلم التطبيقي لإنشاء أجهزة بنائنا القومي. ولكن هذا كله يجب أن لا يصرفنا عن الاهتمام بالثقافة النظرية الإنسانية، وعن إعداد الأجيال من المفكرين المتمكنين من هذه الثقافة، المسهمين في إضاءة سبل أمتهم بنورها، القادرين على تغذية الحضارة العالمية بنصيبهم منها. ولا جدال في أن معرفة الماضي عنصر هام من هذه الثقافة، ولذا كان من الضروري أن نفي بمتطلباتها ونقوم بدورنا فيها. فليس من المعقول، أو من الداعي إلى الرضى والاطمئنان مثلاً، أن يظل إنتاج المستشرقين في دراسة التاريخ العربي وتحقيق وقائعه أقوى من إنتاجنا وأوسع. بل ان من الضروري ـ الملح أيضاً ـ أن تكون لنا القيادة في هذا الأمر الذي هو من أخص شؤوننا: لحسن تفهم ماضينا وسلامة بناء مستقبلنا من جهة، ولإثبات مكانتنا في عالم العلم والثقافة من جهة أخرى. إن طريق العلم هو طريق المستقبل. يصدق هذا على دراسة الماضي مثل ما يصدق على أية دراسة أخرى. فيجب أن نتغلب على كل ما يحوّلنا عنه، ويجعلنا نستسيغ التوهم والتصور ونستسهلهما، ويمنعنا عن البذل الذي يشترطه استكشاف الحقيقة ومجابهة الواقع.

* * *

وهنا تعرض مشكلة يحسن الوقوف عندها بعض الشيء. إن دراسة الماضي دراسة علمية، حسب القواعد التي حاولنا رسمها في الفصول السابقة، تقتضي قسطاً كبيراً من التفرغ والانصراف والتجرد. ورب قائل يقول انها قد تكون شكلاً آخر من أشكال الانصراف عن الحاضر والتهرب منه، فتغدو حتى هي ضرباً من ضروب التأريخ المثقل المؤخر. على أن ثمة فرقاً بين هذا الانصراف والانصرافات الأخرى السابق ذكرها التي تكون عادة مشوبةبالتوهم والتخيل. إن الدراسة العلمية الصحيحة تقبل على الماضي، مثلما تقبل على أي من الموضوعات الأخرى، بعقل متنبه وفكر متيقظ واع. والعقل الواعي لا يخضع لمادته ويستسلم إليها، ولا يكون عبداً لها وأسيراً، بل هو عامل فاعل وله من خواص فعله ومن القواعد التي يتقيد بها والمثل والقيم التي يستلهمها ما يؤهله للتحرر من مادته وللسيطرة عليها. وهذا هو الفرق بين العالم

القابض على موضوعه بالعقل المدرك، وسواه ممن لم يبلغ هذه المرتبة، بل وقف عند حدود التوهم والتخيل، فسطا عليه موضوعه بسطوة وهمه وخياله. وإذا نحن استعرضنا تاريخ البشرية بمختلف مراحله ومظاهره وجدنا ان سبيل الإنسانية إلى التقدم والرقي كان سبيل السيطرة على قوى الطبيعة والأهواء الإنسانية بالعقل المدرك والروح المتسامية الفاعلة، بدلاً من الانسياق لها والخضوع لسيطرتها بجهل حقيقتها أو تجاهلها.

ثم ان الدراسة العلمية المنصرفة إلى استجلاء الماضي تعمل للحاضر وللمستقبل عن طريق إبراز الحقيقة، وتنمية الصفات والمؤهلات التي يتطلبها السعي إليها. ذلك ان سلامة أي بناء حاضر أو مقبل تتوقف على محصل الحقيقة الذي يكون قد اكتسبه وادخره المجتمع الباني، وعلى مقدرة هذا المجتمع على الاستمرار والتقدم في الاكتشاف والتحصيل. فكل حقيقة جديدة نستخرجها، وكل مزية من مزايا العقل المدرك الفاعل ننميها في أنفسنا أو في سوانا، هي حجر من الأحجار الثابتة في البناء الذي نشيده لحاضرنا أو لمستقبلنا. فلا يخيفنّنا كثيراً هذا النوع من الانصراف عن الحاضر الذي تقتضيه دراسة الماضي دراسة علمية. فهو، في نهاية الأمر، من أضمن مقومات الحاضر وأثبت أسس المستقبل.

ولكن ثمة معترضاً يعترض فيقول: ان من المشكلات ما هو أشد إلحاحاً من بعض وأدعى لبذل الجهد وتجميع القوى. أية جدوى لنا مثلاً، في هذا الظرف الخطير من حياتنا، في تحقيق واقعة قديمة كواقعة صفين، أو في تتبع سيرة خليفة أو عالم في العصر العباسي، أو في دراسة جانب من جوانب الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية في فترة معينة من هذا العصر أو ذاك، في حين نجد فيه أنفسنا مدعوين إلى الدفاع عن كياننا وحمايته من الأخطار الخارجية والداخلية وبعثه بعثاً جديداً؟ وفي هذا الاعتراض ما فيه من الوجاهة. ذلك ان من أهم واجبات الأفراد والأمم، في أيام الشدائد والأزمات، أن يميزوا بين المشكلات التي تجابههم وبين الغايات التي تنتصب أمامهم، وأن يستجمعوا جهودهم ويوجهوها نحو الغايات التي تكفل أفضل النتائج وأغزر الفوائد. ولكن الجهد الفردي والقومي يكون فاسداً مختلاً ــ وتتعاظم نتائج فساده واختلاله على مرّ الأيام ــ إذا جرى إلى الغايات الخادعة بدلاً منه إلى الصادقة، أو إذا اكتفى بالقريب منها دون البعيد. ان معرفة الماضي معرفة صحيحة، واتخاذ موقف سليم منه على أساس هذه المعرفة، شرطان ضروريان لحسن التمييز بين الغايات ولدفع المجتمع نحو الصحيح منها دفعاً مجدياً. فيجب أن لا تنكر أو تزدرى خطورتهما، بل أن تصان لهما جبهتهما في الجهاد، المتعدد الجبهات، لحماية الحاضر وإنشاء المستقبل.

لقد قلنا ان مجتمعنا تجتاحه نزعة ثورية تتوق إلى هدم الأوضاع والمفاهيم الفاسدة وإنشاء أوضاع ومفاهيم جديدة أفضل وأقوى. فعسى أن يكون بين المفاهيم التي ننقلب عليها ونسعى إلى التجرد منها كل مفهوم لماضينا يعيقنا عن الفكر الصحيح والعمل الايجابي المنتج ـ في المدى البعيد وفي المدى القريب. وعسى أن تتسرب هذه الثورة إلى أسس الموقف الذي نتخذه من تاريخنا فتخلع عنها سلطة الوهم والسحر والخيال وتخضعها للعقل الفاعل المميز، وتجعل من تاريخنا حافزاً لنا يدفعنا إلى الأمام، وينمي قابلياتنا، ويقوي مقدرتنا على صنع التاريخ الجديد.

إن في تاريخنا من الخوالد والمآثر ما هو كفيل بأن يكون لنا حافزاً على هذا الصنيع الذي نبتغيه. فالذي يتطلبه منّا موقفنا الحاضر الدقيق، بل الذي يتطلبه تاريخنا ذاته، هو أن نكتسب تلك الصفات ونسلك تلك السبل التي تمكنه من هذا الفعل ـ أي أن نتحرى حقيقته وننفذ إلى لبّه ونحرز فضائله، وأن نتخذه نقطة انطلاق لا مجال اكتفاء وانكفاء، فتكون أمانتنا له أمانة حقيقية، أمانة الحياة الصحيحة الفاعلة التي تطمح على الدوام إلى أن تتخطى ذاتها، وتسعد كل يوم بإبداع جديد.

٣ ـ حكمنا في التاريخ

لقد قلنا في ما سبق ان الادراك الصحيح للتاريخ ينتهي إلى الحكم فيه: إلى التمييز بين صحيحه وفاسده، بين ما له وما عليه. وعلى هذا، فإن الموقف الذي نتخذه من تاريخنا لا يكون صحيحاً كاملاً، باعثاً على العمل المجدي لحاضرنا ومستقبلنا، إذا لم يؤد بنا إلى الارتفاع فوقه والحكم في عناصره التي يجب أن نحرص عليها ونحييها ونستوحيها، وتلك التي يجب أن ننفلت منها ونثور عليها ونتخطاها.

وما هو الصالح، وما الفاسد، من عناصر التاريخ؟ من الصعب جداً الإجابة عن هذا السؤال الخطير بجواب عام قاطع. ولكننا قد لا نكون مخطئين كثيراً إذا عدنا هنا إلى ما ذكرناه سابقاً عن العمل التاريخي، واتخذنا صفته الأساسية مقياساً لنا. لقد قلنا هناك أن العمل التاريخي ـ ونعني «بالعمل» هنا الجهد الإنساني بمعناه العام الذي يشمل الفكر والاختبار الروحي كما يشمل التنفيذ والتطبيق ـ هو ذلك النوع من العمل الذي فيه صنع جديد للحياة، وإبداع لمفاهيمها ونظمها وأشكالها. فالسر فيه هو الإبداع، أو بعبارة أخرى هو ما يمثله ويؤدي إليه من تقدم عما جاء قبله. وفي نظرنا ان العناصر الصحيحة في التاريخ الماضي هي تلك «الأعمال» التاريخية التي يتجلى فيها الإبداع والتقدم الصحيحان، والتي تؤلف في مجموعها خلاصة التراث الإنساني الايجابي الباقي. أما العناصر الفاسدة فهي التي تعطل قابليات الفرد أو المجتمع للإبداع والتقدم أو تضعفها، فلا تدخل في صلب هذا التراث الايجابي بل بالعكس تقف في طريق نموه وتكامله وتفسد عليه عمله ومجراه.

ولكن هذا يجرنا حتماً إلى سؤال آخر: ما هو الإبداع، وما هي مظاهره، وما هو التقدم الصحيح وما هي مقاييسه؟؟ وهذا بدوره يقودنا ـ كما قادنا بحثنا من نواحٍ أخرى ـ إلى أحد الأسئلة الهامة التي ينتهي إليها أي بحث فلسفي مهما يكن منطلقه، وهو: ما هو الإنسان؟ ونرى هنا، كما رأينا هناك، أن التعليلات التأريخية، والنظريات الفلسفية، بل مختلف المواقف الفكرية التي يقفها الأفراد والجماعات، تتمايز فيما بينها بكيفية صوغها لهذا السؤال ونوع اجابتها عنه.

إن جوهر الإنسان، في نظرنا، هو قابليته للتحرر ولاكتساب الكرامة الذاتية. فلقد اختاره الله تعالى من بين المخلوقات كلها وغرس فيه البذور التي إذا نميت

بالجهد المتصل والرعاية الساهرة تفتحت وأثمرت حريةً وكرامة. ولكن، هنا أيضاً نتساءل: ما هي الحرية؟ ما هو جوهر هذه الفضيلة التي يدور لفظها على ألسنتنا باستمرار، وبمعانٍ وأشكال مختلفة متضاربة؟ ان للحرية، في نظرنا، وجهين. أحدهما سلبي والآخر ايجابي. أما السلبي فيتمثل في التحرر من القيود التي تفرضها قوى الطبيعة، والقيود الناشئة عن ضعف الإنسان ذاته ونقائص كيانه. فالإنسان الذي تتحكم فيه قوى الطبيعة وتطغى عليه قيودها وحدودها، الإنسان الذي لا يحسن استغلال الموارد الطبيعية في محيطه، ولا يعرف كيف يدرأ عن نفسه الكوارث والآفات المادية، الإنسان الذي يتردى، بنتيجة هذا العجز، في الفقر والمرض ـ هذا الإنسان لا يزال عبداً للطبيعة، لم يكتسب نصيباً هاماً من حريته وكرامته. ومن ناحية ثانية، ان الإنسان الذي يتحكم فيه الجهل، فلا يدرك كنه الأشياء، ولا يميز بين جواهرها وأعراضها، ولا يدرك تفاوت قيمها، أو الذي يخضع لظلم الغير واستبداده واستغلاله راضياً مستكيناً، أو الذي تطغى عليه شهواته وأطماعه فيستعبد سواه ويسخره لأغراضه ـ إن هذا أو ذاك أو ذلك من الناس وأمثالهم ـ أفراداً كانوا أو جماعات أو أمماً ـ لم يتحرروا من نقائص طبيعتهم، ولم يحققوا جوهرهم الإنساني الذي فيه حريتهم وكرامتهم.

إن سبيل هذا التحرر هو الكدّ المتصل والجهاد المستمر: الجهاد للتغلب على قيود الطبيعة وحدودها ولاستثمار مواردها، والجهاد لدفع ظلم الإنسان وعدوانه: الفردي والجماعي، والجهاد للتخلص من النقائص الذاتية العقلية والخلقية والروحية التي تكمن وراء هذه المساوىء والشرور كلها. وإذ يسلك الإنسان هذا السبيل ويتقدم فيه، يتحول تحرره تدريجاً من وجوهه السلبية إلى وجوهه الايجابية، فإذا به لا يكتفي بمجرد الرغبة في التحرر من العوائق والقيود الطبيعية والبشرية، بل يطمح إلى أن يكون هذا التحرر في سبيل غاية تتعدى دائرته الضيقة، وإذا به يميز بين الغايات ويتعدى القريبة السهلة منها إلى البعيدة الشاقة، ويحيا تحت وطأة الضمير والمسؤولية، بل إذا بحريته تنقلب إلى احساس شامل دقيق بالواجب والمسؤولية فينزع إلى أن تكون حياته تجسيداً لها وإعراباً صافياً عن معناها.

والآن نتساءل: ما هي القابليات في الإنسان، التي إذا نماها بالجهاد المتصل، مكنته من سلوك هذا السبيل ومن التقدم في مراحله المتتابعة؟ هذه القابليات هي العقل والروح. فبالعقل يحاول الإنسان أن يدرك الأشياء، وأن يميز بين جواهرها وأعراضها، ويربط بين أسبابها ومسبباتها. بالعقل يلاحظ وينسق، ويستخرج ويستنتج، ويشك ويختبر ويحقق، وينظم ويخطط ويطبق. بالعقل يتخذ هذه وأمثالها من الخطى

التي تسمح له بأن يفهم الطبيعة ويستكشف أسرارها ويتسلط على قواها ومواردها. وبه كذلك يستطيع الإنسان أن يتدرج في ادراك نوازع نفسه وقيود طبيعته، وأن يميز بين الغايات ويصنف القيم، وأن ينفذ إلى مزايا العقل ذاته وفضائله ومآثره، وإلى الحدود التي يقف عندها ويعجز عن تخطيها.

وبالروح يتشوف الإنسان إلى رؤى الجمال ومراقي الخير، ويتسنم الذرى الشامخة التي لا تلوح للعين الناظرة. بالروح يغوص في أعماق كيانه، ويختبر كوامن حياته: يتألم ويفرح، يكفر ويؤمن، ييأس، ويأمل، ينحط ويتسامى، ينقسم بين الشر والخير، يتأرجح بين العدم والوجود، يعيش منفعلاً منقاداً أو مختاراً فاعلاً. ويكون من نتيجة هذا التشوف إلى الرؤى والانجذاب إليها والاقتباس منها، وهذا الاختبار العميق لمكنونات الحياة، آيات الابداع المختلفة في الفن والأدب، ومراتب الرقي الذاتي في الخلق والسلوك والدين.

وتبعاً لهذا يبدو لنا ان أهم المقاييس التي يمكننا بها قدر الابداع والتقدم الحقيقي في حضارة من الحضارات، وبالتالي ادراك العناصر الصحيحة في تلك الحضارة وتمييزها عن العناصر الفاسدة، بحيث نتوصل إلى الحكم فيها وفي التاريخ الذي تجسدت به ـ إن أهم هذه المقاييس هي التالية:

١ ـ مقدار ما بلغته تلك الحضارة في فهم أسرار الطبيعة ودفع غوائلها عن أبناء المجتمع، واستثمار مواردها لخيرهم. وبمعنى آخر: مقدار ما أحرزته من التطور العقلي المنصرف إلى الفهم والتنفيذ، والمتجلي في شتى مظاهر التكنولوجيا والعلم التطبيقي.

٢ ـ ولما كان هذا العلم التطبيقي لا يحصل إلا بجهاد فكري مستمر لمعرفة جواهر الأشياء وعللها، ولتلبية نداء العقل إلى الوقوف على الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها، فإن من مظاهر الابداع في أية حضارة من الحضارات مقدار الذخيرة الصحيحة التي حصلتها من العلم النظري المحقق المنتظم، ومن الاجتهاد الفلسفي الرامي إلى ربط نتائج هذا العلم وسواها من الاختبارات الإنسانية في نظرات شاملة معللة للكون والحياة.

٣ ـ ومن مظاهر هذا الابداع أيضاً ما اكتسبته الحضارة من تطلعها إلى رؤى الجمال وسعيها لاقتناص صوره وجهدها للتعبير عنها، وما تمثل به هذا الكسب كله من أدب رائع وفن ملهم.

٤ ـ وكذلك من مظاهر هذا الابداع ما وعته الحضارة باختبار أبنائها الروحي وجهادهم النفسي من مراتب الخير وغاياته، وما استطاعت تمييزه بين هذه المراتب والغايات، ومقدار ما حققه أبناؤها في تسنم المراتب الرفيعة وبلوغ الغايات الشاقة البعيدة.

٥ ـ ان هذه التحقيقات المبدعة، في ميادين الحق والخير والجمال، هي من نتاج الأفراد والفئات المبدعين. ولكن ثمة نوعاً آخر من الابداع: هو في تعميم هذا النتاج ونشر فضائله بين سائر أبناء المجتمع، ومكافحة كل ما يقف في طريقه، والجهد لتنمية القابليات له والقدرة عليه في نفوس أفراد الشعب، بل في نفوس أبناء الإنسانية جمعاء. ويتجلى هذا الإبداع في ما يحققه هذا الجهاد من نجاح في رفع مستوى المعيشة المادية، وفي مكافحة الطغيان، وفي إحراز الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وفي كفالة العدل ونشر العلم والمعرفة، وسواها من مظاهر التحرير والتنظيم المنصرفة إلى تعميم الفوائد المكتسبة بالجهد العقلي والروحي، وإنماء الصفات المؤهلة لهذا الجهد. فكلما كانت دائرة التنعم بهذه الفوائد أوسع وكلما كان انتشار هذه الصفات أعم، كانت الحضارة أرفع في مراتب الرقي.

ويمكننا أن نعود فنلخص هذه المظاهر كلها بالمظهر الأساسي الذي يعمها وينبث فيها جميعاً، وهو: مرتبة الحرية والكرامة التي بلغها، فكراً وعملاً، الأفراد والفئات المبدعون في المجتمع، ومدى انتشار هذا الفضيلة الإنسانية الأصيلة بين أبنائه وفي سائر جماعاته وطبقاته.

ونعود فنؤكد ان هذه الفوائد والفضائل، التي تتلخص في الحرية والكرامة، إنما هي نتيجة جهد شاق وسعي متماسك. ولذا فإن الحكم في نتاج أية حضارة من الحضارات هو أيضاً حكم في مقدار تنبهها للحاجة إلى هذا الجهد، وفي الصفات التي يتجلى بها جهدها: صدقاً، واستنارة، وشمولاً، واستمراراً.

* * *

إن المآثر الحقيقية لأية حضارة من الحضارات تتألف من المعاني الصحيحة للحرية والكرامة التي تتوصل إلى ادراكها، ومن إسهامها، بالأشكال الخمسة التي ذكرناها وأمثالها، في تحقيق هذه المعاني في حياة أبنائها وعن طريقهم في الحياة الإنسانية عامة. ومجموع هذه المآثر هو «تراث» تلك الحضارة الايجابي الباقي. ولكل حضارة تراثها، وهي تختلف عن سواها من الحضارات بنوع هذا التراث وصحته وضخامته ومقدار تغلغله في الحضارات الأخرى وأثره فيها.

هذا التراث هو الذي يبقى إذا استقطرنا تاريخ أية أمة بحوادثه الجزئية المتعددة ومظاهره المتفرقة. فحري بالأمة أن تسعى إليه، وأن تحرص على استخراجه خالصاً نقياً، لأنه ذخرها الذي يسبغ على حياتها معناها وقيمتها والذي يقويها ويسندها في الملمات ويكون منطلقها لتحقيقات جديدة في الحاضر والمستقبل.

ومن مجموع هذه التراثات، التي ولدتها الحضارات المختلفة، يتألف التراث الإنساني العام. وليس معنى قولنا هذا ان هذا التراث الإنساني هو مجموع اصطناعي لأشياء متفرقة، لا يربطها رابط، وأن التاريخ العالمي يتألف، كما يعتقد البعض، من وحدات حضارية مستقلة تدور كل منها في فلكها الخاص. فما دام العقل الإنساني في جوهره واحداً، وما دامت النزعات الإنسانية تعود إلى أصول متماثلة، وما دامت الشعوب تتلاقى وتتصارع، وتأخذ وتعطي، فلا بد من أن تكون ثمة وحدة أصيلة في التراث الإنساني تشمل خلاصة تحقيقاته ومآثره من ضمن مظاهرها المختلفة وأشكالها المتنوعة. والمؤرخ المدقق الواسع النظر يرى هذه الوحدة في الاختلاف، ويلحظ كيف أن الشعوب جابهت المشكلات الأساسية ذاتها، ومرت في أطوار متشابهة، وكان في معالجات كل منها لهذه المشكلات ـ وما تجلى في هذه المعالجات من إبداع ـ خلاصة تراثها ومقدار إسهامها في الرقي الإنساني العام.

وتتجلى هذه الوحدة بصفة خاصة في المظاهر الحضارية التي هي من نتاج العقل: في العلم والاختراع، وفي انتشار الأفكار وتفاعلها، وفي الجهود الرامية إلى التنظيم السياسي أو الاقتصادي أو الاداري أو غير ذلك. فمن خصائص العقل انتظامه وتماسكه وتكامله. وحيثما وجدت انتظاماً وتكاملاً، فأنت واجد وراءها، ولا شك، عقلاً منتظماً متكاملاً، ينتقل من خطوة إلى التي تليها، ويضع لبنة فوق لبنة. ولذا، فإن وحدة التراث وترابطه وتكامله هي أقوى وأوضح ما تكون في التقليد العلمي، وفي التقليد العقلي بوجه عام. فالسلسلة هنا متماسكة الحلقات، قوية الأواصر، والأمم تختلف فيما بينها بمقدار تلمسها للحلقات التي صاغتها الأمم السابقة وقبضها عليها وإضافة حلقات جديدة إليها. ولا مراء في أن التقدم العجيب الذي نراه في ميادين العلم في العصر الحديث راجع، إلى حد بعيد، إلى اشتداد الصلات بين الشعوب ـ وهذا الاشتداد هو ذاته من آثار تطور العلم ـ وإلى ازدياد إمكانات الاطلاع على النتائج المحصلة وتبادلها، وبالتالي إلى تمكن العقل من أن يستثمر أوفر استثمار ميزاته في التواصل والتكامل والتراكم حتى غزر إنتاجه بهذا الشكل العجيب الذي يبهرنا في هذه الأيام.

هذا من جهة العقل. أما الروح فلا نجدها قابلة لمثل التطور والتقدم اللذين

يلزمان العقل، ولا تنمو نماءها هذا بالتراكم والتكامل. فما تطلعات الفنانين والشعراء، واحداس المتصوفين واختبارات المتعبدين ونزعات سواهم من الجاهدين في مسالك الروح ـ ما هذه اليوم بالضرورة أعظم من سابقاتها في الماضي، أو مرتبطة بها ارتباط النتائج العقلية والاستنباطات العلمية بعضها ببعض. ومع هذا، فهل نقول انها متنافرة متناكرة، وأنه ليس ثمة خيط أو خيوط تجمعها وتشدها بعضاً إلى بعض؟؟ لسنا من الذين يقولون بذلك وإنما نقول بأن المآثر الروحية والأدبية والفنية لأية حضارة من الحضارات، على ما قد يكون بينها من تباعد، متلاقية، متضامنة متماسكة، وانها على اختلاف مظاهرها تؤلف تراثاً موحداً، بل ان المآثر المتعددة المنبثقة من الحضارات المختلفة هي وجوه للتراث الروحي الإنساني الذي يضمها جميعاً.

والناس يختلفون فيما بينهم بمقدار مشاركتهم في هذا التراث بنطاقيه: القومي، والإنساني. فمنهم من ليسوا أبناء أمتهم إلا بالاسم فحسب، لأن جذورهم لا تتصل بالمنابع التي ولدت إبداع أمتهم في الماضي، ولا تتغذى بهذا الإبداع فتتقوى به وتنطلق منه إلى إبداع جديد. ومنهم كذلك من لا يشاركون في التراث الإنساني، فتكون منابعهم ضئيلة محدودة، وثقافتهم ضحلة، وأصالتهم رقيقة هزيلة. بل نقول ان حسن المشاركة في التراث القومي يقتضي المشاركة في التراث الإنساني. ولذا، فكل فرد، وكل أمة، مدعوان إلى أن يتساءلا: ابن من أنا؟ باسم من أتكلم وأحكم؟ ما هو التراث الذي يفعل في فكري وعملي وحياتي؟ ولا شك في أن جدارة كل منا وابداعه يتوقفان على مدى وعيه لهذه الأسئلة وعلى أصالة التراث الذي يتمثل فيها وصحته وضخامته.

* * *

ومن هنا يتبين ان عملية الحكم في التاريخ تنتهي آخر الأمر إلى استخراج التراث الايجابي الذي يتضمنه، وإلى تمييز هذا التراث عن العناصر السلبية الماضية التي أضعفت الابداع وعطلته وأعاقت نمو التراث وامتداد نطاقه وأثره. وعلى هذا، فإن كل شعب حي مدعو، في كل وقت، إلى تقييم تاريخه واستخلاص تراثه. وعملية التقييم والاستخلاص هذه عملية مستمرة لا تتوقف ولا تنتهي، ما دام العقل يستمر في طلب الحقيقة، وما دامت حقيقة الماضي تنكشف له بدرجات ومراحل متتابعة، وبوجوه جديدة.

هذه الحاجة إلى تقييم التاريخ واستخلاص التراث تقوى وتشتد في الأدوار التي تنهض فيها الشعوب إلى حياة جديدة، والتي يعظم فيها أثر قراراتها واختياراتها.

فيجدر بها في هذه الأدوار أن تحرص على سلامة أحكامها وصحة تقييمها، كي تكون الخطى الحاسمة التي تقبل عليها بوحي من هذا التقييم صحيحة الاتجاه مضمونة العواقب. والشعوب العربية هي اليوم في هذا الوضع من التنبه والتحفز والإقدام. فهل هي واعية لتراثها الصحيح، وهل لهذا التراث فعله الحي فيها؟

إننا مدعوون إلى النظر الناقد الحاكم في كل مظهر من مظاهر الحضارة العربية. ومقياسنا، كما ذكرنا، هو مقدار ما كشفت عنه هذه العناصر من معاني الحرية والكرامة وما حققته من هذه المعاني في نفوس أبناء هذه الحضارة. لنأخذ الحياة السياسية مثلاً: إلى أي حد حقق الحكم العربي للذين دخلوا في نطاقه إمكان الفعل السياسي، وسبل المشاركة في بناء الدولة، ووسائل التغلب على العصبيات الضيقة والانسجام في رابطة أوسع منها وأقوى؟ لماذا كان هذا الحكم أسلم وأثمر في أدوار منه في أدوار أخرى؟ بماذا يمتاز عن أنواع الحكم السابقة أو المعاصرة؟ ما هي المعاني الجديدة في السياسة والحكم والإدارة التي تتجلى فيه، والتي دخلت في التراث الإنساني العام، أو التي إذا أحييناها اليوم كان منها فائدة لنا ولسوانا؟

وفي الحياة الاجتماعية: ما هي مظاهر التقدم في هذه الحياة ـ في تلمس حقوق الأفراد والجماعات، وفي صيانة حرمتها، وفي العمل على توسيع مدى حريتها وتعزيز كرامتها؟ ماذا كانت نظرة المجتمع إلى المرأة، وإلى الطبقات المحرومة، وما هو مبلغ جهده لكفالة العدل الاجتماعي وتخفيف أثقال الفقر والمرض والجهل عن عواتق أبناء المجتمع؟ ومن وراء هذا كله، ما نظرة هذه الحضارة إلى الإنسان، وما نصيبها من الصحة، ونصيبها من الخطأ، وماذا كان أثر هذه النظرة في التعامل الاجتماعي، وفي تنمية المواهب والقابليات الإنسانية أو في إضعافها وتعطيلها؟

وفي الحياة العقلية: ما هو جوهر الإبداع العربي في العلم، والفكر، والفلسفة؟ ما هي الإضافات الجديدة التي أضافها إلى التراث العلمي والفلسفي؟ وما هي الصفات التي اكتسبها العلماء والمفكرون فأتاحت هذه الإضافات وهذا الابداع؟ ولماذا قويت هذه الصفات ونما فعلها في أدوار وضعفت وهزلت في أدوار؟ ما هي العوامل التي أدت إلى انطلاق الفكر وحريته وقيامه بفعله الأصيل، وتلك التي قيدته واستعبدته ومنعته من الفعل؟ متى، ولماذا، تغلبت الروح على الحرف فأحيت، ومتى، ولماذا، تغلب الحرف على الروح فقتل؟

وفي الحياة الأدبية والفنية: ما هي الرؤى الجديدة التي رآها أبناء هذه الحضارة العربية، وأي نجاح أصابوا في اقتناصها وتصويرها؟ ما هي مظاهر الروعة والإبداع التي تميزوا بها عن سواهم، والتي يستطيع أن يستلهمها أي إنسان بما هو

إنسان، والتي تتعالى عن ظروف المكان والزمان؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى انكشاف الرؤى، وتجلي الروعة والابداع، والاعراب عن المعاني الإنسانية الأصيلة، وتلك التي نشرت الغشاوات وكثفت الحجب وحالت دون انطلاق النفس إلى الأجواء الرحبة الرفيعة.

وأخيراً، في الحياة الخلقية والروحية: إلى أية أغوار من الاختبار الروحي غاص أبناء هذه الحضارة، وإلى أية مراقٍ من الخير ارتفعوا، إحساساً وفكراً وعملاً؟ ما هي الفضائل التي استجلوها، وتلك التي تجسدت فعلاً في حياتهم؟ وما هي النقائص التي لم يستطيعوا أن يتجردوا منها، أو أن يتعالوا عنها، فظلوا عبيداً لها، وفعلت فعل السوس في بناء مدنيتهم؟ ما هي التطلعات الروحية التي تفوقوا بها على سواهم، والذرى التي تسلقوها، فأصبحت، أو يمكنها أن تصبح، عندما تفهم على حقيقتها، مصدر وحي وإلهام لسواهم من الشعوب؟

هذه وسواها من أعمال التقييم يجدر بنا أن نقبل عليها إذا ما أردنا أن نستخلص جوهر تراثنا القومي الايجابي: هذا الجوهر الذي يجب أن يكون صلتنا الأساسية بماضينا، وعنوان اعتزازنا وفخرنا لأنه مصدر القوة الحقيقية التي تجلت في تاريخنا وخلاصة الكسب الذي أحرزناه والذي شاركنا به في التراث الإنساني العام. والتراث القومي هو أيضاً أفعل حافز لنا في جهاد الحاضر والمستقبل. ذلك ان المعنى الأخير لجهادنا القومي هو في إشاعة الحرية والكرامة في مواطنينا والجهد في إشاعتهما في العالم أجمع. فتراثنا الذي يتضمن اسهامنا الماضي في هذا الميدان الأساسي الإنساني ـ وهذا الاسهام هو خلاصة ابداعنا ـ يغدو منطلقنا إلى الأعمال الإبداعية المقبلة التي نتطلع إليها والتي بها نسهم مجدداً في تقدم البشرية ورقيها.

ومن الواضح ان هذا التقييم لتراثنا القومي لا يكون صحيحاً إلا إذا نظر إلى هذا التراث من ضمن نطاق التراث الإنساني الأوسع. وذلك لأنه، كما قلنا، ليس منفصلاً عما سبقه وعاصره وتلاه، بل اتصل وشارك وتفاعل، وأخذ وأعطى. فأصالته الإبداعية لا تتجلى إلا على ضوء هذا الاتصال والتفاعل. ثم ان هذه الأصالة الإبداعية التي تؤلف جوهره هي قيم إنسانية تهم كل إنسان من حيث هو إنسان وتتعالى عن ظروف المكان والزمان. ولا تبرز هذه القيم واضحة إلا في نطاق التراث الإنساني العام.

ولرب معترض يعترض بأن هذا العمل ـ عمل الحكم والتقييم ـ لا يأتي سليماً إذا لم يبنَ على دراسة علمية نقدية شاملة لتاريخنا، وإننا لم نبلغ بعد من هذه الدراسة مبلغاً يسمح لنا بأن نقوم به. والجواب عن هذا هو أننا لا نفتأ نعود إلى

الماضي ونعتز بمآثره ونستلهم مفاخره ومآتيه، فخليق بنا أن نبدأ تصنيف هذه المآثر والتمييز بينها والفصل بين صحيحها وباطلها، كي يكون عودنا هادياً مرشداً لا خادعاً، وكي يكون استلهامنا منتجاً مثمراً لا مجدباً أو معيقاً معطلاً. ثم ان عمل التقييم هذا هو عمل مستمر لأنه يتوقف على مدى اطلاعنا وشمول معرفتنا، ومع أن الأحكام التي نطلقها اليوم قد تتبدل بظهور حقائق جديدة، فلسنا ـ فيما نعتقد ـ بالغين يوماً نستطيع أن نطلق فيه أحكاماً نهائية لا تتبدل ولا تتغير. فلا يخيفنّنا هذا العمل اذن ما دمنا مخلصين للحقيقة، منفتحي الصدر، مستعدين دوماً لأن نعدل نتائجنا وأحكامنا حسبما يتبين لنا من أضواء جديدة. والمهم في هذا كله أن يتولد فينا نزوع صادق لأن نكون أبناء حقيقيين لماضينا، وورثة الذخيرة الخالصة الباقية من تراثنا. ولا يتيسر لنا هذا إلا إذا عمدنا، باخلاص وبهدي كل ما لدينا من معرفة، إلى الحكم في تاريخنا، فاستوحينا منه الصحيح الباقي الذي بعث على الإبداع الحقيقي، وأدركنا في الوقت ذاته الفاسد المعطل، فانطلقنا من الأول وتعالينا عن الآخر. ولنقل أخيراً ان هذا العمل الحكمي، إذا وفينا شروطه وقمنا بواجباته، يرفعنا عن مجرد الانقياد الطيع للتاريخ، ويغدو هو ذاته مظهراً من مظاهر فعاليتنا الايجابية، ولوناً من ألوان الإبداع الذي نتطلع إليه. والإبداع ـ كما قلنا ـ حقيقة صلتنا بالماضي، وقيمة جهدنا في الحاضر، وجدوى أثرنا في المستقبل.

٤ ـ حكم التاريخ فينا

ادراك الماضي يؤدي إلى الحكم فيه. والحكم في التاريخ ضرورة قومية ومزية فكرية. وهو، بعد، مظهر لوعينا وجدارتنا وفعلنا. ولكننا نخطىء إذا اعتقدنا ان التاريخ ينقاد إلينا انقياداً يسيراً ويرضى بأن نصدر أحكامنا فيه دون أن يكون له حكم فينا. بل انه ليحكم فينا سواء أحكمنا نحن أم لم نحكم.

قال الشاعر الألماني شيلر: «ان تاريخ العالم هو محكمة العالم»، فأصبح قوله مأثوراً، وردده من بعده فريق كبير من الفلاسفة والمؤرخين وسواهم. ونجد هذا القول ذاته عند هيغل الذي جعل منه ركناً من أركان فلسفته التأريخية، وشرح في مواضع متعددة من كتبه كيف أن العقل المطلق، المتجلي، في أشكال التاريخ ومؤسسات المجتمع، هو سيدها والحكم الأخير فيها. وقد شاع الحديث في «حكم التاريخ» في الآونة الأخيرة باشتداد اهتمام الناس، تحت تأثير تطورات المدنية الحديثة، بالحركة والتغير والتقدم وأمثالها من مظاهر الحياة، وبتيقظ الوعي التاريخي بوجه عام. ولم يقتصر هذا الحديث على فلاسفة التاريخ والمؤرخين، بل نجد الإشارة إلى التاريخ وحكمه تتردد في الكتب والمقالات، وتدور على ألسنة الساسة والخطباء، وتنطلق في شتى المناسبات. ولما كانت هذه العبارة ـ حكم التاريخ ـ تستعمل في أحيان كثيرة بمعنى غامض، أو بمعانٍ مختلفة أو متناقضة حسب مفاهيم أصحابها، فإنه يحسن بنا هنا أن نوضح مقصودنا منها والدلالة التي لها عندنا.

يعني التاريخ هنا، أول ما يعني، المستقبل. وفي هذا المعنى ـ أو في ظاهره على الأقل ـ تعارض وتناقض. إذ كيف نطلق على المستقبل لفظة مرادفة للماضي؟ ولكن هذا الغموض أو التعارض الظاهر هو في الواقع دليل آخر على رقة الفاصل القائم بين الماضي والمستقبل، وعلى انطلاق الفكر عفواً من أحدهما إلى الآخر، وعلى التأثير المتبادل باستمرار بينهما.

ان حكم التاريخ هنا معناه حكم الأجيال القادمة: ما ستقوله وما ستكتبه عنا، عن مدى جدارتنا وصحة أفكارنا وأعمالنا وقيمة النتائج التي توصلنا إليها. فكما نحكم نحن اليوم في من سلف، سيأتي من بعدنا خلف يحكم فينا. والإنسان الذي يتهيب حكم التاريخ، إنما يتهيب الأحكام التي ستصدرها هذه الأجيال فيه شخصياً، وفي أمته، وفي الجيل الإنساني الذي ينتمي إليه.

على أن هذا الحكم ليس مقصوراً على الأجيال القادمة، بل ان للماضي أيضاً حكمه. ويتوقف هذا الحكم على مقدار ما يكون الإنسان واعياً لهذا الماضي، نافذاً إلى جوهره، مخلصاً لتراثه. ولكن مَن مِن الماضي هو الذي يحكم؟ ان في الماضي عناصر تتفاوت قيمة ومرتبة. فيه الصالح والطالح، والصحيح والفاسد، والمثمر والمجدب. فمن نختاره منهم ليحكم فينا؟ قد ينقاد بعضنا للضعيف الهزيل الذي لم يبلغ إلا أدنى المراتب فيرتضي حكمه ويكتفي به، ثم تأتي النتائج فتثبت جدب هذا الرضى والاكتفاء. إن الذين يحق لهم أن يحكموا هم الذين أبدعوا، فكراً أو عملاً. هم الذين كشفوا عن معانٍ جديدة للحرية والكرامة الإنسانية أو الذين حققوا هذه المعاني في ذواتهم أو في سواهم من بني الإنسان. وكلما كان إبداعهم أعظم وأرفع، أي كلما كان إسهامهم في استجلاء هذه المعاني أو في تحقيقها أضخم وأجزل، كانوا أكثر أهلية للحكم، وكانت أحكامهم أصح وأبقى.

ونحن إذا استعرضنا الماضي وجدنا فيه قمماً وذرى: قمماً من الفكر والرؤيا والاختبار، وذرى في الكسب الخلقي والتنفيذ العملي والجهاد في سبيل الحرية والكرامة. هذه القمم والذرى تتمثل في الأفراد المبدعين والفئات المبدعة. وليست هذه القمم مستقلة بعضها عن البعض الآخر، أو متباعدة متناكرة، على رغم ما يفصل بينها من فواصل الزمان والمكان، بل هي متعارفة مؤتلفة، يتوق بعضها إلى بعض، ويرتبط بعضها ببعض، وتتفق كلها في تساميها وتعاليها وإبداعها. ولئن هي بلغت درجات متفاوتة من سمو الإبداع، وحققت ألواناً مختلفة منه، فإنها بمجموعها ـ المتكامل في جوهره المتماسك في نتائجه ـ خلاصة التراث الإنساني ولب كسبه ومبلغ رقيه.

وهكذا نعود إلى التراث الإنساني: إلى تحقيقاته المبدعة المتكاملة المتراكمة في تعزيز الحرية والكرامة بمختلف مظاهرهما ـ نعود إليه لنجد فيه، كما تكوّن في الماضي وكما نتصور أنه سيتكوّن في المستقبل، ضمير التاريخ الذي يصدر حكمه فينا، والذي يجب أن يظل ماثلاً أمام أعيننا، مالئاً فؤادنا هيبة وروعة، مشيعاً في نفوسنا روح المسؤولية، حافزاً إيانا على الحياة الجديرة به والجديرة بنا عندما ننتسب إليه ونشارك فيه.

إن نوع حياة الإنسان وإنتاجه وقيمته تتوقف إلى مدى بعيد على من يستلهمه هذا الإنسان وعلى من يتطلع إليه ليحكم فيه وفي أعماله. وكذلك شأن الأمة. فإذا حرصنا على أن يكون حكم التاريخ فينا حكماً صالحاً وأن يكون مشرّفاً لنا رافعاً

لشأننا، وجب علينا أن نسعى إلى القمم، وأن نتهيبها، وأن نحيا تحت وطأة الحكم الذي ننتظر أن تصدره فينا. فليسأل كل منا نفسه، ولنسأل أنفسنا كمجموع: بنور من، ومن أجل من، وخشية حكم من نحن نفكر، ونعمل، ونحيا؟

* * *

ولحكم التاريخ معنى آخر: هو معنى الحياة في اندفاعها وفي ارتباط أسبابها ونتائجها. فالحياة ليست مجموعة صدف ومناسبات وأحداث متناثرة، وإنما لها سننها وقوانينها التي تربط بين أحداثها والتي لا يستطيع الإنسان تجاهلها أو تخطيها دون عقاب له أو لأجياله القادمة. فالأرض القاحلة المهملة لا تنبت شجراً مثمراً، والشر لا يولد الخير، والجهل لا يكشف حقيقة الأشياء، والظلم لا يبقى على الزمن. بل ان للأعمال نتائجها التي إن لم تبدُ عاجلاً فستبدو آجلاً وسيكون فيها وفي فعلها حكم الحياة، أو حكم التاريخ. والمرء أو المجتمع الذي يزري بهذه النتائج ولا يحسب لها حساباً، أو الذي يعتقد أنه لن يكون لها أثر فيه أو في من يأتي بعده، إنما هو جاهل مخطىء، أو ضال مستهتر، ولن ينجو من الحكم الذي سيصدره فيه التاريخ المقبل.

ويقوم هذا المفهوم لحكم التاريخ على معنى إنساني أصيل. وهو ان للمرء حريته واختياره، وأثره الخاص في ما يقدم عليه من فكر وعمل. فلو كان وليد الأسباب والعوامل الطبيعية فحسب، وليس له يد في تحويلها أو توجيهها ــ لو كان كله نتيجة حتمية وليس بشكل من الأشكال فاعلاً مسبباً، لما كان ثمة موجب لأي حكم يصدر فيه، بل لم يكن ثمة من يصدر هذا الحكم. كذلك لو كان مسيراً في حياته كل التسيير مجبراً على كل عمل من أعماله، لضاع معنى الحكم وما يتضمنه من ثواب أو عقاب.

إن حكم التاريخ، بل أي حكم يصدر من أية سلطة، يتنافى مع الحتمية أو الجبرية المطلقة ولا يقوم إلا إذا اعترف للإنسان بحريته واختياره، وبمقدرته على تحقيق هذا أو ذاك من الإمكانات الكامنة في ذاته أو المنفسحة أمامه. وما الخشية التي نحس بها مما سيقوله التاريخ فينا أو مما ستجلبه أعمالنا من نتائج إلا اعترافاً ضمنياً منا بحريتنا الذاتية. وكلما أنمينا بذور هذه الحرية، ووسعنا مجالاتها، بتقدم مقدرتنا العقلية وبتسلطنا على الطبيعة، أصبح فعلنا أقوى وأثرنا أبلغ ومسؤوليتنا أعظم، وغدونا بالتالي أكثر استحقاقاً لحكم التاريخ. وهكذا نرى أن التاريخ وحكمه مرتبطان ارتباطاً متماسكاً محكماً بهذا المعنى الإنساني الأصيل ــ معنى الحرية. فبهذا المعنى ــ بمقدار انكشافه وتجلّيه وتحقيقه في النفس وفي السوى ــ يتلخص جوهر

الجهد الإنساني المتمثل في التاريخ. وبهذا المعنى أيضاً يستطيع الإنسان أن يحكم في التاريخ، وأن يفصل بين التراث الايجابي الباقي الحافز والتراث السلبي الزائل المعيق، كما يصبح هو نفسه خاضعاً لحكم التاريخ بقدرته على الاختيار وعلى الفعل والتأثر، وبما تستتبع هذه القدرة من تبعة ومسؤولية.

* * *

هذه هي المعاني التي تلوح لنا عندما نحاول استنطاق التاريخ واستكشاف إمكانات حكمه فينا وأشكال هذا الحكم. ولنتساءل الآن: في ماذا يحكم التاريخ فعلاً؟

إنه يحكم في نوع مجابهتنا للمشكلات التي تعترضنا، سواء أكانت مشكلات فردية، أم قومية، أم إنسانية. ترى، أندرك هذه المشكلات على حقيقتها وفي جوهرها، أم نخلط بين الأصول والفروع وبين الجواهر والأعراض؟ أننفذ إلى أسبابها العميقة البعيدة، أم نكتفي بالأسباب الظاهرة القريبة؟ أننظر إليها في اطارها الواسع الذي يظهر ارتباطاتنا وتفاعلاتها، أم نحصر نظرنا في حيز ضيق، فيضيق فهمنا ويخطىء؟ ترى أيُحدث تحدي هذه المشكلات أثراً في عقولنا وصدى في نفوسنا، فنسعى لتفهمها تفهماً صحيحاً وننهض لمعالجتها بأوفر ما لدينا من جهد وأبلغ ما نملك من قوة؟

كذلك يحكم التاريخ في الغايات التي ننصبها أمام أعيننا ونتوجه إليها: في مقدار تمييزنا بين أنواع هذه الغايات ومراتبها. فقد لا نرى إلا الغايات السهلة القريبة، أو قد نحس بما هو أبعد منها ولكننا لا نتشوق إليه ولا نسعى لاستكشافه ولا نطمح إلى بلوغه. قد نعيش في الأجواء الواطئة، ولا نلمح ما وراءها، ولا تثور فينا الرغبات في أن نخترقها ونحلق فوقها ونتسامى يوماً بعد يوم، أو لا نقدر على الجهد الذي يتطلبه هذا الاختراق والتحليق والتسامي.

ويحكم التاريخ في نوع الأسئلة التي نسألها. فقد نسأل ولا نتساءل. قد نتوجه بأسئلتنا إلى الطبيعة وإلى الجماعات البشرية التي تحيط بنا. وهنا قد تختلف أسئلتنا صحة وخطأ، وعمقاً وسطحية، واتساعاً وضيقاً، وخطورة وتفاهة. نسأل لنلقى جواباً هيناً قريباً، لأننا نرضى بالهين القريب ولا نطمع في الشاق البعيد أو لا نقوى عليه. وإذا ما تحولنا من الخارج إلى أنفسنا وذواتنا فقد نقوم بمتطلبات التساؤل أو لا نقوم، قد نمتلك الجرأة الضرورية لنقد الذات ومحاسبة النفس أو لا نمتلك، وقد يكون لنا من رجاحة الفكر وصواب الرأي ما يؤهلنا لحسن التساؤل والنقد والحكم على أنفسنا أو لا يكون. ما هي الأسئلة التي تثور في داخلنا وتقض علينا مضجعنا: ما نوعها، وقيمتها، وخطرها، وإلى أي حد هي فعلاً ثائرة مقلقة باعثة؟ هو ذا مجال من المجالات الهامة

التي يحكم فيها التاريخ.

ويحكم التاريخ أيضاً في أصالتنا وعراقتنا: في مدى تبيننا للتراث الباقي من ماضينا القومي والإنساني، وتلمسنا للأعمال المبدعة التي كونته وتكاملت فيه، ونوع الصلة التي تربطنا به، ومقدار أمانتنا له وحرصنا عليه. فأبناء من نحن؟ ما هو الماضي القومي الذي ننحدر منه، ونستقي من منابعه، ونعتز بمآثره ومفاخره؟ ما هي دائرته وما هي حدوده، أين يبدأ وأين ينتهي؟ ثم ما هي حقيقته ولبه وجوهره؟ ما هي وجوه الإبداع التي تجلت فيه، ومعاني الحرية والكرامة التي كشف عنها وحققها، والقيم الايجابية التي يمثلها؟ ما هو التقليد الذي نقبله ونرضى بحكمه وننطلق منه؟ وما هي صفة تعلقنا بماضينا: أهو تعلق وهم وتخيل، أم تعلق إدراك وتمييز؟ وما هو مبلغ تركزنا في الجوهر الباقي من هذا التاريخ؟

وكما أنه يجب أن تكون لنا أصالة قومية قائمة على التركز في التراث القومي الايجابي المبدع والاعتزاز به والاستمداد منه، كذلك يجب أن تكون لنا أصالة إنسانية منبثقة من جذورنا الممتدة إلى أعمق أغوار التراث الإنساني وإلى مختلف جذوره وأشكاله والمستقية من منابع الحق والخير والجمال حيثما كانت. والأفراد والأمم، كما قلنا، يتفاوتون في أصالتهم القومية، وعراقتهم الإنسانية، فتتفاوت بذلك قيمهم الذاتية ونتائج جهودهم ومساعيهم. فحكم التاريخ في أصالتهم وعراقتهم إنما هو حكم في صفة أساسية من صفاتهم وفي مزية فاعلة مؤثرة من مزاياهم.

وكما يحكم التاريخ في مقدار التركز الايجابي في التراث المكتسب، كذلك يحكم في مدى الانطلاق من القيود التي أعاقت الإبداع والتقدم في الماضي والتي تؤلف في مجموعها التقليد السلبي. فثمة تقليد ايجابي يجب أن نتأصل فيه، وثمة تقليد سلبي يجدر بنا، خصوصاً في أدوار التيقظ والنهضة، أن نتحرر منه ونتخطاه. والفرق بين التقليدين هو في الإبداع: ففي التقليد الايجابي تتمثل نتائج الإبداع والتحقيقات في مجالات الحرية والكرامة، والبواعث التي أدت إلى الإبداع والتحقيقة، وفي التقليد السلبي تتمثل العوائق التي أعاقتهما والقيود التي حددتهما والمساوىء والشرور التي أفسدتهما. ان العمل التاريخي الذي تقتضيه النهضة، والذي ليس لها بدونه معنى، هو في الوقت ذاته عمل تركز وانطلاق، وتأصل وتحرر. وفي نوع هذا العمل، بكل من وجهتيه، وبهما معاً، يحكم التاريخ.

إن التمييز بين الايجابي والسلبي من التراث أو التقليد ينطوي على الحكم في عناصر التاريخ. وليكون هذا الحكم من جانبنا صحيحاً يقتضي أن تكون مقاييسنا دقيقة، ومعاييرنا سليمة، وقيمنا خالصة منتظمة. فما هي المقاييس التي نستخدمها في هذا التمييز، ومن أين استمددناها، وكيف صنفناها؟ وما هي القيم التي نتمسك

بها ونتخذها معايير لنا في أحكامنا، وما هو مصدرها أو مصادرها؟ لقد قلنا مثلاً ان مقياس العمل التاريخي هو الابداع، وأن الإبداع بدوره يقاس بمقدار المساهمة في تعزيز الحرية والكرامة، كما أننا قلنا ان للحرية درجات ومراتب. فمن أين جئنا بهذين المقياسين، وكيف نصنف مراتب الحرية؟ لقد استمددنا هذا كله من فهمنا للسعي الإنساني المتمثل في تراثه الايجابي، ومن القمم التي حاولنا أن نستضيء بنورها. فقد نكون أخطأنا الفهم، أو لعلنا أخطأنا النور الذي كان يجب أن نستضيء به. لعله كان يجب أن نخرج من دائرة التراث ذاته لنستمد قيمنا ومقاييسنا وأحكامنا من النظر الفلسفي البحت، أو من الوحي المستقل عن التاريخ المرتفع فوقه، أو من مصدر آخر. في هذا سيحكم التاريخ علينا أو لنا، كما يحكم دوماً في الأفراد والجماعات حسب صدقها وجهدها في تحري منابع القيم وفي صوغ المقاييس والمعايير وتطبيقها.

وأخيراً، يحكم التاريخ في مدى تهيينا لحكمه، أي في مقدار إدراكنا أن للحياة قوانينها التي لا يمكننا أن نستهتر بها أو نتهرب منها، وأن للنتائج أسبابها ومقدماتها، وأن للأفراد والأمم إمكانات الحرية ومجالات الاختيار، وأن ما نحن عليه اليوم هو، إلى حد بعيد، نتيجة الاختيارات التي قام بها أسلافنا، وأن ما ستكون عليه أجيالنا القادمة سيكون إلى حد بعيد أيضاً حصيلة القرارات التي نتخذها في هذه الآونة والخطى التي نقدم عليها والسبل التي نتبعها. ولذا فإن حكم التاريخ هذا هو، في نهاية الأمر، حكم في مقدار إدراكنا لحريتنا ومقدار تحقيقنا لها، وفي مدى ما تصبح هذه الحرية المدركة المحققة تهيباً وشعوراً بالمسؤولية وتصرفاً تحت وطأة هذا الشعور. ولعل هذا هو أخطر الأحكام التي يطلقها التاريخ فينا.

* * *

هذه هي بعض جوانب حياتنا التي تخضع لحكم التاريخ. وثمة جوانب أخرى عديدة تتعلق أو تتأثر بها بمقادير متفاوتة. ذلك ان الحياة هي، كما قلنا، وحدة مترابطة لا يمكن الفصل بين أجزائها ونواحيها. وهذه النواحي التي ذكرناها متصلة بعضها بالبعض الآخر تؤدي الواحدة منها إلى غيرها. فإدراك المشكلات التي تجابهنا مرتبط بنوع الغايات التي نستهدفها، وبطبيعة الأسئلة التي نتساءلها، وهذه كلها تؤثر وتتأثر بمقدار تأصلنا في التاريخ، وتحررنا منه، وحكمنا فيه، والقيم التي نتخذها أسساً لهذا الحكم. وهكذا شأن نواحي حياتنا الأخرى.

وإذا ما حاولنا إرجاع هذه الأمور إلى جذورها، وجدنا لها جذرين رئيسيين، أحدهما عقلي والآخر خلقي. أما العقلي فهو نوع الإدراك الذي نتمتع به: أي الذخيرة العلمية التي جمعناها، كمية وكيفية، مادة وأسلوباً، والصفات التي اكتسبناها في

تحصيلها وقابلية هذه الصفات للنمو والارتقاء. فهذه الذخيرة وهذه الصفات هي التي تؤهلنا لفهم أسرار الطبيعة والتحرر من قيودها واستغلال مواردها، وهي التي تساعدنا على التدرج في معرفة الطبيعة الإنسانية والعلاقات البشرية، وعلى قدر المشكلات التي تجابهنا، وإعادتها إلى جذورها، وتبين نتائجها، والتمييز بين الهام والتافه منها. وهي التي تمكننا أيضاً من تحديد الغايات التي يجب استهدافها، وتعيين القيم التي نتخذها أسساً لأحكامنا، وتصنيف هذه القيم والغايات في مراتبها. ليس هذا فحسب، بل إنها هي التي تعين، آخر الأمر، مقدار صحة نظرنا، ورجاحة فكرنا، وسلامة عملنا، ونوع النتائج التي سيحصدها وطننا والإنسانية في المستقبل، فتحدد بالتالي حكم التاريخ فينا.

أما الجذر الخلقي فهو صدقنا وأخلاصنا: في التشوق إلى الحق، وايثار الخير، والترفع عن الهوى، وفي اكتسابنا الفعلي للقيم التي تبيّناها بإدراكنا العقلي. وليس هذا كله بالأمر الهين، وإنما يتطلب القدر الكثير من جهاد النفس، ومن التروض على الحرمان والمشقة، ومن البذل والتضحية، في سبيل ما نعتقد أنه حق وما نؤمن أنه خير وفضيلة.

وهكذا يصبح حكم التاريخ في جوهره ونهايته حكماً في جدارتنا: جدارتنا العقلية، وجدارتنا الخلقية ـ حكماً في فضائلنا التي تتلخص بمجموعها في مبلغ احرازنا للحرية والكرامة. إذ نعود فنقول ان كرامة أي فرد، أو أية أمة، هي حصيلة الحرية الحقيقية التي يتمتع بها الفرد أو تنعم بها الأمة. وهذه الحرية هي بدورها نتيجة تحقيق القابليات التي يتميز بها الإنسان، وهي قابليات الإدراك العقلي والسمو الخلقي والروحي، والفعل المبدع الناتج عنهما.

* * *

إن التاريخ حاكم جاد لا يهزأ ولا يستهتر، ولا يسمح بأن يهزأ به أو يستهتر. إنه حاكم عدل منصف لا يجور ولا يظلم، ولا يمالىء ولا يداهن. فحري بنا كأفراد، وكأمة، أن نقبل على المهام الجسيمة التي أخذناها على عواتقنا، وقد امتلأت نفوسنا تهيباً لها، ولما تتطلبه، وشاع في صدورنا الإحساس بثقل التبعة وعظم المسؤولية.

إننا الآن في خضم هبة قومية عارمة. لقد وضعنا أمام أعيننا غايات التحرر السياسي، والاتحاد، والعدل الاجتماعي، والكسب الحضاري. وأمامنا قوى هائلة تقف دون تقدمنا إلى هذه الغايات، أو تجرنا نحو غاياتها وتستغلنا لمصالحها. وفي

داخلنا قوى يدفعها الجهل أو التعصب أو الشهوة والأنانية فتشدنا إلى الوراء أو تبث فينا التفرقة والانقسام. وليس لنا من عدة في سبيل التغلب على هذه القوى الخارجية والداخلية إلا مبلغ ما نتحلى به ـ أفراداً وأمة، قادة وجمهوراً ـ من صحة نظر، وسلامة فكر، وحسن تخطيط وتنفيذ، ومن ايمان وصدق، وعزم وبذل وتضحية، وبايجاز: ان ضماننا الوحيد هو ذخيرتنا العقلية والخلقية. هو مقدار ما اكتسبناه من حرية ذاتية: حرية العقل المكتشف المنتظم المنظم المتكامل المتفاعل، وحرية الخلق المتعالي عن الهوى، الصلب المنيع، الدافع إلى أبعد الغايات وأصعب المسالك، المحقق لأصفى معاني الكرامة القومية المغروسة جذورها في الكرامة الإنسانية.

إن ضماننا هو في صدق عزمنا على أن لا نظل منقادين منفعلين، يفعل فينا الغير ويحكم علينا التاريخ، ولا نفعل نحن ولا نحكم. إنه في جلال طموحنا إلى العمل التاريخي المبدع. إنه في حدة توقنا إلى أن يكون حكم التاريخ لنا، لا علينا. إنه، أولاً وأخيراً، في مبلغ تقديرنا لما تتطلبه هذه الغايات الرفيعة من شروط ولما تلقيه من تبعات، وفي صدق استعدادنا للبذل المطلوب. انه في مدى ارتفاعنا إلى مستوى التحدي الرائع الجلل، والرد عليه بما هو أجل وأروع.

ففي هذا التحدي يتجلى واقعنا التاريخي، وفي نوع ردنا عليه تظهر درجة أصالتنا في التاريخ، وتحررنا منه، وتحكمنا فيه، ويتجسد، آخر الأمر، الحكم الذي سيطلقه هو فينا.

فعسى أن تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل ايجابي مستمر، وعسى أن تكون تحدياته لنا دوماً حافزة مستثيرة وردودنا عليها رفيعة مبدعة، وعسى أن نتمكن في هذا الظرف الرهيب من حياتنا من أن نرد على تحديه الضخم الخطير بأصفى ما نمتلك من فكر، وأنفذ ما نقدر عليه من عمل، وأروع ما نحن أهل له من خلق وإبداع.

بهذا يؤدي موقفنا التاريخي الحاضر خير معانيه، ويرتفع إلى أسمى ذراه. بهذا نجل ونعظم، نحن والتاريخ.

فهرس المجلد الأول

(أ)

آراس، رشدي: ٣١٢
الآراميون: ١٠٦ـ ١٠٨
آسيا: ٣٩٥
الابداع التاريخي: ٥٠٧، ٥١٠، ٥١٢، ٥٥١
ابن أنس، مالك: ٣٦٥
ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: ٣٨٤، ٤٠٩
ابن عبد المطلب، أبو طالب: ١٢٢
ابن عيينة، سفيان: ٣٦٥
ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق: ١٢٦
اتحاد الجامعات الأفريقية: ٣٩
اتحاد الجامعات العربية: ٣٩
الاتحاد السوفياتي: ٢٣، ٣٢
الاتحاد العربي: ٢٢٩
اتفاق غزة ـ اريحا (١٩٩٣): ٢٧
اتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩١٦): ١٤
أثينا: ٥٠٧
الأدب التوجيهي: ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨
الأدب العابث: ٢٧٨
أرسطو: ٣٠٦، ٣٠٩، ٤٥٦، ٤٨٠، ٤٨١
الأزمة الاقتصادية: ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧
الأزمة الروحية: ١٧١ـ ١٧٥، ١٧٧، ٢٨٦
الأزمة العالمية: ٢٧٩ـ ٢٨١
الأزمة العربية: ٢٧٣ـ ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٦
الأزهري، أبو منصور: ٣٦٥
الأساليب التعليمية الجديدة: ٣٢٨
اسبانيا: ٢٥١
الاستعمار الصهيوني: ٢١٤
اسرائيل: ٢٧، ٤٢، ٣٢٢، ٣٤٥
الإسلام: ١٩، ٣٥، ١٢٠، ١٢١، ٣٣٦
اضطهاد اليهود: ٢٥١
الاصلاح الكنسي: ٣٠
الأصولية الإسلامية: ٣٣
اغسطينوس (القديس): ٣٨٤
أفريقيا: ٣٩٥
المانيا: ٩٤، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ٢٥١، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٤٧
الامبراطورية الرومانية: ٢٣٨
الامبراطورية العثمانية: ١٤، ٢٤٩
الأمة الإسلامية: ٣٩٣
الأمة الألمانية: ٧٩
الأمة العربية: ٣٧، ٦١ـ ٦٥، ٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٩ـ ٨٥، ٨٨، ٩٣ـ ٩٥، ١١٣، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٢ـ ١٢٥، ١٢٨، ١٣٤، ١٦٤، ١٧٢، ١٨١، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٣، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٣١٥، ٣٢٤ـ ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٦١، ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٤٧، ٥٢٢، ٥٢٦
الأمم المتحدة: ٢٧، ٢٠٣، ٢٢٣، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٩٣
الأمية: ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٠
أميركا: ٣٩٥
الأنثروبولوجيا انظر علم الأجناس
الأندلس: ٣٩٧، ٥٣٠
انكلترا انظر بريطانيا
الإنماء الاقتصادي: ٣٢٧
أوروبا: ١٩، ٣٠، ٢١٧، ٢٥١، ٢٥٤، ٣٩٥، ٥٠٧
ايران: ٢٥٣
ايرلندة الشمالية: ٣٣
ايطاليا: ٩٦، ٩٨، ٩٩، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٤٧

(ب)

بارِتو (ايطالي): ٩٥
بارّس (سياسي فرنسي): ٩٥
باريس: ١٣٠
باكستان: ٣٢
الباليونتولوجيا انظر علم الإحاثة
بترفيلد: ٤٧٤
البحث التأريخي: ٤٢٦، ٤٣٨، ٤٣٩

البحث العلمي: ٤١، ٤٣، ٤٤
بدر، ألبرت: ٣٧٦
البرابرة: ١٣٠، ٢٣٨
برامج التعليم: ٣٣١
برديايف، نقولا: ٣٨٤، ٤٧٤
بركلس: ٥٠٧
برلين: ١٢٩
بريطانيا: ١٤، ١٩، ٢٦، ٩٧، ٩٨، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٣، ٣٩٦، ٤٤٧
بغداد: ٣٩٧
بلاد الشام: ١٤، ٣٩٧
بلجيكا: ٣٣
بلس، دانيال: ١٥
بلس، هاورد: ١٥
بلفور، آرثر جيمس: ١٤، ١٩
البلقان: ٢٢٠
بوش، جورج: ٢٣
بولس الرسول: ٣٦٥
بولونيا: ١٠٠، ٢٢٠
بومة مينرفا (الحكمة): ٣٨٤
بيروت: ١١، ١٤، ١٦ـ ١٨، ٢١٦

(ت)

التاريخ الإسلامي: ٣٩٣
التاريخ العالمي: ٣٩٣
التاريخ العربي: ١٧، ٢١، ٣٨، ٣٦١، ٣٩٧، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٤٠
التاريخ الغربي: ٣٠
التجرد التأريخي: ٤٤٥
التحقيق العلمي: ٤٢٦
التراث الإنساني: ٥٣٩ـ ٥٤٢، ٥٤٥، ٥٤٨
التراث العربي: ٣٤٨
التراث القومي: ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٤٨
التتر: ١٣٠
التحرر السياسي: ٤٠١
التخلف العربي: ٤٧
التربية العربية: ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٣ـ ٣٣٠، ٣٣٢
التربية القومية: ٩١، ٩٤
تركيا: ٩٨، ٢٥٣
التضامن العربي: ٢١٩
التعاون الفكري: ٢٨٤
التعبئة الاقتصادية: ٢١٦، ٢١٧
التعبئة الحربية: ٢١٦، ٢١٧
التعبئة الحسية الارادية: ٢١٥
التعبئة السياسية: ٢١٦، ٢١٧
التعبئة المادية: ٢١٥
التعليل التاريخي: ٤٦٩ـ ٤٧٩
التعليم: ٣٢٤ـ ٣٢٩، ٣٣١، ٣٤٦، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤
ـ انظر أيضاً برامج التعليم
التعليم الابتدائي: ٣٢٥ـ ٣٢٧
تعليم البنات: ٣٢٤
التعليم التجاري: ٣٢٧
التعليم الثانوي: ٣٢٦، ٣٢٧
التعليم الجامعي: ٣٢٦، ٣٢٧
التعليم الزراعي: ٣٢٧
التعليم الصناعي: ٣٢٧
التلعيم الفني: ٢٩٣، ٣٣١، ٣٦٢
التعليم النظري: ٣٢٦
التفكير التأريخي: ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٦ـ ٤٦٦، ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٤، ٥٠٩
التقدمية القومية: ٢٣٠، ٢٣١
التحضر: ٢٦، ٣٧
التنظيم: ٣٠٣، ٣٠٥ـ ٣٠٩، ٣١٢ ـ٣١٥، ٣٢٧
توينبي، أرنولد: ٢٩٠، ٤٧٤
التيار التقليدي: ٣٩٢، ٤٠٤
التيار العلمي: ٤٠٢، ٤٠٤
التيار القومي: ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٨، ٤٠٤
تيير، أدولف: ٩٥

(ث)

الثقافة: ١٤٩، ١٥١ـ ١٥٨، ٣٥٥ـ ٣٦٢، ٣٦٤ـ ٣٦٦
الثقافة الاختصاصية: ٣٥٧، ٣٥٨
الثقافة التأريخية: ٤٣٢، ٤٨٥، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩٠ـ ٤٩٨
الثقافة الحديثة: ١٣٨، ١٤١، ٣٣٣، ٣٣٥ـ ٣٤٥، ٣٤٨
الثقافة العربية: ١١، ٧٣، ١٢٠، ١٢٥، ١٣٠،

١٣١، ١٣٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ٣٥١، ٣٥٣
الثقافة العلمية: ١٣٥، ١٣٩
الثقافة العملية: ٣٥٧، ٤٣٢
الثقافة الغربية: ١٢٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٦٤
الثقافة القديمة: ٣٤٠
ثقافة القرون الوسطى: ٣٣٦، ٣٤٠
الثقافة القومية: ٢٧٨
الثقافة النظرية: ٤٣٢
الثورات العربية: ٢٥٣
ثورة الاتصالات: ٣٣
الثورة الأميركية (١٧٧٤): ٣١
ثورة الحسين بن علي (١٩١٦): ١٤
الثورة الصناعية: ٣٠، ٣٤٢، ٥٢٥
الثورة الفرنسية (١٧٨٩ــ ١٧٩٩): ٣١، ٣٨٤، ٤٥٩
الثيوقراطية: ٢٣٠، ٥٢٣

(ج)

الجامعة الأميركية في بيروت: ١٥، ١٦، ٢٠، ٣٤ــ ٣٦، ٣٩، ٢٦٩، ٣٧٦
جامعة برنستن: ١٧
جامعة الدول العربية: ٢٠١، ٢١٦ــ ٢١٨، ٢٢٩، ٤٣١
الجامعة السورية: ٢٠، ٣٩
جامعة شيكاغو: ١٧
جامعة كولومبيا: ١٧
الجبهة العربية: ٢١٩
جبور، جبرائيل: ٣٧٦
جحا، شفيق: ٣٧٦
جدة: ٥٦
الجراكسة: ١٠٨
جميعة الشبان المسيحيين: ١٠٠
جمعية الشبيبة الإسلامية: ١٠٠
جمعية المعارف الدرزية: ١٠٠
جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية: ١٠٠
الجمهورية العربية المتحدة: ٤٥٧
الجهاد الثقافي: ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧
الجهاد الداخلي انظر الجهاد النفسي
الجهاد السياسي: ١٦٣، ١٨١
الجهاد العربي: ٢٢١، ٢٢٧، ٢٥٨ــ ٢٦٠
الجهاد العقلي: ٣٦٥
الجهاد القومي: ١٩٠، ٣٢٩
الجهاد المقدس: ٢٢٠
الجهاد النفسي: ١٨٢، ١٨٤ــ ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠
الجهد التأريخي: ٤١٤، ٤٢٢، ٤٤٦، ٥٠٩
جيوش الانقاذ: ٢٢٠
الجيوش العربية: ١٤، ٢١٨

(ح)

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: ١٢٦
حائل (السعودية): ١٢٨
الحثيون: ١٠٧
الحجاز: ١٢٩، ٣٩٧
الحرب الاقتصادية: ٢١٩
الحرب الباردة: ٢٣، ٥٢٤
حرب الخليج (١٩٩٠ــ ١٩٩١): ٤٧
حرب الخليج الأولى انظر الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ــ ١٩٨٨)
حرب الخليج الثانية انظر حرب الخليج (١٩٩٠ــ ١٩٩١)
الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ــ ١٩١٨): ١٤، ١٧، ١٩، ٢٤٨، ٢٥٣
الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ــ ١٩٤٥): ٣٤، ٢٢٠، ٢٤٨، ٢٥١، ٤٥٨
الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ــ ١٩٨٨): ٤٧
الحرب العربية الاسرائيلية (١٩٤٨): ٢٠٢
حركة الاستعمار الحديث: ٣٢
الحركة التوحيدية «مازيني»: ٩٥
الحركة القومية الثورية: ٥٢٣، ٥٢٤
حركة القوميين العرب: ٣٤
الحرية: ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠
الحرية الفكرية: ٤٧٨
حزب البعث العربي الاشتراكي: ٣٤
حسيب، خير الدين: ١١
حسين، صدام: ٢٣، ٤٧
حسين، طه: ٦٦، ١٣٠، ٣٩٦
حسين، محمد توفيق: ٣٧٦
الحصري، ساطع: ٣٢٤
الحضارة العربية: ١٤، ٣٨، ٣٩٧، ٥٤١
الحضارة الغربية: ٧٥، ٧٩
الحقيقة التأريخية: ٤٣٣

الحكم التاريخي: ٤٧٩ـ ٤٨٤، ٥١٤، ٥٣٥، ٥٤٤ـ ٥٥١
الحكم الصهيوني: ٥٢٢
الحكومات العربية: ٢٨٥، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٦٤
الحكومة الانكليزية: ٢٥٣

(خ)

خدوري، مجيد: ٥٩، ٦٠
خراسان: ٥٣٠
الخطيب التبريزي: ٣٦٥
الخلفاء الراشدون: ٥٠٧
الخلافة العباسية: ١٣٠

(د)

داروين، تشارلز: ٣٣٩، ٤٥٩
الدعاية الشعبية: ٢١٤، ٢١٧، ٢١٩
الدعاية الصهيونية: ٢٤٧، ٢٥٢
دمشق: ١٣ـ ١٨، ٢٠، ٣٩، ٢١٦
دور المعلمين: ٣٢٥، ٣٣١
دوريات:
ـ البصير: ٥٩
ـ حولية الثقافة العربية: ١٩٣
ـ العمل: ٢٤٧
ـ المعلم الجديد: ٥٩
ـ المقتطف: ١٣٨
ـ الهلال: ٦٥
الدول الانكلوسكسونية: ٢٥٣
الدولة الصهيونية: ٢٠٤، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٩
ديكارت، رينه: ٣٣٩
الديمقراطية: ١٨، ٣٦٣

(ر)

الرابطة الدولية للجامعات المتعاونة واليونسكو: ٢٠، ٣٩، ٤١
رانكه، ليوبولد فون: ٤٠٤، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٨٩
الرجعية: ٢٣٩، ٢٤٣، ٤٠٠
رستم، أسد: ٤٢١
روزفلت، ثيودور: ١٧٨
روسو، جان جاك: ٥٠٧
روسيا: ٢٦، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ٢٢٠، ٢٥٣، ٢٩٢، ٣٩٦، ٤٤٧
روما: ٣٨٤
رينان، إرنست: ١٢٩

(ز)

زكي باشا، أحمد: ١٢٧
زين، زين نور الدين: ٣٧٦

(س)

سارتر، جان بول: ٤٧٤
سعادة، انطون: ٣٤، ٣٥
سقراط: ٣٦٦
السودان: ١٦
سوريا: ١٤، ٣٤، ١٣٩
سوروكين، بيتريم: ٤٧٤

(ش)

شبنجلر، اوزوالد: ٩٥
شبه الجزيرة العربية: ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١٢٨، ١٣٠، ٢٥٠
الشبيبة العربية: ٥٧، ٦٦، ٧٥، ٨٦، ١١٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٣١٢
الشعوب الآرية: ١٠٨
الشعوب التركية المغولية: ١٠٨
الشعوب السامية: ١٠٦، ١٠٨
الشعوبية: ١٢١
الشعور بالمسؤولية: ١٨٨ـ ١٩٠، ٤٤٩
شومان، عبد الحميد: ١١
شهلا، جورج: ٣٧٦
شيبوب، صديق: ٥٩
شيلر (شاعر الماني): ٥٤٤
الشيوعية: ٢٤

(ص)

صانع التاريخ: ٥٠٩، ٥١٢ـ ٥١٤
الصحافة العربية: ٩٨
الصراع العربي ـ الصهيوني: ٢٧، ٤٣
صروف، فؤاد: ٣٧٦

صك الانتداب على فلسطين (١٩٢٢): ١٤، ٢٤٩، ٢٥٣
الصليبيون: ١٠٨
الصهيونية: ١٩، ٢٤، ٢٧، ٤٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٩، ٢٦٩، ٢٩٣، ٣٥٤، ٣٦٣، ٥٢٢

(ض)

ضودج، باير: ١٥

(ط)

الطائفية: ٢٣٠
طعمه، جورج: ٣٧٦

(ع)

عبد الرحمن، أسعد: ١١
عبد الناصر، جمال: ٣٤
العجز العربي: ٢٤
العدل الاجتماعي: ٢٩٦
العدل الاقتصادي: ٢٩٦
العراق: ١٤، ١٦، ٢٣، ٣٤، ٤٧
العروة الوثقى: ١٥
عصبة الأمم: ١٤، ١٩، ٢٤٨، ٢٥٣
عصبة العمل القومي: ٣٤
العصر الأموي: ١٤
عصر التنور: ٤٥٩
العصر الجاهلي: ٣٩٧، ٥٢٨، ٥٣٠
العصر العباسي: ١٤، ٥٣٣
عصر النهضة الحديثة: ٣٩٧
العقاد، عباس محمود: ٣٩٦
العقل التكنيكي: ٣٤٣
العقل الحديث: ٣٣٩
العقل العربي: ٢٨٠، ٣١٥، ٣٤٤
العقل الغربي: ٢٨٠
العقل النظري: ٣٤٣
العلم: ١٥٣ــ ١٥٥
علم الأجناس: ٤١٠، ٤١١
علم الإحاثة: ٤١٠
علم التاريخ: ٤٦
العلم التطبيقي: ٥٣٧
العلم الحديث: ٤١٠، ٤١٢
العلم المتخصص: ١٥٥
العلم النظري: ٥٣٧
العلماء العرب: ٣٤٣
العلمانية: ٣٩٨، ٥٢٣
العلوم الاجتماعية: ٤٠٩، ٤١٦، ٤٤٣
العلوم الطبيعية: ٤٠٩، ٤١٦، ٤١٧، ٤٤٠، ٤٤١
العُلى (السعودية): ١٢٨

(غ)

غاليلو: ٣٣٩
غرناطة: ٣٩٧
غريغوريوس الرابع حداد (البطريرك): ١٣
الغزالي، أبو حامد محمد: ١٥٧، ٣٦٥
الغزو الصهيوني: ١٥
غورو، هنري (الجنرال): ١٤

(ف)

فارس، نبيه أمين: ٣٧٦
فخته: ٩٥
الفرعونية: ٣٤
فرنسا: ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠٩، ٢٢٠، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٤٧
فرّي، جول: ٩٥
الفكر العربي: ٢٨٤
الفكر الغربي: ٣٨٠، ٣٩٤، ٤٥٩
فلسطين: ١٤، ١٦، ١٩، ٤٧، ٤٨، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٢ــ ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٠ــ ٢٥٥، ٢٥٧ــ ٢٦٠، ٢٩٣، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٨٢، ٥٢٢
الفلسفة: ١٥٣ــ ١٥٥
الفلسفة التأريخية المادية: ٣٩٩
فلسفة الغرب: ٧٨
الفلسفة القومية: ٩٥، ٢٧٧
الفن: ١٥٣، ١٥٤
فيصل بن الحسين (الأمير): ١٤
الفينيقية: ٣٤، ٣٥، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩
الفينيقيون: ١٠٦، ١٠٨

(ق)

قانون الجاذبية: ٤٥٩
قباني، محمد: ١١
قبائل الخزر: ٢٥٠
القبائل السامية: ٢٥٠
قبيلة تنوخ: ١٠٧
قبيلة تيم الله بن ثعلبة: ١٠٧
قبيلة عاملة: ١٠٧
القدس: ١٢٨
القضية العربية: ٢١٨، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٤
القضية الفلسطينية: ٢٧، ٤٣، ٢١٨، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٤، ٤٥٧
القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف: ١٢٦
القومية الألمانية: ٩٥
القومية الايطالية: ٩٥
القومية البولونية: ١٠٠
القومية التحديثية: ٣٣
القومية السورية: ٣٥، ٣٩٧
القومية العراقية: ٣٩٧
القومية العربية: ٢٩، ٣٤ــ ٣٧، ٥٩، ٦٨، ٧٢، ١١٧ــ ١٢١، ٢٣٠، ٣٢٣، ٣٢٩، ٣٨٢، ٣٩٦، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٤٧ــ ٤٤٩، ٥٢٢، ٥٢٣
القومية الفرنسية: ٩٥
القومية اللبنانية: ٣٩٧
القومية المصرية: ٣٩٧
القومية اليهودية: ١٠٠
القيسية: ٥٣٠

(ك)

كتب:
ــ الأصنام: ١٢٦
ــ البلدان: ١٠٧
ــ تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٢٦
ــ التهذيب في اللغة: ٣٦٥
ــ على هامش السيرة: ١٣٠
ــ الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم: ١٢٦
ــ الكتاب الأحمر: ٣٥
ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١٢٦
ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر: ١٢٦
كروتشي، بنديتو: ٤٧٦
كسيرر: ٤٧٤
الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد: ١٢٧
الكلية السورية الانجيلية: ١٥
كندا: ٣٣
كوبرنك: ٣٣٩
كولومبيا: ١٧
الكيان العربي: ٢٠٢، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٧ــ ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٧٧، ٣٤٤

(ل)

لبنان: ١٤، ٣٤، ٣٥، ١٠٣، ١٠٥ــ ١٠٩، ١٣٩، ٣١٢، ٣٤٥
اللجنة الاقتصادية لجامعة الدول العربية: ٢١٩
اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية: ٢١٩
لجنة المدارس الأرثوذكسية: ١٠٠
اللغة الانكليزية: ١٦
اللغة العربية: ١٦، ٧٣، ٢٧٨
لندن: ٢١٩

(م)

الماركسية: ٣٩٩ــ ٤٠١، ٤٠٤، ٤٥٩
ماريتان: ٤٧٤
متحف برلين: ١٣٠
متحف اللوفر: ١٣٠
المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ١٣٩
مثودولوجية التأريخ: ٤٢١، ٤٢٢
المجتمع الاسرائيلي: ٢٥
المجتمع الإسلامي: ٤٠٤
المجتمع الأميركي: ١٨
المجتمع التقدمي: ٢٨٧، ٢٨٩ــ ٢٩١، ٢٩٧ــ ٢٩٩، ٣٠١
المجتمع الراكد: ٢٩٠، ٢٩١
المجتمع العربي: ١٢، ١٨، ٢١، ٢٤، ٢٩، ٣٦، ٣٧، ٤٣، ٤٧، ٤٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠ــ ١٩٣، ١٩٥ــ ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٩ــ ٢١١، ٢١٧ــ ٢٢٢، ٢٢٤ــ ٢٢٨،

٢٣٠، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٩١، ٢٩٥، ٣٠٠،
٣٠١، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢١ـ ٣٢٤،
٣٢٦ـ ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٣ـ ٣٤٥،
٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠ـ ٣٦٤،
٣٦٦، ٣٩٣، ٣٩٤، ٥٢١ـ ٥٢٥، ٥٢٧
المجتمع الغربي: ٣٣، ٢٩١
المجتمع المتحرك انظر المجتمع التقدمي
المجتمع المسيحي: ٣٩٣، ٤٠٤
المجتمعات البدائية: ٥٠٥
المجتمعات المتحضرة: ٥٠٥
مجلس الأمن الدولي: ٢٠٣، ٢٥٣، ٢٦٠
مجلس الوصاية: ٢٦٠
محكمة العدل الدولية: ٢٤٩
محمد رسول الله: ١١٧ـ ١٢٢، ١٨١، ١٩٠
مخيمات اللاجئين اليهود: ٢٥١
المدارس: ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٦١، ٣٦٤
المدارس الثانوية: ٣٦١
المدارس المهنية: ٣٢٧
مدرسة الآسية الثانوية: ١٣، ١٥
المدرسة العلمية الحديثة في التأريخ: ٤٤٣
المدرسة الموضوعية: ٤٨٨
المدينة المنورة: ٥٠٧
المرأة العربية: ٨٣، ٨٧ـ ٨٩
المردة: ١٠٧
مركز دراسات الوحدة العربية: ١١
مريام، شارل: ١٠١
المستشرقون: ٤٣١
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن: ١٢٦
المسلمون: ١٢١
المسيحية: ١٩، ٢٥١، ٣٣٦، ٣٩٤
المسيحيون: ١٢١
المشردون العرب: ٢٠٢
المشردون اليهود: ٢٠٢
مشروع انعاش القرى: ١١١، ١١٤ـ ١١٦
المشروع الصهيوني: ٢٢٢
مصر: ٣٤، ٣٩٧
معاوية بن أبي سفيان: ٤٥٩
المعرفة التأريخية: ٤١٥، ٤٨٨، ٤٩٢
المعرّي، أبو العلاء: ٣٦٥
المعلمون: ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٦٢
معهد المخطوطات العربية: ٤٣١
المفاهيم الدينية الإسلامية: ٣٩٤
المفاهيم الدينية المسيحية: ٣٩٤
مفاوضات السلام: ٤٨
المفكرالعربي: ٢٧١ـ ٢٧٧، ٢٧٩ـ ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٦
المفوضية السورية في واشنطن: ٢١
المكتب العربي: ٢١٩
الملوك الرعاة: ١٠٧
المماليك: ١٠٨
منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو): ٢٠، ٤١
منظمة التحرير الفلسطينية: ٢٧
المؤتمر السوري العام (١٩٢٠: دمشق): ١٤
المؤرخون العرب: ٢٧٨، ٤٢٢
المؤرخون الغربيون: ٤٤١
المؤرخون المسلمون: ٤٢١
مؤسسة الدراسات العربية: ٤٤
مؤسسة الدراسات الفلسطينية: ٤٣
مؤسسة عبد الحميد شومان (عمّان): ١١
موراس، شارل: ٩٥
موسوليني، بنيتو: ٩٥
موسن (مؤرخ ألماني): ٤٤٤
ميثاق الأطلنتيك: ٢٤٨
مينكه (مؤرخ ألماني): ٤٥٩

(ن)

النادي الثقافي العربي: ١١
النازية: ٢٥٢
نجم، محمد يوسف: ٣٧٦
النصارى انظر المسيحيون
النظام الاقتصادي العالمي: ١٤٧
النظام الديمقراطي: ٣٥٦، ٣٨١
النظام الرأسمالي: ٢٣
النظام الشيوعي: ٢٣، ٣٨١
النظام العالمي الجديد: ٢٣
النظام النفسي: ١٨٢، ١٨٥، ١٩٠
النظم التربوية البريطانية: ٣٢٤
النظم التربوية الفرنسية: ٣٢٤
النقد التأريخي: ٤٤١، ٤٤٢
النقد الخارجي: ٤٢٤
النقد الداخلي: ٤٢٤

نقد الذات: ٤٩٧
النهضة الأوروبية: ٣٩٤
النهضة العربية: ٢٣٨
النهضة العلمية: ٤٣٠
النهضة القومية: ٢٩، ٦٤، ٦٦، ٨٥، ١١٤- ١١٦، ١٦٣، ١٨٣، ١٩٠، ٢٦٨، ٢٩٣، ٣٨٢، ٤٤٧
نولدكه، ثيودور: ١٢٧، ١٢٩
نيوتن، اسحاق: ٣٣٩، ٤٥٩
نيويورك: ٢١٩

(هـ)

هارون الرشيد: ٣٦٥
هتلر، أدولف: ٩٥
هجرة اليهود: ١٩
هرغرونيه، سنوك: ١٢٩
الهلال الخصيب: ١٠٦، ١٠٧، ٢٥٠
الهند: ٣٢
الهنود الحمر: ٢٥١
هوبر، شارل: ١٢٨
الهيئة العربية العليا: ٢١٩
هيديجر: ٤٧٤
هيغل، فريدريش: ٣٧٩، ٣٨٤، ٤٥٩، ٥٤٤
هيكل، محمد حسين: ٣٩٦

(و)

واحة تيماء (السعودية): ١٢٨
الواقع التاريخي: ٥٥١
الواقع العربي: ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٢، ٣٨٣
واقعة صفين (٦٥٧م): ٥٣٣
الوثائق التأريخية: ٤٢٤، ٤٤١
الوحدة التاريخية: ٤١٦، ٤٦٤
الوحدة العربية: ٤٨، ٥٩، ٦٦، ٨٢، ٢٧٧، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٦٢، ٣٨٢، ٤٤٧
الوطن القومي اليهودي: ١٩
وعد بلفور (١٩١٧): ١٤، ١٧، ١٩، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٣
الوعي التاريخي: ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٤، ٥٠٣، ٥٤٤
الولايات المتحدة الأميركية: ١٦- ١٩، ٢٣، ٢٦، ٣٣، ٤٨، ٩٧، ١٧٨، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٩٢، ٣١٠

(ي)

اليابان: ٧٦
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: ١٠٧
اليمنية: ٥٣٠
اليهودية: ٢٥٠
يوتنغ، يوليوس: ١٢٨
يوغوسلافيا: ٣٢
اليونان: ٢٥٣